

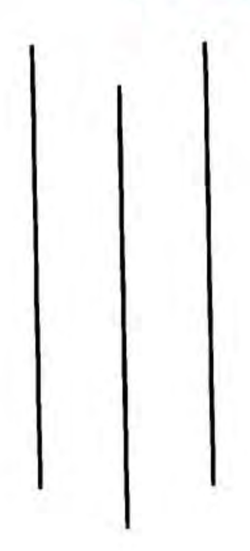
الدكتور علي محمد محمد الصلابي

السيرة النبوية

الجزء الأول

عرض وقائع وتحليل أحداث
دروس وعبر

دار ابن كثير

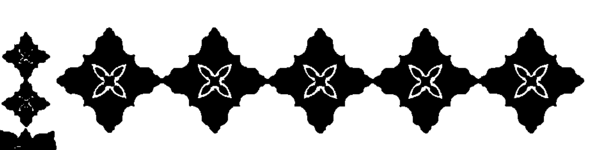


السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

عَرْضُ وَقَائِعَ وَتَحْلِيلُ أَحْدَاثٍ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

الجُزْءُ الأَوَّلُ



الطبعة الثانية

1430 هـ - 2009 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشـق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com



الموضوع: سيرة - تراجم

العنوان: موسوعة السير 1\10

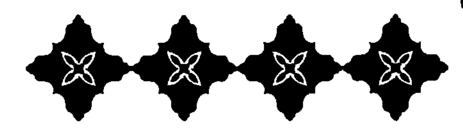
التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الورق: كريم
ألوان الطباعة: لونان
عدد الصفحات: 5558
القياس: 17×24
التجليد: كرتونيه
الوزن: 10 كغ

التنفيذ الطباعي :
مطبعة 53dots - بيروت
التجليد :
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت



ISBN: 978-9953-520-38-4



موسوعة السير 1



السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث
دروس وعبر

الجزء الأول

تأليف
الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير



الإهـــــداء

إلى العلماء العاملين ، والدُّعاة المخلصين ، وطلاَّب العلم المجتهـدين ، وأبناء الأمَّـة الغيـورين أهدي هـذا الكتـاب سائـلاً المولـى عزَّ وجلَّ بأسمائه الحُسْنى وصِفاته العلا؛ أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

يا ربِّ ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك . لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرِّضا .

أمَّا بعد :

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ ؛ من أهمِّها : الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيَّته ﷺ ، وأعماله ، وأقواله ، وتقريراته ، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول ﷺ ، وتُنمِّيها ، وتُباركها ، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم ، والسَّير على نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته ؛ وحتى موته ، مروراً بطفولته ، وشبابه ، ودعوته ، وجهاده ، وصبره ، وانتصاره على عدوِّه ، وتُظهِر بوضوحٍ : أنَّه كان زَوْجاً ، وأباً ، وقائداً ، ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسيّاً ،

ومُرَبِّياً ، وداعيةً ، وزاهداً ، وقاضياً ، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[١] .

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدَّعوة ، ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالنَّاس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق ، والعقبات ، والصعوبات ، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد ، والفتن .

ويجد المربِّي في سيرته ﷺ دروساً نبويـَّةً في التَّربية ، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده ، وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً ، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس ؛ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها .

ويجد القائد المحارب في سيرته ﷺ نظاماً محكماً ، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش ، والقبائل ، والشعوب ، والأمَّة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً ، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً ، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل ، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء ، والرَّاعي والرَّعيَّة .

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان ﷺ يتعامل مع أشدِّ خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، والبغض لرسول الله ﷺ ، وكيف كان يحيك المؤامرات ، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ ؛ لإضعافه ، وتنفير النَّاس منه ، وكيف عامله رسول الله ﷺ ، وصبر عليه ، وعلى حقده ، حتَّى ظهرت حقيقته للناس ؛ فنبذوه جميعاً ، حتى أقرب الناس إليه ، وكرهوه ، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ ﷺ .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى ؛ لأنَّها هي المفسِّرة للقرآن الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول ، وتفسيرٌ لكثير من الآيات ، فتعينهم على فهمها ، والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة ، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة ، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ ، والمنسوخ ، وغير ذلك من العلوم ، وبذلك يتذوَّقون روح الإسلام ، ومقاصده السامية . ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد ، وحقيقته ، ومقصده ، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها ، وطرقها ، ويتعلَّم منها المبتلوْن أسمى درجات الصَّبر والثَّبات ، فتقوى

---

(١) انظر : السِّيرة النبويَّة دراسة وتحليل ، د. محمد أبو فارس ، ص (٥٠) .

عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله ـ عزَّ وجل ـ ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[(١)] .

وتتعلَّم منها الأمَّة الآداب الرَّفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السَّليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسموَّ الرُّوح ، وطهارة القلب ، وحبَّ الجهاد في سبيل الله ، وطلب الشهاد في سبيله ، ولهذا قال عليُّ بن الحسن : «كنا نُعَلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعَلَّم السُّورة من القرآن» ، وقال الواقديُّ : سمعت محمَّد بن عبد الله يقول : سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول : «في علم المغازي علم الآخرة والدُّنيا» .

وقال إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص : «كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله ﷺ ، يعدُّها علينا ، ويقول : هذه مآثر آبائكم ، فلا تضيِّعوا ذكرها»[(٢)] .

إنَّ دراسة الهدي النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين ، من خلال معرفة عوامل النهوض ، وأسباب السُّقوط ، ويتعرَّفون على فقه النَّبيِّ ﷺ في تربية الأفراد ، وبناء الجماعة المسلمة ، وإحياء المجتمع ، وإقامة الدَّولة ، فيرى المسلم حركة النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة ، والمراحل الَّتي مرَّ بها ، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ، وتخطيطه الدَّقيق في الهجرة إلى الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدَّعوة ، وعرضه لها على القبائل في المواسم ، وتدرجه في دعوة الأنصار ، ثمَّ هجرته المباركة إلى المدينة .

إنَّ من تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط ، ودقَّة التنفيذ ، من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها ، يدرك أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة الرَّسول ﷺ قائمٌ ، وأن التخطيط جزء من السُّنَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كلِّ ما طولب به المُسْلمُ .

إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويِّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع ، والبراعة في إدارة كل مرحلة ، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر ، وكيف واجه القوى المضادَّة من اليهود ، والمنافقين ، والكفار ، والنَّصارى ، وكيف تغلَّب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى ، والالتزام بشروط النَّصر ، وأسبابه ، الَّتي أرشد إليها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم .

إنَّ قناعتي راسخةٌ في أن التمكين لهذه الأمَّة ، وإعادة مجدها ، وعزَّتها ، وتحكيم شرع ربِّها منوطٌ بمتابعة الهدي النَّبويِّ . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

---

(١) انظر : مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، ص (١٤) .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢) .

فقد بيَّنت الآية الكريمة : أنَّ طريق التَّمكين في متابعة النبيِّ ﷺ ، فقد جاءت الآيات الَّتي بعدها تتحدَّث عن التمكين ، وتوضِّح شروطه قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٥ ، ٥٦] .

وقد قام رسول الله ﷺ ، وأصحابه بتحقيق شروط التمكين ، فحقَّقوا الإيمان بكلِّ معانيه ، وجميع أركانه ، ومارسوا العمل الصَّالح بكلِّ أنواعه ، وحرصوا على كلِّ أنواع الخير ، وصنوف البرِّ ، وعبدوا الله عبوديةً شاملةً في كلِّ شؤون حياتهم ، وحاربوا الشِّرك بكلِّ أشكاله ، وأنواعه ، وخفاياه ، وأخذوا بأسباب التمكين المادِّيَّة والمعنوية على مستوى الأفراد والجماعة ، حتى أقاموا دولتهم في المدينة ، ومن ثَمَّ نشروا دين الله بين الشُّعوب والأمم .

إنَّ تأخُّر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجةٌ منطقيَّةٌ لقومٍ نسوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركام هائلٍ من الأوهام في مجال العلم ، والعمل على حدٍّ سواءٍ ، وأهملوا السُّنن الرَّبَّانيَّة ، وظنُّوا أنَّ التَّمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام .

إنَّ هذا الضعف الإيماني ، والجفاف الروحي ، والتخبُّط الفكري ، والقلق النَّفسي ، والشَّتات الذِّهني ، والانحطاط الخلقي ؛ الَّذي أصاب المسلمين سببه تلك الفجوة الكبيرة الَّتي حدثت بين الأمَّة ، والقرآن الكريم ، والهدي النبويِّ الشريف ، وعصر الخلفاء الراشدين ، والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد .

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدِّثين باسم الإسلام ، وهم بعيدون كلَّ البعد عن القرآن الكريم ، والهدي النبويِّ ، وسيرة الخلفاء الرَّاشدين ، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة ، ومفاهيم مائعة ؛ نتيجة الهزيمة النفسيَّة أمام الحضارة الغربيَّة ، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ ، ويَلوونها ، ويتحدَّثون السَّاعات الطوال ، ويدبِّجون المقالات ، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة ، والكون ، والإنسان ، ومناهج التغيير ، ولا نكاد نلمس في حديثهم ، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التَّمكين ، وسنن الله في تغيير الشعوب ، وبناء الدول ، من خلال القرآن الكريم ، والمنهاج النبويِّ الشَّريف ، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم ، أو تقصِّياً لتاريخنا المجيد ، فيخرجون لنا عوامل النُّهوض عند نور الدِّين محمود ، أو صلاح الدِّين ، أو يوسف بن تاشفين ، أو محمود الغزنوي ، أو محمَّد الفاتح ، ممن ساروا على الهدي النبويِّ في تربية الأمة ، وإقامة الدَّولة ، بل يستدلُّون ببعض الساسة ، أو المفكرين ، والمثقفين من الشرق أو الغرب ممَّن هم أبعد الناس عن الوحي السَّماوي ، والمنهج الرَّبانيِّ .

وأنا لست ممَّن يعارض الاستفادة من تجارب الشُّعوب والأمم؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن ، فهو أحق بها أنَّى وجدها ، ولكنِّي ضدُّ الَّذين يجهلون ، أو يتجاهلون المنهاج الرَّبانيَّ ، وينسون ذاكرة الأمَّة التَّاريخيَّة المليئة بالدُّروس ، والعبر ، والعظات ، ثمَّ بعد ذلك يحرصون على أن يتصدَّروا قيادة المسلمين بأهوائهم ، وآرائهم البعيدة عن نور القرآن الكريم ، والهدي النَّبويِّ الشَّريف .

وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم رحمه الله :

والله ما خوفي الذُّنوب فإنَّها لعلى طريق العَفْو والغُفْرانِ
لكنَّما أخشى انسلاخ القَلْبِ عَنْ تحكيم هذا الوَحْي والقُرْآنِ
ورضاً بآراء الرِّجال وَخَرْصِهَا لا كان ذاك بمنَّةِ الرَّحمٰنِ

إنَّنا في أشدِّ الحاجة لمعرفة المنهاج النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، ومعرفة سنن الله في الشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وكيف تعامل معها النَّبيُّ ﷺ عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس ، حتَّى نتلمَّس من هديه ﷺ الطريق الصَّحيح في دعوتنا ، والتمكين لديننا ، ونقيم بنياننا على منهجيَّةٍ سليمةٍ ، مستمدَّةٍ أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنَّة نبيِّنا ﷺ قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لقد كان فقه النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة شاملاً ، ومتكاملاً ، ومتوازناً ، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات ، وإحياء الشعوب ، وبناء الدُّول ، فتعامل ﷺ مع هذه السُّنن في غاية الحكمة ، وقمَّة الذَّكاء ، كسنَّة التَّدرُّج ، والتَّدافع ، والابتلاء ، والأخذ بالأسباب ، وتغيير النفوس .

وغرسَ ﷺ في نفوس أصحابه المنهج الرَّبَّانيَّ ، وما يحمله من مفاهيم ، وقيم ، وعقائد وتصوُّراتٍ صحيحةٍ عن الله ، والإنسان ، والكون ، والحياة ، والجنَّة ، والنَّار ، والقضاء ، والقدر ، وكان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثَّرون بمنهجه في التربية غاية التأثُّر ، ويحرصون كلَّ الحرص على الالتزام بتوجيهاته ، فكان الغائب إذا حضر من غيبته؛ يسأل أصحابه عمَّا رأوا من أحوال النَّبيِّ ﷺ ، وعن تعليمه ، وإرشاده ، وعمَّا نزل من الوحي حال غيبته ، وكانوا يتَّبعون خُطَى الرَّسول ﷺ ، في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم ، بل كانوا يلقِّنونه أبناءهم ، ومن حولهم .

ففي هذا الكتاب تقصٍّ لأحداث السِّيرة ، فيتحدَّث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة ، والحضارات السَّائدة ، والأحوال السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والخلقيَّة في زمن البعثة ، وعن الأحداث المهمَّة قبل المولد النَّبويِّ ، وعن نزول الوحي ، ومراحل الدَّعوة ، والبناء التَّصوُّريِّ ، والأخلاقيِّ ، والتَّعبُّديِّ في العهد المكِّيِّ ، وعن أساليب المشركين في

محاربة الدَّعوة ، وعن الهجرة إلى الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء والمعراج ، والطَّواف على القبائل ، ومواكب الخير ، وطلائع النُّور من أهل يثرب ، والهجرة النبوية ، ويقف الكتاب بالقارئ على الأحداث ، مستخرجاً منها الدُّروس ، والعبر ، والفوائد؛ لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر. وتحدَّث الباحث عن حياة النَّبيِّ ﷺ ، منذ دخوله المدينة إلى وفاته ، وبيَّن فقه النَّبيِّ ﷺ في إرساء دعائم المجتمع ، وتربيته ، ووسائله في بناء الدَّولة ، ومحاربة أعدائها في الدَّاخل ، والخارج ، فيقف الباحث على فقه النَّبيِّ ﷺ في سياسة المجتمع ، ومعاهدته مع أهل الكتاب التي سُجِّلت في الوثيقة ، وحركته الجهادية ، ومعالجته الاقتصادية ، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدِّين؛ الَّذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظَّلام ، وعبادة الأوثان ، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال.

وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السِّيرة النَّبويَّة في أذهان الكثير من أبناء الأمَّة ، ففي العقود الماضية ظهرت دراساتٌ رائعةٌ في مجال السيرة النَّبوية ، وكتب الله لها قبولاً ، وانتشاراً ، كالرَّحيق المختوم ، لصفي الدِّين المباركفوري ، وفقه السِّيرة للغزالي ، وفقه السيرة النبوية للبوطي ، والسِّيرة النبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، وكانت هذه الدراسات مختصرةً ، ولم تكن شاملةً لأحداث السِّيرة ، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب ، وظنَّ بعض طلاَّبها: أنَّ من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسِّيرة النَّبويَّة ، وهذا خطأٌ فادحٌ ، وخطيرٌ في حقِّ السِّيرة النَّبويَّة المشرَّفة ، وقد تسرَّب هذا الأمر إلى بعض أئمَّة المساجد ، وبعض قيادات الحركات الإسلاميَّة ، وانعكس ذلك على الأتباع ، فحدث تصوُّرٌ ناقصٌ للسِّيرة عند كثيرٍ من الناس ، وقد حذَّر الشَّيخ محمَّدُ الغزاليُّ من خطورة هذا التصوُّر في نهاية كتابه (فقه السِّيرة) ، فقال: قد تظنُّ: أنَّك درست حياة محمَّد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأٌ بالغٌ. إنَّك لن تفقه السِّيرة حقّاً إلا إذا درست القرآنَ الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيِّ الإسلام ﷺ[1].

ففي هذه الدِّراسة يجد القارئ تسليط الأضواء على البعد القرآنيِّ ، الَّذي له علاقةٌ بالسِّيرة النبويَّة ، كغزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني النَّضير ، وصلح الحديبية ، وغزوة تبوك ، فبيَّن الباحث الدُّروس ، والعبر ، وسنن الله في النَّصر ، والهزيمة ، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النُّفوس من خلال الأحداث والوقائع.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة تُعطي كلَّ جيلٍ ما يفيده في مسيرة الحياة ، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ومُصلحةٌ كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم ، والسِّيرة النَّبويَّة ، فكانت من

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص (٤٧٦).

أفضل أيَّام حياتي ، فنسيت أثناء البحث غربتي ، وهجرتي ، وتفاعلت مع الدُّرر ، والكنوز ، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر ، فعملت على جمعها ، وترتيبها ، وتنسيقها وتنظيمها ، حتى تكون في متناول أبناء أُمَّتي العظيمة ، وقد لاحظت التَّفاوت في ذكر الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، والأحداث بين كُتَّاب السِّيرة قديماً ، وحديثاً ، فأحياناً يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذَّهبيُّ ، ويذكر ابن كثيرٍ ما لم يذكره أصحاب السُّنن ، هذا قديماً .

أمَّا حديثاً ، فقد ذكر السِّباعي ما لم يذكره الغزاليُّ ، وذكر البوطيُّ ما لم يذكره الغضبان ، وهكذا وجدت في التَّفسير ، وشروح الحديث ، كفتح الباري ، وشرح النَّوويِّ ، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كُتَّابُ السِّيرة قديماً ، ولا حديثاً ، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، ونَظَمْتُها في عِقْدٍ جميلٍ يسهل الاطِّلاع عليه ، ويساعد القارئ على تناول تلك الثِّمار اليانعة بكلِّ سهولةٍ .

إنَّ في هذا الكتاب حصيلةً علميَّةً ، وأفكاراً عمليَّة جُمِعت من مئات المراجع ، والمصادر ، وقد أسهم في إخراج هذا الجهد إخوةٌ كثيرون من ليبيا ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والسُّودان ، والسُّعودية ، والإمارات ، وقطر ، وبلاد الشام بالحوار ، والنقاش ، والنَّدوات ، فأفاد بعضهم بالإشارة إلى بعض المراجع ، والمصادر النَّادرة ، وعمل على توفيرها ، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التَّركيز على السُّنن ، والقوانين الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ في حركته المباركة كقانون الفرصة في فتح خيبر ، وفتح مكَّة ، وأشار البعض إلى أهمِّيَّة ربط السِّيرة التَّاريخية بالسِّيرة السُّلوكيَّة، والسِّيرة المعبَّر عنها بحديثٍ شريفٍ ، أو فعلٍ نبويٍّ ، والسِّيرة كما يقرِّرها القرآن الكريم ببعضها، ومزجها في منهجيَّةٍ متناسقةٍ تمدُّ أبناء الجيل بعلمٍ غزيرٍ، وفقهٍ عميقٍ ، وعاطفةٍ جيَّاشـةٍ ، فهي غـذاءٌ للرُّوح ، وتثقيفٌ للعقول ، وحياةٌ للقلوب ، وصفاء للنُّفوس .

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي تحتاج إليها مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فالنَّبيُّ ﷺ لم يلتحق بالرَّفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرةً لمن يريد أن يقتدي به في الدَّعوة ، والتَّربية ، والثَّقافة ، والتَّعليم ، والجهاد ، وكلِّ شؤون الحياة ، كما أنَّ التعمُّق في سيرة الرَّسول ﷺ يساعد القارئ على التَّعرُّف على الرَّصيد الخلقيِّ الكبير ؛ الذي تميَّزَ به رسول الله ﷺ عن كلِّ البشر ، والتَّعرُّف على صفاته الحميدة ﷺ الَّتي عاش بها في دنيا النَّاس ، فيرى من خلال سيرته مصداق قول الشَّاعر :

وَأَجْمَـلُ مِنْـكَ لَـمْ تَـرَ قَـطُّ عَيْنِـي ... وَأَفْضَـلُ مِنْـكَ لَـمْ تَلِـدِ النِّسَـاءُ
خُلِقْـتَ مُبَـرَّأً مِـنْ كُـلِّ عَيْـبٍ ... كَـأَنَّـكَ قَـدْ خُلِقْـتَ كَمَـا تَشَـاءُ

هذا ولا أدَّعي أنِّي أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، فشأن رسول الله ﷺ كبيرٌ ، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفسٍ أرقَّ ، وفقهٍ أدقَّ ، وذكاءٍ أكبر ، وإيمانٍ أعمق ، كما أنَّني لا أدَّعي

لعملي هذا العصمة ، أو الكمال ، فهذا شأن الرُّسل ، والأنبياء ، ومن ظنَّ أنَّه قد أحاط بالعلم ؛ فقد جهل نفسه ، وصدق الله العظيم ؛ إذ يقول : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

فالعلم بحرٌ لا شاطئ له ، وما أصدقَ الشَّاعرَ ؛ إذ يقول :

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً ... حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

يقول الثَّعالبيُّ : لا يكتب أحد كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه ، أو ينقص منه ، هذا في ليلةٍ ، فكيف في سنين معدودةٍ ؟!

وقال العماد الأصبهانيُّ : إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا ؛ لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا ؛ لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا ؛ لكان أفضل ، ولو ترك هذا ؛ لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جملة البشر .

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني ؛ الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب . قال الشاعر :

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ القَوْمِ ذَا عَرَجٍ ... مُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ

فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا ... فَكَمْ لِربِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ

وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأرضِ مُنْقَطِعاً ... فَمَا عَلَى عَرِجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

(سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك)

الفقير إلى عفو ربِّه ، ومغفرته ، ورضوانه

عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

الفصل الأوَّل
أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل
الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[1]:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان، والبلقان، وآسية، وسورية، وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكلَّ إفريقية الشَّمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضَّرائب، وكثرت الاضطرابات، والثَّورات، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو، واللَّعب، والطَّرب، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ، والاستبداد السِّياسيِّ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً، يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم، والرَّقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة، والقهر الشَّديد، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة، وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على الشَّعب المحكوم، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[2].

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض، والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالآتي:

---

(١) ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٣٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٣١.

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم ، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ ، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللَّهو ، واللعب ، والطَّرب ، والتَّرف ، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً ، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى ، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين : لون أزرق ، ولون أخضر ، لقد كانوا يحبُّون الجمال ، ويعشقون العنف ، والهمجيَّة ، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان ، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود ، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون ، والتَّرف ، والمؤامرات ، والمجاملات الزَّائدة ، والقبائح ، والعادات السَّيئة»[١] .

ثانياً : الإمبراطوريَّة الفارسيَّة :

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة ، أو الكِسرويَّة ، وهي أكبر ، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقيَّة ، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة ؛ كالزرادشتية ، والمانِيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي ، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شيءٍ ، ممَّا أدَّى إلى انتشار ثورات الفلاحين ، وتزايد النَّهابين للقصور ، فكانوا يقبضون ، أو يأسرون النِّساء ، ويستولون على الأملاك ، والعقارات ، فأصبحت الأرض ، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل .

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني آدم ؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة ، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك ، يتصرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصوَّر ، ويعيشون عيش البهائم ، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة ، والمعابد فراراً من الضَّرائب ، والخدمة العسكريَّة ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سنين طوالاً بين الفرس والرُّوم ، لا مصلحة للشُّعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ، ورغبات الملوك[٢] .

ثالثاً : الهند :

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً ، وخُلقاً ، واجتماعاً ، وسياسةً ذلك

---

(١) المصدر السَّابق ، ص ٣١.

(٢) انظر : السِّيرة النبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٢ ، ٣٣.

العهد الَّذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي ، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها ، ولا عصمة ، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها ، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب ، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع ، ودستور حياتهم ، وكانت الهند في حالة فوضى ، وتمزُّقٍ ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة ، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ ، يسيطر عليها التزمُّت ، والتَّطرُّف في العادات ، والتقاليد ، والتفاوت الطَّبقيُّ ، والتَّعصب الدَّمويُّ ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ ـ أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند ، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط ، والتَّدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ ، والتَّصوير ، والفنون الجميلة الأخرى»[(١)].

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات ، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ ، وأسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام ، والشراب ، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ، ومدينتهم»[(٢)].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ، ورجال الدِّين ، وهم «البراهمة».

٢ ـ رجال الحرب ، والجنديَّة ، وهم «شترى».

٣ ـ رجال الفلاحة ، والتجارة ، وهم «ويش».

٤ ـ رجال الخدمة ، وهم «شودر» وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يعتقدون ـ من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث ، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ، ومكانةً لا يشاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه ، وأعماله ، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه ، ولا يعاقب بالقتل

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩.

في حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[١].

رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة، والاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهليُّ على العقائد، والأفكار، والتصوُّرات، والنُّفوس، وأصبح الجهل، والهوى، والانحلال، والفجور، والتجبُّر، والتعسُّف من أبرز ملامح المنهج الجاهليِّ المهيمن على دنيا النَّاس[٢].

وضاع تأثير الدِّيانات السَّماوية على الحياة ـ أو كاد ـ بسبب ما أصابها من التَّبديل، والتَّحريف، والتَّغيير، الَّذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصِّراعات العقديَّة النَّظريَّة التي كان سببها دخول الأفكار البشريَّة، والتَّصوُّرات الفاسدة على هذه الأديان، حتَّى أدَّى إلى الحروب الطَّاحنة بينهم، ومَنْ بقي منهم لم يحرِّف، ولم يبدِّل قليلٌ نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة، والعزلة طمعاً في النَّجاة بنفسه يأساً من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف، والأجناس البشريَّة، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء، ففي الجانب الدِّينيِّ تجد النَّاس إمَّا أنَّهم ارتدُّوا عن الدِّين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الدِّيانات السَّماوية، وتبديلها. وأمَّا في الجانب التَّشريعي، فإنَّ النَّاس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريّاً، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل، وتخالف الفطرة.

وتزعَّم هذا الفساد زعماءُ الشُّعوب، والأمم من القادة، والرُّهبان، والقساوسة والدَّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ، وليلٍ بهيمٍ، وانحرافٍ عظيمٍ عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعةً من الطُّقوس، والتَّقاليد لا روح فيها، ولا حياة، وتأثَّرت بعقائد الأمم الَّتي جاورتها، واحتكَّت بها، والَّتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيراً من عاداتها، وتقاليدها الوثنيَّة الجاهليَّة، وقد اعترف بذلك مؤرِّخو اليهود[٣]؛ فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إنَّ سخط الأنبياء، وغضبهم على عبادة الأوثان تدلُّ على أنَّ عبادة

---

(١) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٣٨.

(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون، لسلمان العودة، ص ٥٧.

(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي الحسن النَّدويِّ، ص ٢٠.

الأوثان ، والآلهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين ، ولم تستأصل شأفتها إلى أيَّام رجوعهم من الجلاء ، والنَّفي في بابل ، وقد اعتقدوا معتقداتٍ خرافيَّة ، وشركيَّة . إنَّ التُّلمود أيضاً يشهد بأنَّ الوثنيَّة كانت فيها جاذبيةٌ خاصَّةٌ لليهود»[١] .

إنَّ المجتمع اليهوديَّ قبل البعثة المحمَّدية ، قد وصل إلى الانحطاط العقليِّ ، وفساد الذَّوق الدِّينيِّ ، فإذا طالعت تلمود بابل ؛ الذي يبالغ اليهود في تقديسه ، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السَّادس المسيحيِّ ؛ فستجد فيه نماذج غريبةً من خفَّة العقل ، وسخف القول ، والاجتراء على الله ، والعبث بالحقائق ، والتَّلاعب بالدِّين ، والعقل[٢] .

أمَّا المسيحيَّة : فقد امتُحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، واختفى نور التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء السُّحب الكثيفة[٣] ، واندلعت الحروب بين النَّصارى في الشَّام ، والعراق ، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح ، وطبيعته ، وتحوَّلت البيوت ، والمدارس ، والكنائس إلى معسكراتٍ متنافسةٍ ، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحيِّ في مظاهر مختلفةٍ ، وألوانٍ شتَّى ، فقد جاء في تاريخ المسيحيَّة في ضوء العلم المعاصر :

«لقد انتهت الوثنيَّة ، ولكنَّها لم تلق إبادةً كاملةً ، بل إنَّها تغلغلت في النُّفوس ، واستمرَّ كلُّ شيءٍ فيها باسم المسيحيَّة ، وفي ستارها ؛ فالَّذين تجرَّدوا عن آلهتهم ، وأبطالهم ، وتخلَّوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقَّبوه بأوصاف الآلهة ، ثمَّ صنعوا له تمثالاً ، وهكذا انتقل هذا الشِّرك ، وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشُّهداء المحلِّيِّين ، ولم ينته هذا القرن حتَّى عمَّت فيه عبادة الشُّهداء ، والأولياء ، وتكوَّنت عقيدةٌ جديدةٌ ، وهي : أنَّ الأولياء يحملون صفات الألوهيَّة ، وصار هؤلاء الأولياء والقدِّيسون خلقاً وسيطاً بين الله ، والإنسان ، يحمل صفة الألوهيَّة على أساس عقائد الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى ، وورعها وطُهرها ، وغُيِّرت أسماء الأعياد الوثنيَّة بأسماء جديدةٍ ، حتَّى تحوَّل في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشَّمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[٤] .

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكيَّة الجديدة : «تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحيِّ ، وفكره منذ ربع القرن الرَّابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مُسَلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يُرفع السِّتار عن

---

(١) انظر : السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠ .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢١ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٣ .

تطوُّر عقيدة التَّثليث ، وسرِّها إلا في المنتصف الثَّاني للقرن التَّاسع عشر الميلادي»[١] .

لقد اندلعت الحروب بين النَّصارى ، وكفَّر بعضُهم بعضاً ، وقتل بعضُهم بعضاً ، وانشغل النَّصارى ببعضهم عن محاربة الفساد ، وإصلاح الحال ، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشريَّة[٢] .

وأمَّا المجوس: فقد عُرفوا من قديم الزَّمان بعبادة العناصر الطَّبيعيَّة ، وأعظمها النَّار ، وانتشرت بيوت النَّار في طول البلاد وعرضها ، وعكفوا على عبادتها ، وبنوا لها معابد، وهياكل، وكانت لها آدابٌ، وشرائع دقيقةٌ داخل المعابد ، أمَّا خارجها؛ فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم ، لا فرق بينهم وبين من لا دين له .

ويصف المؤرِّخ الدَّنماركيُّ طبقة رؤساء الدِّين ، ووظائفهم عند المجوس في كتابه: «إيران في عهد السَّاسانيِّين» فيقول: «كان واجباً على هؤلاء الموظَّفين أن يعبدوا الشَّمس أربع مرَّات في اليوم ، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر ، والنَّار ، والماء ، وكانوا مكلَّفين بأدعيةٍ خاصَّةٍ ، عند النَّوم ، والانتباه ، والاغتسال ، ولبس الزنَّار ، والأكل ، والعطس ، وحلق الشَّعر ، وتقليم الأظفار ، وقضاء الحاجة ، وإيقاد السُّرج ، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النَّار تنطفئ ، وألا تمسَّ النَّار ، والماء بعضها بعضاً ، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ؛ لأنَّ المعادن عندهم مقدَّسةٌ»[٣] .

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النَّار ، وقد حلف «يزدجرد» ـ آخر ملوك السّاسانيين ـ بالشَّمس مرَّةً ، وقال: «أحلف بالشَّمس التي هي الإلٰه الأكبر» . وقد دان المجوس بالثَّنويَّة في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، فآمنوا بإلٰهين اثنين: أحدهما: النُّور ، أو إلٰه الخير ، والثاني: الظَّلام ، أو إلٰه الشَّرِّ[٤] .

أمَّا البوذيَّة: في الهند وآسية الوسطى: فقد تحوَّلت إلى وثنيةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ، ونزلت[٥] .

أمَّا البرهميَّة: دين الهند الأصليُّ ، فقد امتازت بكثرة المعبودات ، والآلهة ، وقد بلغت أوْجها في القرن السَّادس الميلاديِّ ، ولاشكَّ: أنَّ الديانة الهندوكيَّة ، والبوذيَّة وثنيتان سواءٌ بسواءٍ .

---

(١) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث (١٤/ ٣٩٥) .

(٢) انظر: فتح العرب لمصر ، تعريب محمَّد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ .

(٣) إيران في عهد السَّاسانيِّين ، ص ١٥٥ ، نقلاً عن السِّيرة النبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٧ .

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٧ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨ .

لقد كانت الدُّنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقةً في الوثنيَّة ، وكأنما كانت المسيحيَّة ، واليهوديَّة ، والبوذيَّة ، والبرهميَّة ، تتسابق في تعظيم الأوثان ، وتقديسها ، وكانت كخيل رهانٍ تجري في حلبةٍ واحدةٍ .

وقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلى عموم هذا الفساد ، لجميع الأجناس ، وجميع المجالات بلا استثناء ، فقد قال ﷺ ذات يوم في خطبته : «ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا؛ كلُّ مالٍ نَحَلْتُه[١] عبداً حلالٌ ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء[٢] كلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم[٣] ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لمْ أُنْزِلْ به سلطاناً ، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم : عربهم ، وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[٤] .

والحديث يشير إلى انحراف البشريَّة في جوانب متعددةٍ ، كالشِّرك بالله ، ونبذ شريعته ، وفساد المصلحين من حملة الأديان السَّماويَّة ، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[٥] .

* * *

---

(١) نحلته : أعطيته . (النِّهاية في غريب الحديث : ٥/ ٢٩) .
(٢) حنفاء : مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد . (النِّهاية : ١/ ٤٥١) .
(٣) اجتالتهم : ذهبت بهم . (النِّهاية : ١/٣١٦) .
(٤) مسلمٌ ، كتاب الجنَّة ، باب الصِّفات الَّتي يعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار ، رقم (٢٨٦٥) .
(٥) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ٥٩ .

المبحث الثَّاني
أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسَّم المؤرِّخون أصول العرب ثلاثة أقسامٍ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[١] منها:

١ ـ العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأُمَيْم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتَّصل بهم، وهذه دَرَسَتْ معالمها، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام، ومصر[٢].

٢ ـ العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[٣]، ويعرفون بعرب الجنوب[٤]، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحِمْيَر[٥].

٣ ـ العرب العدنانيَّة:

نسبة إلى عدنان، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكَّة، وهم: إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة هم الذين تعلَّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيَّة، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النبويَّة، للغضبان، ص ٤٥. وينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٣٨).

(٢) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٤٦).

(٣) فقه السِّيرة، للغضبان، ص ٤٥.

(٤) مدخل لفهم السِّيرة، ص ٩٨.

(٥) السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٤٧).

مثلهم ، ومن أهم ذرِّيَّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبيِّ ﷺ الأعلى ، ومن عدنان كانت قبائل العرب ، وبطونها ، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدٌّ ، ثمَّ نزار ، ثمَّ جاء بعده ولداه مُضَر ، وربيعة .

أمَّا ربيعة بن نزار ؛ فقد نزل مَنِ انحدر مِنْ صلبه شرقاً ، فقامت عبد القيس في البحرين ، وحنيفة في اليمامة ، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت تَغْلب الفرات ، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم في بادية البصرة[١] .

أمَّا فرع مضر : فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة ، وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكَّة ، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وسكنت ذُبيان ، وعبس من تيماء إلى حوران[٢] . وتقسيم العرب إلى عدنانية ، وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب ، وغيرهم من العلماء ، ومن العلماء مَنْ يرى : أنَّ العرب : عدنانيَّة ، وقحطانيَّة ، ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام[٣] .

وقد ترجم البخاريُّ في صحيحه لذلك ، فقال : باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة ، قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم يتناضلون بالسِّهام ، فقال : «ارموا ، بني إسماعيل ، وأنا مع بني فلان» ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم ، فقال : «ما لكم»؟ قالوا : كيف نرمي؛ وأنت مع بني فلان؟ فقال : «ارموا ، وأنا معكم كلِّكم» [البخاري (٣٥٠٧)]. وفي بعض الرِّوايات : «ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً» [البخاري (٢٨٩٩) وأحمد (٤/ ٥٠) وابن حبان (٤٦٩٣)] .

قال البخاريُّ : وأسلمُ بن أَفْصَى بن حارثةَ بن عمرو بن عامر من خُزَاعَةَ ، يعني : أنَّ خزاعة فرقةٌ ممَّن كان تمزَّقَ من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[٤] .

وَوُلِدَ الرَّسول ﷺ من مُضَرَ ، وقد أخرج البخاريُّ عن كليب بن وائل قال : حدَّثتني ربيبة النَّبيِّ ﷺ زينب بنت أبي سلمة ، قال : «قلت لها : أرأيت النَّبيَّ ﷺ أكان من مضر؟ فقالت : فممَّن كان إلا مِنْ مُضَرَ؟ من بني النَّضر بن كنانة» [البخاري (٣٤٩١)] .

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتَّى ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعديٌّ ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصيٍّ بن كلابٍ ، وهي عبد الدَّار بن قصيٍّ ، وأسد بن عبد العزَّىٰ بن

---

(١) مدخل لفهم السيرة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) انظر : الطريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، ص ٤٠ .
(٣) انظر : السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٤٨) .
(٤) انظر : السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٤٨) .

قصيٍّ ، وعبد مناف بن قصيٍّ ، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ، ونوفل ، والمطَّلب ، وهاشم. وبيت هاشم هو الَّذي اصطفى الله منه سيِّدنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ [(١)] .

قال ﷺ : «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥ و٣٦٠٦) وأحمد (٤/١٠٧)] .

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضاراتٌ أصيلةٌ ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ ، من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها ، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار ، والسُّيول التي كانت تضيع في الرِّمال ، وتنحدر إلى البحار ، فأقاموا الخزَّانات ، والسُّدود بطرقٍ هندسيَّة متطوِّرةٍ ، وأشهر هذه السُّدود (سد مأرب) ، واستفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة ، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة ، والثِّمار الشَّهيَّة ، قال عزَّ شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧] .

ودلَّ القرآن الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز ، إلى بلاد الشام ، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام ، فلا يعدمون ظلاًّ ، ولا ماءً ، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨ ـ ١٩] .

٢ ـ حضارة عاد بالأحقاف:

وكانت في شمال حضرموت ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السلام ، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ ، ومصانع متعدِّدةٍ ، وجناتٍ ، وزروع ، وعيون[(٢)] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٧ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٥٠).

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٤] .

٣ـ حضارة ثمود بالحجاز :

دلَّ القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر ، وأشار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال ، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبساتين ، وزروع[١] قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٠] .

وقال فيهم أيضاً : ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ ، ولم يبقَ إلا آثارٌ ورسومٌ وأطلالٌ ، فقد اضمحلَّت القرى ، والمدن ، وخربت الدُّور ، والقصور ، ونضبت العيون ، وجفَّت الأشجار ، وأصبحت البساتين والزُّروع أرضاً جُرُزاً[٢] .

* * *

---

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٥٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٥١) .

المبحث الثَّالث
الأحوال الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة عند العرب

أوَّلاً: الحالة الدِّينيَّة[1]:

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينيٍّ شديدٍ ، ووثنيَّةٍ سخيفةٍ لا مثيل لها ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وفوضى سياسيةٍ ، وتشريعيَّةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم ، وصاروا يعيشون على هامش التَّاريخ ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّة ، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء ، والأجداد ، واتِّباع ما كانوا عليه ، مهما يكن فيه من الزَّيغ ، والانحراف ، والضَّلال ، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام ، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع ، ولكلب: وَدٌّ ، ولمذحج: يَغوث ، ولخيوان: يَعوق ، ولحمير: نَسْر ، وكانت خزاعة ، وقريش تعبدان إسافاً ، ونائلة ، وكانت مناةُ على ساحل البحر ، تعظِّمها العرب كافَّةً ، والأوس ، والخزرج خاصَّةً ، وكانت الّلات في ثقيف ، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[2].

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة ، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة ، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم ، ووضعها في بيوتهم.

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه ، وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ ، ثمَّ جئنا بالشَّاة ، فحلبناه عليه ، ثم طفنا به!!!» [البخاري (٤٣٧٦)].

وقد حالت هذه الوثنية السَّخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى ، وتعظيمه ، وتوقيره ، والإيمان به ، وباليوم الآخر ، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم ، وأعمالهم ، وتصرُّفاتهم ، وجميع جوانب

---

(١) ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٣٩).

(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٦٠.

حياتهم ، وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف ، والتَّغيير ، والتَّبديل ، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة ، والمباهاة ، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات، والأساطير الشَّيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء ، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام ، والنَّحائر ، وغيرها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة ، والدَّم ، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟ أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟
عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ولا صَنَمي بني عَمْرٍو أَزُورُ
ولا غنماً أدينُ وكان رباً لنا في الدَّهر ، إذْ حُلْمي يسيرُ
ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّي ليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[1]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً ، حكيماً ، عاقلاً ، له نباهةٌ ، وفضلٌ ، وكان يدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، وترك عبادة الأوثان ، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت ، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ ﷺ ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة [(١/ ١٠٤ ـ ١٠٥ برقم ٥٥)] عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى مكَّة ـ قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ يدعوكم إلى كلمة الإخلاص ، وعيش الأبد ، ونعيمٍ لا ينفد ، فإن دعاكم؛ فأجيبوه ، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه» ، وقد أدرك النَّبيَّ ﷺ ، ومات قبل البعثة[2].

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الذَّاهبينَ الأوَّليـ ـنَ مِنَ الْقُرونِ لنا بصائرْ
لمَّا رأيتُ مَوارداً لِلْمَوْتِ ليس لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قومي نحوَها يمضي الأصَاغرُ والأكابِرْ
لا يَرْجِعُ الماضي إلـ ـيَّ وَلا مِنَ الباقينَ غابِرْ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/ ١٦٣).

(٢) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (١/ ٨٠).

أيقنـــــــتُ أنّـــــــي لا محـــــــا لــةَ حيــثُ صــارَ القــومُ صــائــرْ[(١)]

كان بعضُ العرب قد تنصَّر ، وبعضهم دخل في اليهوديَّة ، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان ، والأصنام.

ثانياً: الحالة السِّياسيَّة[(٢)]:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدوٍ، وحضر، وكان النِّظام السَّائد بينهم هو النظامَ القبليَّ ، حتَّى في الممالك المتحضِّرة الَّتي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس ، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّسب) ، ووحدة الجماعة ، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة ، على أساسٍ من التَّضامن بينهما في الحقوق والواجبات ، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّك به القبيلة في نظامها السِّياسيِّ ، والاجتماعي[(٣)].

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية ، وصفاته ، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ ، وكرمٍ ، ونحو ذلك ، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ ، وماديَّةٌ ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه ، وتبجيله ، والاستجابة لأمره ، والنُّزول على حكمه ، وقضائه ، وأمَّا الماديَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة ، و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء ، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة ، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله:

لـــك المـــربــــاعُ فينـــا ، والصَّفـــايـــا وحكمُـــك ، والنَّشيطـــةُ ، والفُضـــولُ[(٤)]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف ، ويعقد الصُّلح ، والمعاهدات.

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة ، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب ، يعشقونها ، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها ، ويشيد بمفاخرها ، وأيَّامها ، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً ، أو مُبطلاً ، حتَّى

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٨١).

(٢) ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٠).

(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٦٠).

(٤) انظر : مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول ﷺ ، ص ٣١.

صار من مبادئهم: «انصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً» [البخاري (٢٤٤٣ و٢٤٤٤ و٦٩٥٢) وأحمد (٣/ ٩٩ و٢٠١)].

وكان شاعرهم يقول:

لا يسْـأَلُـونَ أخَـاهُـمْ حِيْـنَ يَنْـدُبُهُـمْ فـي النَّـائبـاتِ عَلَـىٰ مـا قَـالَ بُـرْهَـانـا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَـلْ أَنَـا إلا مِـنْ غَـزِيَّـة إنْ غَـوَتْ غَـوَيْـتُ وإنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ(١)

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السِّياسيَّة، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها، ولعلَّ من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة، حلف الفضول (حلف المطيِّبين)(٢).

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار(٣)، وكانت ـ عـدا هذه الحروب الكبرى ـ تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها، ومؤنها، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس(٤).

ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّـة:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّحاري الواسعة الممتدَّة، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة، إلا في أطرافها، وخاصَّةً اليمن، والشَّام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل، والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم.

وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّفينة التي غرقت بجُدَّة، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة(٥).

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٦١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ. د. محمد قلعجي، ص ٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣، ٣٤، ٣٥.

(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص ٣٥.

(٥) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، ص ٦٠.

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَي الزِّراعة ، والصِّناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق آسية جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة آنذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن ، ولا سيَّما أهل مكَّة ، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة ، وكان لهم - بحكم كونهم أهل الحرم - منزلةٌ في نفوس العرب ، فلا يعرضون لهم ، ولا لتجارتهم بسوءٍ ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشَّام ، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يُتخطَّفون من حولهم ، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ١ - ٤].

وكانت القوافل تحمل الطِّيب ، والبَخُور ، والصَّمغ ، واللُّبان ، والتَّوابل والتُّمور ، والرَّوائح العطريَّة ، والأخشاب ، والعاج ، والأبنوس ، والخرز ، والجلود ، والبرود اليمنيَّة ، والأنسجة الحريريَّة ، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة ، أو يكون مستورداً من خارجها ، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها ، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح ، والحبوب ، والزَّبيب ، والزَّيتون ، والمنسوجات الشَّاميَّة ، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة ، وكان نشاطهم في البرِّ ، وفي البحار ، فسافروا إلى سواحل إفريقية ، وإلى الهند ، وإندونيسية ، وسومطرة ، وغيرها من بلاد آسية ، وجزر المحيط الهندي ، أو البحر العربي كما يُسمَّى ، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام ، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة ، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[١] ، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم ، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر من مئةٍ في المئة[٢].

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ ، ومجنَّة ، وذو المجاز ، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة ، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٨ إلى ١٠١).
(٢) انظر: دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول ﷺ ، ص ١٩.

مضي عشرين يوماً من ذي القعدة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة؛ ذهبوا إلى ذي المجاز ، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة ، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ، ولا أيَّام منى ، حتى جاء الإسلام ، فأباح لهم ذلك ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨] .

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست ، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب ، بل كانت أسواقاً للأدب ، والشِّعر ، والخَطَابة ، يجتمع فيها فحول الشُّعراء ، ومصاقع[١] الخطباء ، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ، ومفاخرهم ، ومآثرهم ، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب ، إلى جانب كونها ثروةً تجاريّة[٢] .

رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة :

هيمنت التَّقاليد ، والأعراف على حياة العرب ، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب ، والأنساب ، وعلاقة القبائل ببعضها ، والأفراد كذلك ، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي :

١ ـ الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب ، والأحساب ، والتفاخر بهما :

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم ، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى ، ولـمَّا جاء الإسلام قضى على ذلك ، وبيَّن لهم : أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى ، والعمل الصالح .

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة ، وسلطانها ، لا سيَّما الشِّعر :

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة ، والأسلوب البليغ ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم ، وأحسابهم ، وأنسابهم ، وديوان معارفهم ، وعواطفهم ، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع ، والشُّعراء الفطاحل ، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، والبيت يخفضها ، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة .

٣ ـ المرأة في المجتمع العربيِّ :

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع ، فقد كانت تورث ، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه ، أو يَعْضُلها عن النِّكاح ، حتى حَرَّم الإسلام

---

(١) المصقَعُ : البليغ يتفنَّن في مذاهب القول.

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ١٠٢).

ذلك ، وكان الابن يتزوّج امرأة أبيه[(١)] ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] .

وكانت العرب تُحرِّم نكاح الأصول كالأمَّهات ، والفروع كالبنات ، وفروع الأب كالأخوات ، والطَّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات ، والعمَّات[(٢)] .

وكانوا لا يورِّثون البنات ، ولا النساء ، ولا الصِّبيان ، ولا يورِّثون إلا من حاز الغنيمة ، وقاتل على ظهور الخيل ، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم ، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ ، وابناً صغيراً ، فجاء ابنا عمِّه : ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كلَّه ، فقالت امرأته لهما : تزوجا البنتين ، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! تُوفِّي أوس ، وترك ابناً صغيراً ، وابنتين ، فجاء ابنا عمِّه : سويد ، وعرفطة فأخذا ميراثه ، فقلت لهما : تزوجا ابنتيه ، فأبيا . فقال ﷺ : «لا تُحَرِّكَا من المِيراث شيئاً» [الدر المنثور؛ للسيوطي (٢/ ٤٣٩)] ونزل قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧][(٣)] .

وكان العرب يعيِّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو ، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها ، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرِّجال ، وإذا ما سُبيت اتُّخذت للوطء ، تتداولها الأيدي لذلك ، بل ربما أُكرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضمَّ سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ، وقد كانت العرب تبيح ذلك ، وقد كان هذا يورث الهمَّ ، والحزن ، والخجل للأب عندما تولد له بنتٌ ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب ، ووأدها حيَّةً ، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى[(٤)] ، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة . قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] .

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر ، أو خشية الفقر ، فجاء الإسلام ، وحرَّم ذلك ،

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٨٧).
(٢) دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول ﷺ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٤٥).
(٤) انظر: دراسة تحليليَّة لشخصية الرَّسول ﷺ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء، كزيد بن عمرو بن نفيل[١].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزَّواج، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها، وحليلها، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصوُّن والتعفُّف[٢].

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السَّيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّتَه، أو ابنته، فيُصْدِقها، ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ آخرُ: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها[٣]: أرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي[٤] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسُّها أبداً، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضعُ منه، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ آخر: يجتمع الرَّهط[٥] ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصيبها[٦]، فإذا حملت، ووضعت، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن

---

(١) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٩٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٨٨).
(٣) الطَّمث: الحيض.
(٤) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.
(٥) الرَّهط: الجماعة دون العشرة.
(٦) يضيبها: يجامعها.

يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها ، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه ، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل.

والنِّكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[1] ، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهنَّ؛ دخل عليهنَّ ، فإذا حملت إحداهنَّ ، ووضعت حملها جُمِعوا لها ، وَدَعوا لهم القافةَ[2] ، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته[3] به ، ودُعي ابنَه ، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمَّد ﷺ بالحقِّ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه ، إلا نكاحَ الناس اليوم» [البخاري (٥١٢٧) وأبو داود (٢٢٧٢)].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرىٰ لم تذكرها عائشة رضي الله عنها ؛ كنكاح الخِدْن ، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لوم ، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّكاح ، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت ، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل: انزل لي على امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، وأزيدك[4].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار ، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ، ليس بينهما صداقٌ[5].

وكانوا يُحلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح ، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدُّ[6] ، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء ، والأكثر ، والأقلُّ ، فقصر ذلك على أربع ؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ ، والعدل بينهنَّ ، فإن خاف عدم العدل؛ فليكتفِ بواحدةٍ ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات ، وكانوا يسيئون عشرتهن ، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام ، فأنصفهن ، وأوصىٰ بالإحسان إليهنَّ في العشرة ، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[7].

---

(١) جاءها: دخل عليها.
(٢) القافة: جمع القائف ، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد.
(٣) فالتاطته: استلحقته به ، وأصل اللوط بفتح اللام: اللصوق.
(٤) فتح الباري (٩/ ١٥٠).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٠).
(٦) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٢٤ ، ٢٥.
(٧) انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٨٨).

٥ ـ الطَّلاق:

كانوا يمارسون الطَّلاق ، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد ، فكان الرَّجل يطلق امرأته ، ثمَّ يراجعها ، ثُمَّ يطلِّقها ، ثم يراجعها هكذا أبداً ، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[١] ، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين ، فإن طلق الثَّالثة ؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح ، ولا تحلُّ لـه إلا بعد نكاح زوج آخر ، ففي الكتاب الكريم: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٣٠] .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ ، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي ، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام ، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ ، وجعل للزَّوج مخرجاً منه ، وذلك بالكفارة[٢] قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المجادلة: ٢ ـ ٤] .

٦ ـ الحروب ، والسَّطو ، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب ، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة ، التي تعارفوا عليها ، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير .

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة ، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب ، وغلبتها على التعقُّل والتفكير؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس ، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة

---

(١) دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩١) .

جَسَّاس بن مُرَّة ، وقد كان كُلَيْبٌ سيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّاً به ، فرأى فيه هذه النَّاقة ، فرماها ، فجزع الجَرْميُّ ، وجزعت البَسُوس ، فلما رأى ذلك جسَّاسٌ تحيَّن الفرصة لقتل كليب ، فقتله ، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً[1] .

وكذلك يوم داحس والغبراء ، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس ، وهو فرسٌ لقيس بن زهير ، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر ، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي ، فإن رأىٰ داحساً قد سبق يردُّه ، وقد فعل ذلك ، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء ، فسبقت الغبراء ، وحصل بعد ذلك القتل ، والأخذ بالثأر ، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس ، وذُبيان[2] .

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس ، والخزرج في الجاهليَّة ، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديِّ ، واستمرَّت الحروب بينهم ، وكان آخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك : أنَّ حلفاء الأوس من اليهود ، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة ، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يُذْكِيهَا اليهود ، حتى يُضعفوا القبيلتين ، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة ، واستعان كلٌّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس[3] .

وكانت بعض القبائل تسطو ، وتغير بغية نهب الأموال ، وسبي الأحرار ، وبيعهم ، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً ، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً ، وقد قضى الإسلام على ذلك ، حتَّى كانت تسير المرأة ، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخافان إلا الله ، والذئب على أغنامهما[4] .

٧ ـ العلم والقراءة والكتـابة :

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ ، وعلمٍ كاليهود ، والنَّصارى ، بل كان يغلب عليهم الجهل ، والأميَّة ، والتَّقليد ، والجمود على القديم وإن كان باطلاً ، وكانت أمَّة العرب لا تكتب ، ولا تحسب ، وهذه هي الصِّفة التي كانت غالبةً عليها ، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب ، ويقرأ ، ومع أمِّيَّتهم ، وعدم اتِّساع معارفهم ؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء ، والفطنة ، والألمعية ، ولطف المشاعر ، وإرهاف الحسِّ ، وحسن الاستعداد ، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة ، والتَّوجيه الرَّشيد ؛ ولذلك لمَّا جاء الإسلام؛ صاروا علماء ، حكماء ، فقهاء ، وزالت عنهم

---

(١) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (١/ ٣١٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٣) .
(٣) التَّاريخ الإسلاميُّ ، د. عبد العزيز الحميديُّ (١/ ٥٥) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٣).

الأمِّيَّة ، وأصبح العلم ، والمعرفة من أخصِّ خصائصهم ، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر ، وهو القِيَافَةُ ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة ، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِب؛ التي اكتسبوها من الحياة ، والبيئة(١) .

خامساً: الحالة الأخلاقيَّة:

كانت أخلاق العرب قد ساءت ، وأولعوا بالخمر ، والقمار ، وشاعت فيهم الغارات ، وقطع الطريق على القوافل ، والعصبيَّة ، والظُّلم ، وسفك الدِّماء ، والأخذ بالثأر ، واغتصاب الأموال ، وأكل مال اليتامى ، والتعامل بالرِّبا ، والسَّرقة ، والزِّنى ، وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء ، وأصحاب الرَّايات من البغايا ، ويندر أن يكون في الحرائر ، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح: «على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين» قالت السيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»(٢) [البخاري (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩)] .

وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا ، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر ، ولا يسفكون الدِّماء ، ولا يظلمون ، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى ، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا(٣) وكانت فيهم سماتٌ ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام ، ومن تلك الخصال ، والسِّمات:

١ ـ الذَّكاء ، والفطنة:

فقد كانت قلوبُهم صافيةً لم تدخلها تلك الفلسفات ، والأساطير ، والخرافات ، التي يصعب إزالتها ، كما في الشُّعوب الهنديَّة ، والرومانيَّة ، واليونانيَّة ، والفارسيَّة ، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود ، وهي دعوة الإسلام الخالدة ، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن ، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء ، إلى حفظ الدِّين ، وحمايته ، فكانت قواهم الفكرية ، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم ، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ ، وجدالٍ بيزنطيٍّ عقيمٍ ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ(٤) .

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم ، وذاكرتهم ، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً ، وللثَّعلب مئتان ، وللأسد خمسُمِئَةٍ ، فإنَّ للجمل ألفاً ، وكذا السَّيف ، وللدَّاهية نحو أربعة آلاف اسمٍ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٤).
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٩٤).
(٤) انظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ١٢.

ولا شكَّ: أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ، حاضرةٍ، وقَّادةٍ[١].

وقد بلغ بهم الذَّكاء، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[٢].

٢ ـ الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته، فيأتيه الضَّيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يُطعم الوحش، والطَّير، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان، وضُرِبت به الأمثال[٣].

٣ ـ الشَّجاعة، والمروءة، والنَّجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش. قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يُقْتَلْ؛ فقد قُتِل أبوه، وأخوه، وعمُّه، إنا ـ والله ـ لا نموت حتفاً، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح، وموتاً تحت ظلال السُّيوف:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلاَ طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَىٰ حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة، وصيانة العِرْض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتُوفَ كأنَّني ... أَصْبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف بمعزِلِ
فَأَجَبْتُهَا إنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ
فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِي ... أنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إنْ لَمْ أُقتلِ[٤]

وقال أيضاً:

لا تَسْقِنِي مَاءَ الحياةِ بذلَّةٍ ... بَلْ فاسْقِنِي بالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ
مَاءُ الْحياةِ بذلَّةٍ كجهنَّمٍ ... وَجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ مَنْزِلِ[٥]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ، ومروءةٍ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف،

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ٣٩، ٤٠).
(٢) انظر: مدخل لفقه السيرة، ص ٧٩، ٨٠.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٩٥).
(٤) ديوان عنترة، ص ٢٥٢.
(٥) ديوان عنترة، د. فاروق الطباع، ص ٨٢.

أو العاجز ، أو المرأة ، أو الشَّيخ ، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه ، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم .

٤ ـ عشقهم للحُرِّيَّة ، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلِّ :

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّيَّة يحيا لها ، ويموت من أجلها ، فقد نشأ طليقاً ، لا سلطان لأحدٍ عليه ، ويأبى أن يعيش ذليلاً ، أو يُمَسَّ في شرفه ، وعرضه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته[1] ، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ ، ويأبون الضَّيْمَ ، والاستصغار ، والاحتقار ، وإليك مثالاً على ذلك :

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه ، وسألهم : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا : نعم ، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك .

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته ، ودعا أمَّه لتزور أمَّه ، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام : ناوليني الطَّبق الذي بجانبك ، فلمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك ، فقالت : لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت ، فصاحت ليلى أم عَمْرِو بن كلثوم : واذُلاَّه! يا لتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب ، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق ، فتناوله ، وضرب به رأس الملك عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب ، وانتهبوا ما في الرُّواق ، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً :

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... نكُونُ لِقَيْلِكُمْ[2] فيها قَطِينا[3]
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... تُطِيعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِيْنَا[4]
تُهَدِّدُنَا وتُوعِدُنَا رُوَيْداً ... مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مقْتَوِينَا[5]
إذا ما الْمَلْكُ سَامَ النَاسَ خَسْفاً ... أبينا أن نُقِرَّ الذُّلَ فينا[6]

٥ ـ الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة ، والوضوح ، والصِّدق :

كانوا يأنفون من الكذب ، ويعيبونه ، وكانوا أهل وفاءٍ ، ولهذا كانت الشَّهادة باللِّسان كافيةً للدُّخول في الإسلام . ويدلُّ على أنفتهم من الكذب ، قصَّة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً ، قال : «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً ؛ لكذبت عنه» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٥) .
(٢) القَيل هو : الملك دون الملك الأعظم .
(٣) القطين هم : الخدم والمماليك .
(٤) تزدرينا : تحتقرنا .
(٥) مقتوينا : خدمة الملوك .
(٦) انظر : شرح المعلَّقات ، للحسين الزّوزني ، ص ١٩٦ ، ٢٠٤ .

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة، ويومئ الإيماء، فهي وَلْثٌ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروج نفسه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض، فيكون رهناً بدينه، فلا يُغْلَق رهنه، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا قرابةٍ، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله»[(١)].

والوفاء خلقٌ متأصِّلٌ بالعرب، فجاء الإسلام، ووجَّهه الوجهة السَّليمة، فغلَّظَ على من آوى مُحْدِثاً، مهما كانت منزلته، وقرابته. قال ﷺ: «لعن اللهُ من آوى محدِثاً» [مسلم (١٩٧٨) والنسائي (٧/ ٢٣٢)]، ومن القصص الدَّالة على وفائهم[(٢)]: «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب»[(٣)] في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة، وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجزَّ ناصيته، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار[(٤)].

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته، وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشَّيبانيِّ، ورحل إلى كسرى، فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النُّعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله، فجمع هانئ قومه آل بكرٍ، وخطب فيهم، فقال: «يا معشرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر، المنيَّة ولا الدَّنيَّة، استقبال الموت خير من استدباره، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا آل بكر! قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ»[(٥)]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار، والمهانة، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦ ـ الصَّبر على المكاره، وقوَّة الاحتمال، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع. قال شاعرهم:

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، ص ٩٠.

(٣) معناه: كن كفأ لشسع نعليه، وباء الرجل بصاحبه: إذا قتل. انظر: لسان العرب لابن منظور.

(٤) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، ص ٩١.

(٥) تاريخ الطَّبريِّ عن يوم ذي قار (٢/ ٢٠٧).

إذا مُـدَّتِ الأيـدِي إلـى الـزَّادِ لَـمْ أَكُـنْ   بِـأَعْجَلِهِـمْ إذْ أَجْشَـعُ الْقَـومِ أعْجَـلُ[(١)]

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره ، والصَّبر في الشَّدائد ، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّحراويَّة الجافَّة ، قليلة الزَّرع ، والماء ، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة ، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة ، ولم يتأثَّروا بالحرِّ ، ولا بالبرد ، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولمَّا دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكانوا يرضون باليسير ، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه ، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[(٢)].

٧ ـ قوَّة البدن ، وعظمة النَّفس :

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس ، وقوَّة الرُّوح ، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب ، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام .

٨ ـ العفو عند المقدرة ، وحماية الجار :

وكانوا ينازلون أقرانهم ، وخصومهم ، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم ، وتركوهم ، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى ، وكانوا يرعون حقوق الجيرة ، ولا سيَّما رعاية النِّساء ، والمحافظة على العرض . قال شاعرهم :

وَأَغُـضُّ طَـرْفِـي إنْ بَـدَتْ لـي جَـارَتـي   حَتَّـى يُـوَارِي جَـارتـي مَـأْواهَـا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه ، وربما ضحَّوا بالنَّفس ، والولد ، والمال في سبيل ذلك .

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب ، فجاء الإسلام ، فنمَّاها ، وقوَّاها ، ووجَّهها وجهةَ الخير ، والحقِّ ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّحارى ، كما تنطلق الملائكة الأطهار ، ففتحوا الأرض ، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً ، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل ، وخيراً بعد أن طفحت شراً[(٣)].

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع ، مقارنةً بالفرس ، والرُّوم ، والهنود ، واليونان ، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم ،

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ٣٧٧).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٦ ، ٩٧).
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٧).

ومعارفهم ، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم ، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم ، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم ، وخيالهم ، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه ، وما هم فيه من علوم ، ومعارف ، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة ، وحرِّيَّة الضَّمير ، وسموِّ الرُّوح[١] .

* * *

(١) انظر : نظرات في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، ص ١٤ .

المبحث الرَّابع
أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشريّة ويكرم الإنسانيَّة ، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب ﷺ . وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ، ونشأته العزيزة ، ورعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له قبل نزول الوحي عليه ، وسيرته العطرة قبل البعثة ، نريد أن نتحدَّث عن الآيات العظيمة ، والأحداث الجليلة ؛ الَّتي سبقت ميلاده ﷺ ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح .

إنَّ من سنن الله في الكون : أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة ، والضِّياء يكون بعد الظَّلام ، واليُسر بعد العُسر[١] .

ومن أهمِّ هذه الأحداث :

أولاً : قصَّة حفر عبد المطَّلب جدِّ النَّبيِّ ﷺ لزمزم :

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيِّم (صحيح السيرة النَّبويَّة) ، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطَّلب لزمزم من حديث عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال : «قال عبد المطَّلب : إنِّي لنائمٌ في الحِجْر ، إذْ أتاني آتٍ ، فقال لي : احفر طَيْبة[٢] . قلت : وما طَيْبة؟ قال : ثمَّ ذهب عني .

قال : فلمَّا كان الغد ؛ رجعت إلى مَضْجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر بَـرَّة[٣] ، قال : قلت : وما بَـرَّة؟ قال : ثمَّ ذهب عنِّي .

فلمَّا كان الغدُ ؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر المضنونة[٤] . قال : قلت : وما المضنونة؟ قال : ثمَّ ذهب .

---

(١) انظر : هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٥١ .

(٢) طيبة : مشتقة من الطِّيب ، وبه سمِّيت المدينة .

(٣) برَّة : مشتقة من البرِّ ، والبرُّ : هو الخير والطَّهارة .

(٤) المضنونة : الغالية النَّفيسة التي يضنُّ بمثلها ؛ أي : يُبخل .

فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِفُ أبداً ، ولا تُذَمُّ[١] ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفَرْث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم[٢] ، عند قرية النَّمل[٣].

قال ابن إسحاق: فلمَّا بُيِّن له شأنُها ، ودُلَّ على موضعها ، وعَرَف أنَّه قد صُدِق؛ غدا بمِعْوَلِهِ[٤] ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره ، فحفر فيها ، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[٥]؛ كبَّر ، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل ، وإنَّ لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا ، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعدٍ بن هُذَيم. قال: نعم ، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطَّلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب ، وأصحابه ، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم ، فأبوا عليهم ، وقالوا: إنَّا بمفازة[٦] وإنَّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطَّلب: إنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوَّة، فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته، ثم وَارَوْه؛ حتَّى يكون آخرُهم رجلاً واحداً، فَضَيْعةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفسه حفرةً ، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتَحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث[٧] عبد المطَّلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ ، فكبَّر عبد المطلب ، وكبَّر أصحابه ، ثمَّ نزل ، فشرب ، وشرب أصحابه ، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم ، ثمَّ دعا قبائل قريش

---

(١) لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها ، ولا يُلحق قعرُها.
(٢) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.
(٣) قرية النَّمل: المكان الذي يجتمع فيه النَّمل.
(٤) المِعْوَل: الفأس.
(٥) الطيُّ: حافة البئر.
(٦) المفازة: الصَّحراء ، والجمع: مفاوز.
(٧) بعث راحلته: أقامها من بروكها.

ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُمُّوا إلى الماء؛ فقد سقانا الله ، فجاؤوا ، فشربوا ، واستقوا كلُّهم ، ثمَّ قالوا: قد ـ والله ـ قضى لك علينا ، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً ، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ، ورجعوا معه ، ولم يصِلوا إلى الكاهنة ، وخَلُّوا بينه وبين زمزم».

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن عليٍّ بن أبي طالبٍ في زمزم [البيهقي في الدلائل (١/٩٣ ـ ٩٤) وابن هشام (١/١٥١ ـ ١٥٣)] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرةٌ ، فمنها: ما رواه مسلمٌ في صحيحه في قصَّة إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّها مباركةٌ ، إنَّها طعامُ طُعْمٍ» [مسلم[1] (٢٤٧٣)].

وروى الدَّارقطنيُّ [(٢٧١٣)] والحاكم [(١/٤٧٣)] وصحَّحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ: «ماء زمزم لما شُرِبَ له: إنْ شربته لتستشفي ، شفاك الله! وإن شربته لشبعك ، أشبعك الله! وإن شربته لقطع ظمئك ، قطعه الله! وهي هزمة[2] جبريل ، وسقيا الله إسماعيل» قال الشَّيخ محمَّد أبو شهبة ـ رحمه الله! ـ[3]: ومهما يكن من شيءٍ فقد صحَّح الحافظ الدِّمياطيُّ ـ وهو من الحفَّاظ المتأخِّرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شُرِبَ له» وأقرَّه الحافظ العراقيُّ[4].

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل[5]:

هذه الحادثة ثابتةٌ بالقرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ، وأتت تفاصيلها في كتب السِّير والتَّاريخ ، وذكرها المفسِّرون في كتبهم: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

أمَّا إشارات الرَّسول ﷺ إلى الحادث؛ فمنها:

أنَّ الرسول ﷺ لمَّا خرج زمن الحديبية ، سار حتى إذا كان بالثَّنيَّة الَّتي يهبط عليهم منها ، بركت بها راحلته؛ فقال الناس: حَلْ حَلْ[6]. فألَحَّتْ[7] ، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النَّبيُّ

---

(١) طعام طعم: أي: تشبع شاربها.
(٢) هزمة ، أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أو جناحه.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
(٤) مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقيِّ ، ص ١٣.
(٥) ينظر الشكل (٥) في الصفحة (٦٠١).
(٦) كلمةٌ تقال للنَّاقة إذا تركت السَّير. (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).
(٧) ألحَّت: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح. فتح الباري (٥/ ٣٣٥).

ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل» [البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٤/ ٣٢٣)] .

وجاء في السِّيرة النَّبويّة لأبي حاتم ما يلي : «كان من شأن الفيل : أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها ، وكان أصله من الحبشة ، يقال له : أبرهة ، بنى كنيسة بصنعاء ، فسمَّاها القُلَّيْس ، وزعم : أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب ، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها ، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر ، فقاتله؛ فهزمه أبرهة ، وأخذه ، فلمَّا أتى به؛ قال له ذو نفر : أيها الملك! لا تقتلني؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي ، فاستبقاه ، وأوثقه ، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة ، حتَّى إذا دنا من بلاد خَثْعَم؛ خرج إليه النُّـفَيْل بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه ، فهزمهم ، وأخذ النُّـفَيْل ، فقال النُّفيل : أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع ، والطَّاعة ، فاستبقاه ، وخرج معه يَدلُّه ، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف ، فقال : أيُّها الملك! نحن عبيدٌ لك ، ليس لك عندنا خلافٌ ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد ـ يعنون الَّلات ـ إنَّما تريد البيت الذي بمكَّة ، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه .

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمُغَمَّسِ(١) مات أبو رِغال، وهو الذي رُجِمَ قبره، وبعث أبرهة من المُغَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدِّمة خيله ، فجمع إليه أهل الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير بالأرك ، ثمَّ بعث أبرهة حُنَاطة الحميريَّ إلى أهل مكَّة ، فقال: سل عن شريفها ، ثمَّ أبلغه: أنِّي لم آتِ لقتال ، إنَّما جئت لأهدم هذا البيت .

فانطلق حُنَاطة حتَّى دخل مكَّة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال: إنَّ الملك أرسلني إليك؛ ليخبرك: أنَّه لم يأتِ لقتالٍ ، إلا أن تقاتلوه ، إنَّما جاء لهدم هذا البيت ، ثمَّ الانصراف عنكم. فقال عبد المطَّلب: ما عندنا له قتالٌ ، سنخلِّي بينه وبين البيت ، فإن خلَّى اللهُ بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ. قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتَّى قدم المعسكر ، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب ، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً ، أو عشيَّةً ، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خيرٍ ، ويُعظم خطرك ، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس ، فأتاه ، فقال: إنَّ هذا سيِّد قريش ، صاحب عير مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه؛ فانفعه؛ فإنَّه صديقٌ لي .

(١) المُغمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال .

فدخل أنيس على أبرهة ، فقال: أيُّها الملك! هذا سيِّد قريشٍ ، وصاحب عِيْرِ مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، يستأذن عليك ، وإنَّه أحبَّ أن تأذن له ، فقد جاءك غير ناصبٍ لك ، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له ، وكان عبد المطَّلب رجلاً عظيماً ، جسيماً ، وسيماً ، فلمَّا رآه أبرهة ، عظَّمه ، وأكرمه ، وكره أن يجلس معه على سريره ، وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط ، فجلس عليه معه ، فقال له عبد المطلب: أيها الملك! إنَّك قد أصبت لي مالاً عظيماً ، فاردده عليَّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتُك ، ولقد زهدت فيك. قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ آبائك ، وعصمتُكم ، ومنعتُكم؛ لأهدمَه ، فلم تُكلِّمْني فيه ، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه. قال: ما كان ليمنعه منِّي. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله ، فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطَّلب ، وأخبر قريشاً الخبر ، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب.

وأصبح أبرهة بالمُغَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول ، وعبَّأ جيشه ، وقرَّب فيله ، وتحمَّل عليه ما أراد أن يحمل ، وهو قائم ، فلمَّا حرَّكه: وقف ، وكاد أن يرزم إلى الأرض ، فيبرك ، فضربوه بالمعول في رأسه ، فأبى ، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه ، ومرافقه ، فأبى ، فوجَّهوه إلى اليمن ، فهرول ، فصرفوه إلى الحرم ، فوقف ، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال ، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان[1] ، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، وتحمل أمثال الحِمَّصِ والعدس من الحجارة ، فإذا غشيت القوم أرسلتها عليهم ، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك ، وليس كل القوم أصيب ، فذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل] .

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده ، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كلِّ بلد ، وجعل أبرهة تتساقط أنامله ، كلَّما سقطت أُنملة؛ أتبعتها مِدَّة من قيحٍ ، ودمٍ ، فانتهى إلى اليمن ، وهو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه ، ثمَّ مات»[2] .

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله! ـ في سيرته ، كما نقله ابن هشامٍ عنه في السِّير: أنَّ عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش ، يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقة باب الكعبة:

لاهُـــــــمَّ[3] إنَّ العَبْــــــدَ يَمْـــنَــعُ رَحْلَــه فَـــامْنَــعْ حـــلالَـــكْ

---

(١) البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرازير).

(٢) السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستيّ ، ص ٣٤ ـ ٣٩ ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/ ٣٠ ـ ٣٧).

(٣) لا هُمَّ: أصلها اللَّهُمَّ ، والعرب تحذف الألف واللام منها ، وتكتفي بما بقي.

لا يَغْلِبَـــنَّ صَلِيبُهُـــمْ وَمِحَـــالُهُـــمْ غَـــدْواً مِحَـــالَـــكْ
إنْ كُنْـــتَ تَـــارِكُهـــمْ وقِبْـــلتَنـــا فَـــأَمْـــرٌ مَـــا بَـــدَا لَـــكْ

ثمَّ أرسل عبد المطَّلب حَلْقَة باب الكعبة ، وانطلق هو ، ومن معه من قريشٍ إلى شَعَفِ الجبال[1] ، فتحرَّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها ، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاكٍ لأبرهة ، وجيشه[2] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائدُ من حادثة الفيل :

١ ـ **بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس** ، وكيف أنَّ مشركي العرب كانوا يعظِّمونه ، ويقدِّسونه ، ولا يقدِّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما الصَّلاة والسَّلام .

٢ ـ **حسد النَّصارى ، وحقدهم على مكَّة ، وعلى العرب الَّذين يعظِّمون هذا البيت** ، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيْس ، وعلى الرَّغم من استعماله أساليب التَّرغيب ، والتَّرهيب إلا أنَّ العرب امتنعوا ، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيْس أحدُ الأعراب ، قال الرَّازي ـ رحمه الله تعالى! ـ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ : اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرَّةٍ بالغير على الخفية. (إن قيل): لِمَ سمَّاه كيداً ، وأمره كان ظاهراً؟ فإنَّه كان يُصرِّح أن يهدم البيت. (قلنا): نعم؛ لكن الذي كان في قلبه شرّاً ممَّا أظهر؛ لأنَّه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشَّرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم ، وعن بلدهم إلى نفسه ، وإلى بلدته[3] .

٣ ـ التَّضحية في سبيل المقدَّسات :

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة ، ووقع الملك أسيراً ، وقام النُّفَيْلُ ابن حبيبٍ الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن ، فقاتلوا أبرهة ، إلا أنَّهم انهزموا أمام الجيش الْعَرَمْرَم ، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدَّساتهم .

إنَّ الدِّفاع عن المقدَّسات والتَّضحية في سبيلها ، شيءٌ غريزيٌّ في فطرة الإنسان .

٤ ـ خَوَنة الأمَّة مخذولون :

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة ، وصاروا عيوناً له ، وجواسيس ، وأرشدوه إلى

---

(١) شَعَف الجبال : أعالي الجبال ، أو رؤوس الجبال .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام مع شرح أبي ذرٍّ الخُشني (١/ ٨٤ ـ ٩١) .
(٣) انظر : تفسير الرَّازي (٣٢/ ٩٤) .

بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والآخرة، لعنهم النَّاس، ولعنهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأصبح قبر أبي رِغال رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذاك الرَّجل مبغوضاً في قلوب النَّاس، وكلَّما مرَّ أحد على قبره؛ رجمه.

٥ ـ حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت؛ فإن خلَّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوَّة العدوِّ وحشوده؛ فإنَّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه، ونِقْمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبُها في أيِّ وقتٍ شاء[١].

قال القاسميُّ ـ رحمه الله! ـ: قال القاشانيُّ ـ رحمه الله! ـ قصَّة أصحاب الفيل مشهورةٌ، وواقعتهم قريبة من عهد الرَّسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثرٌ من سخطه على مَنِ اجترأ عليه بهتك حُرَمِهِ[٢].

٦ ـ تعظيم النَّاس للبيت، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام، الَّذي تكفَّل بحفظه، وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين[٣]، وأعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم العدوَّ، وكان ذلك آيةً من الله تعالى، ومقدِّمةً لبعثة نبيٍّ يبعث من مكَّة، ويطهِّر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعةٍ، وشأن[٤].

٧ ـ قصَّة الفيل من دلائل النُّبوَّة:

قال بعض العلماء: إنَّ حادثة الفيل من شواهد النُّبوَّة، ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماورديُّ ـ رحمه الله! ـ حيث يقول: آيات الملك باهرةٌ، وشواهد النُّبوَّة ظاهرةٌ، تشهد مباديها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدقٍ، ولا منتحلٌ بحقٍّ، وبحسب قوَّتها، وانتشارها تكون بشائرها، وإنذارها، ولمَّا دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوَّته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأناً، وأشهرها عياناً، وبياناً أصحاب الفيل... إلى أن قال: وآية الرَّسول ﷺ في قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلاً في بطن أمِّه بمكَّة؛ لأنَّه ولد بعد خمسين يوماً من

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١١٢.

(٢) انظر: محاسن التَّفسير، للقاسمي (١٧/ ٢٦٢).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٩٢.

الفيل ، وبعد موت أبيه ، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوَّل ، فكانت آيةً في ذلك من وَجْهَيْن :

أحدهما : أنَّهم لو ظفروا ؛ لسبوا ، واسترقوا ، فأهلكهم الله ـ تعالى ـ لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السَّبيُ حَمْلاً ، ووليداً .

والثَّاني : أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقُّون به رفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب ؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صنمٍ ، أو متديِّن وثنٍ ، أو قائلٍ بالزَّندقة ، أو مانعٍ من الرَّجعة ، ولكن لمَّا أراد الله تعالى من ظهور الإسلام ، تأسيساً للنُّبوَّة ، وتعظيماً للكعبة . ولمَّا انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل ، تهيَّبوا الحرم ، وأعظموه ، وزادت حرمته في النُّفوس ، ودانت لقريش بالطَّاعة ، وقالوا: أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم كيدَ عدوِّهم ، فزادوهم تشريفاً ، وتعظيماً ، وقامت قريش لهم بالوفادة ، والسِّدانة ، والسِّقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كلِّ عامٍ من أموالهم ، يصنعون به طعاماً للنَّاس أيام منى) ، فصاروا أئمَّةً دَيَّانين ، وقادةً متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[١] .

وقال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «وكان ذلك عام مولد النَّبيِّ ﷺ ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النَّصارى خيرٌ منهم ، فعُلِمَ بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ ، بل كانت لأجل البيت ، أو لأجل النَّبيِّ ﷺ ؛ الَّذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأيُّ ذلك كان ؛ فهو من دلائل نبوَّته»[٢] .

وقال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ عندما تحدَّث عن حادثة الفيل : «كان هذا من باب الإرهاص ، والتَّوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنَّه في ذلك العام ولد ـ على أشهر الأقوال ـ ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش! على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانةً للبيت العتيق ؛ الَّذي سنشرِّفه ، ونوقِّره ببعثة النَّبيِّ الأميِّ محمَّدٍ ـ صلوات الله ، وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء»[٣] .

٨ ـ حفظ الله للبيت العتيق :

وهي : أنَّ الله لم يقدِّر لأهل الكتاب(أبرهة وجنوده) ، أن يدمِّروا البيت الحرام ، أو يسيطروا على الأرض المقدَّسة ، حتَّى والشِّرك يُدنِّسه ، والمشركون هم سدنته ؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلِّطين ، مصوناً من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض حرِّيتها ، حتَّى تنبت

---

(١) انظر : أعلام النُّبوَّة ، للماورديِّ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩ .

(٢) انظر : الجواب الصَّحيح (٤/ ١٢٢).

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨ ، ٥٤٩).

فيها العقيدة الجديدة حُرَّةً طليقـةً ، لا يهيمن عليها سلطانٌ ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ ، ولا يهيمن على هذا الدِّين الذي جاء ليهيمن على الأديان ، وعلى العباد ، ويقود البشريّة ، ولا يقاد ، وكان هذا من تدبير الله لبيته ، ولدينه ، قبل أن يعلم أحدٌ : أنَّ نبيَّ هذا الدِّين قد ولد في هذا العام[1] .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدَّلالة اليوم ، ونطمئنَّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ ماكرةٍ ، ترف حول الأماكن المقدَّسة من قبل الصَّليبيَّة العالميَّة ، والصهيونيَّة العالمية ، ولا تني ، أو تهدأ في التمهيد الخفيِّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة ، فالله الَّذي حمى بيته من أهل الكتاب ، وسدنتُه مشركون ، سيحفظه ـ إن شاء الله ـ ويحفظ مدينة رسوله ﷺ من كيد الكائدين ، ومكر الماكرين[2] .

٩ ـ جَعْلُ الحادثة تاريخاً للعرب :

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل ، فأَرَّخُوا به ، وقالوا : وقع هذا عامَ الفيل ، ووُلد فلانٌ عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السِّنين ، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[3] .

* * *

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٣ .

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٠) .

(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٣ .

المبحث الخامس
من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النَّبيِّ ﷺ:

إنَّ النَّبيَّ ﷺ أشرف الناس نسباً، وأكملهم خَلْقاً، وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه ﷺ أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [سبق تخريجه].

وقد ذكر الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله! ـ نسب النَّبيِّ ﷺ، فقال: «هو أبو القاسم، محمَّد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصَيٍّ، بن كلاب، بن مُرَّةَ، بن كعب، بن لُؤَيٍّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النَّضر، بن كِنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، بن إلياس، بن مضر، بن نِزارٍ، بن مَعَدٍّ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)].

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة [(١٣/ ١٩٣)] بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين، ولا خلاف ألبتةَ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[١].

وقد جاء عن ابن سعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»[٢].

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان، ولا قحطان إلا تخرُّصاً»[٣].

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧١).
(٢) ابن سعد (١/ ٥٨).
(٣) المصدر السابق نفسه.

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ بإجماع النَّاس ، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»[(١)].

لقد كان ـ وما زال ـ شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس ؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّدارة ، نبوَّةً كانت ، أو مُلكاً ، وينكر ذلك على وضيع النَّسب ، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه ، ولمَّا كان محمَّد ﷺ يُعَدُّ للنُّبوَّة ، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب ؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله[(٢)].

إنَّ معدن النَّبيِّ ﷺ طيِّبٌ ، ونفيسٌ ، فهو من نسْل إسماعيل الذَّبيح ، وإبراهيم خليل الله ، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام ، كما حَدَّث هو عن نفسه ، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى» [أحمد (٤/ ١٢٧) والحاكم (٢/ ٦٠٠) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢)] .

وطيب المعدن ، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ، ويجعله يهتمُّ بعاليها ، وفضائلها . والرُّسل ، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم ، وطهر أصلابهم ، ويعرفون عند النَّاس بذلك ، فيحمدونهم ، ويثقون بهم[(٣)].

وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف ، دلالة واضحةً على أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ميَّز العرب على سائر النَّاس ، وفضَّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى ، ومقتضى محبَّة رسول الله ﷺ محبَّة القوم الذين ظهر فيهم ، والقبيلة التي ولد فيها ، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة ، ذلك؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشيَّة قد شرف كلٌّ منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله ﷺ إليها ، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب ، أو القرشيِّين عن صراط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلاميَّة التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف ، أو الانحطاط من شأنه أن يُوديَ بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول ﷺ ، ويلغيها من الاعتبار[(٤)].

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهبٍ ، ورؤيا آمنة أمِّ النَّبيِّ ﷺ:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه ، ولمَّا نجا من الذَّبح ، وفداه

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، للذَّهبي ، ص ١ .
(٢) انظر: دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٩٦ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٢ .
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٤٥ .

عبد المطلب بمئةٍ من الإبل ، زوَّجه من أشرف نساء مكَّة نسباً ، وهي آمنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[١] .

ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به ﷺ آمنة ، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديِّ بن النَّجار» ، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّام ، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ ، وترك هذه النَّسَمَةَ المباركة ، وكأنَّ القدر يقول له : قد انتهت مهمَّتك في الحياة ، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحكمته ورحمته تربيته ، وتأديبه ، وإعداده ؛ لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور .

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النَّبيِّ ﷺ . قيل للنَّبيِّ ﷺ : ما أوَّل بدء أمرك؟[٢] فقال رسول الله ﷺ : «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» [أحمد (٥/ ٢٦٢) والمعجم الكبير (٧٧٢٩) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢١)] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وبشرى عيسى عليه السلام كما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجل ـ حاكياً عن المسيح عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] .

وقوله ﷺ : «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» . قال ابن رجب : «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور ؛ الَّذي اهتدى به أهل الأرض ، وزالت به ظلمة الشِّرك منها ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] .

وقال ابن كثير : «وتخصيص الشَّام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ، وثبوته ببلاد الشَّام ، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزَّمان معقلاً للإسلام ، وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصَّحيحين : «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم ، ولا مَنْ خالفهم ، حتَّى يأتي أمر الله وهم

(١) انظر : وقفات تربوية مع السِّيرة ، لأحمد فريد ، ص٤٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه .

كذلك». وفي صحيح البخاريِّ: «وهم بالشَّام»[البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٣/ م)].

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الحبيب المصطفى ﷺ يوم الإثنين بلا خلافٍ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول[١].

والمجمع عليه: أنَّه ﷺ ولد عام الفيل[٢]، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ، بشعب بني هاشم[٣].

قال أحمد شوقي ـ رحمه الله! ـ في مولد الحبيب المصطفى ﷺ:

وُلِدَ الهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ... وَفَمُ الزَّمَانِ تبسُّمٌ وَثَنَاءُ
الرُّوحُ، والملأُ الملائكُ حَوْلَهُ ... للدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهِ بُشَرَاءُ[٤]
وَالْعَرْشُ يَزْهُو، والحَظِيرةُ تَزْدَهِي ... والمُنْتَهَى والسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ
بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَّمَاءَ فَزُيِّنَتْ ... وتَضَوَّعَتْ مِسْكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
يَوْمٌ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ ... ومَسَاؤُهُ بمحمَّدٍ وَضَّاءُ
ذُعِرَتْ عروشُ الظَّالمينَ فَزُلْزِلَتْ ... وعَلَتْ عَلَىٰ تِيجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
والنَّارُ خَاوِيةُ الجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ ... خمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الماءُ
والآيُ تَتْرَى، والخَوارِقُ جَمَّةٌ ... جبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَدَّاءُ[٥]

وقد قال الشَّاعر الأديب اللِّيبي، الأستاذ محمد بشير المغيربي، في ذكرى مولد الرَّسول ﷺ عام ١٩٤٧ م، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي:

بَلَغَ الزَّمَانُ مِنَ الحياةِ عتيَّا ... لكِنَّ يوماً لا يَزَالُ فَتِيَّا
يمشي على الأحقابِ مشيَةَ فَاتِحٍ ... في موكبٍ جَعَلَ السِّنينَ مَطِيَّا
تَخِذَتْ لَهُ الأعْوَامُ في أيَّامِهَا ... عرْشاً فأصْبَحَ تَاجَهَا الأَبْدِيَّا
ومَضَتْ بِهِ الأجْيَالُ خُطْوَاتٍ مَنْ ... بلَغَ الرَّشَادَ وَكَانَ قَبْلُ صَبِيَّا
أعْظِمْ بِيَوْمٍ جَاءَ يَحْمِلُ «رَحْمَةً ... لِلْعَالَمِينَ» وعِزَّةً ورُقِيَّا
وُلِدَتْ بِهِ للكَائِنَاتِ حَقيقةٌ ... أضْحَى بِهَا سِرُّ الحياة جَلِيَّا

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، ص٤٧. وينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٦٠٢ و٦٠٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (١/ ٢٠٣).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص ٤٧.
(٤) بُشراء: جمع بشير.
(٥) انظر: ديوان شوقي (١/ ٣٤، ٣٥).

وَأَنَارَ فِي الأُولَى الطَّرِيقَ إِلَى الْوَرَى ... لِيَسِيرَ لِلأُخْرى الأَنَامُ تَقِيَّا
كَادَتْ بِهِ الدُّنْيَا تَقُولُ لِشَمْسِهَا ... عَنِّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّيَاءُ إِلَيَّا[1]

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩ م:

مَالِي وَمَا بِي مِنْ شُمُولْ ... أَشْدُو عَلَى رَغْمِ العَذُولْ
إنِي أُطَالِعُ فِي السَّما ... ءِ كَأَنَّهَا سِفْرٌ جليلْ
وأرَى النُّجُومَ تَمَثَّلَتْ ... لِي كَالملائك فِي مُثُولْ
وَالْبَدْرُ خِلْتُ شُعَاعَه ... وَحْيَ الرِّسَالَةِ فِي نُزولْ
وَإِذَا بِصَوْتٍ مِنْ ضَمِيـ ... ـرِ الْكَوْن مُبْتَهِجاً يَقُولْ
فِي مثل هَذي اللَّيلَةِ الْـ ... ـغَرَّاء قَدْ وَلِدَ الرَّسُولْ
وَأَشَعَّ نُورُ مُحَمَّدٍ ... فَوْقَ الرَّوابي والسُّهُولْ
مَلأَ الزَّمَانَ وَكَانَ قَبْـ ... ـلُ يَهِيمُ فِي لَيْلٍ طَوِيلْ[2]

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته ﷺ أمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أمَةَ أبيه، وأول من أرضعته ثُوَيْبَةُ أمَةُ عمِّه أبي لهب[3]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! انْكِحْ أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي ﷺ: «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحَدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سلمة. قال: «بنت أمِّ سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري، ما حَلَّت لي، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ، ولا أَخَواتِكنَّ» [البخاري (٥١٠١) ومسلم (١٤٤٩)].

وكان من شأن أمِّ أيمن، أمِّ أسامة بن زيد: أنَّها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت آمنةُ رسولَ الله ﷺ، بعدما تُوفي أبوه، فكانت أمُّ أيمن تحضنه، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله ﷺ، فأعتقها، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسولُ الله ﷺ بخمسة أشهرٍ. [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)].

---

(١) جريدة (الوطن) بنغازي ١٩٤٧ م.
(٢) سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.
(٣) انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية، ص ٤٨.

١ ـ حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[١]:

وهذه حليمة السَّعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى ﷺ؛ التي لمستها في نفسها، وولدها، ورعيها، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لمَّا وُلد رسولُ الله ﷺ؛ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوةٍ من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت في أوائل النِّسوة على أتانٍ لي، قمراء[٢]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزَّى، أحد بني سعد بن بكر، ثمَّ أحد بني ناضرة، قد أدمت[٣] أتاننا، ومعي بالرَّكب شارفٌ[٤] والله ما تَبِضُّ[٥] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[٦]، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد، ومعي ابنٌ لي، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به، إلا أنا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها.

فلمَّا قدمنا مكَّة، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله ﷺ، فكرهته، فقلنا: إنَّه يتيم، وإنَّما يُكرِم الظِّئر، ويُحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لآخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدياي باللَّبن، حتَّى أرويتُه، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافلٌ[٧]، فحلبها، فأرواني، وروي، فقال: يا حليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً[٨] مباركةً، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملته معي، فو الذي

---

(١) ينظر الشكل (٨) في الصفحة (٦٠٤).
(٢) قمراء: القُمرة: بالضمِّ لونٌ يميل للخضرة، أو بياضٌ فيه سمرةٌ، أو كدرة.
(٣) أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها، وذلك لطول مسافة السَّير.
(٤) الشَّارف: الناقة المسنَّة.
(٥) لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.
(٦) شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها، ولا مطر.
(٧) حافل: كثير اللبن.
(٨) نسمة: نفس.

نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[1]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثمَّ يريحون، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً، وتروح غنمي بطاناً[2]، حُفَّلاً[3]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً، كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب السنة، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة، أنا وأبوه، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[4] مكَّة، وأسقامها، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثةً، أو أربعةً، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[5]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره)، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأخذاه، وأضجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا، وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه[6]، فلمَّا رآنا؛ أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان، وأضجعاني، فشقَّا بطني، ووضعا به شيئاً، ثمَّ ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه، فلمَّا رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة، وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

قال: فقالت: إنَّ لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به، إنَّ لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره، إنِّي حملت به، فو الله! ما حملت

---

(١) قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.
(٢) بطاناً: الممتلئة البطون.
(٣) حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.
(٤) الوباء: المرض.
(٥) البهم: صغار الضَّأن والماعز.
(٦) انتقع لونه: تغير.

حملاً قطُّ ، كان أخفَّ عليَّ منه ، ولا أيسر منه ، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منِّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى ـ أو قالت : قصور بُصرى ـ ثمَّ وضعتُه حين وضعته ، فو الله! ما وقع كما يقع الصِّبيان ، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض ، رافعاً رأسه إلى السَّماء ، فدعاه عنكما! فقَبَضْتُهُ ، وانطلقنا» [أبو يعلى (٧١٦٣) وابن حبان (٦٣٣٥) والمعجم الكبير (٢٤/ ٢١٢ ـ ٢١٥) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) ودلائل البيهقي (١/ ١٣٣ ـ ١٣٦)] .

١ ـ دروسٌ وعبرٌ :

أ ـ بركة النَّبيِّ ﷺ على السَّيدة حليمة :

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّعدية في كلِّ شيءٍ ، ظهرت في إدرار ثدييها ، وغزارة حليبها ، وقد كان لا يكفي ولدها ، وظهرت بركته في سكون الطِّفل ولدها ، وقد كان كثير البكاء ، مزعجاً لأمِّه ، يؤرِّقها ، ويمنعها من النَّوم ، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمَّه تنام ، وتستريح . وظهرت بركته في شياههم العجفاوات ، الَّتي لا تدرُّ شيئاً ، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد .

ب ـ كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له :

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشرَّفت بإرضاعه ، وليس من ذلك غرابةٌ ، ولا عجبٌ[1] ، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل ، ويحنوا عليه ، ويحسنوا في معاملته ، ورعايته ، وحضانته ، وهكذا كان ، فقد كانوا أحرص عليه ، وأرحم به من أولادهم[2] .

ج ـ خيار الله للعبد أبرك وأفضل :

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم ، وأخذته على مضضٍ ؛ لأنَّها لم تجد غيره ، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله ، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه ، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله ، واختياره ، والرِّضا به ، ولا يندم على ما مضى ، وما لم يقدِّره الله تعالى .

د ـ أثر البادية في صحَّة الأبدان ، وصفاء النُّفوس ، وذكاء العقول :

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ: وتنشئة الأولاد في البادية ؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة ، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق ، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء

(١) فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٤٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٥ .

الأعضاء ، والمشاعر ، وإطلاق الأفكار ، والعواطف.

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ ، من بيوتٍ متلاصقةٍ ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها ، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق ، والهواء المنعش.

ولا شكَّ: أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة ، يعود ـ فيما يعود ـ إلى البعد عن الطَّبيعة ، والإغراق في التصنُّع. ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل ، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه ، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[١].

وتعلَّم رسول الله ﷺ في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح ، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال ﷺ: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد[٢]؟!».

٢ ـ ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له ﷺ أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ ، من إرهاصات النُّبوَّة ، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[٣].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره ، فعن أنس بن مالكٍ: «أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل؛ وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب ، فاستخرج منه عَلَقَةً ، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك ، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأَمَهُ[٤] ، ثمَّ أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه ـ يعني: ظِئْرَهُ ـ فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون. قال أنسٌ رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» [مسلم (١٦٢/ ٢٦١) وأحمد (٣/ ١٤٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥)].

ولا شكَّ: أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة ، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ ، وعبادة غير الله ، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص ، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك،

(١) انظر: فقه السِّيرة ، ص ٦٠ ، ٦١.
(٢) الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/ ١٨٨).
(٣) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٧.
(٤) أي: جمعه ، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ. (شرح النَّوويِّ على مسلمٍ ٢/ ٢١٦).

فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنم[١] برغم انتشار ذلك في قريش[٢].

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك ، فقال : يبدو : أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول ﷺ ، وتهيؤه للعصمة ، والوحي منذ صغره بوسائل ماديَّةٍ ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به ، وتصديقهم برسالته. إنَّها ـ إذاً ـ عملية تطهيرٍ معنويٍّ ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلٰهي بين أسماع النَّاس ، وأبصارهم[٣]. إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ للرَّسول ﷺ من حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة ، واتِّصافه بصفات الجدِّ ، والحزم ، والاتزان ، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة ، كما تدلُّنا على عناية الله به ، وحفظه له ، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل[٤].

خامساً: وفاة أمِّه ، وكفالة جدِّه ، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ ﷺ وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النَّجار تُزيره إيَّاهم ، فماتت ، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة[٥] ، ودفنت بالأبواء ، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب ، فعاش في كفالته ، وكان يؤثره على أبنائه ، أي : أعمام النَّبيِّ ﷺ ، فقد كان جدُّه مهيباً ، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له ، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم ، وكان ﷺ يجلس على الفراش ، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم ، فيقف الأب الجدُّ بجانبه ، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير ، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ[٦] ، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً ، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها ، وذات يوم أرسله في طلب إبلٍ ، فاحتبس عليه[٧]، فطاف بالبيت ، وهو يرتجل ، يقول:

رَبِّ ردَّ راكبي محمَّدا ... رُدَّه لي وَاصْنَعْ عِنْدي يَدا

فلمَّا رجع النَّبيُّ ﷺ ، وجاء بالإبل ، قال له : يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة ، حزناً

---

(١) زعم المستشرق نيكلسون : أنَّ حديث شقِّ الصَّدر أسطورةٌ نشأت عن تفسير الآية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وأنَّه لو كان لها أصل؛ فعلينا أن نخمِّن أنَّها تشير إلى نوع من الصَّرع ، وهذا الذي زعمه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتَّهموا رسول الله ﷺ بالجنون ، فنفى الله عنه ذلك ، فقال : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير : ٢٢].

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٠٤).

(٣) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧.

(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

(٥) ابن هشام في السِّيرة (١/ ١٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.

(٧) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص ٥٦

لا يفارقني أبداً. [البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠ ـ ٢١) والحاكم (٢/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤)].

ثُمَّ توفِّي عبد المطلب والنَّبيُّ ﷺ في الثَّامنة من عمره[١]، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ، فكفله عمُّه، وحنَّ عليه، ورعاه[٢].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه ﷺ يتيماً، تتولاَّه عناية الله وحدها، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفسه إلى مجد المال، والجاه، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّدارة، والزَّعامة، فيلتبس على النَّاس قداسة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[٣]، وكانت المصائب الَّتي أصابت النَّبيَّ ﷺ منذ طفولته؛ كموت أمِّه، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة، والكِبْر، والغرور، وتجعلها أكثر رقَّةً، وتواضعاً.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما، وضعف بُنيتهما، فلم يكن محمَّد ﷺ سليل أبوين سقيمين، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد ﷺ كلُّ مَنْ فقد والديه، أو أحدَهما وهو صغير، وليكون أدبه، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[٤]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته، وتوجيهه، فيكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الَّذي يتولَّى تربيته، ولا يتلقَّى، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية، وأعرافها شيئاً، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ آواه، وسخَّر له جدَّه، وعمَّه لتهيئة الجانب المادِّيِّ، بينما كانت التَّربية النَّفسية، والخُلقيَّة، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً، ورعايةً إلٰهيَّةً[٥].

سادساً: عمله ﷺ في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ، وأخذ حقَّه عن رعيه، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.
(٢) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص ١١٩.
(٣) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٤٦.
(٤) انظر: رسائل الأنبياء، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٠).
(٥) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٨٤، ٨٥.

رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [البخاري (٢٢٦٢) وابن ماجه (٢١٤٩)][١].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ ﷺ الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة[٢].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات[٣]، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ ﷺ دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

١ ـ **الصَّبر**: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر، والتَّحمُّل، وكذا تربية البشر[٤].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها[٥].

٢ ـ **التَّواضع**: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم، والإشرافُ على ولادتها، والقيام بحراستها، والنَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيءٌ من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[٦].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ

---

(١) القيراط: جزءٌ من الدِّينار، أو الدِّرهم.
(٢) انظر: محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ١٧٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٠٦).
(٤) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص ١٢٤.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١١٤، ١١٥.
(٦) المصدر السابق نفسه.

يحب الجمال ، الكبر: بطرُ الحقِّ ، وغَمْطُ النَّاس» [مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) والحاكم (١/٢٦)] .

٣ ـ الشَّجاعة: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة ، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة ، تؤهِّله للقضاء على الوحوش ، ومنعها من افتراس أغنامه[١] .

٤ ـ الرَّحمة ، والعطف: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم ؛ إن هي مرضت ، أم كُسرت ، أو أصيبت ، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها ، وعلاجها والتَّخفيف من آلامها ، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان ، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان ، وإرشاده ، وإنقاذه من النَّار ، وإسعاده في الدَّارين[٢] .

٥ ـ حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً ﷺ عن رعي الغنم ، ولكن هذه تربيةٌ له ، ولأمَّته للأكل من كسب اليد ، وعرق الجبين ، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد ، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس ، ولا يعتمد عليهم ، فبذلك تبقى قيمته ، وترتفع منزلته ، ويبتعد عن الشُّبه ، والتَّشكيك فيه ، ويتجرَّد عمله لله تعالى ، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة ، الَّذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم[٣] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] .

هكذا يقول فرعون لموسى ، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا ، ولهذا قال الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لأقوامهم ، مبينين استغناءهم عنهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] .

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [البخاري (٢٠٧٢)] .

ولا شكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة ، والقدرة على قول كلمة الحقِّ ، والصَّدْع بها[٤] ، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة ، ويسكتون على

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ١٢٧ .
(٣) انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص (١٣٧) .
(٤) المرجع السابق نفسه ، ص (١٢٨) .

باطلهم ، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![١] .

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس ، إذا ما كان كسبه ، ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس ، وصدقاتهم ، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيِّ ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه ؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ ، أو فضلٌ في دنياه ، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه ، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول ﷺ في هذه الفترة ؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة ، والرِّسالة الإلهيَّة ، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ، ويوضح : أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول ﷺ قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ ، فيما بعد البعثة[٢] .

إنَّ إقبال النَّبيِّ ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة ؛ منها : الذوق الرَّفيع ، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه ﷺ . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة ، وكان له في الحنوِّ ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق ، ولكنَّه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب ، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق ، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع ، وبرٍّ في المعاملة ، وبذلٍ للوسع[٣] .

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا ، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيئ للنَّبيِّ ﷺ ـ وهو في صدر حياته ـ من أسباب الرَّفاهية ، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق ، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم : أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه ، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله ، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[٤] .

سابعاً : حفظ الله تعالى لنبيِّه ﷺ قبل البعثة :

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه ﷺ عن شرك الجاهليَّة ، وعبادة الأصنام . روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : حدَّثني جارٌ لخديجة : أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ وهو يقول

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص (٩٣) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٥٠ .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً»[أحمد (٤/ ٢٢٢) و(٥/ ٣٦٢)] . قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون[١] . وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب ، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[٢] .

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب ، ودواعيه البريئة ، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها ، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة ، وجلال المرشدين[٣] . فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيحٍ ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به ، إلا مرَّتين من الدَّهر ، كلتيهما يعصمني الله منهما ، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة ، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت ، فجئت أدنى دار من دور مكَّة ، سمعت غناءً ، وضرب دفوفٍ ، ومزامير ، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة ـ لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ ـ فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس ، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه ، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك ، ففعل ، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس ، ثمَّ رجعت إلى صاحبي ، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله ﷺ : «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة ، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته»[أبو نعيم في الدلائل (١٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٣ ـ ٣٤) والبزار (٢٤٠٣) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦)] .

وهذا الحديثُ يوضِّح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّة:

١ ـ إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية ، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها ، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو ، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك ، كما يتمتَّع الآخرون.

٢ ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف ، ومن كلِّ ما لا يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[٤] .

---

(١) انظر: وقفات تربويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٥١).
(٤) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٠ ، ٥١ .

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول ﷺ وهو غلامٌ:

خرج أبو طالبٍ إلى الشَّام، وخرج معه النَّبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قريشٍ، فلمَّا أشرفوا[١] على الرَّاهب[٢]، هبطوا، فحَلُّوا رحالهم[٣]، فخرج إليهم الرَّاهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[٤]، حتَّى جاء، فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجرٌ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[٥] ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف[٦] كتفه مثل التُّفاحة.

ثمَّ رجع، فصنع لهم طعاماً، فلمَّا أتاهم به، وكان رسول الله ﷺ في رعية الإبل[٧]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل، وعليه غمامةٌ[٨] تظلُّه، فلمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلمَّا جلس مال فيءُ الشَّجرة[٩] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائمٌ عليهم، وهو يناشدهم[١٠] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟

قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه، وأقاموا معه.

---

(١) أشرفوا: اطلعوا من فوق.
(٢) الرَّاهب: زاهد النَّصارى.
(٣) حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها، وفتحوها.
(٤) يتخلَّلهم: يمشي بينهم.
(٥) خرَّ: سقط.
(٦) الغضروف: رأس لوح الكتف.
(٧) رعية الإبل: رعايتها.
(٨) غمامة: السَّحابة.
(٩) مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.
(١٠) يناشدهم: يقسم عليهم.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّـه[(١)]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب. [البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٤ ـ ٢٥) والترمذي (٣٦٢٠) والحاكم (٢/ ٦١٥) وأبو نعيم في دلائله (١٠٩)].

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب، يعلمون: أنَّ محمَّداً ﷺ هو الرَّسول للبشريَّة، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

٢ ـ إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ ﷺ، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشَّجرة عليه.

٣ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ استفاد من سفره، وتجواله مع عمِّه، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الآخرين، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرةٍ، ودرايةٍ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ ﷺ في سِنِّه تلك.

٤ ـ حذَّر بَحِيرا من النَّصارى، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ ﷺ فإنَّهم سيقتلونه، وناشد عمَّه، وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة، وبين هوازن، وسببها: أن عُروةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً[(٢)] للنُّعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة، وخرج البرَّاض يطلب غفلته حتَّى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم، ثمَّ بلغهم الخبر، فاتَّبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، وعاونت قريش كنانة[(٣)] وشهد الرَّسول ﷺ بعض أيَّامهم، أخرجه أعمامه معهم. وسُمِّيت يوم الفِجَارِ بسبب ما استُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[(٤)].

وقد قال ﷺ عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي»، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا

---

(١) أيكم وليُّه: قريبه.

(٢) اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة، وما أشبه ذلك.

(٣) قريش فرع من كنانة.

(٤) وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٣.

رموهم بها [ابن هشام (١/ ١٩٨) والسيرة الحلبية (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩)] .

وكان ﷺ حينئذٍ ابن أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، وقيل: ابن عشرين ، ويُرَجِّحُ الأوّل: أنّه كان يجمع النّبال ، ويناولها لأعمامه؛ ممّا يدلُّ على حداثة سِنِّهِ .

وبذلك اكتسب الجرأة ، والشَّجاعة ، والإقدام ، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه ، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها ، حتَّى ألَّف الله بين قلوبهم ، وأزاح عنهم هـذه الضَّلالات بانتشار نـور الإسلام بينهم[١] .

عاشراً: حلْفُ الفُضُول:

كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار ، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد[٢] قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، ومنعه حقَّه ، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش ، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهرٍ وأهل المروءة ، ونادى بأعلى صوته:

يـا آل فهـرٍ لِمَظْلـومٍ بضـاعَتـه ... ببَطْـنِ مَكَّـة نَـائِـي الـدَّارِ والنَّفـرِ
ومُحْـرِمٍ أشعـثٍ لَـمْ يَقْـضِ عُمْـرَتَـهُ ... يـا للـرِّجـالِ وبَيـنَ الحِجْـرِ والحَجَـرِ
إنَّ الحـرام لِمَـنْ تمَّـتْ كَـرَامَتُـهُ ... ولا حـرَامَ لِثَـوْبِ الفَـاجـرِ الغُـدَرِ[٣]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب ، فقال: ما لهذا مترك . فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهرة ، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ ، وهو ذو القعدة ، فتعاقدوا ، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم ، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً ، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[٤] .

ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديِّ ، فدفعوها إليه .

وسَمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول ، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر .

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُـولَ تَعَـاقَـدُوا وَتَحَـالَفُـوا ... ألاَّ يُقيـمَ ببطْـنِ مكَّـةَ ظَـالِـمُ
أمْـرٌ عَلَيْـهِ تَعَـاقَـدُوا وتَـوَاثَقُـوا ... فَـالْجَـارُ وَالْمُعْتَـرُّ[٥] فِيهـمْ سَـالِـمُ

---

(١) انظر: وقفات تربويّة ، ص ٥٣ .
(٢) زبيد: بلد باليمن .
(٣) انظر: الرّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/ ١٥٥ ، ١٥٦).
(٤) انظر: السِّيرة النّبويّة ، لأبي شهبة (١/ ٢١٣).
(٥) المعتر: الزَّائر من غير البلاد .

وقد حضر النَّبيُّ ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم ، ورفعوا به منار الحقِّ ، وهو يعتبر من مفاخر العرب ، وعرفانهم لحقوق الإنسان[١] ، وقد قال ﷺ : «شهدت حلف المطيِّبين مع عمومتي ؛ وأنا غلام ، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه» [أحمد (١/ ١٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٥٦٧) وأبو يعلى (٨٤٤ و٨٤٥ و٨٤٦)] .

وقال أيضاً : «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم ، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٧) وابن هشام (١/ ١٤١ ـ ١٤٢)] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائد :

١ ـ إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ ، وليست نسبيَّة ، وإنَّ الرَّسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين ، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة[٢] .

٢ ـ كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة ، وفيه دلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان ، والمظالم ، والأخلاق الذَّميمة ، كالظُّلم ، والزِّنى ، والرِّبا ، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ ، ومروءة ، يكرهون الظُّلم ، ولا يقرُّونه ، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم ؛ التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام[٣] .

٣ ـ إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله ، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس[٤] . إنَّ الإسلام يحارب الظُّلم ، ويقف بجانب المظلوم ، دون النَّظر إلى لونه ، ودينه ، ووطنه ، وجنسه[٥] .

٤ ـ جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير ؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/ ٢١٤).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٢).
(٣) انظر : فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ١١٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢١ .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضِّرار ، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسلمين آخرين ظلماً ، وبغياً ، وأمَّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم ، على أن تُلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل ، وفي هذا الحديث دليلٌ ، والدَّليل فيه قوله ﷺ : «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعَم» [سبق تخريجه]؛ لما يحقِّق من عدلٍ ، ويمنع من ظلمٍ ، أو النكث به مقابلِ حمر النَّعم ، وقوله ﷺ : «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [سبق تخريجه] ، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه ، وقد بيَّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[1] .

٥ ـ على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً ، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه ، فقد كان النَّبيُّ ﷺ محطَّ أنظار مجتمعه ، وصار مضرب المثل فيهم ، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين ، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه ﷺ ، وما زال يزكو ، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه ، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع ، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[2] .

* * *

المبحث السَّادس
تجارته لخديجة وزواجه منها وأهمُّ الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة ، وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملةً[1] ذات شرفٍ ، ومالٍ ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها ، فلمَّا بلغها عن محمَّد ﷺ صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكَرَم أخلاقه ، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التُّجار ، فقبل ، وسافر معه غلامها ميسرةُ ، وقدما الشَّام ، وباع محمَّد ﷺ سلعته الَّتي خرج بها ، واشترى ما أراد من السِّلع ، فلمَّا رجع إلى مكَّة ، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصل الرَّسول ﷺ في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الَّذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هاجر إليها من بعد ، وجعلها مركزاً لدعوته ، وبالبلاد التي فتحها ، ونشر فيها دينه ، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة ، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحته ، وصدقه ، وكريم أخلاقه[2] ، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة ، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبِّه ، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[3] ، فرضي بذلك ، وعرض ذلك على أعمامه ، فوافقوا كذلك ، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب ، فخطبها إليه ، وتزوَّجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرةً ، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضي الله عنها[4] ، وقد وَلَدَتْ لرسول الله ﷺ غلامين ، وأربع بنات. وابناه هما: القاسم ، وبه كان ﷺ يكنى ، وعبد الله ، ويلقَّب بالطَّاهر ، والطَّيِّب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سناً تمكنه من ركوب الدَّابة ، ومات عبد الله وهو طفل ، وذلك

---

(١) تزوجها عتيق بن عائذ ، ثمَّ مات عنها ، فتزوَّجها أبو هالة ، ومات عنها أيضاً.
(٢) انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٧).
(٣) انظر: مواقف تربويَّة ، ص٥٦.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٢٢.

قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب، ورقيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن، وهاجرن إلى المدينة، وتزوجن رضي الله عنهن[١]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول ﷺ حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً، وكان عمرها أربعين سنةً[٢].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ ـ إنَّ الأمانة، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح، وصفة الأمانة، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيِّ ﷺ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشَّام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ ـ إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سخَّرها الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، وقد تدرَّب النَّبيُّ ﷺ على فنونها، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ: أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هذا الدِّين يُحشر مع النَّبيِّين، والصدِّيقين، والشُّهداء، وهذه المهنة مهمَّة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه، وبحاجةٍ إلى خبرته، وأمانته، وعفَّته.

٣ ـ كان زواج الحبيب المصطفى ﷺ للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيِّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه[٣].

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله! ـ: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس، والتَّرفيه، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمَّدٍ ﷺ أثرٌ كريم[٤].

٤ ـ إنَّ النَّبيّ ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ ألا يعيش له ﷺ أحدٌ من الذُّكور، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاءً لحاجات النَّفس

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٢٨).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٢٢.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ١٢٢، ١٢٣).
(٤) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٧٥.

الإنسانيَّة ، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانئٌ ، أو يتقـوَّل عليه متقوِّلٌ ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر ، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً ، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين ، أو يُرزقون ثمَّ يموتون ، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء ، وأشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء [الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)] ، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ ﷺ أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه ؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا يجنحون إلى الجبروت ، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة ، والأثرة ، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كدر ، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الآلام ؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين(١) .

٥ ـ يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة ، عدم اهتمـام النَّبيِّ ﷺ بأسباب المتعة الجسديَّـة ، ومكمِّلاتها ، فلو كان مهتماً بذلـك ـ كبقيَّة الشَّباب ـ لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً ، أو فيمن لا تفوقه في العمر ، وإنَّما رغب النَّبيُّ ﷺ لشرفها ، ومكانتها في قومها ؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة .

٦ ـ في زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين ، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ، وصوَّروا النَّبيَّ ﷺ في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته ، وشهواته ، فنجد : أنَّ النَّبيَّ ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس ، دون أن ينساق في شيءٍ من التَّـيَّـارات الفاسدة ؛ الَّتي تموج حوله ، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره ، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله ، وإنَّ ما حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّباب ، ثمَّ الكهولة ، ويدخل في سن الشُّيوخ ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسةٍ وستين عاماً ، وقد ناهز النَّبيُّ ﷺ الخمسين من العمر ، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاستزادة من النِّساء ، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّهوانية ؛ ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة في أن يضمَّ إلى خديجة مثلها من النِّساء ، زوجةً ، أو أمَةً ، ولو أراد ؛ لكان الكثير من النِّساء ، والإماء طوعَ بنانه .

أمَّا زواجه ﷺ بعد ذلك من السَّيدة عائشة ، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّةً ، ولكلِّ زواج حكمةً وسبباً ، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمَّد ﷺ ، ورفعة شأنه ، وكمال أخلاقه(٢) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٨ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

ثانياً: اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة الشَّريفة:

لمَّا بلغ محمَّد ﷺ خمساً وثلاثين سنةً، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق، وسيلٍ جارفٍ؛ صدَّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً[(١)] فوق القامة، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها، ويسقفوها، ولكنَّهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثمَّ قام عليها، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[(٢)] آخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ، واشترك سادة قريش، وشيوخها في نقل الحجارة، ورفعها، وقد شارك النَّبيُّ ﷺ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنَّبيِّ ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض[(٣)]، وطمحت عيناه إلى السَّماء، ثمَّ أفاق، فقال: «إزاري! إزاري!»، فشدَّ عليه إزاره [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)].

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسجد. فلمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد ﷺ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا. فلمَّا أخبروه الخبر، قال: «هلمُّوا ثوباً»، فأتوه به، فوضع الرُّكن فيه بيديه، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه، حتَّى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده، ثمَّ بنى عليه. [الحاكم (١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩) وعبد الرزاق (٥/ ١٠٠ ـ ١٠١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٦ ـ ٥٧)].

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها، لأنَّهم

(١) الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.

(٢) الأسنمة: جمع سنام، وهو أعلى ظهر البعير.

(٣) ففعل ذلك، فوقع.

شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيِّبةٌ ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[١].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ أهمِّيَّة الكعبة ، وقداستها عند قريش ، ويكفي أن باشر تأسيسها ، ورفع قواعدها إبراهيم ، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ بأمرٍ من الله تعالى ؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

٢ ـ بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها ، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ يعينه ابنه إسماعيل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، والثانية : فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة ، واشترك في بنائها النَّبيُّ ﷺ ، والثالثة : عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية ، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم ، فأعاد ابن الزُّبير بناءها ، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير ، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ ﷺ[٢] ؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت ، وزاد فيه الأذرع السِّتَّة التي أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين : أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منه ، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله ﷺ : «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ ؛ لأمرت بالبيت ، فهُدم ؛ فأدخلت فيه ما أُخرجَ منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغتُ به أساس إبراهيم» [البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣/ ٤٠١)].

٣ ـ طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً ، وعادلةً ، ورضي بها الجميع ، وحقنت دماءً كثيرةً ، وأوقفت حروباً طاحنةً ، وكان مِنْ عدل حكمه ﷺ أن رضيت به جميع القبائل ، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى ، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله ﷺ ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله ﷺ من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية ، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع ، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد ﷺ ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي ، ولا يفسد ، وهو الأمين على البيت ، والأرواح ، والدِّماء[٣].

٤ ـ إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ ﷺ الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[٤] ،

---

(١) انظر : وقفات تربويَّة ، ص ٥٧ ، وانظر : رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٩ ، ٣٠).
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٧ ، ٥٨.
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥.
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٦).

وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه ﷺ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه، ووضعُه في مكانه من البيت(١).

٥ ـ إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلٰهيِّ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله ﷺ بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشكلات بأقرب طريقٍ، وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلِّها ﷺ، وذلك معلمٌ من معالم رسالته، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ، وأكمله(٢).

٦ ـ من حفظ الله لنبيِّه ﷺ في شبيبته، عن أقذار الجاهليَّة، وأدرانها، ومعائبها، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر، أثناء بناء الكعبة، ورفع إزاره على رقبته، فخرَّ إلى الأرض، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّماء، ثمَّ أفاق يقول: إزاري! إزاري! فشد عليه إزاره، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً ﷺ [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)].

ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ ﷺ:

شاءت حكمة الله تعالى، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوّة محمَّد ﷺ بأمورٍ؛ منها:

١ ـ بشارات الأنبياء بمحمَّد ﷺ:

دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وذكر القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد ﷺ، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبشَّر به عيسى عليه السلام، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة (١/ ١٧٥).

وأعلمَ اللهُ تعالى جميع الأنبياء ببعثته ، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به ، واتِّباعه؛ إن هم أدركوه[1] ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١].

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة ، والإنجيل ، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد ﷺ ، إلا توراة (السَّامرة) ، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي ، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً ، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد ﷺ ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ، ونصُّ العبارة :

«٢٩ ـ فاحتجب الله ، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس . ٣٠ ـ فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب : لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[2] .

قال ابن تيميَّة : «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال : «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه :

أحدها : ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب .

الثاني : إخبار من وقف على تلك الكتب ، ممَّن أسلم ، وممَّن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار : أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنَّه رسولُ الله ، وأنَّه موجودٌ عندهم ، وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لمَّا دعاهم إلى الإسلام ، حتَّى آمن الأنصار به ، وبايعوه»[3] .

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه ، وكان من أصحاب بدرٍ ، قال : «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ بيسيرٍ ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً ، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ، والميزان ، والجنَّة ، والنَّار ، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ ، وأصحاب أوثان ، لا يرون : أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت . فقالوا له : ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً : أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنَّةٌ ، ونارٌ ، ويُجزون

---

(١) انظر : دراسة تحليلية لشخصية الرَّسول ﷺ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) انظر : السِّيرة النبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٨).
(٣) انظر : الجواب الصَّحيح ، لابن تيميَّة (١/ ٣٤٠).

فيها بأعمالهم؟! قال: نعم ، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[(١)] في الدُّنيا يحمونه ، ثمَّ يدخلونه إيَّاه ، فيطبق به عليه[(٢)] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكَّة ، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه ؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار ، حتَّى بعث الله تعالى رسوله ﷺ ، وهو حيٌّ بين أظهرنا ، فآمنَّا به ، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ، وليس به» [أحمد (٣/ ٤٦٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٧٨ ـ ٧٩) وابن هشام (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦)].

وقد قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «قد رأيت أنا من نُسَخِ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ باسمه ، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها ، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيِّ ﷺ ما ليس في أخرى»[(٣)].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة ، فقال: «والله! إنه لموصوف في التَّوراة بصفته في القرآن: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرزاً للأميِّين[(٤)] ، أنت عبدي ، ورسولي ، سمَّيتك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سخَّابٍ في الأسواق[(٥)] ، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، ولن يقبضه الله حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء[(٦)] ؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً» [البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨) وأحمد (٢/ ١٧٤) والبيهقي في الدلائل (/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)].

ومن حديث كعب الأحبار ، قال: «إنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: محمَّدٌ رسول الله ، لا فظٌّ ، ولا غليظٌ ، ولا سَخَّابٌ في الأسواق ، ولا يجزي السَّيئة بالسَّيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، أمَّته الحمَّادون ، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ ، يأتزرون إلى أنصافهم ، ويوضِّئون أطرافهم ، صَفُّهم في الصَّلاة وصَفُّهم في القتال سواءٌ ، مناديهم ينادي في جوِّ

---

(١) التنُّور: الفرن.
(٢) يطبق عليه ، يغلق عليه.
(٣) الجواب الصَّحيح (١/ ٣٤٠).
(٤) حرزاً للأميِّين: حفاظاً لهم.
(٥) السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.
(٦) الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

السَّماء ، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل ، مولده بمكَّة ، ومهجره بطابة ، وملكه بالشَّام» [البيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)] .

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوّته ﷺ :

أخبر سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه في قصَّة إسلامه المشهورة ، عن راهب عَمُّورية حين حضرته المنيَّة ، قال لسلمان : «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين ، بينهما نخلٌ ، به علاماتٌ لا تخفى ، يأكل الهديَّة ، ولا يأكل الصَّدقة ، بين كتفيه خَاتم النُّبوَّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ؛ فافعل» .

ثمَّ قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة ، واسترقاقه ، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة ، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة ، فلم يأكل منه الرَّسول ﷺ ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية ، وأكله منه ، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه ، وإسلامه على إثر ذلك» [أحمد (٥/ ٤٤١ ـ ٤٤٤) والحاكم (٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٨٣ ـ ٩٧) وأبو نعيم في دلائله (١٩٩) وابن هشام (١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٤)] .

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ومن ذلك قصَّة أبي التَّيِّهان ، الَّذي خرج من بلاد الشَّام ، ونزل في بني قريظة ، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بسنتين ، فإنَّه لما حضرته الوفاة ؛ قال لبني قريظة : يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخَمر ، والخمير ـ الشَّام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني : الحجاز ـ؟ قالوا : أنت أعلم . قال : إنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث ، فأتَّبعه .

وقد شاع حديث ذلك ، وانتشر بين اليهود ، وغيرهم ، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة : إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[١] ، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار ، وقد قالوا : «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى ، وهداه ؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود ، وكُنَّا أهلَ شركٍ ، أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتابٍ ، عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ؛ قالوا لنا : إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ ، وإرم»[٢] .

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسلَّم رسالة النَّبيِّ ﷺ : «وقد كنت أعلم : أنَّه خارجٌ ، ولم

---

(١) انظر : دراسة تحليليَّة ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٠٧ .
(٢) ابن هشام بإسنادٍ حسن (١/ ٢٣١) .

أكن أظنُّ: أنَّه منكم» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

٣ ـ الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس:

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيِّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون، ومعلِّمون من أفراد النَّاس، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد، أو إزالة عادةٍ من العادات، أو قبول عبادةٍ من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ، ولا مصرٌ.

ولكنَّ القضيَّة كانت قضية إزالة أنقاض الجاهليَّة، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ، تراكمت عبر القرون، والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء، والمرسلين، وجهود المصلحين، والمعلمين، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كلَّه، ويؤوي الأمم كلَّها، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد، واستئصال شأفة الوثنيَّة، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ، ولا أثرٌ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله، وعبادته، وخدمة الإنسانيَّة، والانتصار للحقِّ يتغلَّب على كلِّ رغبةٍ، ويقهر كلَّ شهوةٍ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بِحُجَزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والآخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون، ولا تصوير أبلغ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنِّ ببعثة محمَّد ﷺ[1] : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٤ ـ إرهاصات نبوَّته ﷺ:

ومن إرهاصات نبوَّته ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إنِّي لأعرفه الآن» [أحمد (٥/٨٩) ومسلم (٢٢٧٧) والترمذي (٣٦٢٤)] ومنها: الرُّؤيا الصَّادقة، وهي أول ما بدئ له من

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة، لسعيد حوَّى (١/ ١٨٠، ١٨١).

الوحي ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] وحُبِّب إليه ﷺ العزلة ، والتَّحنُّث «التعبد» ، فكان يخلو في غار حراء - وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليِّ الغربيِّ من مكَّة - ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارةً عشرة ، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر ، ثمَّ يعود إلى بيته ، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى ، ويعود إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[١] .

* * *

(١) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٠ .

الفصل الثَّاني
نزول الوحي والدَّعوة السِّرِّيَّة

المبحث الأوَّل
نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين ﷺ

كان النَّبيُّ ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره ، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون ، وخالقه ، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته ، فتزوَّد لليالٍ أخرى[1] ، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[2] ، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها ، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح ، وكتب السُّنن ، والمسانيد ، وكتب التاريخ» ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ ، فكان يخلو بغار حراء ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالي ذواتِ العددِ ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها ، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ ، فجاءه المَلكُ ، فقال: اقرأ ، قال: «ما أنا بقارئٍ». قال: «فأخذني ، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارئٍ ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئٍ ، فأخذني فغطَّني الثالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]» .

فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زَمِّلُوني ، زَمِّلُوني ، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي ، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ[3] ،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة ، للعلي ، ص ٦٧ .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٢٥).
(٣) تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء.

وتُكسبُ المعدومَ[١]، وتقري الضَّيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ[٢]. فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّىٰ ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[٣] الَّذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[٤]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[٥]، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ، وفَتَـرَ الوحي[٦]» [سبق تخريجه].

عندما نتأمل في حديث السَّيدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرُّؤيا الصَّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ أوَّل ما بُدئ به محمَّد ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة، وتسمَّى أحياناً بالرُّؤيا الصَّادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبةٌ ينشرح لها الصَّدر، وتزكو بها الرُّوح[٧]. ولعلَّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام: أنَّه لو لم يبتدئه بالرُّؤيا، وأتاه الملك فجأةً، ولم يسبق له أن رأى مَلَكاً من قبل، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقَّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أوَّلاً في المنام ليتدرب عليه، ويعتاده[٨]. والرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة ـ كما ورد في الحديث الشَّريف ـ [البخاري (٦٩٨٣) وأحمد (٣/ ١٢٦) وابن ماجه (٣٨٩٣)] وقد قال العلماء: «وكانت مدَّة الرُّؤيا الصَّالحة ستَّة أشهرٍ» ذكره البيهقيُّ، ولم ينزل عليه شيءٌ من القرآن في النَّوم؛ بل نزل كلُّه يقظةً.

والرُّؤيا الصَّالحة من البشرى في الحياة الدُّنيا، فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «أيها النَّاسُ! إنَّه

---

(١) وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.
(٢) نوائب الحقِّ: الكوارث، والحوادث.
(٣) النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.
(٤) جَذعاً: شاباً قوياً.
(٥) مؤزَّراً: قوياً بالغاً.
(٦) فتر الوحي: تأخَّر نزوله.
(٧) انظر: طريق النُّبوَّة والرِّسالة، لحسين مؤنس، ص ٢١.
(٨) انظر: منامات الرَّسول ﷺ، لعبد القادر الشيخ إبراهيم، ص ٥٧.

لم يبقَ من مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا الصَّالحة ، يراها المسلم ، أو تُرَى له» [أحمد (١/ ٢١٩) ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦) والنسائي (٢/ ١٨٩) وابن ماجه (٣٨٩٩)] .

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة ، فيصحو منشرحَ الصَّدر ، متفتِّح النَّفس لكلِّ ما في الحياة من جمال[١] . لقد أجمعت الرِّوايات من حديث (بدء الوحي) أنَّ أول ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة ، يراها في النَّوم فتجيء في اليقظة كاملةً ، واضحةً كما رآها في النَّوم ، لا يغيب عليـه منها شيءٌ ، كأنَّما نقشت في قلبـه ، وعقلـه ، وقد شَبَّهت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي من أفصح العرب ـ ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها من كمال وضوحها ، بظهور ضوء الصُّبح ينفلق عنه غبش الظَّلام ، وهو تصويرٌ بيانيٌّ لا تنفلق دنيا العرب في ذُرَا فصاحتهم عن أبلغ منه[٢] .

ثانياً : ثمَّ حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه :

وقبيل النُّبوَّة حُبِّب إلى نفس النَّبيِّ ﷺ الخلوة ؛ ليتفرغ قلبه ، وعقله ، وروحه إلى ما سَيُلقى إليه من أعلام النُّبوَّة ، فاتَّخذ من غار حراء مُتَعَبَّداً ؛ لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق ، استجماعاً لقواه الفكريَّة ، ومشاعره الرُّوحية ، وإحساساته النَّفسيَّة ، ومداركه العقليَّة ، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون ، وخالق الوجود[٣] . والغار الذي كان يتردَّد عليه الحبيب المصطفى ﷺ يبعث على التأمُّل ، والتفكُّر ، تنظر إلى منتهى الطَّرْف فلا ترى إلا جبالاً كأنَّها ساجدةً متطامنةً لعظمة الله ، وإلا سماءً صافيةَ الأديم ، وقد يرى مَنْ يكون فيه مكَّة إذا كان حادَّ البصر[٤] .

كانت هذه الخلوة الَّتي حُببت إلى نفس النَّبيِّ ﷺ لوناً من الإعداد الخاصِّ ، وتصفية النَّفس من علائق المادِّيَّة البشريَّة ، إلى جانب تعهُّده الخاص بالتَّربية الإلٰهيَّة ، والتَّأديب الرَّبَّانيِّ في جميع أحواله ، وكان تعبُّده ﷺ قبل النُّبوَّة بالتفكُّر في بديع ملكوت السَّموات ، والنَّظر في آياته الكونيَّة الدَّالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ومحكم تدبيره ، وعظيم إبداعه[٥] .

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك ؛ لتنوير قلبه ، وإزالة ظلمته ، وإخراجه من غفلته ، وشهوته ، وهفوته ، ومن سنن النَّبيِّ ﷺ سنَّة الاعتكاف في رمضان[٦] ، وهي مهمَّةٌ لكلِّ مسلمٍ سواءً كان حاكماً ، أو

---

(١) انظر : طريق النُّبوة والرِّسالة ، ص ٢٢ .
(٢) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٥٤) .
(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٥٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢٥٦) .
(٥) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٤٦٩) .
(٦) انظر : الأساس في السنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ١٩٥) .

عالماً ، أو قائداً ، أو تاجراً؛ لتنقية الشَّوائب الَّتي تعلق بالنُّفوس والقلوب ، ونصحِّح واقعنا على ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب(١) .

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفسهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّاملة ، والتَّوبة ، والتأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ ، أو ضعفٍ ، واكتشاف عوامل الخلل ، ومعرفة الواقع بتفاصيله ، خيره وشرِّه. ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد ، وأصبحت الدُّنيا مؤثرةً ، ومتابعة الهوى مطلباً ، ولابدَّ أن تكون إيجابيةً وليست سلبية ، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقِّ(٢) .

وفي قول السَّيدة عائشة رضي الله عنها : «فيتحنَّث الليالي ذوات العدد» ، يقول الشيخ محمَّد عبد الله دراز : «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلَّة ، ولا إلى نهاية الكثرة ، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النَّبيُّ ﷺ قبل البعثة من التوسُّط ، والاقتصاد في الأعمال ، شعاراً للملَّة الإسلامية ، ورمزاً للهدي النَّبويِّ الكريم ، بعد أن أرسله الله رحمةً للعالمين»(٣) .

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء: جاء الملك ، فقال: اقرأ ، قال: «قلت: ما أنا بقارئ. . . فأخذني فغطَّني الثَّالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ ـ ٤]» .

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أوَّل شيءٍ نزل من القرآن الكريم ، وفيها التَّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقةٍ ، وإنَّ من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارةً يكون في الأذهان ، وتارةً يكون في اللِّسان ، وتارةً يكون بالكتابة بالبنان(٤) ، وبهذه الآيات كانت بداية نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ، لقد كان هذا الحادث ضخماً ، ولقد عبَّر عنه سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله ، فقال: «إنَّه حادثٌ ضخمٌ جداً ، ضخمٌ إلى غير حدٍّ ، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا! إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته ، وضخمٌ بدلالته ، وضخمٌ بآثاره في حياة البشريَّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغةٍ ـ أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل.

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان.
(٢) انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمَّد العبده.
(٣) المختار من كنوز السُّنَّة ، (ص ١٩) ، ط٢ ١٩٧٨ دار الأنصار ، القاهرة.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

حقيقته: أنَّ الله ـ جلَّ جلاله، العظيم، الجبَّار، القهَّار، المتكبِّر، مالك الملك كلِّه ـ قد تكرَّم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسمَّاة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يُرى، هذا الرُّكن الَّذي يُسمَّى الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها ليكون ملتقى نوره الإلٰهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثِّل قدره الَّذي يريده ـ سبحانه ـ لهذه الخليقة»[١].

كانت بداية الوحي الإلٰهي فيها إشادة بالقلم، وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشُّعوب، والأمم، وفيها إشارةٌ واضحةٌ بأنَّ من أخصِّ خصائص الإنسان العلمَ والمعرفة[٢].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة، ومنزلة العلم في الإسلام، فأوَّل كلمةٍ في النُّبوَّة تصل إلى رسول الله ﷺ هي الأمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحثُّ على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميِّزهم على غيرهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

إنَّ مصدر العلم النافع من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو الَّذي علَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشريَّة عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيُّد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها، وسبباً في إبادتها[٣].

رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ ﷺ، ووصفُ ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ ﷺ مراراً حتَّى أجهده، وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدَّةً، وتعباً، وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] كان في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين، وعظمته، وشدَّة الاهتمام به، وبيانٌ للأمَّة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدَّةٍ، وكرب[٤].

إنَّ ظاهرة الوحي معجزةٌ خارقةٌ للسُّنن، والقوانين الطَّبيعيَّة، حيث تلقَّى النَّبيُّ ﷺ كلام الله «القرآن» بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وبالتَّالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام، أو

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٢٦٠).
(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، ص ٣٤.
(٤) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ٣٠، ٣١).

التأمُّل الباطنيِّ ، أو الاستشعار الدَّاخلي ، بل إنَّ الوحي يتمُّ من خارج ذات النَّبيِّ ﷺ ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى ، وتبليغه ، وأمَّا بيانه ، وتفسيره فيتمُّ بأسلوب النَّبيِّ ﷺ كما يظهر في أحاديثه ، وأقواله ﷺ(١) .

إنَّ حقيقة الوحي هي الأساس الَّذي تترتَّب عليه جميع حقائق الدِّين ، بعقائده ، وتشريعاته ، وأخلاقه؛ ولذلك اهتمَّ المستشرقون ـ والملاحدة من قبلهم ـ بالطَّعن والتَّشكيك في حقيقة الوحي ، وحاولوا أن يُؤوِّلوا ظاهرة الوحي ، ويحرِّفوها عن حقيقتها ، عمَّا جاءنا في صحاح السُّنَّة الشَّريفة ، وحدَّثنا به المؤرِّخون الثِّقات ، فقائل يقول : إنَّ محمَّداً ﷺ تعلَّم القرآن ، ومبادئ الإسلام من بحيرا الرَّاهب ، وبعضهم قال : بأنَّ محمَّداً كان رجلاً عصبياً ، أو مصاباً بداء الصَّرع(٢) .

والحقيقة تقول : إنَّ محمَّداً ﷺ وهو في غار حراء فوجئ بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له : اقرأ ، حتَّى يتبيَّن : أنَّ ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مَرَدُّهُ إلى حديث النَّفس المجرَّد ؛ وإنَّما هو استقبالٌ وتلقٍّ لحقيقةٍ خارجيَّةٍ لا علاقة لها بالنَّفس ، وداخل الذات . وضمُّ الملك إيَّاه ، ثمَّ إرساله ثلاث مرَّات قائلاً في كلِّ مرَّة : اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقِّي الخارجيِّ ، ومبالغةً في نفي ما قد يتصوَّر ، من أنَّ الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ولقد أصيب النَّبيُّ ﷺ بالرُّعب ، والخوف ممَّا سمع ، ورأى ، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده ، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن متشوِّقاً للرِّسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للنَّاس(٣) ، وقد قال الله تعالى تأكيداً لهذا المعنى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] وقال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٥ ـ ١٦] .

لقد تساقطت آراء المشكِّكين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصَّحيح الَّذي حدَّثتنا به السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد استمرَّ الوحي بعد ذلك يحمل الدَّلالة نفسها على حقيقة الوحي ؛ وأنَّه ليس كما أراد المشكِّكون . وقد أجمل الدُّكتور البوطي هذه الدَّلالة فيما يلي :

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٢٩) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤ .
(٣) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤ .

١ ـ التمييز الواضح بين القرآن ، والحديث ؛ إذ كان يأمر بتسجيل الأوَّل فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثَّاني ذاكرة أصحابه ؛ لا لأنَّ الحديث كلام من عنده لا علاقة للنُّبوَّة به ؛ بل لأنَّ القرآن موحى به إليه بألفاظه ، وحروفه بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث ؛ فمعناه وحي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن لفظه ، وتركيبه من عنده ﷺ ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذي يتلقَّاه من جبريل بكلامه هو ﷺ .

٢ ـ كان النَّبيُّ ﷺ يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عنها ، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويلٌ ، حتَّى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرَّف الرَّسول ﷺ في بعض الأمور على وجهٍ معين ، فتتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عَتْبٍ ، أو لومٍ له .

٣ ـ كان رسول الله ﷺ أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النَّفسيَّة حقائق تاريخيَّةً ، كقصَّة يوسف عليه السلام ، وأمِّ موسى حينما ألقت وليدها في اليمِّ ، وقصَّة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أمياً . يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] .

٤ ـ إنَّ صدق النَّبيِّ ﷺ أربعين سنةً مع قومه ، واشتهاره فيهم بذلك يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدَّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أيِّ شكٍّ يخايل لعينيه ، أو فكره ، وكأنَّ هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤] .

ولهذا روي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشكُّ ، ولا أسأل» [عبد الرزاق (١٠٢١١) والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٩)] .

خامساً: أنواع الوحي:

تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي ، فذكروا منها :

١ ـ الرُّؤيا الصَّادقة :

وكانت مبدأ وحيه ﷺ ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ» ، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

٢ ـ الإلهام :

وهو أن ينفث الملك في رُوْعِه ـ أي: قلبه ـ من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : «إنَّ روح القدس

نَفَثَ في رُوْعي» أي: إنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي ، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها ، وأجلها؛ فاتَّقوا الله ، وأجْمِلوا في الطَّلب» [البغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٠٤) برقم (٤١١٢) وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٨٤)] .

٣ ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس :

أي مثل صوته في القوَّة ، وهو أشَدُّهُ ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّه عليَّ ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال ، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً ، فيكلِّمني ، فأعي ما يقول» [البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣/ ٨٧)] .

٤ ـ ما أوحاه الله تعالى إليه ، بلا وساطة مَلَكٍ :

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام ، وهذه المرتبة هي ثابتةٌ لموسى قطعاً بنصِّ القرآن ، وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء[١] .

٥ ـ أنَّه يرى المَلك في صورته الَّتي خلق عليها :

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه .

٦ ـ أنَّه ﷺ كان يتمثَّل له المَلكُ رجلاً :

فيخاطبه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً[٢] .

هذا ما قاله ابن القيِّم عن مراتب الوحي .

لقد كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ بداية عهدٍ جديدٍ في حياة الإنسانيَّة ، بعدما انقطع ، وتاهت البشرية في دياجير الظَّلام .

وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله ﷺ ـ كما هو واضحٌ من النَّصِّ ـ بالرَّغم من أنَّه كان أشجع النَّاس ، وأقواهم قلباً ، كما دلَّت على ذلك الأحداث خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً ؛ وذلك ؛ لأنَّ الأمر ليس مخاطبة بشرٍ لبشر ، ولكنَّه كان مخاطبة عظيم الملائكة ، وهو يحمل كلام الله تعالى ؛ ليستقبله من اصطفاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لحمل هذا الكلام وإبلاغه لجميع البشر .

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤوليَّةً عظمى ، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرِّسالة ، وتبليغها[٣] .

---

(١) انظر : الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعية ، لأسامة عبد القادر ، ص ١٠٨ .
(٢) انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٣ ـ ٣٤) .
(٣) انظر : التاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر ، للحميدي (١/ ٦٠) .

وممَّا يُصَوِّر رهبة هذا الموقف ، ما جاء في هذه الرِّواية ، من قول رسول الله ﷺ : «لقد خشيت على نفسي» ، وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث : «فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، قال : زمِّلوني ! زملوني ! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع» .

وممَّا يبيِّن شدَّة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، ما أخرجه الإمام البخاريُّ ، ومسلمٌ - رحمهما الله ! - من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «ولقد رأيته - تعني : رسول الله ﷺ - ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد ، فيَفصم عنه ، وإنَّ جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً» [البخاري (٢) ومسلم (٨٦/٢٣٣٣)] وحديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال : «كان نبيُّ الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي ؛ كُرِبَ لذلك ، وتَرَبَّد وجهُه» [مسلم (٢٣٣٤) وأحمد (٥/ ٣١٧)] .

سادساً : أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة :

«فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زمِّلوني ! زملوني ! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحقِّ» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدلُّ على قوَّة قلبها ؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر ، واستقبلت الأمر بهدوءٍ ، وسكينةٍ ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل ، وعرضها الأمر عليه[1] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها ؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ ﷺ ، فأدركت : أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير ، والإحسان إلى النَّاس ؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه ، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس[2] .

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه ، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ ﷺ من رصيد الأخلاق ، وفضائل الشَّمائل ، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس ،

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميَّ ، للحميدي (١/ ٦١) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٦٤) .

وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّة الَّتي شهدت آياتها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ ﷺ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر[١].

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة، وفضائل الشِّيم المرضيَّة، وأشرف الشَّمائل العليَّة، وأكمل النَّحائز[٢] الإنسانيَّة، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح، والفلاح، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ[٣]، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ ﷺ بتلك الصِّفات: أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة: أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته، ومحمَّدٌ ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل، ولا تُسَامَى[٤].

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ ﷺ على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل ـ رحمه الله! ـ الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ آخر الزَّمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب من دنوِّ زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ ﷺ وتقوية قلبه، وقد أخْبَرَ النَّبيَّ ﷺ بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى، وأنبيائه ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ ﷺ قوله:

لَـجَجْـتُ وكنـتُ فـي الـذِّكْـرى لَجُـوجَـا ... لِهَـمٍّ طَـالَمَـا بَعَـثَ النَّشِيجَـا

وَوَصْـفٍ مِـنْ خَـدِيجـةَ بَعْـدَ وَصْـفٍ ... فقَـدْ طَـالَ انْتِظَـارِي يـا خَـدِيجَـا

بِبَطْـنِ المكَّتَيْـنِ[٥] عَلَـىٰ رَجَـائـي ... حَـدِيثَـكِ أن أرَى مِنْـهُ خُـرُوجـا

بمـا خَبَّـرْتِنَـا مِـنْ قَـوْلِ قَـسٍّ ... مِـنَ الـرُّهْبَـانِ أكْـرهُ أن يَعُـوجَـا

(١) انظر: محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧).

(٢) النحائز: جمع النَّحيزة، وهي الطبيعة، يقال: هو كريم النَّحيزة.

(٣) انظر: محمد رسول الله، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٤) انظر: محمد رسول الله، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٣٢).

(٥) بطن المكَّتين: جانبي مكَّة، أو بطاحها، وظواهرها.

بأنَّ مُحمَّداً سَيَسُود فِينَا ويَخْصِمُ مَنْ يكُونُ لـه حَجِيجا[١]

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النَّبيِّ ﷺ ، وشهد له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة ، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «لا تسبُّوا ورقة ، فإنِّي رأيت له جنَّةً ، أو جنَّتين» [الحاكم (٢/ ٦٠٩) والبزار (٢٧٥٠ و٢٧٥١) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها : أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة ، فقال : «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض» . قال الهيثميُّ : وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل ، فقال : «أبصرته في بُطْنان[٢] الجنَّة وعليه السُّندس» [أبو يعلى (٢٠٤٧) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١٦)] .

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيِّ ﷺ ؛ لما لها من شخصيةٍ في مجتمع قومها ، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسيَّة ، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية ؛ من الرَّحمة ، والحلم ، والحكمة ، والحزم ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق . والرَّسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة ؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين ، وخاصَّةً الدُّعاة إلى الله ، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال ، من التأسِّي برسول الله ﷺ ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[٣] .

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة ، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة ، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ ، ورسالةٍ ، هَمٌّ على ضياع أمَّته ، وانتشار الفساد ، وزيادة شوكة أهله ، وهَمٌّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، من مؤامراتٍ ، وظلمٍ ، وجوعٍ ، وإذلالٍ ، وما يصيب الدُّعاة منهم من تشريدٍ ، وتضييقٍ ، وتنكيلٍ ، وبعد ذلك هو صاحب رسالة ؛ واجب عليه تبليغها للآخرين ، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه ، وراحته ، وأوقات زوجته ، وأبنائه ، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت ، والدُّنيا بأسرها ، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته ، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق ، والتَّقوى ، والجمال ، والحسب ما أوتيت ، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة ، وأهمِّيتها ، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤) .
(٢) بُطنان : البُطنان من الشَّيء : وسطُه .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ٦٩) .

وما يتحمَّله من أعباء ، وما يعانيه من مشاقّ ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها ، لا أن تقف عائقاً ، وشوكةً في طريقه[١] .

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة ، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها ، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ ﷺ وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ ، ولا شكَّ : أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة ، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة ، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس ، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمَّله البشر ، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صالحةٍ ذات كفاءةٍ ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أسباب نجاحه مع الآخرين[٢] ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «الدُّنيا متاعٌ ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ» [أحمد (٢/١٦٨) ومسلم (١٤٦٧) والنسائي في السنن الكبرى (٥٣٢٥) وابن ماجه (١٨٥٥)] .

سابعاً : وفاء النَّبيِّ ﷺ للسَّيدة خديجة رضي الله عنها :

كان رسول الله ﷺ مثالاً عالياً للوفاء ، وردِّ الجميل لأهله ، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها ، وبعد مماتها ، وقد بشَّرها ﷺ ببيتٍ في الجنَّة في حياتها ، وأبلغها سلام الله ـ جلَّ وعلا ـ وسلام جبريل عليه السلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتتك ، معها إناءٌ فيه إدامٌ ـ أو طعامٌ ، أو شرابٌ ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها ـ عزَّ وجلَّ ـ ومني ، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَبٍ[٣] لا صَخَبَ فيه ، ولا نَصَبَ» [البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)] .

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النَّبيِّ ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها : «ما غرتُ على أحدٍ من نساء النَّبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكنْ كان النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذكرها ، وربما ذبح الشَّاة ، ثمَّ يُقطِّعُها أعضاء ، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟ فيقول : إنَّها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد» [البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) واللفظ للبخاري] .

وأظهر ﷺ البشاشة ، والسُّرور لأخت خديجة ، لمَّا استأذنت عليه لتذكُّره خديجة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة[٤] فارتاح لذلك ، فقال : اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت ، فقلت : وما تَذْكُرُ من

---

(١) انظر : وقفات تربوية من السِّيرة النبوية ، للبلالي ، ص ٤٠ .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي : (١/٦٨) .
(٣) يعنى من لؤلؤ ، أو ذهب .
(٤) يعني : لتشابه صوتيهما .

عجوزٍ من عجائز قريش ، حمراء الشِّدْقَيْنِ[1] هلكت في الدَّهر ؛ فأبدلك الله خيراً منها» [البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧)] . وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة ، وبيَّن : أن حفظ العهد من الإيمان[2] .

ثامناً: سنَّة تكذيب المرسلين :

«يا ليتني فيها جَذَعاً! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ : «أوَ مخرجيَّ هم؟!» قال: نعم؛ لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُوديَ ، وإن يدركْني يومك؛ أنصرْك نصراً مؤزراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] ، فقد بيَّن الحديثُ سنَّةً من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجل ـ وهي التَّكذيب ، والإخراج ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل : ٥٦] .

وكما قال قوم شعيب : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

تاسعاً: قوله : (وفتر الوحي) :

تحدَّث علماء السِّيرة قديماً ، وحديثاً عن فترة الوحي ، فقال الحافظ ابن حجر : وفتور الوحي عبارة عن تأخُّره مدَّةً من الزَّمان ، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الرَّوع ، وليحصل له التَّشوُّف[3] إلى العود[4] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي : «بينا أنا أمشي ؛ إذ سمعت صوتاً من السَّماء ، فرفعت بصري ، فإذا الْمَلَكُ الَّذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السَّماء ، والأرض ، فرُعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني! فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فَحَمِيَ الوحي ، وتتابع» [البخاري (٤) ومسلم (١٦١)] .

وقال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري : «أمَّا مدَّة فترة الوحي ؛ فروى ابن سعدٍ عن ابن عبَّاسٍ ما يفيد : أنَّها كانت أياماً ، وهذا الذي يترجَّح ؛ بل يتعيَّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب ، وأمَّا

---

(١) يعني : لا أسنان لها من الكبر .
(٢) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ٧١) .
(٣) التَّشوُّف : التطلُّع .
(٤) فتح الباري (١/ ٣٦) .

ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاث سنين ، أو سنتين ونصف؛ فلا يصحُّ بحالٍ ، وليس هذا موضع التفصيل في ردِّه. وقد بقي رسولُ الله ﷺ في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة ، والدَّهشة»[١] .

ولقد ذكر البخاريُّ في صحيحه: أنَّه ﷺ حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي منه نفسه؛ تَبَدَّى لَه جبريل ، فقَال: يا محمد! إنَّك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرُّ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدَّى له جبريل ، فقالَ له مثل ذلك [البخاري (٦٩٨٢) وابن حبان (٣٣) والبيهقي في الدلائل (٢/١٣٨)] .

* * *

(١) انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٧٩ ، ٨٠.

المبحث الثَّاني
الدَّعوة السِّرِّيَّة

أولاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ ﷺ معرفة اليقين: أنَّه أصبح نبياً لله الرَّحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه السلام للمرَّة الثَّانية، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذاناً للرَّسول ﷺ بأنَّ الماضي قد انتهى بمنامه، وهدوئه، وأنَّه أمامه عملٌ عظيمٌ، يستدعي اليقظة، والتَّشمير، والإنذار، والإعذار، فليحمل الرِّسالة، وليوجِّه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه؛ فإنَّه مصدر رسالته، ومدد دعوته[١].

وتعدُّ هذه الآيات أوَّل أمرٍ بتبليغ الدَّعوة، والقيام بالتَّبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدَّعوة المحمَّدية، والحقائق الإسلاميَّة؛ الَّتي بُني عليها الإسلام كلُّه، وهي: الوحدانيَّة، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النُّفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النَّفع[٢].

كانت هذه الآيات تهييجاً لعزيمة رسول الله ﷺ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربِّه، فيمضي قُدُماً بدعوته، لا يبالي العقبات، والحواجز. كان هذا النِّداء مُتلطِّفاً ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إيذاناً بشحذ العزائم، وتوديعاً لأوقات النَّوم، والرَّاحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنُّهوض ﴿قُمْ﴾ في عزيمةٍ ناهضةٍ، وقوَّةٍ حازمةٍ، تتحرَّك في اتجاه تحقيق واجب التَّبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التَّبشير. في أوَّل خطابٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ ﷺ بعد فترة الوحي ـ إيذانٌ بأنَّ رسالته تعتمد على الكفاح الصَّبور، والجهاد المرير، ثمَّ زادت الآيات في تقوية عزيمة النَّبيِّ ﷺ، وشدِّ أزره، وحَضِّه على المضيّ قُدُماً إلى غاية ما أُمر به، غير عابىءٍ بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها، فقيل له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: لا تعظم شيئاً من

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٩٠.

(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة، ص ١٨١.

أمور الخلق ، ولا يتعاظمك منهم شيءٌ ، فلا تتهيَّب فعلاً من أفعالهم ، ولا تخشَ أحداً منهم ، ولا تعظِّم إلا ربَّك ، الَّذي تعهَّدك وأنت في أصلاب الآباء ، وأرحام الأمَّهات ، فربَّاك على موائد فضله ، ورعاك بإحسانه وجوده حتَّى أخرجك للنَّاس نبياً ، ورسولاً ، بعد أن أعدَّك خلْقاً وخُلُقاً؛ لتحمل أمانة أعظم رسالاته ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ : فكلُّ تعظيمٍ وتكبيرٍ وإجلال حقٌّ لله تعالى وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، أو شيءٌ من مخلوقاته[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فكأنَّه قيل له ﷺ : فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيَّتك ، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق ، وبما حباك به من نبوَّته؛ ليعدَّك بها ليومك هذا ـ أحوج إلى أن تزداد في تطهُّرك النَّفسيِّ ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء ، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين ، وكمال الرِّسالة في كمال الخُلق الاجتماعيِّ؛ صبراً ، وحلماً ، وعفواً ، وإحساناً ، ودأباً على الجدِّ في تبليغ الدَّعوة إلى الله تعالى ، ولا يثنيك إيذاءٌ ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فكأنَّه قيل له ﷺ : ليكن قصدك ، ونيَّتك في تركك ما تركت فطرةً ، وطبعاً؛ هجره تكليفاً ، وتعبُّداً؛ لتكون قدوة أمَّتك ، وعنوان تطهُّرها بهداية رسالتك[٣].

ثانياً: بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة:

بعد نزول آيات المدثر ، قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله ، وإلى الإسلام سراً ، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته ، وأصدقائه ، وأقرب النَّاس إليه.

١ ـ إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوَّل من آمن بالنَّبيِّ ﷺ من النِّساء ، بل أوَّل من آمن به على الإطلاق ، السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، فكانت أوَّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرَّسول الكريم ﷺ ، وكانت أوَّل من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرَّسول العظيم ﷺ ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول الله ﷺ ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[٤].

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد ، إقامة الصَّلاة ، وقد جاء في

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصادق عرجون (١/ ٥٨٩ ـ ٥٩١) بتصرفٍ كبير.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٢.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٣.
(٤) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، ص ٣٦.

الأخبار حديث تعليم الرَّسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء ، والصَّلاة ، حين افتُرضت على رسول الله : أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة ، فهمز له بعَقِبهِ في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عينٌ ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام ، ورسولُ الله ﷺ ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة ، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله ﷺ كما رأى جبريل توضَّأ ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به ، وصلَّى النَّبيُّ ﷺ بصلاته ، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام ، فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها ، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام ، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله ﷺ ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله ﷺ ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام ، فصلَّت بصلاته . [ابن هشام (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)] .

٢ ـ إسلام عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

وبعد إيمان السَّيدة خديجة ، دخل عليُّ بن أبي طالب في الإسلام ، وكان أوَّل من آمن من الصِّبيان ، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال ، وهو قول الطَّبريِّ ، وابن إسحاق[(١)] ، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربَّى في حجر رسوله ﷺ قبل الإسلام ، حيث أخذه من عمِّه أبي طالب وضمَّه إليه[(٢)] ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ثالث من أقام الصَّلاة بعد رسول الله ﷺ ، وبعد خديجة رضي الله عنها[(٣)] .

وقد ذكر بعض أهل العلم : أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصَّلاة ؛ خرج إلى شعاب مكَّة ، وخرج معه عليُّ بن أبي طالبٍ مستخفياً من أبيه ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصلِّيان الصَّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ليضمَّهما ذلك البيت الطَّاهر التَّقيُّ بالإيمان ، المفعم بصدق الوفاء ، وكرم الْمَنْبِتِ[(٤)] .

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه :

هو أوَّل من آمن بالدَّعوة من الموالي[(٥)] ، حِبُّ النَّبيِّ ﷺ ، ومولاه ، ومُتَبنَّاه : زيد ابن حارثة الكلبيُّ ، الَّذي آثر رسول الله ﷺ على والده ، وأهله ؛ عندما جاؤوا إلى مكَّة لشرائه من رسول الله ﷺ ، فترك رسول الله ﷺ الأمر لزيدٍ ، فقال زيدٌ لرسول الله : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، وأنت منِّي بمنزلة الأب ، والعمِّ ، فقال له والده ، وعمُّه : ويحك ! تختار العبوديَّة على الحرِّيَّة ،

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢٨٤) .
(٢) ابن هشام (١/ ٢٤٦) .
(٣) عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (١/ ١١٥) .
(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ . د . عصمة الدِّين ، ص ٤٢ .
(٥) يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أُعتق ، وهو المراد هنا .

وعلى أبيك، وعمِّك، وأهل بيتك! قال: نعم! وإنِّي رأيت من هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالَّذي أختار عليه أحداً أبداً[١].

٤ ـ بنات النَّبيِّ ﷺ:

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النَّبيِّ ﷺ، كلٌّ من: زينب، وأمُّ كلثوم، وفاطمة، ورقيَّة، فقد تأثَّرْنَ قبل البعثة بوالدهنَّ ﷺ في الاستقامة، وحسن السِّيرة، والتَّنزُّه عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام، وقد تأثَّرن بوالدتهنَّ؛ فأسرعن إلى الإيمان[٢]. وبذلك أصبح بيت النَّبيِّ ﷺ أوَّل أسرةٍ مؤمنةٍ بالله تعالى، منقادةٍ لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النَّبويِّ الأوَّل مكانةٌ عظمى في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ لما حباه الله به من مزايا، وخصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان، وتلاوة القرآن، وإقام الصَّلاة؛ فهو:

* أوَّل مكانٍ تلي فيه وحي السَّماء بعد غار حراء.

* وأوَّل بيتٍ ضمَّ المؤمنة الأولى سابقة السَّبق إلى الإسلام.

* وأوَّل بيت أقيمت فيه الصَّلاة.

* وأول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثَّلاثة السَّابقون إلى الإسلام: خديجة، وعليٌّ، وزيد بن حارثة.

* وأوَّل بيت تعهَّد بالنُّصرة، ولم يتقاعس فيه فردٌ من أفراده ـ كباراً، أو صغاراً ـ عن مساندة الدَّعوة[٣].

يحقُّ لهذا البيت أن يكون قدوةً، ويحقُّ لربَّته أن تكون مثالاً، ونموذَجاً حيّاً لبيوت المسلمين، ولنسائهم، ورجال المؤمنين كافَّةً؛ فالزَّوجة فيه طاهرةٌ، مؤمنةٌ، مخلصةٌ، وزيرة الصِّدق، والأمان، وابن العمِّ المحضون، والمكفول مستجيبٌ، ومعضِّد، ورفيقٌ، والمُتَبَنَّى مؤمنٌ، صادقٌ، مساعدٌ، ومعينٌ، والبنات مصدِّقاتٌ، مستجيباتٌ، مؤمناتٌ، ممتثلات[٤].

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان، وأضاء أركانَه قبسُ نور التَّصديق، فكان بين الزَّوجين التَّجاوب، والتَّكافل، وتمَّ بذلك تجسيد معنى قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ

---

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ، د. محمَّد قلعجي، ص ١٩١.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).
(٣) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ، د. عصمة الدين، ص ٤٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥.

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .

وفيه أيضاً تجسيد ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ في مجال التَّربية في قوله: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه» [البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)] ومن استقامة التَّربية كان بناته رضي الله عنهن من السَّابقات إلى التَّصديق، والإيمان، وهكذا كان للبيت النَّبويِّ مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا، والأنموذج الَّذي نسير على هديه، في المعاشرة، ومثاليَّة السُّلوك بالصِّدق، والتَّصديق، في الاستجابة، والعمل لكلِّ من آمن بالله رباً، وبمحمَّدٍ نبياً، ورسولاً[1]. إنَّ الحقيقة البارزة في المنهج الرَّبانيِّ تشير إلى أهميَّة بناء الفرد الصَّالح، والأسرة الصَّالحة كأوَّل حلقةٍ من حلقات الإصلاح، والبناء، ثمَّ المجتمع الصَّالح، ولقد تجلَّت عناية الإسلام بالفرد المسلم، وتكوينه، ووجوب أن يسبق أيَّ عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزَّاوية في أي بناءٍ اجتماعيٍّ، ولهذا كانت الأسرة هي التي تستقبل الفرد منذ ولادته، وتستمرُّ معه مدَّةً طويلةً من حياته، بل هي الَّتي تحيط به طوال حياته، هي المحضن المتقدِّم الَّذي تتحدَّد به معالم الشَّخصيَّة، وخصائصها، وصفاتها، كما أنَّها الوسيط بين الفرد، والمجتمع، فإذا كان هذا الوسيط سليماً قوياً؛ أمدَّ طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسَّلامة، والقوَّة[2].

ولهذا اهتمَّ الإسلام بالأسرة، واتَّجه إليها، يضع لها الأسس الَّتي تكفل قيامها، ونموَّها نمواً سليماً، ويوجِّهها الوجهة الرَّبَّانيَّة؛ لتكون حلقةً قويَّةً في بناء المجتمع الإسلاميِّ، والدَّولة الإسلاميَّة الَّتي تسعى لصناعة الحضارة الرَّبَّانيَّة في دنيا النَّاس[3].

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ ساعتها الأولى؛ إذ كان من قدر الله تعالى أن يكون أوَّل السَّابقين إلى الإسلام امرأةٌ (خديجة رضي الله عنها)، إشادةً بمنزلة المرأة في الإسلام، وأنَّه يرسي قواعده على الأسرة، وصبيٌّ (علي رضي الله عنه)، إشارةً لحاجة الدَّعوة إلى البراعم الجديدة، واهتمامها بالجيل النَّاشئ؛ لتسير في مراحلها الصَّحيحة لبناء المجتمع، ثمَّ الدَّولة، ثمَّ الحضارة[4].

وإنَّ التَّأمُّل في نقطة البدء بهذه الدَّعوة الَّتي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها، ومولىً كزيد بن حارثة، وصبيٍّ كعليِّ بن أبي طالبٍ، وبقيَّة أسرة النَّبيِّ ﷺ، ليدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة موجهةٌ لكلِّ النَّاس ـ صغيرهم، وكبيرهم، ذكرهم، وأنثاهم،

---

(١) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ، ص ٤٦.
(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، لكامل سلامة، ص ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة، لمحمود الجوهري، ص ٧.

وسيِّدهم ، ومولاهم ـ فلكلٍّ هذه الشَّرائح الاجتماعيَّة من الرِّجال والنِّساء ، والأطفال ، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعيِّ ، وإقامة الدَّولة ، وانتشار الحضارة[١] .

٥ ـ إسلام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه :

كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أوَّل مَنْ آمن بالنَّبيِّ ﷺ من الرِّجال الأحرار ، والأشراف ، فهو من أخصِّ أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وفيه قال رسولُ الله ﷺ : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ، وتردُّدٌ ، ونَظرٌ ، إلا أبا بكر ، ما عَكَم[٢] حين دعوته ، ولا تردَّد فيه» [البيهقي في الدلائل (٢/ ١٦٤)] ، فأبو بكرٍ صاحب رسول الله ﷺ ، وهو حسنةٌ من حسناته ﷺ ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ ، بل كان إسلامه إسلام أمَّةٍ ، فهو في قريشٍ ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ في موقع العين منها :

ـ كان رجلاً مَأْلَفاً[٣] لقومه ، محبباً ، سهلاً .

ـ وكان أنسب قريش لقريشٍ ، وأعلم قريشٍ بها ، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ .

ـ وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلقٍ ، ومعروفٍ .

ـ وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته[٤] .

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادَّخره الله تعالى لنبيِّه ﷺ ، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريشٍ ، فذلك الخُلُق السَّمح الَّذي وهبه الله تعالى إيَّاه جعله من الموطَّئين أكنافاً ، من الذين يألفون ، ويؤلفون ، والخُلُق السَّمح وحدَه عنصرٌ كاف لألفة القوم ، وهو الَّذي قال فيه ﷺ : «أرْحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ» [أحمد (٣/ ١٨٤ ـ ٢٨١) والترمذي (٣٧٩٠ و٣٧٩١) وابن ماجه (١٥٤)] وعِلْمُ الأنساب عند العرب وعلم التَّاريخ هما أهمُّ العلوم عندهم ، ولدى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه النَّصيب الأوفر منهما ، وقريشٌ تعترف للصِّدِّيق بأنَّه أعلمها بأنسابها ، وأعلمها بتاريخها ، وما فيه من خيرٍ وشرٍّ ، فالطبقة المثقَّفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارةً ، ووفرةً ، وسعةً ، ومن أجل هذا كان الشَّباب النَّابهون ، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً ، إنَّهم الصَّفوة الفكريَّة المثقَّفة الَّتي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم ، وهذا جانبٌ آخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال في مكَّة ، هي كذلك من روَّاد مجلس

---

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التَّمكين ، ص ٢٠٨ .
(٢) ما تلبَّث ، بل سارع .
(٣) مألفاً لقومه أي : محبباً فيهم .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٧١) .

الصِّدِّيق ، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكَّة ، فهو من أشهر تجَّارها ، فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده. ولطيبته ، وحسن خلقه تلقى عوامَّ النَّاس يرتادون بيته ، فهو المضياف الدَّمث الخُلُق؛ الَّذي يفرح بضيوفه ، ويأنس بهم ، فكلُّ طبقات المجتمع المكيِّ تجد حظَّها عند الصِّدِّيق ، رضوان الله عليه[١] كان رصيده الأدبيُّ ، والعلميُّ ، والاجتماعيُّ في المجتمع المكيِّ عظيماً ، ولذلك عندما تحرَّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوةٌ من خيرة الخلق ، وهم:

- عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، في الرَّابعة والثلاثين من عمره.
- وعبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه ، في الثَّلاثين من عمره.
- وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، وكان في السَّابعة عشرة من عمره.
- والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، وكان في الثانية عشرة من عمره.
- وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وكان في الثالثة عشرة من عمره[٢].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أوَّل ثمرةٍ من ثمار الصِّدِّيق أبي بكرٍ رضي الله عنه ، دعاهم إلى الإسلام ، فاستجابوا ، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى ، فأسلموا بين يديه ، فكانوا الدِّعامات الأولى؛ الَّتي قام عليها صرح الدَّعوة ، وكانوا العدَّة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده ، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رجالاً ، ونساءً ، وكان كلٌّ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلى الإسلام ، وأقبل معهم رعيل السَّابقين ، الواحد ، والاثنان ، والجماعة القليلة ، فكانوا على قلَّة عددهم كتيبة الدَّعوة ، وحصن الرِّسالة ، لم يسبقهم سابقٌ ، ولا يلحق بهم لاحقٌ في تاريخ الإسلام[٣].

إنَّ تحرُّك أبي بكر رضي الله عنه في الدَّعوة إلى الله تعالى يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين ، والاستجابة لله ورسوله ﷺ؛ صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرارٌ ، ولا يهدأ له بالٌ ، حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما آمن به ، دون أن تكون انطلاقته دفعةً عاطفيَّةً مؤقَّتةً سرعان ما تخمد ، وتذبل ، وتزول ، وقد بقي نشاط أبي بكرٍ ، وحماسه إلى أن توفَّاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لم يفتر ، أو يضعف ، أو يملَّ ، أو يعجز.

ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثرٌ كبيرٌ في كسب أنصارٍ للدَّعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثرَ من غيره[٤].

---

(١) انظر: التربية القياديَّة ، للغضبان (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١١٦).
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لعرجون (١/ ٥٣٣).
(٤) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص ٦٢.

بعد أن كانت صحبة الصِّدِّيق لرسول الله ﷺ مبنيةً على مجرَّد الاستئناس النفسيِّ؛ والخلقيِّ؛ صارت الأنسة بالإيمان بالله وحدَه ، وبالمؤازرة في الشَّدائد ، واتَّخذ رسول الله ﷺ من مكانة أبي بكر ، وأُنْسِ النَّاس به ، ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحقِّ فوق ما كان له ﷺ من قوَّة نفسٍ ، ومكانةٍ عند الله ، وعند النَّاس[1] .

ومضت الدَّعوة سرِّيَّةً ، وفرديَّةً على الاصطفاء ، والاختيار للعناصر؛ الَّتي تصلح أن تتكوَّن منها الجماعة المؤمنة ، الَّتي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ، ودعوة الخلق إلى دين ربِّ العباد ، والَّتي ستقيم حضارةً ربّانيَّةً ليس لها مثيلٌ .

٦ ـ الدُّفْعة الثَّانية :

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إسلام الدُّفعة الأولى ، فأوَّل من أسلم من هذه الدُّفعة : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله ﷺ (برَّة بنت عبد المطلب) ، وأخوه من الرَّضاع ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ ، وفاطمة بنت الخطَّاب بن نفيل ، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سعيد بن زيد ، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وعائشة بنت أبي بكرٍ الصدِّيق ، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة[2] .

٧ ـ الدُّفعة الثالثة :

أسلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعبد الله بن مسعودٍ ، ومسعود بن القاري ، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرٍو ، وسليط بن عمرٍو ، وأخوه حاطب بن عمرٍو ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخُنَيس بن حُذافة السَّهميُّ ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطَّاب ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عُمَيس ، وحاطب بن الحارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلِّل ، وأخوه حطَّاب بن الحارث ، وامرأته فُكَيهة بنت يسار ، وأخوهما معمَر بن الحارث ، والسَّائب بن عثمان بن مظعون ، والمطَّلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَيْد ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ ، وفهيرة : أمُّه ، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَخْبَرة ، فاشتراه الصِّدِّيق ، وأعتقه ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ ، وامرأته أمينة بنت خلف ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ ، وواقد بن عبد

---

(١) انظر : خاتم النَّبيين ، لأبي زهرة ، ص ٣٩٨ .

(٢) انظر : دولة الرَّسول ﷺ ، من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٢ .

الله بن عبد مناف ، وخالدٌ ، وعامرٌ ، وعاقلٌ ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل ، وعمَّار بن ياسرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة ، وقال ابن هشام : عَنْسيٌّ من مَذْحج .

وصُهيب بن سنان ، هو (سابق الرُّوم) .

ومن السَّابقين إلى الإسلام : أبو ذرٍّ الغفاريّ ، وأخوه أُنَيْس ، وأمُّه[١] .

ومن أوائل السَّابقين : بلال بن رباح الحبشيُّ .

وهؤلاء السَّابقون : من جميع بطون قريش ، عدَّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[٢] .

وقال ابن إسحاق : ثمَّ دخل النَّاس في الإسلام أرسالاً من الرِّجال ، والنِّساء ، حتى فشا ذكر الإسلام في مكَّة ، وتُحدِّث به[٣] .

ويتَّضح من عرض الأسماء السَّابقة : أنَّ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم ، ولم يكونوا ـ كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للنَّاس ـ من حثالة النَّاس ، أو من الأرقَّاء ؛ الَّذين أرادوا استعادة حرِّيَّتهم ، أو ما شابه ذلك . وجانب الصَّوابَ بعضُ كُتَّاب السِّيرة لدى حديثهم عن السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، فكان من كتابة بعضهم : «وتُحَدِّثنا السِّيرة : أنَّ الَّذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمُهم خليطاً من الفقراء ، والضُّعفاء ، والأرقَّاء ، فما الحكمة في ذلك؟»[٤] ، وكذلك قولهم :

«كان رصيد هذه الدَّعوة بعد سنواتٍ ثلاثٍ من بدايتها أربعين رجلاً وامرأةً ، عامَّتهم من الفقراء ، والمستضعفين ، والموالي ، والأرقَّاء ، وفي مقدِّمتهم أخلاطٌ من مختلف الأعاجم : صهيبٌ الرُّوميُّ ، وبلالٌ الحبشيُّ»[٥] . وقولهم : «فآمن به ناسٌ من ضعفاء الرِّجال ، والنِّساء ، والموالي»[٦] .

إنَّ البحث الدَّقيق يثبت : أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء ، والمستضعفين ، والموالي والأرقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر ، ونسبة هذا العدد من العدد الكلِّيِّ من الدَّاخلين في الإسلام لا يقال عليه : «أكثرهم» ، ولا «معظمهم» ، ولا «عامَّتهم» .

إنَّ الَّذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافعٌ دنيويٌّ ؛ وإنَّما هو إيمانهم بالحقِّ الَّذي شرح الله

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/ ٢٨٧) .
(٢) انظر : سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٥ إلى ٢٦٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٦٢) .
(٤) فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٧٧ .
(٥) فقه السيرة للبوطي ، ص ٧٩ .
(٦) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، لابن الرَّبيع (١/ ٣٠١) .

صدورهم له، ونصرة نبيِّه ﷺ ، يشترك في ذلك الشَّريف، والرَّقيق، والغنيُّ ، والفقير ، ويتساوى في هـذا أبو بكرٍ ، وبلالٌ ، وعثمـان ، وصهيبٌ رضي الله عنهم[١] .

يقول الأستاذ صالح الشَّامي : نحن لا نريد أن ننفي وجود الضُّعفاء ، والأرقَّاء؛ ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبيَّة؛ لأنَّ هذا مخالفٌ للحقائق الثَّابتة ، ولو كانوا كذلك؛ لكانت دعوةً طبقيَّةً يقوم فيها الضُّعفاء ، والأرقَّاء ضدَّ الأقوياء وأصحاب السُّلطة ، والنُّفوذ ، ككلِّ الحركات الَّتي تقاد من خلال البُطون. إنَّ هذا لم يَدُرْ بِخَلَدِ أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه ، إنَّهم يدخلون في هذا الدِّين على اعتبارهم إخوةً في ظلِّ هذه العقيدة ، عباداً لله ، وإنَّه لمن القوَّة لهذه الدَّعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذَّات من كرام أقوامهم ، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحمَّلوا أصنافاً من الهوان ، ما سبق لهم أن عانوها ، أو فكَّروا فيها[٢] .

لقد كان الإسلام ينساب إلى النُّفوس الطَّيبة ، والعقول النَّيِّرة ، والقلوب الطَّاهرة الَّتي هيَّأها الله لهذا الأمر ، ولقد كان في الأوائل: خديجة ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، وعثمان ، والزُّبير ، وعبد الرَّحمن ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن جحش ، وجعفر ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، وخالد بن سعيد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وهم من سادة القوم ، وأشرافهم[٣] .

هؤلاء هم السَّابقون الأوَّلون ، الَّذين سارعوا إلى الإيمان والتَّصديق بدعوة النَّبيِّ ﷺ .

ثالثاً: استمرار النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة:

استمرَّ النَّبيُّ ﷺ في دعوته السِّرِّيَّة يستقطب عدداً من الأتباع ، والأنصار من أقاربه ، وأصدقائه ، وخاصَّة الَّذين يتمكَّن من ضمِّهم في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ بعد إقناعهم بالإسلام ، وهؤلاء كانوا نعم العون والسَّند للرَّسول ﷺ ؛ لتوسيع دائرة الدَّعوة في نطاق السِّرِّيَّة ، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرَّسول ﷺ ظهرت فيها الصُّعوبة والمشقَّة في تحرُّك الرَّسول ﷺ ومن آمن معه بالدَّعوة ، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شرِّه ، ويثقون به ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة خطواتها بطيئةٌ ، وحذرةٌ ، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقِّي مطالب الدَّعوة من مصدرها ، وصعوبة تنفيذها؛ إذ كان الدَّاخل في هذا الدِّين ملزماً منذ البداية بالصَّلاة ، ودراسة ما تيسَّر من القرآن ـ مثلاً ـ ولم يكن يستطيع أن يصلِّي بين ظَهْرَانَي قومه ، ولا أن يقرأ القرآن ، فكان المسلمون

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠ .

يتخفَّون في الشِّعاب ، والأودية ؛ إذا أرادوا الصَّلاة[١] .

١ ـ الحسُّ الأمنيُّ :

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان ، والسِّرِّيَّة ، حتَّى عن أقرب النَّاس ، وكانت الأوامر النَّبويَّة على وجوب المحافظة على السِّرِّيَّة واضحةً ، وصارمةً ، وكان ﷺ يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا) ، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ ، وتدريبٍ ، لا اختفاء جبنٍ ، وهروبٍ ، حسب ما تقتضيه الخطَّة الرَّبَّانيَّة ، فبدأ الرَّسول ﷺ ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرةٍ ، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين ؛ إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّةٌ ، وسعةٌ من المال ، فيكونان معه ، ويصيبان منه فضل طعامه ، ويجعل منهم حلقاتٍ ، فمن حفظ شيئاً من القرآن ؛ علَّمَ مَنْ لم يحفظ ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخُوَّة ، وحلقات تعليم .

إنَّ المنهج الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ في تربية أتباعه هو القرآن الكريم ، وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي أصحابه تربيةً شاملةً ؛ في العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والحسِّ الأمنيِّ ، وغيرها ، ولذلك نجد في القرآن الكريم آياتٍ كريمةً تَحَدَّثَتْ عن الأخذ بالحسِّ الأمنيِّ ؛ لأنَّ مِنْ أهمِّ عوامل نهوض الأمَّة أن ينشأ الحسُّ الأمنيُّ في جميع أفرادها ، وخصوصاً في الصَّفِّ المنظَّم الَّذي يدافع عن الإسلام ، ويسعى لتمكينه في دنيا النَّاس ، ولذلك نجد النَّواة الأولى للتَّربية الأمنيَّة كانت في مكَّة ، وتوسَّعت مع توسُّع الدَّعوة ، ووصولها إلى دولة ، ومن الآيات المكِّيَّة التي أشارت إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ووجه الاستدلال : أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسَّسوا ، ويبحثوا عن يوسف ، وأخيه ، وفي هذا إقرارٌ من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين ، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ، ويؤكِّد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾[٢] .

ولا شكَّ : أن الصَّحابة كانوا يجمعون المعلومات عمَّن يريدون دعوته للإسلام ، وكانت القيادة تشرف على ذلك ، ولذلك قام النَّبيُّ ﷺ بترتيب جهازٍ أمنيٍّ رفيعٍ ، يشرف على الاتِّصال المنظَّم بين القيادة والقواعد ؛ ليضمن تحقيق مبدأ السِّرِّيَّة .

وفي القرآن المكي نجد قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا

(١) انظر : الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة .
(٢) انظر : الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، لعبد الله علي ، ص ١٠٥ .

يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١١ ، ١٢].

ونلحظ في الآيتين الآتي:

١ ـ استخدام أمِّ موسى مبدأ جمع المعلومات ، والحصول عليها في حفاظها على ابنها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] والقَصُّ إنَّما هو تتبُّع الأثر ، وجمع المعلومات.

٢ ـ اختيار العنصر الأمين ، والحريص في جمع المعلومات؛ لتكون صحيحةً ، وموثَّقةً ، وأمينة ، وقبل ذلك حريصةً على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] ، فأمُّ موسى لم تختر غير أخته؛ لأنَّ الأخت تعتبر من الحريصين ، والأمناء على تلك المصلحة ، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات ، وتحصيل الأخبار ، فمن الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يكون العنصر المرسَل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته ، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

٣ ـ القَصُّ ، والتَّتبُّع بدون إشارةٍ ، أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] إذ نفهم من كلمة ﴿قُصِّيهِ﴾ الانتباه ، وعدم إثارة الأنظار ، ودليل ذلك: أنَّها بصرت به دون أن يشعروا بها.

٤ ـ دقة الملاحظة ، وقوَّة الفراسة في أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

٥ ـ استعملت أختُ موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصريَّة ، وهو التَّخريب الفكري ، فبعد أن نظرت إليهنَّ وهنَّ غير قادرات على إرضاعه؛ قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

٦ ـ محاولة تحقيق الهدف في أثناء جمع المعلومات ، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمَّها بمكانه ، وإنما هي قصَّت الأخبار ، وتوصَّلت إلى مكانه ، وحاولت إعادته إلى أمِّه ، وقد نجحت في هذا[١].

إنَّ هذه الآيات الكريمة تربِّي في حسِّ الصَّحابة الحسَّ الأمنيَّ ، وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدَّعويَّة.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في أبعادها الأمنيَّة منذ تربية الأفراد ، وحتَّى بعد قيام الدَّولة ، وتظهر الحاجة للحركات الإسلاميَّة والدُّول المسلمة لإيجاد أجهزةٍ أمنيَّةٍ متطوِّرةٍ (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام ، والمسلمين من أعدائها ـ اليهود ، والنَّصارى ، والملاحدة ـ وتعمل على حماية الصفِّ المسلم في الدَّاخل من اختراقات الأعداء فيه ، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين ،

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ١١١ ، ١١٢.

والمحاربين للإسلام ، حتَّى تستفيد القيادة من المعلومات الَّتي تقدِّمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنيَّة ، ولابدَّ أن تؤسَّس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وتكون أخلاق رجالها قمَّةً رفيعةً تمثِّل صفات رجال الأمن المسلمين.

إنَّ اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنِّبهم المفاجآت العدوانيَّة ؛ «إذا عرفت العدوَّ ، وعرفت نفسك ، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركةٍ ، وإذا عرفت نفسك ، ولم تعرف العدوَّ فإنك ستواجه الهزيمة في كلِّ معركة»[١].

إن بناء الأجهزة الأمنيَّة ، ومكاتب المعلومات الَّتي تقدِّم للقيادة التَّقارير لوضع الخطط المناسبة على إثرها ليس أمراً جديداً ، بل هو موغلٌ في تاريخ الإنسانيَّة ، وكذلك في تاريخ المسلمين ؛ منذ عصر النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة حتَّى يومنا هذا.

إنَّ من أسباب التَّمكين المهمَّة إعطاء هذا الأمر حقَّه من الاهتمام ، والارتقاء به ، وتطويره بما يناسب أحوال العصر الَّذي نحن فيه[٢]. كان النَّبيُّ ﷺ يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتَّى الجوانب ، ووزَّعهم في أسرٍ ؛ فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ـ وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم ـ كانوا في أسرةٍ واحدةٍ مع نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام بن عديٍّ ، وكان معلِّمهم خبَّاب بن الأرت ، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصر على تجويد تلاوته ، وضبط مخارج حروفه ، ولا على الاستكثار من سرده ، والإسراع في قراءته ؛ بل كان همُّهم دراسته ، وفهمَه ، ومعرفة أمره ، ونهيه ، والعمل به[٣].

كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم ، ويحسب لكلِّ خطوةٍ حسابها ، وكان مدركاً تماماً: أنَّه سيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً ، وجهراً ، وأنَّ هذه المرحلة سيكون لها شدَّتها ، وقوَّتها ، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضي أن يلتقي الرَّسول المربِّي مع أصحابه ، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع ، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع ، فوقع اختيار النَّبيِّ ﷺ وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم ؛ إذ أدرك الرَّسول ﷺ : أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة ، والتَّنظيم ، ووجوب التقاء القائد المربِّي بأتباعه في مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عن الأنظار ؛ ذلك : أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد ، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة ، والنَّظرية ، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة.

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ٣١١.
(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن ، لعلي الصَّلابي ، ص ٣١١.
(٣) انظر: الدَّعوة الإسلاميَّة ، د. عبد الغفار محمَّد عزيز ، ص ٩٦.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة ، وحملة الدَّعوة ، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِّرِّيِّ الدَّقيق ، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلاغ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها ، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم ، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه ، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء[١].

٢ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول ﷺ كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون ، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي[٢] بعيرٍ ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام» [ابن هشام (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)].

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون ، ويتلقَّون عن رسول الله ﷺ كلَّ جديدٍ من الوحي ، ويستمعون له ﷺ وهو يذكِّرهم بالله ، ويتلو عليهم القرآن ، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم ﷺ على عينه كما تربَّى هو على عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ ﷺ[٣].

رابعاً: أهمُّ خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله ﷺ:

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله ﷺ ، قد برزت فيها خصائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة ، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة ، وتصنع الحضارة الرَّائعة ، ومن أبرز هذه الخصائص:

١ ـ الاستجابة الكاملة للوحي ، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم ، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد ، والشَّرائع ، والآداب وغيرها ، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل ـ قرآناً وسنَّةً ـ وذلك بالعلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ،

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٨.
(٢) اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية ، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.
(٣) انظر: التربية القياديَّة (١/ ١٩٨).

ومعرفة ما يجب له ، وما ينزَّه عنه ـ سبحانه وتعالى ـ والعلم بالملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والعلم بالآخرة ، والجنَّة ، والنَّار ، والعلم بالشَّرائع المجملة والمفصَّلة ، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين ، والعلم بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا ، في القصد والغنى ، في الأمن والخوف ، في الخير والشَّرِّ ، في الهدنة والفتنة ، والتزام الدَّليل الشَّرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّحيح[1]. قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي ، وتسليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها:

أ ـ نزاهة قلوبهم ، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصوص ، واستعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله ، ورسوله ﷺ ، والإذعان ، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ ، ولا تردُّدٍ ، ولا إحجامٍ.

ب ـ معاصرتهم لوقت التَّشريع ، ونزول الوحي ، ومصاحبتهم للرَّسول ﷺ ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها ، والعلم بملابسات الواقعة أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه ، وفهمه ، وإدراك مغزاه.

ج ـ وكانت النُّصوص ـ قرآناً وسنَّةً ـ تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم ـ بصورةٍ فرديَّةٍ ، أو جماعيَّةٍ ـ فتخاطبهم خطاباً مباشراً ، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً ، وتعقب في حينها ، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر ، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر ، والاستجابة له.

د ـ قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ ﷺ من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص ، وتصحيحها ، فلم يحتاجوا ـ في غالب أحوالهم ـ إلى سلسلة الإسناد ، ولا معرفة الرِّجال ، والعللِ ، وغيرها ، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره ، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم ـ خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة ، أو من الجهلة الَّذين لم يدرسوا السُّنَّة ، ويفقهوها روايةً ، ودرايةً[2] ـ فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارُهم ، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[3].

---

(١) انظر: صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص ٨٣.
(٢) انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٢ ـ ٩٣.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤.

٢ ـ التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان :

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح ، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسب ، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب ، والجوارح ؛ فقد أورثهم العلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ـ محبَّته ، والتألُّه إليه ، والشَّوق إلى لقائه ، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ ، وأورثهم تعظيمه ، والخوف منه ، والحذر من بأسه ، وعقابه ، وبطشه ، ونقمته ، وأورثهم رجاء ما عنده ، والطَّمع في جنَّته ، ورضوانه ، وحسن الظَّنِّ به ، فاكتملت لديهم ـ بذلك ـ آثار العلم بالله ، والإيمان به ، وهي الحبُّ ، والخوف ، والرَّجاء .

وأورثهم العلم بالجنَّة ، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّرمديِّ ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب ، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه ، وتخشى فوته ، وعذابٍ تحذره ، وتخشى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالآخرة ـ فكرةً ، وخوفاً ، ورجاءً ـ حتَّى كأنَّهم يرون البعث ، والقيامة ، والميزان ، والصِّراط ، والجنَّة ، والنَّار رأيَ العين . وأورثهم علمهم بالقدر ، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه ـ التَّوكُّل على الله ، وعدمَ التَّوكلِ على الأسباب ، وعدم الفرح بما أوتوا ، ولا الأسَى على ما مُنعوا ، والإجمال في الطَّلب ؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر له ، ولن يأتيه ما لم يقدَّر ، كما غرس في نفوسهم الشَّجاعة ، والإقدام . وأورثهم علمُهم بالموت ، وإيمانُهم به ـ العزوفَ عن الدُّنيا ، والإقبال على الآخرة ، والدَّوام على العمل الصَّالح ؛ إذ لا يدري المرء متى يموت ، والموت منه قريب . وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم ، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ ، بل هو ضررٌ في العاجل ، والآجل[١] .

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق ، وأكمل من إيمان غيرهم ، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريّاً من النَّبيِّ ﷺ لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء ، والغفلان[٢] .

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار ، ورهباناً باللَّيل ، لا يمنعهم علمُهم ، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم للهِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة ؛ من بيعٍ ، وشراءٍ ، وحرثٍ ، ونكاحٍ ، وقيامٍ على الأهل ، والأولاد ، وغيرهم فيما يحتاجون إليه ، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس ، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم ، فترتَّب عليه ازدراؤهم ، واحتقارهم لأعمال الآخرين ، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين ، وحطٌّ من قدرهم ،

---

(١) انظر : صفة الغرباء ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٢ .

فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات) ، معظِّمين لأنفسهم ، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ.

والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم ـ وحدهم ـ الأوصياء على الدِّين ، ويغلقون عقولهم ، وأعينهم عن رؤية فضائل الآخرين ، فلا يرون إلا العيوب والمساوئ؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً ، ومساوئ[1].

خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشريَّة ، كيف لا ، وأستاذها هو رسولُ الله ﷺ أستاذ البشريَّة كلِّها ، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة ، والقادة الرَّبانيُّون الَّذين حرَّروا البشرية من رِقِّ العبودية ، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور ، بعد أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ ، ولا ملحوقةٍ؟![2].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسوله ﷺ إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّحابة ، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان ، وأصبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشاهير العالم ، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم ، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة ، والجهاد ، والدَّولة ، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعمرَ بن الخطَّاب ، وعثمان بن عفَّان ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم ﷺ أن يربِّي في تلك المرحلة السرِّيَّة ، وفي دار الأرقم ، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة ، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ ﷺ فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة ، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّاً ليؤهِّلهم لتسلُّم القيادة ، وحمل الرِّسالة ، فالرِّسالات الكبرى ، والأهداف الإنسانيَّة العظمى ، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال ، وكبار القادة ، وعمالقة الدُّعاة. كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا ، وجامعات العالم ، التقى فيها الرَّسول المربِّي ﷺ بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين) ، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة ،

---

(١) انظر: صفة الغرباء ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٩.

والسَّمع ، والطَّاعة ، والقيادة ، وآدابها ، وأصولها ، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله ، والعزيمة ، والإصرار ، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب ، والتَّربية ، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم ، ويقوِّي الهمم ، ويدفع إلى البذل ، والتَّضحية ، والإيثار[١].

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ ﷺ ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجئ بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ ﷺ ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور ، ويكتسب الإيمان ، ويطرح الكفر ، ويقوى على تحمل الشَّدائد ، والمصائب في سبيل دينه الجديد ، وعقيدته السَّمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب ، والتأثير على الآخرين ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض ، والعظمة دائماً تُحَبُّ ، وتحاط من النَّاس بالإعجاب ، ويلتفُّ حولها المعجبون ، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ ، ولكن رسول الله ﷺ يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رسول الله ، مُتلقِّي الوحي من الله ، ومبلِّغه إلى الناس ، وذلك بُعْدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط ، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس ، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلٰهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرَّسول ﷺ البشر العظيم ، والرَّسول العظيم ، ثمَّ يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية ، غير متميِّز البداية ، ولا النِّهاية ، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر ، أو للبشر الرَّسول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله ﷺ ، ويمتزجان في نفسه ، فيصبحان في مشاعره نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها ، ومحور الحركة الشُّعورية ، والسُّلوكية كلِّها ، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة ، ونقطة ارتكازها ، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[٢].

سادساً: المادة الدِّراسيَّة في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدِّراسيَّة الَّتي قام بتدريسها النَّبيُّ ﷺ في دار الأرقم ، القرآنَ الكريمَ ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد ، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى ﷺ على توحيد مصدر التَّلقِّي ، وتفرُّده ، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج ، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، وكان روح القُدُس ينزل بالآيات غضَّةً طريَّةً على رسول الله ﷺ ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرةً ، فتَنْسَكِب في قلوبهم ،

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٠.
(٢) انظر: منهج التَّربيَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

وتتسرَّب في أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم ، وكانت قلوبهم ، وأرواحهم تتفاعل مع القرآن ، وتنفعل به ، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول ﷺ حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادَّة الدِّراسيَّة ، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه ، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القرآن[1].

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القرآن الكريم ، وتوجيهات الحبيب المصطفى ﷺ ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة ، والحياة ، والدَّولة ، والحضارة. كان القرآن الكريم المادَّة الدِّراسيَّة الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد ﷺ ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي ، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة ، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ ، ورائدها النَّاصح ، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها.

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القرآن الكريم بجدِّيَّةٍ ، ووعيٍ ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاته ، والعمل بها بدقَّةٍ تامَّةٍ ، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة ، والمستقبليَّة.

نشأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القرآن الكريم ، وجاؤوا صورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة ، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهيَّة ، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة ، والقادة الرَّبَّانيُّون ، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشريَّة مثيلاً من قبلُ ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله ﷺ ؛ لينشئ به أمَّةً ، ويقيم به دولةً ، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضمائر ، وأخلاقاً ، وعقولاً ، ويبني به عقيدةً ، وتصوُّراً ، وأخلاقاً ومشاعر ، فخرَّج الجماعة المسلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة ، والحربيَّة[2].

سابعاً: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

٢ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضدَّ بني هاشم ، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه ، ولن يخطر في البال أن يكون

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٥.
(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٣٣٥.

اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

٣ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ ﷺ؛ بل يتَّجه نظرها، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه ﷺ.

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة، ولم نسمع أبداً: أنَّ قريشاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز، وكشفت مكان اللِّقاء[١].

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة، والفرديَّة، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً، ومنظَّماً، وسياسيَّاً محكماً، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح، ومواعظ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة، ومدرسةً للتَّعليم، والتَّربية، والإعداد، والتَّأهيل للدَّعوة، والقيادة، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة، وتعهُّد بعض العناصر، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة، والقيادة، فكأنَّ الرَّسول المربِّي ﷺ قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ، وتنظيمٍ حكيمٍ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة، والحذر، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ[٢].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكِّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثِّل في قوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّ الآية الكريمة تأمر النَّبيَّ ﷺ بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصَّةً إن كانت خطأً، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول التَّوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة، وأن يوضِّح لهم طبيعة طريق الدَّعوة، وأنَّها شاقَّةٌ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقِصاً، وألا يطيع فيهم

---

(١) انظر: المنهاج الحركي، للغضبان (١/ ٤٩).

(٢) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص ٢٣٧.

متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[١].

إنَّ الآية الكريمة السَّابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى، والَّتي من أهمِّها:

أ ـ الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾:

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القرآن الكريم، وفي أحاديث النَّبيِّ ﷺ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً، وتبلغ أهمِّيَّتُها أن تصير صفةً من أربع للفئة النَّاجية من الخسران، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]؛ فحكم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصَّالح.

٣ ـ التَّواصي بالحقِّ.

٤ ـ التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنُّصح، والإرشاد، فيكون قد جمع بين حقِّ الله، وحقِّ العباد، والتواصي بالصَّبر ضرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان، والعمل الصَّالح، وحراسة الحقِّ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد، والجماعة، ولا بدَّ من الصَّبر على جهاد النَّفس، وجهاد الغير، والصَّبر على الأذى والمشقَّة، والصَّبر على تبجُّح الباطل، والصَّبر على طول الطَّريق، وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعْدِ النِّهاية[٢].

ب ـ كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ فالدُّعاء بابٌ عظيمٌ، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصِّلة بالله، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم، وأقوى عوامل النَّصر[٣].

---

(١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، لحسين بن محسن، ص ١٧٠.

(٢) انظر: الظِّلال (٦/ ٣٩٦٨).

(٣) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص٢٢١.

ج ـ الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾؛ فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كلُّه، لوجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ، أو جاهٍ، أو لقبٍ، أو تقدُّمٍ، أو تأخُّرٍ، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانيِّ، ولسان حاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص، وتصحيح النِّيَّة، وبموافقة السُّنَّة، والشَّرع.

د ـ الثَّبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ، قال تعالى: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفاتٍ: إيمانٌ، ورجولةٌ، وصدقٌ. وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة، والتشبُّث بها، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع. والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف، غير مهتمةٍ بالصَّغائر، والصَّغار، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرَّفيع. والصِّدق يحول دون التحوُّل، أو التغيير، أو التبديل، ومن ثَمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان، وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها، أو امرأةً ينكحها.

ولا شكَّ: أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة، وإقامة الدَّولة، وصناعة الحضارة، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية، والغايات الجميلة، والقيم الرَّفيعة[١].

هذه من أهمِّ الصِّفات الَّتي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدَّعوة في بطون قريش، وعالميَّتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السِّرِّيَّة، في سائر فروع قريش بصورةٍ متوازنةٍ، دون أن يكون ثقلٌ كبيرٌ لأيِّ قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفةٌ لطبيعة الحياة القبليَّة آنذاك. وهي إذا أفقدت

---

(١) انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة، ص ٩١ ـ ٩٢.

الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبليِّ ، والعصبية لحماية الدَّعوة الجديدة ، ونشرها ، فإنَّها في الوقت نفسه لم تؤلِّب عليه العشائر الأخرى؛ بحجَّة: أنَّ الدَّعوة تحقِّق مصالح العشيرة الَّتي انتمت إليها ، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى ، ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيَّة العديدة دون تحفُّظاتٍ متَّصلةٍ بالعصبيَّة.

فأبو بكر الصِّدِّيق من «تَيْم» ، وعثمان بن عفان من «بني أميَّة» ، والزُّبير بن العوَّام من «بني أسد» ، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدَّار» ، وعليُّ بن أبي طالب من «بني هاشم» ، وعبد الرَّحمن بن عوف من «بني زُهرة» ، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ» ، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح» ؛ بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش؛ فعبد الله بن مسعودٍ من هُذَيل ، وعتبة بن غزوان من مازنٍ ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين ، وعمَّار بن ياسر من عنس من مَذْحِج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطُّفيل بن عمرو من دَوْسٍ ، وعمرو بن عبسة من سليم ، وصهيب النَّمَري من بني النَّمِر بن قاسِط . لقد كان واضحاً: أنَّ الإسلام لم يكن خاصّاً بمكَّة[1] .

لقد شقَّ النَّبيُّ ﷺ طريقه بكلِّ تخطيطٍ ودقَّـةٍ ، وأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله تعالى؛ فاهتمَّ بالتَّربية العميقة ، والتَّكوين الدَّقيق ، والتَّعليم الواسع ، والاحتياط الأمني ، والانسياب الطَّبيعي في المجتمع ، والإعداد الشَّامل للمرحلة التي بعد السِّرِّيَّة؛ لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يعلم: أنَّ الدَّعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوةً سرِّيَّةً ، يخاطب بها الفرد بعد الفرد ، بل نزلت لإقامة الحجَّة على العالمين ، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من النَّاس ، من ظلمات الشِّركِ ، والجاهليَّة إلى نور الإسلام والتَّوحيد ، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدَّعوة ، وميدانها ، منذ خطواتها الأولى؛ حيث إنَّ القرآن المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة ، وعالميتها:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] .

إنَّ الدَّعوة جاءت لتخاطب البشر ، كلَّ البشر ، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصائصها الإعلان ، والصَّدع ، والبلاغ ، والبيان ، والإنذار ، وتَحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب ، والإيذاء ، والقتل.

إن استسرار النَّبيِّ ﷺ في دعوته أوَّل الأمر إنَّما هو حالٌ استثنائيٌّ لظروفٍ وملابساتٍ خاصَّة ، وهي ظروف بداية الدَّعوة ، وضعفها ، وغربتها ، وينبغي أن يُفهم ضمن هذا الإطار .

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٣٣)

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسةً مصلحيَّةً في كثيرٍ من أمور الإسلام في الحرب ، والسَّلام؛ فهو كذلك في موضوع الدَّعوة؛ فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع ، وإلا فالأصل هو بيان دين الله ، وشرعه ، وحكمه لكلِّ النَّاس ، أمَّا الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل ، والخطط ، والتَّفصيلات؛ فهو أمرٌ مصلحيٌّ خاضعٌ للنَّظر ، والاجتهاد البشريِّ؛ إذ لا يترتَّب عليه كتمانٌ للدِّين ، ولا سكوتٌ عن حقٍّ ، ولا يتعلَّق به بيانٌ ، ولا بلاغٌ ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدَّعوة ، فهـذا أمـرٌ مصلحيٌّ لا يخلُّ بقضية البلاغ ، والنذارة ، الَّتي نزلت الكتب ، وبعثت الرُّسل من أجلها ، فيمكن أن يظلَّ سرّاً متى كانت المصلحة في ذلك ، مع القيام بأمر الدَّعوة ، والتبليغ ، ولهذا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ حتَّى بعد أن صدع بدعوته ، وأنذر النَّاس ، وأعلن النُّبوَّة ظلَّ يخفي أشياء كثيرةً لا تؤثِّر على مهمة البلاغ والبيان ، كعدد أتباعه ، وأين يجتمع بهم ، وما هي الخطط الَّتي يتَّخذونها إزاء الكيد الجاهليِّ[1] .

* * *

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

المبحث الثَّالث
البناء العقديُّ في العهد المكِّيِّ

أولاً: فقه النَّبيِّ ﷺ في التَّعامل مع السُّنن:

إنَّ بناء الدُّول، وتربية الأمم، والنُّهوض بها يخضع لقوانين، وسنن، ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشُّعوب، والأمم والدُّول، وعند التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ نراه قد تعامل مع السُّنن، والقوانين بحكمةٍ، وقدرةٍ فائقةٍ.

إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، وهي كثيرةٌ جدّاً، والَّذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً.

«ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن يجري أمر هذا الدِّين، بل أمر هذا الكون على السُّنن الجارية، لا على السُّنن الخارقة، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين، فيتقاعس، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة، وانقطاع النُّبوَّات»[١].

إنَّ المتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلةً بالحديث عن سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر، ويجد عنايةً ملحوظةً بإبراز تلك السُّنن، وتوجيه النَّظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

والقرآن الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون، والشعوب، والأمم، والدُّول، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف، والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيَّنت لهم الأهداف من

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، لمحمَّد قطب، ص ٤١٤.

وراء الوقائع ، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث ، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام ، واستشرفوا خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق ، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين ؛ لينالوا النَّصر ، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه[١] .

«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان»[٢] .

وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله ـ تعالى ـ عليها فَلَكَ الحياة ، ويُسيِّرُ عليها حركَتَها ، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر يحدُث اعتباطاً ، وإنَّما يجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن الله ِتعالى ؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتخلَّف ، ولا تحابي أحداً من الخلق ، ولا تستجيب لأهواء البشر[٣] .

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزةَ لهم في كتاب الله ، وفي سنة رسول ﷺ ، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطاً ، ولا يخبط خَبْطَ عشواء ، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم ؛ ليعرفها عباده المؤمنون ، ويتعاملوا معها على بصيرة»[٤] .

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجيِّ السليم مع السُّنن الإلٰهيَّة ، والقوانين الكونيَّة في الأفراد ، والمجتمعات ، والأمم ، هو أن نفهم ، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن ، وكيف تعمل ضمن النَّاموس الإلهيِّ ، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السُّنن» ، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيَّة ، والمعادلات الحضاريَّة[٥] .

يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ في منهجيَّة التَّعامل مع السُّنن : «لا تصادموا نواميس الكون ؛ فإنَّها غلابة ، ولكن غالبوها ، واستخدموها ، وحوِّلوا تيَّارها ، واستعينوا ببعضها على بعضٍ ، وترقَّبوا ساعة النَّصر ، وما هي منكم ببعيد»[٦] .

ونلاحظ في هذا الكلام عدَّة أمورٍ مهمَّةٍ :

١ ـ عدم المصادمة .

٢ ـ المغالبة .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (١/ ٤٧٨) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السَّيد ، ص ٢٠٨
(٤) انظر : جيل النَّصر المنشود ، للقرضاوي ، ص ١٥ .
(٥) انظر : المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر البنا ، ص ٥٨
(٦) انظر : رسالة المؤتمر الخامس ، ص ١٢٧ .

٣ـ الاستخدام.

٤ ـ التَّحويل.

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعضٍ.

٦ ـ ترقُّب ساعة النَّصر[١].

إنَّ ما وصل إليه الأستاذ البنَّا يدلُّ على دراسته العميقة للسِّيرة النَّبويَّة، والتَّاريخ الإسلاميِّ، وتجارب الشُّعوب، والأمم، ومعرفةٍ صحيحةٍ للواقع الَّذي يعيشه، وتوصيفٍ سليمٍ للدَّاء، والدَّواء.

إنَّ حركة الإسلام الأولى؛ الَّتي قادها النَّبيُّ ﷺ في تنظيم جهود الدَّعوة، وإقامة الدَّولة، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاريِّ خضعت لسنن، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز؛ كأهمِّيَّة القيادة في صناعة الحضارات، وأهمِّيَّة الجماعة المؤمنة المنظَّمة في مقاومة الباطل، وأهمِّية المنهج الَّذي تستمدُّ منه العقائد، والأخلاق، والعبادات، والقيم، والتَّصوُّرات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنَّة التَّدرُّج، وهي من سنن الله تعالى في خلقه، وكونه، وهي من السُّنن المهمَّة الَّتي يجب على الأمَّة أن تراعيها، وهي تعمل للنُّهوض، والتَّمكين لدين الله عزَّ وجلَّ.

ومنطلق هذه السُّنَّة: أنَّ الطَّريق طويلٌ ـ لا سيَّما في هذا العصر الَّذي سيطرت فيه الجاهليَّة، وأخذت أُهْبَتَها، واستعدادها ـ كما أنَّ الشرَّ، والفساد قد تَجَذَّر في الشُّعوب، واستئصاله يحتاج إلى تدرُّج.

بدأت الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى متدرجةً، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء، والتَّأسيس، ثمَّ مرحلة المواجهة والمقاومة، ثمَّ مرحلة النَّصر والتَّمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ، وإلا كانت المشقَّة، والعجز، وما كان يمكن كذلك أن تقدم واحدةٌ منها على الأخرى، وإلا كان الخلل، والإرباك[٢].

إنَّ اعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمِّيَّة؛ «ذلك أنَّ بعض العاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة يحسبون أنَّ التَّمكين يمكن أن يتحقَّق بين عشيةٍ وضحاها، ويريدون أن يغيِّروا الواقع الَّذي تحياه الأمَّة الإسلاميَّة في طرفة عينٍ، دون النَّظر في العواقب، ودون فهمٍ للظُّروف، والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعدادٍ جيِّدٍ للمقدِّمات، أو للأساليب، والوسائل»[٣]، وقد وجَّه

---

(١) انظر: المشروع الإسلاميُّ لنهضة الأمَّة، ص ٥٨.

(٢) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٢٧.

(٣) انظر: آفات على الطَّريق (١/ ٥٧) وما بعدها.

الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع ، فالله ـ تعالى ـ خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام ، يعلمها سبحانه ، ويعلم مقدارها ، وكان ـ جلَّ شأنُه ـ قادراً على خلقها في أقلَّ مِنْ لمح البصر ، وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان ، والحيوان ، والنَّبات ، كلُّها تتدرَّج في مراحل حتَّى تبلغ نماءها ، وكمالها ، ونضجها ، وَفْقَ سنَّة الله ـ تعالى ـ الحكيمة .

وسنَّة التَّدرُّج مقررةٌ في التَّشريع الإسلاميِّ بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ ، وهذا من تيسير الإسلام على البشر ؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً ، وتحريماً ، فنجده حين فرض الفرائض ؛ كالصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة فرضها على مراحل ، ودرجاتٍ ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها[١] .

«ولعلَّ رعاية الإسلام للتدرُّج هي الَّتي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرِّقِّ الذي كان نظاماً سائداً في العالم كلِّه عند ظهور الإسلام ، وكانت محاولة إلغائه تؤدِّي إلى زلزلةٍ في الحياة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، فكانت الحكمة في تضييق روافده ؛ بل ردمها كلِّها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حدٍّ ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرِّق بطريق التَّدرُّج»[٢] .

«إننا إذا درسنا القرآن الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، دراسةً عميقةً ؛ علمنا كيف ؛ وبأيِّ تدرُّج ، وانسجام تمَّ التَّغيير الإسلاميُّ في بلاد العرب ، ومنها إلى العالم كلِّه على يد النَّبيِّ ﷺ . . فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعيِّ ؛ حتَّى تستقرَّ في مستقرِّها الَّذي أراده الله ربُّ العالمين»[٣] .

«وهذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النَّاس ، وعندما يُراد تطبيق الإسلام في الحياة ، واستئناف حياةٍ إسلاميَّةٍ متكاملةٍ ؛ يكون التَّمكين ثمرتها ، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً ؛ فلا نتوهَّم : أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ ، أو ملكٍ ، أو من مجلسٍ قياديٍّ ، أو برلمانيٍّ ، وإنَّما يتحقَّق ذلك بطريق التَّدرُّج ؛ أي : بالإعداد ، والتَّهيئة الفكريَّة ، والنَّفسيَّة ، والاجتماعيَّة .

وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ ﷺ لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة ، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة ، كانت مهمَّته الأساسيَّة فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن ، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة ، وتكاليف الجهاد ؛ لحمايتها ، ونشرها في الآفاق ، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ ، وتكوينٍ»[٤] .

---

(١) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧ .
(٢) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٦٦ وما بعدها .
(٣) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، نقلاً عن المودودي ، ص ٢٢٩ .
(٤) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، ص ١٦٨ بتصرف يسير .

ثانياً: سنة التَّغيير وعلاقتها بالبناء العقديِّ:

من السُّنن المهمَّة على طريق النُّهوض: السُّنَّة الَّتي يقرِّرها قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وارتباط هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة بالتَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة واضحٌ غاية الوضوح؛ ذلك: أنَّ التَّمكين لا يمكن أن يتأتَّى في ظلِّ الوضع الحالي للأمَّة الإسلاميَّة، فلا بدَّ من التَّغيير، كما أنَّ التَّمكين لن يتحقَّق لأمَّةٍ ارتضت لنفسها حياة المذلَّة، والتخلُّف، ولم تحاول أن تغيِّر ما حلَّ بها من واقعٍ، وأن تتحرَّر من أسره[(١)].

«والإسلام يوم جاء أوَّل مرَّةٍ، وقف في وجهه واقعٌ ضخمٌ، واقع الجزيرة العربيَّة، وواقع الكرة الأرضيَّة، ووقفت في وجهه عقائد وتصوُّرات، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمةٌ، وأوضاعٌ، ووقفت في وجهه مصالح، وعصبياتٌ.

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع النَّاس في الجزيرة العربيَّة، وفي الأرض كافَّةً، مسافةً هائلةً، وكانت النُّقلة الَّتي يريدهم عليها بعيدةً بعيدةً، وكانت تساند الواقع أحقابٌ من التَّاريخ، وأشتاتٌ من المصالح، وألوانٌ من القوى، وقفت كلُّها سدّاً في وجه هذا الدِّين الجديد، الَّذي لا يكتفي بتغيير العقائد، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين، والعادات، والتَّقاليد، والأخلاق، والمشاعر؛ إنَّما يريد كذلك أن يغيِّر الأنظمة، والأوضاع، والشَّرائع، والقوانين، كما يريد انتزاع قيادة البشريَّة من يد الطَّاغوت، والجاهليَّة؛ ليردَّها إلى الله، وإلى الإسلام»[(٢)].

«ولا شكَّ: أنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى، فقد حدث ما حدث وَفْقَ سنَّةٍ جاريةٍ، لا وفق معجزاتٍ خارقةٍ، وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدَّخرة لكلِّ من يستنفد هذا الرَّصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتِّجاهه الصَّحيح»[(٣)].

إنَّ التَّغيير الَّذي قاده النَّبيُّ ﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنَّفس البشريَّة، وصنع منها الرِّجال العظماء، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل النَّاس من الظُّلمات

---

(١) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص٢١٠.
(٢) انظر: هذا الدِّين، لسيد قطب، ص ٥١، ٥٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥.

إلى النُّور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التَّخلُّف إلى التَّقدُّم ، وأنشأ بهم أروع حضارةٍ عرفتها الحياة[١] .

لقد قام النَّبيُّ ﷺ ـ بمنهجه القرآنيِّ ـ بتغيير في العقائد ، والأفكار ، والتَّصوُّر ، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ فتغيَّر ما حوله في دنيا النَّاس ، فتغيَّرت المدينة ، ثمَّ مكَّة ، ثمَّ الجزيرة ، ثمَّ بلاد فارس ، والرُّوم في حركةٍ عالميَّةٍ تسبِّح ، وتذكر خالقها بالغدوِّ ، والآصال .

كان اهتمام المنهج القرآنيِّ في العهد المكيِّ بجانب العقيدة ، فكان يعرضها بشتَّى الأساليب؛ فغمرت قلوبهم معاني الإيمان ، وحدث لهم تحوُّل عظيمٌ ، قال الله تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

حقّاً إنَّه تصويرٌ رائعٌ عجيبٌ تقف الأقلام حائرةً في وصفه! وكذلك الأسلوب القرآنيُّ في كلِّ حينٍ تنهل منه الألباب ، وتصدر عنه الأساليب ، وتعجز عن إيفائه حقَّه من التَّعبير؛ من الموت إلى الحياة ، ومن الظُّلمات إلى النُّور ، هل يستويان مثلاً؟! مسافةٌ هائلةٌ! ونقلةٌ عظيمةٌ لا يعرف عظمتها ، ويدرك مقدارها إلا مَنْ تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآنيِّ المعجز[٢] .

ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة :

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ ، ونقصٌ ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه ، وصفاته : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، فينكرون بعض صفاته ، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق فيها ، أو بما يوهم معنىً فاسداً ، وينسبون إليه النَّقائص ، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ، ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] .

فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة ، وتثبيتها في قلوب المؤمنين ، وإيضاحها للنَّاس أجمعين ، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء ، والصِّفات ، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والقدر خيره ،

---

(١) انظر : نفوس ودروس في إطار التَّصوير القرآني ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٣٦٧ .

(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، للزَّهراني (١/ ٢٥ ، ٢٦).

وشرِّه ، واليوم الآخر ، وإثبات الرِّسالة للرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ والإيمان بكلِّ ما أخبروا به(١) .

فقد عرَّف القرآن المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّيهم على تلك الآيات العظيمة؛ فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم ، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق ، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم ، واستقامت فطرتُهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ ﷺ في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القرآن الكريم قائماً على عدَّة جوانب ، منها :

١ ـ أنَّ الله منزَّهٌ عن النَّقائص ، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له ، لم يتَّخذ صاحبةً ، ولا ولداً.

٢ ـ وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ ، ومالكه ، ومدبِّر أمره : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

٣ ـ وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ ـ دقَّت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت ـ في هذا الوجود ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] .

٤ ـ وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، ولا ما يُخفي الإنسان ، وما يُعلن: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢] .

٥ ـ وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتابٍ لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللَّحظة المناسبة ، والوقت المناسب: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] .

٦ ـ وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون ، وما يهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم ، ومن منهم يرضى بقضاء الله ، وقدره ، ويسلم له ظاهراً وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة ، والإمامة ، والسيادة ، ومن منهم يغضب ، ويسخط ، فيكون جزاؤه غضبَ الله ، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢] ، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

٧ ـ وأنَّه سبحانه يوفِّق ، ويؤيِّد ، وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي ، وما يذر: ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

---

(١) انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، لعلي العلياني ، ص ٤٧ .

٨ ـ وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ حقُّه على العباد أن يعبدوه ، ويوحِّدوه ، فلا يشركوا به شيئاً: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].

٩ ـ وأنَّه ـ سبحانه ـ حدَّد مضمون هذه العبوديَّة ، وهذا التَّوحيد في القرآن العظيم(١).

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم ، على فهم صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم ، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم ، وسعيهم ، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات ، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها ، وتطهَّر صحابة رسول الله ﷺ من الشِّرك بجميع أنواعه ، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أيِّ شيءٍ ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ ، أو إعدامٍ ، أو إحياءٍ ، أو إماتةٍ ، أو طلب خير ، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه ، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته ، كعلم الغيب ، وكالعظمة ، والكبرياء ، وكالحاكميَّة المطلقة ، وكالطَّاعة المطلقة ، ونحو ذلك(٢).

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأساس الَّذي قام عليه البناء الإسلاميُّ ، وهي المنهجيَّة الصَّحيحة الَّتي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل ، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ، وقال عن هودٍ عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠] ، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، وقال عن شعيبٍ عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤] ، وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١].

وبالجملة: فالرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كلُّهم دعوا لتوحيد الألوهيَّة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ، واجتناب الطَّاغوت ، والأصنام. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) انظر: منهج الرَّسول ﷺ في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص ١٠ ـ ١٦.

(٢) انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٣.

وقد ربَّى رسول الله ﷺ صحابته على تجريد التَّوحيد بأنواعه كلِّها ، وكان هو ﷺ مثالاً حيّاً للمؤمن الموحِّد غاية التَّوحيد: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

وقد آتت تربية الرَّسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة؛ فتطهَّر الصَّحابة في الجملة ممَّا يضادُّ توحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبُّوا غير الله كحب الله ، ولم يخشوا إلا الله ، ولم يتوكَّلوا إلا على الله ، ولم يلتجئوا إلا إلى الله ، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده ، ولم يذبحوا إلا لله ، ولم ينذروا إلا لله ، ولم يستغيثوا إلا بالله ، ولم يستعينوا ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ إلا بالله وحده ، ولم يركعوا ، أو يسجدوا ، أو يَحُجُّوا ، أو يطوفوا ، أو يتعبَّدوا إلا لله وحده ، ولم يُشَبِّهُوا الله لا بالمخلوقات ، ولا بالمعدومات؛ بل نزَّهوه غاية التَّنزيه ، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ، من غير تحريفٍ ، أو تعطيلٍ ، أو تأويلٍ ، ولم يخافوا خوف السِّرِّ إلا من الله وحده ، ولم يصرفوا الطَّاعة المطلقة إلا لله وحده ، ولم يشركوا أحداً من خلقه في خاصِّيَّةٍ من خصائص ربوبيَّته؛ كالإحياء ، والإماتة ، والرِّزق ، والعلم المحيط ، والقدرة الباهرة ، والقيُّوميَّة ، والبقاء المطلق ، والتَّحليل ، والتَّحريم ، ونحو ذلك؛ جعلنا الله ممَّن يحقِّق التَّوحيد قولاً ، وعملاً ، واعتقاداً ، إنَّه وليُّ ذلك ، والقادر عليه[1].

وقد جاء القرآن المكِّيُّ موضِّحاً عقيدة التَّوحيد ، ومثبِّتاً لرسالة محمَّدٍ ﷺ إلى الإنس ، والجنِّ كافةً. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١] وغير هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرٌ ، والَّتي تثبت رسالة محمَّدٍ ﷺ للإنس والجنِّ كافَّةً[2].

---

(١) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٤ ، ٥٥.

(٢) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٦.

وكما رسَّخ القرآن المكِّيُّ في قلوب الصَّحابة رضي الله عنهم العقيدة الصَّحيحة حول التَّوحيد بأنواعه ، وحول الرَّسول ﷺ والرِّسالة ؛ صحَّح عقيدتهم حول الملائكة ، وأنَّهم خلقٌ من خلقه ، يسجدون له ، ولا يستكبرون عن عبادته ، وليس لهم شركٌ في السَّماء ولا في الأرض . وأنَّهم لا يضرُّون ولا ينفعون أحداً إلا بأمره سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣] ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩] ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] ، ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] .

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى ، غرسها القرآن المكِّيُّ في قلوب المؤمنين بأسلوب القرآن المعجز ، ووضَّحها للنَّاس كافَّةً ؛ فبيَّن كيفيَّة إنزال القرآن على الرَّسول ﷺ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وبيَّن سبحانه : أنَّ له كتباً غير القرآن الكريم : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥] ، ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] ، وبيَّن سبحانه : أنَّه بعث كثيراً من الأنبياء : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٦] ، فبعضهم ذكرهم القرآن ، وبعضهم لم يذكرهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

رابعاً: وصف الجنَّة في القرآن الكريم ، وأثره على الصَّحابة :

ركَّز القرآن المكِّيُّ على اليوم الآخر غاية التَّركيز ، فقلَّ أن توجد سورةٌ مكِّيَّةٌ لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة ، وأحوال المنعَّمين ، وأحوال المعذَّبين ، وكيفية حشر النَّاس ومحاسبتهم ، حتَّى لكأنَّ الإنسان يرى يوم القيامة رأيَ العين : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٦٧ ـ ٧٥].

وقد جاءت الآيات الكريمة مبيِّنةً، واصفةً للجنَّة، فأثَّر ذلك في نفوس الصَّحابة أيَّما تأثير؛ فممَّا جاء في وصف الجنَّة: أنَّها لا مثيل لها، وأنَّ لها أبواباً، وفيها درجاتٌ، وتجري من تحتها الأنهار، وفيها عيونٌ، وقصورٌ، وخيامٌ، وفيها أشجارٌ متنوعةٌ، كسدرة المنتهى، وشجرة طوبى، وتحدَّث القرآن الكريم عن نعيم أهلها، وطعامهم، وشرابهم، وخمرهم، وآنيتهم، ولباسهم، وحليِّهم، وفرشهم، وخدمهم، وأحاديثهم، ونسائهم، وعن أفضل ما يُعْطاه أهلها، وعن آخر دعواهم؛ بحيث أصبح الوصف القرآنيُّ للجنَّة مهيمناً على جوارح، وأحاسيس، وأذهان، وقلوب المسلمين، ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القرآن الكريم:

١ ـ الجنَّة لا مثيل لها:

إنَّ نعيم الجنَّة شيءٌ أعدَّه الله لعباده المتَّقين، نابعٌ من كرم الله، وجوده، وفضله، ووصف لنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ شيئاً من نعيمها، إلا أنَّ ما أخفاه الله عنَّا من نعيم شيءٌ عظيم، لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كُنْهِهِ الأفكار، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء، وهو ما وفَّقهم إليه من أعمالٍ عظيمةٍ؛ من قيام ليلٍ، وإنفاقٍ في سبيله. قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

٢ ـ درجات الجنَّة:

إنَّ أهل الجنَّة متفاوتون فيما بينهم على قدر أعمالهم، وتوفيق الله لهم، وكذلك درجاتهم في الآخرة، بعضها فوق بعض. قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدَّرجات بحسب إيمانهم ، وتقواهم ، قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] ، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

٣ ـ أنهار الجنَّـة :

ذكر القرآن الكريم في آياتٍ عديدةٍ أنهار الجنَّة . قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ١٥] .

٤ ـ عيون الجنَّـة :

في الجنَّة عيونٌ كثيرةٌ ، مختلفة الطُّعوم ، والمشارب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١] ، وقال في وصف الجنَّتين اللَّتين أعدَّهما لمن خاف ربه : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠] ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦] .

وفي الجنَّة عينان يشرب المقرَّبون ماءهما صِرْفاً غير مخلوطٍ ، ويشرب منهما الأبرار الشَّراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره :

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٦]. فقد أخبر : أنَّ الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصاً .

العين الثانية : عين التَّسنيم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨] .

ومن عيون الجنَّة عينٌ تسمَّى السَّلسبيل . قال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٧ ـ ١٨] .

٥ ـ وصف بعض شجر الجنَّة :

أ ـ سدرة المنتهى :

وهذه الشَّجرة ذكرها المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز ، وأخبر ـ سبحانه ـ : أنَّ رسولنا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأنَّ هذه الشجرة عندها جنَّة

المأوى ، وهذه السِّدرة يغشاها ما لا يعلمه إلا الله . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٧].

ب ـ شجرة طوبى :

وهذه الشَّجرة عظيمةٌ كبيرةٌ ، تصنع منها ثياب أهل الجنَّة ، فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «طوبى شجرةٌ في الجنَّة مسيرة مئة عامٍ ، ثياب أهل الجنَّة تخرج من أكمامها» [أحمد (٣/ ٧١) وأبو يعلى (١٣٧٤) ومجمع الزوائد (١٠/ ٦٧)] .

الشَّجرة الَّتي يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة عام ، هذه الشَّجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الَّذي خلقها ، وقد بيَّن الرسول ﷺ عِظَمَ هذه الشَّجرة ، بأنْ أخبر: أنَّ الرَّاكب لفرس من الخيل الَّتي تعدُّ للسِّباق ، يحتاج إلى مئة عامٍ حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّـة لشجرةً يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة سنةٍ ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠]» [البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦)] .

وهذا يدلُّ على خَلْقٍ بديعٍ ، وقدرةِ الصَّانع ، سبحانه وتعالى .

٦ ـ طعام أهل الجنَّـة وشرابهم :

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ في الجنَّة ما تشتهيه الأنفس من المآكل ، والمشارب فقال: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠] ، وقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١] .

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها ، وألوان طعامها ، وشرابها ما يشتهون ، فقال: ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] .

٧ ـ خمر أهل الجنَّـة :

من الشَّراب الَّذي يتفضَّل اللهُ به على أهل الجنَّة الخمر ، وخمر الجنَّة خالٍ من العيوب ، والآفات الَّتي تتَّصف بها خمر الدُّنيا ، فخمر الدُّنيا تذهب العقول ، وتُصدِّع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام ، وقد تكون معيبةً في صنعها ، أو لونها ، أو غير ذلك ، أمَّا خمر الجنَّة؛ فإنَّها خاليةٌ من ذلك كلِّه ، وجميلةٌ ، صافيةٌ ، رائعةٌ[1] . قال الله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧]. فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ، ثمَّ بين: أنَّها يلتذُّ بها شاربُها ، لا يملُّ من شربها . وقال في موضع آخر يصف خمر الجنَّة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن

---

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٢٣ .

مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩] .

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٦] ، والرَّحيق هو الخمر ، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأوَّل: أنه مختومٌ؛ أي: موضوعٌ عليه خاتم الأمر. الثاني: أنَّهم إذا شربوه؛ وجدوا في ختام شرابهم له رائحة المسك[1] .

٨ ـ طعام أهل الجنَّة وشرابهم لا دنس معه:

الجنَّة دارٌ خالصةٌ من الأذى ، وأهلها مطهَّرون من أوساخ أهل الدُّنيا. قال رسول الله ﷺ: «أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة من أمَّتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثمَّ الذين يلونهم على أشدِّ نجم في السَّماء إضاءةً، ثمَّ هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوَّطون، ولا يبولون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، ولا يَبْزُقُون» [البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)] .

فالَّذي يتفاوت فيه أهل الجنَّة ممَّا نُصَّ عليه في الحديث قوَّة نور كلٍّ منهم ، أمَّا خلوصهم من الأذى؛ فإنَّهم يشتركون فيه جميعاً ، فهم لا يتغوَّطون ، ولا يبولون ، ولا يتفلون ، ولا يَبْزُقُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، وفضلات الطَّعام والشَّراب تتحوَّل إلى رشح كرشح المسك ، يفيض من أجسادهم ، كما يتحوَّل بعضٌ منه إلى جشاءٍ ، ولكنَّه جشاء تنبعث منه روائح طيِّبةٌ عبقةٌ عطرةٌ.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها ، ويشربون ، لا يَتْفُلُون ، ولا يَبُولُون ، ولا يَتَغَوَّطُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ». قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ ، ورَشْحٌ كَرَشْحِ المسك» [مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)] .

٩ ـ لباس أهل الجنَّة ، وحليُهم ، ومباخرهم:

أهل الجنَّة يلبسون فيها الفاخر من اللِّباس ، ويتزيَّنون فيها بأنواع الحليِّ من الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ؛ فمن لباسهم الحرير ، ومن حليِّهم أساور الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ. قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣] ، ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] . وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثِّياب الَّتي يلبسون الخضر من السُّندس والإستبرق: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وقد أخبر الرَّسول ﷺ: أنَّ لأهل الجنَّة أمشاطاً من الذَّهب ، والفضَّة ، وأنَّهم يتبخَّرون بعود الطِّيب ، مع أنَّ رائحة المسك

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤).

تفوح من أبدانهم الزَّكيَّة. قال رسول الله ﷺ: «آنيتُهم الذَّهبُ، والفضَّةُ، وأمشاطُهم الذَّهب، وَوَقُودُ مَجامِرِهم الألُوَّةُ ـ عود الطِّيب ـ ورَشْحُهم الْمِسْك» [البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤/١٧)].

وثياب أهل الجنَّة، وحليُّهم لا تبلى، ولا تفنى. قال رسول الله ﷺ: «من يدخلُ الجنة ينعمُ لا يَبْـأَسُ، لا تَبْـلَى ثيابُـه، ولا يفنى شبابُه» [مسلم (٢٨٣٦) وأحمد (٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠ و٤٠٧ و٤١٦ و٤٦٢) والدارمي (٢٨٦١) وأبو نعيم في صفة الجنة (٩٧)].

١٠ ـ اجتماع أهل الجنَّة، وأحاديثهم:

أهل الجنَّة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون في مجالس طيبة، يتحدَّثون ويذكرون ما كان منهم في الدُّنيا، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان. قال الله تعالى في وصف اجتماع أهل الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وحدَّثنا القرآن عن أصناف الأحاديث الَّتي يتكلَّمون بها في اجتماعهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٨]. ومن ذلك تذكُّرهم أهل الشرِّ الَّذين كانوا يشكِّكون أهل الإيمان، ويدعونهم إلى الكفران: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

١١ ـ نساء أهل الجنَّة:

زوجة المؤمن في الدُّنيا هي زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنةً. قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهم في الجنَّات منعَّمون مع الأزواج، يتّكئون في ظلال الجنَّة مسرورين فرحين: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

١٢ ـ الحور العين:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، والحور: جمع حوراء، وهي الَّتي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السَّواد، والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين، وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهنَّ كواعب أتراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٣]. والكاعب: المرأة الجميلة الَّتي برز ثديها، والأتراب: المتقاربات في السنِّ، والحور العين من خلق الله في الجنَّة، أنشأهنَّ الله

إنشاءً فجعلهن أبكاراً، عرباً أتراباً: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]. وكونهنَّ أبكاراً يقضي أنَّه لم ينكحهنَّ قبلهم أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن جمال نساء أهل الجنة، فقال: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣] والمراد بالمكنون: الخفيُّ المصون، الَّذي لم يغيِّر صفاء لونه ضوءُ الشَّمس، ولا عبثُ الأيدي، وشبَّههنَّ في موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٦ ـ ٥٨]. والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمالٌ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ، وقد وصف الحور بأنهنَّ قاصرات الطَّرف، وهنَّ اللَّواتي قصَرْنَ بصرهنَّ على أزواجهنَّ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ، وقد شهد الله لحور الجنَّة بالحسن، والجمال، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٧٠ ـ ٧١]. ونساء الجنَّة لَسْنَ كنساء الدُّنيا، فإنهنَّ مطهراتٌ من الحيض والنِّفاس، والبصاق، والمخاط، والبول، والغائط[1].

وقد تحدَّث الرَّسول ﷺ عن جمال رجال، ونساء أهل الجنَّة، فقال: «أوَّل زمرةٍ تلج الجنَّة صورتُهم على صورة القمر ليلةَ البدر، لا يَبْصُقُون فيها، ولا يمْتَخِطُونَ، ولا يتغوَّطُون، وآنيتُهم فيها الذَّهبُ، أمشاطُهم من الذَّهب والفضة، ومجَامِرُهم الألُوَّةُ، ورَشْحُهم المسكُ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللَّحم من الْحُسْن» [البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤/١٧)].

وانظر إلى هذا الجمال الَّذي حدَّث به رسول الله ﷺ أصحابَه، هل تجد له نظيراً ممَّا تعرف؟! «ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [البخاري (٢٧٩٦) وأحمد (٣/ ١٤١) والترمذي (١٦٥١) وابن حبان (٧٣٩٩)].

١٣ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول اللهُ تبارك تعالى: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنَا؟! ألم تُدْخِلْنا الجنة، وتُنَجِّنَا من النار؟! قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، وجاء في روايةٍ أخرى: ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦] [أحمد (٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)].

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم، ص ٤٣٣.

وأمَّا عن رضوان الله الَّذي يعطى لأهل الجنَّة؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا، وسَعْدَيْكَ، والخير كلُّه في يَدَيْكَ! فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩)].

١٤ ـ آخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين:

يمرُّ المؤمنون في الموقف العظيم بأهوالٍ عظام، ثمَّ يمرُّون على الصِّراط، فيشاهدون هولاً، ورعباً، ثمَّ يدخلهم الله جنَّات النَّعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعدَّ الله لهم فيها من خيراتٍ عظام، فترتفع ألسنتهم تسبِّح ربَّهم وتقدِّسه؛ فقد أذهب عنهم الحزن، وصدَقهم وعده، وأورثهم الجنَّة: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٣ ـ ٣٤].

وآخر دعواهم في جنَّات النَّعيم الحمد لله رب العالمين: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يربِّي أصحابه على السَّعي لمرضاة الله تعالى حتى يدخلهم جنَّاته العظيمة، فكان يصف لهم الجنَّات من خلال المنهج القرآنيِّ، حتَّى لكأنَّ الصَّحابي يرى الجنَّة معروضةً أمامه في تلك اللحظة، وينفعل بها كأنَّه يراها في عالم العيان بالفعل، وليست أمراً يتصوَّر حدوثه في المستقبل، وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القرآني إلى حدٍّ تصبح الآخرة ـ التي لم تأت بعد ـ كأنَّها الحاضر الَّذي يعيشه الإنسان، ويصبح الحاضر الَّذي يعيشه بالفعل كأنَّه ماضٍ سحيقٌ تفصله عن الإنسان آمادٌ، وأبعاد[1].

إنَّ التَّصوُّر البديع للجنان، والاعتقاد الجازم بها، مهمٌّ في نهضة أمَّتنا، فعندما تُحْيَا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمَّة، فإنَّهم سيندفعون لمرضاة الله تعالى، ويُقدِّمون الغالي، والنَّفيس، ويتخلَّصون من الوَهَن، وكراهة الموت، وتتفجَّر في نفوسهم طاقاتٌ هائلةٌ تمدُّهم بعزيمةٍ، وإصرارٍ، ومثابرةٍ على إعزاز دين الله، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة، والانتصارات العظيمة؛ التي حقَّقتها الأمَّة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حبُّ القادة، والجنود المقاتلين للشَّهادة في سبيل الله، والشَّوق لجنانه، وتعبُّدهم لله بفريضة الجهاد، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ، كمعركة الزلاَّقة الَّتي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين

(١) انظر: دراسات قرآنيَّة، لمحمَّد قطب، ص ٨١.

على النَّصارى في الأندلس ، وكمعركة حطِّين بقيادة صلاح الدِّين ، وعين جالوت بقيادة قطز ، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح .

خامساً: وصف النَّار في القرآن الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة:

كان الصَّحابة يخافون الله تعالى ، ويخشونه ، ويرجونه ، وكان لتربية الرَّسول ﷺ أثرٌ في نفوسهم عظيم ، وكان المنهج القرآنيُّ الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ يفعل الأفاعيل في نفوس الصَّحابة؛ لأنَّ القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ، ومعالمها من قبض الأرض ودكِّها ، وطيِّ السَّماء ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، وتسجيرها ، ومَوْرِ السماء ، وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وخسوف القمر ، وتناثر النُّجوم ، وصوَّر القرآن الكريم حال الكفَّار ، وذلَّتهم ، وهوانهم ، وحسرتهم ، ويأسهم ، وإحباط أعمالهم ، وتخاصم العابدين والمعبودين ، وتخاصم الأتباع وقادة الضَّلالة ، وتخاصم الضعفاء والسَّادة ، وتخاصم الكافر وقرينه الشَّيطان ، ومخاصمة الكافر أعضاءه ، وتخاصم الرُّوح والجسد ، وتحدَّث القرآن الكريم عن الشَّفاعة ، وبيَّن شروطها ، والمقبول منها ، والمرفوض ، والمراد بالحساب والجزاء ، وعن مشهد الحساب ، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

وتحدَّث القرآن الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق ، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة ، وبين المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم عظم شأن الدِّماء ، وبين: أنَّ هناك يوم القيامة توضع الموازين الَّتي توزن بها الأعمال ، وأخبر النَّبيُّ ﷺ عن الحوض ، ومَنِ الَّذين يردون على الحوض ، والَّذين يُذادون عنه ، وتحدَّث القرآن الكريم عن حشر الكفَّار إلى النَّار ، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصِّراط ، وخلاص المؤمنين وحدهم[١] .

وقد كان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصَّحابة ، وصوَّر القرآن الكريم ألوان العذاب في النَّار ، فأصبح الرَّعيل الأوَّل يراها رأيَ العين ، ومن حديث القرآن عن النَّار بيانه لكلٍّ من:

١ ـ طعام أهل النَّار وشرابهم ولباسهم:

أ ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ من طعام أهل النَّار الضَّريع ، والزقُّوم ، وأنَّ شرابهم الحميم ، والغسلين ، والغسَّاق ، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦ ـ ٧] ، وأكلهم لهذا الطَّعام هو نوعٌ من أنواع العذاب؛ فهم لا يتلذَّذون به ، ولا تنتفع به أجسادهم .

أمَّا الزَّقُّوم؛ فقال تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦] وقد وصف الله شجرة الزَّقوم في موضعٍ آخر ،

(١) انظر: الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٤٠٢ .

فقال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٥] وقال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال في موضعٍ آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٥]، ويؤخذ من هذه الآيات:

أنَّ هذه الشَّجرة شجرةٌ خبيثةٌ، جذورها تضرب في قعر النَّار، وفروعها تمتدُّ في أرجائها، وثمر هذه الشَّجرة قبيح المنظر: لذلك شبِّه برؤوس الشَّياطين، وقد استقرَّ في النُّفوس قبح رؤوسهم ـ وإن كانوا لا يرونهم ـ ومع خبث هذه الشَّجرة، وخبث طلعها إلا أنَّ أهل النَّار يُلقَى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرّاً من الأكل منها، إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم؛ أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي عكر الزَّيت، فيجدون لذلك آلاماً مبرحةً، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ؛ اندفعوا إلى الحميم ـ وهو الماء الحارُّ الَّذي تناهى حرُّه ـ فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب، وتشرب، ولا تروى لمرضٍ أصابها، وعند ذلك يقطِّع الحميمُ أمعاءهم: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[(١)].

وإذا أكل أهل النَّار هذا الطَّعام الخبيث من الضَّريع، والزَّقُّوم؛ غَصُّوا به؛ لقبحه، وخبثه، وفساده: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

ومن طعام أهل النَّار الغسلينُ، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧]، وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، والغسلين، والغسَّاق بمعنىً واحدٍ، وهو ما سال من جلود أهل النَّار من القيح والصَّديد، وقيل: هو ما يسيل من فروج النِّساء الزَّواني، ومن نتن لحوم الكفرة، وجلودهم وقال القرطبيُّ: «هو عصارة أهل النَّار»[(٢)].

ب ـ أمَّا شرابهم فهو الحميم، والغسَّاق، والمهل، والصديد. قال الله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ

---

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، لعمر الأشقر، ص ٨٨.

(٢) يقظة أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار، لصديق حسن، ص ٨٦.

ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧].

وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النَّار، هي: الحميم، وهو الماء الحار؛ الَّذي تناهى حرُّه؛ والغسَّاق، وقد مضى الحديث عنه، فإنَّه يذكر في مأكول أهل النَّار ومشروبهم؛ والصَّديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر، وجلده؛ والمهل، وهو كعكر الزَّيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه[1].

ج ـ لباس أهل النَّار:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠]، والقطران هو النُّحاس المُذاب.

٢ ـ صور من عذاب أهل النَّار:

أ ـ تفاوت عذاب أهل النَّار:

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقد حدَّث النَّبيُّ ﷺ عن أخفِّ الناس عذاباً، فقال فيه: «إن أهون أهل النَّار عذاباً يوم القيامة، لَرجلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرةٌ يغلي منها دِماغُه» [البخاري (٦٥٦١ و٦٥٦٢) ومسلم (٢١٣)].

ب ـ حشرهم على وجوههم، ولفح النَّار لهم:

ومن إهانة الله لأهل النَّار: أنَّهم يُحشرون في يوم القيامة على وجوههم، عُمْياً، وصُمّاً وبُكماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويلقون في النَّار على وجوههم: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

---

(١) اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، ص ٩٠.

ثمَّ إنَّ النَّار تلفح وجوههم ، وتغشاها أبداً ، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] .

ج ـ السَّحْب :

ومن أنواع العذاب الأليم ، سحب الكفار في النَّار على وجوههم ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨] ، ويزيد في آلامهم ـ حال سحبهم في النَّار ـ أنَّهم مقيَّدون بالقيود ، والأغلال ، والسَّلاسل: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢] .

د ـ تسويد الوجوه :

يسوِّد الله في الدَّار الآخرة وجوهَ أهل النار بسوادٍ شديدٍ ، كأنَّما حلَّت ظلمة الليل في وجوههم ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧] .

هـ ـ إحاطة النَّار بالكفَّار :

لمَّا كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السِّوار بالْمِعْصَم ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فإنَّ النار تحيط بالكفار من كلِّ جهةٍ ، كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١] ، **والمهاد**: ما يكون من تحتهم ، **والغواش**: جمع غاشية ، وهي الَّتي تغشاهم من فوقهم ، والمراد: أنَّ النِّيران تحيط بهم من فوقهم ، ومن تحتهم ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥] .

وقال في موضعٍ آخر: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦] .

وقد صرَّح بالإحاطة في موضعٍ آخر ، وذلك أنَّ للنَّار سُوراً يحيط بالكفَّار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها ، أو الخروج منها ، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] ، وسرادق النَّار: سورها ، وحائطها الَّذي يحيط بها[1] .

---

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار ، ص ١٠٢ .

و ـ اطِّلاع النَّار على الأفئدة:

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٧].

ز ـ قيود أهل النَّار، وأغلالهم، وسلاسلهم:

أعدَّ الله لأهل النَّار سلاسلَ وقيوداً ومطارقَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣]، وهذه الأغلال تُوضَع في الأعناق: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، والأنكال: هي القيود، وقد سمِّيت أنكالاً؛ لأنَّه يعذبهم، ويُنكِّل بهم بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢]، والسَّلاسل نوعٌ آخر من ألوان العذاب الَّتي يُقيَّد بها المجرمون، كما يُقيَّد المجرمون في الدُّنيا.

وانظر إلى هذه الصُّورة الَّتي أخبر بها الكتاب الكريم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

ح ـ قَرْنُ معبوداتهم وشياطينهم في النَّار:

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩].

خ ـ حسرتهم، وندمهم، ودعاؤهم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره، وشركه الَّذي يؤهِّله للخلود في النَّار؛ فإنَّه يدعو على نفسه بالـثُّبُور، والهلاك: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢]، ويتكرَّر دعاؤهم بالويل، والهلاك عندما يُلقَوْن في النار، ويَصْلَوْنَ حرَّها: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ

ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

وهناك يعلو صراخهم، ويشتدُّ عويلهم، ويدعون ربَّهم آملين أن يخرجهم من النَّار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وسيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم، وكفرهم، وقلَّة عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ولكن طلبهم يرفض بشـدَّة، ويجابون بما يستحقُّ أن تجاب به الأنعام: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ـ١٠٨].

لقد حقَّ عليهم القول، وصاروا إلى المصير الَّذي لا ينفع معه دعاءٌ، ولا يُقبل فيه رجاءٌ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٢ ـ ١٤].

ويتوجَّه أهل النَّار بعد ذلك النِّداء إلى خزنة النَّار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شيئاً ممَّا يعانونه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

وعند ذلك ينادون مالكاً، طالبين منه أن يقبض الله أرواحهم، فيريحهم من العذاب: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨].

لقد خسر هؤلاء الظَّالمون أنفسهم، وأهليهم عندما استحبُّوا الكفر على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

كان القرآن المكيُّ يربِّي المسلم على الخوف من عقاب الله، ويبيِّن للصَّحابة: أنَّ العذاب في الآخرة حسِّيٌّ ومعنويٌّ، وفي خطاب القرآن، وتوضيح النَّبيِّ ﷺ للصَّحابة حقيقةَ النَّار ما يجعل الصَّحابيَّ يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، فكان الصَّحابي يستحضر في مخيِّلته صورة الجنان، والنِّيران، ويستعدُّ للموت الَّذي هو آتٍ لا محالة، وأنَّه سوف يُسأل في وَحْدَته لا محالة، وأنَّ القبر إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة، أو حفرةٌ من حفر النِّيران، فالصَّحابي حين يستحضر في نفسه كلَّ هذا؛ فإنَّ قلبه يستشعر خوف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراقبته في السِّرِّ والعلن بل

يندفع بكلِّيته إلى العمل الصَّالح من دعوةٍ وجهادٍ ، والسَّعي لإقامة دولةٍ تحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصناعة حضارةٍ تنقذ البشرية من ضياعها ، وانحرافها عن شرع الله تعالى ، ويدعو الله في خلواته، وفي سرِّه، وجهره أن يكرمه الله برفقة النَّبيين والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

إنَّ هذا التَّصُّور والفهم العميق لحقيقـة الآخرة وحقيقـة الجنَّة والنَّار ، له أثره على العاملين لنهضة الأمَّة ، واستعادة مجدها ، وعزَّتها ، وكرامتها ، وهو أصلٌ عظيمٌ في بناء التَّصوُّر العقديِّ لأفراد الأمَّة ، سار على نهجه الحبيب المصطفى ﷺ ؛ ولذلك لابدَّ لنا من السَّير على الطَّريق نفسه .

سادساً : مفهوم القضاء والقدر ، وأثره في تربية الصَّحابة رضي الله عنهم :

اهتمَّ القرآن الكريم في الفترة المكِّيَّة بقضية القضاء والقدر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، وكان ﷺ يغرس في نفوس الصَّحابة مفهوم القضاء والقدر ، ويُبَيِّن لهم مراتبه من خلال القرآن الكريم ، وهي :

المرتبة الأولى : علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] .

المرتبة الثَّانية : كتابة كلِّ شيءٍ كائن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

المرتبة الثالثة : مشيئة الله النَّافـذة ، وقدرتـه التَّامَّة : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] .

المرتبة الرابعة : خَلْقُ الله لكلِّ شيءٍ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

كان للفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلوب الصَّحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمارٌ نافعةٌ ومفيدةٌ ، عادت عليهم بخيرات الدُّنيا والآخرة ؛ **فمن تلك الثمرات :**

١ ـ أداء عبـادة الله عزَّ وجلَّ ؛ فالقدر ممَّا تَعَبَّـدَ الله ـ سبحانـه وتعالى ـ الأمَّة بالإيمان به .

٢ ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشِّرْك ؛ لأنَّ المؤمن يعتقد : أنَّ النَّافع والضَّار ، والمعزَّ ، والمذلَّ ، والرافع ، والخافض ، هو الله وحده سبحانه وتعالى .

٣ ـ الشَّجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون: أنَّ الآجال بيد الله تعالى، وأنَّ لكل نفسٍ كتاباً.

٤ ـ الصَّبر والاحتساب، ومواجهة الصِّعاب.

٥ ـ سكون القلب، وطُمَأْنِينَةُ النَّفس، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدفٌ منشودٌ، فكلُّ مَنْ على وجه البسيطة يبتغيها، ويبحث عنها، فقد كان عن الصَّحابة من سكون القلب، وطُمأْنِينَة النَّفس ما لا يخطر على بالٍ، ولا يدور حول ما يشبهه خيالٌ، فلهم في ذلك الشَّأن القِدْحُ المُعَلَّى (النَّصيب الوافر) والنَّصيب الأوفى.

٦ ـ عزَّة النَّفس والقناعة والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين: فالمؤمن بالقدر يعلم: أنَّ رزقه بيد الله، ويدرك أنَّ الله كافيه وحسبه ورازقه، وأنَّه لن يموت حتَّى يستوفي رزقه، وأنَّ العباد مهما حاولوا إيصال الرِّزق له، أو منعه عنه؛ فلن يستطيعوا إلا بشيءٍ قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة، وعزَّة النَّفس، والإجمال في الطَّلب، وترك التكالب على الدُّنيا، والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين، وقطع الطَّمع ممَّا في أيديهم، والتوجُّه بالقلب إلى ربِّ العالمين.

إنَّ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرةٌ، وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرَّسول ﷺ لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان السِّتَّة المتقدِّمة؛ بل صحَّح عندهم كثيراً من المفاهيم والتَّصوُّرات، والاعتقادات عن الإنسان، والحياة، والكون، والعلاقة بينهما؛ ليسير المسلم على نورٍ من الله، ويدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقِّق ما أراد الله منه غاية التَّحقيق، ويتحرَّر من الوهم والخرافات[١].

سابعاً: معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان:

إنَّ القرآن الكريم عرَّف الإنسان بنفسه، بعد أن عرَّفه بربِّه، وباليوم الآخر، وأجاب على تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كلِّ إنسان سَوِيٍّ، وتلحُّ في طلب الجواب[٢].

وبيَّن القرآن الكريم للصَّحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانيَّة، وأصولهم الَّتي يرجعون إليها، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرَّف الصَّحابة بواسطة النَّبيِّ ﷺ، ومنهجه القرآني على الأصل الإنسانيِّ الَّذي هو الماء والتُّراب ـ أي: الطِّين ـ وبسلالته الَّتي هي الماء المهين، أو النطفة، كما عرَّفه بمكانته،

---

(١) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة الإسلامية، ص ٥٩.
(٢) انظر: منهج التَّربية الإسلاميَّة، لمحمَّد قطب (٢/ ٥٤).

وكرامته عند ربِّه؛ حيث أسجد له الملائكة، وأعلى كرامتَه، وتفضيلَه على كثيرٍ من الخلق؛ ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدَّين: الأدنى، والأعلى، فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً، وبأصله وسلالته يتواضع مُعَظِّماً شأنَ من أنشأه من ذلك الأصل، وأوصله إلى تلك المكانة العالية، فينجو بذلك من العُجْبِ والكبر، والغرور، كما يمنعه عزُّه وكرامته من التذلُّل لغير الله تعالى، والإنسان لو تركه الإله دون هدىً؛ لعانى الكثير من سوء الفهم للنَّفس، بل إنَّ عدداً من النَّاس قد يعانون ذلك لسببٍ ما؛ كالإفراط في الثِّقة بنظرتهم الخاصَّة إلى أنفسهم؛ الَّتي قد تؤدِّي إلى الغرور، والتَّعالي، وإمَّا إلى الهوان والتَّدنِّي[(١)].

إنَّ نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثِّرات في تربيته، وما زال الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه، يميل إلى جانب الإفراط حيناً؛ فيرى أنَّه أكبر، وأعظم كائنٍ في العالم، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانيةً، وغطرسةً، وكبرياء كما نادى قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وكما نادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويربأ بنفسه ـ أي: الإنسان ـ أن يعتقد أنَّه مسؤولٌ أمام أحدٍ، ويتحوَّل إلى متألِّهٍ، ويميل حيناً آخر إلى جانبٍ معاكسٍ هو التَّفريط؛ فيظن أنَّه أدنى، أو أرذل كائنٍ في العالم، فَيُطَأْطِىء رأسه أمام شجرٍ، أو حجرٍ، أو نهرٍ، أو جبلٍ، أو أمام حيوان؛ بحيث لا يرى السَّلامة إلا أن يسجد للشَّمس أو للقمر[(٢)].

وقد بيَّن القرآن الكريم بوضوحٍ: أنَّ «حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد، وهو الخلقة الأولى من طينٍ، حين سوَّاه، ونفخ فيه الرُّوح، والأصل القريب المستمرُّ، وهو خلقه من نطفةٍ»[(٣)]، وقال الله تعالى في ذلك عن نفسه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتحدَّث القرآن الكريم عن تكريم الله تعالى للإنسان، وكان لذلك الحديث أثره في نفوس، وعقول، وقلوب الرَّعيل الأوَّل؛ فقد بَيَّن لهم القرآن الكريم صوراً عديدةً لتكريم الإنسان؛ منها:

١ ـ اختصَّ الله الإنسان بأن خلقه بيديه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾

---

(١) أساليب التشويق في القرآن، د. الحسين جلو، ص ١٣٤.
(٢) انظر: أصول التَّربية للنَّحلاوي، ص ٣١.
(٣) انظر: أساليب التَّشويق والتَّعزير، ص ١٣٤.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٥] فبيَّن لهم علوَّ مكانة الرُّوح الَّتي حلَّت في الإنسان، وأنَّ لها منزلةً ساميةً، وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الَّذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق ـ جلَّ شأنه ـ تكريم هذا الإنسان بقوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

٢ ـ الصُّورة الحسنة، والقامة المعتدلة:

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

٣ ـ ومنحه العقل، والنطق، والتمييز:

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

٤ ـ وسخَّر الله تعالى للإنسان مافي السَّماء والأرض:

بعد أن خلق الله تعالى الإنسان، أكرمه بالنِّعم العظيمة التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

لقد سخَّر الله ـ عزَّ وجل ـ للإنسان ـ تكريماً له ـ ملكوتَ السَّموات؛ بما تشتمل عليه من نجومٍ، وشموسٍ، وأقمار، وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان؛ من تعاقب اللَّيل والنَّهار، واختلافٍ في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

٥ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بتفضيله على كثيرٍ من خلقه:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٦ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بإرسال الرُّسل إليه:

ومن أجلِّ مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرُّسل لهداية الخلق،

ودعاهم لما يحييهم ، وضمن لهم الفوز في الدُّنيا والآخرة ، فكان من أعظم النِّعم الَّتي أنعم الله بها على الإنسان تكريماً له نعمةُ الإسلام ، ونعمةُ الإيمان ، ونعمةُ الإحسان ، وأنْ هدانا الله إليها ، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] ، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن مظاهر هذا التَّكريم الَّذي شعر به الصَّحابة رضي الله عنهم ، حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبوديَّة لله وحده ، وتحريره من عبادة الأصنام ، والأوثان ، والبشر: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

٧ـ حبُّ الله للإنسان ، وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان أنْ جعله أهلاً لحبِّه ورضاه ، وأرشده في القرآن الكريم إلى ما يجعله خليقاً بهذا الحبِّ ، وأوَّل ذلك اتِّباع رسول الله ﷺ ، فيما دعا النَّاس إليه؛ كي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا ، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الآخرة ، وقد أشار المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى ثمرة هذا الاتِّباع ، وما أحلاها من ثمرة! ألا وهي التَّمتُّع بخيري الدُّنيا والآخرة! قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

٨ـ حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحفظه من السُّوء.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠] ، وسخَّر له الملائكة لحفظه: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤] ، وصورُ التَّكريم للإنسان كثيرةٌ في القرآن الكريم(١).

ثامناً: تصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لقصَّة الشَّيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله ﷺ من خلال المنهج القرآنيِّ ، يحدثهم عن قصَّة الشَّيطان مع آدم ، ويشرح لهم حقيقة الصِّراع بين الإنسان مع عدوِّه اللَّدود ، الَّذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام من خلال الآيات الكريمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ﷺ (٤/ ١١٣٦ ، ١١٤٢).

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٧].

كان الشَّيطان يتجسَّم في حسِّ الرَّعيل الأوَّل مرئيّاً مشهوداً، يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، يوسوس لهم بالمعصية، ويستثير فيهم كوامن الشَّهوات، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائماً منتبهين من عدوِّهم، وكانوا يسارعون في الخيرات؛ ليضيِّقوا مسالك الشَّيطان ويسدُّوها، فلا يجد له مسلكاً إليهم: حتَّى فيما هو أخفى من دبيب النَّمل[1]، وقد تعلَّموا ذلك بعد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

جاءت قصَّة آدم ـ عليه السَّلام ـ مع الشَّيطان في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ فأحياناً تجيء بكلِّ تفصيلاتها ـ كما في سورة الأعراف ـ وأحياناً تجيء ببعض التَّفصيلات ـ كما في سورة الحِجْر، والإسراء، وطه، وص ـ وأحياناً تجيء في صورة إشارةٍ عابرةٍ، وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشَّيطان يوم القيامة من بني آدم، الَّذين استجابوا له في الدُّنيا، وتنصُّله الكامل من تبعتهم ـ كما في الآية الثانية والعشرين ـ[2].

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٧].

إنَّ ممَّا يهمُّ الإنسان أن يعرف تاريخه؛ ليعتبر به، لا ليتسلَّى، وقصَّة آدم مع الشَّيطان قصةٌ

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٤٦.
(٢) انظر: دراسات قرآنيّة، ص ١١٢.

لها دَلالاتها الخاصَّة بين القصص القرآنيِّ كله ، فهي تحدِّد للبشر ، مبدأهم ومنتهاهم ، ودورهم في الأرض ، وخطَّة سيرهم فيها ، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنُّب هذه العقبات وتخطِّيها[١] .

كانت الآيات الكريمة الَّتي تحدَّثت عن قصَّة آدم ، وصراعه مع الشَّيطان قد علَّمت الرَّعيل الأوَّل قضايا مهمَّةً في مجال التَّصوُّر والاعتقاد ، والأخلاق ؛ ومنها :

١ ـ إنَّ آدم هو أصل البشر :

إنَّ آدم عليه السلام هو أصل البشر ؛ فقد خلقه الله تعالى من طينٍ على صورته البشريَّة الكاملة الَّتي لم تأتِ عن طريق التدرُّج عن نوعٍ من أنواع المخلوقات ، أو عن صورةٍ أو هيئةٍ أخرى ، فالله تعالى خلق آدم من طينٍ ، ثمَّ نفخ فيه الرُّوح ، فصار بشراً سوياً من لحمٍ ، ودمٍ بكامل هيئته ، وصورته الإنسانيَّة .

٢ ـ جوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله تعالى :

أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم ، فسجدوا له سجود تحيَّةٍ ، وتكريمٍ ، وتعظيمٍ ، واعترافٍ بفضله ، وطاعةً لله ربِّ العالمين دون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، مع أنَّهم في الملأ الأعلى ، وهم في حال تسبيحٍ ، وتقديسٍ ، وعبادةٍ مستمرَّةٍ لله ربِّ العالمين ، وقبل أن يصدر من آدم أي نوعٍ من العبادة ترجح على عبادتهم ، وإنَّما كانت مبادرة الملائكة إلى السُّجود لآدم ، والحال كما وصفنا ؛ لأنَّ الأمر لهم بالسُّجود لآدم صادر من الله ربِّ العالمين ، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا توقفٍ في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر ، وهذا هو جوهر الإسلام ، وهذا هو شأن المسلم : يسارع إلى طاعة ربِّه ، والامتثال لأمره بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا تعليقٍ لهذه الطَّاعة على شيءٍ آخر من معرفة سبب الأمر ، أو معرفة حكمته ، أو موافقته لعقله ، وهواه .

٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة :

تعلَّم الصَّحابة من قصَّة وقوع آدم في الخطيئة : أنَّ الإنسان له قابليةٌ للوقوع في المعصية ، وأنَّ هذه القابلية متأتِّيةٌ من طبيعة الإنسان ، فقد خلقه الله تعالى على طبيعةٍ تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً ؛ لما في طبيعته ، وما جبله الله عليه من ميولٍ ورغباتٍ ، وغرائز ـ هي جوانب الضَّعف في الإنسان ـ والَّتي من خلالها ينفذ الشَّيطان بوساوسه إليه ، ويزيِّن له الوقوع في الخطيئة ، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه : أنَّه يحبُّ أن يكون خالداً لا يموت ، أو معمِّراً أجلاً

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٤ .

طويلاً كالخلود ، يحبُّ أن يكون له ملكٌ غير محدَّدٍ بالعمر القصير[١] ، فجاء إبليس إلى آدم عليه السلام من هذه الغريزة ، فقال له ، ولزوجته : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] ، وأكَّد لهما ادِّعاءه بالحلف بالله بأنَّه لهما لمن النَّاصحين.

وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول ، والرَّغبات ، بل لابدَّ للمسلم من أن يضبطها ، ويكبح جماحها ، ويجعلها تابعةً لأحكام الشَّرع الحنيف ، وهذه الميول ، والغرائز ، والرَّغبات هي ما تهواه النَّفس ، وغالباً ما تكون منفلتةً ، ومتجاوزةً حدودها ، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشَّرع ، ولذلك يأتي ذمُّ (الهوى) ، ويراد به ما تهواه النفس من أمرٍ مذمومٍ. قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] ، فقد أطلق الهوى ، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى؛ لأنَّه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[٢].

٤ ـ خطيئةُ آدمَ تُعَلِّم المسلمَ ضرورة التَّوكُّل على ربِّه :

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة ، وتثير الخوف ، والفزع في النُّفوس ، وبالتالي تزيد من تَوَكُّل المسلم على ربِّه ، واعتماده عليه؛ ليكفيه شرَّ الشَّيطان الرَّجيم ، وبيان ذلك : أنَّ الله تعالى أَسْجَدَ الملائكة لآدم إظهاراً لفضله ، وعلوِّ منزلته عند ربِّه ، وطَرَد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السُّجود له ، وأسكنه وزوجه في الجنَّة ، وأمره بالأمر الصَّريح بعدم الاقتراب من شجرةٍ معيَّنةٍ وأباح له ما عداها من نعيم الجنَّة ، وثمارها ، قال تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وحذَّرهما من الشَّيطان ، ومن خداعه وكيده؛ لئلا يخرجهما من الجنَّة. قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه ١١٦ ـ ١١٧] ومع هذا كلِّه فإنَّ الشَّيطان استزلَّهما ، وغرَّهما ، فأكلا من الشَّجرة ، ووقعا في المعصية فأخرجهما ممَّا كانا فيه.

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام أثارت في نفوس الصَّحابة الكرام الخوف ، والفزع من هذا العدوِّ الخبيث ، وهذا الخوف من الشَّيطان ، وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدَّائم إلى الله تعالى ، والتَّوكُّل عليه ، والاستعانة به على هذا الشَّيطان الرَّجيم ، الَّذي لا همَّ له إلا إغواءُ الإنسان ، وجرُّه إلى الخطيئة ، وهذا هو الَّذي فهموه من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٢٦٩).
(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة ، د. عبد الكريم زيدان (١/ ٢٨).

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]؛ فلا تأثير ، ولا قدرة للشَّيطان على إغواء الَّذين آمنوا بالله إيماناً عميقاً؛ لأنَّ الله تعالى قد وجَّهَ قلوبهم إليه سبحانه، وحرَّكَ جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشَّيطان على هؤلاء من سلطانٍ ، فهم يحاربون أمانيه الباطلة ، ويهدمون ما يُلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النُّور الكاشف عن مكره ، والتَّوكُّل عليه يفيدهم التقوية بالله؛ فيضعف الشَّيطان ، وينخذل أمام قوَّة الإيمان بالله والتَّوكُّل عليه[١].

٥ ـ ضرورة التَّوبة والاستغفار:

تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه القصَّة ضرورة التَّوبة ، والاستغفار عند الوقوع في الذَّنب أو المعصية ، فقد سارع آدم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرَّحمة من ربِّهم الكريم عندما وقعوا في المعصية: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣] فهذا اعترافٌ بالذَّنب سريعٌ ، مقرونٌ بندمٍ شديدٍ ، فندمٌ من قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ، وتوبةٌ خالصةٌ مقرونةٌ برجاء قبولها؛ لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين ، وهذا يفهم من قولهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التَّوبة ، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوِّ منزلتهما؛ فغيرهما أولى بذلك[٢].

٦ ـ الاحتراز من الحسد ، والكِبْر:

إنَّ إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد ، والكِبْر ، فكان بدء الذُّنوب الكِبْر ، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربِّه بالسُّجود لآدم ، ولهذا جاء التَّحذير من الكِبْر ، والوعيد للمُتكبِّرين ، قال ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ» [أحمد (١/ ٣٩٩ و٤٥١) ومسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩)].

وحقيقة الكبر: بَطَرُ الحقِّ ، وغَمْطُ النَّاس.

وبطر الحقِّ: ردُّه ودفعه ، وعدم الخضوع له ، وعدم الانقياد له؛ استخفافاً به ، وترفُّعاً عليه ، وعناداً له.

وغمط النَّاس: احتقارهم ، والازدراء بهم[٣].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٧١).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٠).

(٣) المستفاد من قصص القرآن (١/ ٣٣).

ومن أعظم مظاهر بطر الحقِّ رفضُ أوامر الله، والتَّمرُّد عليها؛ لأنَّ ما يأمر به الله هو الحقُّ، فالتَّمرُّد على هذا الحقِّ، ودفعه يمثِّل حقيقة الكِبْر، فكان الصَّحابة رضي الله عنهم أبْعَدَ خلق الله تعالى عن جراثيم الحسد والكِبْر، والابتعاد عن الحديث عن النَّفس وتزكيتها، وقد شعروا بخطورة ذلك من قوله تعالى: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾؛ لأنَّ فيها معنى التكبُّر، والله قال لهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، وتعلَّموا: أنَّه لا فخر بالأصل والنَّسب؛ وإنَّما بالتَّقوى، والطَّاعات والخيرات؛ ابتغاء ربِّ الأرض والسَّموات؛ لأنَّ إبليس افتخر بسبب أصله ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

٧ ـ إبليس هو العدوُّ لآدم وزوجه وذريتهما:

تعلَّم الصَّحابة من القرآن المكِّيِّ: أنَّ إبليس هو عدوُّهم الأوَّل؛ لأنَّه بسبب امتناعه عن السُّجود لأبيهم آدم طرده الله من رحمته، ولعنه، فأصبح عدوّاً لآدم، وزوجه وذرِّيَّته قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني آدم، وإغوائهم، وطلب من الله تعالى إمهاله، وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم، وصمَّم عليه، ممَّا يدلُّ على شدَّة عداوته لآدم، وبنيه.

قال تعالى حكاية عن قول إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٤٠].

لقد أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرآنيِّ: أنَّ طبيعة علاقة الشَّيطان بالبشر هي العداوة، ولا يمكن تبديلها، ولا تغييرها، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه العداوة؛ لأنَّ الشَّيطان لا همَّ له، ولا عمل، ولا غرض في حياته، سوى إضلال الإنسان، ودفعه إلى معصية الله، بواسطة تزيين الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى حكايةً عمَّا قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤] وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم: أي: حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾؛ أي:

عن طريق التَّوحيد[١] ، ومن هذا الباب ، وبهذا الأسلوب ـ أسلوب التَّزيين ـ يزيِّن الشَّيطان البدع في الدِّين في أعين المبتدعين[٢] .

ولذلك جعل الصَّحابةُ إبليسَ عدوَّهم الأكبر ، وامتثلوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] فعادوه ، ولم يطيعوه ، واحترزوا منه ، وحذَّروا منه النَّاس.

٨ ـ التَّخاطب بأحسن الكلام بين الصَّحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصَّحابة الكرام لمحاربة الشَّيطان امتثالُهم قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] ، لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ ، أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم ، ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطَّيِّبة؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم؛ أي: أفسد فيما بينهم ، وهيَّج الشَّرَّ، والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والبغضاء: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة للإنسان؛ ولذلك فهو لا يريد إلا الشَّرَّ لهم ، والعداوة فيما بينهم.

وقد تربَّى الصَّحابة الكرام على خُلُقٍ رفيع وأسلوبٍ جميلٍ في معاملة النَّاس من قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] ، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخلَّة الَّتي هي أحسن الخِلال؛ أي: بالصَّفح ، ومكارم الأخلاق ، ادفع إساءة من يسيء إليك ، فبهذا تعود عداوته صداقة ، وبغضه محبَّة[٣] ، وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشُّرور والفساد ، والصَّدِّ عن الحق؛ لأنَّ الشَّياطين لا ينفع معهم شيءٌ ، ولا ينقادون بالمعروف[٤] ، ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأنٍ من شؤوني أو في شيءٍ من أمري ، ولهذا أمر الشَّرع بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشَّيطان.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦] ، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٥).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥١).
(٣) تفسير القاسمي (١٢/ ١٠٠).
(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٥).

هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: مَنْ أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ كأنَّه وليٌّ؛ أي: صديقٌ، أو قريب. (حميم): أي: شديد الولاء. ومعنى ذلك: أنَّك إذا أحسنت إلى مَنْ أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك، ومحبَّتك، والحنوِّ عليك؛ حتَّى يصير كأنَّه وليٌّ لك، حميمٌ؛ أي: قريب إليك من الشَّفقة عليك والإحسان إليك.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: وما يقبل هذه الوصيَّة ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها ـ إلا مَنْ صبر على ذلك، فإنَّه يشق على النُّفوس، وما يقبل هذه الوصية ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والآخرة[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وإما يُلْقِيَنَّ الشَّيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه، فاستعذ بالله من وساوس هذا الشَّيطان ونزغه، وشرِّه، فإنه يسمع استعاذتك، ويعلم حالك، فالشَّيطان لا تنفع معه مداراةٌ، ولا مقابلة إساءته بإحسانٍ؛ لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبداً، أمَّا عدوُّ الإنسان فقد ينفع معه إحسانُك إليه، وعدم مقابلة إساءته بإساءةٍ مثلها، ولذلك حثَّنا الشَّرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه، أمَّا بالنِّسبة لنزغ الشَّيطان وتحرُّشه بالإنسان؛ فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلِّصك من شرِّه[٢].

إنَّ المنهج القرآنيَّ الكريم وضَّح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشَّيطان، وبيَّنَ سُبُلَ علاجها، ووسائل الشَّيطان لإغواء بني آدم، ومضى القرآن يتحدَّث عن الشَّيطان، وهو في جهنم، وقد تبرَّأ ممَّن أغواهم، وأضلَّهم من بني الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠، ١٠١).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٦).

هذه صورةٌ موجزةٌ عن حقيقة إبليس ، وتصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لهذا العدوِّ اللَّعين .

تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات :

ظلَّ رسول الله ﷺ يعلِّم الصَّحابة كتاب الله تعالى ، ويربِّيهم على التَّصوُّر الصَّحيح في قضايا العقائد ، والنَّظر السليم للكون والحياة ، من خلال الآيات القرآنيَّة الكريمة ، فبيَّن بدء الكون ومصيره .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢] .

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونيَّة :

١ ـ خلق الأرض ، وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيَّامٍ قبل الاستواء إلى السماء ؛ وهيَ دخانٌ .

٢ ـ أصل الكون الماديِّ من الدُّخان .

٣ ـ الدَّورات التَّكوينيَّة للأرض ، والسَّماء مجموعها ستَّة أيَّامٍ(١) .

وقد بيَّنَ القرآن الكريم حقيقةً مهمَّةً ، وهي استحالة تحديد الحالة الأوَّلية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النُّجوم ، والكواكب ، والمجرَّات ، ولن يستطيع الناس معرفة ذلك ، إلا ظنّاً ، وتخميناً ، قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١] .

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحَّد ، وساق حقائق كونيَّةً في غاية الوضوح . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] .

لقد فهم الصَّحابة من الآيات ـ الَّتي في سورة فصِّلت ـ: أنَّ الله تعالى خلق الأرض ، ووضع البركة فيها وقدَّر أقواتها في أربعة أيَّام ، كلُّ ذلك قبل تشكيل السَّماء وجعلها سبع سمٰواتٍ ، وهذه الحقيقة وصل إليها الصَّحابة من طريق الوحي ، من خالق السَّموات والأرض(٢) .

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : وَخَلَقَ الأرض في يومين ، ثمَّ خَلَقَ السَّماء ، ثمَّ استوى إلى

---

(١) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ .

(٢) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ إلى ١٧٩ .

السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرين ، ثمَّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى ، وخلقَ الجبالَ ، والرِّمالَ ، والجمادَ ، والآكامَ ، وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ . فجُعِلَتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام ، وخُلِقَتِ السَّمواتُ في يومين . [البخاري تعليقاً (٨/ ٧١٤)] .

وبيَّن لهم القرآن الكريم في آياتٍ عظيمة : أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّموات وألقى في الأرض رواسيَ ، وتحدَّث عن حقائق في الكون ، وعن الشَّمس ، والقمر ، والنُّجوم ، وفصَّل في الجبال ، وبيَّن فوائدها ، وضرب بها الأمثال ، ودعا إلى التأمُّل فيها ، وأخبر أنَّه سوف ينسفها نسفاً ، وتحدَّث القرآن الكريم عن البحار ، وما فيها من السُّفن ، والأرزاق ، وتكلَّم القرآن الكريم عن الظَّواهر الجويَّة ، كالرِّياح ، والسُّحب ، والمطر ، والرَّعد ، والبرق ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢] .

وقرَّر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان ، لا تقلُّ في الأهمِّيَّة ، والدِّقَّة عن الحقائق الَّتي قرَّرها في كلِّ جوانب الكون ، والحياة ، فهو يلفت النَّظر تارةً إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدَّوابِّ ركوباً ، وحملاً ، ولباساً ، وطعاماً ، وشراباً ، وزينة ، فهي مسخَّرةٌ للإنسان ، مذلَّلةٌ له منقادةٌ ، كان الرَّعيل الأوَّل قبل البعثة؛ ينظر إلى الكون والحياة ، والمخلوقات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجومٍ ، نظرةً مضطربةً غير واضحةٍ في معالمها التَّصوُّريَّة ، والعقديَّة ، ولا يستشعرون بالمنظومة التي خلقها الله ، وأنَّها تسبِّح لله ، وله حكمة من خلقها ، فأرشدهم القرآن الكريم إلى التأمُّل ، والتدبُّر في هذا الكون ، وما فيه من مخلوقات ، وبيَّن لهم حقيقة أنَّ مخلوقاته العظيمة تسبِّح له ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن لا يفقهون تسبيحهم ، قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وحدَّثهم القرآن الكريم عن ظاهرة تذليل ، وانقياد الحيوان للإنسان ، وبيَّن لهم : أنَّها ظاهرةٌ تستدعي شكر المنعم؛ الَّذي جعل فيها هذه الطَّبائع ، ولولا وجود هذا الطَّبع فيها؛ لما استطاع الإنسان التغلُّب عليها سبيلاً[1] . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣] .

---

(١) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، ص ٢١٤ .

ولفت القرآن الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان ، وأنَّ الإنسان يعقل ويفكِّر ، ويخطِّط ، ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه ، وإذا حصل على الكسب بطريقةٍ ما ؛ فكَّر في ادِّخاره ، وتخزينه للمستقبل ، أمَّا الحيوان ؛ فليست عنده القدرة على التَّفكير والتَّخطيط ، وليس من طبعه ذلك ، ولكنَّ قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكلِّ شيءٍ قد تكفلت بأرزاقها ، وتوفير سبل البقاء أمامها. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] .

هكذا شأن الألوهيَّة في المخلوقات: العلم ، والإحاطة بالمكان ، والتَّكفُّل بالرزق في جميع الظُّروف ، فالحيوان مرزوقٌ في كلِّ مكانٍ ، في أعماق البحار ، والمحيطات ، وفي الصَّحراء المحرقة ، والأصقاع المتجمِّدة ، تحت الصُّخور الصَّمَّاء ، وفي أجواء الفضاء ، كلّ ذلك في كتابٍ لا يضلُّ ربِّي ، ولا ينسى ، قال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦] .

وقد لفت القرآن الكريم النَّظر إلى أنَّ هذه المخلوقات ـ من الدَّواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة ، والسَّير ـ أممٌ ، وفصائلُ أمثال النَّاس[1] ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وهكذا نَظَّمَ القرآن الكريم أفكار ، وتصوُّرات الرَّعيل الأوَّل عن الكون ، وما فيه من مخلوقاتٍ ، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية واستمرَّ النَّبيُّ ﷺ في غرس حقيقة المصير ، وسبيل النَّجاة في نفوس أصحابه ، موقناً: أنَّ مَنْ عرف منهم عاقبته ، وسبيل النَّجاة ، والفوز سيسعى بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ ووسيلةٍ لسلوك السَّبيل ، حتَّى يظفر غداً بهذه النَّجاة ، وذلك الفوز ، وركَّز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التَّالية:

إنَّ هذه الحياة الدُّنيا مهما طالت ؛ فهي إلى زوالٍ ، وإنَّ متاعها مهما عظم ؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ ، ووضَّح لهم ذلك الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] .

إنَّ الآية الكريمة السَّابقة فيها عشر جملٍ وقع التَّركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيه ؛ إذ المقصود تشبيه حال الدُّنيا في سرعة تقضِّيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ، ص ٢١٦ .

النَّاس بها ، بحال ماءٍ نزل من السَّماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزيَّن بزخرفه وجهَ الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثِّياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنُّوا أنها مُسَلَّمَةٌ من الجوائح ؛ أتاها بأس الله فجأةً ، فكأنَّها لم تكن بالأمس[(١)].

وأخبرهم الرَّسول ﷺ بقول الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] أي : واضرب يا محمَّد للنَّاس ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في زوالها ، وفنائها ، وانقضائها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي : ما فيها من الحبِّ ، فشبَّ ، ونما ، وحسن ، وعلاه الزَّهر ، والنَّضرة ، ثمَّ بعد هذا كلِّه ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ أي : يابساً ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي : تفرِّقه ، وتطرحه ذات اليمين ، وذات الشِّمال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي : هو قادر على الإنشاء والإفناء[(٢)].

وقال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] يقول تعالى مُوَهِّناً أمر الحياة الدُّنيا ، ومحقِّراً لها : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ أي : تفريح نفسٍ ، ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ أي : باطل ، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ أي : منظرٌ جميلٌ ﴿ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : بالحسب والنَّسب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي : مطر ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي : يعجب الزُّرَّاع نبات ذلك الزَّرع ؛ الَّذي نبت بالغيث ، وكما يُعجب الزُّرَّاع ذلك ، كذلك تُعجب الحياة الدُّنيا الكفار ، فإنَّهم أحرص النَّاس عليها ، وأميل النَّاس إليها ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي : ثمَّ يجفُّ بعد خضرته ، ونضرته ، فتراه مصفرّاً ؛ أي : من اليبس ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ ثم يكون بعد ذلك كلِّه حطاماً ؛ أي : هشيماً منكسراً ، وكذلك الدُّنيا لا تبقى ، كما لا يبقى النَّبات الَّذي وصفناه ، ولمَّا كان هذه المثل دالاً على زوال الدُّنيا ، وانقضائها لا محالة ، وأنَّ الآخرة كائنةٌ ، وآتيةٌ لا محالة ، حذَّرنا الله تعالى من أمرها ، ورغَّبنا فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ أي : وليس في الآخرة الآتية إلا : إمَّا هذا ، وإما هذا ؛ أي : إمَّا عذابٌ شديدٌ ، وإمَّا مغفرةٌ من الله ، ورضوانٌ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي : هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ، ويخدع مَنْ يركن إليها ، وإلى متاعها ، فيغترُّ بها ، وتعجب مَنْ يعتقد : أنَّه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، مع أنَّها حقيرةٌ ، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدَّار الآخرة[(٣)].

---

(١) انظر : الإتقان ، للسيوطي (٢/ ٧٠).

(٢) انظر : تفسير القاسمي (١١/ ٤٩).

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

إنَّ هذه الحقيقة الَّتي أشارت إليها الآيات الكريمة ، هي حقيقة الدُّنيا بكلِّ متاعها ، وزينتها ، وما تشتهيه النَّفس منها ، وإنَّ كلَّ ذلك بالنِّسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافهٌ ، وقليلٌ وزائلٌ ، هكذا فهم الرَّعيل الأوَّل حقيقة الدُّنيا ، فكان رسول الله ﷺ يبصِّرهم ، ويذكِّرهم بدورهم ، ورسالتهم في الأرض ، ومكانتهم عند الله ، وظلَّ ﷺ معهم على هذه الحال من التَّبصير والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورهم وما رسالتهم في الأرض ، وتأثُّراً بتربيته الحميدة تولَّد الحماس ، والعزيمة في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين باللَّيل والنَّهار بكلِّ ما في وسعهم ، وما في طاقتهم دون فتورٍ ، أو توانٍ ، ودون كسلٍ ، أو مللٍ ، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا من الله ، ودون طمع في مغنمٍ أو جاهٍ إلا أداء هذا الدَّور وهذه الرِّسالة؛ لتحقيق السَّعادة في الدُّنيا ، والفوز ، والنَّجاة في الآخرة[١].

إنَّ كثيراً من العاملين في مجال الدَّعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة؛ لأنَّهم انغمسوا في هذه الحياة الدُّنيا ، ومتاعها وشغفتهم حبّاً ، فهم يلهثون وراءها ، وكلَّما حصلوا على شيءٍ من متاعها؛ طلبوا المزيد ، فهم لا يشبعون ، ولا يقنعون؛ بسبب التصاقهم بالدُّنيا ، وإنَّها لكارثةٌ عظيمةٌ على الدَّعوة ، والنُّهوض بالأمَّة ، أمَّا التمتُّع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشَّرع ، واتِّخاذها مطيَّةً للآخرة فذلك فعلٌ محمودٌ.

* * *

(١) انظر: منهج الرَّسول ﷺ في غرس الروح الجهادية ، ص ١٩ إلى ٣٤.

المبحث الرَّابع

البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وقد رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمِّها:

١ ـ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق، وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ التأمُّل في علم الله الشَّامل، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح، والقلب بعظمة الله، ويطهِّر النَّفس من الشكوك، والأمراض. قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠].

٣ ـ عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّل لله سبحانه، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

أ ـ **النَّوع الأوَّل**: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة، والحجِّ وغيرها.

ب ـ **النوع الثَّاني**: العبادات بمعناها الواسع ، الَّذي يشمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسان ، أو يتركه ، بل كلّ شعورٍ يُقبِل عليه الإنسان تقرُّباً به إلى الله تعالى ، بل يدخل فيها كلُّ شعورٍ يطرده الإنسان من نفسه تقرُّباً به إلى الله تعالى ، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى ، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها ، وتربِّي روحه تربيةً حسنةً(١) .

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة ، وتلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى ، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها ، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها ، والعبادة والمداومة عليها ، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً ، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به ، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول ﷺ في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر ، وترتيل القرآن .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل : ١ ـ ٨] .

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل ، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة ، وقد حرص رسول الله ﷺ بتوجيهٍ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة(٢) .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، واستخْفَوا بصلاتهم(٣) . ولمَّا خاف ﷺ في بداية الإسلام على أصحابه ، وعرف : أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة ، وقراءة القرآن علناً ، دخل بهم دار الأرقم ، وصار يصلِّي بهم ، ويعلِّمهم كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة ، والصَّلاة ، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف ، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش المكان الَّذي يصلِّي فيه الرَّسول ﷺ بأصحابه لم يترك الرَّسول ﷺ الصَّلاة ، والتِّلاوة لأجل الخوف(٤) .

وقد حضَّ الله تعالى في القرآن المكِّيِّ على إقامة الصَّلاة ، وأثنى على الَّذين يخشعون في صلاتهم ، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله ، وعلى الذين

---

(١) فقه الدَّعوة ، لعبد الحليم محمود (١/ ٤٧١ ، ٤٧٢) .
(٢) انظر : أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٩ .
(٣) انظر : سبل الهدى والرشاد ، للصالحي (٢/ ٤٠٤) .
(٤) انظر : أهمية الجهاد في نشر الدعوة ، ص ٧٠ .

يدعون الله ويسبِّحونه ، ويذكرونه ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠].

وهذه الآياتُ الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة ، والذِّكر ، وتلاوة القرآن ، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده ، والإكثار من الدُّعاء[١].

إنَّ الصَّلاة تأتي في مقدِّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسلم ، ولعلَّ من أبرز آثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

١ ـ الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره ، فقال عزَّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه ، والإخلاص له سبحانه ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً ، وتأثيراً في

---

(١) انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله ، ص ٧٢.

النَّفس ، وتزكيةً للرُّوح؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى ، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يثبت كلَّ كمال لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة ، وما أنعم عليه من النِّعم ، ويثني عليه بصفاته ، وأسمائه الحسنى[١] .

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده ، فالله هو المعبود ، وهو المستعان ، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ .

وعندما يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية ، والثَّبات على طريق الحقِّ ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية ، والاستزادة منها ، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم ، والضَّالِّين[٢] .

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح ، وخضوع القلب ، ثمَّ يأتي السُّجود ، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه ، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه ، ويتبع هذا انكسارُ القلب ، وتواضعُه ، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[٣] ، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه ، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في سجوده ، ازداد منه قرباً ، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩] .

وفي الحديث النَّبويِّ الشريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدُّعاءَ»[٤] .

وعندما يعتدل جالساً ، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه ، ملقياً نفسه بين يديه ، معتذراً إليه ممَّا جناه ، راغباً إليه أن يغفر له ، ويرحمه ، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبوديةُ لله سبحانه ، وإقبالُ العبد على ربِّه ، وتوحيده ، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية ، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة ، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته ، وتمنحه طهارة القلب ، وطمأنينة النَّفس[٥] .

٢ ـ مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله ﷺ مشهداً من مشاهد هذه المناجاة ، فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/ ٢٢١).
(٢) الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقرآن ، لابن قيِّم الجوزيَّة ، ص ٣٥ ـ ٤٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣ ـ ٤٦) ، وانظر: الخشوع في الصَّلاة ، لابن رجب ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .
(٤) مسلمٌ ، كتاب الصَّلاة ، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود ، رقم (٤٨٢).
(٥) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٢٢٢).

تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبدُ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي ، وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال: مجَّدني عبدي ، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل». [أحمد (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) ومسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤)].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيِّ ﷺ : أنَّ هذه المناجاة ، من أعظم أسباب تزكية النَّفس ، وتقوية الإيمان ، إذا هيَّأ العبد نفسه لها ، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه ، الوافد عليه ، المنتظر لرحمته ، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

٣ـ طمأنينة النَّفس ، وراحتها:

كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى [أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٥/ ٣٨٨)] ، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة [أحمد (٣/ ١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥) والنسائي (٧/ ٦١) والحاكم (٢/ ١٦٠)] ، وقد علَّم الرَّسول ﷺ الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم ، وتأمن بها نفوسهم ، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

٤ ـ الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم ، تستريح بها نفوسُهم ، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات ، والابتعاد عن المنكرات ، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورعاية حدوده ، والتَّغلُّب على نوازع الهوى ، ومجاهدة النَّفس ، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي[1] ، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيئات ، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

وغير ذلك من الآثار التَّربويَّة ، والنَّفسيَّة الطَّيبة؛ الَّتي تتضافر ، فيغنمها العبد المصلِّي ، فتؤدِّي الصَّلاة دورها في تزكية النَّفس ، وطهارتها ، ويتحقَّق قول رسول الله ﷺ: «والصَّلاة نورٌ»؛ [مسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والنسائي (٥/ ٥ ـ ٦) وابن ماجه (٢٨٠) وأحمد (٥/ ٣٤٢ و٣٤٣

---

(١) انظر منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٧).

و٣٤٤)]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية ، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح ، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ، ولذَّة المناجاة لربِّه ، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ ، وطمأنينةٍ ، وراحةٍ ، وبما تمدُّ من أمنٍ ، وسكينةٍ ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا ، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [١]، وهي نورٌ له يوم القيامة[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر ، والدُّعاء ، وتلاوة القرآن الكريم ، والاستماع إليه ، واغتنام السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل ، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب ، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وله آثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس ، وسموِّ الرُّوح ، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّحابة من آثار الذِّكر ، والدُّعاء ، والتِّلاوة مناجاةُ الله ، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : «يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ؛ إن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)] .

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القرآن الكريم ، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم ، وازدادت خشيتهم له ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شفى القرآنُ نفوسَهم من أمراضها ، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

---

(١) انظر : منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٣٣) .

(٢) أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (٣/ ١٠٠) ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، ص ١٩٠ .

وكان للصَّحابة مع الدُّعاء شأنٌ عظيمٌ ، فقد علَّمهم النَّبيُّ ﷺ : أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية ، والمناجاة لله سبحانه وتعالى ، قال رسول الله ﷺ : «الدُّعاء هو العبادة» [أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٣٧٢) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان (٨٨٧) والحاكم (١/ ٤٩١)] ، ولقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء ، وتوعَّد من يستكبر ، فيترك الدُّعاء ؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يستكبرون عن عبادتي ؛ أي : عن دعائي ، وتوحيدي»(١) .

كان النَّبيُّ ﷺ يبيِّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ ؛ من ذكرٍ ، ودعاءٍ ، وتلاوة قرآن ؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض ، والآفات ، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية ، والأذكار في الصَّباح والمساء ، وعند دخول المنزل ، أو الخروج منه ، وعند دخول السُّوق ، أو الأكل ، أو اللبس ، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة ؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ ، فإذا أصيب بمرض عارضٍ ، كالقلق ، والكآبة ، والاضطراب العصبيِّ ، أو غيرها ، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلسم الشَّافي ؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب ، وتحيا به النُّفوس ، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله ﷺ لأصحابه ، دعاء الشِّدَّة ، والكرب ؛ الَّذي يقول فيه : «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم» . [البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠)] .

إنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق ؛ ليجدوا المأمن ، والسَّكينة ، فلا يفزعوا ، ولا يقلقوا ، وهم موقنون بأنَّ الله معهم ، وأنَّه ناصرهم ، ومتولِّي أمرهم ، ومؤيِّدهم ، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين(٢) .

قال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢] .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء ، وتلاوة القرآن ، وقيام اللَّيل ، والنَّوافل بأنواعها ، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ومهما كتبنا في هذا الموضوع ؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ .

ثانياً : التزكية العقلية :

كانت تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه شاملةً ؛ لأنَّها مستمدةٌ من القرآن الكريم ، الَّذي خاطب

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٦) .
(٢) منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٣٣١) .

الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح ، والجسد ، والعقل ، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر ، والتأمُّل ، والتفكُّر ، والتدبُّر ؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله ، وهذا مطلبٌ قرآنيٌّ ، أرشد إليه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم تنزيله .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] .

وقال جلَّ شأنُه : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢] .

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمَّة ، وقد جعله المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ مناط التَّكليف ، فمن حُرم العقل لجنونٍ أو غيره ، فهو غير مكلَّفٍ ، ويسقط عنه التَّكليف قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم ، واستيعابه ؛ ولذلك وضع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل ، سار عليه رسول الله ﷺ لتربية أصحابه ؛ ومن أهمِّ نقاط هذا المنهج :

١ ـ تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين ، أو التبعيَّة والتقليد ، فقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التَّالية ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨] .

٢ ـ إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] .

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥] .

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شرع الله لعباده من عباداتٍ ، ومعاملاتٍ ، وأخلاقٍ ، وآدابٍ ، وأسلوب حياةٍ كاملٍ ، في السِّلم والحرب ، في الإقامة والسَّفر ؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل ، وينمِّيه ، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص ، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ

في حياته ، ولا يبغي عنه حولاً ؛ لما فيه من السَّكينة ، والطمأنينة ، والسَّعادة للبشريَّة ، ولأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنَّما شرع ما شرع لذلك .

قال سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩] .

٥ ـ دعوة العقل إلى النَّظر إلى سنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشريِّ ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الآباء ، والأجداد ، والأسلاف ، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم ، والشُّعوب ، والدُّول . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤] .

وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩] .

كانت هذه الآيات الكريمة ترشد الصَّحابة إلى استخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيِّ ؛ لكي لا تضلَّ عقولهم في التيه ؛ الَّذي ضلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسفة ، الَّذين قدَّسوا العقل ، وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ[١] ، وقد كان لهذه التَّربية القرآنيَّة آثارٌ عمليَّة عظيمةٌ .

ثالثاً : التَّربية الجسديَّة :

حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ على تربية أصحابه جسدياً ، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القرآن الكريم ، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته ، الَّتي خلق لها ، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى .

إنَّ الله أرشد عباده في القرآن الكريم ، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات ، وما حرَّمه من الخبائث ، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

ولاشكَّ : أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة ، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي

(١) انظر : فقه التَّمكين في القرآن الكريم ، للصلاَّبي ، (ص ٣٥٤) .

كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله، واستخلافٍ في الأرض، وإعمارها، وتعارفٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

١ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام، والشَّراب بقوله تعالى: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٣ ـ ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠].

٤ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزِّنى، والمخادنة، واللِّواط، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

٥ ـ ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة، وأباح التَّملُّك للمال، والعقار، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الحديد: ٧].

٦ ـ ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم، والعدوان، والبغي. قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

٧ ـ ضَبَطَ حاجته إلى العمل، والنَّجاح؛ بأن جعل من اللَّازم أن يكون العمل مشروعاً، وغير مضرٍّ بأحدٍ من النَّاس، ونادى المسلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين، وما يدَّخرون عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحاً،

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ، وطالب بالإحسان في العمل ، فقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

٨ ـ وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر ، والاغترار بالنِّعمة ، فقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

هذه بعض الأسس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويَّة للأجسام ، حتى تستطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد ، وهموم الدَّعوة ، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ صحابته على المنهج الكريم ، منهج تزكية الأرواح ، وتنوير العقول ، والمحافظة على الأجساد ، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة ، ولقد نجحت تربيته ﷺ في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق ، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ ، وقد ربَّى رسولُ الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق ، بأساليب متنوعةٍ ، وكان ﷺ يتلو عليهم ما ينزل من قرآن ، فإذا سمعوه ، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقرآن المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق ، وعلى تنقية الرُّوح ، وتصفيتها ، من كلِّ ما يعوق سيرها إلى الله تعالى ، ورسول الهدى ﷺ القدوة الكاملة ، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ[1]؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ومعنى الآية واضحٌ ، أي: ما كان يأمر به من أمر الله ، وينهى عنه من نهي الله ، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي آثرك الله به في القرآن[2].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كان القرآنَ» [مسلم (٧٤٦) وأحمد (٦/ ٥٤) وأبو داود (١٣٤٢)]. وقد جمع الله تعالى لنبيِّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال مجاهد في معنى الآية: يعني: خذ العفو من أخلاق النَّاس ، وأعمالهم من غير

(١) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٤ ، ٦٥.
(٢) انظر: تهذيب مدارج السَّالكين (٢/ ٦٥٣).

تخسيسٍ ، مثل قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم[(١)] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كلُّ معروفٍ ، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ ، ثُمَّ حقوق العبوديّة ، وحقوق العبيد[(٢)] ، ثمَّ قال تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ، يعني : إذا سفه عليك الجاهل ، فلا تقابله بالسَّفه ، كقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، وهكذا كان خلقه ﷺ ؛ «كان النَّبيُّ ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقاً» [البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (٦٥٩)] .

وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق ، ويحثُّهم عليه ، فعن النَّبيِّ ﷺ قال : «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ» [أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٤٧٦)] .

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال : «تقوى الله ، وحسنُ الخلق» ، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النار؟ فقال : «الفمُ ، والفرجُ» [أحمد (٢/ ٣٩٢) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والبخاري في الأدب الفرد (٢٨٩ و٢٩٤)] ، وقد بيَّن ﷺ لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق ، فقال : «إنَّ من أحبِّكم إليَّ ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً ، وإنَّ أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني يوم القيامة ، الثَّرثارون ، والمتشدِّقونَ ، والمتفيهقون» قالوا : يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون ، والمتشدِّقون) ، فما المتفيهقون؟ قال : «المُتكبِّرون» [الترمذي (٢٠١٨)] .

الثَّرثار : هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ . والمتشدِّق : المتكلِّم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً ، وتطاولاً ، وإظهاراً لفضله على غيره ، والمتفيهق : هو الَّذي يتوسَّع في الكلام ، ويفتح به فاهه ، وأصله : من الفَهْقِ ، وهو الامتلاء[(٣)] .

لقد سار النَّبيُّ ﷺ على المنهج القرآنيِّ في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة ، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة ، والعقائدِ في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحةٌ في كتاب الله تعالى ، وقد بيَّن سبحانه لرسوله ﷺ ، وللمسلمين ، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ (لا إله إلا الله) ، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون ، والحقيقة : أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى ، مع

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (٢/ ٦٥٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) تهذيب مدارج السَّالكين (٢/ ٦٥٧) .

التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة ، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية .

إنَّ الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين ، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه ، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه ، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة ، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد ، والإيمان الصَّحيح ؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسب ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك ، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل : أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ[1]؟!

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قويّاً ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ ؛ منها :

قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١] ؛ فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل ، الذي يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين ، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه الأخلاقيات ـ من جهةٍ ـ هي ثمرة الإيمان ، وأنَّ الإيمان ـ من جهةٍ أخرى ـ هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة .

إنَّهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم ، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق : أن تكون صلاتُه ـ وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه ، ذاكراً له في قلبه ، متَّصلاً به بروحه ـ صلاةً خاشعةً بما ينبئ عن صدق الصِّلة بالله؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة ، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ ، هي : أنَّهم عن اللغو معرضون ؛ فاللَّغو لا ينبئ عن نفسٍ جادَّةٍ ، والإيمان الصَّحيح يورث النَّفس الجدَّ بما يشعرها من ثقل التَّكاليف ، وجدِّيتها ، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً ، ولكنَّ اللَّغو ـ من جانبٍ آخر ـ لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة ؛ التي يحملها الإنسان أمام خالقه ، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم ، وهو الزَّكاة .

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس ؛ فلا يتعدَّون حدود الله ، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة ؛ فيحفظون الأمانة ، ويرعون العهد ، وبهذا نفهم فَهْم الصَّحابة

---

(١) انظر : دراساتٌ قرآنيَّةٌ ، لمحمَّد قطب ، ص ١٣٠ .

للأخلاق ، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة ، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله ، هكذا تعلَّموا من القرآن الكريم ، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين ﷺ .

لقد رسم القرآن الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة ، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها ؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة ، وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، ووصفهم بفعل الزَّكاة ، وهي عبادةٌ ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى .

إنَّ القرآن الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً ، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى ؛ لمناسباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز ، ففي سورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٦ ـ ١٩] .

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول ، قال تعالى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩ ـ ٢٢] .

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ ـ لمناسبة أولي الألباب ـ مثل الوفاء والصِّلة ، والصَّبر ، والإنفاق ؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة) ، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة ، أخلاقٌ فيها معنى العبادة ، والتَّقوى ، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله) ، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهم إنَّما يفعلون ويتركون ؛ لأنَّهم ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، وهم إنَّما يصبرون ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله ، ويرجون اليوم الآخر[١] .

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق ؛ لأنَّها من باب الوفاء لله ، والشُّكر للنِّعمة ، والاعتراف بالجميل ، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير ، والتَّعظيم ، وكلُّها من مكارم الأخلاق[٢] ، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرَّجاء في الآخرة ، وغرضها رضوان الله ، ومثوبته ، فكانوا يصدقون في الحديث ، ويؤدُّون الأمانة ، ويوفون بالعهود ، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء ، وحين البأس ، ويغيثون الملهوف ،

---

(١) انظر : العبادة في الإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٢٣ .
(٢) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٥٩١ .

ويرحمون الصَّغير ، ويوقِّرون الكبير ، ويرعون الفضيلة في سلوكهم ؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله ، وطلباً لما عنده تعالى ؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَقَنٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّنٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١١ ـ ١٢] .

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة ، والرَّذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع ، هو أمر الله ونهيه ؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![1] .

والعقل وحده ليس بمأمونٍ ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف ، ومتأثِّرٌ بالأهواء والنِّزاعات ، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ ، دليلٌ واضحٌ على ذلك ، والعرف لا ثبات له ، ولا عموم ؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم ؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي لا يضلُّ ، ولا ينسى ، ولا يتأثَّر ، ولا يجور[2] .

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان ، وكلَّ أحاسيسه ، ومشاعره ، وتفكيره ؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع ، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو ، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله ، وحرماته ، والتَّعامل مع الآخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف ، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس ، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح ، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار ـ أي : ردُّ العدوان ـ وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيِّفه ، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيَّةٌ مصاحبةٌ .

هذا أمر ، والأمر الآخر ـ وهو الأهمُّ ـ أنَّ الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله ، وليست للبشر ، ولا لأحدٍ غير الله ؛ فالصِّدق لله ، والوفاء بالعهد لله ، واتِّقاء المحرَّمات في علاقات الجنس لله ، والعفو ، والصَّفح لله ، والانتصار من الظُّلم لله ، وإتقان العمل لله ، كلُّها عبادةٌ لله ، تُقَدَّمُ لله وحدَه ؛ خشيةً لله ، وتقوى ، وتطلُّعاً إلى رضاه ، إنَّها ليست صفقةً بشريَّةً للكسب ، والخسارة ، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[3] .

قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

(١) انظر : الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، ص ٢٥٦ .
(٢) انظر : الوسطية في القرآن ، ص ٥٩٢ .
(٣) انظر : دراساتٌ قرآنية ، ص ١٣٩ .

بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة ، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم ، فهو ـ إذاً ـ من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسياً ، لا ينفصل عنها بحالٍ .

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب ، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرِّدة حين يجعلها ديناً ، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى ، أو عقابه الأليم عند المخالفة[١] ، وإذا تأمَّلنا في الآيات السَّابقة من سورة الأنعام ، نجدها قد اشتملت على العناية بالضَّروريات الخمس ، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصالح الدِّين ، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ ، بل على فسادٍ ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم ، والرُّجوع بالخسران المبين»[٢] إنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصد الشَّريعة ، والَّتي من ضمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس ، فقد اشتملت الآيات الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات ، وهي:

أ ـ حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ لأنَّه لا يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى ، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة ، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقِّ ، واتِّباعٌ لأهواء النفوس ، ووسواس الشَّيطان[٣] ، وقد قام النَّبيُّ ﷺ بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به ، والجهاد من أجله ، والدَّعوة إليه ، والحكم به ، وردِّ كلِّ ما يخالفه[٤].

ب ـ حفظ النَّفس: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلةَ ـ بإذن الله ـ بحفظ النَّفس

---

(١) انظر: الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٥٩٤.
(٢) الموافقات ، للشَّاطبي (٢/٨).
(٣) مقاصد الشَّريعة ، د. محمد اليوبي ، ص ١٨٨.
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤.

من التَّعدِّي عليها ، ومن هذه الوسائل[1] : تحريمُ الاعتداء عليها ، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل ، كالقِصاص ، وضرورةُ إقامة البيِّنة في قتل النَّفس ، وضمان النَّفس ، وتأخير تنفيذ القِصاص ؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل ؛ وجب عليه العفو ، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[2] .

ج ـ **حفظ النَّسل** : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ومن أعظم الفواحش الزِّنى ؛ الَّذي وصفه الله تعالى في آيةٍ أخرى بأنَّه فاحشةٌ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة ، ومن أسباب عمارة الأرض ، وفيه تكمن قوَّة الأمَّة ، وبه تكون مرهوبة الجانب ، عزيزة القدر ، تحمي دينها ، وتحفظ نفسها ، وتصون عرضها ، ومالها ؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل ، ومنع كلِّ ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته ، ووضعت ضوابط ، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[3] .

د ـ **حفظ المال** : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة : تحريم الاعتداء عليه ، وتحريم إضاعة المال ، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيِّ ؛ كحدِّ السَّرقة ، وحدِّ الحرابة ، وضمان المتلفات ، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال ، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها ، وتعريف اللُّقَطَة ، وما يتبعه[4] .

هـ ـ **حفظ العقل** : وأمَّا حفظ العقل ، فمطلوب أيضاً ؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله ، ولا يقوم بها فاسد العقل ، وفي قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ذلك ، والله أعلم[5] ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل ، وإدخال الخَلل عليه[6] .

وهكذا القرآن الكريم يعلم ، ويربِّي الصَّحابة على العقائد ، والعبادة ، والأخلاق ، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القرآن الكريم بتقرير التَّوحيد ، والعبودية لله تعالى ، وهذا بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرآنيِّ ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي ، وبذلك يتقرَّر :

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٧).
(٢) مقاصد الشَّريعة ، ص ٢١٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٧ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٩ .
(٦) مقاصد الشريعة ، ص٢٣٦ .

١ ـ أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً ، وهو شارع القيم ، والمعايير الأخلاقية؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة ، وتوافق العقل السَّليم.

٢ ـ أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به ، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانيِّ ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ ، أو آدابٍ اجتماعيَّةٍ ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ.

٣ ـ أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسيَّة في حياة البشر ، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار ، وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها ، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء[١].

وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذَّة ، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في باب الفضائل ، والآداب الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، ففي سورة الإسراء جاءت آياتٌ كريمةٌ هي من أجمع الآيات؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود ، والتَّنفير من الخُلُق المذموم.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨].

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل التَّوحيد ـ أي: إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقيِّ؛ الَّذي رسمته الآيات مدحاً ، وذماً؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل ، والإنصاف ، والصِّدق مع النَّفس ، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأوَّل ، مثل الكِبْر ، عن قبول الحقِّ ، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسل غروراً ، وأَنَفَةً ، أو الولوع بالمِراء والجدل بالباطل

(١) انظر: المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، لعبد الستار فتح الله سعيد ، (ص ٤٢٥ ـ ٤٣٣).

مغالبةً ، وتطلُّعاً للظُّهور ، أو تقليداً وجموداً على الإلف ، والعرف مع ضلاله وبهتانه ، وكلُّها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تُهلك أصحابها ، وتصدُّهم عن الحقِّ بعدما تبيَّن ، وعن سعادة الدَّارين ، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها .

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة؛ مثل برِّ الوالدين ، وما جاء فيه من وصايا غايةً في السُّموِّ ، والإحسان ، والوفاء بالجميل ، ومثل برِّ الأقارب ، والضعفاء ، وفي شؤون المال ، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير ، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المُطْبق ، والبسط المستغرق ، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧]. ونفَّر من الحرص ، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ .

وتأمر الآيات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّموِّ ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة ، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ وهي وصيَّـةٌ ذات أثرٍ بالغ في إحسان العلائق بين النَّاس ، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ ، والأذى ، ثمَّ تتحدَّث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة ، وقساوة القلب ، وجفافه من الرَّحمة ، وجمود العاطفة الكريمة ، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ ، وهو القتل ، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة .

نعم ، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة ، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية ، وتعمل على تغيير الإرادة ، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل ، وتجريمه ، وإصلاح عقيدة صاحبه: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر ، وسوَّغته بلا نكيرٍ ، وتنهى الآيات عن الزِّنى ، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي ، والاستطالة على الأعراض ، والحرمات ، وإهدار العفاف ، والشَّرف ، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من القيم الإنسانيَّة العليا ، وتأمر الآيات ، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة ، والجدِّ أو العبث ، والتَّواضع العزيز أو الكبر ، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشدَّه ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والخيانة أضدادها ، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه ، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ ، ولا علمٌ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه ، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده ، ومعرفتُه قدر نفسه ، فيضعها في مواضعها الصَّحيحة ، ومن الكبر والغرور ذلك

التَّطاول المبنيُّ على الجهل ، والطيش ، والحماقة : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

ولأنَّ هذه الوصايا جامعةٌ لك ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء: ٣٩].

فسمَّاها حكمةً ، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد ، والنَّهي عن الشِّرك كما بدأها ؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ ، وحافظُه ، وحارسُه ، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه[1] .

هكذا كانت تربية القرآن الكريم للصَّف المؤمن ، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاسن الأخلاق ، ونَبْذِ سيِّئها .

خامساً : تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآنيِّ :

إنَّ القصص القرآنيَّ غنيٌّ بالمواعظ ، والحكم ، والأصول العقديَّة ، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة ، والأساليب التَّربويَّة ، والاعتبار بالأمم والشُّعوب ، والقصص القرآنيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين ، وإنَّما هو أعلى ، وأشرف ، وأفضل من ذلك ، فالقصص القرآنيُّ مليءٌ بالتَّوحيد ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، والحجج العقليَّة ، والتَّبصرة ، والتَّذكرة ، والمحاورات العجيبة .

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام ، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشاهدها الرَّائعة ، قال علماء الأخلاق ، والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصلحين ، ورجال أعمالٍ قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروطٌ معلومةٌ ، وأخلاقٌ معهودةٌ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً؛ فله أربعون خَصْلَةً ذكروها ، كلُّها آدابٌ ، وفضائل بها يسوسُ أمتَه ، وإن كان رئيساً فاضلاً ، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها ، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين ، وجمال النَّبيِّين ، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال؛ إذ قد حاز الملك ، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها ، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها اثنتي عَشْرَةَ خَصْلَةً هي أهمُّ خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القرآن ، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّاعين للفضائل»[2] .

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ ـ العفَّة عن الشَّهوات ؛ ليضبط نفسه ، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) انظر : المنهاج القرآنيُّ للتَّشريع ، ص ٤٣٣ .
(٢) انظر : تفسير القاسمي (٩/ ٣١٠).

وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢ ـ الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

٣ ـ وضع اللِّين في موضعه، والشِّدَّة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩ ـ ٦٠] فبداية الآية لينٌ، ونهايتها شدَّةٌ.

٤ ـ ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥ ـ قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات، ويعرف للنَّاس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

٦ ـ جودة المصوِّرة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧ ـ استعداده للعلم، وحبُّه له، وتمكُّنه منه: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، و﴿۞رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٨ ـ شفقته على الضُّعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلوِّ منصبه، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وحادثهما في أمور دينهما، ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧]، و﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، وشهدا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٩ ـ العفو عند المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠ ـ إكرام العشيرة: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

١١ ـ قوَّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا المَلِك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرَّاعي والرَّعيَّة والسُّوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيَّة على الحكمة ، والعلم : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف : ٥٤] .

١٢ ـ حسن التَّدبير : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف : ٤٧] تالله ! ما أجملَ القرآنَ ! وما أبهج العلم !

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرآنيِّ والأخلاق متينةٌ ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة ؛ الَّتي تفيد الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدَّولة ، والأمَّة ، والحضارة ، كما أنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة ؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب ، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ ﷺ لهم ، ومن المنهج الَّذي سار عليه ، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرآنيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء ، وفي سنَّة رسول الله ﷺ وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان ، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرآنيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ ، وعجيبٌ ، ليس له مقاربٌ ، ولا نظيرٌ ؛ لأنه من ربِّ العالمين ، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص ، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المُحْكَم ، ومنها :

١ ـ وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيِّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة ، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ ، أو يُذمُّ .

٢ ـ وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم ، وهو رجاء الله والدَّار الآخرة .

٣ ـ وجود القدوة العمليَّة ، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة ، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله ﷺ[١] ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم ـ المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين ـ الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً ، وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب ، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق ، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة ، والإنسان ، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميِّ ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته ، وممرَّاته ، ومداخله ، والأخلاق تُضفي البهاء ، والرَّونق ، والجمال على الصَّرح المكتمل ، وتصبغه الصِّبغة الربَّانيَّة المتميِّزة ، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة ، وجذعها ، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها ، وتشعُّباتها ، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة ، وظلالها الوارفة ، ومنظرها البهيج النَّضِر[٢] .

---

(١) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٦٠٣ .
(٢) انظر : المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، ص ٤٢٥ .

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة ، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوِّل الخلق من دائرة النَّظريات ، إلى صميم الواقع التَّنفيذيِّ ، والعمل التَّطبيقيِّ ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً ، كمراقبة الله تعالى ، ورجاء الآخرة ، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر ، وصقل الإرادات ، وتزكية النَّفس ، ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة ، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس ، متمثلةً في :

أ ـ التَّشريع :

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة ، كشرائع الحدود ، والقِصاص؛ الَّتي تحمي الفرد ، والمجتمع من رذائل البغي على الغير : (بالقتل ، أو السَّرقة) ، أو انتهاك الأعراض : (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس ، وإهدار العقل : (بالخمر ، والمسكرات المختلفة) .

ب ـ سلطة المجتمع :

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والتَّناصح بين المؤمنين ، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض ، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة ، والصَّلاة ، وطاعة الله ورسوله ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١] .

بل جعلها المقوِّم الأصليَّ لخيريَّة هذه الأمَّة : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة ، وأثرها في الفترة المدنيَّة :

ج ـ سلطة الدَّولة :

الَّتي وجب قيامها ، وأقيمت على أسس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق ، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها ، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته[1] .

وبذلك اجتمع للخلق الإسلاميِّ أطراف الكمال كلِّه ، وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي ، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني .

هذه بعض الخطوط في البناء العقائديِّ والرُّوحيِّ والأخلاقيِّ في الفترة المكِّيَّة ، ولقد آتت هذه التَّربية أُكُلَها ، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصَّحابة الكرام من الخمسين الأوائل

---

(١) المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، ص ٤٣٣ .

السَّابقين إلى الإسلام ، يمارسون مسؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة ، وانطلاقها في عهد النَّبيِّ ﷺ وبعد وفاته ، وأصبحوا القادة الكبار للأمَّة ، وعشرون آخرون معظمهم استشهدوا ، أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ ؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شخصيات الأمَّة على الإطلاق ، كان فيه تسعةٌ من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، وهم أفضل الأمَّة بعد رسول الله ﷺ ، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة ، كعمَّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعودٍ ، وأبي ذرٍّ ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نساء الأمَّة خديجة رضي الله عنها ، ونماذج عاليةٌ أخرى ، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث ، وأسماء ذات النِّطاقين ، وأسماء بنت عُمَيس ، وغيرهنَّ.

لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة ، والرُّوحيَّة ، والعقليَّة ، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ ﷺ ، فكانوا هم حداة الرَّكب ، وهداةُ الأمَّة[1] ، فقد كان رسولُ الله ﷺ يزكِّيهم ، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة ، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله ﷺ ولو مرَّةً واحدةً في حياته ، وآمن به ، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له ، ويتلقَّى منه ، ويعبق من نوره ، ويتغذَّى من كلامه ، ويتربَّى على عينه[2]؟!!

* * *

(١) انظر : التَّربية القياديَّة ، للغضبان ، (١/ ٢٠١).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣).

الفصل الثَّالث
الجهر بالدَّعوة، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل
الجهر بالدَّعوة

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ ﷺ لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ، وتعبُّديَّةٍ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦].

فجمع قبيلته ﷺ، وعشيرته، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه(١).

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا، فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ ـ لبُطونِ قريش ـ حتَّى اجتمعوا، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ، وقريشٌ، فقال: أرأيتكم لو أخبرتُكم: أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً، قال: فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

[المسد: ١ ـ ٢] [البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨)] وفي روايةٍ: ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكلِّ بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار....»، ثمَّ قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا» [البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤)] كان

(١) رسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر (٣/٤٦).

القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين، فلمَّا رأوا محمَّداً ﷺ - وهو الصَّادق الأمين - قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم، وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله ﷺ: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة، والعلوم الوهبيَّة، وموعظةً، وإنذاراً، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات، والنُّبوَّات، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[1]، ولكنَّ أبا لهب قال: تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ ﷺ قد وضع للأمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً - وهو الجبل - ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعيِّ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق، وبهذا يكون ﷺ قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم، أو دعوتهم يجب أن يعتمد - وبصفةٍ أساسيَّةٍ - على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل، والمستقبِل، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[2].

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول ﷺ دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة، فبدء الدَّعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ، فَجَلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل؛ لأنَّ الإسلام - كما يتجلَّى من القرآن الكريم - اتَّخذ الدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالية»[3]، فقد جاءت الآيات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع النَّاس في أنديتهم، ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواسم،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي، ص ١٣٨.
(٢) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٢١.
(٣) انظر: دراسة في السيرة، لعماد الدين خليل، ص ٦٦.

ومواقف الحجِّ ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ ، وعبدٍ ، وقويٍّ ، وضعيفٍ ، وغنيٍّ ، وفقير[١] ؛ حين نزول قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٤ ـ ٩٧] .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ ، والإعراض ، والسُّخرية ، والإيذاء ، والتَّكذيب ، والكيد المدبَّر المدروس ، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ ﷺ وصحبه ، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها ، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة ، ساهم فيه أشدُّ ، وألدُّ أعدائها ، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها ، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر ، والشِّرك .

كانت الوسيلة الإعلاميَّة في ذلك العصر ، تناقل النَّاس للأخبار مشافهةً ، وسمع القاصي ، والدَّاني بنبوَّة الرَّسول ﷺ ، وصار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس ، ونوادي القبائل ، وفي بيوت النَّاس[٢] .

أهم اعتراضات المشركين :

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى ، والإيمان باليوم الآخر ، ورسالة النَّبيِّ ﷺ ، والقرآن الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين .

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها :

أولاً : الإشراك بالله :

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون : أنَّ الله خلقهم ، وخلق كلَّ شيءٍ ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، لكنَّهم كانوا يعبدون الأصنام ، ويزعمون : أنَّها تقرِّبهم إلى الله ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ[٣] إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم ، ولهذا قابلوا الدَّعوة إلى التَّوحيد بأعظم إنكارٍ ، وأشدِّ استغرابٍ[٤] . قال تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا

---

(١) انظر : رسالة الأنبياء (٣/ ٤٨ ـ ٤٩) .
(٢) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٧ .
(٣) زُلفَى : قُربى .
(٤) انظر : رسالة الأنبياء (٣/ ٥٢) .

لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[1] [ص: ٤ ـ ٧] ولم يكن تصوُّرهم لله تعالى، ولعلاقته بخلقه صحيحاً؛ إذ كانوا يزعمون: أنَّ لله تعالى صاحبةً من الجنِّ، وأنَّها ولدت الملائكة، وأنَّ الملائكة بناتُ الله!

كانت الآيات تنزل مُبيِّنةً: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الجنَّ، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنَّه لم يتَّخذ ولداً، ولم تكن له صاحبةٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[2] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١]، ومبينةً: أنَّ الجنَّ يُقرُّون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

ومُطالِبةً المشركين باتِّباع الحقِّ، وعدم القول بالظُّنون، والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧ ـ ٢٨]، ومُوضِّحةً أنَّه لا يُعْقَلُ أن يَمْنَحَ اللهُ المشركين البنين، ويخصَّ نفسه بالبنات، وهنَّ أدنى قيمةً ـ في رأيهم ـ من البنين: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

ومُحَمِّلةً المشركين مسؤوليَّة أقوالهم الَّتي لا تقوم على دليل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ثانياً: كفرهم بالآخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨]؛ فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلَّظة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ ـ ٣٩]، وكانوا يظنُّون أنَّه لا توجد حياةٌ في غير الدُّنيا، ويطلبون إحياء آبائهم؛ ليصدقوا بالآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

---

(١) احتجُّوا بما عليه النَّصارى من الشِّرك والتَّثليث.

(٢) اختلقوا.

يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤ ـ ٢٧].

وفاتَهُم: أنَّ الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ، قادرٌ على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد، وغيره: جاء أُبَيُّ بنُ خلف[1] إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتِّته، ويذروه في الهواء؛ وهو يقول: يا محمد! أتزعم: أنَّ الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله تعالى، ثمَّ يبعثك، ثمَّ يحشرك إلى النار»، ونزلت هذه الآيات[2]:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩] [الدر المنثور (٧/ ٧٥ ـ ٧٦)].

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع النَّاس بالبعث تعتمد على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده: أنَّ حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء، والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب؛ لبيان الطَّريق الَّذي به يعبدونه، ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد مَنْ رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى، وبغى، أفليس من العدل بعد ذلك أن يموت الطَّالح والصَّالح، ثمَّ يُجزي اللهُ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٨].

إنَّ الملاحدة الَّذين ظلموا أنفسهم هم الَّذين يظنُّون: أنَّ الكون خُلِق عبثاً، وباطلاً، لا لحكمة، وأنَّه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التَّقيِّ والفاجر[3]. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨].

وضرب القرآن الكريم للنَّاس الأمثلة في إحياء الأرض بالنَّبات، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

---

(١) وفي رواية عن ابن عباسٍ أنَّه العاص بن وائل.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨١).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٢٤).

وذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه ، أمثلةً من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدُّنيا ، فأخبر النَّاسَ في كتابه عن أصحاب الكهف ، بأنَّه ضُرب على آذانهم في الكهف ثلاثمئةٍ وتسع سنين ، ثمَّ قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢] ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩] ، ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥] ، وغير ذلك من الأدلَّة والبراهين؛ التي استخدمها رسول الله ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر ، والشِّرك .

ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول ﷺ:

اعترضوا على شخص الرَّسول ﷺ ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم ، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً ، أو مصحوباً بالملائكة: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩] ، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة؛ لجعلناه على هيئة رجلٍ ، حتَّى يمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالْتَبس عليهم الأمر كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[١]. وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطَّعام ، ولا يمشي في الأسواق: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨] ، وكأنَّهم لم يسمعوا بأنَّ الرُّسل جميعاً كانوا يأكلون ، ويسعون ، ويعملون: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً[٢] أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠] .

ويريدون أن يكون الرَّسولُ كثيرَ المال ، كبيراً في أعينهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] .

ويقصدون بـ ﴿ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾: الوليد بن المغيرة بمكَّة ، أو عروة بن مسعود الثَّقفي بالطَّائف[٣].

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ، ص ٤٠٢ .

(٢) اختبرنا بعضكم ببعض .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/١٢٦ ـ ١٢٧) .

ونسبوا الرَّسول ﷺ إلى الجنون: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٧]، ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣ ـ ١٤].

وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

كما نسبوه إلى الكهانة، والشعر: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٩ ـ ٣٠].

هذا مع أنَّهم كانوا يعلمون: أنَّه لا يَنْظِمُ الشِّعر، وأنَّه راجح العقل، وأنَّ ما يقوله بعيدٌ عن سجع الكُهَّان، وقول السَّحرة[١].

ونسبوه ﷺ إلى السِّحر، والكذب: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨].

وكانت الآيات تتنزَّلُ على رسول الله ﷺ تفنِّد مزاعم المشركين، وتبيِّن له أنَّ الرُّسل السَّابقين استهزئ بهم، وأنَّ العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وتُعلِّمُهُ أنَّ المشركين لا يُكذِّبون شخصه، ولكنَّهم يعاندون الحقَّ، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[٢]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القرآن الكريم منزلٌ من عند الله، واعتبروه ضرباً من الشِّعر، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القرآن، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠] وكيف يكون القرآن شعراً وقد نزل فيه ذمٌّ للشعراء الَّذين يُضِلُّون النَّاس ويقولون خلاف الحقيقة؟![٣] قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ[٤] ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[٥] [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]؛ فهو كلام الله المنزل

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).
(٢) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٥٩).
(٤) يعني: الضَّالُّون.
(٥) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٩).

على رسوله ﷺ وليس شبيهاً بقول الشعراء ، ولا بقول الكهّان : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣] .

وقد أدرك الشُّعراء قبل غيرهم: أنَّ القرآن الكريم ليس شعراً[١] ، ومن فرط تكذيبهم ، وعنادهم قالوا: إنَّ محمَّداً يتعلَّم القرآن من رجلٍ أعجميٍّ[٢] ، كان غلاماً لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصَّفا ، وربَّما كان الرسول ﷺ يجلس إليه ، ويكلِّمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف من العربيَّة إلا اليسير ، بقدر ما يـردُّ جواب الخطاب فيما لابدَّ منـه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] أي: فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القرآن في فصاحته ، وبلاغته ، ومعانيه التَّامَّة الشَّاملة من رجلٍ أعجميٍّ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكةٍ من العقل[٣] .

واعترضوا على طريقة نزول القرآن ، فطلبوا أن ينزل جملةً واحدةً ، مع أنَّ نزوله مفرَّقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به ، وتيسير فهمه ، وحفظه ، وامتثاله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] .

فلمَّا اعترض المشركون على القرآن ، وعلى من أُنزل عليه بهذه الاعتراضات؛ تحدَّاهم الله بأن يأتوا بمثله ، وأعلن عن عجز الإنس والجنِّ مجتمعين عن ذلك : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] .

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سورٍ مثله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤] .

وحتَّى السُّورة الواحدة هم عاجزون عن أن يأتوا بمثلها : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٨] .

فعجزُهم ـ مع أنَّ الفصاحة كانت من سجاياهم ، وكانت أشعارهم ومعلَّقاتهم في قمَّة البيان ـ

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (٣/ ٥٩).
(٢) انظر: تهذيب السِّيرة (١/ ٧٤ ، ٩٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٦).

دليلٌ على أنَّ القرآن كلام الله الَّذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين(١).

خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ:

تحدَّث بعض الباحثين(٢) عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ، فذكروا منها:

١ ـ ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الَّذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ بعيدين عن الدِّيانات السَّماويَّة، فلم يكونوا يدينون بدينٍ؛ ولم ينشغلوا بدراسة كتابٍ سماويٍّ ـ كما كانت تفعل اليهود، والنَّصارى ـ ولهذا احتجَّ الله عليهم ببعثة محمَّدٍ ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنيَّة في حياتهم، وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم أثرٌ عظيم في تصلُّبهم أمام الحقِّ، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته، هذا فضلاً عن أنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة حين لا تدين بدينٍ سماويٍّ، فإنَّها تبتعد عن التجرُّد والصَّفاء العقديِّ، وتميل إلى التَّجسيم المادِّيِّ الحسِّيِّ، ولذلك أقدم عُبَّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم، وأبنائهم دونها، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم، وما حلَّ بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّاً لها، وتعظيماً، ويوصي بعضهم بعضاً بالصَّبر عليها، وتحمُّل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم الَّتي فُتنت بعبادتها، وما حلَّ بهم من عاجل العقوبات(٣).

٢ ـ العصبيَّة لتراث الآباء، والأجداد:

كان أكبر طاغوتٍ تحارَب به دعوات الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هو طاغوت التَّقليد، والعادة المتبعة، وهي من أكبر العوامل في الصَّدِّ عن دين الله، ومن الصَّعب على الإنسان الخروج من مألوفاته، وإنَّ ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها؛ إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها، وقد أشار القرآن الكريم إلى مرض تقليد الآباء في الباطل في الأمم السَّابقة(٤)؛ فهذا

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).
(٢) مثل: سلمان العودة، ومحمد العبدة، وعبد الرحمن الملاَّحي.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٢/ ٢٢٥).
(٤) انظر: الطريق إلى المدينة، لمحمد العبدة، ص ٤٣.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٤].

وهذا المنهج هو دأب المشركين، والمعارضين لدين الله على مرِّ الأجيال، وإذا استنكر عليهم الدُّعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشَّهوات، وانهماكهم في الفواحش، وساءلوهم عن ذلك، قالوا: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ما ذلك إلا لفقدان الدَّليل، وانقطاع الحجَّة؛ إذ إنَّهم لا يعتمدون على عقلٍ يرشدهم، ولا كتابٍ يؤيِّدهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠ ـ ٢١].

وإنَّما أوقع الكفارَ في هذا التَّقليد المنحرف استدراجُ الشَّيطان لهم من خلال فطرة مركوزةٍ في الإنسان أصلاً، تدعوه إلى الوفاء للآباء، والأجداد، وتربطه بتاريخه وتراثه، وهذا من أعظم وسائل الشيطان في الكيد: أن يأتي الإنسانَ من قبل غريزةٍ مطبوعةٍ فيه؛ من حبِّ الشَّهوة، والوطن، والمال، وغيرها، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسْلِمُ، وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك؟ فعصاه، فأسلم، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر، وتدع أرضك، وسماءك؟! وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل![1] فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد؟! فهو جهد النَّفس، والمال، فتقاتل، فتقتل، فتُنكح المرأة! ويُقسم المال! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة، ومن قتل كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ[2] دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة» [النسائي (٦/ ٢١ ـ ٢٢) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وابن حبان (٤٥٩٣)].

فلما بُعث النبيُّ ﷺ، كان من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه: أنَّه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه

(١) الطِّوَل: هو الحبل.
(٢) أي: سقط عنها، فاندقَّت عنقه، فمات.

الآباء والأجداد، وبذلك نفَّروا منه العامَّة والدَّهماء، وفرضوا على الدَّعوة نوعاً من الحصار المؤقت[١].

٣ ـ موقف أهل الكتاب المساند للوثنيَّة:

كانت بيئة العرب الوثنيَّة مستعدَّةً لمواجهة دعوة التَّوحيد، ومحاربتها، ووجدت في موقف أهل الكتاب الرَّافض للدَّعوة مستنداً قويّاً لهذه المعارضة، فهاهم أهل التَّوراة، والإنجيل، وورثة الكتب السَّماوية، ينكرون دعوة محمَّد ﷺ، ويردُّونها، ويكذِّبونها، وهم أدرى منَّا بالدِّين، وهذا كان مصدر دعمٍ، وتقويةٍ، وتثبيتٍ لموقف المشركين: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٦ ـ ٧].

فمن عوامل الصَّبر على الآلهة في مواجهة الدَّعوة الجديدة: أنهم لم يسمعوا بما جاء به ﷺ في الملَّة الآخرة، وهي النَّصرانيَّة، قاله ابن عباس، والسُّدِّيُّ، ومحمَّد بن كعب القرظيُّ، وقتادة، ومجاهد[٢]، وهذا مبنيٌّ على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضدَّ الرَّسول ﷺ، وإلا فما كان للعرب من علمٍ بالكتب السَّماوية، وما فيها من الحقائق والأخبار[٣].

٤ ـ سيطرة الأعراف، والعوائد القبليَّة:

كان الصِّراع القبليُّ، والتَّنافس على الرِّياسة، والشَّرف، والسُّؤدد، ذا جذورٍ في الأعراف، والعوائد القبليَّة، ولذلك تجد المعارضين للدَّعوة المنتسبين للبطن الَّذي ينتسب إليه الرَّسول ﷺ، يحتجُّون على رسول الله ﷺ بأنَّه ليس شيخاً ذا رياسةٍ، وتقدُّمٍ فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفاً على مناصبهم، ومكانتهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظاً على مراكز قبائلهم، وتكبُّراً على اتِّباع فردٍ من قبيلةٍ أخرى، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل يومٍ عرفت فيه رسول الله ﷺ، كنت أنا، وأبو جهل بن هشامٍ في بعض أزقَّة مكَّة؛ إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم! هَلُمَّ إلى الله، وإلى رسوله، إنِّي أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله! لو أنِّي أعلم أنَّ ما تقول حقاً ما تبعتك! فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ، فقال: والله! إنِّي لأعلم أنَّ ما يقوله حقٌّ، ولكن بني قصيٍّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا النَّدوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللِّواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السِّقاية، قلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا

---

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ٨٣.

(٢) تفسير الطَّبريِّ (٢٣/ ١٢٦)، والدرُّ المنثور (٧/ ١٤٦).

(٣) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ٨٦.

حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب؛ قالوا: منا نبيٌّ! فلا والله لا أفعل» [البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)].

٥ ـ حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرموقة، وأمجادهم العريقة، ويريدون أن تبقى لمكَّة قداستها عند القبائل العربيَّة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الإسلام سيسلبها هذه الميزة، ويجعل العرب يغزونها، ويمتنعون عن جلب الرِّزق إلى أسواقها، وينسون: أنَّ الله هو المُنعم عليهم بالأمن والرِّزق[1]: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

إنَّ قريشاً كانت تظنُّ: أن العرب الَّذين يقدِّسون الأصنام، عندما يعلمون: أنَّ قريشاً ستعتنق ديناً جديداً، وستترك دين آبائهم؛ فإنَّهم سينقضُّون عليها، ويتخطَّفون أهلها؛ جزاءَ ما فعلوا، بل ويمتنعون عن جلب الرِّزق إليهم في مواسم الحجِّ، لكن هيهات! فإنَّ الله غالبٌ على أمره، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٩٦ ـ ١٠٦.

المبحث الثَّاني
سنَّة الابتلاء

الابتلاء ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ سنَّة الله في خلقه ، وهذا واضحٌ في تقريرات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] ، وقال جلَّ شأنهُ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] .

الابتلاء مرتبطٌ بالتَّمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرَّ بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطَّيِّب ، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف ، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبلي المؤمنين ، ويختبرهم؛ ليمحِّص إيمانهم ، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك ، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشَّافعيِّ رضي الله عنه حين سأله رجلٌ: أيُّهما أفضل للمرء ، أنَّ يُمكَّن ، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشَّافعيُّ: لا يُمَكَّن حتَّى يبتلى ، فإنَّ الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّداً ـ صلوات الله ، وسلامه عليهم أجمعين ـ فلمَّا صبروا مكَّنهم؛ فلا يظنُّ أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتَّة[1] .

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكُّنٍ ورسوخ ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرَّحمة ، لا ابتلاء الغضب ، وابتلاء الاختيار ، لا مجرَّد الاختبار[2] .

إنَّ طريق الابتلاء سنَّة الله في الدَّعوات ، كما أنَّه الطريق إلى الجنَّة ، وقد «حُفَّت الجنَّةُ بالْمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات» [مسلم (٢٨٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٣) والترمذي (٢٥٥٩)] .

حكمة الابتلاء ، وفوائده: للابتلاء حِكَمٌ كثيرة؛ من أهمِّها:

١ ـ تصفية النُّفوس:

---

(١) الفوائد ، لابن القيِّم ، ص ٢٨٣ .

(٢) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السيد محمَّد يوسف ، ص ٢٣٥ .

جعل الله الابتلاء وسيلةً لتصفية نفوس النَّاس ، ومعرفة المؤمن الصَّادق من المنافق الكاذب؛ وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرَّخاء ، لكن يتبيَّن في الشِّدَّة. قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «ثمَّ إنَّه الطَّريق الَّذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة الَّتي تحمل هذه الدَّعوة ، وتنهض بتكاليفها؛ طريق التربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير ، والقوَّة ، والاحتمال ، وهو طريق المزاولة العمليَّة للتَّكاليف ، والمعرفة الواقعيَّة لحقيقة النَّاس ، وحقيقة الحياة؛ ذلك ليثبت على هذه الدَّعوة أصلبُ أصحابها عوداً ، فهؤلاء هم الَّذين يصلحون لحملها ـ إذاً ـ بالصَّبر عليها ، فهم عليها مؤتمنون»[١] .

٣ ـ الكشف عن خبايا النُّفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله ، مغيَّبٌ عن علم البشر ، فيحاسب النَّاس ـ إذاً ـ على ما يقع من عملهم ، لا على مجرَّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ، وهو فضلٌ من الله من جانبٍ ، وعدلٌ من جانبٍ ، وتربيةٌ للنَّاس من جانبٍ ، فلا يأخذون أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حقَّقه فعله؛ فليسوا بأعلمَ من الله بحقيقة قلبه»[٢] .

٤ ـ الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة ، ولكنَّه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة ، فهي في حاجةٍ إلى إعدادٍ خاصٍّ ، لا يتمُّ إلا بالمعاناة العمليَّة للمشاقِّ ، وإلا بالاستعلاء الحقيقيِّ على الشَّهوات ، وإلا بالصَّبر الحقيقيِّ على الآلام ، وإلا بالثِّقة الحقيقيَّة في نصر الله وثوابه ، على الرَّغم من طول الفتنة ، وشدَّة الابتلاء. والنَّفس تصهرها الشَّدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة ، فتستيقظ وتتجمَّع ، وتطرقها بعنف وشدَّةٍ ، فيشتدُّ عودها ، ويصلب ويُصقل ، وكذلك تفعل الشَّدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ، وأقواها طبيعةً ، وأشدُّها اتِّصالاً بالله ، وثقةً فيما عنده من الحُسْنَيَيْن: النَّصر أو الشَّهادة ، وهؤلاء هم الَّذي يُسلَّمون الرَّاية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[٣] .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٨٠).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (٦/ ٣٨٧).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٩).

٥ ـ معرفة حقيقة النَّفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدَّعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة، والجهاد مزاولةً عمليَّةً واقعيَّةً، ويعرفوا حقيقة النَّفس البشرَّية وخباياها، حقيقة الجماعات، والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشَّهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشَّيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطَّريق ومسارب الضَّلال»(١).

٦ ـ معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي تعزَّ هذه الدَّعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من جهدٍ وبلاءٍ، وبقدر ما يضحُّون في سبيلها من عزيزٍ، وغالٍ، فلا يفرِّطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»(٢).

٧ ـ الدِّعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوةٌ صامتةٌ لهذا الدِّين، وهي الَّتي تُدخِل النَّاس في دين الله، ولو وهنوا، أو استكانوا؛ لمَا استجاب لهم أحدٌ، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ يأتيه أمر النَّبيِّ ﷺ أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم، وأذاهم، ويتابع طريقه؛ حتَّى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ(٣)، وسنرى ذلك في الصَّفحات القادمة، إن شاء الله.

٨ ـ جذب بعض العناصر القويَّة إليها:

أمام صمود المسلمين وتضحياتهم تتوق النُّفوس القويَّة إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصَّلابة الإيمانيَّة تكبر عند هذه الشَّخصيات الدَّعوة، وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردُّدٍ، وأعظم الشَّخصيات الَّتي يعتزُّ بها الإسلام دخلت إلى هذا الدِّين من خلال هذا الطريق(٤).

٩ ـ رفع المنزلة والدَّرجة عند الله، وتكفير السَّيِّئات:

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً» [البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢)]. فقد يكون للعبد درجةٌ عند الله تعالى لا يبلغها

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٨١).
(٢) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٨٠).
(٣) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٩٢، ١٩٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٣، ١٩٤.

بعمله ، فيبتليه الله تعالى حتَّى يرفَعه إليها ، كما أنَّ الابتلاء طريقٌ لتكفير سيِّئات المسلم[١] .

كما أنَّ للابتلاء فوائدَ عظيمةً ؛ منها : معرفة عزِّ الرُّبوبية ، وقهرها ، ومعرفة ذلِّ العبودية ، وكسرها ، والإخلاص ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتَّضرُّع ، والدُّعاء ، والحلم عمَّن صدرت عنه المصيبة ، والعفو عن صاحبها ، والصَّبر عليها ، والفرح بها لأجل فوائدها ، والشُّكر عليها ، ورحمة أهل البلاء ، ومساعدتهم على بلواهم ، ومعرفة قدر نعمة العافية ، والشُّكر عليها ، وما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها ، وغير ذلك من الفوائد ، ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[٢] .

وقد تعرَّض النَّبيُّ ﷺ وأصحابه لأشكالٍ وأنواعٍ ، وأصنافٍ متعدِّدةٍ من الابتلاء ، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله ﷺ ، وتشويه الدَّعوة ، وإيذائه ﷺ ، وإيذاء أصحابه ، وعرض المغريات ، والمساومات لترك الدَّعوة ، ومطالبته بجعل الصَّفا ذهباً ، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله ﷺ ، والدِّعاية الإعلاميَّة في المواسم ضدَّ الدَّعوة ، وشخص الرَّسول ﷺ ، والحصار الاقتصاديِّ الَّذي تعرَّض له رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم ، وبنو المطَّلب من قِبَل كفار مكَّة ، والإيذاء الجسديِّ ، وغير ذلك من أنواع الابتلاء ، وسنبين في الصَّفحات القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ أساليب المشركين في محاربة الإسلام ، وكيف تصدَّى لها رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، وكيف دفع رسول الله ﷺ قَدَرَ سنَّة الابتلاء ، بسنَّة الأسباب ، وكيف تعامل رسول الله ﷺ مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، حتَّى أقام دولة الإسلام في المدينة .

* * *

---

(١) انظر : التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٤ ، وانظر : فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ٨ إلى ١١ .

(٢) انظر : فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ١٥ إلى ٢٨ .

المبحث الثَّالث
أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة

أجمع المشركون على محاربة الدَّعوة الَّتي عرَّت واقعهم الجاهليَّ ، وعابت آلهتهم ، وسفَّهت أحلامهم ـ أي: آراءهم ، وأفكارهم ـ وتصوُّراتهم عن الله ، والحياة ، والإنسان ، والكون؛ فاتَّخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدَّعوة ، وإسكات صوتها ، أو تحجيمها ، وتحديد مجال انتشارها .

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله ﷺ:

جاءت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ، ومسجدنا؛ فانهه عنَّا ، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا: أنك تؤذيهم في ناديهم ، ومسجدهم ، فانْتَهِ عن أذاهم ، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السَّماء ، فقال: «ترون هذه الشَّمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعَلوا منها بشعلةٍ» وفي روايةٍ: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعَل أحدٌ من هذه الشَّمس شعلةً من نارٍ» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قطُّ ، فارجعوا راشدين» [البخاري في التاريخ الكبير (٤/١/٥١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/١٨٧)][1] ، وحاولت قريش مرَّاتٍ عديدةً الضَّغط على رسول الله ﷺ بواسطة عائلته ، ولكنَّها فشلت .

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه ، وتصميمه على مناصرته ، وعدم خذلانه ، فاشتدَّ ذلك على قريش غمَّاً ، وحسداً ، ومكراً ، فمشوا إليه بعُمَارةَ بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له: «يا أبا طالب! هذا عُمَارةُ بنُ الوليد ، أنهدُ فتًى في قريشٍ ، وأجملُها ، فخذه ، فلك عَقْلُه[2] ونصرُه ، واتَّخذه ولداً ، فهو لك ، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامنا ، فنقتله ، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ» قال: «والله لبئس

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٧٨ .

(٢) فلك عَقْلُه: أي: ديته إذا قتل .

ما تسومونني![1] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً!». [السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٥) وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤٨)].

وإنَّ المرء ليسمع عجباً، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالبٍ مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمَّد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضمَّ بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلفٍ واحدٍ، على الحياة والموت؛ تأييداً لرسول الله ﷺ، مسلمهم، ومشركهم على السَّواء[2]، وأجار ابن أخيه محمَّداً إجارةً مفتوحةً لا تقبل التردُّد، أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهليَّة، والتَّقاليد العربيَّة تُسَخَّر من قبل النَّبيِّ ﷺ لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم، وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدوِّ الله اللَّعين.

ولمَّا رأى أبو طالبٍ من قومه ما سرَّه من جهدهم معه، وحَدَبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم؛ ليشدَّ لهم رأيهم، وليَحْدَبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجْتَمَعَتْ يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها وصَمِيمُها
وإنْ حُصِّلَتْ أشْرافُ عَبْدِ مَنَافِها ... ففِي هَاشِمٍ أشْرَافُها وقَدِيْمُهَا
وإنْ فَخَرَتْ يوماً فإنَّ مُحَمَّداً ... هوَ المصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وكَرِيمُهَا
تَداعَتْ قريشٌ غَثُّهَا وثَمِيْنُها ... علينا فَلَمْ تَظْفَرْ وطَاشَتْ حُلُومُها
وكُنَّا قَديماً لا نُقِرُّ ظُلاَمَةً ... إذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخُدُوْدِ نُقِيْمُها[3]

وحين حاول أبو جهل أن يَخْفِر جوارَ أبي طالبٍ، تصدَّى له حمزةُ، فَشَجَّه بقوسه، وقال له: تشتم محمَّداً وأنا على دينه! فَرُدَّ ذلك؛ إن استطعت.

إنَّها ظاهرةٌ فذَّةٌ أن تقوم الجاهليَّة بحماية مَنْ يسبُّ آلهتها، ويعيب دينها، ويسفِّه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدِّمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يُمَسُّ محمَّدٌ ﷺ بسوءٍ.

ولمَّا خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكَّة، وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنَّه

---

(١) تسومونني: تُبادِلُونني.
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٨٤.
(٣) السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (١/ ٢٦٩).

غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله ﷺ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتَّى يهلك دونه؛ فقال:

ولمَّا رأيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيْهِمُ ... وقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائِلِ
وقَدْ صارَحُونَا بالعَداوَةِ والأَذَى ... وقَدْ طاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المُزَايِلِ
وقد حالفوا قوماً عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعضُّون غَيظاً خَلْفَنا بالأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لهمْ نَفْسِي بحَمْرَاءَ[1] سَمْحةٍ ... وأَبْيَضَ عَضْبٍ[2] مِنْ تُرَاثِ المَقَاوِلِ
وأحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وإِخْوَتِي ... وأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِه بالوَصَائلِ[3]

وتعوَّذ بالبيت، وبكلِّ المقدَّسات الَّتي فيه، وأقسم بالبيت بأنَّه لن يُسْلِمَ محمَّداً ولو سالت الدِّماء أنهاراً، واشتدَّت المعارك مع بطون قريشٍ:

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ الله نُبْزَى مُحمَّداً ... ولمَّا نُطَاعِنْ دُوْنَهُ ونُنَاضِلِ
ونُسْلِمه حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ[4] ... ونَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا والْحَلائِلِ[5]
ويَنْهَضُ قَوْمٌ في الحَدِيْدِ إِلَيْكُمُ ... نُهُوْضَ الرَّوَايا[6] تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ

وقرَّع زعماءَ بني عبد منافٍ بأسمائهم لخذلانهم إيَّاه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَةُ لاَ تَسْمَعْ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍ ... حَسُوْدٍ كَذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِيْ دَغاوِلِ[7]

ولأبي سفيان بن حربٍ يقول:

ومَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاً ... كَمَا مَرَّ قَيْلٌ[8] مِنْ عِظَامِ المَقَاوِلِ
يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِ ... ويَزْعُمُ أنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ[9]

وللمُطْعم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل يقول:

أَمُطعِمُ لَم أَخْذُلْكَ في يَوْمِ نَجْدَةٍ ... ولاَ مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُوْرِ الجَلائِلِ
أَمُطْعِمُ إنَّ الْقَوْمَ سَامُوْكَ خُطَّةً ... وإنِّي مَتَى أُوكَلَ فَلَسْتُ بِوَائِلِ[10]

---

(١) حمراء: كناية عن الرُّمح.
(٢) أبيض عضب: كناية عن السيف.
(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٢٧٣).
(٤) ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.
(٥) الحلائل: الزوجات.
(٦) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.
(٧) الدغاول: الدواهي.
(٨) قيل: الرَّئيس الكبير في اليمن.
(٩) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢١٢.
(١٠) بوائل: بناج.

جَـزَى اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ ونَـوْفَـلاً   عقُـوبـةَ شـرٍّ عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجـلِ[١]

لقد كان كسب النَّبيِّ ﷺ لعمِّه، وجذبه إلى صفِّه للدِّفاع عنه، نصراً عظيماً، وقد استفاد ﷺ من العُرْف القبليِّ، فتمتَّع بحماية العشيرة، ومُنِع من أيِّ اعتداء يقع عليه، وأعطي حرِّيّة التَّحرُّك والتَّفكير، وهذا يدلُّ على فهم النَّبيِّ ﷺ للواقع الَّذي يتحرَّك فيه، وفي ذلك درسٌ بالغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى للتَّعامل مع بيئتهم، ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين، والأعراف، والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرَّسول ﷺ:

قام مشركو مكَّة بتشويه دعوة الرَّسول ﷺ، ولذلك نظَّمت قريش حرباً إعلاميَّةً ضدَّه لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر موسم الحجِّ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيُكذِّب بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضُه بعضاً.

ـ فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقلْ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به.

ـ قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

ـ فقالوا: نقول: كاهنٌ.

ـ فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهَّانَ، فما هو بزمزمة[٢] الكاهن، ولا سَجْعه.

ـ فقالوا: نقول: مجنونٌ.

ـ فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنونَ، وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولا تَخالُجِه، ولا وَسْوَسَتِه.

ـ فقالوا: نقول: شاعرٌ.

ـ فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشِّعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشِّعر.

ـ قالوا: فنقول ساحرٌ.

ـ قال: ما هو ساحر، لقد رأينا السُّحَّار، فما هو بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ.

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويّة، ص ٢١٢.

(٢) الزَّمزمة: كلام خفيٌّ لا يسمع.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

ـ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً، وإن أصله لعَذقٌ[١]، وإن فرعه لَجَناةٌ[٢]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنَّه باطلٌ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ، فقولوا: ساحرٌ يفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[٣].

وأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝[٤] وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا[٥] ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[٦] ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[٧] ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[٨] ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦].

ويتَّضح من هذه القصَّة: أنَّ الحرب النَّفسيَّة المضادَّة للرَّسول ﷺ لم تكن توجُّه اعتباطاً، وإنَّما كانت تعدُّ بإحكام ودقَّةٍ بين زعماء الكفَّار، وحسب قواعد معيَّنةٍ، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النَّفسيَّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمُّع النَّاس في موسم الحج، والاتِّفاق وعدم التَّناقض، وغير ذلك من هذه الأسُس حتَّى تكون حملتهم منظَّمةً، وبالتَّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوَّة منها، ومع اختيارهم للزَّمان المناسب، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتَّى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكَّة[٩].

ويتَّضح من هذا الخبر، عظمة النَّبيِّ ﷺ وقوَّته في التَّأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبُّر، والتَّعاظم، فإنَّه قد تأثَّر بالقرآن، ورقَّ له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك الوصف البليغ[١٠]، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلاميَّة المنظَّمة أن تحاصر دعوة

(١) العذق: النَّخلة.
(٢) الجناة: ما يجنى من الثَّمر.
(٣) السِّير والمغازي، لابن إسحاق، ص ١٥٠، ١٥١، وتهذيب السِّيرة (١/ ٦٤، ٦٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٠)، وابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(٤) واسعاً.
(٥) أي: سأصليه عذاباً شديداً.
(٦) أي: تروَّى ماذا يقول في القرآن.
(٧) أي: قبض بين عينيه، وكلَح، وقطَّب.
(٨) أي: هذا سحرٌ ينقله محمَّد عن غيره ممَّن قبله، ويحكيه عنهم.
(٩) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٠٣.
(١٠) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميدي (١/ ١٢٣).

رسول الله ﷺ ؛ بل استطاع محمَّد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء ، الَّذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكَّة من رسول الله ﷺ ، وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم ، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه ، والتأثُّر بدعوته ، فقد كان رسولُ الله ﷺ عظيمَ النَّجاح في دعوته ، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه ، حيث يؤثِّر على من جالسه بهيئته ، وسَمْتِه ، ووقاره قبل أن يتكلَّم ، ثمَّ إذا تحدَّث أَسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ ، المتمثِّل في العقل السَّليم ، والعاطفة الجيَّاشة بالحبِّ والصَّفاء ، والنِّيَّة الخالصة في هداية الأمَّة بوحي الله تعالى[1]. ومن أبرز الأمثلة على قوَّته في التأثير بالكلمة المعبِّرة ، والأخلاق الكريمة ، وقدرته على اختراق الجدار الحديديِّ ، الَّذي حاول زعماء مكَّة ضربه عليه ، ما كان من موقفه مع ضماد الأزديِّ ، وعمرو بن الطُّفيل الدَّوسيِّ ، وأبي ذرٍّ ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم ، وهَاكَ التفصيلَ :

١ ـ إسلام ضِماد الأزديِّ رضي الله عنه :

وفَدَ ضِمادُ الأزديُّ إلى مكَّة ، وتأثَّر بدعاوى المشركين على رسول الله ﷺ ، حتَّى استقرَّ في نفسه : أنَّه مصاب بالجنون ـ كما يتَّهمه بذلك زعماء مكَّة ـ وكان ضماد من أزد شنوءة ، وكان يعالِجُ من الجنون ، فلمَّا سمع سفهاء مكَّة يقولون : إنَّ محمَّداً ﷺ مجنونٌ ، فقال : لو أنِّي رأيت هذا الرَّجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ .

قال : فلقيه ، فقال : يا محمد! إنِّي أرقي من هذه الرِّيح ، وإنَّ الله يشفي على يديَّ من شاء؛ فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله ، أما بعدُ» .

فقال : أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء ! فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرَّاتٍ . قال : فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السَّحرة ، وقول الشُّعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ[2] ، فقال لرسول الله ﷺ : هات يدك أبايعْك على الإسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله ﷺ : «وعلى قومك» قال : وعلى قومي .

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة ، وكانت سرايا رسولِ الله تُبعث؛ مرُّوا على قوم ضماد ، فقال صاحب السَّريَّة للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مِطْهَرَةً ، فقال : ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء قومُ ضمادٍ . [مسلم (٨٦٨) وأحمد (١/٣٠٢) والنسائي (٦/٨٩ ـ ٩٠) وابن ماجه (١٨٩٣)] .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١/١٢٧ ـ ١٣٧) .

(٢) ناعُوسُ البحر : معناه : وسطه ، أو لجَّته ، أو قعره الأقصى .

دروسٌ وفوائد:

١ ـ دعاية قريش، وتشويه شخص الرَّسول ﷺ، واتِّهامه بالجنون؛ حمل ضماداً على السَّير للرَّسول ﷺ من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلاميَّة المكيَّة ضدَّ الرَّسول ﷺ سبباً في إسلامه، وإسلام قومه.

٢ ـ تتَّضح صفتا الصَّبر والحلم في شخص النَّبيِّ ﷺ، فقد عرض ضماد على رسول الله ﷺ، معالجته من مرض الجنون، وهذا موقفٌ يثير الغضب، ولكنَّ رسول الله ﷺ استقبل الأمر بحلمٍ، وهدوءٍ، ممَّا أثار إعجاب ضمادٍ واحترامه لرسول الله ﷺ.

٣ ـ أهمِّية هذه المقدِّمة الَّتي يستفتح بها رسول الله ﷺ بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجعلها بين يدي خطبه، ومواعظه.

٤ ـ تأثُّر ضماد بفصاحة الرَّسول ﷺ، وقوَّة بيانه؛ لأنَّ حديث الرَّسول ﷺ انبعث من قلب مُلئ إيماناً، ويقيناً، وحكمةً، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب، ويجذبها إلى الإيمان.

٥ ـ في سرعة إسلام ضماد دليلٌ على أنَّ الإسلام دين الفطرة، وأنَّ النفوس إذا تجرَّدت من الضُّغوط الدَّاخليَّة والخارجيَّة؛ فإنَّها غالباً تتأثَّر وتستجيب، إمَّا بسماع قول مؤثِّرٍ، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

٦ ـ حرص الرَّسول على انتشار دعوته؛ حيث رأى في ضماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوَّة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

٧ ـ وفي هذا بيانٌ واضح لأهمِّيَّة الدَّعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النَّبيُّ ﷺ قرينة الالتزام الشَّخصيِّ، فقد بايع رسول الله ﷺ على الالتزام بالدِّين، فلم يكتف رسولُ الله ﷺ بذلك؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

٨ ـ حفظ المعروف والودّ لأهل السَّابقة، والفضل: «ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء من قوم ضماد»[1].

٩ ـ في الحديث بعض الوسائل التَّربويَّة التي استعملها النَّبيُّ ﷺ مع ضماد، كالتأنِّي في الحديث، وأسلوب الحوار، والتَّوجيه المباشر، وتظهر بعض الصِّفات في شخصية رسول الله ﷺ كمربٍّ؛ كالحلم، والصبر، والتَّشجيع على الإكثار من الخيرات.

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (١/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ١١١ ـ ١١٣).

٢ ـ إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قال عَمْرُو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أَظُنُّ أنَّ النَّاس على ضلالةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ؛ وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسولُ الله ﷺ مستخفياً، جُرَآءُ عليه قومُه، فَتَلطَّفْتُ حتَّى دخلت عليه بمكَّة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ» فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيءٍ أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شيءٌ» فقلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلالٌ ممَّن آمن به، فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا، ألا ترى حالي وحالَ النَّاس؟ ولكن ارجعْ إلى أهلك، فإذا سمعتَ بي قد ظَهَرْتُ فائتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلتُ أتخَبَّرُ الأخبارُ، وأسأل النَّاس حين قدم المدينة، حتَّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرَّجلُ الَّذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناسُ إليه سِراعٌ، وقد أراد قومُه قتله، فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الَّذي لقيتني بمكَّة».

وذكر بقيَّة الحديث، وفيه: أنَّه سأله عن الصَّلاة، والوضوء. [مسلم (٨٣٢) وأحمد (٤/ ١١٢) وأبو داود (١٢٧٧) والنسائي (١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) وابن ماجه (١٢٥١)].

دروس وعبر:

١ ـ عَمْرُو بنُ عَبَسَة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهليَّة.

٢ ـ كانت الحروب الإعلاميَّة الضَّروس الَّتي شنَّتها قريشٌ على رسول الله ﷺ سبباً في تتبُّع عمرو بن عبسة لأخبار الرَّسول ﷺ.

٣ ـ جرأة، وشدَّة قريش على رسول الله ﷺ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفياً وقومه جُرَآءُ عليه.

٤ ـ الأدب في الدُّخول على أهل الفضل والمنزلة، قال عمرو بن عبسة: «فتلطَّفت حتَّى دخلت عليه».

٥ ـ الرِّسالة المحمَّدية تقوم على ركيزتين: حقِّ الله، وحقِّ الخلق. قال ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان» وفي هذا دليلٌ على أهمِّيَّة صلة الأرحام؛ حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدَّعوة إلى التَّوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوَّة، مع أنَّها كانت أقدس شيءٍ عند العرب، وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة إزالة معالم

الجاهليَّة ، وأنَّ دعوة التَّوحيد لا تستقرُّ ولا تنتشر ، إلا بزوال هذه المعالم .

٦ ـ وفي اهتمام النَّبيِّ ﷺ المبكِّر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالةٌ على أنَّ أمور الدِّين لا يجوز تأخير بيانها للنَّاس ، بحجَّة عدم القدرة على تطبيقها ، فالَّذين يبيِّنون للنَّاس من أمور الدِّين ما يستطيعون تطبيقه بسهولةٍ ، وأمن ، ويحجمون عن بيان أمور الدِّين الَّتي يحتاج تطبيقها إلى شيءٍ من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصةٌ ، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهليَّة وطغاتها وهو في قلَّةٍ من أنصاره ، والسِّيادة في بلده لأعدائه(١) .

٧ ـ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على صحابته ، وتوفير الجوِّ الآمن لهم ، والسَّير بهم إلى برِّ الأمان ، وإبعادهم عن التَّعرُّض للمضايقات ، فقد قال لعَمْرِو بنِ عَبَسَةَ : «إنك لا تستطيع يومك هذا» .

٨ ـ تذكُّر رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه ، وعدم نسيان مواقفهم ، قال : «أنت الذي لقيتني بمكَّة» .

٩ ـ لم يكن رسول الله ﷺ يعطي كلَّ مَنْ أسلم قائمةً بأسماء أتباعه ، فهذا ليس للسَّائل منه مصلحةٌ ، ولا يتعلَّق به بلاغ ، ولذلك لمَّا سأله عمرو بن عبسة عمَّن تبعه ؛ قال : «حرٌّ ، وعبدٌ» وهذه تورية ـ كما قال ابن كثير ـ بأن هذا اسم جنس فَهِمَ منه عمرو : أنَّه اسم عين(٢) .

١٠ ـ في قوله : «ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي ظَهَرْتُ ؛ فائتني» ، نأخذ منه درساً في الدَّعوة : أنَّ تكديس المريدين ، والأعضاء حيث المحنة ، والإيذاء ، ليس هو الأصل ؛ فهذا رسول الله ﷺ يوجِّه نحو الرُّجوع إلى الأقوام ، وأمر ـ كما سنرى ـ بالهجرتين إلى الحبشة ، فذلك تخفيفٌ عن المسلمين ، وإبعادٌ عن مواطن الخطر ، وسترٌ لقوَّة المسلمين ، وإعطاء فرصةٍ للقائد حتَّى لا ينشغل ، وضمانٌ للسِّرِّيَّة ، وإفادةٌ للمكان المرسل إليه ، وإعدادٌ للمستقبل ، وملاحظةٌ لضمان الاستمرار ، وتجنُّب الاستئصال(٣) .

وممَّن أسلم بسبب الحرب الإعلاميَّة ضدَّ الرَّسول ﷺ ، الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ ، وجاءت قصَّته مفصَّلةً في كتب السِّيرة ، ويرى الدُّكتور أكرم ضياء العمري : أنَّه لم يثبت منها إلا أنَّه دعا رسولَ الله ﷺ للالتجاء إلى حصن دوسٍ المنيع ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك [مسلم (١١٦) وأحمد (٣/ ٣٧١)] ، وأشارت روايةٌ صحيحةٌ إلى أنَّ الطُّفيل دعا قومه إلى الإسلام ، ولقي منهم صدوداً ، حتَّى طلب الطُّفيل من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم ، لكن رسول الله ﷺ دعا لهم

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ١٠٩) .

(٢) انظر : الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٦ إلى ١٠٩ .

(٣) انظر : الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّىٰ ، (١/ ١٢٦) .

بالهداية [البخاري (٢٩٣٧) ومسلم (٢٥٢٤)] وكان الرسول ﷺ آنئذٍ بالمدينة المنوَّرة[١] .

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما :

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظِّمه ـ فقالوا له : كَلِّمْ لنا هذا الرَّجل ، فإنَّه يذكر آلهتنا ، ويسبُّها ، فجاؤوا معه حتَّى جلسوا قريباً من باب النَّبيِّ ﷺ ، فقال : «أوسعوا للشَّيخ» ، وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا ، وتذكرها ، وقد كان أبوك حصينةً[٢] ، وخيراً؟ فقال : «يا حُصَيْنُ! إنَّ أبي وأباك في النَّار ، يا حُصَيْنُ! كم تعبد من إله؟» قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السَّماء . فقال : «فإذا أصابك الضرُّ مَنْ تدعو؟» قال : الَّذي في السَّماء . قال : «فإذا هلك المال مَنْ تدعو؟» قال : الَّذي في السَّماء ، قال : «فيستجيب لك وحده ، وتشركهم معه؟ أرضيته في الشُّكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال : ولا واحدةً من هاتين . قال : وعلمت أنِّي لم أكلم مثله ، قال : «يا حصين! أسلمْ تسلمْ» . قال : إنَّ لي قوماً ، وعشيرةً ، فماذا أقول؟ قال : «قل : اللَّهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني» ، فقالها حصين ، فلم يَقُمْ؛ حتَّى أسلم . فقام إليه عِمْرانُ فقبَّل رأسه ، ويديه ، ورجليه ، فلمَّا رأى ذلك النَّبيُّ ﷺ ؛ بكى ، وقال : «بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلمَّا أسلم قضى حقَّه ، فدخلني من ذلك الرِّقَّة» ، فلمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : «قوموا فشيِّعوه إلى منزله» فلمَّا خرج من سُدَّةِ الباب؛ رأته قريشٌ ، فقالوا : صبأ!! وتفرَّقوا عنه»[٣] .

ولعلَّ الَّذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السُّرعة سلامة فطرته ، وحسن استعداده من ناحيةٍ ، وقوَّة حجَّة الرَّسول ﷺ وسلامة منطقه من ناحية أخرى[٤] ، ونلاحظ : أنَّ رسول الله ﷺ استخدم أسلوب الحوار مع الحصين؛ لغرس معاني التوحيد في نفسه ، ونسف العقائد الباطلة الَّتي كان يعتقدها .

٤ ـ إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه :

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه مُنْكِراً لحال الجاهليَّة ، ويأبى عبادة الأصنام ، وينكر على مَنْ يشرك بالله ، وكان يصلِّي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات ، دون أن يخصَّ قبلة بعينها بالتوجُّه ، ويظهر أنَّه

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٧٦) ، وانظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للدُّكتور العمري (١/ ١٤٦) .

(٢) حصينة : يعني عاقلاً متحصِّناً بدين آبائه وأجداده ، ومعتقداتهم . انظر : النهاية (١/ ٢٣٤) .

(٣) الإصابة في تمييز الصَّحابة ، لابن حجر ، (١/ ٣٣٧) وعنه نقل الشَّيخ محمد يوسف الكاندهلوي في : حياة الصحابة (١/ ٧٥ ، ٧٦) ، وبنحوه مختصراً رواه الترمذي (٣٤٨٣) .

(٤) انظر : فقه الدعوة الفردية ، د. السيد محمد نوح ، ص ١٠٤ .

كان على نهج الأحناف، ولمَّا سمع بالنَّبيِّ ﷺ قدم إلى مكَّة، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه اللَّيل، فاضطجع فرآه عليٌّ رضي الله عنه، فعرف: أنَّه غريب، فاستضافه، ولم يسأله عن شيءٍ، ثمَّ غادره صباحاً إلى المسجد الحرام، فمكث حتَّى أمسى، فرآه عليٌّ فاستضافه لِلَيلة ثانية، وحدث مثل ذلك في اللَّيلة الثَّالثة، ثمَّ سأله عن سبب قدومه، فلمَّا استوثق منه أبو ذرٍّ؛ أخبره بأنَّه يريد مقابلة الرَّسول ﷺ، فقال له عليٌّ: فإنَّه حقٌّ، وهو رسول الله، فإذا أصبحت؛ فاتَّبعْني، فإنِّي إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك؛ قمت كأنِّي أريق الماء، فإن مضيت، فاتَّبعني، فتبعه، وقابل الرَّسول ﷺ، واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتَّى يأتيك أمري»، فقال: والَّذي نفسي بيده، لأصرخنَّ بها بين ظَهْرَانَيْهم، فخرج حتَّى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وثار القوم حتَّى أضجعوه، فأتى العبَّاس بن عبد المطَّلب، فحذَّرهم من انتقام غفار، والتَّعرُّض لتجارتهم الَّتي تمرُّ بديارهم إلى الشَّام، فأنقذه منهم[(١)]، وكان أبو ذرٍّ قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النَّبيِّ ﷺ ويسمع من قوله، ثمَّ يأتيه، فانطلق الأخ حتَّى قدم إليه، وسمع من قوله، ثمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشِّعر، فقال: ما شفيتني[(٢)] ممَّا أردت[(٣)]، وعزم على الذَّهاب بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال أخوه له: «وكُن على حذرٍ من أهل مكَّة فإنَّهم قد شَنِفُوا له، وتجهَّمُوا» [البخاري (٣٨٦١) ومسلم (٢٤٧٤)][(٤)].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ شيوع ذكر رسول الله ﷺ بين القبائل، واكثر مَنْ ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتَّخذوه من منهج التَّحذير والتَّشويه لرسول الله ﷺ، ولمَا جاء به، حتَّى وصل ذكره قبيلة غِفار.

٢ ـ تميُّزُ أبي ذرٍّ رضي الله عنه بأنَّه رجلٌ مستقلٌّ في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزُّه الدِّعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ، بعيداً عن التَّأثيرات الإعلاميَّة.

٣ ـ شدَّة اهتمام أبي ذرٍّ بأمر الرَّسول ﷺ، فلم يكتف بالمعلومات العامَّة الَّتي جاء بها أخوه أُنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إنَّ مجال البحث ليس عن رجلٍ يأمر بالخير فحسب؛ وإنما عن رجلٍ يَذكر أنَّه نبيٌّ؛ ولذلك تحمَّل المشاقَّ، والمتاعب، وشظف العيش،

---

(١) مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي ذرٍّ، رقم (٢٤٧٤)، والبخاريُّ رقم (٣٨٦١)، و(٣٥٢٢).

(٢) ما شفيتني ممَّا أردت: ما بلغتني غرضي، وأزلت عنِّي همَّ كشفِ هذا الأمر.

(٣) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، ص ٨٣.

(٤) شَنِفُوا له أي: أبغضوه، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٤٥).

والغربة عن الأهل، والوطن في سبيل الحقِّ، فأبو ذرٍّ ترك أهله، واكتفى من الزاد بجرابٍ، وارتحل إلى مكَّة لمعرفة أمر النُّبوَّة[١].

٤ ـ التَّأنِّي والتَّريُّث في الحصول على المعلومة؛ حيث تأنَّى أبو ذرٍّ رضي الله عنه؛ لما يعرفه من كراهية قريشٍ لكلِّ مَنْ يخاطب الرَّسول ﷺ، وهذا التَّأنِّي تصرُّفٌ أمنيٌّ تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه؛ لعلمت به قريش، وبالتَّالي قد يتعرَّض للأذى والطَّرد، ويخسر الوصول إلى هدفه، الَّذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمَّل في سبيله مصاعب، ومشاقَّ السَّفر.

٥ ـ الاحتياط والحذر قبل النُّطق بالمعلومة: حين سأل عليٌّ رضي الله عنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه عن أمره، وسبب مجيئه إلى مكَّة، لم يخبره بالرَّغم من أنَّه استضافه ثلاثة أيَّامٍ؛ إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غايةٌ في الاحتياط، وتمَّ ما أراده.

٦ ـ التَّغطية الأمنيَّة للتَّحرُّك: تمَّ الاتفاق بين عليٍّ وأبي ذرٍّ رضي الله عنه على إشارةٍ، أو حركةٍ معيَّنةٍ، كأنَّه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى عليٌّ رضي الله عنه من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطيةٌ أمنيةٌ لتحرُّكهم تجاه المقرِّ (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أنَّ أبا ذرٍّ كان يسير على مسافةٍ من عليٍّ، فيُعدُّ هذا الموقف احتياطاً، وتحسُّباً لكلِّ طارئ، قد يحدث في أثناء التَّحرُّك.

٧ ـ هذه الإشارات الأمنيَّة العابرة، تدلُّ على تفوُّق الصَّحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنيَّة، وعلى مدى توافر الحسِّ الأمنيِّ لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتَّى أصبح سمةً مميِّزةً لكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم الخاصَّة والعامَّة، فأتت تحرُّكاتهم منظَّمةً ومدروسةً، فما أحوجنا لمثل هذا الحسِّ، الَّذي كان عند الصَّحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمِّيةٌ بالغةٌ في زوال واستمرار الحضارات[٢]، وأصبحت له مدارسه الخاصَّة، وتقنياته المتقدِّمة، وأساليبه، ووسائله المتطوِّرة، وأجهزته المستقلَّة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامَّةً، والمعلومات الأمنيَّة خاصَّةً تباع بأغلى الأثمان، ويُضَحَّى في سبيل الحصول عليها بالنَّفس إذا لزم الأمر!.

وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالنَّاحية الأمنية؛ حتَّى لا تصبح قضايانا

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ٩١ ـ ٩٣).

(٢) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي، ص ٥٨، ٥٩.

مستباحةً للأعداء ، وأسرارنا في متناول أيديهم[١] .

٨ ـ صدق أبي ذرٍّ رضي الله عنه في البحث عن الحقِّ ، ورجاحة عقله ، وقوَّة فهمه ، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه .

٩ ـ حرص رسول الله ﷺ واهتمامه بأمن أصحابه ، وسلامتهم ؛ حيث أمر أبا ذرٍّ بالرُّجوع إلى أهله ، وكتمان أمره حتَّى يظهره الله .

١٠ ـ شجاعة أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، وقوَّته في الحقِّ فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش ، ومجتمعاتهم ، تحدِّياً لهم وإظهاراً للحقِّ[٢] ، وكأنَّه فهم : أنَّ أمر النَّبيِّ ﷺ له بالكتمان ، ليس على الإيجاب ؛ بل على سبيل الشَّفقة عليه ، فأعلمه بأنَّ به قوَّةً على ذلك ؛ ولهذا أقرَّه النَّبيُّ ﷺ على ذلك ، ويؤخذ منه جواز قول الحقِّ عند من يخشى منه الأذيَّة لمن قاله ـ وإن كان السُّكوت جائزاً ـ والتَّحقيق : أنَّ ذلك مختلفٌ باختلاف الأحوال والمقاصد ، وبحسب ذلك يترتَّب وجود الأجر ، وعدمه[٣] .

١١ ـ كان موقف أبي ذرٍّ رضي الله عنه مفيداً للدَّعوة ، ومساهماً في مقاومة الحرب النَّفسيَّة الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ الرَّسول ﷺ ، وكانت ضربةً معنويَّةً أصابت كفار مكَّة في الصَّميم ، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وقدرته على التحمُّل ، فقد سالت الدِّماء من جسده ، ثمَّ عاد مرَّةً أخرى للصَّدع بالشَّهادة .

١٢ ـ مدافعة العبَّاس عن المسلمين ، وسعيه لتخليص أبي ذرٍّ من أذى قريش ، دليلٌ على تعاطفه مع المسلمين ، وكان أسلوبه في ردِّ الاعتداء يدلُّ على خبرته بنفوس كفار مكَّة ؛ حيث حذَّرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم ، عندما تمرُّ بديار غِفار[٤] .

١٣ ـ امتثل أبو ذرٍّ للترتيبات الأمنيَّة ، الَّتي اتَّخذها رسول الله ﷺ في مكَّة ، فمع تعلُّق أبي ذرٍّ بالرَّسول ﷺ ، وحبِّه له ، وحرصه على لقائه ، إلا أنَّه امتثل أمر رسول الله ﷺ في مغادرة مكَّة إلى قومه ، واهتمَّ بصلاح ، وهداية الأهل ، ودعوتهم للإسلام ، فبدأ بأخيه ، وأمِّه وقومه .

١٤ ـ أثرُ أبي ذرٍّ الدَّعويُّ على قومه وقدرته على هدايتهم ، وإقناعهم بالإسلام ، ومع ذلك فإنَّه لا يصلح للإمارة ، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ ، قال : قلت : يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال : فضرب بيده على مَنْكِبي ، ثمَّ قال : «يا أبا ذر! إنَّك ضعيف ، وإنَّها أمانةٌ ،

---

(١) انظر : دروس في الكتمان ، لمحمود شيت خطَّاب ، ص ٩ .
(٢) انظر : الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ٩٥ .
(٣) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٦١) .
(٤) انظر : الوحي وتبليغ الرِّسالة (ص ٩٤ ، ٩٥) .

وإنَّها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ، إلا من أخذها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها» [مسلم (١٨٢٥) وأحمد (٥/ ١٧٣، ٢٦٧)]، فلكلِّ شخصٍ مجاله الَّذي سخَّره الله فيه، وميدانه الَّذي يقوم بواجبه فيه، فليس معنى: أنَّه نجح في الدَّعوة، وإقناع النَّاس: أنَّه يصلح لكلِّ شيءٍ.

١٥ ـ تفويض أبي ذرٍّ الإمامة إلى سيِّد غفار (أيماء بن رَحضة) ـ مع تقدُّم أبي ذرٍّ عليه في الإسلام وعلوِّ منزلته ـ يدلُّ على مهارةٍ إداريَّةٍ، وهي عدم جمع كلِّ الأعمال في يده، وتقدير النَّاس، وإنزالهم منازلهم[1].

١٦ ـ نجاح أبي ذرٍّ الباهر في الدَّعوة؛ حيث أسلمت نصف غفار، وأسلم نصفها الثَّاني بعد الهجرة[2].

لقد فشلت محاولات التَّشويه، والحرب الإعلاميَّة، والحجر الفكري الَّذي كان الكفار يمارسونه على الدَّعوة الإسلاميَّة في بداية عهدها؛ لأنَّ صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التَّبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السَّامي كان أعلى بكثيرٍ ممَّا كان يتوقَّعه أعداؤه؛ فالرَّسول ﷺ لم يجلس في بيته، ولم ينزوِ في زاويةٍ من زوايا المسجد الحرام؛ ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة؛ بل إنَّه غامر بنفسه ﷺ، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكَّة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقيَّة من حياةٍ، وأثارةٍ من حرِّيَّةٍ وإباءٍ، فيتسرَّب نور الهدى إلى مجامع لبِّه، وسويداء قلبه[3]، وكان من هؤلاء ضماد الأزديُّ، وعمْرُو بن عَبَسَةَ، وأبو ذرٍّ الغفاري، والطُّفيل بن عمرو الدَّوسي، وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنهم، وهذا دليلٌ قاطعٌ، وبرهانٌ ساطعٌ، على فشل حملات التَّشويه الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ رسول الله ﷺ، فعلينا أن نعتبر، ونستفيد من الدُّروس، والعبر.

ثالثاً: ما تعرَّض له رسولُ الله ﷺ من الأذى والتَّعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدلُّ على ذلك ـ مبلغ هذا الأذى ـ تلك الآيات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر، وتدلُّه على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، و﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، و﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، ص ١٠٠.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، للعمري (١/ ٤٥).

(٣) التاريخ الإسلامي، للحميدي (١/ ١٤٤).

تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، و﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ [فصلت: ٤٣].

وهذه أمثلةٌ تدلُّ على ما تعرَّض له النَّبيُّ ﷺ من الإيذاء:

١ ـ قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه[١] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُهُ يفعلِ ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلِّي، زعم لِيَطَأَ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ[٢] منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه[٣] ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهَولاً، وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (٢٧٩٧)].

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النَّبيُّ ﷺ، فزبره[٤]، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧ ـ ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله» [الترمذي (٣٣٤٩)].

٢ ـ وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله ﷺ قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها، ودمها، وسلاها، فيجيءُ به، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلمَّا سجد رسول الله ﷺ؛ وضعه بين كتفيه، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك، فانطلق مُنطلِقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ ـ وهي جُوَيرِيةٌ ـ فأقبلت تسعى، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تَسُبُّهم، فلمَّا قضى رسولُ الله ﷺ الصَّلاة، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سَمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارةَ بن الوليد، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب[٥] ـ قليب بدرٍ ـ ثمَّ قال رسول الله ﷺ: وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً» [البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤)].

وقد بيَّنت الرِّوايات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ،

---

(١) يعفِّر وجهه: أي يسجد، ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب.
(٢) فجئَهم: بغتهم.
(٣) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
(٤) زبره: نهره.
(٥) القَليب: البئر المفتوحة.

وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل [مسلم (١٧٩٤)]، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعوة الرَّسول ﷺ عليهم. وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[١].

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول ﷺ: اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحجر. فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا. وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ. فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟! [البخاري (٣٦٨٧ و٣٨٥٦ و٤٨١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٤)][٢].

٤ ـ كان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ من أشدِّ النَّاس عداوةً له، وكذلك كانت امرأته أمُّ جميلٍ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيِّ ﷺ؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة، وتضع الشَّوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ ـ ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن؛ أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصدِّيق، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ؛ فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش. ولعنهم، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمَّد» [البخاري (٣٥٣٣)].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذِّبه[٣].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذيَّة المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[٤]، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما يُخاف

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمريِّ (١/ ١٤٩)، وانظر كذلك المصدر السَّابق.
(٢) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي من طرقٍ أخرى، ص ٩٦.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ١٥٣).

أحدٌ ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلـة ، وما لي ، ولا لبلالٍ طعامٌ يأكلـه ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال» [الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١)] .

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر ، ومنتهى الشَّرف ، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل ، والعناء الطَّويل ، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة ، ولقد لقي النَّبيُّ ﷺ من سفهاء قريش أذىً كثيراً ، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به ، وقالوا ساخرين : هذا ابن أبي كبشة[١] ، يكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول ﷺ فيقول له ساخراً : أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟![٢] .

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية ، والاستهزاء ، والإيذاء النَّفسيِّ ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ ، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدوُّ الله أميَّة بن خلف في وجه النَّبيِّ ﷺ[٣] ، وحتَّى بعد هجرته ـ عليه السَّلام ـ إلى المدينة ، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى ، بل أخذت خطّاً جديداً ، بظهور أعداءٍ جدد ، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة ؛ صار له ﷺ أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة ، ومن اليهود ، والفرس ، والرُّوم ، وأحلافهم ، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً ، وسخريةً ، وحصاراً ، وضرباً ، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً ، حامية الوطيس ، فيها كرٌّ ، وفرٌّ ، وضربٌ ، وطعنٌ ؛ فكان ذلك بلاءٌ في الأموال ، والأنفس على السَّواء[٤] ، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته ، سلسلةً متَّصلةً من المحن ، والابتلاء ، فما وهن لما أصابه في سبيل الله ، بل صبر ، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[٥] .

لقد واجه الرَّسول ﷺ من الفتن، والأذى، والمحن مالا يخطر على بالٍ ، في مواقف متعـدِّدةٍ ، وكان ذلك على قدر الرِّسالـة الَّتي حُمِّلهـا ، ولذلـك استحق المقام المحمود ، والمنزلـة الرَّفيعـة عند ربِّه ، وقد صبر على ما أصابه ؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة ، والمصلحين[٦] ، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله ﷺ ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء ، والمحنة ، وتلك سنّة الله في الدَّعوات ؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قلت : يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال : «الأنبياء ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً ؛ اشتدَّ بلاؤه ،

---

(١) والد الرَّسول ﷺ من الرَّضاعة .
(٢) انظر : الرَّوض الأنف (٢/ ٣٣) وما بعدها .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (٢/ ٤٨) .
(٤) انظر : زاد اليقين ، لأبي شنب ، ص ١٣٧ .
(٥) انظر : التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٤٣ .
(٦) انظر : محنة المسلمين في العهد المكيِّ ، د. سليمان السُّويكت ، ص ١٩٧ .

وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» [ابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص].

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتَّعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

تحمَّل الصَّحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يَسْلَمْ أشرافُ المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التُّراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنِّعال حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وحُمِل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنَّه لمَّا اجتمع أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظُّهور، فقال: «يا أبا بكر! إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ حتَّى ظهر رسولُ الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كلُّ رجلٍ في عشيرته، وقام أبو بكر في النَّاس خطيباً ورسولُ الله ﷺ جالسٌ، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئَ أبو بكر، وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسقُ عتبةُ بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكرٍ رضي الله عنه، حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تَيْمٍ يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكرٍ، وحمَلتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكُّون في موته، ثمَّ رجعت بنو تيمٍ، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تَيْم يكلِّمون أبا بكر حتَّى أجاب، فتكلَّم آخر النَّهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، وقالوا لأمِّه أمِّ الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إيَّاه، فلمَّا خلت به؛ ألحَّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، وإن كنت تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فدنت أمُّ جميل، وأعلنت بالصِّياح، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فِسْقٍ وكفرٍ، إنَّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمُّك

---

(١) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٤٣.

تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالمٌ، صالحٌ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو آتي رسولَ الله ﷺ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتَّكئ عليهما، حتَّى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ، فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبي، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفَّار، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه، وشجاعته، وقد تحَمَّل الأذى العظيم، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.

٢ ـ مدى الحبِّ الَّذي كان يُكنُّه أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة، يسأل عنه، ويُلحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل، ولا يشرب حتَّى يراه، كيف يتمُّ ذلك، وهو لا يستطيع المشي، بل النُّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصِّعاب، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله ﷺ هيِّنٌ، ويسيرٌ.

٣ ـ إنَّ العصبيَّة القبليَّة، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع الأفراد، حتَّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدِّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر[2].

٤ ـ الحسُّ الأمنيُّ لأمِّ جميلٍ رضي الله عنها، فقد برز في عدَّة تصرُّفاتٍ؛ لعلَّ من أهمها:

إخفاء الشَّخصيَّة، والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل، عن مكان الرَّسول ﷺ، أنكرت أنَّها تعرف أبا بكر، ومحمَّد بن عبد الله، فهذا تصرُّفٌ حذِرٌ سليم؛ إذ لم تكن أمُّ الخير ساعتئذٍ مسلمةً، وأمُّ جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تودُّ أن تعلم به أمُّ الخير، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرَّسول ﷺ؛ مخافةَ أن تكون عيناً لقريشٍ[3].

استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأمُّ جميلٍ أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكرٍ رضي الله عنه، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأمِّ الخير؛ إمعاناً في السِّرِّيَّة، والكتمان، فاستغلَّت الموقف لصالحها قائلةً: «إن

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (١/ ٤٣٩ ـ ٤٤١)، والبداية والنِّهاية (٣/ ٣٠).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٧٩.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٥٠.

كنتِ تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك؛ فعلت»، وقد عرضت عليها هذا الطَّلب بطريقةٍ تنم عن الذَّكاء وحسن التَّصرُّف، فقولها: «إن كنت تحبِّين ـ وهي أمُّه ـ» وقولها: «إلى ابنك»، ولم تقل لها: إلى أبي بكرٍ، كلُّ ذلك يحرِّك في أمِّ الخير عاطفة الأمومة، فغالباً ما ترضخ لهذا الطَّلب، هذا ما تم بالفعل؛ حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتَّالي نجحت أمُّ جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

يبدو أنَّ أمَّ جميل حاولت أن تكسب عطف أمِّ الخير، فاستغلَّت وضع أبي بكرٍ رضي الله عنه، الَّذي يظهر فيه صريعاً دَنِفاً، فأعلنت بالصِّياح، وسَبَّتْ مَنْ قام بهذا الفعل بقولها: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسقٍ، وكفرٍ»؛ فلا شك أنَّ هذا الموقف من أمِّ جميلٍ يشفي بعض غليل أمِّ الخير من الَّذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنُّ شيئاً من الحبِّ لأمِّ جميل، وبهذا تكون أمُّ جميل كسبت عطف أمِّ الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهِّل مهمَّة أمِّ جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه[١].

الاحتياط والتأنِّي قبل النُّطق بالمعلومة:

لقد كانت أمُّ جميل في غاية الحيطة، والحذر، من أن تتسرَّب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدَّعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أمِّ الخير؛ لأنَّها ما زالت مشركةً آنذاك، وبالتَّالي لم تأمن جانبها، لذا تردَّدت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنها عن حال رسول الله ﷺ، فقالت له: هذه أمُّك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأنَّ الرسول ﷺ سالمٌ صالحٌ[٢]، وزيادةً في الحيطة، والحذر، والتكتُّم لم تخبره بمكانه، إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

تخيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمَّة:

حين طلب أبو بكرٍ رضي الله عنه الذَّهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أمُّ جميل على الفور؛ بل تأخَّرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن النَّاس؛ خرجت به ومعها أمُّه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتَّحرُّك، وتنفيذ هذه المهمَّة، حيث تنعدم الرَّقابة من قِبَلِ أعداء الدَّعوة، ممَّا يقلِّل من فرص كشفها، وقد نُفِّذت المهمَّةُ بالفعل دون أن يشعر بها

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة في جوانب الحذر والحماية، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥١.

الأعداء ، حتَّى دخلت أمُّ جميل ، وأمُّ الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم ، وهذا يؤكِّد: أنَّ الوقت المختار كان أنسب الأوقات(١) .

٥ ـ قانون المنحة بعد المحنة ، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر ، بسبب رغبة الصِّدِّيق في إدخال أمِّه إلى حظيرة الإسلام ، وطلبه من الرَّسول ﷺ الدُّعاء لها؛ لِمَا رأى من برِّها به ، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟!(٢) .

٦ ـ إنَّ من أكثر الصَّحابة الَّذين تعرَّضوا لمحنة الأذى ، والفتنة بعد رسول الله ﷺ ، أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصَّة له ، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه ، فينبري الصِّدِّيق مدافعاً عنه ، وفادياً إيَّاه بنفسه ، فيصيبه من أذىٰ القوم وسفههم ، هذا مع أنَّ الصِّدِّيق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل ، والإحسان(٣) .

٢ ـ بلالٌ رضيَ الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ ، ولأصحابه؛ حتَّى وصل إلى ذروة العنف وخاصَّةً في معاملة المستضعفين من المسلمين ، فنكَّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم ، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عِبرةً لغيرهم ، ولتنفِّس عن حقدها ، وغضبها ، بما تصبُّه عليهم من العذاب .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أوَّل من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله ﷺ ، وأبو بكرٍ ، وعمَّارٌ ، وأمُّه سميَّة ، وصهيبٌ ، وبلالٌ ، والمقداد؛ فأمَّا رسول الله ﷺ ، فمنعه الله بعمِّه أبي طالبٍ ، وأمَّا أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه ، وأمَّا سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشَّمس ، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً ، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدانَ ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكَّة ، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد (١/ ٤٠٤) وابن ماجه (١٥٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)] . لم يكن لبلال رضي الله عنه ظَهْرٌ يسنده ، ولا عشيرةٌ تحميه ، ولا سيوفٌ تذود عنه ، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ يعادل رقماً من الأرقام ، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم ، ويطيع ، ويُباع ، ويُشْترى كالسَّائمة ، أمَّا أن يكون له رأيٌ ، أو يكون صاحبَ فكرٍ ، أو صاحب دعوةٍ ، أو صاحب قضيَّةٍ ، فهذه جريمةٌ شنعاءُ في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ ، تهزُّ أركانه ، وتزلزل أقدامه ، ولكنَّ الدَّعوة الجديدة؛ الَّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدَّون تقاليد ، وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرميِّ المنسيِّ ، فأخرجته إنساناً

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدُّروس الأمنيَّة .

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٧٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٥ .

جديداً على الوجود[١]، فقد تفجَّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدِّين، وانضمَّ إلى محمَّدٍ ﷺ وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وها هو الآن يتعرَّض للتَّعذيب من أجل عقيدته، ودينه، فقصد وزيرُ رسولِ الله ﷺ الصِّديقُ موقعَ التَّعذيب، وفاوض أميَّةَ بن خلف، وقال له: «ألا تتَّقي الله في هذا المسكين؟ حتَّى متَّى؟! قال: أنت الَّذي أفسدته، فأنقذه ممَّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل، عندي غلامٌ أسود أجلد منه، وأقوىٰ على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه، فأعتقه»[٢]. وفي روايةٍ: اشتراه بسبع أواقٍ، أو بأربعين أوقيَّةٍ ذهباً[٣].

ما أصبر بلالاً، وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُبَ ولم تَلِنْ قناتُه أمام التَّحدِّيات، وأمام صنوف من العذاب، وكان صبره، وثباته ممَّا يغيظهم، ويزيد حنقهم، خاصَّةً: أنَّه كان الرَّجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الَّذي ثبت على الإسلام، فلم يواتِ الكفار فيما يريدون، مردِّداً كلمة التَّوحيد بتحدٍّ صارخٍ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه[٤].

وبعد كلِّ محنةٍ منحةٌ؛ فقد تخلَّص بلالٌ من العذاب والنَّكال، وتخلَّص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقيَّـة حياته ملازماً له، ومات راضياً عنه مبشِّراً إيَّاه بالجنَّة، فقد قال ﷺ لبلال: «... فإنِّي سمعت الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنة» [البخاري (١١٤٩) ومسلم (٢٤٥٨)]. وأمَّا مقامه عند الصَّحابة، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيِّدنا» يعني: بلالاً[٥].

وأصبح منهج الصِّدِّيق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطَّة الَّتي تبنَّتها القيادة الإسلامية لمقاومة التَّعذيب الَّذي نزل بالمستضعفين، فمضىٰ يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمِّين إلى هذا الدِّين الجديد من الرِّقِّ.

«ثمَّ أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقابٍ؛ بلالٌ سابعهم: عامر بن فهيرة شهد بدراً، وأحداً، وقُتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمُّ عُبيس، وزِنِّيرة، وأُصيب بصرُها حتى أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات، والعزَّى. فقالت: كذبوا وبيت الله،

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١٣٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٤).
(٣) انظر: التَّربية القيادية (١/ ١٤٠).
(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص ٩٢.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٢٣٢)، ورجاله ثقات.

ما تضرُّ اللات والعزَّى، وما تنفعان، فردَّ الله بصرها[١]. وأعتق النَّهدية، وبنتها، وكانتا لامرأةٍ من بني عبد الدَّار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سيِّدتهما بطَحينٍ لها، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلٌّ[٢] يا أمَّ فلان! فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتهما، فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا، وكذا. قال: قد أخذتُهما، وهما حرَّتان، أَرْجعا إليها طَحينها. قالتا: أوَ نَفْرَغُ منه يا أبا بكر! ثمَّ نردُّه إليها؟ قال: وذلك؛ إن شئتما»[٣].

وهنا وقفة تأمُّل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصِّدِّيق والجاريتين حتَّى خاطبتاه، خطابَ النِدِّ للندِّ، لا خطاب المسود للسَّيِّد، وتقبَّل الصِّدِّيق ـ على شرفه، وجلالته في الجاهليَّة، والإسلام ـ منهما ذلك، مع أنَّ له يداً عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتَّى تخلَّقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما، وقد أُعتقتا، وتحرَّرتا من الظُّلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراجَ الرِّياح، أو يأكله الحيوان، والطَّير، ولكنَّهما أبتا ـ تفضُّلاً ـ إلا أن تفرغا منه، وتردَّاه إليها[٤].

ومرَّ الصِّدِّيق بجارية بني مُؤَمَّل ـ حيٌّ من بني عديٍّ بن كعب ـ وكانت مسلمةً، وعُمر بن الخطَّاب يُعذِّبها لتترك الإسلام، وهو يومئذٍ مشركٌ، وهو يضربها، حتَّى إذا ملَّ؛ قال: إني أعتذر إليك، إنِّي لم أتركك إلا عن ملالةٍ، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكرٍ، فأعتقها[٥].

هكذا كان واهب الحرِّيَّات، ومحرِّر العبيد، شيخ الإسلام الوقور؛ الَّذي عُرف بين قومه بأنَّه يكسب المعدوم، ويصل الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويُقري الضَّيف، ويعين على نوائب الحقِّ، لم ينغمس في إثمٍ في جاهليته، أليفٌ مألوفٌ، يسيل قلبه رقَّةً ورحمةً على الضُّعفاء، والأرقَّاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله قبل أن تنزل التَّشريعات الإسلاميَّة المحبِّبة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثَّواب[٦].

كان المجتمع المكيُّ يتندَّر بأبي بكرٍ رضي الله عنه؛ الَّذي يبذل هذا المال كلَّه لهؤلاء المستضعفين، أمَّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدِّين الجديد، فكلُّ مشركي الأرض، وطغاتها لا يساوون عنده واحداً من هؤلاء، وبهذه العناصر، وغيرها تُبنَى دولةُ التَّوحيد،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٢) حلٌّ: تحلَّلي من يمينك.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣٤٦).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (١/ ٣٤٥).

وتصنع حضارة الإسلام الرَّائدة، والرَّائعة[(١)]. ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله هذا محمدةً، ولا جاهاً، ولا دنيا، وإنَّما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، ولقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بنيَّ، إنِّي أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت؛ أعتقت رجالاً أجْلاداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت! إنِّي إنَّما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ». فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصِّدِّيق قرآناً يتلىٰ إلى يوم الدِّين.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[(٢)] [الليل: ٥ ـ ٢١].

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلاميَّة الأولى قِمَّةً من قِمَمِ الخير، والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيدُ بالإسلام أصحابَ عقيدةٍ، وفكرةٍ، يناقشون بها، وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على شرائهم، ثمَّ إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدِّين، ومدى تغلغله في نفسية الصِّدِّيق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرَّفيع، والمشاعر السَّامية؛ ليتم التَّلاحم والتَّعايش، والتَّعاضد بين أبناء الأمة؛ الَّتي يتعرض أبناؤها للإبادة الشَّاملة من قِبَلِ أعداء العقيدة، والدِّين!

٣ـ عمَّار بن ياسرٍ، وأبوه، وأمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمَّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكَّة، وأخواه: الحارثُ، ومالكٌ يطلبون أخاً لهم، فرجع الحارث، ومالكٌ إلى اليمن، وأقام ياسرٌ بمكَّة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزوميَّ[(٣)]، فزوَّجه أبو حذيفةَ أَمَةً له، يقال لها: سُميَّة بنت خيَّاط، فولدت له عَمَّاراً، فأعتقه أبو حذيفة الَّذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر، وسميَّة، وعمَّار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصبُّوا عليهم العذاب صبّاً، فكانوا يُخْرِجونهم إذا حميت الظَّهيرة، فيعذِّبونهم برمضاء مكَّة[(٤)]، ويقلِّبونهم ظهراً لبطنٍ[(٥)]، فيمرُّ عليهم الرَّسول ﷺ؛ وهم يعذَّبون، فيقول: «صبراً آل

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٤٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩)، وتفسير الآلوسي (٣٠/ ١٥٢).
(٣) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذريِّ (١/ ١٠٠، ١٥٧).
(٤) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢/ ٦٨).
(٥) بهجة المحافل، للعامريِّ (١/ ٩٢).

ياسر! فإنَّ موعدكم الجنة» [الحاكم (٣/ ٣٨٣) والحلية (١/ ١٤٠) والمطالب العالية (٤٠٣٤)][(١)]. وجاء أبو جهل إلى سميَّة، فقال لها: ما آمنت بمحمَّد إلا لأنكِ عشقتِه لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العِفَّة، فقتلها، فهي أوَّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[(٢)]، وبذلك سطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى، وأغلىٰ ما تقدِّمه امرأةٌ في سبيل الله؛ لتبقى كلُّ امرأةٍ مسلمةٍ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيءٍ في سبيل الله بعد أن جادت سميَّة بنت خيَّاط بدمها في سبيل الله[(٣)].

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلتُ مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده نتمشَّى بالبطحاء، حتَّى أتى على آل عمَّار بن ياسر، فقال أبو عمَّار: يا رسول الله! الدَّهر هكذا؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ: اصبر، ثمَّ قال: اللَّهمَّ اغفر لآل ياسرٍ، وقد فعلتَ» [أحمد (١/ ٦٢)][(٤)]. ثمَّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النَّبيِّ ﷺ أن يقدمَ شيئاً لآل ياسر، رموز الفداء، والتضحية، فليسوا بأرقاء حتَّى يشتريهم، ويعتقهم، وليست لديه القوَّة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكلُّ ما يستطيعه ﷺ أن يزفَّ لهم البشرى بالمغفرة، والجنَّة، ويحثَّهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوةً للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمرُّ على مدار التَّاريخ هذه الظَّاهرة: «صبراً آل ياسر! فإنَّ موعدكم الجنَّة» [سبق تخريجه][(٥)].

أمَّا عمَّارٌ رضي الله عنه، فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صنوف العذاب ألواناً، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الَّذين لا عشائر لهم بمكَّة تحميهم، وليست لهم منعةٌ، ولا قوَّةٌ، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضاء بمكَّة في منتصف النَّهار؛ ليرجعوا عن دينهم، وكان عمَّار يُعذَّب حتَّى لا يدري ما يقول[(٦)]. ولمَّا أخذه المشركون ليعذبوه؛ لم يتركوه حتَّى سبَّ النَّبيَّ ﷺ، وذكر آلهتهم بخيرٍ، فلمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شرٌّ، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك! وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال: «فإن عادوا؛ فعد» [الحاكم (٢/ ٣٥٧) والزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٥٨)][(٧)]. ونزل

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، ص ٩٧، ٩٨.
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٩٩.
(٣) التَّربية القياديَّة (١/ ٢١٧).
(٤) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٩٨.
(٥) التَّربية القياديَّة (١/ ٢١٧، ٢١٨).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ١٠٠.
(٧) انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص ١٠٣.

الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمَّار. قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ[١].

وفي حادثتي بلالٍ، وعمَّارٍ فقهٌ عظيمٌ يتراوح بين العزيمة، والرُّخصة، يحتاج الدُّعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصَّحيح، وفي معاييره الدَّقيقة دون إفراطٍ، أو تفريطٍ.

٤ ـ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه:

تعرَّض للفتنة من قِبَلِ والدته الكافرة، فقد امتنعت عن الطَّعام، والشَّراب حتَّى يعود إلى دينها. روى الطَّبرانيُّ: أن سعداً قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلاً بارّاً بأمِّي، فلمَّا أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّين الَّذي أراك قد أحدثت؟! لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتَّى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتلَ أمه! فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه؛ فإنِّي لا أدع ديني لشيء، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل، فأصبحتْ؛ وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلةً أخرىٰ لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها، فلمَّا رأيت ذلك؛ قلت: يا أُمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفسٍ، فخرجت نفساً نفساً؛ ما تركت ديني هذا الشيء، فإن شئت؛ فكلي، وإن شئت؛ لا تأكلي! فأكلتْ[٢].

وروىٰ مسلمٌ: أنَّ أمَّ سعدٍ حلفت ألاَّ تكلِّمه أبداً؛ حتَّى يكفر بدينه، ولا تأكل، ولا تشرب، قالت: زعمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمُّك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشي عليها من الجهد، فقال ابنٌ لها ـ يقال له عُمَارَةَ ـ فسقاها، فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي ﴾؛ وفيها: ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾.

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها؛ شجروا فاها بعصاً، ثمَّ أَوْجَرُوها [مسلم (١٧٤٨) والترمذي (٣١٨٩)][٣]. فمحنة سعدٍ محنةٌ عظيمةٌ، وموقفه موقف فَذٌّ، يدلُّ على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنَّه لا يقبل فيه مساومةً مهما كانت النَّتيجة[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٦).
(٣) (شجروا فاها ثم أوجروها): أي فتحوا فمها، وصبُّوا فيه الطَّعام.
(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ١٠٦.

ومن خلال تتبُّع القرآن المكيِّ ، نجد: أنَّه برغم قطع الولاء ، سواءٌ في الحبِّ ، أو النُّصرة بين المسلم وأقاربه الكفَّار ، فإنَّ القرآن أمر بعدم قطع صلتهم ، وببرِّهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم؛ لأنَّ الولاء لله ولرسوله ﷺ ، لدينه ، وللمؤمنين[١] .

٥ ـ مصعب بن عُمَير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير أنعمَ غلامٍ بمكَّة ، وأجودَها حلَّةً ، وكان أبواه يحبِّانه ، وكانت أمُّه مليئةً كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثِّياب ، وأرقَّه ، وكان أعطرَ أهل مكَّة ، يلبس الحضرميَّ ، من النِّعال[٢] ، وبلغ من شدَّة كلف أمِّه به: أنَّه كان يبيت وقعْبُ الحَيْس[٣] عند رأسه ، فإذا استيقظ من نومه؛ أكل[٤] ، ولمَّا علم: أنَّ رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ دخل عليه ، فأسلم ، وصدَّق به ، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمِّه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرّاً، فبصر به عثمان بن طلحة[٥] يصلِّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، وحبسوه ، فلم يزل محبوساً حتَّى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[٦] .

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: لقد رأيته وقد جَهِدَ في الإسلام جهداً شديداً ، حتَّى لقد رأيت جلده يتحشَّف ـ أي: يتطاير ـ تحشُّف جلد الحيَّة عنها ، حتَّى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله ممَّا به من الجهد[٧] ، وكان رسول الله ﷺ كلَّما ذكره ، قال: «ما رأيت بمكَّة أحداً أحسن لمَّةً ، ولا أرقَّ حلَّةً ، ولا أنعم نعمةً ، من مصعب بن عمير» [الحاكم (٣/ ٢٠٠)][٨] ، ومع كلِّ ما أصابه رضي الله عنه من بلاءٍ ومحنةٍ ، ووهنٍ في الجسم ، والقوَّة ، وجفاءٍ من أقرب النَّاس إليه لم يقصِّر عن شيءٍ ممَّا بلغه أصحاب رسول الله ﷺ من الخير ، والفضل ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، حتَّى أكرمه الله تعالى بالشَّهادة يوم أحدٍ[٩] .

يُعَدُّ مصعبٌ رضي الله عنه أنموذجاً من تربية الإسلام للمترفين الشَّباب ، للمنعمين من أبناء

---

(١) انظر: الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، (ص ١٧٤ ، ١٧٥).
(٢) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١١٦).
(٣) القعب: القدح الغليظ ، والحيس: تمر ، وأقط ، وسمن تخلط ، وتعجن.
(٤) الرَّوض الأنف (٢/ ١٩٥).
(٥) سير أعلام النبلاء ، للذَّهبي (٣/ ١٠ ـ ١٢).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٧ .
(٧) السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص١٩٣ .
(٨) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١١٦).
(٩) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٨ .

الطَّبقات الغنيَّة المرفَّهة، لأبناء القصور، والمال، والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنُّقهم، السَّاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيَّرت، ووقف بعد إسلامه قويّاً لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه، وشهواته؛ فيسقط في جحيم النَّعيم الخادع[١].

لقد ودَّع ماضيه بكلِّ ما فيه من راحةٍ ولـذَّةٍ، وهناءةٍ، يوم دخل هذا الدِّين، وبايع تلك البيعة، وكان لابدَّ له من المرور في درب المحنة؛ لكي يصقل إيمانه، ويتعمَّق يقينه، وكان مصعب مطمئناً راضياً برغم ما حوله من جبروتٍ، ومخاوف، وبرغم ما نزل به من البؤس، والفقر، والعذاب، وبرغم ما فقده من مظاهر النَّعيم والرَّاحة[٢]، فقد تعرَّض لمحنة الفقر، ومحنة فَقْدِ الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتَّعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كلِّ تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه، مطمئنـاً أعمـق الاطمئنان، ثابتـاً أقوى الثبات[٣]، ولنا معـه وقفـات في المدينة بإذن الله تعالى.

٦ ـ خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خبَّاب رضي الله عنه قَيْناً[٤] بمكَّة، وأراد الله له الهداية مبكِّراً، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[٥]، فكان من المستضعفين الَّذين عُذبوا بمكَّة لكي يرتدَّ عن دينه، ووصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمَّاة حتَّى ذهب ماء مَتْنه[٦].

وكان الرَّسول ﷺ يألف خباباً، ويتردَّد عليه بعد أن أسلم، فلمَّا علمت مولاته بذلك، وهي أمُّ أنمار الخزاعيَّة، أخذت حديدةً قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابٌ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «اللَّهمَّ انصر خباباً!» فاشتكت مولاتُه رأسَها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خبَّابٍ ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرةً لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله، ونصره من عباده

(١) انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد، لمحمد بريغش، ص ١٠٥.
(٢) المصدر السَّابق نفسه، (ص ١٠٥، ١٠٧).
(٣) انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد، ص ١٢٦.
(٤) قيناً: حداداً.
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٩٥.

المؤمنين الصابرين! فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويَ رأسَها[١].

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين، ولقوا منهم شدَّةً؛ جاء خبَّابٌ إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، فقال له: «ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!» فقعد الرَّسول ﷺ وهو محمرٌّ وجهه، قال: «كان الرَّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله! لَيَتمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [البخاري (٣٦١٢) وأحمد (٥/١٠٩ و١١١) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٨/٢٠٤)].

وللشيخ سلمان العودة ـ حفظه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ على هذا الحديث، هو: يا سبحان الله! ماذا جرى حتى احمرَّ وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعته، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القويِّ المؤثِّر، ثمَّ عاتبهم على الاستعجال؛ لأنهم طلبوا الدُّعاء منه ﷺ؟ كلا، حاشاه من ذلك، وهو الرَّؤوف الرَّحيم بأمَّته.

إنَّ أسلوب الطَّلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنَّه صادر من قلوبٍ أضناها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدَّتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النَّصر، فتستدعيه، وهو ﷺ يعلم: أنَّ الأمور مرهونةٌ بأوقاتها، وأسبابها، وأنَّ قبل النَّصر البلاءُ، فالرُّسل تُبتلى، ثمَّ تكون لها العاقبة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ويلمس ـ عليه السَّلام ـ من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمهم بالعذاب الذي يلاقون، حتَّى يُفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التَّعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرَّد قراءة النَّصِّ ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها، حين طلبوا منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ الدُّعاء، والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات الَّتي كانت تثور في نفوسهم، إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم، ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعضَ ما عانوا.

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص ٩٦.

لقد كان ﷺ يربِّيهم على :

أ ـ التأسِّي بالسَّابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، في تحمُّل الأذى في سبيل الله ، ويضرب لهم الأمثلة في ذلك .

ب ـ التَّعلُّق بما أعدَّه الله في الجنة للمؤمنين الصَّابرين من النَّعيم ، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدُّنيا .

ج ـ التَّطلُّع للمستقبل ، الَّذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدُّنيا ، ويذلُّ فيه أهل الكفر ، والعصيان .

وثمَّة أمرٌ آخر كبيرٌ ، ألا وهو : أنَّه ﷺ مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطِّط ، ويستفيد من الأسباب الماديَّة المتعدِّدة لرفع الأذى والظُّلم عن أتباعه ، وكفِّ المشركين عن فتنتهم ، وإقامة الدَّولة الَّتي تجاهد في سبيل الدِّين ، وتتيح الفرصة لكلِّ مسلمٍ أن يعبد ربَّه حيث شاء ، وتزيل الحواجز ، والعقبات الَّتي تعترض طريق الدَّعوة إلى الله[1] .

وقد تحدَّث خبابٌ رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقونه من المشركين ، من عنتٍ ، وسوء معاملة ، ومساومةٍ على الحقوق ، حتَّى يعودوا إلى الكفر ، فقال : كنت رجلاً قَيْناً[2] ، وكان لي على العاص بن وائل دَيْنٌ ، فأتيته لأقتضيه ، فقال لي : لن أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد ، فقلت : لن أكفر حتَّى تموت ، وتبعث ، قال : وإنِّي لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك؛ فلسوف أقضيك؛ إذا رجعت إلى مالي وولدي ، فنزلت فيه : ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠][البخاري (٢٠٩١) ومسلم (٢٧٩٥)] .

وذُكِرَ : أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبَّاباً عمَّا لقي في ذات الله تعالى ، فكشف خبابٌ عن ظهره ، فإذا هو قد برص ، فقال عمر : ما رأيت كاليوم ، فقال خباب : يا أميرَ المؤمنين ، لقد أوْقَدُوا لي ناراً ، ثمَّ سلقوني فيها ، ثمَّ وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري ، فما اتَّقيت الأرض ـ أو قال : برد الأرض ـ إلا بظهري ، وما أطفأ تلك النَّار إلا شحمي[3] .

٧ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه :

كان منهج رسول الله ﷺ في معاملته للنَّاس حكيماً ، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطفٍ وترفُّقٍ ، وكذلك الصِّبيان الصِّغار ؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدِّثنا عن لقائه اللَّطيف

---

(١) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) القَيْنُ : الحداد ، والجمع : قُيُون .
(٣) الرَّوض الأنف (٢/ ٩٨).

برسول الله ﷺ يقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط، فمرَّ بي رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، فقال: يا غلام! هل من لبنٍ؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمنٌ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحلٌ؟ فأتيته بشاةٍ، فمسح ضرعها، فنزل لبنٌ فحلبه في إناءٍ، فشرب، وسَقَى أبا بكرٍ، ثمَّ قال للضَّرع: اقلص، فقلص، قال: ثمَّ أتيته بعد هذا فقلت: يا رسولَ الله! علِّمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله! فإنَّك غُلَيِّم معلَّمٌ» [أحمد (١/ ٣٧٩ و٤٦٢) وأبو يعلى (٤٩٨٥) والطيالسي (٣٥٣) والحلية (١/ ١٢٥)][1].

وهكذا كان مِفْتَاحُ إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه: «إنِّي مؤتمن»، والثانية: كانت من الصادق المصدوق، حيث قال له: «إنك غُلَيِّم معلَّم».

ولقد كان لهاتين الكلمتين دورٌ عظيمٌ في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضي الله عنهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهو يمخر بحار الشِّرك في قلعة الأصنام، فكان واحداً من أولئك السَّابقين؛ الَّذين مدحهم الله في قرآنه العظيم[2]، وقد قال عنه ابن حجر: «أحد السَّابقين الأوَّلين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، والمشاهد بعدها، ولازم النَّبيَّ ﷺ، وكان صاحب نعليه»[3].

أوَّل من جهر بالقرآن الكريم:

بالرَّغم من أنَّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان حليفاً، وليس له عشيرةٌ تحميه، ومع أنَّه كان ضئيل الجسم، دقيق السَّاقين، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته، وقوَّة نفسه رضي الله عنه وله مواقف رائعةٌ في ذلك؛ منها ذلك المشهد المثير في مكَّة، وإبَّان الدَّعوة، وشدَّة وطأة قريشٍ عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم، وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة، وقلوبهم المغلَّقة[4]، فكان أوَّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكَّة.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطُّ، فَمَنْ رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعودٍ: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنَّما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم؛ إن أرادوه! قال: دعوني؛ فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعودٍ حتَّى أتى المقام في الضُّحى؛ وقريشٌ في أنديتها؛ حتَّى قام عند المقام، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ رافعاً بها صوته ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قال: ثمَّ استقبلها يقرؤها، قال: فتأمَّلوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثمَّ قالوا:

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٣٢)، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٤٦٥).
(٢) انظر: عبد الله بن مسعود، لعبد الستار الشَّيخ، ص٤٣.
(٣) الإصابة (٦/ ٢١٤).
(٤) انظر: عبد الله بن مسعود، ص٤٥.

إنَّه ليتلو بعض ما جاء به محمَّدٌ! فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتَّى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثمَّ انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً! قالوا: لا! حسبُك، قد أسمعتهم ما يكرهون[١].

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أوَّل مَنْ جهر بالقرآن بمكَّة بعد رسول الله ﷺ، ولا غرو: أنَّ هذا العمل الَّذي قام به عبد الله يعتبر تحدِّياً عملياً لقريشٍ؛ التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التَّجربة على الرَّغم ممَّا أصابه من أذى[٢].

٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالدٍ قديماً؛ لرؤيا رآها عند أوَّل ظهور النَّبي ﷺ؛ إذ رأى كأنَّه وقف على شفير النَّار، وهناك مَنْ يدفعه فيها، والرَّسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقداً: أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ، فقصَّها على أبي بكرٍ الصِّدِّيق، فقال له: أُرِيدَ بك خيراً، هذا رسول الله ﷺ فاتَّبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه، لكنَّ أباه علم لمَّا رأى كثرة تغيُّبه عنه، فبعث إخوته الَّذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنَّبه، وضربه بمقرعةٍ، أو عصاً كانت في يده، حتى كسرها على رأسه، ثمَّ حبسه بمكَّة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذَّرهم من عمله، ثمَّ ضيق عليه الخناق؛ فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيَّام، وهو صابرٌ محتسبٌ، ثمَّ قال له أبوه: والله لأمنعنَّك القوت! فقال خالد: إن منعتني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه، ويكون معه، ثمَّ رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرَّة الثَّانية[٣].

٩ ـ عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه:

لمَّا أسلم عَدَا عليه قومُه بنو جمح، فآذوه، وكان أشدَّهم عليه وأكثرهم إيذاءً له أميةُ بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[٤]:

أأخْرَجْتَنِي مِنْ بطنِ مكَّةَ آثماً ... وأَسْكَنْتَنِي في صَرْحٍ بَيْضَاءَ تُقْذَعُ
تَرِيشُ نِبَالاً لاَ يُواتِيكَ رِيشُهَا ... وتَبْرِي نِبَالاً رِيشُهَا لَكَ أَجْمَعُ
وحَارَبْتَ أَقْواماً كِرَاماً أَعِزَّةً ... وأهْلَكْتَ أَقْوَاماً بِهِمْ كُنْتَ تَفْزَعُ
سَتَعْلَمُ إنْ نَابَتْكَ يَوْماً مُلِمَّةٌ ... وأَسْلَمَكَ الأَوْبَاشُ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّي، ص ٨٨.
(٣) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٦٠).
(٤) السِّيرة النَّبوية، للذَّهبيِّ، ص ١١٢.

وبقي عثمان بن مظعون فترةً في الحبشة، لكنَّه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرَّة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكَّة إلا بجوارٍ من الوليد بن المغيرة، حيث ظلَّ يغدو في جواره آمناً مطمئناً، فلمَّا رأى ما يصيب أصحاب النَّبيِّ ﷺ من البلاء، وما هو فيه من العافية، أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله! إنَّ غُدوِّي، ورَواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشِّرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي[١]، فذهب إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمَّتك، وقد ردَدت إليك جوارك! فقال: لِمَ يابن أخي؟ فلعلَّك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا! ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ عليَّ جواري علانيةً، كما أجرتك علانيةً، فانطلقا إلى المسجد فردَّ عليه جواره أمام النَّاس، ثمَّ انصرف عثمان إلى مجلسٍ من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة[٢] الشَّاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ». فقال عثمان: صدقت، واستمرَّ لبيد في إنشاده، فقال: «وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل»، فقال: عثمان: كذبت، نعيم الجنَّة لا يزول! قال لبيد: يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله، فردَّ عليه عثمان حتَّى شَرِيَ[٣] أمرُهما، فقام إليه ذلك الرَّجل، فلطم عينه فاخْضرَّت، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يابن أخي! إن عينك لغنيةٌ عمَّا أصابها، ولقد كنت في ذمَّةٍ منيعةٍ، فقال عثمان: والله! إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنِّي لفي جوار من هو أعزُّ منك، وأقدر يا أبا عبد شمس! ثمَّ عرض عليه الوليد الجوار مرَّةً أخرى، فرفض[٤].

وهذا يدلُّ على مدى قوَّة إيمانه رضي الله عنه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله؛ ولذلك لمَّا مات، رأت أمُّ العلاء الأنصاريَّة ـ وكان عثمان ممَّن وقع في سهمها عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين ـ في المنام: أنَّ له عيناً تجري، فجاءت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذلك عملُه» [البخاري (٧٠٠٤)].

وغير هؤلاء من الصَّحابة الكرام تعرَّض للتَّعذيب، وهكذا نرى أولئك الرَّهط من الشَّباب القرشيِّ، قد أقبلوا على دعوة الرَّسول ﷺ، واستجابوا لها، والتفُّوا حول صاحبها؛ على الرَّغم من مواقف آبائهم، وذويهم، وأقربائهم المتشدِّدة تجاههم، فضحُّوا بكل ما كانوا يتمتَّعون به

(١) السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: طبقات الشُّعراء، لابن سلام، (ص ٤٨، ٤٩).
(٣) شَرِيَ: عظم.
(٤) السِّير والمغازي، لابن إسحاق، (ص ١٧٨ ـ ١٨٠).

من امتيازاتٍ قبل دخولهم في الإسلام، وتعرَّضوا للفتنة؛ رغبةً فيما عند الله تعالى من الأجر، والثَّواب، وتحمَّلوا أذىً كثيراً، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها، فتستهين بكلِّ ما يصيبها من عنتٍ، وحرمانٍ؛ إذا كان ذلك يؤدِّي إلى الفوز برضا الله تعالى، وجنَّته.

هذا، ولم يكن التَّعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنَّما طال النِّساء أيضاً قسطٌ كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنَّ، كسميَّة بنت خياط، وفاطمة بنت الخطَّاب، ولبيبة جارية بني المؤمّل، وزِنِّيرة الرُّوميَّة، والنَّهْدية، وابنتها، وأمِّ عُبَيْسٍ، وحمامةَ أمِّ بلال، وغيرهنَّ[١].

خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ ﷺ بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدِّفاع عن أنفسهم، ويبدو: أنَّ الموقف السِّلمي أغاظ بعضهم، وخاصَّةً الشَّباب منه، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابُه رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ ﷺ بمكَّة، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزَّةٍ ونحن مشركون، فلمَّا آمنَّا؛ صرنا أذلَّةً! قال: «إنِّي أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم» [(النسائي (٦/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١) والحاكم (٢/٦٦ ـ ٦٧ و٣٠٧)][٢].

وتعرَّض بعض الباحثين للحكمة الرَّبَّانيَّة في عدم فرضية القتال في مكَّة، ومن هؤلاء الأستاذ سيِّد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال: لا نجزم بما نتوصَّل إليه؛ لأنَّنا حينئذٍ نتألَّى على الله ما لم يبيِّن لنا من حكمةٍ، ونفرض أسباباً، وعللاً قد لا تكون هي الأسباب، والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك: أنَّ شأن المؤمن أمام أيِّ تكليفٍ، أو أيِّ حكمٍ من أحكام الشَّريعة هو التَّسليم المطلق؛ لأنَّ الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنَّما نقول هذه الحكم، والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنَّه مجرَّد احتمال؛ لأنَّه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحدِّدها هو لنا، ويطلعنا عليها بنصٍّ صريح[٣]، ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجازٍ:

١ ـ أنَّ الكفَّ عن القتال في مكَّة ربما لأنَّ الفترة المكِّيَّة كانت فترة تربيةٍ، وإعدادٍ، في بيئةٍ معيَّنةٍ، لقومٍ معيَّنين، وسط ظروفٍ معيَّنةٍ، ومن أهداف التَّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيِّ على الصَّبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضَّيم حين يقع عليه، أو على من يلوذون

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، (ص ١١٦، ١١٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
(٣) الظلال (٢/٧١٤).

به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرَّد من ذاته، فلا يندفع لأوَّل مؤثِّر، ولا يهيج لأوَّل مهيجٍ؛ ومن ثمَّ يتمُّ الاعتدال في طبيعته، وحركته، ثمَّ تربيته على أن يتَّبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرَّف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصيَّة العربيِّ المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدَّعوة السِّلميَّة أشدُّ أثراً وأنفذُ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهيَّة والشَّرف، والَّتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد، ونشأة ثاراتٍ دمويةٍ جديدةٍ، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس، والغبراء، وحرب البسوس، وحينئذٍ يتحوَّل الإسلام من دعوةٍ، إلى ثاراتٍ تُنسى معها فكرتُه الأساسيَّة.

٣ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلِّ بيت، فلم تكن هناك سلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ هي التي تعذِّب المؤمنين، وإنَّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كلِّ فردٍ، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركةٌ، ومقتلةٌ في كلِّ بيتٍ، ثمَّ يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتَّى والإسلام يأمر بالكفِّ عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم: أنَّ محمداً يفرِّق بين الوالد، وولده، فوق تفريقه لقومه، وعشيرته؛ فكيف لو كان يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟!

٤ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين، الَّذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذِّبونهم، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطَّاب من بين هؤلاء؟!

٥ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ النَّخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ، من عادتها أن تثور للمظلوم الَّذي يتحمَّل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصَّةٍ إذا كان الأذى واقعاً على كرام النَّاس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرةٌ تثبت صحَّة هذه النَّظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغنَّة[1] لم يرضَ أن يترك أبا بكر ـ وهو رجلٌ كريم ـ يهاجرُ ويخرج من مكَّة ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره، وحمايته، وآخر هذه الظَّواهر، نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شِعْب أبي طالب.

٦ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً لقلَّة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكَّة؛ حيث لم تبلغ الدَّعوة إلى بقيَّة الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصورةٍ متناثرةٍ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف؛ ففي مثل

---

(١) ابن الدُّغنَّة: رجلٌ جاهليٌّ أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه، وأراد الهجرة إلى الحبشة، انظر: الإصابة (٢/ ٣٤٤).

هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتَّى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشِّرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظامٌ، ولا يوجد له كيانٌ واقعيٌّ، وهو دينٌ جاء ليكون منهج حياةٍ ونظام دنيا وآخرة.

٧ ـ أنَّه لم تكن هناك ضرورةٌ قاهرةٌ ملحَّةٌ لتجاوز هذه الاعتبارات كلِّها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأنَّ الأمر الأساسيَّ في هذه الدَّعوة كان قائماً، ومحقَّقاً، وهو (وجود الدَّعوة)، ووجودها في شخص الدَّاعية محمَّد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتدُّ إليه يدٌ إلا وهي مهدَّدة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغ الدَّعوة، وإعلانها في ندوات قريشٍ حول الكعبة، ومِنْ فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامَّة، ولا يجرؤ أحدٌ على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إنَّ هذه الاعتبارات كلَّها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمةُ الله معه أن يأمر المسلمين بكفِّ أيديهم، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة؛ لتتمَّ تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب، وليُخرجوا أنفسهم من المسألة كلِّها، فلا يكون لذواتهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً، وفي سبيل الله[١].

وقد تعلَّم الصَّحابة من القرآن الكريم فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التَّعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهكذا تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ المصلحة إنْ أدَّت إلى مفسدةٍ أعظمَ؛ تُتْرَكُ[٢]، وفي هذا تهذيبٌ أخلاقيٌّ، وسموٌّ إيمانيٌّ، وترفُّعٌ عن مجاراة السُّفهاء الَّذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء: أنَّ الحكم باقٍ في الأمَّة على كلِّ حالٍ، فمتى كان الكافر في منعةٍ، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيفة أن يُسبَّ الإسلامُ، أو النَّبيُّ ﷺ أو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يسبَّ صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا أن يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنَّه فعلٌ بمنزلة التَّحريض على المعصية، وهذا نوعٌ من الموادعة، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدِّ الذَّرائع[٣].

والنَّاظر في الفترة المكِّيَّة ـ والَّتي كانت ثلاثة عشر عاماً، كلُّها في تربيةٍ، وإعدادٍ وغرسٍ لمفاهيم (لا إله إلا الله) ـ يدرك ما لأهمِّيَّة هذه العقيدة من شأنٍ في عدم الاستعجال واستباق

---

(١) الولاء والبراء، لمحمَّد القحطاني، لخَّص نقاطاً من الظلال، ص ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤، ٧١٥)، وفي (معالم في الطَّريق) (ص ٦٩ ـ ٧١).

(٢) انظر: التفسير المنير، للزُّحَيلي (٧/ ٣٢٥).

(٣) المصدر السَّابق نفسه، (٧/ ٣٢٦).

الزَّمن، فالعقيدة بحاجةٍ إلى غرسٍ يُتَعَهَّد بالرِّعاية، والعناية، والمداومة؛ بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيبٌ، وما أجدرَ الدُّعاةَ إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقفةً طويلةً، فيأخذوا منها العبرة والأسوة؛ لأنَّه لا يقف في وجه الجاهليَّة ـ أيّاً كانت قديمةً، أو حديثةً، أو مستقبلةً ـ إلا رجالٌ اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الرَّبَّانيَّة، وتعمَّقت جذور شجرة التَّوحيد في نفوسهم(١).

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر، وكان يربِّي أصحابه على عينه، ويوجِّههم نحو توثيق الصِّلة بالله، والتَّقرُّب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكِّيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]، فقد أرشدت سورة المزمِّل الصَّحابة إلى حاجة الدُّعاة إلى قيام الليل، والدَّوام على الذِّكر، والتَّوكُّل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصَّبر، ومع الصَّبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصَّالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزَّمِّل، تأمر النَّبيَّ ﷺ أن يخصِّص شطراً من اللَّيل للصَّلاة، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصَّلاة نصف اللَّيل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النَّبيُّ ﷺ، وأصحابُه معه قريباً من عامٍ، حتَّى ورمت أقدامهم، فنزل التَّخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربُّهم، فخفَّف عنهم، فقال: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفُرُشِ، ومقاومة النَّوم، ومألوفات النَّفس؛ لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة، والتَّوجيه في عالمهم؛ إذ لابدَّ من إعدادٍ روحيٍّ عالٍ لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتَّخذ منهم شهداء على النَّاس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التَّاريخية، كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة النَّاس إلى التَّوحيد، وتخليصهم من الشِّرك، وهي مهمَّةٌ عظيمةٌ يقدر على تنفيذها أولئك الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

وقد وصف الله قيام اللَّيل، والصَّلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلاً ـ أي: مع البيان والتُّؤدة ـ بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ فهو أثبت أثراً في النَّفس مع سكون اللَّيل، وهدأة

---

(١) انظر: الولاء والبراء، ص ١٧١.

الخلق، حيث تخلو من شواغلها، وتفرغ للذِّكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدُّنيا، وشواغل النَّهار، وبذلك يتحقَّق الاستعداد اللازم لتلقِّي الوحي الإلٰهيِّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ والقول الثَّقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدَّقيق للمسلمين الأوائل، في قدرتهم على تحمُّل أعباء الجهاد وإنشاء الدَّولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا النَّاس، ونشره بين العالمين[١].

لقد كان النَّبيُّ ﷺ مهتمّاً بجبهته الدَّاخلية، وحريصاً على تعبئة أصحابه بالعقيدة القويَّة، التي لا تتزعزع، ولا تلين، وكان هذا مبعثاً لروح معنويَّةٍ مرتفعةٍ، وقويَّةٍ للدِّفاع وتحمُّل العذاب والأذى في سبيل الدَّعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وَحْدَةً متماسكةً، لا تؤثِّر فيها حملات العدوِّ النَّفسيَّة، ولا تجد لها مكاناً في هذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوَّة في الله تزيد على رابطة الدَّم، والنَّسب، وتفضلها في الدِّين الإسلاميِّ.

وتعايش الرَّعيل الأوَّل بمعاني الأخوَّة الرَّفيعة، القائمة على الحبِّ، والمودَّة، والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحثُّ المسلمين على الأخوَّة، والتَّرابط، والتَّعاون وتفريج الكرب، لا لشيءٍ إلا لرضا الله سبحانه، لا نظير خدمةٍ مقابلةٍ، أو نحو ذلك، وإنَّما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادىء هي سرُّ استمرار الأخوَّة الإسلاميَّة، وتماسك المجتمع الإسلاميِّ[٢]، وبيَّن لهم الرَّسول ﷺ في الحديث القدسيِّ؛ الذي يرويه عن ربِّه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النَّبيُّون والشُّهداء» [الترمذي (٢٣٩٠) وأحمد (٥/ ٢٣٩)].

وهكذا أصبحت الأخوَّة الصَّادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبَّة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدَّرجات عند الله، وحذَّر الرَّسول ﷺ المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرَّابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» [البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)].

واستعان النَّبيُّ ﷺ في ربط المجتمع الدَّاخليِّ، وتوحيد جبهته؛ لتكون قويَّة في مواجهة الحرب النَّفسيَّة الموجَّهة ضدَّها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة، وإعطائهم الحرِّيَّة، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرِّيَّة، ثمَّ كانت لهم في داخله حرِّيَّة الرأي وحرِّيَّة التعبير،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٦٠).

(٢) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٢٨.

والمشورة ، فقد أتى محمَّدٌ ﷺ بمبدأ المساواة بين جميع النَّاس ، الحاكم والمحكوم ، والغنيُّ والفقير ، وبين جميع الطَّبقات ، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النَّبيِّ ﷺ ، وجعلهم يتحابُّون ويتماسكون ، ويفتدون بأرواحهم ، ويدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ وعزيمةٍ؛ فهو ﷺ لم يقرَّ تفاوتاً بين البشر بسبب مولدٍ ، أو أصلٍ ، أو حسبٍ أو نسبٍ ، أو وراثةٍ ، أو لونٍ ، والاختلاف في الأنساب والأجناس ، والألوان لا يؤدِّي إلى اختلافٍ في الحقوق ، والواجبات أو العبادات؛ فالكلُّ أمام الله سواسيةٌ ، وعندما طلب أشراف مكَّة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس العبيد والضُّعفاء ، حتَّى لا يضمَّهم وإيَّاهم مجلسٌ واحد؛ بيَّن الرَّسول ﷺ أنَّ جميع النَّاس متساوون في تلقِّي الوحي ، والهداية.

ورفض كفَّار مكَّة ، وساداتُها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد ، ومَنْ يعتبرونهم ضعفاء أذلأَّء من أتباع محمَّدٍ ﷺ ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ـ٥٣] ، بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا أعرض عن ابن أمِّ مكتوم الأعمى ، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف؛ عاتبه الله أشدَّ العتاب ، كما في الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١ـ١٢].

وكان من أكبر أساليب النَّبيِّ ﷺ في ربطه المجتمع الإسلاميَّ ، وتوحيده ، وتقويته للجبهة الدَّاخلية ، وجعلها قويَّة البنيان متماسكةً ما دعا إليه ﷺ من التَّكافل المادِّيِّ والمعنويِّ بين المسلمين؛ ليعين منهم القويُّ الضَّعيف ، وليعطف الغنيُّ على الفقير ، ولم يترك ﷺ ثغرةً واحدةً تنفذ منها الحرب النفسيَّة إلى هذا الصَّفِّ الإسلاميِّ الأوَّل ، وأصبحت الجماعة الأولى صخرةً عظيمةً تحطَّمت عليها كلُّ الجهود والخطط؛ الَّتي بذلها زعماء مكَّة للقضاء على الدَّعوة[(١)].

سادساً: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصَّحابة:

كان للقرآن الكريم أثرٌ عظيم في شدِّ أزر المؤمنين من جانبٍ ، وتوعُّده الكفار بالعذاب من جانبٍ آخر ، ممَّا كان له وقع القنابل على نفوسهم ، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة يتمثَّل في نقطتين:

---

(١) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، (ص ١٢٥ ـ ١٤٠).

الأولى: حثُّ الرَّسول ﷺ على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف الَّتي ترك فيها بعض الصَّحابة؛ لانشغاله بأمر الدَّعوة أيضاً.

الثانية: التَّخفيف عن الصَّحابة، بضرب الأمثلة والقصص لهم، من الأمم السَّابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا مِنْ قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا، ويستخفُّوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرُّفاتهم، ثمَّ بوعدهم بالثَّواب، والنَّعيم المقيم في الجنَّة، وكذلك بالتَّنديد بأعدائهم الَّذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى(١).

أما النُّقطة الأولى: حينما كان النَّبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه؛ مثل: خبَّاب، وعمَّار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أميَّة، وصهيب، وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، ويقول بعضهم لبعضٍ: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثمَّ يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحقِّ، لو كان ما جاء به محمَّدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصَّهم الله به دوننا(٢).

وردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على استهزاء هؤلاء الكفَّار، مبيِّناً لهم: أنَّ رضا الله على عباده، لا يتوقَّف على منزلتهم، ولا مكانتهم بين النَّاس في الدنيا، كما يؤكِّد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتَّى لا يتأثَّر بما يقوله الكفَّار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصَّحابة، ومبيِّناً له أيضاً مكانتهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤].

وهكذا بيَّن الله لرسوله ﷺ شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم، ومنزلتهم الَّتي يجهلها، أو يتجاهلها الكفَّار، ويحاولون أن ينالوا منها؛ بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرَّسولَ ﷺ عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيَّتهم، ويأمره أيضاً أن يبشِّرهم بأنَّ الله سبحانه قد وعدهم بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الرُّوح المعنويَّة لهؤلاء؟! وكيف يجدون الأذى من الكفَّار بعد ذلك؟! إنَّهم سيفرحون بهذا الأذى؛ الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة(٣).

---

(١) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، ص ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧٠، ٢٧١.
(٣) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، ص ٢٧٠، ٢٧١.

ثمَّ نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آياتٍ تتلى إلى يوم القيامة ، وكان هذا العتاب في شأن رجلٍ فقير أعمى من الصَّحابة ، أعرض عنه الرَّسول ﷺ مرَّةً واحدةً ، ولم يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكَّة[١] .

قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ١ ـ ١٠] .

إنَّه لا مجال للامتيازات في دعوة الحقِّ ، بسبب الحسب ، والنَّسب ، أو المال والجاه ، فهي إنَّما جاءت لتأصيل النَّظرة إلى الإنسان ، وبيان وحدة الأصل ، وما تقتضيه من المساواة ، والتكافؤ ، ومن هنا يمكن تعليل شدَّة أسلوب العتاب الَّذي وجَّهه الله تعالى لرسوله ﷺ ، للاهتمام الكبير الَّذي أظهره لأُبيِّ بن خلف ، على حساب استقباله لابن أمِّ مكتوم الضعيف رضي الله عنه ، فابن أمِّ مكتوم يرجح في ميزان الحقِّ على البلايين من أمثال أُبيِّ بن خلف[٢] لعنه الله !

وكانت لهذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، استفاد منها الرَّعيل الأوَّل ومَنْ جاء بعدهم من المسلمين ، وَمِنْ أهمِّ هذه الدُّروس الإقبال على المؤمنين؛ فإنَّ على الدُّعاة البلاغ ، وليس عليهم الهداية ، ففي قصَّة الأعمى دليلٌ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ، فلو لم يكن نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ رسولَ الله ؛ لكتم هذه الحادثة ، ولم يخبر النَّاس بها ؛ لما فيها من عتابٍ له ﷺ ، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي ؛ لكتم هذه الآيات ، وآيات قصَّة زيدٍ ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما[٣] ، فعلى الدُّعاة تقديم أهل الخير ، والإيمان[٤] .

أما النقطة الثَّانية في دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة ، فقد كانت بالتَّخفيف عنهم ، وكان أهمَّ وسائل التَّخفيف إظهارُ : أنَّ هذا الأذى الَّذي يلقونه لم يكن فريداً من نوعه ؛ وإنَّما حدث قبل ذلك مثله ، وأشدُّ منه ، كان القصص الَّذي يتحدَّث عن حياة الرُّسل في القرآن الكريم من لدن نوحٍ ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ـ عليهم السَّلام ـ تثبيتاً للمسلمين ، ولروح التَّضحية ، والصَّبر فيهم من أجل الدِّين ، وبيَّن لهم القدوة الحسنة الَّتي كانت في العصور القديمة؛ فالقصص القرآنيُّ يحوي الكثير من العبر ، والحكم ، والأمثال .

---

(١) الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٧١ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٦٧) مع تصرُّف في العدد بدل مئة : بلايين .
(٣) تفسير ابن عطيَّة (١٥/ ٣١٦) ، والقاسمي (١٧/ ٥٤) .
(٤) انظر : المستفاد من قصص القرآن ، لعبد الكريم زيدان (٢/ ٨٩) .

كان أيضاً من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصَّحابة، والدِّفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرؤها النَّاس إلى أن يرث الله الأرض، ومَنْ عليها؛ كما حدث مع الصِّدِّيق لمَّا أعتق سبع رقابٍ من الصَّحابة؛ لينقذهم من الأذى، والتَّعذيب، وفي الوقت نفسه يندِّد بأميَّة بن خلف، الَّذي كان يعذِّب بلال بن أبي رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي قد قدَّم قواعد الثَّواب، والعقاب، وشجَّع المؤمنين، وحذَّر المخالفين، وحمل هذا الأسلوب مغزًى عميقاً، فقد أنار الطريق للصَّحابة، وكان غمَّةً وكرباً على نفوس الكفار المتردِّدين؛ إذ جاء قول الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١].

وكذلك خلَّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، برغم استهزاء الكفَّار، ومحاولاتهم لصدِّهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرِّخين[1]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

وكانت الآيات بعد ذلك تبشِّر الصَّحابة بالثَّواب العظيم، وبالنَّعيم المقيم في الجنَّة، جزاءً بما صبروا، وما تحمَّلوا من الأذى، وتشجيعاً لهم على الاستمرار في طريق الدَّعوة غير مبالين بما يسمعونه، وما يلاقونه، فالنَّصر، والغلبة لهم في النِّهاية، كما بيَّن لهم النَّبيُّ ﷺ في أحاديثه، وكما بيَّن لهم القرآن، كما بيَّن القرآن الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم، ككفَّار مكَّة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]، وبيَّن فضل تمسُّكهم بالقرآن وإيمانهم به. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

وبيَّن ـ سبحانه ـ فضل التَّمسُّك بعبادته برغم الأذى، والتعذيب، وبيَّن جزاء الصَّبر على ذلك، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٢/ ٤).

يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٩ ـ ١٠] .

وهكذا كان القرآن الكريم يخفِّف عن الصَّحابة ، ويدافع عنهم ، ويحصِّنهم ضدَّ الحرب النَّفسيَّة ، وبذلك لم تؤثِّر تلك الحملات ، ووسائل التَّعذيب على قلوب الصَّحابة بفضل المنهج القرآنيِّ ، والأساليب النَّبويَّة الحكيمة ، فلقد تحطَّمت كلُّ أساليب المشركين في محاربة الرَّسول ﷺ وأصحابه أمام العقيدة الصَّحيحة ، والمنهج السَّليم ؛ الَّذي تَشَرَّبهُ الرَّعيل الأوَّل .

سابعاً: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يوماً ، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسِّحر ، والكهانـة ، والشِّعر ، فليأت هذا الرَّجل الَّذي فرَّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا؛ فليكلِّمه ، ولينظر ماذا يـردُّ عليه ؟ فقالوا: ما نعلـم أحداً غير عتبـةَ بن ربيعة ، فقالوا: أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة ، فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ . قال: فإن كنت تزعم: أنَّ هؤلاء خيرٌ منك؛ فقد عبدوا الآلهة الَّتي عبت، وإن كنت تزعم: أنَّك خيرٌ منهم ، فتكلَّم؛ حتَّى نسمع قولك ، إنَّا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك! فرَّقت جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب؛ حتَّى لقد طار فيهم: أنَّ في قريش ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى! أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسُّيوف حتَّى نتفانى .

أيُّها الرَّجل! إن كان إنَّما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنَّمـا بك الباءة فاختر أيَّ نسـاء قريش شئت؛ فلنزوِّجك عشراً. فقال رسول الله ﷺ : «فرغت؟» قـال: نعم ! فقال رسول الله ﷺ : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] ، فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريشٍ ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنَّكم تكلِّمونه إلا كلَّمته ، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم[ابن هشام (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)][(١)] .

وفي روايـة ابن إسحاق: فلمَّا جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟! قال: ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ ! والله ما هو بالشعر ! ولا بالسِّحر ، ولا بالكهانة . . يا معشر قريش! أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيـه ، فاعتزلـوه ، فوالله ليكوننَّ لقولـه الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيم ، فإن تُصِبْـه العرب؛ فقد كُفيتموه

---

(١) البداية والنِّهاية ، لابن كثير (٣/ ٦٨ ـ ٦٩).

بغيركم، وإن يَظْهَر على العرب، فملكه مُلْككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ النَّاس به، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم[(١)].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ لم يدخل الرَّسول ﷺ في معركةٍ جانبيَّةٍ حول أفضليته على أبيه، وجدِّه، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقُضِيَ الأمرُ دون أن يسمع عتبة شيئاً.

٢ ـ لم يخضْ ﷺ معركة جانبيَّةً حول العُروض المغرية، وغضبه الشَّخصيِّ لهذا الاتِّهام؛ إنَّما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد، وترك عتبة يعرض كلَّ ما عنده، وبلغ من أدبه ﷺ أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟!» فقال: نعم[(٢)].

٣ ـ كان جواب رسول الله ﷺ حاسماً، وإنَّ اختياره لهذه الآيات لدليلٌ على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسيةً كان منها: أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من الله، وبيان موقف الكافرين، وإعراضهم، وبيان مهمَّة الرَّسول ﷺ، وأنَّه بشرٌ، وبيان: أنَّ الخالق واحدٌ هو الله، وأنَّه خالق السَّموات والأرض، وبيان تكذيب الأمم السَّابقة، وما أصابها، وإنذار قريشٍ صاعقةً مثل صاعقة عادٍ، وثمود[(٣)].

٤ ـ خطورة المال، والجاه، والنِّساء على الدُّعاة، فكم من الدُّعاة سقط في الطَّريق تحت بريق المال! وكم عُرِضت الآلاف من الأموال على الدُّعاة ليكفُّوا عن دعوتهم! والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنَّبيِّ ﷺ، وخطورة الجاه واضحةٌ؛ لأنَّ الشَّيطان في هذا المجال يزيِّن، ويغوي بطرقٍ أكبر، وأمكر، وأفجر، والدَّاعية الرَّبَّانيُّ هو الَّذي يتأسَّى برسول الله ﷺ في حركته، وأقواله، وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي يعيش ويموت من أجله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وأمَّا النِّساء؛ فقد قال ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساءِ» [البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)]، سواءٌ كانت زوجةً تثبِّط الهمَّة عن الدَّعوة، والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه لِيُسْقِطْنَه في شباكهنَّ، أو في تهيئة أجواء البغي، والإثم، والمجون ليرتادها، أيّاً كانت، فإنَّها فتنةٌ عظيمةٌ في الدِّين، فهاهي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها، يختار

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٢٩٤).

(٢) انظر: التَّحالف السِّياسي في الإسلام، لمنير الغضبان، ص ٣٣.

(٣) انظر: معين السِّيرة، للشَّامي، ص ٧٥.

عشراً منها ، أجملهنَّ وأحسنهنَّ يكنَّ زوجاتٍ له؛ إن أرادهنَّ. إنَّ خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشدُّ من خطر السَّيف المُصْلَت على الرِّقاب[1] ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بسيِّد الخلق ﷺ ، ويتذكَّروا دائماً قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

٥ ـ تأثُّر عتبة من موقف النَّبيِّ ﷺ ، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أنَّ أصحابه أقسموا على ذلك التَّأثير قبل أن يخبرهم ، فبعد أن كان العدوُّ ينوي القضاء على الدَّعوة ، إذا به يدعو لعكس ذلك ، فيطلب من قريش أن تخلِّيَ بين محمَّد ﷺ ، وما يريد[2].

٦ ـ استمع الصَّحابة لما حدث بين النَّبيِّ ﷺ ، وعتبة ، وكيف رفض حبيبهم ﷺ كلَّ عروضه المغرية ، فكان ذلك درساً تربوياً خالط أحشاءهم ، تعلَّموا منه الثَّبات على المبدأ ، والتَّمسُّك بالعقيدة ، ووضع المغريات تحت أقدامهم.

٧ ـ تعلَّم الصَّحابة من الرَّسول الكريم ﷺ الحلم ، ورحابة الصَّدر ، فقد استمع ﷺ إلى تُرَّهات عتبة بن ربيعة ، ونيله منه ، وقوله عنه: «إنَّ في قريشٍ ساحراً» و: «إنَّ في قريشٍ كاهناً» ، و: «ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك» ، و: «إن كان الذي يأتيك رَئيّاً من الجنِّ» ، فقد أعرض عنه ﷺ ، وأغضَّ عن هذا السِّباب ، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته ، وتبليغه إيَّاها لسيد بني عبد شمس ، فقد كانت كلُّ كلمةٍ تصدر من سيِّد الخلق ﷺ مبدأً يُحتذى ، وكلُّ تصرفٍ دِيناً يُتَّبع ، وكلُّ إغضاءٍ خُلُقاً يُتأسَّى به[3].

وذكرت بعض كتب السِّيرة: أنَّ قيادات مكَّة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله ﷺ ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشريَّة ، ممَّن أراد الدُّنيا وطمع في مغانمها ، إلا أنَّ رسول الله ﷺ اتَّخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل ، دون مراوغة ، أو مداهنةٍ ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسيٍّ ، أو محاولة وجود رابطة استعطافٍ ، أو استلطافٍ مع زعماء قريش[4]؛ لأنَّ قضية العقيدة تقوم على الوضوح ، والصَّراحة ، والبيان ، بعيدةً عن المداهنة ، والتَّنازل؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشَّرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٦٩.
(٢) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٧.
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٠٤).
(٤) انظر: الوفود في العهد المكي ، لعلي الأسطل ، ص ٣٧.

أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا، والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم» [ابن هشام (١/ ٣١٦)][(١)].

بهذا الموقف الإيمانيِّ الثَّابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضيَّةٌ من أخطر قضايا العقيدة الإسلاميَّة، وهي خلوص العقيدة من أيِّ شائبةٍ غريبةٍ عنها، سواءٌ في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها[(٢)].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾:

ولمَّا رأى المشركون صلابة المسلمين، واستمساكهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كلِّ باطلٍ؛ بدأت خطوط اليأس في نفوسهم؛ من أنَّ المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلةً أخرى من مهازلهم الدَّالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد! هلمَّ، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً ممَّا نعبد؛ كنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً ممَّا تعبد؛ كنت قد أخذت بحظِّك منه، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦][(٣)].

ومثل هذه السُّورة آياتٌ أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر، وأهله؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧].

ولقد بيَّنت سورة (الكافرون): أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ لا عوج فيه، ولا فجاج له، إنَّه العبادة الخالصة لله وحده ربِّ العالمين، فنزلت هذه السُّورة على الرَّسول ﷺ للمفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ، وعبادة، ومنهجٍ، ومنهج، وتصوُّرٍ، وتصور، وطريقٍ، وطريق. نعم نزلت نفياً بعد نفي، وجزماً بعد جزمٍ، وتوكيداً بعد توكيدٍ بأنَّه لا لقاء بين الحقِّ والباطل، ولا اجتماع بين

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ١٩٧)، والتَّربيَّة القياديَّة (١/ ٣٠٥).

(٢) تاريخ صدر الإسلام، لعبد الرحمن الشُّجاع، ص ٣٩.

(٣) ابن هشام (١/ ٣٦٢).

النُّور والظلام، فالاختلاف جوهريٌّ كاملٌ، يستحيل معه اللِّقاء على شيء في منتصف الطَّريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ، أو مراوغةٍ، نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيَّةً، ولا رغبةً عابرةً، ولاسُمّاً في عسلٍ، وليس «الدِّين لله، والوطن للجميع» كما تزعم الجاهليَّة المعاصرة، ويدَّعي المنافقون، والمستغربون الَّذين يتَّبعون الضَّالِّين، والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كلِّ مكان.

كان الردُّ حاسماً على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضياتٍ شخصيَّةً؛ فإنَّ الجاهليَّة جاهليَّةٌ، والإسلام إسلامٌ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والفارق بينهم كبير، كالفرق بين التِّبْرِ[1] والتُّراب، والسَّبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته، عبادةً وحكماً، وإلا فهي البراءة التَّامَّة، والمفاصلة الكاملة، والحسم الصَّريح بين الحقِّ، والباطل في كلِّ زمانٍ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

وجاء وفدٌ آخر بعد فشل الوفد السَّابق، يتكوَّن من: عبد الله بن أبي أميَّة، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفصٍ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ، والعاص بن عامرٍ[3]؛ جاء ليقدِّم عرضاً آخر للتَّنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النَّبيِّ ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمِّ آلهتهم، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وهذه الوفود، والمفاوضات تبيِّن مدى الفشل الَّذي أصاب زعماء قريشٍ في عدم حصولهم على التَّنازل الكلِّيِّ عن الإسلام، الأمر الَّذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيءٍ من التَّنازل، ويلاحظ: أنَّ التنازل الَّذي طلبوه في المرة الأولى أكبر ممَّا طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدلُّ على تدرُّجهم في التَّنازل من الأكبر إلى الأصغر؛ لعلَّهم يجدون آذاناً صاغيةً لدى قائد الدَّعوة، كما أنَّهم كانوا يغيِّرون الأشخاص المتفاوضين، فالَّذين تفاوضوا مع الرَّسول ﷺ في المرَّة الأولى، غير الَّذين تفاوضوا معه في المرَّة الثَّانية، ما خلا الوليد بن المغيرة؛ وذلك حتَّى لا تتكرَّر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضة، فربَّما أثَّر ذلك في نظرهم بعض الشَّيء، وفي هذا درسٌ للدُّعاة إلى يوم القيامة، ألا تنازل عن الإسلام ـ ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً ـ فالإسلام دعوةٌ ربَّانيَّة، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً، مهما كانت الأسباب، والدَّوافع، والمبررات، «وعلى الدُّعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض،

---

(١) التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهب أو الفضَّة قبل أن يُصاغا.
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩١) بتصرفٍ كبير.
(٣) أسباب النزول، للواحديِّ، ص ٢٠٠، ونور اليقين، للخضريِّ، ص ٦١ بتصرف.

والإغراءات المادِّيَّة ، الَّتي قد لا تُعرض بطريقٍ مباشرٍ ، فقد تأخذ شكلاً غير مباشرٍ ، في شكل وظائف عُليا ، أو عقود عملٍ مجزيةٍ ، أو صفقاتٍ تجاريَّةٍ مربحةٍ ، وهذا ما تخطِّط له المؤسَّسات العالميَّة المشبوهة ؛ لصرف الدُّعاة عن دعوتهم ، وبخاصَّةٍ القياديون منهم ، وهناك تعاونٌ تامٌّ في تبادل المعلومات ، بين هذه المؤسَّسات الَّتي تعمل من مواقع متعدِّدة لتدمير العالم الإسلامي»[1]

ولقد جاء في التَّقرير الَّذي قدَّمه «ريتشارد ب . ميشيل» ، أحد كبار العاملين في الشَّرق الأوسط ، لرصد الصَّحوة الإسلاميَّة ، وتقديم معلوماتٍ ، وتقارير عنها ، جاء في هذا التَّقرير ، وضع تصور لخطةٍ جديدةٍ يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلاميَّة ، فكان من بين فقرات هذا التَّقرير فقرةٌ خاصَّةٌ بإغراء قيادات الدَّعوة ، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي :

١ ـ تعيين مَنْ يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا ؛ حيث يتمُّ شغلهم بالمشروعات الإسلاميَّة فارغة المضمون ، وغيرها من الأعمال الَّتي تستنفد جهدهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيّاً وماديّاً ، وتقديم تسهيلاتٍ كبيرةٍ لذويهم ، وبذلك يتمُّ استهلاكهم محليّاً ، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيريَّة .

٢ ـ العمل على جذب ذوي الميول التِّجاريَّة والاقتصاديَّة ، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة ، الَّتي تقام في المنطقة العربيَّة لصالح أعدائها .

٣ ـ العمل على إيجاد فرص عملٍ ، وعقودٍ مجزيةٍ في البلاد العربيَّة الغنيَّة ، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى بُعدهم عن النَّشاط الإسلاميِّ[2] .

فالمتدبِّر في النُّقاط الثلاث السَّابقة ، يلاحظ : أنَّها إغراءاتٌ مادِّيَّةٌ غير مباشرةٍ ، وبنظرةٍ فاحصةٍ للعالم الإسلاميِّ اليوم نلاحظ : أن هذه النُّقاط تنفَّذ بكلِّ هدوء ، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدُّعاة ، واستهلكت بعض الدُّول العربيَّة الغنية جمّاً غفيراً من الدُّعاة ، وألهت التِّجارة بعضهم[3] .

ثامناً : أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز :

كان النَّبيُّ ﷺ قد أقام الحجج ، والبراهين ، والأدلَّة على صحَّة دعوته ، وكان ﷺ يتقن اختيار الأوقات ، وانتهاز الفرص والمناسبات ، ويتصدَّى للردِّ على الشُّبهات مهما كان نوعها ، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرةً ، استنبطها من كتاب الله تعالى في

---

(١) في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩ .
(٢) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٩١ .

إقامة الحجَّة العقليَّة، واستخدام الأقيسة المنطقيَّة، واستحضار التَّفكير، والتأمُّل، ومن الأساليب الَّتي استخدمها ﷺ مع كفَّار مكَّة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب التَّرغيب فيه، والآخر هو الشَّرُّ المطلوب التَّرهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكُّر في كلا الأمرين، وعاقبتهما، ثمَّ الوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير، واتِّباعه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن كثيرٌ في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له، ووفَّقه لاتِّباع رسله»[1].

٢ ـ أسلوب التَّقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقليَّة إلى الإقرار بالمطلوب، الَّذي هو مضمون الدَّعوة، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الرُّبوبية، وتوحيد الألوهيَّة، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أُوجِدُوا من غير مُوجِدٍ؟ أم هم أوْجَدُوا أنفسهم؟ أي: لا هذا، ولا هذا؛ بل الله هو الَّذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[2].

وهذه الآية في غاية القوَّة من حيث الحجَّة العقليَّة؛ لأنَّ «وجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ، أو قليل، أمَّا أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم؛ فأمرٌ لم يدَّعوه، ولا يدَّعيه مخلوقٌ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة؛ فإنَّه لا يبقى سوى الحقيقة الَّتي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).

الَّذي لا يشاركه أحدٌ»(١) والتَّعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرَّر بداهةً في العقل.

وتأمَّلْ هذا الإلزام بالإقرار بربوبيَّة الله وألوهيته، فيما ذكره السَّعديُّ في تفسيره، حيث قال: «وهذا استدلالٌ عليهم، بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التَّسليم للحقِّ، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين، وبيان ذلك: أنَّهم منكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله ﷺ، وذلك مُستَلزمٌ لإنكار: أنَّ الله خلقهم، وقد تقرَّر في العقل مع الشَّرع: أنَّ ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمورٍ: إمَّا أنَّهم خلقوا من غير شيءٍ، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجادٍ، ولا موجد، وهذا عين المُحال، أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يُتصوَّر أن يوجد أحدٌ نفسه، فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعيَّن القسم الثَّالث، وهو أنَّ الله هو الَّذي خلقهم، وإذا تعيَّن ذلك عُلم: أنَّ الله هو المعبود وحده، الَّذي لا تنبغي العبادة، ولا تصلح إلا له تعالى»(٢).

٣ ـ أسلوب الإمرار، والإبطال:

وهو أسلوبٌ قويٌّ في إفحام المعاندين أصحاب الغرور، والصَّلَف(٣) بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة؛ منعاً للجدل، والنِّزاع، خلوصاً إلى حجَّةٍ قاطعةٍ تدمغهم، وتبطل بها حجَّتهم تلك، فتبطل الأولى بالتَّبع، وفي قصَّة موسى ـ عليه السَّلام ـ مع فرعون، نموذجٌ مطوَّلٌ لهذا الأسلوب؛ حيث أعرض موسى عن كلِّ اعتراضٍ وشبهةٍ أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجَّة العقليَّة الظَّاهرة على ربوبيَّة الله، وألوهيَّته(٤)، وذلك في الآيات من سورة الشُّعراء، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرآنيَّة الكريمة، هي الرَّكيزة، في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولمَّا احتار المشركون في أمر الرَّسول ﷺ، ولم يكونوا على استعدادٍ في تصديقه: أنَّه رسولٌ من عند الله، ليس لأنَّهم يكذِّبونه، وإنَّما عناداً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، هداهم

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

(٢) تفسير السَّعدي (٧/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) الصَّلفَ: التَّكبُّر والتَّفاخر.

(٤) انظر: مقومات الدَّاعية النَّاجح، د. علي بادحدح، ص ٥٩ إلى ٦٩، والأساليب السَّابقة من هذا الكتاب.

تفكيرُهم المعوجُّ إلى أن يطلبوا من الرَّسول ﷺ مطالب ليس الغرض منها التَّأكد من صدق النَّبيِّ ﷺ ولكن غرضهم منها التعنُّت والتَّعجيز، وهذا ما طلبوه من الرَّسول ﷺ:

١ ـ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً؛ أي: يُجري لهم الماء عيوناً جاريةً.

٢ ـ أو تكون له جنَّة من نخيلٍ وعنبٍ يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أي: تكون له حديقة فيها النَّخل والعنب، والأنهار تُفَجَّرُ بداخلها.

٣ ـ أو يسقط السَّماء كسفاً عليهم؛ أي: يسقط السَّماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.

٤ ـ أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

٥ ـ أو يكون له بيتٌ من زُخْرُفٍ؛ أي: ذهب.

٦ ـ أو يرقى في السَّماء؛ أي: يتَّخذ سُلَّماً يرتقي عليه، ويصعد إلى السَّماء.

٧ ـ وينزِّل كتاباً من السَّماء يقرؤونه، يقول مجاهد: أي: مكتوبٌ فيه إلى كلِّ واحدٍ صحيفةٌ، هذا كتابٌ من الله لفلان بن فلانٍ، تصبح موضوعةً عند رأسه[١].

٨ ـ طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم، فيُسَيِّر لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى[٢].

إنَّ عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطَّةٌ متَّبعةٌ على مدى تاريخ البشريَّة الطَّويل، وبرغم حرص النَّبيِّ ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك، إلا أنَّه رفض طلبهم هذا؛ لأنَّه علم من آيات القرآن: أنَّهم إن لم يؤمنوا بعد إجابتهم لما طلبوا؛ عُذِّبُوا عذاباً شديداً، وكانت إجابته ﷺ: «ما بهذا بعثت إليكم، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبرُ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم» [سبق تخريجه][٣].

وانصرف رسولُ الله ﷺ إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته، ممَّا طمع فيه من قومه حين دعوه، ولمَّا رأى من مباعدتهم إيَّاه[٤]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنُّتات، والردَّ عليها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

---

(١) انظر: المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة، د. سميرة محمد، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣١١).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٤٥٩).

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣١٧).

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٦].

ونزل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ[1] بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

إنَّ الحكمة في أنَّهم لم يُجابوا لما طلبوا: أنَّهم لم يسألوا مسترشدين وجادِّين، وإنَّما سألوا متعنِّتين، ومستهزئين، وقد علم الحقُّ سبحانه: أنَّهم لو عاينوا، وشاهدوا ما طلبوا، لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلُّوا في غيِّهم وضلالهم يتردَّدون، قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلٰهيَّة، والرَّحمة الرَّبَّانيَّة، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنَّ سنَّته سبحانه: أنَّه إذا طلب قومٌ آياتٍ، فأجيبوا، ثمَّ لم يؤمنوا؛ عذَّبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعادٍ، وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدلَّ على أنَّ القوم كانوا متعنِّتين، وساخرين، ومعوِّقين لا جادِّين، من أنَّ عندهم القرآن، وهو آيةُ الآيات، وبيِّنةُ البيِّنات؛ ولذلك لمَّا سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات، وغيرها؛ ردَّ عليهم سبحانه[2] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢].

وقد ذكر عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه روايةً، مفادها: أنَّ قريشاً قالت للنَّبيِّ ﷺ ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا؛ فأتاه

---

(١) يعني لو أنَّ هناك قرآناً بهذه الصِّفات أو هذه الشُّروط؛ لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثيلٌ، لا من قبل، ولا من بعد، فجواب (لو) محذوفٌ، دلَّ عليه المقام.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣٢٠، ٣٢١).

جبريل، فقال: إنَّ ربك - عزَّ وجلَّ - يقرأ عليك السَّلام، ويقول: إن شئت؛ أصبح لهم الصَّفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحت لهم أبواب التَّوبة، والرَّحمة، فقال: بل باب التَّوبة، والرَّحمة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩] [الحاكم (١/ ٥٣) و(٤/ ٢٤٠) والبزار (٢٢٢٤) والبيهقي (٧/ ٥٠)][1].

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شنُّ حربٍ إعلاميَّةٍ ضدَّ الدَّعوة، والدَّاعية، وتآمراً على الحقِّ؛ كي تبتعد القبائل العربيَّة عنه ﷺ؛ لأنَّهم يطالبونه بأمورٍ يدركون: أنَّها ليست طبيعة هذه الدَّعوة، ولهذا أصرُّوا عليها، بل لقد صرَّحوا بأن لو تحقَّق شيءٌ من ذلك، فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدَّعوة، وهذا كلُّه محاولةٌ منهم لإظهار عجز الرَّسول ﷺ، واتِّخاذ ذلك ذريعةً لمنع النَّاس عن اتِّباعه[2].

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيِّ، واستعانة مشركي مكَّة بهم:

تحدَّث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سورٍ كثيرةٍ، بلغت خمسين سورةً في المرحلة المكِّيَّة، وفي المرحلة المدنيَّة كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة رسول الله ﷺ، ولم تحظَ مِلَّةٌ من الملل، ولا قومٌ من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشُّمول، وهذه التَّفصيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتَّسم بمنهجٍ دقيقٍ يتناسب مع المراحل الدَّعوية الَّتي مرَّت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أنَّ غفلة المشركين عن الحقِّ، الَّذي جاء به رسول الله ﷺ، وعدم اكتراثهم به، وبدعوته له نماذج بشريَّةٌ تقدَّمتهم؛ مثل: عادٍ، وثمودٍ، وفرعون، وبني إسرائيل، وقوم تُبَّعٍ، وأصحاب الرَّس[3].

اقرأ معي تلك الإشارات، في قوله تعالى في سورة المزمَّل - وهي السُّورة الثَّالثة في ترتيب النُّزول -[4]: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٩].

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى، وهي السُّورة الثَّامنة في ترتيب النُّزول، فبعد أن ذكرت

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٩٠.
(٢) انظر: الوفود في العهد المكي، ص ٤٠ - ٥١.
(٣) معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، لمصطفى مسلم، ص ٣٠، ٣١.
(٤) المصدر السابق نفسه.

بعض الصِّفات الجليلة لله جلَّ جلاله، وما أسبغ به من النِّعم الدُّنيويَّة والأخرويَّة على عباده، وذكر طريق الفلاح في الدُّنيا وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، ختمت السُّورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩].

وفي سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

وجاء في سورة النَّجم ذِكْرُ بني إسرائيل، كنماذج بشريَّة تعرَّضت للفتنة، والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء، ومنهم من صمد، ونجح في الابتلاء.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٤٢].

إنَّ تلك المبادئ مقرَّرةٌ في صحف موسى ـ عليه السَّلام ـ المرسل إلى بني إسرائيل، فليرجعوا إليها إن كانوا في شكٍّ من أمر محمَّد ﷺ، وكذلك في صحف إبراهيم، وهم «أي: قريش» يزعمون أنَّهم ينتمون إليه، ويعظِّمون شرائعه؛ الَّتي توارثوها، كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة، وخدمة الحجيج[1].

وفي سورة (ص، ويس، ومريم، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وما أصابهم من الفتنة والابتلاء، وكيف أوذوا فصبروا، وبيان سنَّة الله تعالى في أولئك المتحزِّبين المناهضين لدعوة الحقِّ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١١ ـ ١٧].

إنَّها إشارةٌ ذات دلالةٍ تربويَّةٍ لأصحاب النَّبيِّ ﷺ مأخوذةٌ من سيرة هؤلاء الأقوام؛ الَّذين

(١) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ص ٣١٦.

تحزَّبوا ضدَّ دعوة الحقِّ؛ لقد كذَّبوا أنبياءهم، فحقَّ عليهم كلمة العذاب، وانتصر أهل الحقِّ عليهم.

لم يسلم أحدٌ من الأنبياء من إيذاء الأقوام، مهما كانت مكانتهم، وعزَّتهم في مجتمعاتهم، فلئن كان نوحٌ، وهودٌ، وموسى، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ من عامَّة النَّاس، فما قولك في داود صاحب القوَّة، والسُّلطة، والملك، الَّذي كانت معجزاته بارزةٌ للعيان من تسبيح الجبال معه، وحَشْرِ الطُّيور لسماع مزاميره، وتلاوته؟ ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دوَّنوا في كتبهم عن سيرته؟ إنَّهم لم يتركوا نقيصةً إلا ألصقوها فيه، وهو النَّبيُّ العابد الأوَّاب، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول ـ عليها وعلى ابنها السَّلام ـ وقد أورد القرآن الكريم حملها، وولادتها، والخوارق الَّتي حصلت لهما؛ حيث جعلها وابنها آيةً للعالمين: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم، وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التَّوراة، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحقِّ ما يدلُّ على ضلالها، وجهلها، إنَّها تهيئةٌ للنُّفوس، وتثبيتٌ لها على الحقِّ لملاقاة أعدائه المفترين المكذِّبين من المشركين ومن أهل الكتاب، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الَّذين كذَّبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبةٌ مشينةٌ مع أعظم أنبيائهم؛ الَّذين يفتخرون بنسبتهم إليه، وهم يزعمون: أنَّهم أهل كتابه الَّذي أنزل عليه، وحملة شرائعه وهداياته، إنَّه نبيُّهم موسى ـ عليه السَّلام ـ أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبةً.

وتذكر لنا سورة (طه) كيف كان الحال معه، وما عاناه من سفههم، وتمرُّدهم على أوامر الله، وعصيانهم المتعمَّد، فما كاد موسى ـ عليه السلام ـ يغادرهم لمناجاة ربِّه، وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم، ولا يتَّبع سبيل المفسدين، إلا وتآمروا عليه، وجمعوا زينة القوم ليُخرج لهم السَّامريُّ عجلاً جسداً له خوار، فيقوم النَّاس بالطَّواف به لعبادته؛ وليقولوا كلمتهم الكبيرة: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، ولمَّا عرف الحقيقة، استدعى السَّامري ليسأل عن الدَّافع له على هذا التصرُّف السَّفيه، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦].

إنَّ قوماً يصل بهم السَّفه إلى هذا الحدِّ من الزَّيغ، والضَّلال، والإفساد، فهل يُؤْمَن جانبهم، ويُتوقَّع منهم الخير، أو مناصرة الحقِّ؟! لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكِّيَّة المتقدِّمة آثارٌ بعيدةُ الدَّلالة في تكوين الشَّخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة عن هذه الطَّوائف والنِّحَلِ[1]. ومن لطائف الأسرار القرآنيَّة، ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث عن عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة، من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم؛

---

(١) انظر: معالم قرآنيَّة في الصراع مع اليهود، ص ٣٩، ٤٠.

لكي يؤمنوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ عندما يأتيهم بدعوته العالميَّة، وكان ذلك في سورة الأعراف، وكان إيراد التَّفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين، بألا يتأثَّروا بموقف اليهود؛ إن هم تنكَّروا لهم، فإنَّهم قوم بُهت، وتلك سيرتهم مع أنبيائهم، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام، وكذَّبوا محمَّداً ﷺ، وقد وجدوا أوصافه في كتبهم، فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[1].

قال تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨].

نعم، إنَّها نقلةٌ من صعيد مكَّة، وشعابها، وجبالها إلى أقطار العالم جميعاً، إنَّها نقلةٌ رُوحيَّةٌ نفسيَّةٌ كبيرةٌ؛ حيث نلاحظ سياق الآيات يرسم معالم الدَّعوة العالميَّة عندما تخرَّج من مكَّة إلى الصَّعيد العالميِّ، كما أنَّ الآيات في سورة الأعراف مليئةٌ بالدُّروس التَّربويَّة العظيمة لأمَّة محمَّد ﷺ، من خلال السَّرد التَّاريخيِّ لحياة بني إسرائيل، وما اعتورها من أحداثٍ عظامٍ، وهذه المداخلات الَّتي تلفت النَّظر إلى أمَّة رسول الله ﷺ ودورها ومهمَّتها في قيادة العالم، وفي الوقت نفسه تحذيرٌ لها لكي تتجنَّب ما وقعت فيه بنو إسرائيل، ويمضي السِّياق في الحديث عن الأمم الَّتي تكوَّنت من الأسباط، وكيف فُكَّت ضائقتهم في المطعم والمشرب، بتفجير الينابيع وإنزال المنِّ، والسَّلوى عليهم، وتوفير الظِّلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم، ولكن هل أدَّوا شكر هذه النِّعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشَّرعيَّة؟ لقد كان العناد، والتَّحريف، والتَّحايل، والتمرُّد دائماً!

إنَّ إنسانيَّة الإنسان تتحقَّق باتِّباعه الوحي الرَّبَّانيَّ المُنزل من خالق السَّموات والأرض، والعبودية لله تعالى تحقِّق الكمال الإنسانيَّ، حيث تتحقَّق الغاية الَّتي خُلق الإنسان من أجلها، وأيُّ إهمالٍ لهذه المهمَّة، وأيُّ ابتعادٍ عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشريِّ، ويلحقه بالدَّواب، والأنعام، وقد يكون أضلَّ منها؛ لأنه يسخِّر عقله لمزيد من الإسفاف،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٤.

والانحطاط ، بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف ، والانحطاط ، وإنَّما هي مفطورةٌ على غرائز معيَّـنةٍ تدفعها لتصرُّفٍ محدَّدٍ.

كانت سورة الأعراف المكِّيَّة ، تعرض لمحاتٍ تربويَّةً ، وتبيِّن توجيهاتٍ ربَّانيَّةً ، وتوضِّح سنناً إلٰهيةً ، من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل[١].

عندما وجدت قريش نفسها عاجزةً أمام دعوة الحقِّ ، وكان المعبِّر عن هذا العجز النَّضر بن الحارث؛ الَّذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد! فانظروا في شأنكم ، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!». فقرَّروا بعد ذلك إرسال النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، لمعرفة حقيقة هذه الدَّعوة ، لا لكي يتَّبعوها ، ولكن لإدراكهم: أنَّ اليهود قد يمدُّونهم بأشياء تظهر عجز الرَّسول ﷺ ، ولمعرفة زعماء مكَّة بحقد اليهود المنصبِّ على الأنبياء جميعاً ، وأصحاب الحقِّ أينما كانوا.

كانت بعثة المصطفى صدمةً قويَّةً لليهود؛ وذلك لأنَّهم عاشوا في جزيرة العرب على حلمٍ توارثوه طوال السِّنين الماضية ، وهو أنَّه سيبعث نبيٌّ مُخلِّص في ذلك الزَّمان والمكان ، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلِّصهم من الفرقة ، والشَّتات؛ الَّذي كانوا فيه[٢].

كان التقارب بين معسكر الكفر والشِّرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام ، ولذلك زوَّدوا الوفد المكيَّ ببعض الأسئلة محاولةً لتعجيز النَّبيِّ ﷺ.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم: سلوهم عن محمَّد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا؛ حتَّى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا: إنَّكم أهل التَّوراة ، وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقَوِّلٌ ، فقرِّروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ، ما كان من أمرهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ ، وسلوه عن رجلٍ طوَّاف ، بلغ مشارق الأرض ، ومغاربها ، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح ، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك ، فإنَّه نبيٌّ فاتَّبعوه ، وإن هو لم يخبركم؛ فهو رجلٌ مُتَقوِّل ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النَّضر ، وعقبة حتَّى قدما مكَّة على قريشٍ ، فقالا: يا معشر قريش! ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد ، قد أمرنا أحبار

---

(١) انظر: معالم قرآنية في الصِّراع مع اليهود ، ص ٥٥ إلى ٦٠.
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشَّقاوي (١/ ١٨٨).

يهود أن نسأله عن أمورٍ، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! أخبِرْنا، فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً بما سألتم عنه، ولم يستثنِ[١]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلةً، لا يحدِث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكَّة، وقالوا: وعدنا محمَّد غداً، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه، وحتَّى أحْزَنَ رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة، ثمَّ جاء جبريل عليه السلام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية والرَّجل الطَّوَّاف، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] [ابن هشام (١/ ٣٢٢)] ولمَّا سمع اليهود: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: كيف وقد أوتينا التَّوراة، ومن أوتي التَّوراة؛ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

كانت سورة الكهف قد احتوت على إجابةٍ لأسئلتهم، وإشارةٍ إلى أنَّ كهفاً من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمَّد ﷺ، كما آوى الكهف الجبليُّ الفتية المؤمنين الفارِّين بدينهم من الفتنة، وأنَّ نفوساً ستبشُّ في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب، بالقرب من الَّذين عاضدوا قريشاً في شكِّهم، وحاولوا معهم طمس نور الحقِّ، بتلقينهم المنهج التعجيزيَّ في التَّثبُّت من أمر النُّبوَّة، وهو منهجٌ غير سليم؛ فمتى كانت الأسئلة التَّعجيزيَّة وسيلة التَّحقُّق من صدق الرِّسالة، وصاحبها؟! فهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرَّغم من تعهده ألاَّ يسأله عن شيءٍ حتَّى يحدث له منه ذكراً، على الرَّغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث، وما دار حولها في نبوَّة موسى عليه السلام شيئاً، ولم يشكِّك بنو إسرائيل في نبوَّته، فَلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقُّق من صدق الرِّسالة؟![٢].

جعل الله هذه المناسبة وسيلةً للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة؛ ليجدوا مأوىً كما وجد الفتية المأوى وليبشَّ في وجوههم أهل المدينة، كما بشَّ أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثمَّ ذهبوا إليهم ليكرموهم، وليخلِّدوا ذكراهم[٣].

إنَّ القرآن الكريم نزل ليكوِّن خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، لها مقوِّماتها الذَّاتيَّة، ومصادرها

---

(١) أي: لم يقل: (إن شاء الله).

(٢) انظر: مباحث في التَّفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، ص ١٨٩.

(٣) انظر: تأمُّلات في سورة الكهف، للشَّيخ أبي الحسن النَّدوي، ص ٤٦، وانظر: معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، ص ٦١.

المعرفيَّة ، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، سورة الفاتحة ، وفيها التَّضرُّع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصِّراط المستقيم ، وتجنُّبه صراط المغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ وصراط الضَّالين ـ وهم النَّصارى ـ كما جاء في حديث عديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه [الترمذي (٢٩٥٤) وأحمد (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩)] .

فتحديد هذا النَّهج ، وبيان الصِّراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضَّالَّة؛ حتَّى تُتَجنَّب السُّبل الأخرى المتفرِّقة؛ الَّتي تؤدِّي بصاحبها إلى المزالق ، والمهالك ، فكان التعرُّض لعقائد اليهود ، وانحرافاتهم ، ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التَّكوين للشخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة ، إنَّ معركتنا مع اليهود معركةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّها معركةٌ بين المنهج الرَّبَّانيِّ ، والصِّراط المستقيم ضدَّ المناهج الجاهليَّة المحرِّفة لكلمات الله ، السَّاعية للإفساد في الأرض[١] .

عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ في آخر العام السَّابع من البعثة :

ازداد إيذاء المشركين من قريش ، أمام صبر الرَّسول ﷺ والمسلمين على الأذى ، وإصرارهم على الدَّعوة إلى الله ، وإزاء فشو الإسلام في القبائل ، وبلوغ الأذى قمَّته في الحصار الماديِّ ، والمعنويِّ؛ الَّذي ضربته قريشٌ ظلماً ، وعدواناً على النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ، ومَنْ عطف عليهم مِنْ قرابتهم[٢] .

قال الزُّهريُّ: «ثمَّ إنَّ المشركين اشتدُّوا على المسلمين كأشدِّ ما كانوا؛ حتَّى بلغ المسلمين الجهد ، واشتدَّ عليهم البلاء ، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانيةً؛ فلمَّا رأى أبو طالب عمل القوم؛ جمع بني عبد المطلب ، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ شِعْبَهم ، ويمنعوه ممَّن أراد قتله ، فاجتمعوا على ذلك مسلمُهم وكافرُهم ، فمنهم مَنْ فعله حَمِيَّةً ، ومنهم من فعله إيماناً ، ويقيناً ، فلمَّا عرفت قريشٌ: أنَّ القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ؛ أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يَدْخُلوا بيوتهم؛ حتَّى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا من مكرهم صحيفةً ، وعهوداً ومواثيق؛ ألا يتقبَّلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ؛ حتَّى يسلموه للقتل[٣] .

وفي روايةٍ: « . . . . على ألا ينكحوا إليهم ، ولا يُنْكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يَدَعُوا سبباً من أسباب الرِّزق يصل إليهم ، ولا يقبلوا منهم صُلحاً،

---

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، نقلاً عن معالم قرآنيَّة ، لمصطفى مسلم ، ص ٢٩ .
(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء ، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).
(٣) لمعرفة تفصيلات قصَّة الشِّعْب وما تخلَّلها من أحداث ، انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (٢/ ٨٠ ـ ٨٥) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٤٣ ـ ٧٢) ، والرَّوض (٢/ ١٠١ ـ ١٢٩) ، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) .

ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يدخلوا بيوتهم. حتَّى يُسْلِمُوا إليهم رسولَ الله ﷺ للقتل، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمَّ علَّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»[١].

فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين، واشتدَّ عليهم البلاء، والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكَّة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه، فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ[٢].

وكان أبو طالب إذا أخذ النَّاسُ مضاجعهم؛ أمر رسولَ الله ﷺ فأتى فراشه حتَّى يراه من أراد به مكراً، أو غائلة، فإذا نام النَّاس؛ أخذ أحد بنيه، أو إخوته، أو بني عمِّه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسولَ الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم، فيرقد عليها[٣].

واشتدَّ الحصار على الصَّحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتَّى اضطروا إلى أكل ورق الشَّجر، وحتى أصيبوا بشظف العيش، وشدَّته إلى حدٍّ أنَّ أحدهم يخرج ليبول، فيسمع بقعقعة شيءٍ تحته، فإذا هي قطعةٌ من جلد بعيرٍ، فيأخذها، فيغسلها، ثمَّ يحرقها، ثم يسحقها، ثمَّ يستفُّها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام[٤]، وحتَّى لتسمع قريشٌ صوت الصِّبية يتضاغون من وراء الشِّعْب من الجوع[٤].

فلمَّا كان رأس ثلاث سنين، قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنقض الصَّحيفة أناساً من أشراف قريشٍ، وكان الَّذي تولَّى الانقلاب الدَّاخلي لنقض الصَّحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أميَّة المخزومي، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب، فقال له: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطَّعام، وتلبس الثِّياب، وتنكح النِّساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون، ولا يُنْكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم؛ ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، والله لو كان معي رجلٌ آخر؛ لقمت في نقضها! فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أَبْغِنَا ثالثاً.

فذهب إلى المُطْعِم بن عديٍّ، فقال له: يا مُطْعِمُ! أقد رضيت أن يَهْلِك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريشٍ فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه؛ لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً! قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، قال: قد وجدت

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٣٥٠)، وزاد المعاد (٢/ ٤٦)، والكامل في التاريخ (٢/ ٨٧).
(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء (١/ ٥١).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان، ص ١٨٠.
(٤) انظر: الغرباء الأولون، ص ١٤٨، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (٧).

لك ثانياً ، قال: من؟ قال: أنا ، قال: أبغنا ثالثاً ، قال: قد فعلت ، قال: مَنْ؟ قال: زهير بن أبي أميَّة ، فقال: أبغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديٍّ ، فقال له: ويحك! وهل نجد أحداً يعين على ذلك؟ قال: نعم ، زهير بن أبي أميَّة ، والمطعم بن عديٍّ ، وأنا ، فقال: أبغنا خامساً ، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد ، فكلَّمه ، وذكر له قرابته ، وحقَّهم ، فقال له: وهل على هذا الأمر الَّذي تدعوني إليه من أحدٍ؟ قال: نعم ، ثمَّ سمَّى له القوم؛ فاتَّعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكَّة ، فاجتمعوا هناك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّى ينقضوها ، وقال زهير: أنا أبدؤُكم ، فأكون أوَّل من يتكلَّم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثمَّ أقبل على النَّاس ، فقال: أنأكل الطَّعام ، ونلبس الثِّياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تُشقُّ ! فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت ، فقال أبو البختري: صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيها ، ولا نُقِرُّ به ، فقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما ، وكذبَ مَنْ قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ، وممَّا كُتِبَ فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضي بليلٍ ، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان ، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلَّم .

وقام المُطْعم بن عدِيٍّ إلى الصَّحيفة ليشقَّها ، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها ، إلا «باسمك اللَّهمَّ»[١] .

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ ـ قال لأبي طالب: يا عم ! إن ربي الله قد سلط الأَرَضَة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش ! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم: رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ ، فزادهم ذلك شراً . فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[٢] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ المتأمِّل لبنود هذه الاتِّفاقيَّة ، يجد: أنَّ قريشاً قد أحكمت البنود ، ولم تدع فيها ثُغْرَةً

---

(١) انظر: السيرة النبوية ، لابن كثير (٢/ ٤٣ ـ ٥٠ ، ٦٧ ـ ٦٩).

(٢) السيرة النبوية (١/ ٣٧٧).

يمكن النفاذ من خلالها ، ممَّا يؤكد: أنَّها وُضِعت بعد مداولاتٍ ، ومشاوراتٍ على نطاقٍ واسعٍ ، وشاركت في وضعها عقولٌ مفكرةٌ ، امتزجت معها خبراتٌ عديدةٌ ، وحبكَها ذكاءٌ مفرطٌ .

٢ - في عدم الزَّواج بين الطَّرفين ، جانب اجتماعيٌّ مهمٌّ؛ فالزَّواج غالباً ما يؤدِّي إلى التآلف ، والتآخي ، والتَّراحم ، والتَّواصل ، والتَّزاور بين أهل الزَّوجين ، فإذا تمَّ شيءٌ من ذلك؛ فسيؤدِّي إلى فشل الحصار ، وحتَّى لا يحدث ذلك نصَّتِ الوثيقةُ على عدم الزَّواج بين الطَّرفين .

٣ - وفي النَّهي عن البيع ، والشِّراء منهم يَظْهر جانبٌ اقتصاديٌّ بالغ الأهمِّيَّة ، فالبيع ، والشِّراء عصب الحياة الاقتصادية ، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر ، فإذا انعدم ذلك التَّعامل؛ انهار البناء الاقتصاديُّ ، وباتت الحياة الاقتصاديَّة مهدَّدةً بالخطر ، فيصبح الإنسان مفتقداً لضروريات الحياة؛ ممَّا يعرضه إلى الرُّضوخ ، والانصياع لأوامر مَنْ يملك تلك الضروريات ، ومعلومٌ أثر ذلك على الجماعة ، والأفراد ، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين ، وهذا ما وقع فعلاً ، فقد جاء: أنَّهم جُهِدوا حتَّى كانوا يأكلون ورق الشَّجر ، والجلود[١] .

٤ - وزيادةً في الحصار الاقتصاديِّ ، وضعوا بنداً يسدُّ الطَّريق أمام المسلمين في التَّعامل مع التُّجار الوافدين من خارج مكَّة ، فكانوا يغلون على المسلمين في السِّعر حتَّى لا يدرك الصَّحابة شيئاً يشترونه ، فيرجعون إلى أطفالهم الَّذين يتضاغون جوعاً؛ وليس في أيديهم شيءٌ يشغلونهم به ، فكان يُسمَعُ بُكَاء الأطفال من بعيدٍ[٢] . كل هذا التضييق بسبب البند الَّذي يقول: «ولا يدعوا شيئاً من أسباب الرِّزق يصل إليهم» ، كما أنَّ هذا البند يفوِّت الحجَّة على مَنْ أراد أن يهديَ شيئاً لأهل الشِّعب ، بحجة: أنَّه لا يبيع ، وإنَّما يهدي ، وحتَّى لا تبقى ذريعةٌ لإيصال الطَّعام إليهم تحت أيِّ مسمَّى وضعت قريش هذا البند[٣] .

٥ - والبند التَّالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً» ، يسدُّ الطَّريق أمام أيِّ خيارٍ آخر سوى تسليم محمَّدٍ ﷺ ، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم ، أمَّا البند الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رأفةٌ» ، فهو بندٌ يضع قيوداً حتَّى على العواطف؛ كي لا يكون للرأفة ، والرَّحمة وجودٌ بين أهل الصَّحيفة تجاه المؤمنين؛ لأنَّ الرَّحمة والرَّأفة قد تقودان إلى فكِّ الحصار؛ الَّذي يؤدِّي بدوره

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٧٧) ، والرَّحيق المختوم ، ص ١٢٩ .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٧٧) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ١٢٠ .
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٦ .

إلى فشـل جهود قريش، وهو ما لا تهواه، لذا عملت على إبطال مفعول الرَّأفة بوضعها لهذا البند في الصَّحيفة.

٦ ـ وفي «عدم مجالستهم، ومخالطتهم، وكلامهم»، سدٌّ ثغرةٍ مهمَّةٍ ربُّما جاء من قِبَلِها خطرٌ على المقاطعة والحصار؛ لأنَّ المجالسة، والمخالطة، والكلام مع المسلمين، يؤدِّي إلى النِّقاش، وتبادل الآراء، ووجهات النَّظر، فقد يُقنِع المسلمون بعض أهل الصَّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسلمين يملكون من الحقِّ والأدلَّة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم، وحتَّى لا يتمَّ ذلك نصَّت الصَّحيفة على عدم المجالسة، والمخالطة والكلام.

٧ ـ قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم»، بندٌ لا يختلف عمَّا سبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرِّك الجوانب الإنسانيَّة في النَّفس، فالإنسان عندما يرى بيتاً يخلو من أقلِّ مقومات الحياة، وأصاب أهله الجوع، والعري، والمرض، ليس لذنبٍ سوى أنَّهم اختاروا ديناً غير دين قريشٍ؛ لاشكَّ أنَّ العاطفة ستتحرَّك عندهم، وسيحاولون رفع هذا الظُّلم، وتلك المعاناة، وحتَّى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف نصَّت على عدم دخول البيوت.

٨ ـ وتعليق الصَّحيفة في الكعبة يعطيها قدسيَّةً، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة الَّتي يجب التَّقيُّد، والالتزام بها، فالعرب قاطبةً تقدِّس الكعبة، وتضع لها مكاناً سامياً من الحرمة والقدسيَّة، لذا عمَدت قريش إلى تعليق الصَّحيفة داخل الكعبة[١].

٩ ـ إنَّ مشركي بني هاشمٍ، وبني المطّلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليَّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنَّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة، على أن يكون ذلك مبنيّاً على فتوى صحيحةٍ من أهلها[٢].

١٠ ـ إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضمانٌ للمسلم، والحرِّيَّة الدِّينيَّة في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرةٌ من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك، وغيره من خلال موازناتٍ دقيقةٍ[٣].

١١ ـ من المهمِّ أن تعلم: أنَّ حماية أقارب رسول الله ﷺ له لم تكن حمايةً للرِّسالة الَّتي بُعِث بها، وإنَّما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغلَّ هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة ـ لجوانب الحذر والحماية، ص ٩٦، ٩٧.
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها، السِّيرة النَّبوية، لسعيد حوى (١/ ٢٦٤).
(٣) المصدر السابق نفسه.

كوسيلةٍ من وسائل الجهاد والتغلُّب على الكافرين، والردِّ لمكائدهم وعدوانهم؛ فأنعم بذلك من جهدٍ مشكورٍ، وسبيلٍ ينتبهون إليها![1].

١٢ ـ لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التَّحالف الباغي إلا بالحرب السِّياسيَّة من جهةٍ، ومحاولة تفتيت هذا التَّحالف، فعمل قصيدته اللاَّمية المشهورة وفي بدايتها قال:

وَلَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ عِنْدَهُمْ ... وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَا وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْماً عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بِالأَنَامِلِ[2]

وكان لهذه القصيدة أثرٌ خطيرٌ زلزل أوضاع مكَّة، واستطاعت أن تحرِّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشمٍ، حيث ائتمروا سرّاً، ودعوا إلى نقض الصَّحيفة[3].

١٣ ـ انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشيِّ بقصائده الضَّخمة، الَّتي هزَّت كيانه هزاً، وتحرَّك لنقض الصَّحيفة مَنْ ذكرنا مِنْ قبل، أولئك الخمسة الَّذين يمتُّون بصلة قرابةٍ، أو رحمٍ لبني هاشم، وبني المطَّلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظُّلامة وهذا الحيف، عن المسلمين، وأنصارهم، وحلفائهم، وخطَّطوا له، ونجحوا فيه، وفي هذا الموقف إشارةٌ إلى أنَّ كثيراً من النُّفوس ـ والَّتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهليِّ ـ قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظُّلم، والبغي، وتستغلُّ الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتمُّوا بهذه الشَّرائح، وينفذوا إلى أعماقها، وتُوضِّحَ لهم حقيقة القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة، وتبيِّن لها طبيعة العداء بين الإسلام، واليهود، والنَّصارى، والعلمانيَّة، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[4].

١٤ ـ ظاهرة أبي لهبٍ تستحقُّ الدِّراسة والعناية؛ لأنَّها تتكرَّر في التَّاريخ الإسلاميِّ، فقد يجد الدُّعاة من أقرب حلفائهم مَنْ يقلب لهم ظهر المِجَنِّ، ويبالغ في إيذاء الدُّعاة وحربهم أكثر بكثير من خصومهم الألدَّاء الأشدَّاء[5].

١٥ ـ كانت تعليمات الرَّسول ﷺ لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدوَّ، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يُشْعِلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإنَّ أعظم تربيةٍ في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومةٍ؛ حمزةُ، وعمر، وأبو بكرٍ، وعثمان، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ سمعوا وأطاعوا، فلقوا كلَّ هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص ٨٨.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٢٤٥).
(٣) انظر: التَّحالف السِّياسيُّ، للغضبان، ص ٣٥ إلى ٣٧.
(٤) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ١٨٥.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٦.

الظُّلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثةٍ واحدةٍ فقط، أو يوم واحدٍ فقط، بل ثلاث سنين عجافٍ، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهمٍ أو شجَّة رأسٍ[1].

١٦ ـ أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده، وبُعْده عن التَّصرُّفات الطَّائشة؛ فلم يكن شيءٌ أسهلَ من اغتيال أبي جهلٍ، وإشعال معركة غير مدروسةٍ ـ لا يعلم إلا الله مداها ـ وغير متكافئةٍ.

١٧ ـ كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تحقِّق انتصاراتٍ رائعةً في الحبشة، وفي نجران، وفي أزْد شنوءة، وفي دَوس، وفي غِفار، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضحٍ، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرَّك في اللَّحظة الحاسمة، وامتدادات للدَّعوة، تتجاوز حدود مكَّة الصَّلْدة المستعصية.

١٨ ـ كانت هذه السَّنوات الثلاث للجيل الرَّائد زاداً عظيماً في البناء، والتَّربية، حيث ساهم بعضه في تحمُّل آلام الجوع، والخوف، والصَّبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضَّغط على النُّفوس، والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٩ ـ كانت بعض الشَّخصيات في الصَّفِّ المشرك تبنى في داخلها بالتَّربية النَّبويَّة، وتتأثر بعظمة شخصية النَّبيِّ ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ الَّتي يقدِّمها الدِّين الجديد، لكن سيطرة الملأ، وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التَّفاعل، وهذا الحبِّ، وهذه التَّربية، وختام قصَّة الصَّحيفة تقدِّم لنا أجلى بيانٍ عن ذلك[2].

٢٠ ـ قيام الحجج الدَّامغة، والبراهين السَّاطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثِّر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنَّهم يلغون عقولهم، ويغلقون قلوبهم، وعقولهم عن التدبُّر، ويصمُّون آذانهم عن سماع الحقِّ، ويغمضون أعينهم عن النَّظر والتأمُّل والاهتداء إلى الحقِّ بعد قيام الأدلَّة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرَّسول ﷺ بما حدث للصَّحيفة من أكل الأرَضَة لها، وبقاء اسم الله فقط «باسمك اللَّهمَّ» ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم، فما آمن منهم أحدٌ، إنَّه الهوى الذي يغشي عن الحقِّ، ويصمُّ الآذان عن سماعه[3].

٢١ ـ كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدَّعوة والدِّعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كلِّ القبائل العربيَّة من خلال موسم الحجِّ، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدَّعوة، الَّتي يتحمَّل صاحبها وأصحابه الجوع، والعطش، والعزلة

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٧١).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٨٤، ٣٨٥).
(٣) السِّيرة النَّبوية، لأبي فارس، ص ١٦٧.

لكلِّ هذا الوقت، وأثار في نفوسهم: أنَّ هذه الدَّعوة حقٌّ، ولولا ذلك لما تحمَّل صاحب الرِّسالة وأصحابه كلَّ هذا الأذى والعذاب.

٢٢ ـ أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكَّة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، فما إن انفك الحصار، حتَّى أقبل النَّاس على الإسلام، وحتَّى ذاع أمر هذه الدَّعوة، وتردَّد صداها في كلِّ بلاد العرب، وهكذا ارتدَّ سلاح الحصار الاقتصاديِّ على أصحابه، وكان عاملاً قوياً من عوامل انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة، عكس ما أراد زعماء الشِّرك تماماً[1].

٢٣ ـ كان لوقوف بني هاشم، وبني المطَّلب مع رسول الله ﷺ، وتحمُّلهم معه الحصار الاقتصاديَّ، والاجتماعيَّ، أثرٌ في الفقه الإسلاميِّ؛ حيث إنَّ سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطَّلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فيقول: «وأمَّا سهم ذوي القربى، فإنَّه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطَّلب؛ لأن بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام، ودخلوا معهم الشِّعْب غضباً لرسول الله ﷺ، وحمايةً لهم، مسلمُهم طاعةً لله ورسوله ﷺ، وكافرهم حميَّة للعشيرة، وأنفةً، وطاعةً لأبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ؛ وأمَّا بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمِّهم؛ فلم يوافقوهم على ذلك؛ بل حاربوهم، ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرَّسول ﷺ؛ ولهذا كان ذمُّ أبي طالبٍ لهم في قصيدته اللاَّمية أشدَّ من غيرهم لشدَّة قربهم... وفي بعض روايات هذا الحديث: إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ، ولا إسلامٍ [أبو داود (٢٩٨٠) والنسائي (٧/ ١٣٠) وأحمد (٤/ ٨١)]، وهذا قول جمهور العلماء: أنَّهم بنو هاشم، وبنو المطلب»[2].

٢٤ ـ لمَّا أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله ﷺ، وفتح مكَّة، ثمَّ حجَّة الوداع؛ كان النَّبيُّ ﷺ يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة؛ ليتذكَّر ما كانوا فيه من الضِّيق، والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكَّة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكِّد قضية انتصار الحقِّ، واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصَّابرين[3]، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ ـ في حجَّته ـ قال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟ ثمَّ قال:

---

(١) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٠١.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).
(٣) انظر: الغرباء الأولون، ص ١٤٩.

نحن نازلون غداً بِخَيْف بني كنانة، الْمُحَصَّبِ، حيث قاسمت قريشٌ على الكفر، وذلك: أنَّ بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم: ألاَّ يبايعوهم، ولا يؤووهم. قال الزُّهريُّ: والخَيْفُ: الوادي. [البخاري (٣٠٥٨) ومسلم، طرفه الأول (١٣٥١) وأحمد (٥/ ٢٠٢) وأبو داود (٢٠١٠) وابن ماجه (٢٩٤٢)].

٢٥ ـ على كل شَعْبٍ في أيِّ وقتٍ يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار، والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملَّةٌ واحدةٌ؛ فعلى قادة الأمَّة الإسلاميَّة تهيئة أنفسهم، وأتباعهم لمثل هذه الظُّروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكِّر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة؛ كي تتمكَّن الأمَّة من الصُّمود في وجه أيِّ نوعٍ من أنواع الحصار[1].

* * *

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٩٨.

الفصل الرَّابع
هجرة الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء

المبحث الأوَّل
تعامل النَّبيِّ ﷺ مع سنَّة الأخذ بالأسباب

من السُّنن الرَّبانيَّة الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ سنَّةُ الأخذ بالأسباب ، والأسباب: جمع سبب ، وهو كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره. وسنَّةُ الأخذ بالأسباب مقرَّرةٌ في كون الله تعالى بصورةٍ واضحةٍ ، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته ، وأودع فيه من القوانين ، والسُّنن ما يضمن استقراره ، واستمراره ، وجعل المسببات مرتبطةً بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة ، وأرسىٰ الأرض بالجبال ، وأنبت الزَّرع بالماء. . . وغير ذلك.

ولو شاء الله ربُّ العالمين؛ لجعل كلَّ هذه الأشياء وغيرها ـ بقدرته المطلقة ـ غير محتاجةٍ إلى سبب ، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى ، وحكمته؛ الَّتي يريد أن يوجِّه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السُّنَّة؛ ليستقيم سير الحياة على النَّحو الَّذي يريده سبحانه ، وإذا كانت سنَّة الأخذ بالأسباب مبرزةً في كون الله تعالى بصورةٍ واضحة ، فإنَّها كذلك مقرَّرةٌ في كتاب الله تعالى ، ولقد وجَّه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُّنَّة في كل شؤونهم ، الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء ، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ولقد أخبرنا القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى طلب من السَّيدة مريم ، أن تباشر الأسباب وهي في أشدِّ حالات ضعفها. قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وهكذا يؤكِّد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كلِّ الأمور ، والأحوال. ورسولُ الله ﷺ كان أوعىٰ النَّاس بهذه السُّنَّة الرَّبانيَّة ، فكان ـ وهو يؤسِّس لبناء الدَّولة الإسلامية ـ يأخذ بكلِّ

ما في وسعه من أسباب ، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً ، ولقد لمسنا ذلك فيما مضىٰ ، وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى .

وكان ﷺ يوجِّه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة ، في أمورهم الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء[١] . وقد كان في حسِّ الأمَّة الإسلاميَّة ، في صدرها الزَّاهر : أنَّ إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة ، وقضائه ، وقدره لا يتعارض مع اتِّخاذ الأسباب ، فلقد كانوا يدركون : أنَّ لله تعالى سنناً في هذا الكون ، وفي حياة البشر ، غيرُ قابلةٍ للتَّغيير ، ومع أنَّ لله تعالى سنناً خارقةً تملك أن تصنع كلَّ شيءٍ ، ولا يعجزها شيءٌ إلا أنَّ الله تعالى ـ جلَّت قدرته ـ قد قضىٰ بأن تكون سنَّته الجارية ثابتةً في الحياة الدُّنيا ، وأن تكون سنَّته الخارقة استثناءً لها ، وكلتاهما معلَّقةٌ بمشيئة الله ، لذلك كان في حسِّهم أنَّه لا بدَّ لهم من مجاراة السُّنن الجارية ؛ إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجةٍ معيَّنة في واقع حياتهم ؛ أي : أنَّه لا بد من اتِّخاذ الأسباب المؤدِّية إلى النتائج ، بحسب تلك السُّنن الجارية[٢] .

وإنَّ تخلُّف المسلمين اليوم عن رَكْبِ الزَّعامة العالميَّة لم يكن ظلماً نزل بهم ، بل كان العدل الإلٰهيُّ مع قومٍ نَسُوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأهواء ، والأوهام في مجال العلم ، والعمل على السَّواء ، وأهملوا السُّنَن الرَّبانيَّة ، وظنُّوا : أنَّ التمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام ، ولكن هيهات! ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وربَّما سائل يقول: ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الَّذين عصوه ، فما بال الكافرين الَّذين جحدوه سبحانه بالمرَّة ، ومع ذلك فإنَّهم ممكَّنون في الأرض ـ من النَّاحية المادِّيَّة ـ غاية التمكين؟!

إنَّ هؤلاء الكفار ، لم يبلغوا ما بلغوه لأنَّهم أقرب إلى الله ، أو أرضىٰ له ، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحرٍ ، أو بمعجزةٍ ، أو لأنَّهم خلقٌ آخر متميِّز ، ولم يقيموا الصِّناعات ، أو يجوبوا البحار ، أو يخترقوا أجواء الفضاء ؛ لأنَّ عقيدتهم حقٌّ ، أو لأنَّ فكرهم سليمٌ ، إنَّهم بلغوا بذلك ؛ لأنَّ السبيل إلى هذا التَّقدُّم دربٌ مفتوح لجميع خلق الله ، مؤمنهم ، وكافرهم ، برِّهم ، وفاجرهم . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥] .

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل التَّمكين في الحياة يمضي بالجهد البشريِّ ، وبالطَّاقة البشريَّة ، على سُننٍ ربَّانيَّةٍ ثابتةٍ ، وقوانين لا تتبدَّل ، ولا تتحوَّل ؛ فمن يُقدِّم الجهد الصَّادق ، ويخضع لسنن الحياة ؛ يصل على قدر جهده ، وبذله ، وعلى قدر سعيه ، وعطائه .

---

(١) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠) .

(٢) انظر : مفاهيم ينبغي أن تصحح ، لمحمَّد قطب ، ص ٢٦٢ ، وما بعدها بتصرف .

إنَّها السُّنَّة الَّتي أرادها الله في هذه الحياة ، إنَّها مشيئته ، وسنَّته ، وإرادته صحيحٌ : أنَّ هذا التَّقدُّم كلَّه لا يفتح للكافرين أبواب الجنَّة ، ولا يغني عنهم شيئاً ، ولكنَّ التَّقصير من جانب المسلم إثمٌ يحاسب عليه[١] .

التَّوكُّل على الله والأخذ بالأسباب :

التَّوكُّل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب ، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله ، وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها ، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تنشئ النَّتائج ، فيتوكَّل عليها .

إنَّ الَّذي ينشئ النَّتائج ـ كما ينشئ الأسباب ـ هو قدر الله ، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في شعور المؤمن . . اتِّخاذ السَّبب عبادةٌ بالطاعة ، وتحقُّق النتيجة قدرٌ من الله مستقلٌ عن السَّبب ، لا يقدر عليه إلا الله ، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها ، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته ؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[٢] .

ولقد قرَّر النَّبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرةٍ ضرورة الأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى ، كما نَبَّهَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على عدم تعارضهما .

يروي أنس بن مالكٍ رضي الله عنه : أنَّ رجلاً وقف بناقته على باب المسجد ، وهمَّ بالدُّخول ، فقال : يا رسول الله! أرسلُ راحلتي ، وأتوكل؟ . . . وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التَّوكُّل على الله تعالى ، فوجَّهه النَّبيُّ ﷺ إلى أنَّ مباشرة الأسباب أمرٌ مطلوبٌ ، ولا ينافي ـ بحالٍ من الأحوال ـ التَّوكُّل على الله تعالى ، ما صدقت النِّيَّة في الأخذ بالأسباب ، فقال له ﷺ : «بل قيِّدها وتوكَّل» [الحاكم (٣/ ٦٢٣) ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١) وبلفظ : (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي (٢٥١٧)] .

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي تبيِّن : أنَّه لا تعارض بين التَّوكُّل ، والأخذ بالأسباب بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب ، والاعتماد عليها ، ونسيان التَّوكُّل على الله . وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله ؛ لرزقكم كما يرزق الطَّير ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً» [أحمد (١/ ٣٠ ، ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) وأبو يعلى (٢٤٧) والحاكم (٤/ ٣١٨)] .

وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ على التَّوكُّل ، مع الإشارة إلى أهمِّية الأخذ بالأسباب ؛ حيث

---

(١) انظر : لقاء المؤمنين ، (٢/ ١٢٤) ، وما بعدها بتصرُّف .

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٦) .

أثبت الغدوَّ ، والرَّواح للطَّير مع ضمان الله تعالى الرِّزق لها .

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضيَّة ، في النُّقاط التَّالية :

١ ـ يقرِّر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب ، ذلك ؛ لأنَّ تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيلٌ للشَّرع ، ولمصالح الدُّنيا .

٢ ـ الاعتماد على الأخذ بالأسباب وحدها ، مع ترك التوكُّل على الله ، شركٌ .

٣ ـ يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتَّوحيد ، مع الاعتقاد بأنَّ أمر الأسباب كلِّها بيد الله .

٤ ـ المطلوب من المسلم إذاً ، هو اتِّخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله تعالى(١) .

ولا بدَّ للأمَّة الإسلاميَّة ، أن تدرك : أنَّ الأخذ بالأسباب للوصول إلى التَّمكين أمرٌ لا محيص عنه ، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنَّته الَّتي لا تتخلَّف ، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ: أنَّه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب ، ولم يطلب منهم أن يُعِدُّوا العُدَّة التي تكافئ تجهيز الخصم ، ولكنَّه سبحانه قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

فكأنه تعالى يقول لهم : افعلوا أقصى ما تستطيعون ، احشدوا أقصىٰ إمكاناتكم ؛ ولو كانت دون إمكانات الخصوم ، فالاستطاعة هي الحدُّ الأقصى المطلوب ، وما يزيد على ذلك يتكفَّل الله تعالى به ، بقدرته الَّتي لا حدود لها ؛ وذلك لأنَّ فعل أقصىٰ المستطاع هو برهان الإخلاص ، وهو الشَّرط المطلوب ؛ لينزل عون الله ، ونصره(٢) .

إنَّ النِّداء اليوم موجَّهٌ لجماهير الأمَّة الإسلاميَّة ، بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن ، والغثاء ، إلى مرحلة القوَّة ، والبناء ، وأن يودِّعوا الأحلام ، والأمنيات ، وينهضوا للأخذ بكلِّ الأسباب ؛ الَّتي تعينهم على إقامة دولة الإسلام ، وصناعة حضارة الإنسان الموصول بربِّ العالمين .

وعلى الأمَّة أن تراعي سُنن الله المبثوثة في كونه ، والظَّاهرة في قرآنه الكريم ؛ وذلك لتسير على طريق النُّهوض بنورٍ من الله تعالى .

إنَّ النَّبيَّ ﷺ أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتَّى وفاته ، ولم يفرِّط في أيٍّ منها ، فتعامل مع سنَّة الله في تغيير النُّفوس ، وسنَّة التَّدافع مع الباطل ، وسنَّة التَّدرُّج في بناء الجماعة ، ثمَّ الدولة ، وسنَّة الابتلاء ، واستفرغ ﷺ جهده في الأخذ بالأسباب الَّتي توصل للتَّمكين ، فكانت

---

(١) انظر : التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٥٤ .

(٢) انظر : الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، ص ٦٤ .

هجرتا الحبشة ، وذهابه للطَّائف ، وعرضه للدَّعوة على القبائل ، ثمَّ هجرته إلى المدينة ، فأقام الدَّولة ، وحافظ عليها ، وسار أصحابه من بعده على نهجه ، وتعاملوا مع السُّنن بوعيٍ ، وبصيرةٍ ، وصنعوا حضارةً لم يعرف التَّاريخُ البشريُّ مثلها حتَّى يومنا هذا .

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة نورٌ يُهتدى به ، وسنَّةٌ يُقتدىٰ بها في هذه البحور المتلاطمة ، والمناهج المتغايرة ، والظَّلام البهيم ، وإنَّها ليسيرةٌ على من يسَّرها الله عليه .

* * *

المبحث الثَّاني

الهجرة إلى الحبشة[١]

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

فقد نقل القرطبيُّ ـ رحمه الله! قول قتادة ـ رحمه الله! ـ: «المراد أصحاب محمَّد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكَّة، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالبٍ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة[٣].

قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواسعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لمَّا ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المُنْزِلين هناك، أصحمةَ النَّجاشيَّ ملك الحبشة، رحمه الله تعالى!»[٤].

---

(١) ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٦٠٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٥/ ٢٤٠).
(٤) تفسير ابن كثير للآية رقم (٥٦) من سورة العنكبوت (٥/ ٣٣٥).

أولاً: الهجرة الأولىٰ إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الكفَّار يحبسونهم، ويعذِّبونهم بالضَّرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكَّة، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ومنهم من تصلَّب في دينه، وعصمه الله منهم، فلمَّا رأىٰ رسولُ الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله، ومن عمِّه أبي طالب، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافةَ الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام». [ابن هشام (١/ ٣٤٤)][1].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن آمن من قبائلهم، يعذِّبونهم، ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ؛ قال لِلَّذين آمنوا به: «تفرَّقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا»، وأشار إلى أرض الحبشة[2].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم»[3].

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول ﷺ يبحث عن قاعدةٍ أخرىٰ غير مكَّة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرِّيَّة، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة، حيث تظفر بحرية الدَّعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد، والفتنة، وهذا

---

(١) الهجرة في القرآن الكريم، لأحزمي سامعون، ص ٢٩٠.
(٢) المغازي النبَّويَّة، للزُّهري، تحقيق: سهيل زكَّار، ص ٩٦.
(٣) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٨).

في تقديري ، كان هو السَّبب الأوَّل ، والأهمَّ للهجرة ، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً ، وقوَّةً ، ومنعةً من المسلمين ، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا ، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد ، والتَّعذيب ، والفتنة لم يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ ، لهم من عصبيتهم ـ في بيئة قبليَّةٍ ـ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[1] .

ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه ، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) ـ رحمه الله! ـ: لها في السِّيرة ما يعضُدها ، ويساندها ، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة ، فلم نعلم أنَّ رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة ، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب ، وبدرٌ ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات ، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق ، وحين اطمأنَّ رسول الله ﷺ إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين ، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين ، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة ، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة ، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[2] .

ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة ، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل وجود مجالٍ للدَّعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصلاً بهذا الأمل»[3] . وذهب إلى هذا القول الدُّكتور سليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً ، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ ، وإسلام آخرين من أهل الحبشة ، وأمرٌ آخر ، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ ﷺ ، وتوجيهه ، فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ ﷺ وتوجيهه ، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريِّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله ﷺ بعثنا هنا ، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (٤٢٣٠)] .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩).

(٢) المنهج الحركي للسِّيرة (١/ ٦٧ ، ٦٨).

(٣) سيرة الرَّسول ﷺ (١/ ٢٦٥) عن الشَّامي ، ص ١١١ .

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ ـ ولا أشرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله ـ وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[١].

ومنها البحث عن مكانٍ آمنٍ للمسلمين:

كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأىٰ الرَّسول ﷺ: أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً آمناً للمسلمين، ريثما يشتدُّ عود الإسلام، وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمَّنهم، وطمأنهم، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لمَّا نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى»[٢].

٢ ـ لماذا اختار النَّبيُّ ﷺ الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

أ ـ النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ ﷺ إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[٣].

ب ـ النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (١٣٢٠) ومسلم (٩٥٢/٦٦)] ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين، وتأثُّره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسىٰ ـ عليه السَّلام ـ صحيحاً.

ج ـ الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً

---

(١) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، ص ٣٤.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، تحقيق: همام أبو صعليك (٤١٣/١).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٣٩٧/١).

لقريش ، يتَّجرون فيها ، يجدون فيها رَفَاغاً[(١)] من الرِّزق ، وأمناً ، ومتجراً حسناً»[(٢)] .

كما ذكر ابن عبد البرِّ : أنَّ رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعْب ، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكانت متجراً لقريش[(٣)] .

وذكر ابن حبَّان ـ ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة ـ : أنَّها كانت أرضاً دفيئة ، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[(٤)] .

د ـ الحبشة البلد الآمن :

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش ، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب ؛ إذ لها نفوذٌ عليها ، وكانت القبائل في حاجةٍ لقريش في حَجِّها ، وتجارتها ، ومواسمها ، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة ، وعدم الاستجابة للنبيِّ ﷺ ، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الَّذين رفضوا عرضه ، ودعوته[(٥)] ، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة ، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشة ، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانبٍ ، كما أنَّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[(٦)] . وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيارالحبشة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِدْقٍ ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[(٧)] ، فهي أرض صدقٍ ، وملكها عادلٌ ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الآمن[(٨)] .

هـ ـ محبة الرَّسول ﷺ للحبشة ، ومعرفته بها :

ففي حديث الزُّهريِّ : أنَّ الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها[(٩)] ، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها :

* حكم النَّجاشيِّ العادل .

* التزام الأحباش بالنَّصرانيَّة ، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنيَّة ؛ ولذلك فرح المؤمنون

---

(١) رَفَاغاً : الرَّفْغ والرَّفاغة : سعة العيش ، والخصب .
(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير ، ص ١٠٤ .
(٣) انظر : الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ، ص ٢٧ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء ، ص ٧٢ .
(٥) السِّير والمغازي ، تحقيق سهيل زكَّار ، ص ٢٣٢ .
(٦) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه في القرآن والسُّنَّة ، ص ٩٧ .
(٧) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٩٧) .
(٨) الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٦ .
(٩) مغازي الزُّهري ، ص ٩٦ .

بانتصار الروم النَّصارى على فارسٍ المجوس المشركين ، في الفترة المكِّية سنة ثمانٍ من البعثة ، كما في القرآن[١] .

* معرفة الرَّسول ﷺ بأخبار الحبشة ، من خلال حاضنته أمِّ أيمن رضي الله عنها ، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ ، وغيره : أنَّها كانت حبشيَّةً [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] ، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ ، وفي سنن ابن ماجه : أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ ﷺ طعاماً ، فقال : ما هذا؟ فقالت : طعام نصنعه بأرضنا ، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً . [ابن ماجه (٣٣٣٦)] .

ولم تستطع أن تغيِّر لكنتها الحبشية ، ورخَّص لها النَّبيُّ ﷺ فيما لا تستطيع نطقه ، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيِّ ﷺ عن طبيعة أرضها ، ومجتمعها ، وحكَّامها[٢] ، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه .

٣ـ وقت خروج المهاجرين ، وسرِّيَّة الخروج ، والوصول إلى الحبشة :

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة ، وكانوا عشرة رجالٍ ، وأربع نسوةٍ ، وقيل : خمس نسوةٍ ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة ، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر ، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا ، متوجِّهين إلى الحبشة[٣] .

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديِّ : «فخرجوا متسلِّلين سرّاً»[٤] ، وعند الطَّبريِّ[٥] ، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة : ابن سيِّد النَّاس[٦] ، وابن القيِّم[٧] ، والزُّرقانيُّ[٨] . ولمَّا وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مثواهم ، وأحسن لقاءهم ، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة ، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم ، وأهليهم ، فعن أمِّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت : «لمَّا نزلنا أرض الحبشة ، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ ـ النَّجاشيَّ ـ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه» [سبق تخريجه] .

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ١٥٢).
(٢) انظر : الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٨ ، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده.
(٣) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٤).
(٥) تاريخ الطَّبري (٢/ ٣٢٩).
(٦) عيون الأثر (١/ ١١٦).
(٧) زاد المعاد (٣/ ٢٣).
(٨) شرح المواهب (١/ ٢٧١).

أسماء أصحاب الهجرة الأولىٰ إلى الحبشة :

*** الرِّجال :**

ـ عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس .

ـ عبد الله بن عوف بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة .

ـ الزُّبير بن العوَّام بن خُوَيلد بن أسد .

ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار .

ـ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ـ عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح .

ـ عامر بن ربيعة ، حليف آل الخطَّاب من عَنْز بن وائل .

ـ سُهَيل بن بيضاء ، وهو : سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث .

ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر .

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة .

*** النِّساء :**

ـ رقيَّة بنت النَّبيِّ ﷺ .

ـ سهلة بنت سهيل بن عمرو ، أحد بني عامر بن لؤي ، والَّتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة ، وولدت له بأرض الحبشة محمَّد بن أبي حذيفة .

ـ أمُّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، امرأة أبي سلمة .

ـ ليلى بنت أبي حَثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد ابن عويج بن عديٍّ بن كعب ، امرأة عامر بن ربيعة .

ـ أمُّ كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، امرأة أبي سَبْرة بن أبي رُهْم[(١)] .

وكان أول من هاجر منهم ، عثمان بن عفان ، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، فقد روى

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٩٦ ، ٩٧) ، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤ ـ ٣٥٢) والهجرة في القرآن الكريم ص ٢٩٢ إلى ٢٩٤ .

يعقوب بن سفيان: «إنَّ عثمان لأوَّلُ مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)][١].

إنَّ المتأمِّل في الأسماء سالفة الذِّكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي، الَّذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشدُّ من غيرهم، كبلال، وخبَّاب، وعمَّار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب، والمكانة في قريشٍ، ويمثِّلون عدداً من القبائل، صحيحٌ: أنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنَّه كان على الموالي أشدَّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة، وترعى النَّسب، وبالتَّالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعذَّبون أحقَّ بالهجرة من غيرهم، ويؤيِّد هذا: أنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[٢].

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمَّةٍ، ألا وهي: أن ثَمَّةَ أسباباً أخرىٰ تدفع للهجرة غير الأذىٰ، اختار لها النَّبيُّ ﷺ نوعيةً من أصحابه، تُمثِّل عدداً من القبائل، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ، وتهزُّ هجرتهم قبائل قريش كلَّها، أو معظمها من جانبٍ آخر، فمكَّة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ آخر، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب، وأبرك للدَّعوة إلى الله، فتنفتح عقولٌ وقلوبٌ حين يستغلق سواها[٣].

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولىٰ:

١ ـ شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين، قاصدين بذلك ترويجها، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّىٰ؛ فمنهم مَنْ يذكرها، ويسكت عنها، لا ينفيها، ولا يثبتها، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[٤].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله ﷺ جلس يوماً عند الكعبة، وقرأ سورة النَّجم،

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٦٧)، نقلاً عن (الهجرة في القرآن الكريم)، ص ٢٩٤.
وانظر: فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٧٢).
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٥٦ ـ ١٩٨)، وابن هشام (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٦).
(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٣٧.
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٥.

حتَّى بلغ قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى»، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخيرٍ قبل اليوم، وقد علمنا أنَّ الله يرزق، ويحيي، ويميت، ولكنَّ آلهتنا تشفع عنده، فلمَّا بلغ السَّجدة سجد، وسجد معه المسلمون، والمشركون كلُّهم، إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته كفّاً من حصىً، فسجد عليه[1].

وصَافَىٰ المشركون رسول الله ﷺ، وكفُّوا عن أذىٰ المسلمين، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة، وممارستهم عباداتهم آمنين، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة، والَّذين ذكروا القصَّة ـ مع اختلاف مواقفهم منها ـ يقولون: إنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قالت قريش: «إمَّا جعلت لآلهتنا نصيباً، فنحن معك» كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمسى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه سورة النَّجم، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصد «تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول ﷺ حزناً شديداً، وخاف من ربِّه، فأنزل الله عليه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] [الحج: ٥٢]، وحينئذٍ عاد الرَّسول ﷺ إلى عيب آلهتهم، وتسفيه عقولهم، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

٢ ـ تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّة الكثير من علماء الإسلام السَّابقين، والمُحْدَثين، نقلاً، وعقلاً؛ وذلك لأنَّها تتنافىٰ مع عصمة الرَّسول ﷺ؛ بل وتطعن في نبوَّته ﷺ، كما أنَّها تتهاوىٰ أمام البحث العلميِّ، **ومن الأدلة النقليَّة على بطلانها:**

أ ـ أنَّ القرآن الكريم بيَّن بوضوح: أنَّ النبي ﷺ لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

ب ـ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنَّه يحفظ القرآن من أن يُدخل عليه ما ليس منه، أو يُنقص منه شيءٌ، أو يُحرَّف عن مواضعه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولو صحَّ: أنَّ الرَّسول ﷺ نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين، لدخل في القرآن ما ليس منه، فلا يكون هناك حفظٌ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

---

(١) انظر: مختصر سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص ٨٤.

(٢) فتح القدير (٣/٤١٦)، وفتح الباري (٨/ ٣٥٥)، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين (٢/١٦)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٦.

ج ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، وهل هناك بشرٌ أصدق إيماناً، وأشدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء، ولا سيَّما خاتمهم ﷺ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد ﷺ على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله(١).

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ، إلا رواية البزَّار، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره، وفيه ما فيه(٢).

ورأىٰ ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك ـ السُّجود من المشركين ـ بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ لا صحَّة له عقلاً، ولا نقلاً(٣).

ورأىٰ ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنَّها من طرقٍ كلُّها مرسلةٌ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم(٤).

* **وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل:** فقد قام الدَّليل العقليُّ، وأجمعت الأمَّة، على عصمته ﷺ من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول ﷺ لجاز عليه الكذب، والكذب على الرَّسول ﷺ محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصَّة عن الرَّسول ﷺ محالٌ، ولو قاله عمداً، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ، وهو مردودٌ، كما أنَّ القصَّة تخالف عقيدة التَّوحيد الَّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه ﷺ.

* **وأمَّا بطلان القصَّة لغويّاً:** فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا آلهتهم بـ(الغرانيق)، في الشِّعر، ولا في النَّثر، والَّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيٍّ أسود، أو أبيض، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل(٥)، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الآلهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الَّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان، فكيف

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٨.
(٢) انظر: الشِّفا (٢/١١٧).
(٣) فتح الباري، عند شرح حديث رقم (٤٨٦٢).
(٤) تفسير ابن كثير والبغوي (٦/ ٦٠٠ وما بعدها)، نقلاً عن الهجرة في القرآن، ص ٢٩٨.
(٥) القاموس المحيط (٣/ ٢٨١) مادَّة (الغرنوق).

يفرح به المشركون ، ويعتبرونه ذكراً لآلهتهم بالخير؟![١].

إنَّ قصَّة الغرانيق لا تثبت من جهة النَّقل ، وهي مخالفةٌ للقرآن الكريم ، ولما قام عليه الدَّليل العقلي ، كما أنكرتها اللُّغة ، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ ، اختلقته الزَّنادقة ، الَّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين ، والطَّعن في سيِّد الأنبياء ، وإمام المرسلين ﷺ[٢].

٣ ـ الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين :

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة ، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة ، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل ، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة ؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله ﷺ ؛ عصبيَّةً لابن أخيه ، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام ؛ فثبت عليه ، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش ، وأشدَّهم شكيمةً ، فلمَّا دخل في الإسلام ؛ عرفت قريش : أنَّ رسول الله ﷺ قد عزَّ ، وامتنع ، وأنَّ عمه سيمنعه ، ويحميه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[٣].

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام ، فلمَّا أسلم ؛ امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ ، وبحمزة ؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[٤].

كان إسلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة ، فكان إسلامهما عزَّةً للمسلمين ، وقهراً للمشركين ، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم .

قال ابن مسعودٍ : «إنَّ إسلامِ عمرَ كان فتحاً ، وإنَّ هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمةً ، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً ؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة ، وصلَّينا معه»[٥].

وعن ابن عمر قال : لمَّا أسلم عمر ؛ قال : أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له : جميل بن مَعْمر الجُمَحي ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت معه أتبع أثره ، وأنظر ماذا يفعل ، حتَّى جاءه ، فقال له : أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت ، ودخلت في دين محمَّد؟ قال : فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه ، وتبعه عمر ، واتَّبعتُ أبي ؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلىٰ

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة ، لأبي شهبة (١/ ٣٧٢).
(٣) مختصر سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٩٠ .
(٤) السِّيرة النَّبويَّة (١/ ٢٩٤) ، وعازُّوا قريشاً : أي : غلبوهم.
(٥) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٦٥).

صوته: يا معشر قريش! ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[١]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبده، ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم، ويقاتلونه، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ، لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا[٢].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة، وعمر رضي الله عنهما، واستطاعوا أن يصلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتَّى دخلوا المسجد، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفىٰ على أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المسلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصلهم، ولا شكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً، ولا يستغرب أحدٌ بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن ـ وهو فطرةٌ فطر الله عليها جميع المخلوقات ـ قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكَّة أمِّ القرى، وإلى حيث يوجد الأهل، والعشيرة، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة، والمشجِّعة، وتحت إلحاح النَّفس، وحنينها إلى حرم الله، وبيته العتيق»[٣].

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بسبب ما علموا من إسلام حمزة، وعمر، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين، سيعتزُّ به المسلمون، وتقوىٰ به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشاً واجهت إسلام حمزة، وعمر رضي الله عنهما، بتدبيراتٍ جديدة، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ، والقسوة، والعنف من ناحيةٍ أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، سلاحاً قاطعاً، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية ـ وقد تحدَّثت عنه ـ وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[٤].

---

(١) صبأ: خرج من دين إلى دينٍ آخر، القاموس المحيط، باب الهمزة (١/ ٢٠).
(٢) سبل الهدى والرَّشاد للصالحي (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩).
(٣) تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد سيد الوكيل، ص ٥٩، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٢.
(٤) انظر: القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين ﷺ، د. محمد النَّجار، ص ١١١، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٢.

ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لمَّا قدم أصحاب النَّبيِّ ﷺ مكَّة من الهجرة الأولىٰ؛ اشتدَّ عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرَّةً ثانيةً، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشقَّةً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذىٰ، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولىٰ وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى، وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[١]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدَّتهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السِّير كالواقديِّ، وابن عقبة، وغيرهما[٢]، وثماني عشرة امرأةً: إحدى عشرة قرشيَّاتٌ، وسبعٌ غير قرشيَّاتٍ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[٣].

١ ـ سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لمَّا رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنُّوا بأرض الحبشة، وأنَّهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً، وحُسْنَ جوارٍ من النَّجاشيِّ، وعبدوا الله، لا يؤذيهم أحدٌ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضار مَنْ عنده من المسلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النَّجاشيِّ عن حوارٍ هادف، دار بين أحد المهاجرين، وهو جعفر بن أبي طالب، وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النَّجاشيِّ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[٤].

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّة بن المغيرة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: لمَّا نزلنا أرض الحبشة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشيِّ)؛ أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلمَّا بلغ ذلك قريشاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشي فينا رجلين جَلْدين[٥]، وأن يُهْدوا

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧) (ط. بيروت)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٣.
(٢) انظر: الرَّوض الأنف، للسهيلي (٣/ ٢٢٨).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٣.
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٤.
(٥) الجلد: القوَّة والشدَّة.

للنَّجاشيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع مكَّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَم[١] ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته[٢] بِطْريقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً ، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ ، وعمرو بن العاص بنِ وائل السَّهميَّ ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشيَّ فيهم ، ثمَّ قدِّما للنَّجاشيِّ هداياه ، ثمَّ سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم . قالت : فخرجا ، فقدما على النَّجاشيِّ ، ونحن عنده بخير دارٍ ، وخير جارٍ ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشيَّ ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم : إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ؛ لتردُّوهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملك فيهم ؛ فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا ، ولا يكلِّمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[٣] ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشيِّ ، فقبلها منهما ، ثمَّ كلَّماه ، فقالا له : أيها الملك! إنَّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنت ، وقد بَعَثَنَا فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ؛ لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النَّجاشيُّ كلامهم ، فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأَسْلِمْهم إليهما ، فليردَّانهم إلى بلادهم ، وقومهم .

قالت : فغضب النَّجاشيُّ ، ثمَّ قال : لا هَيْمُ[٤] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[٥] ، قوماً جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على مَنْ سواي ، حتَّى أدعوهم ، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون ؛ أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك ؛ منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ، ما جاوروني[٦] .

---

(١) الأدم : جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ .
(٢) جمع بطريق : وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم .
(٣) أعلى بهم عيناً : قال السُّهيلي : أي : أبصر بهم ، أي : أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر : الرَّوض الأنف (١/ ٩٢) .
(٤) والمعنى : لا والله!
(٥) لا أكادُ : أي : ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام : ولا يَكادُ قوم جاوروني .
(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٠) وقال : إسناده صحيح ، ورقمه (٢٢٤٩٨) .

٢ ـ حوارٌ بين جعفر ، والنَّجاشيِّ :

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلمَّا جاءهم رسوله؛ اجتمعوا ، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ : ما تقولون للرَّجل ؛ إذا جئتموه؟ قالوا : نقول والله ما علَّمنا ، وما أَمَرَنا به نبيُّنا ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن . فلمَّا جاؤوه ، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته[١] ، فنشروا مصاحفهم[٢] حوله ، سألهم ، فقال : ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت : فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له : أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا على ذلك ، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسولاً نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزُّور ، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة ، والزَّكاة ، والصِّيام. قالت : فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه ، وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلمَّا قهرونا ، وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك[٣] .

قالت : فقال له النَّجاشيُّ : هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر : نعم ، فقال له النَّجاشيُّ : فاقرأه عليَّ .

فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، قالت : فبكى ، والله النَّجاشيُّ ، حتَّى أَخْضَلَ[٤] لحيته ، وبكت أساقفته ، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثمَّ قال النَّجاشيُّ : إنَّ هذا ـ والله! ـ والَّذي جاء به موسىٰ ، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ ،

---

(١) أساقفته : جمع الأسقف ، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى .
(٢) أي : أناجيلهم ، وكانوا يسمُّونها مصاحف .
(٣) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣).
(٤) ابتلت بالدُّموع : يقال خضل وأخضل : إذا ندي ، النهاية (٣/ ٤٣).

انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً ، ولا يُكادون[١] .

٣ ـ محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ :

قالت : فلمَّا خرج كلٌّ من : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، من عند النَّجاشيِّ ؛ قال عمرو بن العاص : والله! لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[٢] . قالت : فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقىٰ الرَّجلين فينا ـ : لا تفعل ؛ فإنَّ لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون : أن عيسى ابن مريم عبدٌ ، قالت : ثمَّ غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ؛ فأرسل إليهم ، فاسألهم عمَّا يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قطُّ ، فاجتمع القوم ، فقال بعضهم لبعضٍ : ماذا تقولون في عيسىٰ إذا سألكم عنه؟ قالوا : نقول ـ والله! ـ فيه ما قاله الله ، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلمَّا دخلوا عليه ؛ قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ : نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا ، هو عبد الله ، ورسولُه ، وروحه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء[٣] البَتُول[٤] .

قالت : فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثمَّ قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود ، فتناخرت[٥] بطارقتُه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الآمنون) ؛ من سبَّكم غَرِمَ ، ثمَّ من سبَّكم غرم ، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً ، وأنِّي آذيتُ رجلاً منكم ، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل ، ردُّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لنا بها ، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي ؛ فآخذَ الرَّشوة فيه ، وما أطاع النَّاس فيَّ ، فأطيعهم فيه ، قالت : فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ . [أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) و(٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) وابن هشام (١/ ٣٥٧ ـ ٣٦٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٩٤) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤)] .

٤ ـ إسلام النَّجاشيِّ :

وقد أسلم النَّجاشيُّ ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ ، وإن كان قد أخفىٰ إيمانه عن قومه ؛ لِمَا علمه

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣) ، ولا يُكادون : لعل المعنَى : ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم ، ويعذِّبوهم .
(٢) أستأصل به خضراءهم : أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم .
(٣) العذراء : الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ ، وهي البكر .
(٤) يقال امرأة بتول : منقطعة عن الرِّجال ، لا شهوة لها فيهم .
(٥) فتناخرت : أي : تكلَّمت ، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ .

فيهم من الثَّبات على الباطل ، وحرصهم على الضَّلال ، وجمودهم على العقائد المنحرفة ـ وإن صادمت العقل ، والنَّقل ـ [البخاري (١٢٤٥) ومسلم (٩٥١/٦٢ و٦٣)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : «أنَّ رسول الله ﷺ نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلَّى ، فصفَّ بهم ، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»[١] ، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال : قال النَّبيُّ ﷺ حين مات النَّجاشيُّ : «مات اليوم رجلٌ صالحٌ ؛ فقوموا ، فصلُّوا على أخيكم أصحمة» [البخاري (٣٨٧٧)] . وكانت وفاته ـ رحمه الله ! ـ سنة تسعٍ عند الأكثر ، وقيل : سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»[٢] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد :

١ ـ إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم ، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار ، والضَّالون أنواع العذاب ، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسموٌّ نفوسهم ، وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير ، واطمئنان النَّفس والعقل . وما يأملونه من رضا الله ـ جلَّ شأنُه ـ ، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم ، من تعذيبٍ ، وحرمانٍ ، واضطهادٍ ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين ، والدُّعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم ، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم ، من راحةٍ ، وشبعٍ ، ولذَّةٍ ، وبهذا تنتصر الدَّعوات ، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات ، والجهالات[٣] .

٢ ـ ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة ، شفقة الرَّسول الكريم ﷺ على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل ؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده ، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[٤] ، فالرَّسول ﷺ هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الَّذي اختار المكان الآمن لجماعته ، ودعوته ؛ كي يحميها من الإبادة ، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة ، والدُّعاة ، وتبحث عن الأرض الآمنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها ـ فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر ، أو وقع احتمال اجتياحه ـ فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية ، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم ، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم ، وأمنهم ، ومسلمٌ

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٠٩ .
(٢) أسد الغابة (١/ ٩٩) ، والإصابة (١/ ١٠٩) .
(٣) السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص ٥٧ .
(٤) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٢ .

واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله ، وتوحيده[١] .

٣ ـ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً ، ولذلك حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف ، كشرح قضيَّة الإسلام ، وموقف قريشٍ منه ، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ ، يشرح قضاياها ، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[٢] ، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة ، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر ، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب ، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[٣] .

٤ ـ إنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله ﷺ جعفر ، وصهره عثمان ، وابنته رقيَّة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر ، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة ؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ ﷺ[٣] .

٥ ـ مشروعية الخروج من الوطن ـ وإن كان الوطن مكَّة على فضلها ـ إذا كان الخروج فراراً بالدِّين ـ وإن لم يكن إلى دار إسلام ـ فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارىٰ ، يعبدون المسيح ، ولا يقولون: هو عبد الله ، وقد تبيَّن ذلك في هذا الحديث ـ يعني: حديث أمِّ سلمة المتقدِّم ـ وسُمُّوا بهذه مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق ، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ .

وجاء في التفسير: إنَّهم هم الذين شهدوا بيعة الرِّضوان[٤] ، فانظر كيف أثنىٰ الله عليهم بهذه الهجرة ، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر لمَّا كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم ، ورجاء أن يُخلي بينهم وبين عبادة ربهم ؛ يذكرونه آمنين مطمئنين ، وهذا حكمٌ مستمرٌّ متى غلب المنكر في بلدٍ ، وأوذي على الحقِّ مؤمنٌ ، ورأىٰ الباطل قاهراً للحقِّ ، ورجا أن يكون في بلدٍ آخر ـ أيِّ: بلدٍ كان ـ يخلَّى بينه وبين دينه ، ويظهر فيه عبادة ربِّه ؛ فإن الخروج على هذا الوجه حقٌّ على المؤمن ، هذه هي الهجرة ؛ الَّتي لا تنقطع إلى يوم القيامة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥][٥] .

٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواءٌ كان المُجِير من أهل الكتاب كالنَّجاشي ؛ إذ كان نصرانياً عندئذٍ ، ولكنَّه أسلم بعد ذلك، أو كان

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان (١/ ٣٣٣) .
(٢) أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٤٢٧ .
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٣) .
(٤) تفسير الطَّبري (١١/ ٦) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣١) .
(٥) الرَّوض الأنف ، للسُّهيليِّ (٢/ ٩٢) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٢ .

مشركاً؛ كأولئك الَّذين عاد المسلمون إلى مكَّة في حمايتهم، عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالبٍ عمِّ رسول الله ﷺ، وكالمُطْعِم بن عديٍّ، الذي دخل الرَّسولُ ﷺ مكةَ في حمايته عندما رجع من الطَّائف(١).

وهذا مشروطٌ ـ بحكم البداهة ـ بألاَّ تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرَّمات، وإلاَّ لم يَجُزْ للمسلم الدُّخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه ﷺ حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه، ولا يحمِّله ما لا يطيق، فلا يتحدَّث عن آلهة المشركين بسوءٍ، فقد وطَّن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمِّه، وأبى أن يسكت عن شيءٍ ممَّا يجب عليه بيانه، وإيضاحه(٢).

٧ ـ إنَّ اختيار الرَّسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول ﷺ بما حوله من الدُّول، والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها، وعادلها مِنْ ظالمها، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ آمنةٍ لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله، مطَّلعاً على أحوال، وأوضاع الأمم، والحكومات(٣).

٨ ـ يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلُّلاً، وخفيةً؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ، فتحبطه، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيِّقٍ، لم يزد على ستة عشر فرداً، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسلُّلهم، فرداً، أو فردين، وفي الوقت ذاته يساعد على السَّير بسرعةٍ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ، ولعلَّ السِّرِّيَّة المضروبة على هذه الهجرة، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخَّراً، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم، لكنَّها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة(٤).

٩ ـ لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها في المستقبل، فربَّما تكبر الجالية هناك، وتصبح قوَّةً خطرةً، ولذلك جدَّ المشركون، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع

---

(١) الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣١٦.
(٢) فقه السيرة، للبوطي، ص ١٢٦، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣١٧.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١٠١.
(٤) المصدر السَّابق نفسه.

هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا ، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا ، وصفات السُّفراء ، فعمرٌو من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء . ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا ، وألا ننام عن مخطَّطاته ، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![1].

١٠ ـ نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً ، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة ، ودينهم القويم .

١١ ـ اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي ، طلب منهم الحضور ، وتدارسوا الموقف ، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ . وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ ، ألا وهو : أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[2].

١٢ ـ كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث ، ولذلك وُضِع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة ، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها : أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله ﷺ ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة ، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة .

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ ، وفصاحةٍ ، وبنو هاشم قمَّةُ قريش نسباً ، وفضلاً ، وجعفر في الذُّؤابة[3] من بني هاشم ، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة ، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً ، وأوسطهم نسباً .

وهو ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً ، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[4].

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٣١٧).
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/ ٩٢).
(٣) الذُّؤابة من كلِّ شيء : أعلاه .
(٤) التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٥).

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوَّة ، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصلاب بني هاشم ، فقد قال رسولُ الله ﷺ لجعفر : «أشبهت خَلْقي ، وخُلُقي» [البخاري (٢٦٩٩) والترمذي (٣٧٦٥)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان ، وكرِّ العصور ، فقد اتَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام ، والانتماء إليه ، والفصاحة ، والعلم ، وحسن الخلق ، والصَّبر ، والشَّجاعة ، والحكمة ، وسعة الحيلة ، والمظهر الجذَّاب[١] .

١٣ ـ كان عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو يمثِّل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله ﷺ على مستوىً كبيرٍ من الذَّكاء ، والدَّهاء ، والمكر ، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كلَّ ما لديه من حُجَّةٍ ، وألقىٰ بها بين يدي النَّجاشيِّ ، من خلال النقاط الآتية : تحدَّث عن بلبلة جوِّ مكة ، وفساد ذات بينها ، من خلال دعوة محمَّد ﷺ ، وهو سفير مكَّة ، وممثِّلها بين يدي النَّجاشيِّ ، فكلامه مصدَّقٌ ، لا يعتريه الشَّكُّ ، وهو عند النَّجاشيِّ موضع ثقةٍ .

وقد تحدث عن خطورة أتباع محمَّدﷺ ، فربما يزلزلون الأرض تحت قدمي النَّجاشيِّ ، كما أفسدوا جوَّ مكَّة ، ولولا حبُّ قريش للنَّجاشيِّ ، وصداقتها معه؛ ما تعنَّوا هذا العناء لنصحه : «وأنت لنا عَيْبَة صدقٍ ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقلَّ من ردِّ المعروف بمثله ، وتحذيره من هذه الفتنة المخيفة .

وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النَّجاشيِّ ، وكفرهم بها : فهم لا يشهدون : أنَّ عيسىٰ ابن مريم إلٰهٌ ، فليسوا على دين قومهم ، وليسوا على دينك؛ فهم مبتدعةٌ ، دعاة فتنةٍ .

ودليل استصغارهم لشأن الملك ، واستخفافهم به : أنَّ كل النَّاس يسجدون للملك لكنَّهم لا يفعلون ذلك ، فكيف يتمُّ إيواؤهم عندك ، وهو عودةٌ إلى إثارة الرُّعب في نفسه من عدم احترام الدُّعاة له ، حين يستخفُّون بملكه ، ولا يسجدون له ، فكان على جعفر أن يفنِّد كلَّ الاتِّهامات الباطلة ، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[٢] .

١٤ ـ كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشيِّ في غاية الذَّكاء ، وقِمَّة المهارة السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والدَّعويَّة ، والعقديَّة؛ فقد قام بالتَّالي :

* عدَّد عيوب الجاهليَّة ، وعرضها بصورةٍ تنفِّر السَّامع ، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك ، وركَّز على الصِّفات الذَّميمة؛ الَّتي لا تُنتزع إلا بنبوَّة .

* عرض شخصيَّة الرَّسول ﷺ ، في هذا المجتمع الآسن[٣] ، المليء بالرَّذائل ، وكيف كان

---

(١) انظر : سفراء النَّبيِّ ﷺ لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٢ إلى ٣١٧) .

(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٣١٩ ، ٣٤٠) .

(٣) الآسن : المتغيِّر الفاسد .

بعيداً عن النَّقائص كلِّها ، ومعروفاً بنسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فهو المؤهَّل للرِّسالة .

* أبرز جعفر محاسن الإسلام ، وأخلاقه ، الَّتي تتَّفق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛ كنبذ عبادة الأوثان ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم ، والدِّماء ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتي بعثوا بها من لدن موسىٰ ، وعيسى عليهما الصَّلاة ، والسَّلام .

* فضح ما فعلته قريشٌ بهم ؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان ، وآمنوا بما نُزِّل على محمَّد ﷺ ، وتخلَّقوا بخلقه .

* أحسن الثَّناء على النَّجاشيِّ بما هو أهله ، بأنَّه لا يُظْلم عنده أحدٌ ، وأنَّه يقيم العدل في قومه .

* وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفاً من دون النَّاس ، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البيِّنة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرٍو ، وفصاحته ، واستأثر بلُبِّ النَّجاشي ، وعقله ، وكذلك استأثر بلُبِّ وعقل البطارقة ، والقسِّيسين الحاضرين .

وعندما طلب الملك النَّجاشيُّ شيئاً ممَّا نُزِّل على محمَّد ﷺ ؛ جاء صدر سورة مريم ، في غاية الإحكام والرَّوعة ، والتأثير ، حتَّى بكى النَّجاشيُّ ، وأساقفته ، وبلُّوا لحاهم ، ومصاحفهم من الدُّموع ، واختيار جعفر لسورة مريم يُظْهر بوضوحٍ حكمة وذكاء مندوب المهاجرين ، فسورة مريم تتحدَّث عن مريم وعيسى عليهما السَّلام[١] .

إنَّ عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع ، والزَّمن المناسب ، والقلب المتفتِّح ، والشُّحنة العاطفيَّة أدت إلى أن يربح الملكَ إلى جانبه[٢] .

كان ردُّه في قضية عيسى ـ عليه السَّلام ـ دليلاً على الحكمة ، والذَّكاء النَّادر ، فقد ردَّ بأنهم لا يُؤَلِّهون عيسى ابن مريم ، ولكنَّهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السَّلام ـ كما يخوض الكاذبون؛ بل عيسى ابن مريم كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطَّاهرة ، وليس عند النَّجاشي زيادة عمَّا قال جعفر ، ولا مقدار هذا العود[٣] .

هم لا يسجدون للنَّجاشي ، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً! ولا ينبغي السُّجود إلا لله؛

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠٦ .

(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٢).

لكنَّهم لا يستخفُّون بالملك؛ بل يوقِّرونه ، ويسلِّمون عليه كما يسلِّمون على نبيِّهم ، ويحيُّونه بما يُحيي أهلُ الجنَّة أنفسَهم به في الجَنة[٣] .

انتهى الأمر بأن أعلن النَّجاشيُّ صدق القوم ، وأيقن بأنَّ هؤلاء صدِّيقون ، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله ﷺ ، الَّذي يأتيه ناموسٌ كناموس موسىٰ ، وأن يتقرَّب إلى الله بحماية أصحابه ، وأكَّد لعمرٍو: أنَّه لا يضيره تجارة قريش ، ولا مال قريش ، ولا جاهها ، ولو قطعت علاقتها معه[١] .

١٥ ـ انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيّاً ، ومعنويّاً ، وإعلاميّاً أمام مقاومة المسلمين الموفَّقة ، وخطواتهم ، وأساليبهم الرَّصينة .

١٦ ـ كان موقف جعفر ، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسول الله ﷺ : «من التمس رضا الله بسخط النَّاس؛ كفاه الله مُؤْنَةَ النَّاس ، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس» [الترمذي (٢٤١٤) وابن حبان (٢٧٦) وابن المبارك في الزهد (٦٦)] فهؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع أنَّ الظَّاهر في الأمر: أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضيَّة سخط أولئك النَّصارى ، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النَّتيجة: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سخَّر لهم ملك الحبشة ، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ ﷺ ، مع مخالفته الصَّريحة لمعتقدهم المنحرف؛ الَّذي قام عليه مُلْكُهُم ، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه[٢] .

١٧ ـ كان عند بعض النَّصارى إيمانٌ صحيحٌ بدينهم ، ولكنَّهم يكتمون ذلك ، لكون الغلبة والسِّيادة في الأرض لأصحاب الدِّين المحرَّف ، ومن الَّذين كانوا على الاعتقاد الصَّحيح ملك الحبشة ، وكان يخفي إيمانه هذا مداراةً لقومه ، وإبقاءً على نفسه ، وملكه ، فلمَّا وقع في هذا الابتلاء؛ أظهر إيمانه ، إرضاءً لربِّه ، وإراحةً لضميره ، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين ، مهما ترتَّب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التَّاريخ[٣] .

١٨ ـ ومن دروس هجرة الحبشة: أنَّ الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحةٍ لا يضرُّ . قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: وهو يقرِّر العذر بالجهل: «ولمَّا زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة ، كان مَنْ بعيداً عنه ـ مثل من كان بمكَّة ، وبأرض الحبشة ـ يصلُّون ركعتين ، ولم يأمرهم النَّبيُّ ﷺ بإعادة الصَّلاة»[٤] .

---

(١) انظر: التربية القياديَّة (١/ ٣٤٢) .
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/ ١٠٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٦) .
(٤) الفتاوى (٢٢/ ٤٣) .

وقال الذَّهبيُّ: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجَّة، وقد كان سادة الصَّحابة بالحبشة ينزل الواجب، والتَّحريم على النَّبيِّ ﷺ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»(١).

١٩ ـ ومن دروس هجرة الحبشة تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهاداً، ميَّز الله أصحابها، وخصَّهم بالذِّكر، والفضيلة، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة، وإن تأخر لحوقهم بالنَّبيِّ ﷺ حتَّى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكَّده النَّبيُّ لأصحاب السَّفينتين(٢)، فعن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: ودخلت أسماءُ بنت عُمَيس ـ وهي ممَّن قدم معنا ـ على حفصةَ زوج النَّبيِّ ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنت عُمَيس، قال عمر: آلحبشيةُ هذه؟ آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنَّا في دار ـ أو في أرض ـ البُعَداء البُغَضَاءِ بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله ﷺ. وايمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شَراباً، حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى، ونُخاف، وسأذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاء النَّبيُّ ﷺ قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال: كذا، وكذا. قال: «وما قلت له؟» قالت: قلتُ له: كذا، وكذا. قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسىٰ، وأصحاب السَّفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ. [البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣)].

٢٠ ـ كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من آثار الهجرة للحبشة، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشيِّ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر(٣)، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ، كما يقول الزُّرقاني(٤)، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

(١) الكبائر، ص ١٢.
(٢) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٢٠٥.
(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ١٦٧.
(٤) انظر: شرح المواهب (١/ ٢٧٦).

٢١ ـ يرتبط زواج الرَّسول ﷺ بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً ، ويحمل هذا الزَّواج منه ﷺ لإحدىٰ المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً ، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة ، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة ، فقد روىٰ أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فمات بأرض الحبشة ، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ ﷺ ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إلى الرَّسول ﷺ مع شُرَحبيل بن حسنة . [أبو داود (٢١٠٧)] .

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمِّ ، متابعةَ الرَّسول ﷺ لأحوال المهاجرين ، ومشاركتهم في مصابهم ، وتطييب أنفس الصَّابرين ، وتقدير ثبات الثَّابتين . وبالتَّتبُّع لأحوال المهاجرات ، لا نجد (أمَّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الَّتي يُعنى الرَّسول الكريم ﷺ بأمرها ، ويواسيها في مصابها ، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[(١)] ، فلمَّا رجعت مع زوجها إلى مكَّة من الحبشة ، توفِّي زوجها السَّكران بن عمرو ، فلمَّا حلَّت؛ أرسل إليها ﷺ ، وخطبها ، فقالت : أمري إليك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ : «مُري رجلاً من قومك يزوِّجك ، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ ، فزوَّجها ، فكانت أوَّل امرأة تزوَّجها رسول الله ﷺ بعد خديجة[(٢)] .

وهذان الحدثان مؤشِّران من مؤشِّرات حِكَم تعدُّده ﷺ في الزَّواج بشكلٍ عامٍّ ، ولهما دلالتهما ، وحكمتهما بالاهتمام بالنِّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ ، هذا فضلاً عمَّا يمكن أن يقال من أنَّ الرَّسول ﷺ كان يهدف أيضاً من وراء الزَّواج بأمِّ حبيبة ، تخفيف عداوة «بني أميَّة» بشكلٍ عامٍّ ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصَّ للإسلام ، ونبيِّه ، والمسلمين[(٣)] .

فالتَّأليف للإسلام واردٌ في السِّيرة ، والرَّسول ﷺ كان حريصاً على قومه بكلِّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام[(٤)] .

٢٢ ـ يرى بعض الباحثين : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى الحبشة ، لأسبابٍ كثيرة؛ منها :

---

(١) انظر : الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٨٨ .
(٢) الطَّبقات (٨/ ٣) .
(٣) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .
(٤) انظر : شرح المواهب (١/ ٢٧١) .

ـ أنَّه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النَّبيِّ ﷺ دار الهجرة: أرضاً ذات نخلٍ، بين حرَّتين، وأنَّه ظنَّها هجر[١].

ـ طبيعة الوضع الجغرافيِّ للحبشة؛ الَّذي يعوق انتشار الدَّعوة، وبسط سلطانها على العالم.

ـ أنَّ اختيار الجزيرة العربيَّة ومكَّة بالذَّات، ثمَّ المدينة لنزول الوحي، وانطلاق الدِّين لم يكن اتِّفاقاً، بل كان لمميزاتٍ كثيرة[٢].

ـ أنَّ هذه البيئة الحبشيَّة لم تكن لتسمح لهذا الدِّين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحيَّة، ولم تكن الرُّومان ـ وهي المهيمنة على المسيحيَّة في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[٣].

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة أثـرٌ في الحطِّ من مكانة القرشيِّين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدَّعوة، وحملتها؛ إذ كانت البيئة العربيَّة تفتخر بإيواء الغريب، وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السُّبَّة، والعار في خلافه، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً، ويؤوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشراف النَّاس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم[٤].

* * *

---

(١) هَـجرَ: هي الأحساء.
(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ١٦٩، ١٧٠.
(٣) انظر: أضواء على الهجرة، ص ١٥٦ إلى ١٦١، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٢٠.
(٤) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ١٧٠، ١٧١.

المبحث الثَّالث
عام الحزن ومحنة الطَّائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالبٍ:

كانت وفاة أبي طالبٍ بعد مغادرة بني هاشمٍ شِعْبه، وذلك في آخر السَّنة العاشرة من المبعث[١]. وقد كان أبو طالب «يحوط النَّبيَّ ﷺ، ويغضبُ له» [البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩)] و«ينصره» [مسلم (٢٠٩/٣٥٨)]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشِّرك، وحرَّضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدُّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام قائلاً: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا تعيِّرني بها قريش، يقولون: إنَّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] [مسلم (٢٥) والترمذي (٣١٨٨) وأحمد (٢/ ٤٣٤)].

كانت أفكار الجاهليَّة راسخةً في عقل أبي طالبٍ، ولم يتمكَّن من تغييرها، فهو شيخٌ كبيرٌ يصعب عليه تغيير فكره، وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثَّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه[٢].

٢ ـ وفاة السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

أمَّا السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفِّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[٣] في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ[٤].

---

(١) فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٨٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٨٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٨٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها ، تضاعف الأسى ، والحزن على رسول الله ﷺ ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم ، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن، فتجرَّأ كفار قريش على رسول الله ﷺ ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالبٍ[1]. وابتدأت مرحلةٌ عصيبةٌ في حياة الرَّسول ﷺ واجه فيها كثيراً من المشكلات ، والمصاعب، والمحن، والفتن حينما أصبح في السَّاحة وحيداً لا ناصر له إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع هذا؛ فقد مضىٰ في تبليغ رسالة ربِّه إلى النَّاس كافَّةً، على ما يلقى من الخلاف والأذىٰ الشَّديد؛ الَّذي أفاضت كتب الحديث ، وكتب السِّير ، بأسانيدها الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث عنه ، وتحمَّل ﷺ من ذلك ما تنوء الجبال بحمله. ولمَّا تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله ﷺ في بلده الَّذي نبت فيه ، وبين قومه الَّذين يعرفون عنه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، عزم ﷺ على أن ينتقل إلى بلدٍ غير بلده ، وقومٍ غير قومه؛ ليعرضَ عليهم دعوته ، ويلتمس منهم نصرتهم؛ رجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فخرج إلى الطَّائف ، وهي من أقرب البلاد إلى مكَّة[2].

ثانياً: رحلة الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف[3]:

كان النَّبيُّ ﷺ ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله ، فهذا نوح لبث في قومه داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] ، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً ، وتنويعاً متكرِّراً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ١ ـ ٩] ، ومع امتداد الزَّمن الطَّويل ما توقف عن الدَّعوة ، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها ، ولا ضَعُفَتْ بصيرته ، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الآلوسي في تفسيره: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي: إلى الإيمان والطَّاعة ، ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائماً من غير فتورٍ ، ولا توانٍ ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد ، وإصرارهم العنيد ، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ ، وأساليب متفاوتةٍ ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة ، بعد

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٣٦ ـ ٤٥).
(٣) ينظر الشكل (١٠) في الصفحة (٦٠٦).

تعميم الأوقات ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ يُشْعِر بمسبوقية الجهر بالسرِّ ، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة ؛ لأنَّه أقرب إليها ؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوِّ[١] .

فكان النبي ﷺ ينوِّع ، ويبتكر في أساليب الدَّعوة ، فدعا سرّاً وجهراً ، وسلماً وحرباً ، وجمعاً وفرداً ، وسفراً وحضراً ، كما أنَّه ﷺ قصَّ القصص ، وضرب الأمثال ، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض ، وغيره ، كما رغَّب وبشَّر ، ورهَّب وأنذر ، ودعا في كلِّ آنٍ ، وعلى كلِّ حالٍ ، وبكلِّ أسلوبٍ موثِّرٍ فعَّالٍ[٢] ، فها هو ﷺ ينتقل إلى الطَّائف ، ثمَّ يتردَّد على القبائل ، ثمَّ يهاجر ، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى .

كان رسول الله ﷺ يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة ، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ ، لكنَّها لم تستجب له ، وأغرت به صبيانها ، فرشقوه بالحجارة ، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصرانياً ، فأسلم ، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب ، وخديجة ، وذكر : أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف ، كانت عشرة أيام[٣] .

١ ـ لماذا اختار الرَّسول ﷺ الطَّائف؟ :

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش ؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف ، ولقد حاولت في الماضي أن تضمَّ الطَّائف إليها ، ووثبت على وادي وَجٍّ ؛ وذلك لما فيه من الشَّجر ، والزَّرع ؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ ، وحالفتهم ، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ[٤] . وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف ، ويقضون فيها فصل الصَّيف ، وكانت قبيلة بني هاشمٍ ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف ، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ[٥] ، فإذا اتَّجه الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف ، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ ، وعصبةً تناصره ، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً ، ويهدِّد أمنها ، ومصالحها الاقتصاديَّة تهديداً مباشراً ، بل قد يؤدِّي لتطويقها ، وعزلها عن الخارج . وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسيُّ الاستراتيجيُّ ، الَّذي قام به الرَّسول ﷺ يدلُّ على حرصه في الأخذ بالأسباب ، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ ، أو قوَّةٍ جديدةٍ ، تطرح نفسها داخل حلبة الصِّراع ؛ لأنَّ الدَّولة ، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس .

---

(١) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٨٩) .
(٢) انظر : مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية ، بادحدح ، ص ١٢٣ .
(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٨٥) .
(٤) انظر : فتح الباري ، كتاب الكفالة ، شرح حديث رقم (٢٢٩٤) .
(٥) انظر : أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٧٣ .

عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف ، اتجه مباشرة إلى مركز السلطة ، وموضع القرار السياسي في الطائف[١].

٢ ـ أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ ، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزَّمنيَّة للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها ، وتنتهي إليهما قيادتُها ، فكانت لهما الرِّئاسة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسجد ، وبالإضافة إلى الزَّعامة السِّياسيَّة العامَّة ، والعلاقة الخارجيَّة ، والنُّفوذ الاقتصاديِّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع ، فكانا يخافان قبيلة هوازن ، ويخافان قريشاً ، ويخافان بني عامر ، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب ، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة ، وحفظ الاستقرار السِّياسيِّ عن طريق المعاهدات والموازنات ، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش ، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها ، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[٢].

هذا، ولم يكن الرَّسول ﷺ غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات ، والمعاهدات ، وهو يتَّجه إلى الطائف ، بل كان يعرف: أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب ، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى ، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما ، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السِّياسيَّة ، هذا على وجه العموم ، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف ، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها ، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة ، أو الولاء الدِّينيِّ ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ ، اتجه الرَّسول ﷺ مباشرةً ـ حينما دخل الطَّائف ـ إلى بني عمرو بن عمير ، الَّذين يترأسون الأحلاف ، ويرتبطون بقريشٍ ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[٣].

قال ابن هشام في السِّيرة: لمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ ، هم يومئذٍ سادة ثقيف ، وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبد يا لَيْل بن عمرو ابن عُميرٍ ، ومسعود بن عمرو بن عُميرٍ ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيرَة بن عَوْف بن ثقيف ، وعند أحدهم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٧٤ .
(٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن ، ص ١٧٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٧٥).

امرأةٌ من قريش من بني جُمح[1]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شديدي الحذر ، وكثيري التَّخوُّف ، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول ﷺ ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه ، فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيفٍ ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنِّي»[2] ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[3] ذلك عليه ، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍّ من السِّرِّيَّة ، وألا تنكشف تحرُّكاته لقريشٍ[4]؛ فقد كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة ، والحذر ، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكَّة على الأقدام ، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة ، والشُّكوك ، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما ، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب ـ واختيار الرَّسول ﷺ زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رسول الله ﷺ بالتَّبنِّي ، فإذا رآه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّكِّ ، لقوَّة الصِّلة بينهما ، كما أنَّه ﷺ عرف زيداً عن قربٍ ، فعلم فيه الإخلاص ، والأمانة ، والصِّدق ، فهو إذاً مأمونُ الجانب ، فلا يُفشي سرّاً ، ويُعتَمد عليه في الصُّحبة ، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ ﷺ من الحجارة بنفسه ، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج ـ وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُوباً بالاستهزاء ، والسُّخرية ؛ تحمَّله الرَّسول ﷺ ، ولم يغضب ، أو يَثُرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه ، فهذا تصرُّفٌ غايةٌ في الحيطة ، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال ، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب ، والاضطهاد ، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل ، وخارج مكَّة[5].

٣ ـ تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً ، فلم يكتموا خبر الرَّسول ﷺ ؛ بل أَغْرَوْا به سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبُّونه ، ويرمون عراقيبه بالحجارة ، حتَّى دميت عقباه ، وتلطَّخت نعلاه ، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف ، وما زالوا به ، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد ، ريثما يستريحان من عنائهما ، وما أصابهما ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٧٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.
(٤) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكي.
(٥) في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءةٌ لجوانب الحيطة والحماية ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويرَيَان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائف ، ولم يحرِّكا ساكناً ، وفي هذه الغمرة من الأسى ، والحزن ، والآلام النفسيَّة ، والجسمانية توجه الرَّسول ﷺ إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً ، ويقيناً ، ورضاً بما ناله في الله ، واسترضاء الله: «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهواني على النَّاس ، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى مَنْ تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[1] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والآخرة ، من أن تُنزل بي غضَبك ، أو يحلَّ عليَّ سخطُك ، لك العُتْبى[2] حتَّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك!» [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٦١ ـ ٦٢) والقرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٣٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)][3] .

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ ﷺ ، ومبلغ تجرُّده لله ـ جلَّ وعلا ـ فهو لم يشعر بهذا الحزن المُفضي ، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى ، أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء ، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذىٰ من أجل الله تعالى ، غير أنَّه مشفقٌ من غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة ، من غير أن يشعر ، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه ـ جلَّ وعلا ـ فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ ، وهو المطلب الأعظم الَّذي تُسَخَّر له كلُّ المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه ، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء ، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ ، ورخاء.

وختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة ، الَّتي يقولها ، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره: «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد ، وتحمُّل المكاره ، إلا بالله جلَّ وعلا[4].

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات ، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان ، وتحقيق أمنه ، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء ، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل ، والإخفاق ، وقد تمرُّ على

---

(١) تجهمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به ، ولا راغبٍ فيه.
(٢) العتبى: الاسترضاء والرِّضا.
(٣) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١/ ١٨٦) ، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته ، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه ، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص ١٣٦ ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول ، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٨.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٢٠).

المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير ، والتَّدبير تماماً ، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً ، ومخرجاً ، فعندما لحق برسول الله ﷺ من أهل الطَّائف الأذى ، والطَّرد ، والسُّخرية ، والاستهزاء ، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء ، فما أن انتهى من الدُّعاء ، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين ، مع جبريل وملك الجبال[١] .

٤ ـ الرَّحمة ، والشَّفقة النَّبويَّة :

كانت رحمته ، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها ، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو ، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم ، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ، ورحمته العظيمة ، هي الغالبة[٢] .

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ ، أنَّها سألت رسول الله ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحُد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْلِ بْنِ عَبْدِ كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب[٣] ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال ، فسلَّم عليَّ ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ . فقال النَّبيُّ ﷺ : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً. [البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

كانت إصابته ﷺ يوم أحدٍ ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة ، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً ، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب[٤] .

٥ ـ من مناهج التَّغيير :

كان مُقْتَرَحَ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال ، وقد نفذ في قوم نوح ، وعادٍ ، وثمودٍ ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا

(١) انظر: في السِّيرة النَّبوية ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) انظر: مقوّمات الدَّاعية النَّاجح ، ص ٧٦ .
(٣) هو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، ويسمَّى الآن السيل الكبير.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٢٦ ، ٢٧).

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وكان هناك اقتراحٌ آخر، وهو أن يستمرَّ في هجرته، والابتعاد عن مكَّة، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولىٰ أخرجته، والثَّانية خذلته، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله ﷺ. قال ابن القيِّم: إنَّ رسول الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصراً في الطَّائف، انصرف إلى مكَّة؛ ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشهور، فأرسل ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكَّة، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما، فقال: «لا، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئاً»، وأقام بنخلةَ أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك ـ يعني: قريشاً ـ وخرجت تستنصر، فلم تُنصر ـ يعني: الطَّائف ـ فقال ﷺ: «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً، ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرٌ دينَهُ، ومظهرٌ نبيَّه»[(١)].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ رفض منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرَّة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ ﷺ أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة، وليس الانسحاب منها، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها، الَّتي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسَّساتها، واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلٍّ ذلك مجتمع المؤمنين، الَّذي سيولد من أحشائها؛ أي: أنَّه كان ﷺ يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين، المقاتلين في سبيل الله، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورةٍ جليَّةٍ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[(٢)].

كان النَّبيُّ ﷺ قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً، ولا آمناً، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به، أو اغتياله من قِبَلِ قريش، الَّتي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصورة «عادية» وقد طردته الطَّائف، سيجعل أهل مكة يصوِّرون الأمر كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابت المسلمين، ويجترئون عليهم، ويزدادون سفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّسول ﷺ هذه المرَّة، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٦).
(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّيِّ، ص ١٧٦.

بطون قريش ذاتها ، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم ، ويُكَوِّن له وجوداً في قلبها[١] .

قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه ﷺ لما انصرف من الطَّائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، من تصديقه ، ونصرته ، صار إلى حِراء ، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال: أنا حليف ، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو ، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ ـ سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف ـ بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه ، وقومه ، فقال: البَسوا السِّلاح ، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً ، فدخل رسول الله ﷺ ، ومعه زيد بن حارثة ، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته ، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهجْه أحدٌ منكم» ، فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكن ، فاستلمه ، وصلَّى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح ، حتَّى دخل بيته[٢] .

وفي جواب الأخنس ، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك؛ لمعرفته ﷺ لأعراف قومه ، وعاداتهم ، كيف وعامرٌ ـ الَّذي هو جدُّ سهيل ـ وكعبٌ أخوان ، أبوهما لؤيٌّ ، فهما سواء في مكانهما ، يجير أحدهما على الآخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ[٣] .

لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسول ﷺ الجديدة ، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً ، مختفياً ، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش ، على مسمعٍ منهم ، ومرأىً ، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ قد اختار رجلاً من خزاعة ، فبعثه رسولاً ، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسيَّة مدهشةٌ ، ووعيٌ تاريخيٌّ ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً ـ وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديٍّ آنذاك ـ كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله ﷺ في الجاهليَّة ، فقد وثب على أفنيةٍ ، وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب ، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك ، واستنهض قومه ، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف ، فأناخوا بفِناء الكعبة ، وتنكَّبوا القسيَّ ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلمَّا رآهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه ، فخافهم ، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب ، قالت خزاعة ـ وهم قد قووا ، وعزُّوا ـ: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً ، ولا أتمَّ خلقاً ،

---

(١) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّيِّ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٧) .
(٣) محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لصادق عرجون (٢/ ٣٢٤) .

ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان ، يعنون : عبد المطلب ، وقد نصره أخواله من الخزرج ، ولقد ولدناه كما ولدوه ، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة ، ولو بذلنا له؛ نَصَرنا ، وحَالَفَنا ، وانتفعنا به ، وبقومه ، وانتفع بنا . فأتاه وُجُوهُهُم ، فقالوا : يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار ، ونحن بعد متجاورون في الدَّار ، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد ، فهلمَّ فنحالفك ، فأعجب ذلك عبد المطَّلب ، وقَبِلَهُ ، وسارع إليه ، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل ، ولا عبد شمس[(١)] .

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة ، وقريش ، حينما جمع قصيُّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع ، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت ، وسيادة العرب ، فأخرج خزاعة من البيت ، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش ، كارهين لها؛ ولمَّا اضطرب الأمر بين قريشٍ ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد المطَّلب؛ نكايةً بقريش ، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد ، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح : أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً ، والصِّراع لم يزل مستمرّاً ، وممَّا يدل على ذلك : أنَّ بني نوفل ، وبني عبد شمس لم يدخلا ، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما .

فإذا بعث الرَّسول ﷺ رجلاً من خزاعة ، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل ، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها ، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب ، وخزاعة ضدَّ بني نوفل ، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكَّة ، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب ، فيتحالف مع خزاعة ، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول ﷺ لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده ، ويثير مخاوفه ، وحماية الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله ﷺ لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته ، وحمايةً لوضعه ، وصَمْتُ قريشٍ ـ وهي ترى محمَّداً ﷺ يدخل في جوار بني نوفل ، وهم يحرسونه بالسِّلاح ـ لم يكن خوفاً من سلاح نوفل ، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة ، وقسيِّ الخزرج[(٢)] .

كما لا ننسى : أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة ـ مع من ذكرنا فيما مضى ـ وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له ، عندما قال :

أَمُطْعِمُ لَمْ أخذُلْكَ فِيْ يَوْمِ نَجْدَةٍ ... ولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ

---

(١) أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ ، تحقيق : محمَّد حميد الله (١/ ٧١) .

(٢) انظر : أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكي ، ص ١٨٠ .

جـزَىٰ اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ وَنَـوْفـلاً عُقُـوبَـةَ شَـرٍّ عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجِـلِ(١)

وقد حفظ رسولُ الله ﷺ صنيع مُطْعِم بن عديٍّ ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه ، وولده ، وقومه لها من أجله ، فقال عن أُسارَىٰ بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم : «لو كان الْمُطْعِمُ بنُ عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لتركتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) وأبو داود (٢٦٨٩) وأحمد (٤/٨٠)] .

فرغم العداء العقديِّ؛ فرسول الله ﷺ يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة ، ويحارُبها ، ومن يناصِرُها ، ويسالمها ، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل(٢) .

وقد أثنىٰ شاعر الرَّسول ﷺ ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم ، فقال في مدحه :

فَلَـو كَـانَ مَجْـدٌ مُخْلِـدَ اليَـوْمَ وَاحِـدَاً مِـنَ النَّـاسِ نجَّـى مَجْـدُه اليـومَ مُطْعِمَـا
أَجَـرْتَ رَسُـولَ اللهِ مِنْهـمْ فَـأَصْبَحُـوا عِبَـادَكَ مَـا لَبَّـى مُحِـلٌّ وَأَحْـرَمَـا
فَلَـوْ سُئِلَـتْ عَنْـهُ مَعَـدٌّ بِـأَسْـرِهَـا وَقَحْطَـانُ أَوْ بَـاقِـي بَقِيَّـةِ جُـرْهُمَـا
لَقَـالُـوا هُـوَ المُـوفِـي بِخُفْـرَةِ جَـارِهِ وَذِمَّتِـه يَـوْمـاً إِذَا مَـا تجشَّمَـا
وَمَـا تَطْلُـعُ الشَّمْـسُ المُنِيْـرَةُ فَـوْقَهُـمْ عَلَـىٰ مِثْلِـهِ فِيْهِـمْ أَعَـزَّ وَأَكْـرَمَـا
إِبَـاءٌ إذا يَـأبَـىٰ وَأَلْيَـنُ شِيْمَـةً وَأَنْـوَمُ عَـنْ جـارٍ إِذَا اللَّيْـلُ أَظْلَمَـا(٣)

إنَّ كون النَّبيِّ ﷺ أقرَّ حسَّان بن ثابت في ثنائه البالغ على المُطْعِم بن عديٍّ ، وكونه ﷺ أثنىٰ عليه أيضاً؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرىٰ؛ لو كان المطعم حيّاً ، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل ، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ ؛ وإن كانوا غير مسلمين(٤) .

وهكذا كان ﷺ يوظِّف الأعراف ، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصلحة الإسلام ، فكان ينظر للبناء الاجتماعيِّ القائم ، باعتباره حقيقةً موضوعيَّةً تاريخيَّةً ، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقماً حسابيّاً منقطعاً ، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات ، ومتنوعة الدَّوافع ، وإنَّ الإنسان يملك الفرصة ، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه ، وطوع إرادته إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّرةٍ ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار ، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها ، والمطعم بن عديٍّ لم يكن فرداً ، وإنَّما كان مؤسَّسةً ، وهي مؤسَّسةٌ لم تولد بميلاده ، وإنَّما يرجع وجودها إلى تاريخٍ قديمٍ ، تصارعت فيها قيم التَّوحيد ، والإشراك ، فإن صارت مؤسَّسةً

(١) انظر : التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٣٦ .
(٢) انظر : التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٤٤ .
(٣) البداية والنِّهاية (٣/ ١٣٦) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٣٢) .

خالصةً للكافرين الآن ، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها ، وتسخيرها للعودة للإيمان ، والتَّوحيد[١] .

٦ ـ قصَّة عَدَّاس النَّصرانيِّ ، وإسلام الجنِّ :

لقد حقَّقت رحلة النَّبيِّ ﷺ انتصاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم[٢] ، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا ، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِين .

أ ـ قصة عَدَّاس :

لمَّا تعرَّض رسولُ الله ﷺ للأذىٰ من أهل الطَّائف ، وخرج من عندهم ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورآه عتبة ، وشيبة؛ رَقَّا له ، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : (عَدَّاس) ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطَّبق ، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عدَّاس ، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثمَّ قال له : كُلْ . فلمَّا وضع رسولُ الله ﷺ فيه يَـدَهُ ؛ قال : بسم الله ، ثمَّ أكل ، فنظر عَدَّاسٌ في وجهه ، ثمَّ قال : والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هـذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال : نصرانيٌّ ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى .

فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى . فقال له عداسٌ : وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبيّاً ، وأنا نبيٌّ ، فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ، ويديه ، وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له : ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل ، ويديه ، وقدميه؟! قال : يا سيِّدي ، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له : ويحك يا عداس! لا يصرفنَّك عن دينك ، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه . [ابن هشام (٢/ ٦٢ ـ ٦٣) وتفسير القرطبي (١٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦)][٣] .

* إنَّ تسمية النَّبيِّ ﷺ قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيِّ إلى الإسلام ، فما إن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولىٰ النَّصرانيِّ ، وجاشت مشاعره ، فأخبر النَّبيَّ ﷺ بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى .

---

(١) انظر : أصول الفكر السياسيِّ ، ص ١٨١ .
(٢) انظر : الرَّسول المبلِّغ ، للخالديِّ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

* إنَّ التَّسمية قبل الأكل ـ كسائر السُّنن الظَّاهرة ـ من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار ، ويدفعهم إلى السُّؤال عن سبب ذلك ، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ ، والانجذاب إليه(١) .

* كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسول الله قويّاً ، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة ، وشيبة ابني ربيعة لمَّا أرادا الخروج إلى بدرٍ ، وأمراهُ بالخروج معهما ، حيث قال لهما : قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال ، فقالا : ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه(٢) .

* في قول عدَّاس : «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ ، فلئن آذاه قومه ، فهذا وافد من العراق ، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه ، ورجليه ، ويقبِّلهما ، ويشهد له بالرِّسالة ، وإنَّ هذا لقَدَرٌ ربَّانيٌّ ، يسوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسوله؛ حيث كان الصَّدُّ من أقرب الناس إليه!(٣) .

ب ـ إسلام الجنِّ :

لمَّا انصرف النَّبيُّ ﷺ من الطَّائف ، راجعاً إلى مكَّة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصلِّي ، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ ، الَّذين ذكرهم الله تعالى ، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين ، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول ﷺ ؛ فلما فرغ من صلاته ، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرين؛ قد آمنوا ، وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ ﷺ ، فقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٠] .

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة ، فلمَّا سمعوه؛ قالوا : ﴿أَنصِتُواْ﴾ .

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ آخر ، هو عالم الجنِّ ، فتلقَّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ ، ومضوا بها إلى قومهم ، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه ، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه ، وضمَادُ الأزديُّ إلى قومه ، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ ، يبلغون دعوة الله تعالى : ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ (٣/ ٢٢) .
(٢) انظر : سبل الهدى والرَّشاد (٢/ ٥٧٨) .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٤٣٧) .

وأصبح اسم محمَّد ﷺ تهفو إليه قلوب الجنِّ ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط ، وأصبح من الجنِّ حواريُّون ، حملوا راية التَّوحيد ، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله ، ونزل في حقهم قرآنٌ يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١ ـ ١٣] .

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة ؛ ورسولُ الله ﷺ ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة ، فهل يستطيع عتاة مكَّة ، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنِّ ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟![1] وعندما دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة في جوار المطعم بن عدي ، كان يتلو على صحابته سورة الجنِّ ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً ، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة ، وارتفاع راياتها ، فليسوا هم وحدهم في المعركة ، هناك إخوانهم من الجنِّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك .

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنِّ برسول الله ﷺ ، جاء الوفد الثَّاني متشوِّقاً لرؤية الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، والاستماع إلى كلام ربِّ العالمين[2] . فعن علقمةَ قال: سألت ابن مسعود ، فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنِّ؟ قال: لا ، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ ، ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب ، فقلنا: اسْتُطِيرَ ، أو اغْتِيلَ ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فلمَّا أصبحنا ؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ ، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فقال: «أتاني داعي الجنِّ ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن» ، قال: فانطلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم. وسألوه الزَّاد ، فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً ،

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٤٣).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٤٤٥).

وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ : «فلا تستنجوا بهما ؛ فإنَّهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠) وأبو داود (٨٥) والترمذي (١٨)] .

كان هذا الفتح العظيم ، والنَّصر المبين ، في عالم الجنِّ ، إرهاصاً ، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس ، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر(١) .

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله ﷺ ، في عودته من الطَّائف ، فقال : «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو : أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِّ ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعبادته ، كما كلَّفنا بذلك ، ولئن كانت حواسُّنا ، ومداركنا لا تشعر بهم ، فذلك ؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل وجودهم غير خاضعٍ للطَّاقة البصريَّة ، الَّتي بثَّها في أعيننا ، ومعلومٌ : أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات ، بقدرٍ معيَّنٍ ، وبشروطٍ معيَّنةٍ .

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبار يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب ، والسُّنَّة ، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة ، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن رسوله ﷺ .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم : أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم ، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ ، ولم يحسَّ بهم .

إنَّ من البداهة بمكانٍ : أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يستدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسببٍ واحدٍ ، هو عدم إمكان رؤيتها ، والقاعدة العلميَّة المشهورة تقول : عدم شعوري بالشَّيء لا يستلزم عدم الوجود ؛ أي : عدم رؤيتك لشيءٍ تفتِّش عنه لا يستلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً ، أو غير مفقودٍ»(٢) .

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ ﷺ ، في عالم الثَّقلين : الإنس ، والجن حان وقت الحديث عن رحلته ﷺ إلى عالم السَّموات العلا ، إلى عالم الملائكة ، إلى حضرة الجليل سبحانه ، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً ، ثُمَّ يعيده إليهم ، فيحدثهم بما رأىٰ في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة ، الَّتي لم تعرف البشريَّة لها مثيلاً ، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض ، ومَنْ عليها(٣) .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٤٤٦) .

المبحث الرَّابع
الإسراء والمعراج.. ذروة التَّكريم

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسول الله ﷺ ، سياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش ؛ لأنَّ قريشاً ما كانت تريد أن تخسر أبا طالبٍ ، ولمَّا تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ ، ونال رسولَ الله ﷺ من الضَّرر الجسديِّ الشيءُ الكثير .

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله ﷺ من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون ، ولمَّا توفيت فَقَدَ رسولُ الله ﷺ هذا البلسمَ .

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطَّائف بعدما اشتدَّ عليه أذى قريش ، وأمعنوا في التَّضييق عليه ، يطلب من زعمائها نصرة الحقِّ الذي يدعو إليه ، وحمايته ، حتى يبلِّغ دين الله ، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد ﷺ ، فتجهَّمت له قريش ، وأضمرت له الشَّرَّ ، فلم يستطع رسول الله ﷺ دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر ، لقد تجهَّمت له قريش ، وأحدقت برسول الله ﷺ ، فزادتْ حزنَه ، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله ﷺ بـ(عام الحزن)[1] .

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ الله لِرسوله ، ألاَ وهي : الإسراء والمعراج .

أمَّا هدف هذه المعجزة ، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها :

أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أراد أن يتيح لرسوله ﷺ فرصة الاطِّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه ، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض ، كما حدث لموسىٰ عليه السلام ، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته . قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ١٧ ـ ٢٢] فلمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه

---

(١) انظر : دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ١٢٨ .

الآيات الكبرى ، قال له بعد ذلك: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه ﷺ على هذه الآيات الكبرى ، توطئةً للهجرة ، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر ، والضَّلال ، والفسوق. والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس ، والعروج إلى السَّماء ، ورؤية الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة ، والسَّموات ، والجنَّة ، والنار ، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء ، وعن المعراج في سورة النَّجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١] وفي سورة النجم بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علومٌ ، وأسرارٌ ، ودقائق ، ودروسٌ ، وَعِبَرٌ[1].

يقول الأستاذ أبو الحسن النَّدوي: «لم يكن الإسراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأىٰ فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى ، وتجلَّى له ملكوت السَّموات ، والأرض مشاهدةً ، عياناً؛ بل ـ زيادةً إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمَّت قصَّةُ الإسراء ، وأعلنت السُّورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النَّجم»: أنَّ محمّداً ﷺ هو نبيُّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه ، وفي إسرائه مكةُ بالقدس ، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلَّى بالأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته ، وخلود إمامته ، وإنسانيَّة تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان ، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النَّبي ﷺ ، ووصف إمامته ، وقيادته ، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها ، وآمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم ، ومن بين الشُّعوب ، والأمم»[2].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيتُ بالبُرَاق ـ وهو دابَّـةٌ أبيضُ طويلٌ ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه ـ قال: فركبتهُ حتَّى أتيت بيت المقدس ، قال: فربطته بالحلقة[3]؛ الَّتي يَرْبِطُ به الأنبياءُ. قال: ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين ، ثمَّ خرجت ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، فاخترتُ

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ٢٩١ ، ٢٩٢).
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٢٩٢).
(٣) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

اللَّبن ، فقال جبريل : اخترتَ الفطرة»[١] . . . فذكر الحديث [مسلم (١٦٢)] .

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه : أنَّ نبيَّ الله ﷺ حدَّثهُ عن ليلة أسري به ، قال : «بينما أنا في الحطيم[٢] ـ وربما قال في الحِجر ـ مضطجعاً ؛ إذ أتاني آتٍ[٣] ، فَقَدَّ ـ قال : وسمعته يقول : فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به؟ قال : من ثُغرةِ نحرِهِ[٤] إلى شِعْرَته[٥] وسمعته يقول : من قَصِّهِ[٦] إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً ، فغُسِلَ قلبي ، ثمَّ حُشيَ ، ثمَّ أُعِيدَ ، ثمَّ أُتيتُ بدابةٍ دون البغل ، وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود : هو البُرَاقُ يا أبا حمزة؟! قال : أنسٌ : نعم ـ يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[٧] ، فحُمِلتُ عليه ، فانطَلَقَ بي جبريلُ حتَّى أتى السَّماء الدُّنيا ، فاستفتحَ[٨] فقيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيلَ : ومن معك؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أُرسِلَ إليه؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به[٩] ، فنعم المجيءُ جاء ، فَفَتَح ، فلما خَلَصتُ ؛ فإذا فيها آدمُ ، فقال : هذا أبوك آدمُ ، فَسَلِّمُ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ السلام ، ثمَّ قال : مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح . ثمَّ صعِد بي حتَّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، فَفَتَح ، فلمَّا خَلَصتُ ؛ إذا يحيى ، وعيسى ـ وهما ابنا خالةٍ ـ قال : هذا يحيى ، وعيسى ، فسلِّمْ عليهما ، فسلَّمتُ فَرَدَّا ، ثمَّ قالا : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صُعد بي إلى السَّماء الثَّالثة ، فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيل : ومَنْ معك؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت ؛ إذا يوسفُ ، قال : هذا يوسُفُ فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتْ عليه ، فردَّ ثمَّ قال : مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الرَّابعة ، فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ . قيل : وَمَنْ معك؟ قال : محمَّد ، قيل : أَوَ قد أُرسِل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ،

---

(١) الفطرة : الإسلام ، والاستقامة .
(٢) الحطيم : هو ما بين الرُّكن والمقام .
(٣) آت : هو جبريل عليه السلام .
(٤) ثغرة النحر : الموضع المنخفض في أدنى الرَّقبة من الأمام .
(٥) شعرته : شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة .
(٦) القص : رأس عظام الصَّدر .
(٧) يضع خَطْوَهُ عند أقصى طرفه : يضع رجله عند منتهى بصره .
(٨) استفتح : طلب فتح باب السَّماء الدُّنيا .
(٩) مرحباً به : أصاب رحباً ، وسعةً .

ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إدريس ، قال: هذا إدريس فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا هارون ، قال: هذا هارون ، فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء السَّادسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء. فلمَّا خلصت؛ فإذا موسىٰ ، قال: هذا موسىٰ فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ؛ فلمَّا تجاوزتُ ؛ بكى ، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي ؛ لأنَّ غلاماً[1] بُعِثَ بعدي يدخل الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلها من أمَّتي.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، ونعم المجيء جاء ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم ، قال: هذا أبوك ، فسلِّم عليه ، قال: فسلَّمت عليه ، فردَّ السَّلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ، ثمَّ رُفِعَتْ لي[2] سِدرةُ المنتهى ، فإذا نَبِقُها[3] مثل قِلالِ هَجَر[4] ، وإذا ورقُها مثل آذانِ الفيلة ، قال: هذه سِدرة المنتهى ، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة ، وأمَّا الظاهران؛ فالنِّيلُ والفراتُ ، ثمَّ رُفعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، وإناءٍ من عسلٍ ، فأخذتُ اللَّبنَ ، فقال: هي الفطرةُ[5]؛ الَّتي أنت عليها ، وأمَّتُك.

ثمَّ فُرضتْ عليَّ الصَّلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، فرجعتُ ، فمررتُ على موسىٰ ، قال: بِمَ أُمِرت؟ قال: أُمرت بخمسين صلاةً كلَّ يومٍ. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي والله! قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة[6] ، فارجعْ إلى

---

(١) أبكي؛ لأن غلاماً . . . : ليس هذا على سبيل النَّقص ، بل على سبيل التَّنويه بقدرة الله وعظيم كرمه.
(٢) رُفعت لي: قُرِّبت لي.
(٣) النَّبق: هو ثمر السِّدر.
(٤) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر: قرية في البحرين ، والقلَّة: الجرة الكبيرة.
(٥) الفطرة: دين الإسلام.
(٦) عالجتهم أشدَّ المعالجة: مارست بني إسرائيل أشدَّ الممارسة.

ربِّك ، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بعشر صلوات كلَّ يومٍ ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال : بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت : أمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، قال : إنَّ أمتكَ لا تستطيع خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتَّك ، قال : سألت ربِّي حتى استحييتُ ، ولكن أرضى ، وأسلِّم ، قال : فلمَّا جاوزت نادى منادٍ : أمضيتُ فريضتي ، وخففت عن عبادي» [البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤)] .

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ـ عليه السَّلام ـ بسنةٍ ، هكذا قال القاضي عياض في الشِّفا[١] .

ولمَّا رجع رسول الله ﷺ من رحلته الميمونة ؛ أخبر قومه بذلك ، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديٍّ ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة : إنِّي صليت اللَّيلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشِر لي رهطٌ من الأنبياء ؛ منهم : إبراهيم ، وموسىٰ وعيسى ، وصلَّيت بهم ، وكلَّمتهم ، فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به : صِفْهم لي ، فقال : أمَّا عيسى : ففوق الرَّبعة ، ودون الطول ، عريض الصَّدر ، ظاهر الدَّم ، جعدٌ ، أشعرٌ ، تعلوه صُهْبَةٌ[٢] ، كأنَّه عروة بن مسعود الثَّقفي . وأمَّا موسىٰ : فضخمٌ آدَمُ ، طوالٌ ، كأنَّه من رجال شَنُوءَةَ ، متراكب الأسنان ، مقلَّص الشَّفة ، خارج اللِّثة ، عابسٌ ، وأمَّا إبراهيم : فوالله إنه لأشبه النَّاس بي ، خَلْقاً ، وخُلُقاً[٣] .

فقالوا : يا محمد! فصف لنا بيت المقدس ، قال : «دخلت ليلاً ، وخرجت منه ليلاً» ، فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول : «بابٌ منه كذا ، في موضع كذا ، وبابٌ منه كذا ، في موضع كذا» .

ثمَّ سألوه عن عيرهم ، فقال لهم : «أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء ، قد ضَلَّتْ ناقةٌ لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ، ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء ، فشربت منه ، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا : هذه والإله آيةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلان ، فنفرت منِّي الإبل ، وبرك منها جملٌ أحمر ، عليه جُوالِق[٤] مخطَّطٌ ببياض ، لا أدري أكسر البعير ، أم لا؟

(١) انظر : الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٠٨) .
(٢) صهبة : بياض بحمرة .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٣/ ٣٧) .
(٤) الجُوالق : هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع .

فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله آيةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلانٍ في التَّنعيم ، يقدمها جملٌ أورق[(١)] ، وها هي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة»[(٢)] فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ ، فانطلقوا ، فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال ، فرموه بالسِّحر ، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالية (٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٤) ، ومجمع الزوائد (١/ ٧٥ ـ ٧٦) وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ١١)] .

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاس ، مِمَّن كانوا آمنوا ، وصدَّقوا بالدَّعوة ، فارتدُّوا ، وذهب بعض النَّاس إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوَ قَال ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم ، إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السَّماء ، في غدوةٍ أو روحة . فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (٣/ ٦٢)] .

ثانياً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ ، وقد تعرَّض رسول الله ﷺ لمحنٍ عظيمةٍ ، فهذه قريش قد سدَّت الطَّريق في وجه الدَّعوة في مكَّة ، وفي ثقيفٍ ، وفي قبائل العرب ، وأحكمتْ الحصار ضدَّ الدعوة ورجالاتها من كلِّ جانبٍ ، وأصبح النَّبيُّ ﷺ في خطرٍ بعد وفاة عمِّه أبي طالبٍ أكبر حُماته ، ورسولُ الله ﷺ ماضٍ في طريقه ، صابرٍ لأمر ربِّه ، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، ولا حربُ محاربٍ ، ولا كيدُ مستهزئٍ ، فقد آن الأوان للمحنة العظيمة ، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج ، على قَدَرٍ من ربِّ العالمين ، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً ، ويكرمه على صبره ، وجهاده ، ويلتقي به مباشرة دون رسولٍ ، ولا حجابٍ ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافَّةً ، ويجمعه مع إخوانه من الرُّسل في صعيدٍ واحدٍ ، فيكون الإمام ، والقدوة لهم ، وهو خاتمهم ، وآخرهم ﷺ[(٣)] .

٢ ـ إنَّ الرَّسول ﷺ كان مُقْدِماً على مرحلةٍ جديدةٍ ، مرحلة الهجرة ، والانطلاق لبناء الدَّولة ، يريد اللهُ تعالى لِلَّبِنَات الأولىٰ في البناء أن تكون سليمةً قويَّةً ، متراصَّةً متماسكةً ، فجعل الله هذا الاختبار والتَّمحيص ؛ ليُخلِّص الصَّفَّ من الضِّعاف المتردِّدين ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ ، ويُثبِّت المؤمنين الأقوياء والخلَّص؛ الذين لمسوا عياناً صدق نبيِّهم بعد أن

(١) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.
(٢) الثَّنِيَّة: الطَّريق الجبلي.
(٣) انظر: التربية القياديَّة (١/ ٤٤٧).

لمسوه تصديقاً ، وشهدوا مدى كرامته على ربِّه ، فأيُّ حظٍّ يحوطهم ، وأيُّ سعدٍ يغمرهم ، وهم حول هذا النَّبيِّ المصطفىٰ ، وقد آمنوا به ، وقدَّموا حياتهم فداءً له ، ولدينهم؟! كم يترسَّخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الَّذي تمَّ بعد وعثاء الطَّائف؟! وبعد دخول مكَّة في جوارٍ ، وبعد أذى الصِّبيان ، والسُّفهاء؟![1].

٣ ـ إنَّ شجاعة النَّبيِّ ﷺ العالية ، تتجسَّد في مواجهته للمشركين بأمرٍ تنكره عقولهم ، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصوُّراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم ، وتلقِّي نكيرهم ، واستهزائهم ، فضرب بذلك ﷺ لأمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل ، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ ، وجنَّدوا لحربه كلَّ ما في وسعهم ، وكان من حكمة النَّبيِّ ﷺ في إقامة الحجَّة على المشركين أنْ حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس ، وأظهر الله له علاماتٍ تُلزِم الكفَّار بالتَّصديق ، وهذه العلامات هي :

* وصف النَّبيِّ ﷺ بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشَّام ، ورأىٰ المسجد الأقصىٰ ، فقد كشف الله لنبيِّه ﷺ المسجد الأقصىٰ حتَّى وصفه للمشركين ، وقد أقرُّوا بصدق الوصف ، ومطابقته للواقع الَّذي يعرفونه .

* إخباره عن العير التي بالرَّوحاء ، والبعير الَّذي ضَلَّ ، وما قام به من شرب الماء الَّذي في القدح .

* إخباره عن العير الثَّانية الَّتي نفرت فيها الإبل ، ووصفه الدَّقيق لأحد جمالهم .

* إخباره عن العير الثَّالثة الَّتي بالأبواء ، ووصفه الجمل الَّذي يقدمها ، وإخباره بأنَّها تطلع ذلك الوقت من ثَنِيَّة التَّنعيم ، وقد تأكَّد المشركون ، فوجدوا أنَّ ما أخبرهم به الرَّسول ﷺ كان صحيحاً ، فهذه الأدلَّة الظَّاهرة كانت مفحِمةً لهم ، ولا يستطيعون معها أن يتَّهموه بالكذب.
كانت هذه الرِّحلة العظيمة تربيةً ربَّانيَّة رفيعة المستوىٰ وأصبح ﷺ يرى الأرض كلَّها ، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح ، ثمَّ ما مقام كفار مكَّة في هذه النقطة؟! إنَّهم لا يمثِّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون ، فما الَّذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه ، وخصَّه بتلك الرِّحلة العلويَّة الميمونة ، وجمعه بالملائكة والأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وأراه السَّموات السَّبع ، وسدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، وكلَّمه جلَّ وعلا[2]؟

٤ ـ يظهر إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه القويُّ في هذا الحدث الجَلَلِ ، فعندما أخبره الكفَّار ، قال بلسان الواثق : لئن كان قال ذلك ؛ لقد صدق! ثمَّ قال : إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ،

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥١).
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي ، (٣/ ٤١ ، ٤٢).

أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ ، أو روحةٍ ، وبهذا استحقَّ لقب الصِّدِّيق ، وهذا منتهى الفقه ، واليقين ، حيث وازن بين هذا الخبر ، ونزول الوحي من السَّماء ، فبيَّن لهم: أنَّه إذا كان غريباً على الإنسان العاديِّ ، فإنَّه في غاية الإمكان بالنِّسبة للنَّبيِّ ﷺ(١) .

٥ ـ إنَّ الحكمة في شقِّ صدر النَّبيِّ ﷺ ، وملء قلبه إيماناً وحكمةً؛ استعداداً للإسراء تظهر في عدم تأثُّر جسمه بالشَّقِّ ، وإخراج القلب ممَّا يؤمِّنه من جميع المخاوف العادية الأخرىٰ ، ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التَّسليم لها دون التَّعرُّض لصرفها عن حقيقتها؛ لمقدرة الله تعالى ، الَّتي لا يستحيل عليها شيءٌ(٢) .

٦ ـ إنَّ شُرْب رسول الله ﷺ اللَّبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر ، وبشارة جبريل عليه السلام: «هُديتَ للفطرة» ، تؤكِّد: أنَّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريَّة؛ الَّتي ينسجم معها ، فالَّذي خلق الفطرة البشريَّة خلق لها هذا الدِّين ، الَّذي يلبِّي نوازعها ، واحتياجاتها ، ويحقِّق طموحاتها ، ويكبح جماحها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] .

٧ ـ كان إسراء النَّبيِّ ﷺ ، بالرُّوح والجسد يقظةً إلى بيت المقدس ، وعلى هذا جماهير السَّلف ، والخلف ، ولا يُعوَّل على مَنْ قال: إنَّ الإسراء كان بروحه ، وأنَّه رؤيا منام؛ إذ لو كان الإسراء مناماً؛ لما كانت فيه آيةٌ ، ولا معجزةٌ ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذَّبوه؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر(٣) ، ثمَّ إنَّ في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، والمقصود بعبده: سيدنا محمَّدٍ ﷺ ، وكلمة «بعبده» تشمل روحه ، وجسده(٤) .

٨ ـ إنَّ صلاة النَّبيِّ ﷺ بالأنبياء دليلٌ على أنَّهم سلَّموا له القيادة ، والرِّيادة ، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم ، أن يسلِّموا القيادة لهذا الرَّسول ﷺ ، ولرسالته الَّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها .

إنَّ على الَّذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة ، ويدعوا إليها ، وهي ضرورة الانخلاع من الدِّيانات المنحرفة ، والإيمان بهذا الرَّسول ﷺ ورسالته ، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدَّعوات المشبوهة ، الَّتي تخدم وضعاً من الأوضاع ، أو نظاماً من الأنظمة الجاهليَّة .

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي ، (٣/ ٤٣) .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ١٨٩) .
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٩١) .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣) ، وتفسير القاسمي (١٠/ ١٨٩) .

وأيُّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنَّ الله هو المسيح ، وأنَّ المسيح ابن الله ، وأنَّ الله ثالث ثلاثةٍ ، أو بين مَنْ يعتقد: أنَّ عزيراً ابنُ الله ، ويحرِّف كلام الله ، وبين من يعتقد: أنَّ الله واحدٌ لا شريك له ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا زوجة له ـ وهو عبثٌ من القول[1].

٩ ـ إنَّ الرَّبط بين المسجد الأقصىٰ والمسجد الحرام وراءه حِكَمٌ، ودلالاتٌ، وفوائد؛ منها:

* أهمِّيَّة المسجد الأقصى بالنِّسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ ، ومعراجه إلى السَّموات العلا ، وكان لا يزال قبلتهم الأولىٰ طيلة الفترة المكِّيَّة ، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبُّوا المسجد الأقصى ، وفلسطين؛ لأنَّها مباركةٌ ، ومقدَّسةٌ.

* الرَّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، بمسؤوليَّة تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشِّرك ، وعقيدة التَّثليث ، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام ، من أوضار الشِّرك ، وعبادة الأصنام.

* الرَّبط يشعر بأنَّ التَّهديد للمسجد الأقصى ، هو تهديدٌ للمسجد الحرام ، وأهله ، وأنَّ النَّيْل من المسجد الأقصى ، توطئةٌ للنَّيْل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصىٰ بوابة الطَّريق إلى المسجد الحرام ، وزوال المسجد الأقصىٰ من أيدي المسلمين ، ووقوعه في أيدي اليهود ، يعني: أن المسجدالحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما ، واتَّجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتَّاريخ قديماً وحديثاً يؤكِّد هذا ، فإنَّ تاريخ الحروب الصَّليبيَّة يخبرنا: أنَّ (أرناط) الصَّليبيَّ صاحب مملكة الكرك ، أرسل بعثةً للحجاز للاعتداء على قبر الرَّسول ﷺ ، وعلى جُثمانه في المسجد النَّبويِّ ، وحاول البرتغاليُّون (النَّصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشَّريفين؛ لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصَّليبيُّون ، ولكن المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها المماليك ، وكذا العثمانيُّون ، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنميِّ ، وبعد حرب (١٩٦٧ م) ، الَّتي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأنَّ الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز ، وفي مقدِّمة ذلك مدينة رسول الله ﷺ ، وخيبر.

لقد وقف دافيد بن جوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس ، يستعرض جنوداً وشبَّاناً من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى ، ويُلقي فيهم خطاباً نارياً ، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس ، ونحن في طريقنا إلى يثرب»[2].

ووقفت جولدا مائير رئيسة وزراء اليهود ، بعد احتلال بيت المقدس ، وعلى خليج إيلات

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٣.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ص ٣١٤.

العقبة ، تقول: «إنَّني أشمُّ رائحة أجدادي في المدينة ، والحجاز ، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»(١) .

وبعد ذلك نشر اليهود خريطةً لدولتهم المنتظرة؛ الَّتي شملت المنطقة من الفرات إلى النِّيل ، بما في ذلك الجزيرة العربيَّة ، والأردن ، وسورية ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والكويت ، والخليج العربي كلِّه، ووزَّعوا خريطة دولتهم هذه بعد انتصارهم في حرب (١٩٦٧) م في أوروبة(٢) .

١٠ ـ يرى القارئ في سورة الإسراء : أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في آيةٍ واحدةٍ فقط . قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود ، وجرائمهم ، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا القرآن يهدي لِلَّتي هي أقوم ، والارتباط بين الآيات في سورة الإسراء ، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمَّة الإنسانيَّة؛ لما ارتكبوا من الجرائم الَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله ﷺ ، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما(٣) .

إنَّ سورة الإسراء تعرَّضت للاستبداد الإسرائيليِّ ، وبيَّنت كيف تهاوى بين مخالب القوى الدَّولية الكبرى في ذلك الزَّمان «الفرس ، والروم»؛ ولذلك فإنَّ من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله ﷺ وأمَّته رؤية بعض آيات الله؛ لأنَّ من أوضح آيات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي آياته التَّاريخيَّة الَّتي كان يعكسها الصِّراع الرُّومانيُّ الفارسيُّ ـ الإسرائيليُّ قبل الإسراء(٤) .

قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٢ ـ ٧] .

---

(١) جريدة الدُّستور الأردنيَّة ، العدد (٤٦١٣) بقلم أميل الغوري ، نقلاً عن السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ٣١٤.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٥.

(٣) انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ١٢٠ ، بتصرف.

(٤) انظر: أصول الفكر السِّياسي في القرآن المكيِّ ، ص ١٤٩.

ذكر ابن كثيرٍ في البداية والنّهاية: أنَّ (بختنصر) بأمرٍ من ملك الفرس[١]، قد قام بتخريب مملكة اليهود، وجاس خلال الدِّيار، وتفرَّقت بسبب ذلك بنو إسرائيل، فنزلت طائفةٌ الحجاز، وطائفةٌ يثرب، وطائفةٌ بوادي القرى، وذهبت شرذمةٌ لمصر[٢]، وقد وقع هذا الدَّمار الفارسيُّ لدولة اليهود، في القرن السَّادس قبل الميلاد (٥٩٧ق.م)[٣].

أمَّا الدَّمار الثاني، وهو الدَّمار الرُّوماني للدَّولة اليهوديَّة «بعد أن أعيد بناؤها»، فقد وقع في القرن الميلادي الأوَّل (٧٠ م)، وذلك حين هدم القائد الرُّوماني (تيتوس) هيكل أورشليم، وفرَّ اليهود من وجه الاضطهاد الرُّومانيِّ السِّياسيِّ الدِّينيِّ، وتتابعت هجرتهم، وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية، حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[٤].

فالشَّتات اليهوديُّ في أطراف الجزيرة العربيَّة، ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض، فإذا كان الرَّسول ﷺ قد استوعب الظَّاهرة القرشيَّة، واستعدَّ لها، فعليه أن يحلِّل الظاهرة اليهوديَّة، ويستعدَّ لها[٥]، فاليهود ليسوا مجرَّد أمَّةٍ تاريخيَّةٍ، كعاد، وثمود، تُورَد أخبارها للإرشاد، والاعتبار، وإنَّما هم أمَّةٌ لها حضورٌ كثيفٌ في الواقع العربيِّ الَّذي يعيش فيه الرَّسول ﷺ، ويتحرَّك فيه لإقامة دولة الإسلام، فقد كانوا يشكِّلون ـ فوق مكانتهم الاقتصاديَّة ـ مركز سلطةٍ فكريَّةٍ؛ لما لهم من أحبارٍ، وأخبارٍ، وكتب تراثٍ نبويٍّ، تؤهِّلهم لتحديد مواصفات النُّبوَّة، وطلب المعجزات، ووضع الشُّروط لصدق الرُّسل وصحَّة الرسالات، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام، فإنَّ اليهود كانوا يستخدمون التَّوراة لمحاربة القرآن، وإذا كان محمَّد ﷺ يتوقَّع معركةً مع قريشٍ؛ فعليه أن يتوقَّع معارك مع اليهود[٦].

لقد صوَّرت سورة الإسراء جانباً من الصِّراع الدَّولي بين الفرس، والرُّوم، واليهود، ونزلت بعدها سورة الرُّوم، وهي كذلك تتحدَّث عن الصِّراع الدَّولي.

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا

---

(١) يرى الدُّكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء: أن بختنصَّر كلداني، وليس فارسيّاً، والأمر من الملك الكلداني.

(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٢.

(٤) ابن خلدون، (٢/٢٠٦).

(٥) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص ١٥٢.

(٦) أصول الفكر السِّياسيِّ ص ١٥٣.

﴿مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٧] .

كان مشركو قريشٍ يحبُّون أن يظهر أهل فارس على الرُّوم ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل أوثانٍ ، بينما كان المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب ، كما أورد المفسِّرون تفصيلاتٍ كثيرةً عن الرِّهَان الَّذي جرى بين أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وبعض مشركي مكَّة حول المعركة القادمة بين الفرس ، والرُّوم؛ الَّتي جزم فيها القرآن بانتصار الرُّوم ، وهزيمة الفرس[١] .

وذهب ابن عطيَّة إلى رأيٍ آخر ، يستحقُّ التدبُّر؛ حيث قال: «الأقرب أن يُعَلَّل ذلك ـ أي: فرح المؤمنين ـ بما يقتضيه النَّظر من محبَّة أن يغلب العدوُّ الأصغر ـ الرُّوم ـ لأنَّه أيسر مؤنةً ـ ومتى غلب الأكبرُ ـ الفرس ـ كثر الخوف منه. فتأمَّل هذا المعنى؛ مع ما كان رسول الله ﷺ يرجوه من ظهور دينه ، وشرع الله الَّذي بعثه به ، وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكَّة أن يرميه بملكٍ يستأصله ، ويريحهم منه»[٢] .

فابن عطيَّة يرى: أنَّ فرح المؤمنين الأكبر ، ليس سببه أنَّ الروم أهل كتاب ، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً مادياً على صدق الخبر القرآنيِّ؛ وإنَّما سببه هو أنَّ الله تعالى وظَّف القوَّة الجهازية الرُّومانية لصالح المسلمين الَّذين لم يقم لهم سلطانٌ جهازيٌّ بعد؛ إذ إنَّه بعد أن يسلِّط الروم على الدَّولة الفارسيَّة ، فيحطِّموها ، ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين ، ولكنَّهم منهكو القوَّة ، ممَّا سيمهد طريقاً لنصر المسلمين عليهم ، وينفتح للإسلام بذلك طريقٌ للبروز كقوَّة عالميَّةٍ جديدةٍ على أنقاض القوَّتين المندحرتين[٣] .

١١ ـ أهمِّيَّة الصَّلاة ، وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السُّنَّة النَّبويَّة: أنَّ الصَّلاة فُرضت على الأمَّة الإسلاميَّة في ليلة عروجه ﷺ إلى السَّموات ، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناءٌ عظيمٌ بشرف الصَّلاة ، وعظمتها»[٤] ، فعلى الدُّعاة أن يؤكِّدوا على أهمِّية الصَّلاة ، والمحافظة عليها ، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهمِّيتها ، ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج ، وأنَّها من آخر ما أوصىٰ به رسولُ الله ﷺ قبل موته[٥] .

١٢ ـ سُئل رسولُ الله ﷺ : إن كان قد رأىٰ ربَّه ، فقال: «نورٌ أنَّى أراه» [مسلم (١٧٨) والترمذي (٣٢٧٨)] .

١٣ ـ تحدَّث الرَّسول ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة ، وبيَّن عقوبتها ، كما شاهد ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٢١/ ١٢).
(٢) تفسير ابن عطيَّـة (١١/ ٤٢٥).
(٣) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٣/ ٩٣).

في ليلة الإسراء والمعراج ؛ ومن هذه الأمراض ؛ وعقوبتها :

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين: رأىٰ رسولُ الله ﷺ أناساً يأكلون الجيف ، فأخبره جبريل : «هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس» [أحمد (١/ ٢٥٧)] .

* عقوبة أكلة أموال اليتامى : رأىٰ رسول الله ﷺ رجالاً لهم مشافر ـ شفاه كبيرةٌ ـ كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار ـ أي: الحجارة ـ يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فأخبره جبريل : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً. [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤٧)] .

* أكلة الرِّبا: أتى النَّبيُّ ﷺ على قومٍ بطونهم كالبيوت ، فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم ، فأخبره جبريل : هؤلاء أكلة الرِّبا [أحمد (٢/ ٣٥٣) وابن ماجه (٢٢٧٣)][(١)] .

* وذكرت الرِّوايات[(٢)] عقوبة الزُّناة ، ومانعي الزَّكاة ، وخطباء الفتنة [أحمد (٣/ ١٢٠ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩) وعبد بن حميد (١٢٢٢)] والتَّهاون في الأمانة[(٣)] .

* ثواب المجاهدين : في ليلة الإسراء والمعراج ، مرَّ رسولُ الله ﷺ على قومٍ يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ ، كلَّما حصدوا ؛ عاد كما كان ، فأخبر جبريل : «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ ، وما أنفقوا من شيءٍ ؛ فهو يُخْلَف». [البزار (٥٥) ومجمع الزوائد (١/ ٦٧ ـ ٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١١٢٩)] [(٤)] .

١٤ ـ إدراك الصَّحابة لأهمِّية المسجد الأقصى : أدركَ الصَّحابة رضي الله عنهم ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، وهو يقع أسيراً تحت حكم الرُّومان ، فحرَّره في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وظلَّ ينعم بالأمن ، والأمان ، حتَّى عاث الصَّليبيُّون فساداً فيه بعد خمسة قرون ، من هجرة المصطفىٰ ﷺ ، ومكثوا ما يعادل قرناً يعيثون فساداً ، فحرَّره المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأيوبيِّ ، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهوديِّ ، فما الطَّريق إلى تخليصه ؟[(٥)] .

الطَّريق إلى تخليصه: الجهاد في سبيل الله ؛ على المنهج الَّذي سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٢) وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات الَّتي رآها النَّبي ﷺ في رحلة المعراج ، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير ، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج ، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ ، ولم يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلمٍ ، والله أعلم.

(٣) تفسير الطَّبري (١٥/ ٧) ، والفتح الرباني (٢٠/ ٢٥٧).

(٤) انظر : الخصائص الكبرى (١/ ١٧١) والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠ .

(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠ .

الفصل الخامس

الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل

الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة

بعد رجوعه ﷺ من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ، يشرح لهم الإسلام ، ويطلب منهم الإيواء ، والنُّصرة ، حتَّى يبلِّغ كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان رسول الله ﷺ يتحرَّك في المواسم التِّجارية ، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم ، ومحدَّدة الأهداف ، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق ؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب ، وتاريخها ، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس ، ووجوه القبائل ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، يسأل وجوه القبائل ، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله ﷺ ، ويعرض دعوته»[1] .

يقول المقريزي : «ثمَّ عرض ﷺ نفسه على القبائل أيَّام المواسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وهم بنو عامر ، وغسَّان ، وبنو فَزارة ، وبنو مرَّة ، وبنو حنيفة ، وبنو سليم ، وبنو عبس ، وبنو نصر ، وثعلبة بن عكابة ، وكندة وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويقال: إنَّه ﷺ بدأ بكندة ، فدعاهم إلى الإسلام ، ثمَّ أتى كلباً ، ثمَّ بني حنيفة ، ثمَّ بني عامر ، وجعل يقول : «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه ، فيمنعني ؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي ؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه ؛ فإنَّه كذاب» [أحمد (٣/ ٤٩٢ ، ٤٩٣) وابن هشام (٢/ ٦٤ ـ ٦٥)][2] .

---

(١) انظر : الأنساب ، للسَّمعاني (١/ ٣٦).

(٢) إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/ ٣٠ ، ٣١).

وقد تعرَّض ﷺ للأذى العظيم ، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال : كان النَّبيُّ ﷺ يعرض نفسه بالموقف ، فيقول : «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» [أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/ ٣٩٠)] وظلَّ النَّبيُّ ﷺ في تردُّده على القبائل يدعوهم ، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ ، ويؤذونه ، ويقولون : قومه أعلم به ، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[١] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً ، وقبولاً ؛ مثل : الصابئ ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم : أنَّه رسول ، وغير ذلك ، ولا شكَّ : أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول ﷺ ، ويضاعف ألم التَّكذيب ، وعدم الاستجابة[٢] .

ولم يقتصر الأذى على ذلك ، بل واجه الرَّسول ﷺ ما هو أشدُّ ، وأقسى ، فقد روى البخاريُّ في تاريخه ، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك بن منيب أيضاً ، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهليَّة ، وهو يقول : «يا أيها النَّاس! قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا» ، فمنهم من تفلَ في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التُّراب ، ومنهم من سبَّه ؛ حتَّى انتصف النَّهار ، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ ، فغسل وجهه ، ويديه ، وقال : «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً ، ولا ذلَّةً !» فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ . [البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ١٤) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٤٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٢١)][٣] .

وقد كان أبو جهل ، وأبو لهب ـ لعنهما الله ـ يتناوبان على أذيَّة رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق ، والمواسم ، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم[٤] .

أولاً : من أساليب النَّبيِّ ﷺ في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل :

١ ـ مقابلة القبائل في اللَّيل :

فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل ؛ حتَّى لا يحول بينه وبينهم

---

(١) انظر : الدُّرر ، لابن عبد البرِّ ، ص ٣٥ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ١٨٥) .
(٢) انظر : المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣ .

أحدٌ من المشركين[١] ، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ ، كلَّما اتَّصل الرَّسول ﷺ بقبيلةٍ من القبائل ، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ ، اتِّصال الرَّسول ﷺ بالأوس ، والخزرج ليلاً ، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى ، والثَّانية ليلاً[٢].

٢ ـ ذهاب الرَّسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم :

فقد أتى كلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر في منازلهم[٣]؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش ، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة ، دونما تشويشٍ ، أو تشويهٍ من قريش.

٣ ـ اصطحاب الأعوان :

كان أبو بكر ، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول ﷺ في بعض مفاوضاته ، مع بعض القبائل ، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون : أنَّه وحيدٌ ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[٤] ، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول ﷺ في التَّعرُّف على معادن القبائل ، فيقع الاختيار على أفضلها؛ لتحمل تَبِعَات الدَّعوة.

٤ ـ التأكُّد من حماية القبيلة :

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة ، سؤاله ﷺ عن المنعة ، والقوَّة لدى القبائل ، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة ، ويطلب منهم الحماية ، فقوَّة ، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ ، ومهمٌّ لابدَّ منه؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ ، والباطل ، فلابدَّ أن تكون أهلاً لهذا الدَّور ، من حيث الاستعداد المعنويِّ والمادِّيِّ؛ الَّذي يرهب الأعداء ، ويحمي حمى الدَّعوة ، ويتحمَّل تبعات نشرها ، مزيلاً لكلِّ العقبات؛ التي تقف في طريقها[٥].

ثانياً : المفاوضات مع بني عامر :

اختار الرَّسول ﷺ أن يُجري مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ ، وقامت تلك المفاوضات على

---

(١) تاريخ الإسلام ، للنَّجيب آبادي (١/ ١٢٩) ، نقلاً عن الرَّحيق المختوم.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/ ٤٤ ، ٥٢)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١١٦.
(٣) البداية والنِّهاية ، لابن كثير (٣/ ١٤٠).
(٤) في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٦.
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧.

دراسةٍ ، وتخطيطٍ ، فالرَّسول ﷺ ، وصاحبه أبو بكر ، كانا يعلمان : أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد ، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[١] ، ولم تتبع لملكٍ ، ولم تؤدِّ إتاوة ، مثلها مثل قريش ، وثقيف ، وخزاعة[٢] ، كما أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعلم : أنَّ هنالك تضادّاً قديماً بين بني عامرٍ ، وثقيف ، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل ، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج ، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة ، فإذا استطاع النَّبيُّ ﷺ أن يبرم حلفاً مع بني عامر ؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر[٣] .

يذكر أصحاب السِّيرة : أنَّ الرَّسول ﷺ لمَّا أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعا إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، قال له رجلٌ منهم يقال له : بَيْحَرَة بن فِراس : والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ثمَّ قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال : الأمرُ لله يضعه حيث يشاء ، فقال له : أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك الله : كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه . [ابن هشام (٢/٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (٢١٥) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن سعد مختصراً (١/٢١٦)] .

ثالثاً : المفاوضات مع بني شيبان :

ففي رواية عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال : لمَّا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيَّه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج ، وأنا معه . . . إلى أن قال : ثمَّ دفعنا إلى مجلس آخر ، عليه السَّكينة ، والوقار ، فتقدَّم أبو بكر ، فسلَّم ، فقال : مَنِ القوم؟ قالوا : شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : بأبي ، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس ، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيْه ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ ، فقال أبو بكر : كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق : إنَّا لنزيد على الألف ، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة . فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ : إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسِّلاح على اللِّقاح ، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً ، ويديل علينا أخرى ، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر : إن كان بلغكم : أنَّه رسول الله ﷺ ، فها هو ذا . فقال مفروق : إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنِّي عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤوُوني ، وتنصروني ؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن

---

(١) لم يمسَّها سِبَاءٌ : لم تُسْبَ نساؤها في الحرب .
(٢) انظر : أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٨٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

الحقِّ ، والله هو الغنيُّ الحميد ، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك ، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة ، فقال: وهذا هانئ ، شيخنا ، وصاحب ديننا ، فقال هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا ، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له ، ولا آخر لذلٌّ في الرَّأي ، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة ، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً ، ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة ، فقال: وهذا المثنَّى ، شيخنا ، وصاحب حربنا ، فقال المثنَّى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ، ومتابعتنا دينك ، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة ، والآخر: السَّمامة ، فقال له رسول الله ﷺ: ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى ، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ ، وعذره غير مقبولٍ ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثاً ، ولا نُؤوي مُحدثاً ، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك ، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق ، وإنَّ دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورِّثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، ويفرشكم نساءهم ، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك . [أبو نعيم في دلائل النبوة (٢١٤)][1] .

رابعاً: فوائد ، ودروس ، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ ﷺ ذات صفةٍ مخصوصةٍ ، وذلك على النَّحو التالي:

١ ـ طلب الرَّسول ﷺ للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش ، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة ، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها ، وتوفير الاستجابة لها ، في جوٍّ من العنف ، والضَّغط ، والإرهاب.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥) ، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد (٢/ ٥٩٦ ، ٥٩٧).

٢ ـ كان عرض الرَّسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة ، إنَّما هو بأمرٍ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له في ذلك ، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه ، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة .

٣ ـ حصر رسول الله ﷺ طلب النُّصرة في زعماء القبائل ، وذوي الشَّرف ، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم ، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة ، وصاحبها .

٤ ـ يلاحظ في سيرة النَّبيِّ ﷺ ، بخصوص طلب النُّصرة : أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين :

أ ـ كان يطلبُ النُّصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب ، بعيدةً عن الإساءة إليها ، وإلى أتباعها .

ب ـ كان يطلب النُّصرة ، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ ﷺ مقاليد الحكم ، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة ، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور .

٥ ـ رفض النَّبيُّ ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم ، والسُّلطان على سبيل الثَّمن ، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصرةٍ ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله ، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها ، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله ، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصرة والتَّضحية ، وليس طمعاً في نفوذٍ ، أو رغبةٍ في سلطانٍ ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيِّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه ، فلابدَّ ـ إذاً ـ أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها ، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضحيات في سبيلها[١] ، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً ، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله ، والأمر لله يضعه حيث يشاء ، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله ، والعمل من أجل رفع رايته ، أمَّا إذا كان المنصب هو هَمَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ ، تنبئ عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[٢] ، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي : «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[٣] .

٦ ـ ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل

---

(١) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة ، لمحمَّد خير هيكل (١/ ٤١١).
(٢) انظر : وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، ص ٧٢ .
(٣) انظر : صفة الصَّفوة (٤/ ٩٤).

النُّصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة ، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة - والحالة هذه - يُعرِّضها لخطر القضاء عليها ، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات ، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسلاميَّة خطراً عليها ، وتهديداً لمصالحها[١] .

إنَّ الحماية المشروطة ، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود ، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه ، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد مهاجمة محمَّد رسول الله ﷺ ، وأتباعه ، وبذلك فشلت المباحثات[٢] .

٧ - «إنَّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» ، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ ﷺ على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ ﷺ حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس ، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى[٣] .

٨ - كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ ، والخلق ، والرُّجولة ، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ ﷺ ، وعن وضوح في العرض ، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها ، وقد بيَّنوا : أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك ، وقدَّر الله لشيبانَ بعد عشر سنين ، أو تزيد ، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ صاحب حربهم ، وبطلهم المغوار ، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق ، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه[٤] ، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الَّذي لم يكونوا يفكِّرون فيه أبداً ، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النَّعيم الدَّائم ، في جنَّات النَّعيم[٥] .

* * *

---

(١) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة (١/ ٤١٢) .
(٢) انظر : التحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٤ .
(٤) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٠) .
(٥) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٣/ ٦٩) .

المبحث الثَّاني
مواكب الخير وطلائع النُّور

قال جابر بن عبد الله الأنصاريُّ :

«مكث رسول الله ﷺ بمكَّة عشر سنين ، يَتَتَبَّعُ النَّاس في منازلهم ، بعُكاظ ، ومجَنَّة ، وفي المواسم بمنى ، يقول : من يؤويني؟ من ينصرني حتَّى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتَّى إنَّ الرجل ليخرج من اليمن ، أو مُضَر ، فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش ؛ لا يفتننَّك! ويمشي بين رجالهم ؛ وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتَّى بعَثَنا اللهُ إليه من يثرب ، فآويناه ، وصدَّقناه ، فيخرج الرَّجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتَّى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار ، إلا وفيها رهطٌ من المسلمين ، يُظهرون الإسلام» [أحمد (٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، ٣٣٩ ـ ٣٤٠)] .

أوّلاً : الاتِّصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة :

١ ـ إسلام سُوَيد بن الصَّامت :

كان رسولُ الله ﷺ ، لا يسمع بقادمٍ يقدم مكَّة من العرب ، له اسمٌ ، وشرفٌ ، إلا تصدَّى له ، ودعاه إلى الله ، وعرض عليه ما جاء به من الهدى ، والحقِّ ، فقدم سُوَيد بن الصَّامت ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ مكَّة حاجّاً ، أو معتمراً ، وكان سُوَيد يسمِّيه قومُه فيهم الكامل ، لَجَلده ، وشِعْره ، وشرفه ، ونسبه ، فتصدَّى له رسولُ الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعلَّ الذي معك مثلُ الَّذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ : «وما الَّذي معك؟» قال : مجلَّة[١] لقمان ، فقال له رسول الله : «اعرضها عليَّ» فعرضها عليه ، فقال : «إنَّ هذا الكلام حسن ، والَّذي معي أفضل من هذا؟ قرآنٌ أنزله الله عليَّ ، وهو هدًى ونورٌ» ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُد منه ، وقال : إنَّ هذا القول حسنٌ ، ثمَّ انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقد كان

(١) المجلة : الصحيفة ، وتطلق على الحكمة ، أي : حكمة لقمان .

رجالٌ من قومه يقولون: إنَّا لنراه قُتل؛ وهو مسلمٌ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث. [ابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤١٨) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)]

وعلى أيَّة حالٍ، لا توجد دلائل على قيام سُوَيد بن الصامت بالدَّعوة إلى الإسلام وسط قومه[١].

٢ ـ إسلام إياس بن معاذ:

لمَّا قدم أبو الحَيْسَر بن رافع مكَّة، ومعه فتيانٌ من بني عبد الأشْهَل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج؛ سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟» قالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثمَّ ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: هذا والله ِخيرٌ ممَّا جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من ترابٍ، وضرب بها وجهه، وقال: دعنا منك، فلعَمرِي لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس، والخزرج، ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روى من حضره من قومه، أنَّه ما زال يهلِّل الله، ويكبِّره، ويحمده، ويسبحه حتَّى مات، فما كانوا يشكُّون: أنَّه مات مسلماً، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع. [ابن هشام (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) وأحمد (٥/ ٤٢٧) والطبراني في المعجم الكبير (٨٠٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) ومجمع الزوائد (٦/ ٣٦) والإصابة (١/ ١٠٢)]

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجِّ عند عقبة منى، قال لهم رسول الله ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. [ابن هشام (٢/ ٧٠ ـ ٧١)، وابن سعد (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٦٢)، ومجمع الزوائد (٦/ ٤٠ ـ ٤٢)].

فلمَّا كلَّم رسولُ الله ﷺ أولئك النَّفر، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه، وقَبِلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك،

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٩٥).

ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزُّ منك . ثمَّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا ، وصدَّقوا[١] ، وكانوا ستَّة نفرٍ ، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارةَ ، وعوف بن الحارث من بني النَّجار ، ورافع بن مالك ، وقُطْبة بن عامرٍ ، وعُقْبة بن عامرٍ ، وجابر بن عبد الله بن رئاب[٢] . فلمَّا قدموا المدينة إلى قومهم ؛ ذكروا لهم رسولَ الله ﷺ ، ودعَوهم إلى الإسلام ، حتَّى فشا بينهم ، فلم تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله ﷺ[٣] .

فهذا أوَّل موكبٍ من مواكب الخير ، لم يكتفِ بالإيمان ؛ وإنَّما أخذ العهد على نفسه أن يدعوَ إليه قومه ، وقد وفَّى كلٌّ منهم لدينه ، ورسوله ، فإنَّهم حين رجعوا ؛ نشطوا في الدَّعوة إلى الله ، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم ، وذويهم ، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكرٌ لمحمَّد ﷺ ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة ، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرَّسول ﷺ على غير موعدٍ ، لكنَّه لقاء هيَّأه الله ؛ ليكون نبع الخير المتجِّدد الموصول ، ونقطة التَّحوُّل الحاسم في التَّاريخ ، وساعة الخلاص المحقَّق من عبادة الأحجار ؛ بل إنَّها على التَّحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كلِّه ، ونقل الحياة من الظُّلمات إلى النُّور ، أكان معقولاً في لحظةٍ يسيرةٍ أن يتحوَّل هؤلاء من وثنيِّين متعصِّبين ، إلى أنصارٍ للدَّعوة متفتِّحين ، وجنودٍ للحقِّ مخلصين ، ودعاةٍ إلى الله متجرِّدين ، يذهبون إلى أقوامهم ، وبين جوانحهم نورٌ وعلى وجوههم نورٌ ، وإنَّهم لعلى نورٍ؟! تلك مشيئة القدر العالي ، هيَّأت للدَّعوة مجالها الخصب ، وحماها الأمين ، والسَّنوات العِجاف الَّتي قضاها الرَّسول ﷺ نضالاً مستمرّاً ، وكفاحاً دائماً ، وتطوافاً على القبائل ، والتماساً للحليف ، قد ولَّت إلى غير رجعةٍ ؛ سيكون بعد اليوم للإسلام قوَّته الرَّادعة ، وجيشه الباسل ، وسيلتقي الحقُّ بالباطل ؛ ليصفِّي معه حساب الأيام الخوالي ، والعاقبة للمتقين ، وستتوالى على مكَّة منذ اليوم مواكب الخير ، وطلائع النُّور ، الَّتي هيَّأها الله للخير ؛ لتتصل بالهداية ، وتسبح في النُّور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وَعَتْ من خير ، وبما حملت من نورٍ[٤] .

ومن الجدير بالتَّنبيه : أنَّ هذه المقابلة الَّتي حدثت عند العقبة ، وتلاقى فيها فريقٌ من الخزرج بالنَّبيِّ ﷺ ، وأسلموا على يديه ، لم تكن فيها بيعةٌ[٥] ؛ لأنَّها كانت من نفر صغيرٍ ، لم يروا

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ١٤٨ ، ١٤٩).
(٢) انظر : شرح المواهب ، للزُّرقاني (١/ ٣٦١).
(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ١٤٧).
(٤) انظر : أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٥) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته ، للجمل ، ص ١٤٣ .

لأنفسهم الحقَّ في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرُّجوع إلى قبائلهم في المدينة ، ولكنَّهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام[٢].

ثالثاً: بيعة العقبة الأولى:

بعد عامٍ من المقابلة الأولى؛ الَّتي تمَّت بين الرَّسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة ، وَافَى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه ﷺ بالعقبة ، وبايعوه العقبة الأولى ، عشرةٌ من الخزرج ، واثنان من الأوس ، ممَّا يشير إلى أنَّ نشاط وفد الخزرج الَّذين أسلموا في العام الماضي ، تركَّز على وسطهم القبلي بالدَّرجة الأولى؛ لكنَّهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[١].

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّامت الخزرجيُّ عن البيعة ، في العقبة الأولى ، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنيْ عَشَرَ رجلاً ، فبايعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب ، على ألاَّ نشرك بالله ، ولا نسرق ، ولا نزني ، لا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ، وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفَّيتم فلكم الجنَّة ، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إن شاء؛ غفر ، وإن شاء؛ عذَّب» [البخاري (١٨ و٩٢ و٣٨ و٣٩٩٩) ومسلم (١٧٠٩)].

وبنود هذه البيعة ، هي الَّتي بايع الرَّسول ﷺ عليها النِّساء فيما بعد ، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء[٢] ، وقد بعث الرَّسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير ، يعلِّمهم الدِّين ، ويقرئهم القرآن ، فكان يُسمَّى بالمدينة (المقرئ) ، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة ، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى ، حيث كان بجانب حفظه لِما نزل من القرآن يملك من اللَّباقة ، والهدوء ، وحسن الخُلُق ، والحكمة قدراً كبيراً ، فضلاً عن قوَّة إيمانه ، وشدَّة حماسه للدِّين ، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة ، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم[٣].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدِّين الجديد ، وتعليم القرآن الكريم ، وتفسيره ، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ ، وبين النَّبيِّ ﷺ وصحبه بمكَّة المكرمة ، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة.

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/ ١٩٧).
(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٥.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦ ، ١٨٧.

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه[1]، ونشط المسلمون في الدَّعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصعب رضي الله عنه، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته، وهذا هو الذي تعلَّمه من أستاذه ﷺ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ، مثل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]

رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حضير، سيِّدَيْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركَيْن على دين قومهما، فلمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدَّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين، اللَّذين أتيا دارينا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارَينا؛ فإنَّه لولا أسعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت؛ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أُسَيْد حربته، ثمَّ أقبل عليهما، فلمَّا رآه أسعد بن زرارة؛ قال: هذا سيِّد قومه، وقد جاءك؛ فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلِّمْه، فوقف عليهما مُتشتِّماً، فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسُ، فتسمع، فإن رضيت أمراً؛ قبلته، وإنْ كرهته؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَيْد: أنصفتَ، ثمَّ ركَّز حربته، وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا ـ فيما يُذكر عنهما ـ: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُّله، ثمَّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ، وأجْمَلَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل، فتتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلِّي، فقام، فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ قام فركع ركعتين، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً، إن اتَّبعْكما؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثمَّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ قال: كلَّمتُ الرَّجلين، فوالله! ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة (١/ ٤٤١).

زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[١] .

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر لـه من أمر بني حارثـة ، وأخذ الحربة في يده ، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثمَّ خرج إليهما سعد ، فوجدهما مطمئنَّيْن ، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتِّماً ، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي ، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء ـ والله! ـ سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه ، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان ، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً ، ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت ، ثمَّ ركَّز الحربة ، وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف ، قالا: فعرفنا ـ والله! ـ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل ، فتتطَّهر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ ركع ركعتين ، ثمَّ أخذ حربته ، فأقبل عائداً إلى نادي قومه ، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر ، فلمَّا رآه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله ، ورسوله! قال: فوالله ، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ، ولا امرأة إلا مسلماً ، أو مسلمةً.

ورجع أسعد ، ومصعب إلى منزل أسعـد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون ، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩) وابن سعد (٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٦٢)] إلا ما كـان من الأُصَيْرِم ، وهو عمرو بـن ثابت بـن وقش؛ فإنَّـه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحـدٍ ، فأسلم؛ واستُشهـد بأحدٍ ، ولـم يصلِّ لله سجدةً قـطُّ ، وأخبر رسول الله ﷺ : أنَّـه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ ، فإذا لم يعرفه النَّاس ، قال: هو أُصَيْرِم بني عبد الأشهل» [أحمد (٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦٤)][٢] .

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٢).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٤) ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩١.

خامساً : فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ :

١ ـ اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات ، وكان للنَّفر السِّتَّة الذين أسلموا ، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام ، خلال ذلك العام .

٢ ـ كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة ؛ منها :

(أ) ما طبع الله عليه قبائل الخزرج ، والأوس من الرِّقَّة ، واللِّين ، وعدم المغالاة في الكبرياء ، وجحود الحقِّ ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة ؛ الَّتي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن ، بقوله : «أتاكم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدةً ، وألين قلوباً» [البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢)] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزَّمن القديم[١] ، فيقول القرآن الكريم مادحاً لهم : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

(ب) التَّشاحن ، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة ، الأوس والخزرج ، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث ، وغيره ، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ، ممَّن كان نظراؤهم في مكَّة ، والطائف ، وغيرها ، حجر عثرة في سبيل الدَّعوة ، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّابَّة الجديدة ، المستعدَّة لقبول الحقِّ ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها ، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه . قالت عائشة رضي الله عنها : «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه ﷺ ، فَقَدِمَ رسولُ الله ﷺ وقد افترق مَلَؤهم ، وقُتِلت سَرَوَاتهم[٢] وجُرِّحوا ، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام» . [البخاري (٣٧٧٧ و٣٨٤٦ و٣٩٣٠) وأحمد (٦/ ٦١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٢١)] .

(ج) مجاورتهم لليهود ، ممَّا جعلهم على علمٍ ـ ولو يسيرٍ ـ بأمر الرِّسالات السَّماويَّة ، وخبر المرسلين السَّابقين ، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة ، وليسوا مثل قريشٍ ؛ التي لا يساكنها أهل كتاب ، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات ، والوحي الإلٰهيِّ ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألـةُ ، أو تشغل تفكيرهـا باستمرارٍ ، وكان اليهود يهـدِّدون الأوس ، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانـه ، ويزعمون : أنَّهم سيتَّبعونـه ، ويقتلونهم به قتَل عـادٍ ، وإرم ! مع أنَّ الأوس ، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[٣] ، وقد حكى الله

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ١٥٤ .
(٢) السَّرَوات : الأشراف .
(٣) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٣ .

عنهم ذلك في كتابه العزيز . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] .

وكان الأوس ، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة ، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب ، فكانوا يقولون : إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه ، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم(١) .

فلمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه ؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ ﷺ ، فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام ، فاستبشروا ، وأسلموا ، وعرفوا : أنَّه النَّبيُّ الَّذي توعَّدهم به اليهود ، ورجعوا إلى المدينة ، فأفشوا ذكر النَّبيِّ ﷺ في بيوتها(٢) ، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير(٣) .

٣ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام ، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث استطاع النَّفر السِّتَّة من الخزرج ، أن يتجاوزوا قصَّة الصِّراعات الدَّاخلية ، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً ، فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم ؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع ، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة ؛ أوسها ، وخزرجها ، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة .

٤ ـ كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسول ﷺ إلى المدينة ؛ يعلِّم النَّاس القرآن الكريم ، ومبادئ الإسلام ، واستطاع مصعب بحكمته ، وحصافته ، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام(٤) .

٥ ـ استطاع سفير رسول الله ﷺ أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير ، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه ، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله ﷺ ، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب ؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده ، ودينه قولاً وعملاً ، وخُلُقاً وسلوكاً ، فيرى النَّاسُ ، ويسمعون من خلاله .

٦ ـ استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيِّئ البيئة الصَّالحة ، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد ؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسلوكيّاً ، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام(٥) .

---

(١) الدُّر المنثور ، للسُّيوطي (١/٢١٦).
(٢) انظر : ابن هشام (١/ ٤٤).
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٩ ، ٤٤).
(٤) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.
(٥) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٣٥٦.

٧ ـ بذل الرَّسول ﷺ كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة ، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة ، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة ، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة ، والتَّنظيم[١].

٨ ـ نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار ، وشعرت الأنصار بأنَّه قد آن الأوان لقيام الدَّولة الجديدة ، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه ، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة : «حتَّى متى نترك رسولَ الله ﷺ يطوف ، ويُطرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف؟!»[٢].

٩ ـ وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ ، من العام الثَّالث عشر للبعثة ، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك ، والقدرات ، والإمكانات المتاحة ، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس ، والخزرج ، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة ، قادرةٍ على حماية رسول الله ﷺ ، ومنعته[٢].

١٠ ـ كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ ، في موسم الحجِّ في السَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة ؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين ، من أهل يثرب ، فلمَّا قدموا مكَّة ؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ اتصالاتٌ سرِّيَّة ، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة ، حيث الجمرة الأولى من مِنًى ، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل[٣].

* * *

(١) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢ .
(٣) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٣٧ .

المبحث الثَّالث
بيعة العقبة الثَّانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «... فقلنا: حتَّى متى نترك رسول الله ﷺ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة، ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجلٍ، ورجلين؛ حتَّى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام نُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط، والكسل، والنَّفقة في العسر، واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنَّه رسول الله ﷺ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً، وقتلُ خياركم، وأن تعضَّكم السُّيوف، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنَّا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نَسْلِبها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا، وشَرَطَ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[1].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطَّاعة، والنُّصرة، والحرب؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[2]، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ ـ وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية ـ ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ، قال: «خرجنا في حجَّاج قومنا من المشركين، وقد صلَّينا، وفقهنا، ثمَّ خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة، من أوسط أيام التَّشريق، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا، حتَّى إذا مضى ثلثُ اللَّيل؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسَّلل تسلُّلَ القَطَا

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٩٩).
(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٦) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

(الحمام) مستخفين، حتَّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرٍو، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتَّى جاءنا، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له، فلمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول ﷺ في منعةٍ من قومه بني هاشم، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصار له، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله ﷺ، فيأخذ لنفسه، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[(١)]، فبايِعْنا يا رسولَ الله! فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحَلقة (السِّلاح)، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود)، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم، وأنتم منِّي، أحارب مَنْ حاربتم، وأسالم مَنْ سالمتم».

ثمَّ قال: «أخرِجُوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشَّيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصَّباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ ﷺ، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج، والأوس، بأنَّهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[(٢)]، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ، وعليه نعلانِ جديدانِ، قال: فقلت له كلمةً ـ كأنِّي أريد أن أشرك بها القومَ فيما قالوا ـ يا أبا جابر! أما تستطيع أن تتَّخذ، وأنت سيِّدٌ من ساداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث، فخلعهما من رجليه، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَـنَّهما، قال: يقول

---

(١) الأُزُر: الثِّياب، والمقصود النِّساء أو الأنفس، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا، وأنفسنا.
(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٦١)، بإسنادٍ حسن، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمريِّ (١/ ٢٠١).

أبو جابر : مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي : أغضبت) والله الفتى ، فارددْ إليه نعليه . قال : قلت : لا والله! لا أردُّهما ، فـأَلٌ والله صـالـح! لئـن صـدق الفـأل لأسْلُبَنَّـه . [أحمـد (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢) والحـاكـم (٢/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٩)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد :

١ ـ «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها ، وبواعثها ، وآثارها ، وواقعها التَّاريخي ، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلاميَّة ، الَّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرِّجة ، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها ، بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم ، وعهودهم ، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما عاهدوا الله ، ورسوله ﷺ عليه؛ من التَّضحية ، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح ، والدِّماء ، والأموال ، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ ، ونصرته ، وهي في ملابساتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها ، ولم يَغِبْ عن أنصار الله قدرها ، ووزنها ، في ميادين الحروب ، والقتال ، وهي في آثارها تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله ، على كلِّ عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله ، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صدقٌ ، وعدلٌ ، ونصرٌ ، واستشهاد ، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»[1] .

٢ ـ إنَّ حقيقة الإيمان ، وأثره في تربية النفوس ، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ، ودماءها في سبيل الله ، ورسوله ﷺ ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً ، ولا منصباً ، ولا قيادةً ، ولا زعامةً ، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم ، يتصارعون على الزَّعامة ، والقيادة ، إنَّه أثر الإيمان بالله ، وبحقيقة هذا الدِّين ، عندما يتغلغل في النُّفوس[2] .

٣ ـ يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّعوبـة ، وكانت تمثِّـل تحدِّيـاً خطيراً ، وجريئـاً لقـوى الشِّرك فـي ذلـك الوقت ، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي[3] :

أ ـ سِرِّيَّة الحركة ، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر ، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٢/ ٤٠٠) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٠٣) .
(٣) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٦١ .

هؤلاء السَّبعين صعبةً، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق، بعد ثلث اللَّيل، حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تمَّ تحديد المكان في الشِّعْب الأيمن، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّومِ لحاجةٍ[١].

ب ـ الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين، إلى موعد، ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج ـ ضرب السِّرِّيَّة التَّامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن عبد المطلب، الَّذي جاء مع النَّبيِّ ﷺ ليتوثَّق له[٢]، وعليٌّ بن أبي طالبٍ، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق ـ وهو الآخر ـ عيناً للمسلمين[٣]، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم، أو تجسُّ حركتهم[٤].

د ـ متابعة الإخفاء والسِّرِّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة، فأمرهم النَّبيُّ ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر؛ موَّه المسلمون عليهم بالسُّكوت، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع[٥].

هـ ـ اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمرٌ متوقَّع، وهذا ما حدث[٦].

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط والكسل، والنَّفقة في اليسر، والعسر، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصرٌ لرسول الله ﷺ وحمايته؛ إذا قدم المدينة[٧].

---

(١) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ٦١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢.
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٠٩).
(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ٦٢.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥.
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٦٧.
(٧) انظر: التَّحالف السِّياسي، ص ٨٢.

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردُّدٍ ـ البراء بن مَعْرور ، قائلاً : والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابرٍ ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله ﷺ ، فقومه أبناء الحرب ، والسِّلاح(٥) . وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء : أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم : إني قد رأيت رأياً ، فوالله ما أدري : أتوافقونني عليه ، أم لا؟

فقالوا : وما ذاك؟ قال : قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنِيَّة ـ يعني : الكعبة ـ منِّي بِظَهْر ، وأن أصلِّي إليها ، فقالوا له : والله ما بلغنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه ، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس ، وصلَّى هو إلى الكعبة ، واستمرُّوا كذلك ؛ حتى قدموا مكَّة ، وتعرَّفوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام ، فسأل النَّبيُّ ﷺ العباسَ رضي الله عنه : «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضل؟» قال : نعم ، هذا البراء بن مَعْرور سيِّد قومه ، وهذا كعب بن مالكٍ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «الشَّاعر؟» قال : نعم . فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة . قال : فماذا ترى يا رسول الله؟! قال : «قد كنت على قِبْلةٍ لو صبرتَ عليها»(١) قال كعب : فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله ﷺ ، وصلَّى معنا إلى الشَّام ، فلمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قِبَلَ الكعبة ، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهرٍ ، وأوصى بثلث ماله إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقبله ، وردَّه على ولده ، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله(٢) .

ويستوقفنا في هذا الخبر :

أ ـ الانضباط ، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم ﷺ ، وأوامره ، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره ، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً ، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله ، تأخذ حيِّزها في حياتهم ، وهم ـ بعد ـ ما زالوا في بداية الطَّريق .

ب ـ إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله ﷺ ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ ، واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه ، والتزامه بأوامر الرَّسول ﷺ ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة ، فهي المقاييس الحقَّة ؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً(٣) .

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول ﷺ : إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً ، وإنَّا قاطعوها ـ يعني : اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ؛ أن ترجع

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٤٥) .

(٣) انظر : معين السِّيرة النَّبويَّة ، للشَّامي ، ص ١٣٥ .

إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[١]، وكان جواب سيِّد الخلق ﷺ عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار، والأنصار جزءاً منه[٢].

٧ ـ يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ ـ أنَّ الرَّسول ﷺ لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمرٌ شوريٌّ، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب ـ التَّمثيل النِّسبي في الاختيار، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[٣].

ج ـ جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقَّفوه، ومعتنقوه، فأراد الرَّسول ﷺ أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام، وحماته، وأنصاره[٤].

٨ ـ تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة، الَّتي تمَّت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأَذَاخر[٥]، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأمَّا المنذر، فأعجز القومَ، وأمَّا سعدٌ، فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[٦] رَحْله، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة، يضربونه، ويجذبونه بجُمَّته[٧] ـ وكان ذا شعرٍ كثيرٍ ـ[٨]، واستطاع أن يتخلَّص من قريش، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة، وجبير بن مُطْعِم؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ (٣/ ٩٧).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٦٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٢٠٩.
(٤) انظر: دراسات في السِّيرة النَّبوية، د. عماد الدين خليل، ص ١٣٢.
(٥) أذاخر: مكان قريب من مكَّة.
(٦) النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.
(٧) الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.
(٨) انظر: التاريخ الإسلاميّ، للحميديِّ (٣/ ١٠٧).

غضاضةً من ذلك ، فهو يعرف : أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة ، وعاجزون عن حماية أنفسهم[١] ، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة ، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس ؛ حيث قال :

تَــدارَكْـتُ سَعْـداً عَنْـوةً فـأخَـذْتُـهُ وكـانَ شِفـاءً لَـو تَـدارَكْـتُ مُنْـذِرا
ولـو نِلْتـهُ طُلَّـتْ[٢] هُنَـاكَ جِـراحُـهُ وكـانَ حـرِيَّـاً أَنْ يُهَـانَ ويُهْـدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد ، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر ، تناقلتها الرُّكبان :

وَلَسْـتُ إِلَـى سَعْـدٍ ولاَ المَـرْءُ مِنْـذِرٌ إِذَا مَـا مَطَـايـا القَـوْمِ أَصْبَحْـنَ ضُمَّـرا[٣]
فَـلاَ تَـكُ كَـالـوَسْنَـانِ يَحْلُـمُ أَنَّـهُ بِقَـرْيَـةِ كِسْـرَىٰ أَوْ بِقَـرْيَـةِ قَيْصَـرَا
فـإنَّـا وَمَـنْ يَهْـدِي القَصَـائِـدَ نَحْـوَنَـا كَمُسْتَبْضِـعٍ تَمْـراً إِلَـى أَرْضِ خَيْبَـرا[٤]

٩ ـ في قول العبَّاس بن عبادة بن نضلة : «والله الذي بعثك بالحق! إن شئت لَنميلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا» ، وقول رسول الله ﷺ : «لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه] درسٌ تربويٌّ بليغٌ ، وهو : أنَّ الدِّفاع عن الإسلام ، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين ، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه ؛ وإنَّما هو خضوعٌ لأوامر الله تعالى ، وتشريعاته الحكيمة ، فإذا شُرع الجهاد ؛ فإنَّ أمر الإقدام ، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين ، بعد التَّشاور ، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[٥] ، وكلَّما كانت عبقريَّة التَّخطيط السِّياسيِّ أقوى ؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّات أكثر ، وإخفاء المخطَّطات ، وتنفيذها عن العدوِّ ، هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها : «ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه][٦].

١٠ ـ كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله ﷺ يده ، وقولهم له : ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه ، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة ، فكانت قولاً ؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأةً أجنبيةً قطُّ ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته ﷺ ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعة الحرب ، وصدقتا عهدهما ، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة) ، فقد سقطت في أُحدٍ ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً ، وقد خرجت يوم أحدٍ مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين ، فلمَّا انهزم المسلمون ؛ انحازت إلى رسول الله ﷺ ، فكانت تباشر القتال ، وتذبُّ

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١١٦).
(٢) أي : أهدرت .
(٣) ضُمَّرا : جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل : هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب .
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥).
(٥) انظر : التاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ١٠٤).
(٦) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام ، ص ٩٦ .

عنه بالسَّيف ، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ ، وشهدت بيعة الرِّضوان[(١)] ، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً ، فما وهنت ، وما استكانت[(٢)] ، وشهدت معركة اليمامة ، في حروب الرِّدة مع خالد بن الوليد ، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها ، وجُرحت اثني عَشَرَ جُرحاً[(٣)] ، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني سلمة ، قيل: هي والدة معاذ بن جبل ، وقيل: ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[(٤)].

١١ ـ عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السِّير والتَّراجم ، نجد: أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين ، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ ﷺ وبعده ، ونلاحظ: أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ قرابة النِّصف ، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول ﷺ في جميع غزواته ، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر ، فكانوا قرابة السَّبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ، ورسوله ﷺ؛ فمنهم من قضى نحبه ، ولقي ربَّه شهيداً ، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة ، وشارك في أحداثها الجِسَام ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام ، النَّماذج الَّتي تعطي ، ولا تأخذ ، والَّتي تقدِّم كلَّ شيءٍ ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنَّة ، ويتصاغر التَّاريخ في جميع عصوره ، ودهوره ، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[(٥)].

* * *

---

(١) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، دكتورة عصمة الدِّين ، ص ١٠٨.
(٢) انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٨٧.
(٣) ابن هشام (٢/ ٨٠) ، وأسد الغابة (٥/ ٣٩٥) ، والبداية والنِّهاية (٣/١٥٨ ـ ١٦٦) ، والإصابة (٨/٨) رقم ٤٨ ، ٤٩ ، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.
(٤) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.
(٥) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٤٠).

المبحث الرَّابع
الهجرة إلى المدينة

أولاً: التَّمهيد ، والإعداد لها:

إنَّ الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيدٌ ، وإعدادٌ ، وتخطيط من النَّبيِّ ﷺ ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى ، وتدبيره ، وكان هذا الإعداد في اتِّجاهين: إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَرِ إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهةً ، أو رحلةً يروِّح فيها الإنسان عن نفسه؛ ولكنَّها مغادرةُ الأرض، والأهل ، ووشائج القربى ، وصلات الصَّداقة والمودَّة ، وأسباب الرِّزق ، والتَّخلِّي عن كلِّ ذلك من أجل العقيدة ، ولهذا احتاجت إلى جهدٍ كبيرٍ ، حتَّى وصل المهاجرون إلى قناعةٍ كاملةٍ بهذه الهجرة ، ومن تلك الوسائل:

ـ التَّربية الإيمانيَّة العميقة الَّتي تحدَّثنا عنها في الصَّفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الَّذي أصاب المؤمنين ، حتَّى وصلوا إلى قناعةٍ كاملةٍ بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القرآن المكِّيِّ التَّنويه بالهجرة ، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف ، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم ، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف ، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة ، وهي ترك الأهل ، والوطن من أجل العقيدة.

ثم تلا ذلك آياتٌ صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] .

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عمليّاً على ترك الأهل ، والوطن[١] .

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ ، لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى؛ وإنَّما أخَّر ذلك لأكثر من عامين؛ حتَّى تأكَّد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّاً ، كما كان في الوقت نفسه يتمُّ إعدادها في أجواء القرآن الكريم ، وخاصَّةً بعد انتقال مصعب رضي الله عنه إلى المدينة .

وقد تأكَّد: أنَّ الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله ، وذلك بطلبهم هجرة الرَّسول الكريم ﷺ إليهم ، كما كانت المناقشات الَّتي جرت في بيعة العقبة الثَّانية ، تؤكِّد الحرص الشَّديد من الأنصار على تأكيد البيعة ، والاستيثاق للنَّبيِّ ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم ، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل مِنًى ممَّن آذى رسول الله ﷺ بأسيافهم؛ لو أذن الرَّسول الكريم بذلك ، ولكنَّه قال لهم: «لم نؤمر بذلك» .

وهكذا تمَّ الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين ، وما يترتَّب على ذلك من تَبِعَات[٢] .

ثانياً: تأمُّلاتٍ في بعض آيات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، وتحدَّثت السُّورة عن سنَّة الله في الدَّعوات ، وهي سنَّة الابتلاء ، قال تعالى: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٤] .

وفي سورة العنكبوت ثلاثةُ أمورٍ تلفت النَّظر ، وهي:

١ ـ ذِكْرُ كلمة المنافقين ، ومن المعلوم: أنَّ النِّفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين؛ حيث يخشى بعضُ النَّاس على مصالحهم ، فيظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ومن المعلوم: أنَّ المجتمع في مكَّةَ كان جاهليّاً ، وكانت القوَّة والغلبة لأهل الشِّرك ، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السُّورة ، في قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] ، وهي سورةٌ مكِّيَّةٌ كما قلنا: فهل كانت الآمال قد قويت عند الفئة

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أُمَّةٍ وبناء دولةٍ ، لصَالح الشامي ، ص ١١٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

المؤمنة بحيث تراءىٰ لهم الفرج ، والنَّصر قاب قوسين أو أدنى؟ أم أنَّ هذه الآية مدنيَّةٌ وضعت في سورةٍ مكِّيَّةٍ؛ لأنَّ النِّفاق لم يحِنْ وقتُه بعدُ ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين؟[١] .

٢ ـ ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن ، وكأنَّه تهيئةٌ للنُّفوس للمرحلة القادمة؛ الَّتي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب فيها احتكاكٌ ، فلا يكونون البادئين بالشدَّة ، فيأتي التَّنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٧] .

٣ ـ تهيئة النُّفوس للهجرة في أرض الله الواسعة ، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى ، ومهما كان الأمر ، وأنَّى كان وقت نزول سورة العنكبوت؛ فإنَّ الإشارة واضحةٌ ، والحثَّ على الهجرة ـ أيضاً ـ واضحٌ ببيان تكفُّل الله الرِّزق للعباد؛ في أيِّ أرضٍ ، وفي أيِّ زمانٍ[٢]. قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] .

هذه الآية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الَّذين كانوا بمكَّة على الهجرة؛ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصوابٍ؛ بل الصَّواب أن يُتلمَّس عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها ، فهاجروا إلى المدينة؛ فإنَّها واسعةٌ لإظهار التَّوحيد بها[٣] ، ثمَّ أخبرهم تعالى: أنَّ الرِّزق لا يختصُّ ببقعةٍ معيَّنةٍ؛ بل رزقه تعالى عامٌّ لخلقه حيث كانوا ، وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر ، وأوسع ، وأطيب ، فإنَّهم بعد قليلٍ صاروا حكَّام البلاد في سائر الأقطار ، والأمصار[٤] ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] .

كما ذكَّرهم تعالى: أنَّ كلَّ نفسٍ واجدةٌ مرارة الموت ، فقال جلَّ شأنه: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] .

أي: واجدةٌ مرارته ، وكربه ، كما يجد الذَّائق طعم المذوق ، ومعناه: إنَّكم ميِّتون ،

---

(١) انظر في ذلك: صنيع محمَّد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للآية بـ(م) وهو رمز الآيات المدنية ، وما ذكره القرطبيُّ من خلاف العلماء في الآية (١٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر: معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥٠٧٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠).

فواصلون إلى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته؛ لم يكن له بُـدٌّ من التزوُّد لها ، والاستعداد بجهده[١] ، وهذا تشجيعٌ للنَّفس على الهجرة؛ لأنَّ النَّفس إذا تيقَّنت بالموت؛ سهُلَ عليها مفارقةُ وطنها[٢].

قال ابن كثير في الآية: أي: أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله؛ فهو خيرٌ لكم ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، ولا محيد عنه ، ثمَّ إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له؛ جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتمَّ الثَّواب[٣] ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، أي: صبروا على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابزوا الأعداء ، وفارقوا الأهل ، والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده ، وتصديق موعوده ، ولم يتوكَّلوا في جميع ذلك إلا على الله[٤].

ثالثاً: طلائع المهاجرين:

لمَّا بايعتْ طلائعُ الخير ، ومواكبُ النُّور من أهل يثرب النَّبيَّ ﷺ على الإسلام ، والدِّفاع عنه؛ ثارت ثائرة المشركين ، فازدادوا إيذاءً للمسلمين ، فأذن النَّبيُّ ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة ، إقامة الدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي تحمل الدَّعوة ، وتجاهد في سبيلها؛ حتَّى لا تكون فتنةٌ ، ويكون الدِّين كلُّه لله[٥] ، وكان التَّوجيه إلى المدينة من الله تعالى ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا صدر السَّبعون من عند رسول الله ﷺ؛ طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعةً ، وقوماً أهل حربٍ ، وعدَّةٍ ، ونجدةٍ ، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج ، فضيَّقوا على أصحابه ، وتعبَّثوا[٦] بهم ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتم ، والأذى ، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ واستأذنـوه في الهجرة ، فقال: « قـد أُريت دار هجرتكم ، أُريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين ـ وهما الحرَّتان ـ ولو كانت السَّراة أرض نخلٍ ، وسباخٍ؛ لقلت: هي ، هي» [البخاري (٢٢٩٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٥٩)] .

ثمَّ مكث أياماً ، ثمَّ خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي

---

(١) انظر: الكشاف للزَّمخشري (٣/ ٣١٠) ، وتفسير أبي السعود (٧/ ٤٥) ، وتفسير فتح القدير (٤/ ٢١٠).
(٢) انظر: الأساس في التفسير ، لسعيد حوَّى (٨/ ٤٢٢٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٩).
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٢٥.
(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٣ ، ٣٤.
(٦) عَبثَ عبثاً: لعب ، فهو عابثٌ لاعبٌ لما لا يعنيه ، انظر: لسان العرب (٢/ ١٦٦).

يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتَّجهون ، ويتوافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ، ويخفون ذلك ، فكان أوَّلَ من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثمَّ قدم بعده عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة ، فهي أوَّل ظعينةٍ قدمت المدينة ، ثمَّ قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ، ونصروهم ، وآسوهم ، وكان سالم مولى أبي حُذيفة ، يؤمُّ المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم النَّبيُّ ﷺ ، فلمَّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة ، كَلِبَتْ[1] قريشٌ عليهم ، وحربوا ، واغتاظوا على مَنْ خرج من فتيانهم ، وكان نفرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في البيعة الآخرة ، ثمَّ رجعوا إلى المدينة ، فلمَّا قدم أوَّل مَنْ هاجر إلى قُباء؛ خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكَّة ، حتَّى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون أنصاريُّون ، وهم: ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبقَ بمكَّة فيهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، أو مفتونٌ ، أو مريضٌ ، أو ضعيفٌ عن الخروج . [ابن سعد (١/ ٣٢٥)] .

رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة ، واتَّبعت في ذلك عدَّة أساليب؛ منها:

١ ـ أسلوب التَّفريق بين الرَّجل ، وزوجه ، وولده:

ونترك أمَّ المؤمنين أمَّ سلمة ، هند بنت أبي أميَّة تحدِّثنا عن روائع الإيمان ، وقوَّة اليقين في هجرتها ، وهجرة زوجها أبي سلمة . قالت رضي الله عنها: «لما أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة ، رَحَل لي بعيرَهُ ، ثمَّ حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثمَّ خرج بي يقود بعيرَه ، فلمَّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه .

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا: لا والله ، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا .

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم ، حتَّى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة .

---

(١) كلبت قريش عليهم: أي: غضبت عليهم.

قالت: ففُرِّق بيني، وبين زوجي، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كلَّ غداةٍ، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتَّى أُمسي، سنةً، أو قريباً منها؛ حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي - أحدُ بني المغيرة - فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرِجون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ بعيري، ثمَّ أخذت ابني، فوضعته في حِجري، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خَلْق الله.

قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتَّى أقدم على زوجي، حتَّى إذا كنت بالتَّنْعيم، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدَّار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟!

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله! إلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ من مَتْرك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل؛ أناخ بي، ثمَّ استأخر عنِّي، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح؛ قام إلى بعيري، فقدَّمه، فرحَّله، ثمَّ استأخر عنِّي، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ، واستويت على بعيري؛ أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتَّى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادْخُليها على بركة الله، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

قال: فكانت تقول: والله! ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة». [ابن هشام (٢/ ١١٢ - ١١٣)][(١)].

فهذا مثل على الطُّرق القاسية، الَّتي سلكتها قريشٌ؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة، فرجلٌ

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

يفرَّق بينه وبين زوجه عَنْوَةً ، وبينه وبين فلذة كبده على مرأىً منه ، كلُّ ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ، ولكنْ متى تمكَّن الإيمان من القلب؛ استحال أن يقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً ، حتَّى لو كان ذلك الشَّيء ، فلذة كبده ، أو شريكة حياته ، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة ، لا يلوي على أحدٍ ، وفشل معه هذا الأسلوب ، وللدُّعاة إلى الله فيه أسوةٌ[(١)] .

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب ، فهذه أسرةٌ فُرِّق شملُها ، وامرأةٌ تبكي شدَّة مصابها ، وطفلٌ خُلعت يده ، وحُرِم من أبويه ، وزوج ، وأبٌ يسجِّل أروع صور التَّضحية ، والتَّجرد؛ ليكون أوَّل مهاجرٍ يصل أرض الهجرة ، محتسبين في سبيل الله ما يلقون ، مصمِّمين على المضيِّ في طريق الإيمان ، والانحياز إلى كتيبة الهدى ، فماذا عسى أن ينال الكفر ، وصناديده من أمثال هؤلاء؟!

وأمَّا صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، فقد كان يومئذ كافراً «وأسلم قبل الفتح» ، ومع ذلك تشهَدُ له أمُّ سلمة رضي الله عنها بكرم الصُّحْبةِ ، وذلك شاهد صدقٍ على نفاسة هذا المعدن ، وكمال مروءته ، وحمايته للضَّعيف[(٢)] ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربيُّ الأصيل ، أن يَدَع امرأةً شريفةً ، تسير وحدها في هذهِ الصَّحراء الموحشة ، وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنَّها بهجرتها تراغمه ، وأمثاله من كفَّار قريش .

فأين من هذه الأخلاق ـ يا قومي المسلمين! ـ أخلاق الحضارة في القرن العشرين؛ من سطوٍ على الحرِّيات ، واغتصابٍ للأعراض؛ بل وعلى قارعة الطَّريق ، وما تطالعنا به الصَّحافة كلَّ يومٍ من أحداثٍ يندى لها جبين الإنسانيَّة؛ مِن تَفَنُّنٍ في وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض ، والسَّطو على الأموال! .

إنَّ هذه القصة ـ ولها مُثُلٌ ونظائر ـ لتشهدُ أنَّ ما كان للعرب من رصيدٍ من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ، ورذائلهم ، فَمِنْ ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ، وكانوا أهلاً لحمل الرِّسالة ، وتبليغها للنَّاس كافَّةً[(٣)] .

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه ، وتسخيره لهم ، فهو ـ جلَّ وعلا ـ الَّذي سخَّر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأمِّ سلمة ، ولذلك بذل الجهد ، والوقت من أجلها[(٤)] ، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة؛ الَّتي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعلَّ إضاءة قلبه بدأت

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، د. إبراهيم علي محمَّد ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، تقسيم الأساليب أخذ من هذا الكتاب ، وأخذت مشاهد العظمة من كتاب (الهجرة النَّبويَّة المباركة).

(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤ .

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسنة ، د. محمَّد أبو شهبة (١/ ٤٦١).

(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ١٢٨).

منذ تلك الرِّحلة في مصاحبته لأمِّ سلمة رضي الله عنها[١] .

٢ ـ أسلوب الاختطاف :

لم تكتفِ قيادة قريش بالمسلمين داخل مكَّة بمنعهم من الهجرة ، بل تعدَّت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً ، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين ، ولقد نجحت هذه المحاولة ، وتمَّ اختطاف أحد المهاجرين من المدينة ، وأعيد إلى مكَّة[٢] ، وهذه الصُّورة التَّاريخيَّة للاختطاف يحدِّثنا بها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث قال : اتَّعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهمي التَّناضِبَ[٣] من أضَاة[٤] بني غفارٍ ، فوق سَرِف[٥] ، وقلنا : أيُّنا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس ، فليمضِ صاحباه .

قال : فأصبحت أنا ، وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضِب ، وحُبِس عنَّا هشام ، وفُتن ، فافتتن[٦] .

فلمَّا قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عيَّاش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمِّهما ، وأخاهما لأمِّهما ، حتَّى قدما علينا المدينة ، ورسول الله ﷺ بمكَّة ، فكلَّماه ، وقالا : إنَّ أمَّك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشطٌ حتَّى تراك ، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتَّى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له : عيَّاش ، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمَّك القملُ ، لامتشطت ، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت .

قال : أبرُّ قسم أمِّي ، ولي هناك مالٌ ، فآخذه .

قال : فقلت : والله إنك لتعلم أنِّي لَمِنْ أكثر قريشٍ مالاً ، فلك نصفُ مالي ، ولا تذهب معهما ، قال : فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلمَّا أبى إلا ذلك ، قلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول[٧] ، فالزمْ ظهرها ، فإن رابك من القوم ريبٌ؛ فانجُ عليها ، فخرج عليها معهما ، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا أخي ،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٠٤) .
(٢) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢ .
(٣) التناضب : جمع تنضيب ، وهو شجر ، وهو اسم موضع قريب من مكَّة .
(٤) الأضاة : على عشرة أميال من مكَّة .
(٥) سرف : وادٍ متوسط الطُّول من أودية مكَّة .
(٦) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٩ .
(٧) الذلول : أذلَّها العمل ، فصارت سهلة الرُّكوب و الانقياد .

والله! لقد استغلظتُ بعيري هذا ، أفلا تُعْقِبني[(١)] على ناقتك هذه؟ قال: بلى ، قال: فأناخ ، وأناخ ، ليتحوَّل عليها ، فلما استوَوْا بالأرض ، عدوا عليه ، فأوثقاه ، ثمَّ دخلا به مكَّة ، وفتناه ، فافتتن[(٢)] .

قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممَّن افتتن صَرفاً ، ولا عدلاً ، ولا توبةً ، قوم عرفوا الله ، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أنزل الله تعالى فيهم ، وفي قولنا ، وقولهم لأنفسهم: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥] .

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفةٍ ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص ، قال: فقال هشام: فلمَّا أتتني؛ جعلت أقرؤها بذي طَوَى[(٣)] أُصَعِّد بها فيه ، وأُصَوِّبُ ، ولا أفهمها ، حتَّى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها ، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنَّها إنَّما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويُقال: فينا ، قال: فرجعت إلى بعيري ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله ﷺ ، وهو بالمدينة. [البزار (١٧٤٦) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٦١)][(٤)] .

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعدَّ عمر رضي الله عنه خطَّة الهجرة له ، ولصاحبيه عيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهميِّ ، وكان ثلاثتهم كلُّ واحدٍ من قبيلةٍ ، وكان مكان اللِّقاء الَّذي اتَّعدوا فيه بعيداً عن مكَّة ، وخارج الحرم ، على طريق المدينة ، ولقد تحدَّد الزمان ، والمكان بالضَّبط؛ بحيث إنَّه إذا تخلف أحدهم؛ فليمضِ صاحباه ، ولا ينتظرانه؛ لأنَّه قد حُبس ، وكما توقعوا ، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه ، بينما مضى عمر ، وعيَّاش بهجرتهما ، ونجحت الخطَّة كاملة ، ووصلا المدينة سَالِمَيْن[(٥)] .

إلا أنَّ قريشاً صمَّمت على متابعة المهاجرين ، ولذلك أعدَّت خطَّةً محكمةً ، قام بتنفيذها أبو جهل ، والحارث ، وهما أَخَوَا عياش من أمِّه ، الأمر الذي جعل عياشاً يطمئنُّ لهما ، وبخاصَّةٍ إذا كان الأمر يتعلَّق بأمِّه ، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة؛ لعلمه بمدى شفقة ورحمة

(١) تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٠٥).
(٣) ذو طوى: وادٍ من أودية مكَّة.
(٤) الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٣١ .
(٥) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٥٩).

عيَّاش بأمِّه ، والَّذي ظهر جليّاً عندما أظهر موافقته على العودة معهما ، كما تُظهر الحادثة الحسَّ الأمني الرَّفيع؛ الَّذي كان يتمتَّع به عمر رضي الله عنه؛ حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[١].

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوَّة التي بناها الإسلام في هذه النُّفوس؛ فعمر يضحِّي بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه ، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته ، ولكن غلبت عياشاً عاطفتُه نحو أمِّه ، وبرِّه بها؛ ولذلك قرَّر أن يمضي لمكَّة فيبرَّ قسم أمِّه ، ويأتي بماله من هناك ، وتأبى عليه عفَّته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه ، وماله قائم في مكَّة لم يُمسَّ ، غير أنَّ أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد ، فكأنه يرى رأي العين ، المصير المشؤوم ، الَّذي سينزل بعياش لو عاد إلى مكَّة ، وحين عجز عن إقناعه؛ أعطاه ناقته الذَّلول النَّجيبة ، وحدث لعياش ما توقَّعه عمر من غدر المشركين به[٢].

وساد في الصفِّ المسلم: أنَّ الله تعالى لا يقبل صرفاً ، ولا عدلاً ، من هؤلاء الذين فُتِنوا ، فافتتنوا ، وتعايشوا مع المجتمع الجاهليِّ ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وما إن نزلت هذه الآيات ، حتَّى سارع الفاروق رضي الله عنه ، فبعث بهذه الآية إلى أخَوَيه الحميمين عيَّاش ، وهشام؛ ليجدِّدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر . . أيُّ سموٍّ عظيمٍ عند ابن الخطَّاب رضي الله عنه؟! لقد حاول مع أخيه عياش ، أعطاه نصف ماله على ألاَّ يغادر المدينة ، وأعطاه ناقته ليفرَّ عليها ، ومع هذا كلِّه ، فلم يشمت بأخيه ، ولم يَتَشَفَّ منه لأنَّه خالفه ، ورفض نصيحته ، وألقى برأيه خلف ظهره؛ إنَّما كان شعور الحبِّ ، والوفاء لأخيه هو الَّذي يسيطر عليه ، فما إن نزلت الآية ، حتَّى سارع ببعثها إلى أخويه في مكَّة ، ولكلِّ المستضعفين هناك؛ ليقوموا بمحاولاتٍ جديدةٍ للانضمام إلى المعسكر الإسلاميِّ[٣].

٣ـ أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوبٍ لمنع الهجرة ، فكلُّ من تقبض عليه ، وهو يحاول الهجرة كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت مع وضع يديه ، ورجليه في القيد ، وتفرض عليه رقابةً ، وحراسةً مشدَّدةً حتَّى لا يتمكَّن من الهرب ، وأحياناً يكون الحبس داخل حائطٍ بدون سقف ، كما فُعل مع عيَّاش ، وهشام بن العاص رضي الله عنهما ، حيث كانا محبوسَيْن في بيتٍ لا سَقف

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٤ .
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٦٠).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٦٠).

له[١] ، وذلك زيادة في التَّعذيب؛ إذ يضاف إلى وحشة الحبس ، حرارة الشَّمس ، وسط بيئةٍ جبليَّةٍ شديدة الحرارة مثل مكَّة .

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين؛ أوَّلهما : منع المحبوسين من الهجرة ، والآخر : أن يكون هذا الحبس درساً وعِظَةً ، لكلِّ مَنْ يحاول الهجرة من أولئك الَّذين يفكِّرون بها ممَّن بقي من المسلمين بمكَّة ، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنوَّرة ، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكَّة؛ مثل عيَّاش ، وهشام رضي الله عنهما، ولكنَّهما تمكَّنا من الخروج، واستقرّا بالمدينة[٢] .

كان النَّبيُّ ﷺ بعد هجرته يقْنُتُ ، ويدعو للمستضعفين في مكَّة عامَّةً ، ولبعضهم بأسمائهم خاصَّةً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة؛ يقول: «اللَّهم أَنْجِ عيَّاش بن أبي ربيعة ، اللَّهمَّ أنج سَلَمَةَ بن هشام ، اللَّهم أنج الوليدَ بن الوليد ، اللهم أنجِ المستضعفين من المؤمنين ، اللَّهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها سنينَ كسِنِي يوسفَ» [البخاري (١٠٠٦) وأحمد (٢/٤١٨)] .

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عيَّاش؛ فقد ندب الرَّسول ﷺ أحد أصحابه ، وفعلاً استعدَّ للمهمَّة ، ورتَّب لها ما يحقِّق نجاحها ، وذهب إلى مكَّة ، واستطاع بكلِّ اقتدارٍ ، وذكاءٍ ، أن يصل إلى البيت الَّذي حُبسا فيه ، وفكَّ قيدهما ، ورجع بهما إلى المدينة المنوَّرة[٣] .

٤ ـ أسلوب التَّجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمر بن قاسط ، أغارت عليهم الرُّوم ، فسُبي وهو صغيرٌ ، وأخذ لسان أولئك الَّذين سَبَوْه ، ثمَّ تقلَّب في الرِّق ، حتَّى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثمَّ أعتقه ، ودخل الإسلام هو ، وعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما في يومٍ واحدٍ[٤] .

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه ، عملاً تتجلَّى فيه روعة الإيمان ، وعظمة التَّجرُّد لله؛ حيث ضحَّى بكلِّ ما يملك في سبيل الله ، ورسوله ﷺ ، واللُّحوق بكتيبة التَّوحيد ، والإيمان[٥] ، فعن أبي عثمان النَّهْديِّ ـ رحمه الله ـ قال: بلغني: أنَّ صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة ، قال له أهل مكَّة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً[٦] ، حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٥ .
(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٠ .
(٦) الصعلوك: الفقير.

ما بلغتَ ، ثمَّ تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي؛ تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيبٌ!» [المطالب العالية (٤٠٦٣) وابن هشام (٢/ ١٢١)] .

وعن عكرمة ـ رحمه الله ـ قال: لمَّا خرج صهيب مهاجراً؛ تبعه أهل مكَّة ، فنثل[(١)] كنانته ، فأخرج منها أربعين سهماً ، فقال: لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كلِّ رجلٍ منكم سهماً ، ثمَّ أصيرُ بعد إلى السَّيف ، فتعلمون أنِّي رجلٌ ، وقد خلَّفت بمكَّة قينتين ، فهما لكم» [الحاكم (٣/ ٣٩٨)] ، وقال عكرمة: ونزلت على النَّبيِّ ﷺ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] .

فلمَّا رآه النَّبيُّ ﷺ قال: «أبا يحيى! ربح البيع!» قال: وتلا عليه الآية [الحاكم (٣/ ٣٩٨)] لكأنِّي[(٢)] بصهيبٍ رضي الله عنه يقدِّم الدَّليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين؛ الَّذين يَزِنُون حركات التَّاريخ ، وأحداثَه كلَّها بميزان المادَّة ، فأين هي المادَّة الَّتي سوف يكسبها صهيبٌ في هجرته ، والَّتي ضحَّى من أجلها بكلِّ ما يملك؟!

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمَّدٌ ﷺ منصباً يعوِّضه عمَّا فقده ؟! أو هل ترى محمَّداً ﷺ يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إنَّ صهيباً ما فعل ذلك ، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة ، إلا ابتغاء مرضاة الله ، بالغاً ما بلغ الثَّمن؛ ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التَّضحية عزيزة المنال ، عساهم يسيرون على الدَّرب ، ويقتفون الأثر[(٣)] .

إنَّ هذه المواقف الرائعة ، لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشُّموخ في الهجرة المباركة ، بل امتلأ هذا الحدث العظيم ، بكثيرٍ من مشاهد العظمة والتَّجرُّد والتَّضحية ، الَّتي تعطي الأمَّة دروساً بليغةً في بناء المجد ، وتحصيل العزَّة[(٤)] .

خامساً: البيوتات الحاضنة ، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ، ومبايعتهم ، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة ، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين ، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها ، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين ،

---

(١) نثل: استخرج ما فيها من النَّبل والسِّهام.
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ١٢١ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢١ .
(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩ .

واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً ، ونساءً ؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر ، والأنصاريَّ ، والمهاجرة ، والأنصاريَّة ، يتقاسمون المال ، والمكان ، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة ؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة :

١ ـ دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء : ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين ، نساءً ، ورجالاً ، وقد ضمَّت هذه الدُّور ، عمر بن الخطاب ، ومن لحق به من أهله وقومه ، وابنته حفصة ، وزوجها ، وعيَّاش بن أبي ربيعة .

٢ ـ دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[١] : نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وأمُّه ، وصهيب بن سنان .

٣ ـ دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار ، قيل : نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب .

٤ ـ دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار ، وكان يسمَّى : بيت العزاب ، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين .

٥ ـ دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء ، ونزل بها عُبيدة بن الحارث ، وأمُّه سُخيلة ، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب ، والطُّفيل بن الحارث ، وطُليب بن عُمير ، والحُصَيْن بن الحارث ؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء .

٦ ـ دار بني جَحْجَبَى ، والمُحتَضِن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة ، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام ، وزوجه أسماء بنت أبي بكر ، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم ، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[٢] .

٧ ـ دار بني عبد الأشهل ، والمُحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل ، نزل بها مصعب بن عمير ، وزوجته حَمْنة بنت جحش .

٨ ـ دار بني النَّجار ، والمُحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر ، نزل بها عثمان بن عفان ، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ[٣] .

فهذه المقاسمة ، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين معه ، وبعده ، إقامةً طيِّبةً ، تنبض بالإيثار على النَّفس ، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[٤] .

---

(١) المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٧ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٦٨ ، ٤٦٩) .
(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٨ .

بهذه الروح العالية ، والإيمان الوثيق ، والصِّدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة ، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين ، والأنصار ، وقد يحدث تساؤلٌ ، فيقال: لماذا لم نسمع ، ولم تسجِّل المصادر ، ولم تكتب المراجع : أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّساءُ وما اشتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ؛ الَّذي جعل تقوى الله أساساً لتصرُّف كلِّ نفسٍ ، والأخلاق السَّامية الَّتي فرضت الأخوة بين المسلمين ، ونصرة الدَّعوة ، إنَّها المبايعة ، وأثرها في النُّفوس ، إنَّه الصِّدق ، والعمل من أجل الجماعة ، خوفاً من العقاب ، ورهبةً من اليوم الآخر ، ورغبةً في الثواب ، وطمعاً في الجنة ، إنَّه دفء حضانة الإيمان ، واستقامة النَّفس والسُّلوك ، وصدق الطَّويَّة ، فكلُّ مَنْ أسلم ، وكلُّ من بايع ، وكلُّ من أسلمت ، وبايعت ، يعملون جميعهم ما يؤمرون به ، ويخلصون فيما يقولون ، يخافون الله في السِّر ، والعلن ، آمنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ ، فالكلُّ يعمل من أجل مصلحة الكلِّ ، فهذا هو التَّكافل الاجتماعيُّ في أجلى صورةٍ ، وأقدس واقعةٍ ، رغب الكلُّ في الثَّواب؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه[(١)].

إنَّ جانب البذل ، والعطاء ظاهرةٌ ، نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كلِّ وقتٍ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصر ، وفي الصَّفِّ الإسلاميِّ ، وفي رحلةٍ لبضعة أيام تتكشَّف النُّفوس والعيوب ، والحزازات والظُّنون ، وهذا مجتمعٌ يبنى؛ ولمَّا يصلْ رسول الله ﷺ بعد ، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجُدُد ، ليس على مستوى فردٍ فقط؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك ، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار شهوراً عدَّةً ، والمعايشة اليوميَّة مستمرةٌ ، والأنصار يبذلون المال ، والحبَّ ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم ، نحن أمام مجتمعٍ إسلاميٍّ ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ ، وانصهاره ، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل ، والعطاء ، فلم يكونوا أصلاً فقراء؛ بل كانوا يملكون المال ، ويملكون الدَّار ، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضاة الله ، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا ، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٨ ـ ٩] .

كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان ، والتَّقوى ، ولم يصل النَّبيُّ ﷺ

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٣٢ .

بعد ، ولكن تحت إشراف النُّقباء الاثنى عشر ، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى ، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ[١] ، واقتبسوا من هديه[٢] .

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية؛ فقد كان إمامُ المسلمين ، سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً ، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد ﷺ ؛ من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش ، والأوس والخزرج ، يقوده ويؤمُّه حامل القرآن ، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله ، وحامل القرآن في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب ، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم ، بين حملة القرآن من الحفَّاظ ، وبين المجاهدين في سبيل الله ، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، وكان شعاره : (بئس حامل القرآن)ـ يعني : إن فررت ـ ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صُرع ، واستُشهد في سبيل الله[٣] .

ومن معالم المجتمع الإسلاميِّ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً ، فقد أصبح واضحاً عند الجميع : أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين ، ونشط الشَّباب، والنِّساء ، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله ، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدمٍ وساقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشة من المسلمين ، وبين المجتمع الإسلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ : أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود ، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة ، وحرِّيَّة العبادة ، ولكنَّه دون المجتمع الإسلاميِّ في المدينة بكثير ، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة ، بالتوجُّه نحوها مباشرة ، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك ، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً .

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً ، وبدأ نموُّه ، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى ، والَّتي كان على رأسها ، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرَارةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة الدَّعويَّة فقط ، دون الوجود السِّياسيِّ ، وبلغ أوج توسُّعه ، وبنائه بعد عودة

---

(١) الثَّرّ : الغزير الكثير .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٧١ ، ١٧٢).
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٧٤ ، ١٧٥).

السَّبعين ، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض ، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة ، حتَّى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة.

إنَّ القاعدة الصُّلبة ، الَّتي بذل رسول الله ﷺ وقتاً وجهداً في تربيتها ، بدأت تعطي ثمارها أكثر ، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد ، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة ، وأخوَّة الدين.

لقد أعدَّ رسول الله ﷺ الأفراد ، وصقلهم في بوتقة الجماعة ، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة ، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض(١).

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة ، والتحمت مع إخوانها الأنصار ، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى ﷺ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام ، الَّتي صنعت ـ فيما بعد ـ حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا.

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة داراً للهجرة ، ومركزاً للدَّعوة ـ عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ـ أسرارٌ لا يعلمها إلا الله؛ إنَّها امتازت بتحصُّن طبيعيٍّ حربيٍّ ، لا تزاحمها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة ، فكانت حَرَّة الوَبْرَة ، مُطبقةً على المدينة من النَّاحية الغربية ، وحَرَّة واقِم مطبقةً على المدينة من النَّاحية الشَّرقيَّة ، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة ـ وهي الَّتي حصَّنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب ـ وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة ، محاطة بأشجار النَّخيل والزُّروع الكثيفة ، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضيِّقةٍ ، لا يتَّفق فيها النِّظام العسكريُّ ، وترتيب الصُّفوف.

وكانت خفاراتٌ عسكريَّةٌ صغيرةٌ ، كافيةٌ لإفساد النِّظام العسكريِّ ، ومنعه من التقدُّم ، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورةً ، وسائر جوانبها مشكَّكةً بالبنيان ، والنَّخيل ، لا يتمكَّن العدوُّ منها»(٢).

ولعلَّ النَّبيَّ ﷺ ، قد أشار إلى هذه الحكمة الإلٰهيَّة في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني أُرِيتُ دار هجرتكم ، ذات نخيلٍ بين لابتين ، وهما الحرَّتان» [سبق تخريجه] ، فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامَّةُ من كان هاجرَ بأرض الحبشة إلى المدينة.

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١٤٦ ، ١٤٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ١٥٧.

وكان أهل المدينة من الأوس ، والخزرج أصحاب نخوةٍ ، وإباءٍ ، وفروسيَّةٍ ، وقوَّةٍ ، وشكيمةٍ ، ألفوا الحرِّيَّة ، ولم يخضعوا لأحدٍ ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ ، أو حكومةٍ إتاوةً ، أو جبايةً. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملَّتهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر.

وكان بنو عديٍّ بن النَّجار أخواله ﷺ ، فأمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عديٍّ بن النَّجار إحدى نسائهم ، فقد تزوَّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديٍّ بن النَّجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتَّى صار غلاماً دون المراهقة ، ثمَّ احتمله عمُّه المطَّلب ، فجاء به إلى مكَّة ، وكانت الأرحام يحسب لها حسابٌ كبيرٌ ، في حياة العرب الاجتماعيَّة ، ومنهم أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ؛ الَّذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة.

وكان الأوس ، والخزرج من قحطان ، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكَّة ، وما حولها من عدنان ، ولمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره؛ اجتمعت بذلك عدنان ، وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسدٍ واحدٍ ، وكانت بينهما مفاضلةٌ ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة ، وبذلك لم يجد الشَّيطان سبيلاً إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة ، والتَّعزِّي بعزاء الجاهليَّة ، باسم الحميَّة القحطانيَّة ، أو العدنانيَّة ، فكانت لكلِّ ذلك مدينة يثرب أصلحَ مكانٍ لهجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه ، واتِّخاذهم لها داراً ، وقراراً ، حتَّى يقوى الإسلام ، ويشقَّ طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ، ثمَّ يفتح العالم المتمدِّن[1].

سابعاً: من فضائل المدينة:

لقد عظم شرف المدينة المنوَّرة المباركة ، بهجرة النَّبيِّ ﷺ إليها ، حتَّى فضلت على سائر بقاع الأرض ـ حاشا مكَّة المكرَّمة ـ وفضائلها كثيرةٌ منها:

١ ـ كثرة أسمائها:

إنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المُسمَّى ، ولا توجد بلدةٌ في الدُّنيا لها من الأسماء ، مثل ما للمدينة المنوَّرة ، أو نصفه ، أو حتَّى ربعه ، وقد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مئة اسم[1] ، وقد ذكر هذه الأسماء الزَّركشي في (إعلام السَّاجد بأحكام المساجد)[2] ، والمجد الفيروز آبادي صاحب (القاموس المحيط)[3] ، ونور الدِّين السَّمهودي في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، ومحمَّد بن يوسف الصَّالحي في (سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد).

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٣٣٣).

(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٥ ، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة.

(٣) ذكر السَّخاوي له في الضَّوء اللامع (١/ ٧٩ : ٨٦) مؤلفات منها: المغانم.

وأشهر هذه الأسماء :

(أ) يثرب : قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وقد ورد النَّهي عن تسميتها بهذا الاسم ، وأمَّا تسميتها في القرآن «يثرب» فذلك حكاية عن قول المنافقين .

(ب) طابة : فعن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من سمَّى المدينة يثرب ؛ فليستغفر الله ؛ فإنَّما هي طابة» وفي روايةٍ : «هي طابة ، هي طابة ، هي طابة»[١] .

(ج) المدينة : وهذا أشهر أسمائها ، وهذا الاسم إذا أطلق ؛ أريدت به المدينة المنوَّرة دون غيرها من مدن الدُّنيا ، وقد جاءت الآيات الكثيرة بهذا الاسم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقد وصفت المدينة بالمباركة ، والمنوَّرة ، والمشرَّفة ، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة[٢] .

٢ ـ محبته ﷺ لها ، ودعاؤه برفع الوباء عنها :

دعا النَّبي ﷺ ربَّه قائلاً : «اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة ، أو أشدَّ!»[٣] وعن أنسٍ رضي الله عنه : «أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا قدم من سفرٍ ، فنظر إلى جُدُرات المدينة[٤] ؛ أَوْضَعَ راحلته[٥] ، وإن كان على دابةٍ حرَّكها ؛ من حُبِّها» [البخاري (١٨٠٢ ، ١٨٨٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة ؛ وُعِكَ أبو بكر ، وبلالٌ ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... والمَوْتُ أَدْنَىٰ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته ، يقول : . . . . وقال : «اللَّهمَّ العن شيبة بن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥) ، وضعَّفه الشَّوكانيُّ في فتح القدير (٤/ ٢٦٨).
(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ص ١٥٧ .
(٤) جُدُرات : جمع جدار ، وهو الحائط .
(٥) أَوْضَعَ راحلته : حثَّها على السرعة .

ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميَّة بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء!» ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكَّة ، أو أشدَّ! اللَّهمَّ بارك لنا في صاعنا ، وفي مُدِّنا ، وصحِّحْها لنا ، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ!» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

٣ ـ دعاء النَّبيِّ ﷺ لها بضعفي مافي مكَّة من البركة :

فعن أنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال : «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكَّة من البركة!» [البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كان النَّاس إذا رأوا أوَّل الثَّمر ؛ جاؤوا به إلى النبيِّ ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ ؛ قال : «اللَّهمَّ بارك لنا في ثمرنا! ، وبارك لنا في مدينتنا! وبارك لنا في صاعنا! وبارك لنا في مُدِّنا! اللَّهمَ إنَّ إبراهيم عبدُك ، وخليُلك ونبيُّك وإنِّي عبدك ، ونبيُّك ، وإنَّه دعاك لمكَّة ، وإنِّي أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكَّة ، ومثلهِ معه» قال : ثمَّ يدعو أصْغَرَ وليدٍ له ، فيعطيه ذلك الثَّمر . [مسلم (١٣٧٣) والترمذي (٣٤٥٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٢) وابن ماجه (٣٣٢٩) وابن السني (٢٧٩)] .

٤ ـ عصمتها من الدَّجال والطَّاعون ببركته ﷺ :

إنَّ الله تعالى قيَّض لها ملائكةً يحرسونها ، فلا يستطيع الدَّجال إليها سبيلاً ؛ بل يلقي إليها بإخوانه من الكفَّار ، والمنافقين ، كما أنَّ من لوازم دعاء النَّبيِّ ﷺ بالصِّحَّة ورفع الوباء ألاَّ ينزل بها الطَّاعون ، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ . [البخاري (١٨٨٠) ومسلم (١٣٧٩)][1] .

٥ ـ فضيلة الصَّبر على شدَّتها :

فقد وعد النَّبيُّ ﷺ من صبر على شدَّة المدينة ، وضيق عيشها ، بالشَّفاعة يوم القيامة[2] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَنْ هو خيرٌ منه ، ولا يثبت أحدٌ على لأْوَائِهَا[3] وجَهْدِها ، إلا كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يوم القيامة» [مسلم (١٣٦١)] .

٦ ـ فضيلة الموت فيها :

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من استطاع أن يموت بالمدينة ؛ فليَمت بها ، فإنِّي أشفع لمن يموت بها» [الترمذي (٣٩١٧) وابن ماجه (٣١١٢) وابن حبان (٣٧٣٣) والبيهقي في الشعب (٤١٨٤)] ، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدُّعاء : «اللَّهم ارزقني شهادةً

---

(١) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٠ .

(٣) اللأواء : الشِّدَّة ، وضيق العيش .

في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ »[البخاري (١٨٩٠)] .

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه ، فاستُشهد في محراب رسول الله ﷺ ، وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر .

٧ ـ هي كهف الإيمان ، وتنفي الخبث عنها :

الإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد ، والأخباث ، والأشرار لا مقام لهم فيها ، ولا استقرار ، ولا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين[١] .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الإيمان ليأرِزُ[٢] إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحرها» [البخاري (١٨٧٦) ومسلم (١٤٧)] ، وقال ﷺ : « . . . والَّذي نفسي بيده! لا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إنَّ المدينة كالكير ، تُخرِج الخبث ، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد» [مسلم (١٣٨١) وأحمد (٢/ ٤٣٩)] .

٨ ـ تنفي الذُّنوب والأوزار :

عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّها ـ أي: المدينة ـ طَيْبَةُ تنفي الذُّنوب[٣] ، كما تنفي النَّار خبث الفضَّة» [البخاري (٤٥٨٩) ومسلم (١٣٨٤)] .

٩ ـ حفظ الله إيَّاها ممَّن يريدها بسوء :

قد تكفَّل الله بحفظها من كلِّ قاصدٍ إيَّاها بسوءٍ ، وتوعَّد النَّبيُّ ﷺ مَنْ أحدث فيها حدثاً ، أو آوى فيها مُحدِثاً ، أو أخاف أهلها ، بلعنة الله ، وعذابه ، وبالهلاك العاجل[٤] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع[٥] ، كما ينماع الملحُ في الماء» [البخاري (١٨٢٢) ومسلم (١٣٨٧)] ، وقال ﷺ : «المدينة حَرَمٌ ، فمن أحدث فيها حَدَثاً[٦] أو آوى مُحدثاً[٧] ؛ فعليه لعنةُ اللهِ ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه يومَ القيامة عَدْلٌ ، ولا صَرْفٌ» [مسلم (١٣٧١)] .

---

(١) انظر: الهجرة النبويَّة المباركة ، ص ١٦١ .

(٢) يأرز: ينضمُّ ، ويجتمع .

(٣) في رواية: (تنفي الخبث) وفي رواية: (تنفي الدَّجال) .

(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٦٢ .

(٥) انماع: ذاب ، وسال .

(٦) الحدث: الإثم ، أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة .

(٧) المحدث: هو مَنْ أتى الحَدث .

١٠ ـ تحريمها :

قد حرَّمها النَّبيُّ ﷺ بوحيٍ من الله ، فلا يُراق فيها دمٌ ، ولا يُحْمل فيها سلاحٌ ، ولا يروَّع فيها أحدٌ ، ولا يقطع فيها شجرٌ ، ولا تَحِلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ ، وغير ذلك ممَّا يدخل في تحريمها ، قال ﷺ : «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّةَ ودعا لها ، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّةَ ، ودعوتُ لها في مُدِّها ، وصَاعها مِثْلَ ما دَعا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمكَّة» [البخاري (٢١٢٩) ومسلم (١٣٦٠)] .

وقال ﷺ : «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه ، اللَّهمَّ! إنَّ إبراهيم حرَّم مكة ، وإني حرَّمت ما بين لابتيها» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٢)] يعني : المدينة ، وقال ﷺ : «لا يُخْتلى خلاها[1] ، ولا ينفَّر صيدها[2] ، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمن أشادها[3] ، ولا يصلح لرجلٍ أن يحمل فيها السِّلاح لقتالٍ ، ولا يصلح أن يقطع منها شجرٌ ، إلا أن يعلف رجلٌ بعيرَه» [أحمد (١/١١٩)] .

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصَّحابة يتعلَّقُون بها ، ويحرصون على الهجرة إليها ، والمقام فيها ، وبذلك تجمَّعت طاقات الأمَّة فيها ، ثمَّ توجَّهت نحو القضاء على الشِّرك بأنواعه ، والكفر بأشكاله ، وفتحوا مشارق الأرض ، ومغاربَها .

* * *

---

(١) لا يُخْتَلى خَلاَها : لا يُجزُّ ، ولا يقطع الحشيش الرَّطب فيها .

(٢) لا ينفَّر صيدُها : لا يُزجر ، ويمنع من الرَّعي .

(٣) أشادها : أشاعها ، والإشادة : رفع الصَّوت ، والمراد : تعريف اللقطة .

الفصل السَّادس
هجرة النَّبيِّ ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه(١)

المبحث الأوَّل
فشل خطَّة المشركين، والتَّرتيب النَّبويُّ الرَّفيع للهجرة

أولاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ ﷺ:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصَّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرَّغم من أساليبها الشَّنيعة، والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديَّة، وكيانهم الاجتماعيِّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النَّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدَّعوة، وقد تحدَّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فقال: تشاورت قريش ليلةً بمكَّة، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٦) وابن سعد (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٨) وأبو نعيم في دلائله (٦٣ ـ ٦٤) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)](٢)، يريدون النَّبيَّ ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النَّبيِّ ﷺ ـ تلك اللَّيلة [أحمد (١/ ٣٤٨) وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٨٩) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)](٣). وخرج النَّبيُّ ﷺ، فلمَّا أصبحوا؛ ثاروا إليه، فلمَّا رأوا عليّاً؛ ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصُّوا أثره، فلمَّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً(٤).

---

(١) ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٦٠٧).
(٢) الوُثُق: الحبال، والمفرد: وثاق.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١٣٥.
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ١٨١)، وابن حجر في الفتح، وحسَّن إسناده، شرح حديث رقم (٣٩٠٥).

قال سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيات الَّتي تتحدَّث عن مكر المشركين بالنَّبيِّ ﷺ: «إنَّه التَّذكير بما كان في مكَّة قبل تغيُّر الحال، وتبدلُّ الموقف، وإنَّه ليوحي بالثِّقة واليقين في المستقبل، كما ينبِّه إلى تدبير قدر الله، وحكمته فيما يقضي به ويأمر. ولقد كان المسلمون الَّذين يخاطَبون بهذا القرآن أوَّل مرَّةٍ يعرفون الحالين معرفة الَّذي عاش، ورأى، وذاق، وكان يكفي أن يذكَّروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوفٍ، وقلقٍ في مواجهة الحاضر الواقع، وما فيه من أمنٍ، وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين، ومكرهم برسول الله ﷺ في مواجهة ما صار إليه من غلبةٍ عليهم، لا مجرَّد النَّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله ﷺ، ويحبسوه حتَّى يموت؛ أو ليقتلوه، ويتخلَّصوا منه، أو ليخرجوه من مكَّة منفيّاً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كلِّه، ثمَّ اختاروا قتله، على أنَّ يتولَّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرَّق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً، فيرضوا بالدِّية، وينتهي الأمر.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إنَّها صورةٌ ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورةٌ مفزعةٌ؛ فأين هؤلاء البشر الضِّعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبَّار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكلِّ شيءٍ محيط؟!»[1].

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار، إمَّا بُكرةً، وإمَّا عشيَّةً، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة[2]، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها، قالت: فلمَّا رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسولُ الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخْرِجْ عنِّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنَّما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأْجَرا عبد الله بن أريقط ـ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠١).

(٢) الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.

رجلاً من بني الدِّيْل بن بكر ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً ـ يدلُّهما على الطَّريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . [ابن هشام (٢/١٢٨ ـ ١٢٩)][(١)] .

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل ، وفيه : « . . . قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر ، في نحر الظَّهيرة ؛ قال قائلٌ لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً[(٢)] ؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداءٌ له أبي وأمِّي ! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ ! قالت : فقال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ رضي الله عنه : «أَخْرِجْ من عندك» ، فقال أبو بكر : إنَّما هم أهلك . قال : «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج» ، فقال أبو بكر : الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله ! قال رسول الله ﷺ : «نعم» ، قال أبو بكر رضي الله عنه : فخذ بأبي أنت يا رسول الله ! إحدى راحلتيَّ هاتين ، قال رسول الله ﷺ : «بالثَّمن» ، قالت عائشة رضي الله عنها : فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإسراع) ، وصنعنا لهم سُفرةً في جِرابٍ ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين ، ثمَّ لحق رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور ، فكمنا[(٣)] فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما ، وهو غلامٌ ، شابٌّ ، ثَقِفٌ[(٤)] ، لَقِنٌ[(٥)] ، فيُدلجُ[(٦)] من عندهما بسَحَرٍ ، فيصبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ ، فلا يسمع أمراً يُكتادانِ[(٧)] به إلا وَعَاهُ ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك ، حين يختلط الظَّلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم ، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء ، فيبتان في رسْلٍ ـ وهو لَبَنُ مِنْحتِهما ورَضِيفهما[(٨)] ـ حتى ينعق[(٩)] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[(١٠)] يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ ، وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيْل ، وهو من بني عبد بن عديٍّ ـ هادياً خِرِّيتاً ـ والخرِّيت : الماهر بالهداية ، قد

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .
(٢) متقنعاً : مغطِّياً رأسه .
(٣) كمنا فيه : أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (٤/ ٢٠١) .
(٤) ثقف : ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد : ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (١/ ٢١٦) .
(٥) لقن : فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (٤/ ٢٦٦) .
(٦) يدلج : أَدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج ـ بالتشديد ـ : إذا سار آخره .
(٧) يُكتادان : أي : يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد .
(٨) الرَّضيف : اللَّبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته .
(٩) ينعق : نعق بغنمه ، أي : صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (٣/ ٢٩٥) .
(١٠) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (٣/ ٣٧٧) .

غمس حلفاً[١] في آل العاص بن وائل السَّهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمِناهُ ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُبْحَ ثلاثٍ ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة ، والدَّليل ، فأخذ بهم طريق السَّواحل» [البخاري (٣٩٠٥) ، وأحمد (٦/١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٧٣ ـ ٤٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٨) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨)] .

ثالثاً: خروج الرَّسول ﷺ ووصوله إلى الغار :

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ ، وأبو بكر الصِّدِّيق ، وآل أبي بكرٍ .

أمَّا عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف ؛ حتَّى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ؛ الَّتي كانت عنده للنَّاس ، وكان رسول الله ﷺ ، وليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده ؛ لما يعلم من صدقه ، وأمانته[٢] ، وكان الميعاد بين الرَّسول ﷺ ، وأبي بكرٍ رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة[٣] ، لأبي بكر في ظَهْرِ بيته ، وذلك للإمعان في الاستخفاء ؛ حتَّى لا تتبعهما قريشٌ ، وتمنعهما من تلك الرِّحلة المباركة ، وقد اتَّعَدا مع اللَّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط ، في غار ثور ، بعد ثلاث ليالٍ[٤] .

رابعاً: دعاء النَّبيِّ ﷺ عند خروجه من مكَّة :

وقد دعا النَّبي ﷺ عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً :

«الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا ، وبوائق الدَّهر ، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلي ، وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذَلِّلني ، وعلى خلقي فقوِّمني ، وإليك رب فحبِّبني ، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات ، والأرض ، وكُشِفت به الظُّلمات ، وصلح عليه أمر الأوَّلين ، والآخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك ، وَفُجَاءَة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك ،

---

(١) غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٤) .
(٣) الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٣٤ .
(٤) خاتم النَّبيِّين ، لأبي زهرة (١/ ٦٥٩) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٤) .

لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت ، لا حول ، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤)][(١)] .

ووقف الرَّسول ﷺ عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة ، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (٣٩٢٥) وأحمد (٤/ ٣٠٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

ثمَّ انطلق رسول الله ﷺ ، وصاحبه ، وقد حفظهما الله من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما .

روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما : «أنَّ المشركين اقتصُّوا أثر رسول الله ﷺ ، فلمَّا بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت ؛ فقالوا: لو دخل هاهنا ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» [أحمد (١/ ٣٤٨)] ، وهذه من جنود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّتي يخذل بها الباطل ، وينصر بها الحق ؛ لأنَّ جنود الله ـ جلَّت قدرته ـ أعمُّ من أن تكون مادِّيَّةً ، أو معنويةً ، وإذا كانت مادِّيَّة ؛ فإنَّ خطرها لا يتمثَّل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيشٍ ذي لَجَبٍ[(٢)] . قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] . أي: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فجنود الله غير متناهيةٍ ، لأنَّ مقدوراته غير متناهيةٍ[(٣)] ، كما أنَّه لا سبيل لأحدٍ إلى حصر الممكنات ، والوقوف على حقائقها ، وصفاتها ، ولو إجمالاً ، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ ، وكَيْفٍ ، ونسبةٍ[(٤)] .

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ:

بالرَّغم من كلِّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله ﷺ ، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً ؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله ، عظيم الرَّجاء في نصره ، وتأييده ، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها[(٥)] . قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]

وفي هذه الآية الكريمة ، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به ، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله ، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل ، وصدق المُخْرَج ، كناية عن صدق الرِّحلة كلِّها ؛

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣٤).
(٢) لَجِبَ القَوْمُ لَجَباً: صاحوا وأجلبوا ، والبحرُ: اضطرب موجه ، فهو لَجِبٌ.
(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٠٨).
(٤) انظر: تفسير أبي السُّعود (٩/ ٦٠).
(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٧٢.

بدئها ، وختامها ، أوَّلها ، وآخرها ، وما بين الأوَّل والآخر ، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره ، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثَّبات ، والاطمئنان والنَّظافة ، والإخلاص.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ قوةً ، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض ، وقوَّة المشركين ، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصوِّر القرب ، والاتِّصال بالله ، والاستمداد من عونه مباشرةً ، واللُّجوء إلى حماه.

وصاحب الدَّعوة لا يمكن أن يستمدَّ السُّلطان إلا من الله ، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله ، ولا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ ، أو ذي جاهٍ ، فينصره ، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله ، والدَّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان ، والجاه ، فيصبحون لها جنداً ، وخدماً ، فيفلحون ، ولكنَّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان ، وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السُّلطان ، والجاه»[1].

وعندما أحاط المشركون بالغار ، وأصبح منهم رأيَ العين؛ طمأن الرَّسول ﷺ الصِّدِّيق بمعيَّة الله لهما ، فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: قلت للنَّبيِّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه؛ لأبصرنا ، فقال ﷺ: «ما ظنُّك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثُهما؟» [البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]. وفي روايةٍ: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما» [البخاري (٣٩٢٢)].

وسجّل الحقُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقد تحدَّث الطَّبريُّ في تفسيره عن هذه الآية الكريمة ، فقال: هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله ﷺ: أنَّه المتكفِّل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم؛ أعانوه ، أو لم يعينوه ، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به ، وهو من العدد في قلَّةٍ ، والعدوُّ في كثرةٍ ، فكيف به؛ وهو من العدد في كثرةٍ؛ والعدوُّ في قلَّة؟! يقول لهم جلَّ ثناؤه: إلا تنفروا ـ أيُّها المؤمنون ـ مع رسولي؛ إذا استنصركم فتنصروه؛ فالله ناصره ، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله من قريش ، من وطنه ، وداره ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ يقول: أخرجوه وهو أحد الاثنين ، وإنَّما عنى جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ رسولَ الله ﷺ ، وأبا بكرٍ رضي الله عنه؛ لأنَّهما كانا اللَّذين خرجا هاربين من قريش؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله ﷺ ، واختفيا في الغار ، وقوله: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٧).

يقول: إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الغار[١] ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ يقول: إذ يقول الرَّسول ﷺ لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وذلك: أنَّه خاف من الطَّلب أن يعلموا بمكانهما ، فجزع من ذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تحزن؛ لأنَّ الله معنا ، والله ناصرنا ، فلن يعلم المشركون بنا ، ولن يصلوا إلينا ، يقول جلَّ ثناؤه: فقد نصره على عدوِّه وهو بهذه الحال من الخوف ، وقلَّة العدد ، فكيف يخذله ، ويحوجه إليكم وقد كثَّر الله من أنصاره وعدد جنوده. [الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦)] .

وقد تحدَّث الدكتور عبد الكريم زيدان ، عن المعيَّة في هذه الآية الكريمة ، فقال: «وهذه المعيَّة الرَّبانية المستفادة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ ، أعلى من معيَّته للمتَّقين ، والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ؛ لأنَّ المعيَّة هنا هي لذات الرَّسول ، وذات صاحبه ، غير مقيَّدةٍ بوصفٍ هو عملٌ لهما ، كوصف التَّقوى ، والإحسان؛ بل هي خاصَّةٌ برسوله ، وصاحبه ، مكفولةٌ هذه المعيَّة بالتأييد بالآيات ، وخوارق العادات»[٢] .

وتحدَّث صاحب الظِّلال عن هذه الآيات ، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمدٍ ذرعاً ، كما تضيق القوَّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقِّ ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً ، فائتمرت به ، وقرَّرت أن تتخلَّص منه ، فأطلعه الله على ما ائتمرت به ، وأوحى إليه بالخروج وحيداً ، إلا من صاحبه الصِّدِّيق ، لا جيش ، ولا عدَّة ، وأعداؤه كُثُرٌ ، وقوَّتهم إلى قوته ظاهرةٌ ، ثمَّ ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلُّها من جانبٍ ، والرَّسول ﷺ مع صاحبه منها مجرَّد؟ كان النَّصر المؤزَّر من عند الله بجنود لم يرها النَّاس ، وكانت الهزيمة لِلَّذين كفروا والذُّلُّ والصَّغار ، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾ ، وظلَّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرةً قويَّةً نافذةً.

ذلك مثلٌ على نصرة الله لرسوله ، ولكلمته ، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قومٍ آخرين؛ غير الَّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليلٍ!»[٣] .

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النَّبيِّ ﷺ في الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار ، وقد هدأ الطَّلب ، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله ﷺ ، وقد قلنا: إنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل ، وقيل: شبه البيت في الجبل.
(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٠).
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٦٥٦).

وأبا بكر ، قد استأجرا رجلاً من بني الدِّيْل ، يُسمَّى عبد الله ابن أريقط ، وكان مشركاً ، وقد أمِنَاهُ ، فدَفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما ، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدَّد ، وسلك بهما طريقاً غير معهودةٍ؛ ليخفي أمرهما عمَّن يلحق بهم من كفار قريش[١] .

وفي الطريق إلى المدينة ، مرَّ النَّبيُّ ﷺ بأمِّ مَعْبَد[٢] في قُدَيْد[٣] حيث مساكن خزاعة ، وهي أخت خُنَيْس بن خالدٍ الخزاعيِّ؛ الَّذي روى قصَّتها ، وهي قصَّةٌ تناقلها الرُّواة ، وأصحاب السِّير ، وقال عنها ابن كثير: «وقصَّتها مشهورةٌ مرويَّةٌ من طرقٍ يشدُّ بعضها بعضاً»[٤] ، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيِّ رضي الله عنه ، صاحب رسول الله ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ حين خرج من مكَّة ، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة ، هو وأبو بكر رضي الله عنه ، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضي الله عنه ، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط ، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة ، وكانت بَرْزَة[٥] ، جَلْدَة[٦] ، تحتبي[٧] بفناء القبَّة ، ثمَّ تسقي وتطعم ، فسألوها لحماً ، وتمراً؛ ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْمِلين[٨] مُسْنِتين[٩] ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة[١٠] ، فقال: «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم ، قال: «فهل بها من لبنٍ؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها ، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّت[١١] عليه ، ودَرَّت[١٢] ، واجترَّت[١٣] ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ[١٤] الرَّهط ، فحلب فيها

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠١).
(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعيَّة.
(٣) وادي قُدَيْد: موضع قرب مكَّة ، يبعد عن الطَّريق المعبَّدة حوالي ثمانية كيلو مترات.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ١٨٨).
(٥) برزة: كهلةٌ ، كبيرة السن ، لا تحتجب احتجاب الشَّوَابِّ.
(٦) جَلْدَة: قوِّيةٌ صلبة ، وقيل: عاقلة.
(٧) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ، على ركبتيها ، وتلك جلسة الأعراب.
(٨) مرملين: نفد زادهم.
(٩) مسنتين: أي: داخلين في سَنَةٍ ، وهي الجدب ، والمجاعة ، والقحط.
(١٠) كسر الخيمة ـ بفتح الكاف وكسرها ، وسكون المهملة ـ أي: جانبها.
(١١) تفاجَّت: فتحت ما بين رجليها للحلب.
(١٢) دَرَّت: أرسلت اللَّبن.
(١٣) واجترَّت: من الجِّرة ، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
(١٤) يربض: يرويهم حتَّى يثقلوا ، فيربضوا ، أي: يقعوا على الأرض للنَّوم والرَّاحة.

ثجّاً[١]؛ حتَّى علاه البهاء[٢] ، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت ، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا ، وشرب آخرهم ﷺ ، ثمَّ أراضوا[٣] ، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ؛ حتَّى ملأ الإناء ، ثمَّ غادره عندها ، ثمَّ بايعها ، وارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثت حتَّى جاء زوجها أبو معبد ، يسوق أعنزاً عجافاً[٤] ، يتساوَكن هُزلاً[٥] ضحىً ، مخُّهنَّ قليلٌ ، فلمَّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب ، وقال: من أين لك هذا اللَّبن يا أمَّ معبد! والشَّاة عازبٌ حِيال[٦] ، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مبارك ، من حاله كذا ، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[٧] ، أَبْلَج الوجه[٨] ، حسنُ الخَلْقِ ، لم تَعِبْه نُحْلَة[٩] ، ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ[١٠] ، وسيمٌ[١١] ، في عينيه دَعَجٌ[١٢] ، وفي أشفاره وَطَفٌ[١٣] ، وفي صوته صَهَلٌ[١٤] ، وفي عنقه سَطَع[١٥] ، وفي لحيته كثاثةٌ ، أزجُّ[١٦] ، أقرن[١٧] ، إن صمت؛ فعليه الوقار ، وإن تكلَّم سما[١٨] وعلاه البهاء ، أجمل النَّاس ، وأبهاهم من بعيدٍ ، وأحلاهم وأحسنهم من قريبٍ ، حُلْوُ المنطق ، فَصْلٌ ، لا هذر ، ولا نزر[١٩] كأنَّ

(١) ثجّاً: السَّيلان ، ومعنى ثجّاً: لبناً كثيراً سائلاً.

(٢) علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللَّبن.

(٣) أراضوا: أي: رَوَوا ، فنقعوا بالرَّي ، يريد شربوا مرَّة بعد مرَّةٍ حتى رَوَوْا.

(٤) عجافاً: ضد السِّمن ، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.

(٥) يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضَّعف.

(٦) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في اللَّيل ، حيال: لم تحمل.

(٧) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.

(٨) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

(٩) نُحلة: من النُّحول ، والدقَّة ، والضُّمور ، أي: أنَّه ليس نحيلاً.

(١٠) صَعْلة: صغر الرأس ، وهي تعني الدقَّة والنُّحول في البدن.

(١١) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن ، كأنَّ الحسن صار له سمةً.

(١٢) دَعَج: شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها.

(١٣) في أشفاره وَطَفٌ: في شعر أجفانه طول.

(١٤) صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حادَّ الصوت.

(١٥) سطع: طول العنق.

(١٦) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

(١٧) أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشَّعر ، أو مقرون الحاجبين.

(١٨) سما: علا برأسه ، أو بيده وارتفع.

(١٩) لا هذر ، ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه ، والنَّزر: القليل ، والمعنى: وسط ، لا قليل ، ولا كثير.

منطقه خرزات نظمٍ يتحدَّرن ، رَبْعٌ[(١)] ، لابأس من طولٍ[(٢)] ، ولا تقتحمه العين من قصرٍ[(٣)] ، غُصْنٌ بين غصنين ، فهو أنضر الثَّلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفُّون به ؛ إن قال ؛ استمعوا لقوله ، وإن أمر ؛ تبادروا إلى أمره ، محْفُودٌ[(٤)] ، محشودٌ[(٥)] ، لا عابسٌ ، ولا مُفنَّدٌ[(٦)] .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش ؛ الَّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكَّة ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .

فأصبح صوتٌ بمكَّة عالياً ، يسمعون الصوت ، ولا يدرون مَنْ صاحبه ، وهو يقول :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جزائهِ ... رَفِيْقَيْنِ قالا[(٧)] خَيْمَتَيْ أمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بالبِرِّ ثُمَّ تروَّحا ... فَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَىٰ رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَىٰ الله عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَىٰ وسُؤْدُدِ[(٨)]
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ ... ومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أختكمْ عنْ شاتِهَا وإنَائِهَا ... فإنَّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ[(٩)] فَتَحَلَّبَتْ ... عَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[(١٠)]
فغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالبٍ ... يُرَدِّدُهَا في مَصْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

[حديث أم معبد: رواه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥) وفي الأحاديث الطوال (٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٦ ـ ٥٧) عن حبيش بن خالد][(١١)].

سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ:

أعلنت قريش في نوادي مكَّة : أنَّه من يأتِ بالنَّبيِّ ﷺ ، حيَّاً ، أو ميتاً ، فله مئة ناقةٍ ، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب ، الَّذين في ضواحي مكَّة ، وطمع سراقة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب ، الَّذي أعدَّته قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ ، فأجهد نفسه لينال ذلك ، ولكن الله

(١) رَبْع : ليس بالقصير ، ولا بالطويل .
(٢) لابأس من طول : لا يجاوز الناس طولاً .
(٣) لا تقتحمه العين من قصر : لا تزدريه ، ولا تحتقره .
(٤) محفود : مخدوم .
(٥) محشود : يجتمع الناس حواليه .
(٦) لا عابس ولا مفنَّد : ليس عابس الوجه ، ولا مفنَّد : ليس منسوباً إلى الجهل ، وقلَّة العقل .
(٧) قالا : نزلا في وقت القيلولة على الخيمتين .
(٨) وسؤدد : من السِّيادة .
(٩) حائل : غير حامل .
(١٠) مزبد : الصريح ومعناها الخالص ، والضرة : لحم الضرع .
(١١) انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص ١٠٧ .

بقدرته الَّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله ﷺ بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرَّحمن بن مالك المُدْلِجيُّ ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُم ـ: أنَّ أباه أخبره، أنَّه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول: جاءنا رُسُلُ كفَّار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلِج؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة! إنِّي قد رأيت آنفاً أَسْوِدةً[1] بالسَّاحل، أراها محمَّداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ: أنَّهم هم، فقلت له: إنَّهم ليسوا بهم، ولكنَّك رأيتَ فلاناً، وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثمَّ لبثتُ في المجلس ساعةً، ثمَّ قمتُ، فدخلتُ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي ـ وهو من وراء أكمةٍ[2] ـ فتَحْبِسَهَا عليَّ، وأخذت رُمْحي، فخرجت به من ظَهْر البيت، فخططت بِزُجِّهِ[3] الأرضَ، وخَفَضْت عاليه، حتَّى أتيتُ فرسي فركبتُها، فرفعتُها (أي: أسرعت بها السَّير) تُقَرِّب بي، حتَّى دنوت منهم، فَعَثَرت بي فرسي، فخررتُ عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[4]، فاستقسمت بها: أَضُرُّهم، أم لا؟ فخرج الَّذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تُقرِّب بي، حتَّى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يكثر الالتفات، سَاخَتْ[5] يدا فرسي في الأرض؛ حتَّى بلغتا الرُّكبتين، فخررتُ عنها، ثُمَّ زجرتها، فنهضتْ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلمَّا استوت قائمةً؛ إذا لأثر يديها عُثان[6] ساطعٌ في السَّماء مثلُ الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الَّذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي؛ حتَّى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لَقِيتُ ما لَقِيتُ من الحبس عنهم، أن سَيظهرُ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّية، وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم، وعرضت عليهم الزَّاد والمتاع، فلم يَرْزآني[7]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فهيرة، فكتب في رقعةٍ من أدَمٍ[8]، ثُمَّ مضى رسول الله ﷺ. [البخاري (٣٩٠٦) ومسلم (٢٠٠٩/ ٩١)].

وكان ممَّا اشتهر عند النَّاس من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البرِّ، وابن حجر، وغيرهما.

---

(١) أسودة: جمع قلَّةٍ لسواد، وهو الشَّخص يُرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن، ص ٣٤٤.
(٢) الأكمة: وهي الرَّابية.
(٣) الزج: الحديدة في أسفل الرُّمح.
(٤) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهليَّة، مكتوب عليها الأمر، أو النهي: افعل، أو لا تفعل.
(٥) ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.
(٦) عُثان: أي: دخان، وجمعه عواثن على غير قياسٍ، النِّهاية (٣/ ١٨٣).
(٧) فلم يرزآني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.
(٨) أدم: قطعة من جلد.

قال ابن عبد البرِّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن: أنَّ رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلمَّا أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى ، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالكٍ ، فألبسه إيَّاها ، وكان سراقة رجلاً أزَبَّ[١] كثير شعر السَّاعدين ، وقال له: ارفع يديك ، فقال: الله أكبر ، الحمد للهِ الَّذي سلبهما كسرى بن هُرْمز ، الَّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُم أعرابيّاً من بني مُدْلِج ، ورفع بها عمر صوته[٢] ، ثمَّ أركب سُراقة ، وطوَّف به المدينة ، والنَّاس حوله ، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر ، الحمد للهِ الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جُعْشُمٍ أعرابيّاً من بني مُدْلِج[٣].

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ ، وتسليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة ، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقِب ، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله ﷺ ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه ، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه ، فلمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصل إلى المدينة المنوَّرة ، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته ، وقصَّة فرسه ، واشتهر هذا عنه ، وتناقلته الألسنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة ، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة ، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج ، ورئيسهم ، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنِّي أخاف سَفيهَكُمْ ... سُراقةَ مستغوٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُمْ بِهِ ألاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْ ... فَيُصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عِزٍّ وسُؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهلٍ:

أبا حَكَمٍ والَّلاتِ لَوْ كنتَ شاهداً ... لأَمرِ جَوَادِي إذْ تسيخُ قَوائِمُهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بأنَّ مُحَمَّداً ... رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ
عَلَيْكَ فكُفَّ القَوْمَ عَنْهُ فإنَّني ... أَرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعالِمُهْ
بأَمْرٍ تَوَدُّ النَّاسُ فِيْهِ بأَسْرِهِمْ ... بأنَّ جَمِيْعَ النَّاسِ طُرّاً مُسَالِمُهْ[٤]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

«ولمَّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله ﷺ من مكَّةَ ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه ، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلمَّا أَوَوْا إلى

---

(١) التَّزبب في الإنسان: كثرة الشَّعر ، وطوله.
(٢) انظر: الرَّوض الأنف (٤/ ٢١٨) والهجرة في القرآن ، ص ٣٤٦.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٤) ، وانظر أيضاً: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٩٠٦).

بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[(١)] من آطامهم، لأمرٍ ينظر إليه، فبصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضين[(٢)]، يزولُ بهم السَّرابُ[(٣)]، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم[(٤)] الَّذي تنتظرونَ، فثار المسلمون إلى السِّلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتَّى نَزَل بِهِم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين[(٥)] من شهر ربيع الأوَّل[(٦)]، فقام أبو بكر للنَّاس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ـ ممَّن لم يرَ رسول الله ﷺ ـ يُحَيِّي أبا بكرٍ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه، فعرف النَّاس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسولُ الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً[(٧)]، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، وصلَّى فيه رسول الله ﷺ، ثمَّ ركب راحلته» [البخاري (٣٩٠٦)].

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدَّة الَّتي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله ﷺ وأبي بكر، فسلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمِنَيْن مُطَاعَيْن، فركب نبيُّ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح».

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (٣٩١١)].

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ، لم ترَ المدينة يوماً مثله، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم، كأنَّهم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيِّز الضَّيِّق في مكَّة، إلى رحابة الانطلاق والانتشار، بهذه البقعة المباركة (المدينة)، ومنها إلى سائر بقاع الأرض، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله ﷺ، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميِّ العامِّ، والتَّفصيليِّ بكلِّ مقوِّماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[(٨)]!

---

(١) أطم ـ بضم أوله وثانيه ـ: الحصن.
(٢) مُبَيَّضين: عليهم ثياب بيض.
(٣) السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له.
(٤) جدُّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه.
(٥) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد، وشذَّ من قال: يوم الجمعة، (الفتح شرح حديث رقم ٣٩٠٦).
(٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٥١.
(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢.
(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٥٣.

روى الإمام مسلمٍ بسنده ، قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة؛ صعد الرِّجال ، والنِّساء فوق البيوت ، وتفرَّق الغِلْمَان ، والخدم في الطُّرق ، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (٣٠١٤/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله ﷺ حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحَدِّثُ أهلَه[1]؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلَام ، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف[2] لهم ، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبيِّ الله ﷺ ، ثمَّ رجع إلى أهله ، فقال نبيُّ الله ﷺ: أيُّ بيوتِ أهلنا[3] أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي ، قال: فانَطَلِقْ فهيِّئ لنا مقيلاً[4]. . . .» [البخاري (٣٩١١)] ، ثمَّ نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده ، ومساكنه .

وبهذا قد تمَّت هجرته ﷺ ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها ، وغاياتها ، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة ، وبدأت معها رحلة المتاعب ، والمصاعب ، والتَّحدِّيات ، فتغلَّب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة ، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً ، على أسس من الإيمان ، والتَّقوى ، والإحسان ، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم ، وهما: دولة الفرس ، ودولة الرُّوم[5].

عاشراً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر:

١ ـ الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلٰهيَّةٌ نافذةٌ ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] .

---

(١) الضَّمير هنا للنَّبيِّ ﷺ فتح الباري (٧/ ٢٥١).
(٢) يخترف: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: النِّهاية (٢/ ٢٤).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥٤.
(٤) مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.
(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥٥.

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

٢ـ مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌّ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس، أو القتل، أو النَّفي، والإخراج من الأرض، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه، وأن يثق به، ويتوكَّل عليه، ويعلم: أنَّ المكر السَّيِّئ لا يحيق إلا بأهله[1]، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدَّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النُّفوس الضَّعيفة، للقضاء على الدَّعوة والدُّعاة، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ، لمن يأتي برسول الله ﷺ حيّاً، أو ميتاً، فتحرَّك الطَّامعون، ومنهم سراقة؛ الَّذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديّاً، بأوفر ربحٍ، وأطيب رزقٍ، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمِّي الطريق على الطَّامعين الآخرين، الَّذين اجتهدوا في الطَّلب، وهكذا يردُّ الله عن أوليائه والدُّعاة[2]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٣ـ دقَّة التَّخطيط، والأخذ بالأسباب:

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلٰهيِّ في كل ما طولب به المسلم، وأنَّ الَّذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[3].

فعندما حان وقت الهجرة للنَّبيِّ ﷺ، وشرع النَّبيُّ ﷺ في التَّنفيذ، نلاحظ الآتي:

* وجود التَّنظيم الدَّقيق للهجرة حتَّى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

---

(١) انظر: الهجرة النَّبويّة المباركة، ص ١٩٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٠.
(٣) الأساس في السُّنَّة، لسعيد حوَّى (١/ ٣٥٧).

١ ـ جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر ، في وقت شدَّة الحرِّ ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ ـ؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت ، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢ ـ إخفاء شخصيته ﷺ في أثناء مجيئه للصِّدِّيق ، وجاء إلى بيت الصِّدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثُّم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم(١).

٣ ـ أمر ﷺ أبا بكر أن يُخْرِج مَن عنده ، ولما تكلَّم لم يبيِّن إلا الأمر بالهجرة ، دون تحديد الاتجاه.

٤ ـ كان الخروج ليلاً ، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكرٍ(٢).

٥ ـ بلغ الاحتياط مداه ، باتِّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم ، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية ، ومسارب الصَّحراء ، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ، ما دام على خُلُقٍ ورزانةٍ ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها(٣).

* انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة ، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلَّها تترابط برباط القرابة ، أو برباط العمل الواحد ، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد ، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه ، والنُّهوض بتبعاته.

* فكرة نوم عليِّ بن أبي طالب مكان الرَّسول ﷺ فكرةٌ ناجحةٌ ، قد ضلَّلت القوم ، وخدعتهم ، وصرفتهم عن الرَّسول ﷺ ، حتَّى خرج في جنح اللَّيل ، تحرسه عناية الله ، وهم نائمون ، ولقد ظلَّت أبصارهم معلَّقةً بعد اليقظة ، بمضجع الرَّسول ﷺ ، فما كانوا يشكُّون في أنَّه ما يزال نائماً ، مُسجّىً في بردته ، في حين أنَّ النَّائم هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

* وقد كان عملُ أبطال هذه الرِّحلة على النَّحو التالي:

١ ـ عليٌّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرَّسول ﷺ ؛ ليخدع القوم؛ ويُسلِّم الودائع ، ويلحق بالرَّسول ﷺ بعد ذلك.

٢ ـ عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصَّادق ، وكاشف تحرُّكات العدوِّ.

---

(١) في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٤١.
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٧.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦١.

٣ ـ أسماء ذات النِّطاقين: حاملة التموين من مكَّة إلى الغار، وسط جنون المشركين؛ بحثاً عن محمَّدٍ ﷺ ليقتلوه.

٤ ـ عامر بن فهيرة: الرَّاعي البسيط الذي قدَّم اللَّحم واللَّبن إلى صاحبي الغار، وبدَّد آثار أقدام المسيرة التَّاريخيَّة بأغنامه كي لا يتفرَّسها القوم!! لقد كان هذا الرَّاعي يقوم بدور الإمداد، والتَّموين، والتَّعمية.

٥ ـ عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصَّحراء البصير ينتظر في يقظةٍ إشارة البدء من الرَّسول ﷺ؛ ليأخذ الرَّكبُ طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيم، وَوَضْعٌ لكلِّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدٌّ لجميع الثَّغرات، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ مَطالب الرِّحلة، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرَّسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته، وقدرته؛ ومن ثمَّ باتت عنايةُ الله متوقَّعةً[1].

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمرٌ ضروريٌّ:

إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ؛ ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضرورياً، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إنَّ رسول الله ﷺ أعدَّ كلَّ الأسباب، واتَّخذ كلَّ الوسائل؛ ولكنَّه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه، ويستنصره أن يكلِّل سعيه بالنَّجاح، وهنا يُستجاب الدُّعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض، ويكلِّل العمل بالنَّجاح[2].

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسِّيَّة:

وفي هجرة النَّبيِّ ﷺ وقعت معجزاتٌ حسِّيَّةٌ، وهي دلائل ملموسةٌ على حفظ الله، ورعايته لرسوله ﷺ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أمِّ معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إيَّاه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدُّعاة ألا يتنصَّلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتةً بالسُّنَّة النَّبويَّة، على أن

---

(١) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمَّد، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٧.
(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٤٨.

ينبِّهوا الناس على أن هذه الخوارق ، هي من جملة دلائل نبوَّته ، ورسالته عليه السَّلام[١] .

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون :

ويجوز للدُّعاة أن يستعينوا بمن لا يُؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم ، ويأتمنونهم ؛ فقد رأينا : أنَّ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلهما على طريق الهجرة ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه عند غار ثور ، وهذه أمورٌ خطيرةٌ أطلعاه عليها ، ولاشكَّ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، وأبا بكر وثقا به ، وأمَّناه ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكافر ، أو العاصي ، أو غير المنتسب إلى الدُّعاة ، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدُّعاة بهم ، كأن تربطهم رابطة القرابة ، أو المعرفة القديمة ، أو الجوار ، أو عمل معروف كان قد قدَّمه الدَّاعية لهم ، أو لأن هؤلاء عندهم نوعٌ جيِّدٌ من الأخلاق الأساسيَّة ؛ مثل الأمانة ، وحبِّ عمل الخير ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والمسألة تقديريَّة ، يترك تقديرها إلى فطنة الدَّاعي ، ومعرفته بالشَّخص[١] .

٧ ـ دور المرأة في الهجرة :

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ ، كان لها فضلٌ كبيرٌ ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد ؛ منها : عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق ؛ الَّتي حفظت لنا القصَّة ، ووعتها ، وبلَّغتها للأمَّة ، وأمُّ سلمة المهاجرة الصَّبور ، وأسماء ذات النِّطاقين[٢] ، الَّتي أسهمت في تموين الرَّسول ﷺ وصاحبه في الغار ، بالماء ، والغذاء ، وكيف تحمَّلت الأذى في سبيل الله ، فقد حدَّثتنا عن ذلك ، فقالت : «لمَّا خرج رسول الله ﷺ ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتانا نفرٌ من قريشٍ ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكرٍ ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوكِ يا بنتَ أبي بكرٍ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي!

قالت : فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خَدِّي لطمةً ، طرح منها قُرْطِي ، قالت : ثمَّ انصرفوا» [الطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وابن هشام (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢)][٣] .

فهذا درسٌ من أسماء رضي الله عنها ؛ تعلِّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل ، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء ، وكيف تقف صامدةً شامخةً أمام قوى البغي والظُّلم! وأمَّا درسها الثَّاني البليغ ، فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : «والله إنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه» ، قالت : «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت : «فوضع يده عليه» ، فقال : «لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا ؛ فقد أحسن» ، وفي هذا بلاغ لكم ، قالت :

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٨) .
(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦ .

«ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنِّي أردت أن أسكِّن الشَّيخ بذلك»(١) .

وبهذه الفطنة ، والحكمة ، سترت أسماء أباها ، وسكَّنت قلب جدِّها الضرير ، من غير أن تكذب فإنَّ أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الَّتي كوَّمتها؛ لتطمئن لها نفس الشَّيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال ، ولا تحرِّكه العواصف الهوج ، ولا يتأثر بقلَّةٍ أو كثرةٍ في المال ، وورَّثهم يقيناً ، وثقةً به لا حدَّ لها ، وغرس فيهم همَّةً تتعلَّق بمعالي الأمور ، ولا تلتفت إلى سفاسفها(٢) ، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرَّر ، وقلَّ أن يوجد نظيره .

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء ، وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمسِّ الحاجة إلى الاقتداء به ، والنَّسج على مِنواله .

وظلَّت أسماء مع أخواتها في مكَّة ، لا تشكو ضيقاً ، ولا تظهر حاجةً ، حتَّى بعث النَّبيُّ ﷺ زيد بن حارثة ، وأبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهمٍ إلى مكَّة ، فقدما عليه بفاطمة ، وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجه ، وأسامة بن زيد ، وأُمُّه بركة المكنَّاة بأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ ، فيهم عائشة ، وأسماء ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم في بيت حارثة بن النُّعمان(٣) .

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله ﷺ :

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له ، وتصميمهم على قتله دليلٌ باهرٌ على تناقضهم العجيب ، الَّذي كانوا واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه ، ويزعمون: أنَّه ساحرٌ ، أو مجنونٌ ، أو كذَّابٌ ، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ، ولا أموالهم الَّتي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم ، لم يكن بسبب الشَّكِّ لديهم في صدقه؛ وإنَّما بسبب تكبُّرهم ، واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم ، وطغيانهم(٤) ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] .

وفي أمر الرَّسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكَّة؛ برغم هذه

---

(١) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ١٠٢) ، وإسناده صحيح .
(٢) السَّفْسَافُ: الرَّديءُ الحقير من كل شيء ، والجمع: سَفَاسِف .
(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّـة المباركة ، ص ١٢٨ .
(٤) انظر: فقه السِّيرة ، للدُّكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١٩٣ .

الظُّروف الشَّديدة؛ الَّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتَّجه التَّفكير إلا إلى إنجاح خطَّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنَّ الرَّسول ﷺ ما كان لينسى ، أو ينشغل عن ردِّ الأمانات إلى أهلها ، حتَّى ولو كان في أصعب الظُّروف الَّتي تُنسي الإنسان نفسه ، فضلاً عن غيره(١) .

٩ ـ الرَّاحلة بالثَّمن :

لم يقبل رسولُ الله ﷺ أن يركب الرَّاحلة ، حتَّى أخذها بثمنها من أبي بكرٍ رضي الله عنه ، واستقرَّ الثَّمن دَيْناً بذمَّته ، وهذا درسٌ واضحٌ بأنَّ حملة الدَّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالةً على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات ، فهم مصدر العطاء في كلِّ شيءٍ .

إنَّ يدهم إن لم تكن العليا ، فلن تكون السُّفلى ، وهكذا يصرُّ ﷺ أن يأخذها بالثَّمن ، وسلوكه ذلك هو التَّرجمة الحقَّة لقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] .

إنَّ الذين يحملون العقيدة ، والإيمان ، ويبشِّرون بهما ، ما ينبغي أن تمتدَّ أيديهم إلى أحدٍ إلا الله؛ لأنَّ هذا يتناقض مع ما يدعون إليه ، وقد تعوَّد النَّاس أن يعوا لغة الحال؛ لأنَّها أبلغ من لغة المقال ، وما تأخَّر المسلمون ، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدَّعوة ، والعاملون بها خاضعين لِلُغة المادَّة؛ إذ ينتظر الواحد منهم مرتَّبه ، ويومها تحوَّل العمل إلى عملٍ ماديٍّ؛ فقَد الرُّوح ، والحيويَّة ، والوضاءة ، وأصبح للأمر بالمعروف موظَّفون ، وأصبح الخطباء موظَّفين ، وأصبح الأئمَّة موظَّفين .

إنَّ الصَّوت الَّذي ينبعث من حنجرةٍ وراءها الخوف من الله ، والأمل في رضاه ، غير الصَّوت الَّذي ينبعث ليتلقَّى دراهم معدودة ، فإذا توقَّفت؛ توقف الصَّوت ، وقديماً قالوا: «ليست النَّائحة كالثَّكلى»؛ ولهذا قلَّ التأثير ، وبَعُدَ النَّاس عن جادَّة الصَّواب(٢) .

١٠ ـ الدَّاعية يَعفُّ عن أموال النَّاس :

لمَّا عفا النَّبيُّ ﷺ عن سراقة؛ عرض عليه سراقة المساعدة ، فقال: «وهذه كنانتي فخذ منها سهماً؛ وإنَّك ستمرُّ بإبلي ، وغنمي في موضع كذا ، وكذا ، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله ﷺ : «لا حاجة لي فيها» [أحمد (١/ ٣) ومسلم (٣٠١٤/ م)](٣) .

فحين يزهد الدُّعاة فيما عند النَّاس ، يحبُّهم الناس ، وحين يطمعون في أموال النَّاس ، ينفر

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦٤ .
(٢) انظر : من معين السِّيرة ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣) في البخاريِّ: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يَرْزآني» رقم (٣٩٠٦) .

النَّاس منهم ، وهذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى[١] .

١١ ـ الجندية الرَّفيعة والبكاء من الفرح :

تظهر أثر التَّربية النَّبويَّة ، في جندية أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة ، وقال له رسول الله ﷺ : «لا تعجل ؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً» ؛ بدأ في الإعداد والتَّخطيط للهجرة ؛ فابتاع راحلتين ، واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك ، وفي رواية البخاريِّ : «وعلف راحلتين كانتا عندهُ ورقَ السَّمُر ـ وهو الخَبَط ـ أربعة أشهر» [البخاري (٣٩٠٥) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٧٣)] لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه ـ وهو الَّذي تربَّى ؛ ليكون قائداً ـ : أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ ، قد تأتي فجأةً ، ولذلك هيّأ وسيلة الهجرة ، ورتَّب تموينها ، وسخَّر أسرته لخدمة النَّبيِّ ﷺ ، وعندما جاء رسول الله ﷺ ، وأخبره : أنَّ الله قد أذن له في الخروج ، والهجرة ؛ بكى من شدَّة الفرح ، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن : «فوالله ! ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم : أنَّ أحداً يبكي من الفرح ؛ حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ» ، إنَّها قمَّة الفرح البشريِّ أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ ، كما قال الشَّاعر عن هذا :

وَرَدَ الكِتَابُ مِنَ الحَبِيبِ بِأَنَّهُ ... سَيَزُورُنِي فَاستعبرتْ أَجْفَانِي

غَلَبَ السُّرورُ عليَّ حتَّى إنَّني ... مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سرَّني أَبْكَانِي

يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةً ... تَبْكِيْنَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

فالصِّدِّيق رضي الله عنه ، يعلم : أنَّ معنى هذه الصُّحبة : أنَّه سيكون وحدَه برفقة رسول ربِّ العالمين ، بضعة عشر يوماً على الأقلِّ ، وهو الَّذي سيقدِّم حياته لسيِّده ، وقائده ، وحبيبه المصطفى ﷺ ، فأيُّ فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز : أن يتفرَّد الصِّدِّيق وحدَه من دون أهل الأرض ، ومن دون الصَّحب جميعاً برفقة سيِّد الخلق ﷺ وصحبته كلَّ هذه المدَّة[٢] . وتظهر معاني الحبِّ في الله في خوف أبي بكرٍ ، وهو في الغار من أن يراهما المشركون ؛ ليكون الصِّدِّيق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جنديُّ الدَّعوة الصَّادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوفٍ ، وإشفاقٍ على حياته ؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالَّذي يخشى على نفسه الموت ، ولو كان كذلك ؛ لما رافق رسولَ الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة ، وهو يعلم : أنَّ أقلَّ جزائه القتلُ ؛ إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ؛ ولكنَّه كان يخشى على حياة الرَّسول الكريم ﷺ ، وعلى مستقبل الإسلام ؛ إن وقع الرَّسول ﷺ في قبضة المشركين[٣] .

---

(١) انظر : في ظلال الهجرة النَّبويَّة ، ص ٥٨ .

(٢) انظر : التربية القيادية (٢/ ١٩١ ، ١٩٢) .

(٣) السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ٧١ .

ويظهر الحسُّ الأمنيُّ الرَّفيع للصِّدِّيق في هجرته مع النَّبيِّ ﷺ ، في مواقف كثيرةٍ؛ منها: حين أجاب السَّائل: مَنْ هذا الرَّجل الَّذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السَّبيل ، فظنَّ السائل بأنَّ الصِّدِّيق يقصد الطريق ، وإنَّما كان يقصد سبيل الخير. [البخاري (٣٩١)][(١)] ، وهذا يدلُّ على حسن استخدام أبي بكرٍ للمعاريض فراراً من الكذب[(٢)] ، وفي إجابته للسَّائل توريةٌ ، وتنفيذٌ للتَّربية الأمنيَّة؛ الَّتي تلقَّاها من رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ الهجرة كانت سرّاً ، وقد أقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك[(٣)].

وفي موقف عليِّ بن أبي طالبٍ مثالٌ للجنديِّ الصَّادق المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامةٌ للدَّعوة ، وفي هلاكه خذلانها ، ووهنها ، وهذا ما فعله عليٌّ رضي الله عنه ليلة الهجرة؛ من بياته على فراش الرَّسول ﷺ ؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس عليٍّ رضي الله عنه ، ولكنَّ عليّاً رضي الله عنه لم يبالِ بذلك ، فحسبه أن يَسْلَم رسول الله ﷺ نبيُّ الأمَّة ، وقائد الدَّعوة[(٤)].

١٢ ـ فنُّ قيادة الأرواح ، وفنُّ التَّعامل مع النُّفوس:

يظهر الحبُّ العميق؛ الَّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله ﷺ في الهجرة ، كما يظهر حبُّ سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ، وهذا الحبُّ الرَّبَّانيُّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ ، لم يكن حبَّ نفاقٍ ، أو نابعاً من مصلحة دنيويَّةٍ ، أو رغبةٍ في منفعةٍ ، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع ، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله ﷺ صفاته القياديَّة الرَّشيدة ، فهو يسهر؛ ليناموا ، ويتعب؛ ليستريحوا ، ويجوع؛ ليشبعوا ، كان يفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم ، فمن سلك سنن الرَّسول ﷺ مع صحابته ، في حياته الخاصَّة والعامَّة ، وشارك النَّاس في أفراحهم ، وأتراحهم ، وكان عمله لوجه الله ، أصابه شيءٌ من هذا الحبِّ؛ إنْ كان من الزُّعماء أو القادة أو المسؤولين في أمَّة الإسلام[(٥)]. وصدق الشَّاعر اللِّيبيُّ عندما قال:

فَـإِذَا أَحَـبَّ اللهُ بَـاطِـنَ عبـدِهِ ... ظَهَـرَتْ عَلَيْـهِ مَـوَاهِـبُ الفَتَّـاحِ
وإِذَا صَفَـتْ للهِ نِيَّـةُ مُصْلِـحٍ ... مَـالَ العِبَـادُ عَلَيْـهِ بـالأَرْوَاحِ[(٦)]

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي الَّتي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ ، وتستطيع أن تتعامل مع

---

(١) البخاريُّ ، رقم (٣٩١١).
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٤.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٥٤.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٦٨.
(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٤.
(٦) انظر: الحركة السَّنوسيَّة في ليبيا ، للصَّلابي (٢/٧) ، والشَّاعر هو: أحمد رفيق المهدوي.

النُّفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة ، يكون إحسان الجنود ، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود ، فقد كان ﷺ رحيماً ، وشفيقاً بجنوده ، وأتباعه ، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه ، ولم يبقَ إلا المستضعفون ، والمفتونون ، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة[١] .

١٣ ـ وفي الطَّريق أسلم بُريدة الأسْلَمِيُّ رضي الله عنه في ركبٍ من قومه :

إنَّ المسلم الَّذي تغلغلت الدَّعوة في شغاف قلبه ، لا يفتر لحظة واحدةً عن دعوة النَّاس إلى دين الله تعالى ، مهما كانت الظُّروف قاسيةً ، والأحوال مضطربةً ، والأمن مفقوداً ؛ بل ينتهز كلَّ فرصةٍ مناسبةٍ لتبليغ دعوة الله تعالى ، فهذا نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام حينما زُجَّ به في السِّجن ظُلْماً ، واجتمع بالسُّجناء في السِّجن لم يندُبْ حظَّهُ ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التَّوحيد ، وتبليغها للنَّاس ، ومحاربة الشِّرك ، وعبادة غير الله ، والخضوع لأيِّ مخلوقٍ.

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠] .

وسورة يوسف عليه السلام مكِّيَّة ، وقد أمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله ؛ ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكَّة إلى المدينة ـ وقد كان مطارداً من المشركين ، قد أهدروا دمه ، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة ، ليأتوا برأسه حيّاً أو ميتاً ـ لا ينسى مهمَّته ، ورسالته ، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له : بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلميُّ رضي الله عنه ، في رَكْبٍ من قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فآمنوا ، وأسلموا[٢] .

وذكر ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ : «أنَّ النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلميَّ ، فدعاه إلى الإسلام ، وقد غزا مع الرَّسول ﷺ ست عَشْرَة غَزْوة[٣] ، وأصبح بُرَيْدَةُ بعد ذلك من الدُّعاة إلى الإسلام ، وفتح الله لقومه «أسْلَم» على يديه أبوابَ الهداية ، واندفعوا إلى الإسلام ، وفازوا بالوسام النَّبويِّ ؛ الَّذي نتعلَّم

---

(١) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٥ .
(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٩ ، وشرح المواهب (١/ ٤٠٥) .
(٣) انظر : الإصابة (١/ ١٤٦) .

منه منهجاً فريداً في فقه النُّفوس[1]. قال ﷺ: «أَسْلَمُ سالمها الله، وغِفَارُ غَفَرَ الله لها، أَما إنِّي لم أَقُلْهَا، ولكنْ قالها الله» [البخاري (٣٥١٤) ومسلم (٢٥١٦)].

١٤ ـ وفي طريق الهجرة أسلم لصَّان على يدي رسول الله ﷺ:

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لصَّان من أَسْلم، يقال لهما: المُهَانَانِ، فقصدهما ﷺ، وعرض عليهما الإسلام، فأسلما، ثمَّ سألهما عن اسميهما، فقالا: نحن المهانان، فقال: بل أنتما المُكْرمان، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [أحمد (٤/ ٧٤)] وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدَّعوة إلى الله؛ حيث اغتنم فرصةً في طريقه، ودعا اللِّصَّين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللِّصين مع ما ألفاه من حياة البطش، والسَّلب، والنَّهب دليلٌ على سرعة إقبال النُّفوس على اتِّباع الحقِّ؛ إذا وجد مَنْ يمثِّله بصدقٍ وإخلاصٍ، وتجرَّدت نفس السَّامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام الرَّسول ﷺ بتغيير اسمي هذين اللِّصين، من المُهَانَيْن إلى المُكْرَمَيْن دليلٌ على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم، إكراماً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم.

وإنَّ في رفع معنوية الإنسان تقويةً لشخصيته، ودفعاً له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير، والفلاح[2].

١٥ ـ الزُّبير، وطلحة رضي الله عنهما، والتقاؤهما برسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

وممَّا وقع في الطَّريق إلى المدينة: أنَّه ﷺ لقي الزُّبير بن العوَّام في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشَّام، فكسا الزُّبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء. [البخاري (٣٩٠٦) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٩٨)][3]، وكذا روى أصحاب السِّيَر: أنَّ طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشَّام، وكساهما بعض الثِّياب [البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٩٨)][4].

١٦ ـ أهمِّيَّة العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضَّغائن:

إنَّ العقيدة الصَّحيحة السَّليمة، والدِّين الإسلاميَّ العظيم لهما أهمِّـيَّـةٌ كبرى في إزالة العداوات، والضَّغائن، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح، وهو دورٌ لا يمكن لغير العقيدة الصَّحيحة أن تقوم به، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلاميَّة بين الأوس، والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرَّت عقوداً من الزَّمن، وأغلقت ملف ثاراتٍ كثيرةٍ في مدَّةٍ قصيرةٍ، بمجرَّد

---

(١) انظر: المستدرك على الصَّحيحين (٤/ ٩٢) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ (٣/ ١٧٨).
(٣) انظر: السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).
(٤) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٤٩٥)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص ١٨١.

التَّمسُّك بها ، والمبايعة عليها ، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار ، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحةٍ، وتآخوا معهم في مثاليَّةٍ نادرةٍ، لا تزال مثارَ الدَّهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدُّنيا فكرةٌ ، أو شعارٌ آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النُّفوس .

ومن هنا ندرك السِّرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة ، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمرِّ نحو تزكية النَّعرات العصبيَّة ، والوطنيَّة ، والقوميَّة ، وغيرها ، وتقديمها كبديلٍ للعقيدة الصَّحيحة[(١)] .

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبيِّ ﷺ :

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب ؛ من أنصارٍ ، ومهاجرين بقدوم رسول الله ﷺ ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النِّساء من بيوتهنَّ ، والولائد ، وحملت الرِّجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة ، موقف المشارك لسكَّانها في الفرحة ظاهراً ، والمتألِّم من منافسة الزَّعامة الجديدة باطناً ، أمَّا فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم ؛ فلا عجب فيها ، فهو الَّذي أخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود ، فلا غرابة فيه ؛ فهم الذين عُرِفوا بالملق ، والنِّفاق للمجتمع ؛ الَّذي فقدوا السَّيطرة عليه ، وبالغيظ ، والحقد الأسود ممَّن يسلبهم زعامتهم على الشُّعوب ، ويَحُول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض ، وسفك دمائها باسم النُّصح ، والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كلِّ من يخلِّص الشُّعوب من سيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى الدَّسِّ ، والمؤامرات ، ثمَّ إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك دينهم ، وتلك جِبِلَّتُهم[(٢)] .

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم ، بالحفاوة والإكرام ، فقد حدث ذلك لرسول الله ﷺ ، وكان هذا الإكرام ، وهذه الحفاوة ، نابعين من حبٍّ للرسول ﷺ؛ بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر ، ويستفاد كذلك التنافس في الخير ، وإكرام ذوي العلم والشرف ، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسولَ الله ﷺ ، وتعرض أن يكون رجالها حُراساً له ، ويؤخذ من هذا ، إكرام العلماء والصالحين ، واحترامهم وخدمتهم[(٣)] .

١٨ ـ مقارنة بين الهجرة ، والإسراء والمعراج :

كانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة على النَّحو الَّذي كانت عليه ، وسارت على الوضع الَّذي يسلكه

---

(١) انظر : الهجرة النَّبوية المباركة ، ص ٤٠٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٤٣ ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦٧ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

كلُّ مهاجرٍ؛ حتَّى توجد القدوة، وتتحقَّق الأسوة، ويسير المسلمون على نهجٍ مألوفٍ، وسبيلٍ معروفٍ، ولذلك، فلم يرسلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له ﷺ البراق ليهاجر عليه ـ كما حدث في ليلة الإسراء ـ مع أنَّ الرَّسول ﷺ في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أيِّ وقتٍ آخر؛ لأنَّ القوم يتربَّصون به هنا، ولم يكن هناك تربُّص في ليلة الإسراء، ولو ظفروا به في هجرته؛ لشفوا نفوسهم منه بقتله.

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ: أنَّ الهجرة كانت مرحلةً طبيعيَّةً من مراحل تطوُّر الدَّعوة، ووسيلةً من أهمِّ وسائل نشرها، وتبليغها، ولم تكن خاصةً برسول الله ﷺ؛ بل كان غيره من المؤمنين مكلَّفين بها، حين قطع الإسلام الولاية[١] بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أمَّا رحلة الإسراء، والمعراج، فكانت رحلةَ تشريفٍ، وتقديرٍ، كما كانت إكراماً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيِّه ﷺ؛ ليطلعه على عالم الغيب، ويريه من آياته الكبرى، فالرِّحلة من أولها إلى آخرها خوارق، ومعجزاتٌ، ومشاهد للغيبيَّات، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهةً لغايتها.

زِدْ على ذلك: أنَّ رحلة الإسراء خصوصيَّةٌ للرسول ﷺ، وليس لأحدٍ من النَّاس أن يتطلَّع لمثلها، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها، ولذا فإنَّ حصولها على النَّحو؛ الَّذي كانت عليه، هو أنسب الأوضاع لحدوثها[٢].

١٩ ـ وضوح سنَّة التَّدرُّج:

حيث نلاحظ: أنَّ رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلمَّا جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات، والأخلاق، والفضائل، فلمَّا جاؤوا في العام التالي؛ كانت بيعة العقبة الثَّانية على الجهاد، والنَّصر، والإيواء[٣].

وجديرٌ بالملاحظة: أنَّ بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيلٍ، وإعدادٍ

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٦٥.
(٢) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد سيِّد الوكيل، ص ١٠٣، ١٠٤، بتصرُّف.
(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ٢٠٢.

استمرَّ عامين كاملين ، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّجٍ ينسجم مع المنهج التَّربويِّ الَّذي نهجت عليه الدَّعوة من أوَّل يومٍ[١] .

إنَّه المنهج الَّذي هدى الله نبيَّه ﷺ إلى التزامه ، ففي البيعة الأولى ، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام ؛ عقيدةً ، ومنهاجاً ، وتربية ، وفي البيعة الثانية ، بايعه الأنصار على حماية الدَّعوة ، واحتضان المجتمع الإسلاميِّ ؛ الذي نضجت ثماره ، واشتدَّت قواعده قوَّةً وصلابةً .

إنَّ هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التَّربويِّ للدَّعوة الإسلاميَّة ، وإنَّ الأمر الأول هو المضمون ، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السِّياج الَّذي يحمي ذلك المضمون ، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام ، وليس فور إعلانهم .

بعد عامين ؛ إذ تمَّ إعدادهم حتَّى غدوا موضع ثقةٍ ، وأهلاً لهذه البيعة ، ويلاحظ : أنَّ بيعة الحرب لم يسبق أن تمَّت قبل ذلك اليوم مع أيِّ مسلم ؛ إنَّما حصلت عندما وجدت الدَّعوة في هؤلاء الأنصار ، وفي الأرض الَّتي يقيمون فيها المعقل الملائم ؛ الَّذي ينطلق منه المحاربون ؛ لأنَّ مكَّة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[٢] .

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «ألاَّ يُحَمِّلَهم واجبَ القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقلٍ يأوون إليه ، ويلوذون به ، وقد كانت المدينة المنوَّرة أوَّل دار إسلامٍ»[٣] .

لقد كانت البيعة الأولى قائمةً على الإيمان بالله ، ورسوله ﷺ ، والبيعة الثَّانية على الهجرة ، والجهاد ، وبهذه العناصر الثلاثة : الإيمان بالله ، والهجرة ، والجهاد ، يتحقَّق وجود الإسلام في واقع جماعيٍّ ممكنٍ ، والهجرة لم تكن لتتمَّ لولا وجود الفئة المستعدَّة للإيواء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التَّمهيد الأخير لهجرة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وبذلك وَجَدَ الإسلامُ موطنَه ؛ الَّذي ينطلق منه دعاةُ الحقِ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتنطلق منه

---

(١) انظر : بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، لمحمد توفيق ، ص ١١٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٧٢ .

جحافل الحقِّ المجاهدة أوَّل مرَّةٍ ، وقامت الدَّولة الإسلاميَّة المحكِّمة لشرع الله[١] .

٢٠ ـ الهجرة تضحيةٌ عظيمةٌ في سبيل الله :

كانت هجرة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه من البلد الأمين تضحيةً عظيمةً ، عبَّر عنها النَّبيُّ ﷺ بقوله : «والله! إنك لخير أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخرِجت منك ما خرجتُ» [أحمد (٤/ ٣٠٥) والترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ قدمها ، وهي أوبأ أرض الله من الحمَّى ، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً آجناً ـ فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ ، وسقمٌ ، وصرف الله ذلك عن نبيِّه ، قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال ، في بيتٍ واحدٍ ، فأصابتهم الحمَّى ، فاستأذنتُ رسولَ الله ﷺ في عيادتهم ، فأذن ، فدخلت إليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدَّة الوعك[٢] ، فدنوت من أبي بكرٍ ، فقلت : يا أبتِ كيف تجدُك؟ فقال :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... والمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

قالت : فقلت : والله! ما يدري أبي ما يقول ، ثم دنوت من عامر بن فهيرة ، فقلت : كيف تجدُك يا عامر؟! فقال :

لَقَدْ وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ[٣] ... كالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ[٤]

قالت : فقلت : والله! ما يدري عامر ما يقول . قالت : وكان بلال إذا أقلع عنه الحمَّى ، اضطجع بفناء البيت ، ثمَّ يرفع عقيرته[٥] ، ويقول :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ[٦] وجَلِيْلُ

وهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيْلُ[٧]

قالت : فأخبرت رسولَ الله ﷺ بذلك ، فقال : «اللهمَّ! حبِّبْ إلينا المدينة ، كما حببت إلينا

---

(١) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) الوعك : الحمَّى .

(٣) بطوقه : بطاقته .

(٤) بروقه : بقرنه .

(٥) عقيرته : صوته ، قال الأصمعيُّ : إنَّ رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له : رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله .

(٦) الإذخر : نباتٌ طيِّب الرَّائحة .

(٧) شامة وطفيل : جبلان مشرفان على مِجَنَّة على بريد مكة .

مكَّة ، أو أشدَّ ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ . اللَّهمَّ! بارِكْ لنا في مُدِّنا ، وصاعنا» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

وقد استجاب الله دعاء نبيِّه ﷺ ، وعُوفي المسلمون بعدها من هذه الحمَّى ، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكلِّ الوافدين ، والمهاجرين إليها ، من المسلمين على تنوُّع بيئاتهم ، ومواطنهم[(١)] .

٢١ ـ مكافأة النَّبيِّ ﷺ لأمِّ معبد :

وقد روي : أنَّها كثرت غنمها ، ونمت ؛ حتَّى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة ، فمرَّ أبو بكر ، فرآه ابنها فعرفه ، فقال : يا أُمَّه! هذا هو الرَّجل الَّذي كان مع المبارك .

فقامت إليه فقالت : يا عبد الله! مَنِ الرَّجل الَّذي كان معك؟ قال : أو ما تدرين من هو؟! قالت : لا! قال : هو نبيُّ الله ، فأدخلها عليه ، فأطعمها رسولُ الله ﷺ ، وأعطاها ، وفي روايةٍ : فانطلقت معي ، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقطٍ ، ومتاع الأعراب ، فكساها ، وأعطاها ، قال : ولا أعلمه إلا قال : وأسلمت ، وذكر صاحب (الوفاء) : أنَّها هاجرت هي وزوجها ، وأسلم أخوها خُنَيْس ، واستشهد يوم الفتح[(٢)] .

٢٢ ـ أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه ومواقف خالدة :

قال أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه : «لمَّا نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي ؛ نزل في السُّفْل ، وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلْو ، فقلت له : يا نبيَّ الله ـ بأبي أنت ، وأمي! إنِّي لأكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظْهَرْ أنت ، فكن في العلوِّ ، وننزل نحن فنكون في السُّفل ، فقال : يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت .

قال : فلقد انكسر حُبٌّ[(٣)] لنا فيه ماءٌ ، فقمت أنا ، وأمُّ أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشِّفُ بها الماء ؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيءٌ ، فيؤذيه» [ابن هشام (٢/ ١٤٤)][(٤)] .

٢٣ ـ هجرة عليٍّ رضي الله عنه وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد :

بعد أن أدَّى عن رسول الله ﷺ الأمانات الَّتي كانت عنده للنَّاس لحق برسول الله ﷺ ، وأدركه بقُباء بعد وصوله بليلتين ، أو ثلاثٍ ، فكانت إقامته بقُباء ليلتين ، ثمَّ خرج مع النَّبيِّ ﷺ

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٣١٠) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٨٩ ، ٤٩٠) .
(٣) الحُبُّ : الجرَّة الضَّخمة .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٢٢٠) .

إلى المدينة يوم الجمعة[١] ، وقد لاحظ سيِّدنا عليٌّ مدَّة إقامته بقُباء امرأةً مسلمة لا زوج لها ، ورأى إنساناً يأتيها من جوف اللَّيل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيها شيئاً معه ، فتأخذه ، قال: فاستربت بشأنه ، فقلت لها: يا أمةَ الله! مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلةٍ فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو! وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهلُ بن حُنيف ، قد عرف أني امرأةٌ لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه ، فكسرها ، ثمَّ جاءني بها ، فقال: احتطبي بهذا ، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف ، حين هلك عنده بالعراق[٢] .

٢٤ ـ الهجرة النَّبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النَّبويَّة من مكَّة المشرَّفة إلى المدينة المنوَّرة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التَّاريخ ، وغيَّر مسيرة الحياة ، ومناهجها؛ التي كانت تحياها ، وتعيش محكومةً بها في صورة قوانين ، ونظمٍ ، وأعرافٍ ، وعاداتٍ ، وأخلاقٍ ، وسلوكٍ للأفراد والجماعات ، وعقائد ، وتعبُّداتٍ ، وعلمٍ ، ومعرفةٍ ، وجهالةٍ ، وسفه ، وضلالٍ ، وهدًى ، وعدلٍ ، وظلمٍ»[٣] .

٢٥ ـ الهجرة من سنن الرُّسل الكرام:

إنَّ الهجرة في سبيل الله سنَّةٌ قديمة ، ولم تكن هجرة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ بدعاً في حياة الرُّسل لنصرة عقائدهم ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ، ومسقط رأسه من أجل الدَّعوة حفاظاً عليها ، وإيجاداً لبيئةٍ خصبةٍ تتقبلها ، وتستجيب لها ، وتذود عنها؛ فقد هاجر عددٌ من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها ، التي دعت نبيَّنا للهجرة .

وذلك: أنَّ بقاء الدَّعوة في أرضٍ قاحلةٍ لا يخدمها؛ بل يعوق مسارها ، ويشلُّ حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرُّسل ، وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوحٍ سنَّةٌ من سنن الله في شأن الدَّعوات ، يأخذ بها كلُّ مؤمن من بعدهم؛ إذا حيل بينه وبين إيمانه ، وعزَّته ، واستُخفَّ بكيانه ، ووجوده ، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته[٤] .

هذه بعض الفوائد ، والعبر ، والدروس ، وأترك للقارئ الكريم أن يستخرج غيرها ، ويستنبط سواها من الدُّروس ، والعبر ، والفوائد الكثيرة النَّافعة من هذا الحدث العظيم .

* * *

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٧).
(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصَّادق عرجون (٢/ ٤٢١) ، ويأثر ذلك: أي: يرويه ويحكيه.
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٢٣).
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٧٥ .

المبحث الثَّاني

الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، والوعد لمن هاجر منهم ، والوعيد لمن تخلَّف

تُعَدُّ الهجرةُ النَّبويَّة المباركة من مكَّة إلى المدينة أهمَّ حدثٍ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ إذ كانت نقطة تحوُّل في تاريخ المسلمين؛ فقد كان المسلمون قبل الهجرة أمَّة دعوةٍ ، يبلغون دعوة الله للنَّاس ، دون أن يكون لهم كيانٌ سياسيٌّ ، يحمي الدَّعاة ، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكوَّنت دولة الدَّعوة ، هذه الدَّولة الَّتي أخذت على عاتقها نشر الإسلام ، في داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها ، ترسل الدُّعاة إلى الأمصار ، وتتكفَّل بالدِّفاع عنهم ، وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ قد يقع عليهم ، ولو أدَّى ذلك إلى قيام حربٍ ، أو حروبٍ[١].

وبجانب هذا ، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه؛ حيث فرَّق العلماء بين المكِّيِّ ، والمدنيِّ؛ فالمكِّيُّ: ما نزل قبل الهجرة ـ وإن كان بغير مكَّة ـ والمدني: ما نزل بعد الهجرة ـ وإن كان بغير المدينة ـ وترتَّب على ذلك فوائد؛ من أهمِّها:

١ ـ تذوُّق أساليب القرآن الكريم ، والاستفادة منها في أسلوب الدَّعوة إلى الله.

٢ ـ الوقوف على السِّيرة النَّبويَّة من خلال الآيات القرآنيَّة[٢].

ولأهمية الهجرة النَّبويَّة نرى: أنَّ القرآن الكريم حثَّ المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعةٍ ، مرَّةً بالثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، وأخرى بالوعد للمهاجرين ، وتارةً بالوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة[٣].

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ:

أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على المهاجرين في القرآن الكريم ، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميِّزةٍ؛ وذلك لأنَّهم أُخرِجوا من ديارهم ، وأموالهم ، أكرههم على الخروج الأذى ،

(١) انظر: الهجرة النَّبوية ، لمحمد أبو فارس ، ص ١٣.
(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن ، للقطَّان ، ص ٥٩.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٨٤.

والاضطهاد ، والتنكُّر لهم من قرابتهم ، وعشيرتهم في مكَّة ، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، فمن أهمِّ الصِّفات المميِّزة للمهاجرين[1] :

١ ـ الإخلاص :

قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] ؛ قوله تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يخرجوا من ديارهم ، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله ، مبتغين مرضاته ، ورضوانه[2] .

٢ ـ الصَّبر :

ومن صفات المهاجرين ، وأخلاقهم المتميِّزة ؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١ ، ٤٢] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠] .

٣ ـ الصِّدق :

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها على المهاجرين الصِّدق . قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] .

قال البغويُّ في تفسيره قوله : ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي : في إيمانهم . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار ، والأموال ، والعشائر ، وخرجوا حبّاً لله ، ولرسوله ﷺ ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدَّةٍ ، حتَّى ذُكِر لنا : أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه ؛ ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء ، ما له من دثارٍ غيرها[3] .

٤ ـ الجهاد والتَّضحية :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة : ٢٠] .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ ، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص ٨٦ .
(٣) انظر : تفسير البغوي (٤/٣١٨) .

تركَّزت دعوة الرُّسل على التَّضحية ، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً ، وتكذيباً وعداءً مستحكماً ، وهذا لابدَّ من مواجهته بصلابة عودٍ ، وقوَّة إيمانٍ ، ورسوخ عقيدةٍ ، وعظيم بذل ، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله ﷺ بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسى. يا ليتني فيها جَذَعاً[1]! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ : «أومخرجيَّ هم؟» فقال ورقة: «نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)].

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضحية ، والفداء ، وبذل النَّفس ، والمال في سبيل الله[2].

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ لا جهاد دون تضحيةٍ[3].

٥ ـ نصرُهم لله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

امتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية الكريمة المهاجرين ، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم ، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر ، والتثبيت. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قال سيِّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط ، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر ، والتثبيت؟

إنَّ للهِ في نفوسهم أن تتجرَّد له ، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً ، أو خفيّاً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ، ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى ، وأن تحكِّمَه في رغباتها ، ونزواتها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وسرِّها وعلانيتها ، ونشاطها كلِّه ، وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس.

---

(١) جَذعاً: شابّاً قويّاً. انظر: شرح صحيح مسلم ، للنَّوويِّ.
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٠٤.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٠٦.

وإنَّ للهِ شريعةً ، ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد ، وموازين ، وقيمٍ ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه، وللحياة ، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته ، ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ ، فهنا نصر الله في واقع الحياة[1] .

٦ ـ التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢] يمتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين ، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره ، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان ، وعلامته ، وهو منطق الإيمان ، ومقتضاه. قال تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

وقد ضرب رسول الله ﷺ ، وصحابتُه الكرام مثالاً يُقتدى به على مرِّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ، ولحسن توكُّلهم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليهم ، وجزاهم أحسن الجزاء[2] .

٧ ـ الرَّجاء :

ومن صفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها : الرَّجاء. قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] .

وإنَّما قال : ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وقد مدحهم؛ لأنَّه لا يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا : أنَّه صائر إلى الجنَّة ، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغ لأمرين : أحدهما : أنَّه لا يدري بما يُختم له ، والثَّاني : لئلا يتَّكل على عمله ، فهؤلاء قد غفر الله لهم ، ومع ذلك يرجون رحمة الله ، وذلك زيادة إيمانٍ منهم[3] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٨).
(٢) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١١٤ إلى ١١٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٠) ، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٢١٨).

٨ ـ اتِّباع الرَّسول ﷺ:

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القرآن الكريم: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف المهاجرين، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول ﷺ. قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] فالمهاجرون، والأنصار، هم الذين يتَّبعون الرَّسول ﷺ؛ في أقواله، وأعماله؛ بل في ساعة العسرة، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يستحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ من الأمر، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ، وحرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ في الزَّاد، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في لهبان الحرِّ، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشقَّان التَّمرة بينهما، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا، ثمَّ يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم، وأقفلهم[1] من غزوتهم»[2].

إنَّ اتِّباع الرَّسول ﷺ يدلُّ على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدِّين، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان، والكفر في جلاءٍ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله ﷺ، والسَّير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، ولا مشاعر تَجيش، ولا شعائر تُقام، ولكنَّه طاعةُ الله، والرَّسول، وعملٌ بمنهج الله؛ الَّذي يحمله الرَّسول ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للآية المذكورة: «هذه الآية الكريمة، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ، والدِّين النَّبويَّ، في جميع أقواله، وأعماله[3]، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)].

---

(١) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٧).

(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٦).

٩ ـ حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال الرَّازي: والسَّبق موجبٌ للفضيلة؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم. قال ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجر من عمل بها، إلى يوم القيامة» [أحمد (٤/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨) ومسلم (١٠١٧) والترمذي (٢٦٧٥) والنسائي (٥/ ٧٥ ـ ٧٧) وابن ماجه (٢٠٣)]. فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم، في أحوال الدِّين، والدُّنيا، وثبت بهذا: أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[١].

وهكذا اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ السَّابقين من المهاجرين، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة، الَّتي تحتمل الضغوط، والفتنة، والأذى، والجوع، والغربة، والعذاب، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله ﷺ (بيعة العقبة)، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين.

وبالمهاجرين، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط؛ فقد فُتنت عن دينها، وارتدَّت إلى الجاهليَّة مرَّةً أخرى، وكان هذا النَّوع قليلاً، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التَّكوين[٢]. وبذلك أيضاً تتَّضح لنا منزلة المهاجرين، وعلوُّ طبقتهم في الفضل؛ حيث أنفقوا، وقاتلوا؛ والعقيدة مطاردةٌ، والأنصار قلَّةٌ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ، ولا سلطانٍ، ولا رخاءٍ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يستوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّعبة[٣]. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٥/ ٢٠٨).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٣).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ١٢٤.

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن آية سورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضل السَّابقين من المهاجرين، والأنصار، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، فيا ويل من أبغضهم، أو سبَّهم أو أبغض، أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول ﷺ؛ وخيرهم، وأفضلهم، أعني: الصِّديق الأكبر، والخليفة الأعظم، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضة يعادون أفضل الصَّحابة، ويبغضونهم، ويسبُّونهم، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسةٌ، وقلوبهم منكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متَّبعون، لا مبتدعون، ويقتدون، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون[1].

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: المختصُّون بالفوز العظيم، أو بالفوز المطلق، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[2].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم، على المهاجرين، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الآخرة، وذلك بدخولهم الجنَّة، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

١١ ـ الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقِّ. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان ـ بعد رسول الله ﷺ ـ كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢).
(٢) تفسير أبي السُّعود (٤/ ٥٣).

لمن جاء بعدهم ، وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة ، فلذلك استحقُّوا هـذا الثناء الرَّبانيَّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين ، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان(١).

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النِّعم الَّتي وعد بها المهاجرين في الدُّنيا ، والآخرة؛ ومن هذه النِّعم:

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدُّنيا:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومن سعة رزق الله لهم في الدُّنيا تخصيصهم بمال الفيء ، والغنائم. قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] فالمال لهؤلاء لأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، فهم أحقُّ النَّاس به(٢).

ومن سعة الله لهم في الرِّزق أن خلَّص الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأنصار من شحِّ النفس ، ووسَّع صدورهم للمهاجرين. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعد المهاجرين سعة الرِّزق في الدُّنيا ، وتحقَّق ذلك الوعد الكريم؛ وذلك لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في منهجه الرَّبانيِّ القرآني يعالج هذه النَّفس في وضوحٍ وفصاحةٍ ، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ، ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار ـ بما في ذلك خطر الموت ـ ولكنَّه يسكب فيها الطُّمأنينة بحقائق أخرى ، وبضمانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو يحدِّد الهجرة بأنَّها «في سبيل الله» ، وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام ، فليست هجرةً للثَّراء ، أو هجرةً للنَّجاة من المتاعب ، أو هجرةً للذائذ والشَّهوات ، أو هجرةً لأيِّ عرضٍ من أعراض الحياة ، ومَنْ يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحةً ، ومنطلقاً ، فلا تضيق به الأرض ،

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٢٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٥) ، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٨) ، وتفسير فتح القدير (٥/ ٢٠٠) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٢.

ولا يعدم الحيلة ، والوسيلة للنَّجاة ، وللرِّزق ، والحياة[١] ؛ لأنَّ الله سيكون في عونه ، ويسدِّد خطاه .

٢ ـ تكفير سيئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم :

ومن النِّعم الَّتي وعد بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين تكفيرُ سيِّئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم . قال تعالى : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ ، أحاديث كثيرةٌ تبيِّن : أنَّ الهجرة من أعظم الوسائل المكفِّرة للسَّيِّئات ، وأنَّها سببٌ لمغفرة ذنوب أهلها ، ومن هذه الأحاديث : عن ابن شماسة المهريِّ قال : حضَرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[٢] الموت ، فبكى طويلاً ، وحوَّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنُهُ يقول : يا أبتاهُ! أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أمَا بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إنَّ أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله . إنِّي كنت على أطباقٍ[٣] ثلاث ، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ منِّي ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه ، فقتلْتُهُ ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النَّار ، فلمَّا جعل اللهُ الإسلامَ في قلبي ، أتيتُ النَّبيَّ ﷺ ، فقلتُ : ابسُطْ يمينك فلأبايعنَّك ، فَبَسَطَ يمينَهُ ، قال : فقبضتُ يدي ، قال : «مالك يا عمرو؟» قال : قلتُ : أردت أن أشترط ، قال : «تشترط بماذا؟» قلتُ : أن يُغْفَرَ لي . قال : «أما علمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله!» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه ؛ إجلالاً له ، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطَقْتُ ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عينيَّ منه ، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنَّة ، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحةٌ ، ولا نارٌ ، فإذا دفنتموني ؛ فشُنُّوا[٤] عليَّ التُّرابَ شنّاً ، ثمَّ أقِيمُوا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ ، ويُقْسَمُ لحمُها ؛ حتى أستأنسَ بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربِّي . [مسلم (١٢١)] .

قال النَّوويُّ : فيه : عظم موقع الإسلام ، والهجرة ، والحجِّ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها يهدم ما كان قبله من المعاصي . وفيه : استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنِّه بالله سبحانه وتعالى ،

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٥) .
(٢) سياقة الموت : أي النَّزع ، كأنَّ روحه تساق لتخرج من بدنه .
(٣) أطباق ثلاث : أحوال ثلاث ، واحدها طبق .
(٤) فشنُّوا عليَّ التُّراب : أي صبُّوه متفرقاً ، انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٦ .

وذكر آيات الرَّجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعدَّه الله تعالى للمسلمين ، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن ظنَّه بالله تعالى ، ويموت عليه ، وهذا الأدب مستحبٌّ بالاتفاق(١) .

٣ـ ارتفاع منزلتهم ، وعظمة درجتهم عند ربِّهم :

وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الَّذين نالوا أفضل الإيمان ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم الدَّرجات عند الله . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة : ٢٠] .

يقول الفخر الرَّازي : إنَّ الموصوفين بهذه الصِّفات الأربعة ، في غاية الجلالة والرِّفعة ؛ لأنَّ الإنسان ليس له إلا مجموع أمورٍ ثلاثة : الرُّوح ، والبدن ، والمال ، أمَّا الرُّوح ؛ فلمَّا زال عنها الكفر ، وحصل فيها الإيمان ؛ فقد وصلت إلى مراتب العادات اللاَّئقة بها ، وأمَّا البدن ، والمال ؛ فبسبب الهجرة وقعا في النُّقصان ، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا مُعرَّضَيْنِ للهلاك ، والبطلان ، ولا شكَّ : أنَّ كلاًّ من النَّفس ، والمال ؛ محبوبٌ للإنسان ، والإنسان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوبٍ أكمل من الأوَّل ، فلولا أنَّ طلب الرِّضوان أتمُّ عندهم من النَّفس ، والمال ؛ لما رجَّحُوا جانب الآخرة على جانب النَّفس ، والمال ، ولما رَضُوا بإهدار النَّفس ، والمال لطلب مرضاة الله تعالى .

فثبت : أنَّ عند حصول الصِّفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى أعلى درجات البشريَّة ، وأوَّل مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كلِّ مَنْ سواهم من البشر على الإطلاق ؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصِّفات(٢) .

فالذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم ، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل ، والكمال في حكم الله ، وأكبر مثوبةً من أهل سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام ؛ الَّذين رأى بعض المسلمين : أنَّ عملهم إيَّاهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالَّذين نالوا فضل الهجرة ، والجهاد بنوعيه : النَّفسيِّ ، والماليِّ أعلى مرتبةً ، وأعظم كرامةً ممَّن لم يتَّصف بهما كائناً مَنْ كان ، ويدخل في ذلك أهل السِّقاية ، والعمارة(٣) .

وأنَّه تعالى لم يقل : أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية ، والعمارة ؛ لأنَّه لو عين ذكرهم لأوهم أنَّ فضيلتهم إنَّما حصلت بالنسبة إليهم ، ولمَّا ترك ذكر المرجوح ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم أفضل من كل مَنْ سواهم على الإطلاق ؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى ،

(١) انظر : شرح النَّووي لصحيح مسلم للحديث المذكور ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٨ .
(٢) انظر : تفسير الرازي (١٦/ ١٣) وما بعدها بتصرف .
(٣) تفسير المراغي (١٠/ ٧٨) .

وأكمل من هذه الصِّفات[١]. والتَّفضيل هنا في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ليس على وجهه، فهو لا يعني: أنَّ للآخرين درجةً أقلَّ؛ إنما هو التَّفضيل المطلق، فالآخرون ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧] فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجةٍ، ولا في نعيمٍ[٢].

٤ ـ استحقاقهم الجنَّة، والخلود فيها:

ومن النِّعم الَّتي أعدَّها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمهاجرين الجنَّةُ، والخلود فيها. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

قال الشَّوكاني في تفسيره: والتنكير في الرَّحمة، والرِّضوان، والجنَّات للتَّعظيم، والمعنى: أنَّها فوق وصف الواصفين، وتصوُّر المتصوِّرين. والنَّعيم المقيم: الدَّائم المستمرُّ الَّذي لا يفارق صاحبه، وَذِكْرُ الأبد بعد الخلود تأكيدٌ له[٣]. هذه بشرى ما بعدها بشرى، وقد وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المؤمنين والمؤمنات. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٥ ـ الفوز العظيم ورضوان الله عليهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المهاجرين: أنَّهم سينالون الفوز العظيم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

ورضوانُ الله تعالى عليهم أكبر، وأجلُّ، وأعظم ممَّا هم فيه من النَّعيم، وهو نهاية الإحسان، وهو أعلى النِّعم، وأكمل الجزاء[٤]، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ورضا الله عنهم هو الرِّضا الَّذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى، وأكرم مثوبةً، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه، والصَّبر على ابتلائه، ولكن التَّعبير بالرِّضا هنا، وهناك

---

(١) تفسير الرَّازي (١٦/ ١٤).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٤)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ١٤١.

(٣) تفسير فتح القدير (٢/ ٣٤٥)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ١٤٢.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٠)، وتفسير المراغي (١٠/ ٧٩)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ١٤٤.

يشيع جوَّ الرِّضا الشَّامل ، الغامر ، المتبادل ، الوافر ، الوارد ، الصَّادر بين الله سبحانه وتعالى وهذه الصَّفوة المختارة من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصَّفوة من البشر؛ حتَّى إنَّهم ليبادلون ربهم الرِّضا ، وهو ربُّهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون ، وهو حالٌ ، وشأنٌ وجوٌّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر عنه ، ولكن يتَّسم ، ويتشرَّف ، ويستجلي من خلال النَّصِّ القرآنيِّ ، بالرُّوح المتطلِّع ، والقلب المتفتِّح ، والحسِّ الموصول[1] .

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء ، والثَّواب بسبب جهادهم المرير. إنَّ المهاجرين بإيمانهم الرَّاسخ ، ويقينهم الخالص لم يمكِّنوا الجاهليَّة في مكَّة من وأد الدَّعوة؛ وهي في مستهلِّ حياتها؛ لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيِّهم ، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه ، وآمنوا به ، فلمَّا أسرفت الجاهليَّة في عسفها ، واضطهادها ، وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصَّابرين بالهجرة من مكَّة؛ خرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، ويمَّموا صوب المدينة؛ ليس رهبة من الكفر ، ولا رغبة في الدنيا؛ ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ، ويبتغون فضلاً منه ورضواناً؛ ولذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فَضْلٍ في الدُّنيا ، وما أعدَّه لهم يوم القيامة من ثوابٍ عظيم[2] .

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة:

إنَّ الأسلوب القرآنيَّ في الوعد ، والوعيد يهدف إلى الخشية ، والرَّجاء في النُّفوس: رجاء يدفعها إلى الطَّاعة ، والاستقامة ، وخشيةٍ تمنعها من المعصية ، وتسرع بها إلى الاستغفار ، والتَّوبة ، والمؤمن بينهما في معادلةٍ جِدُّ دقيقةٍ؛ لئلا يقعَ فريسةً لليأس ، والقنوط ، ولا يندفع إلى الجرأة على محارم الله ، أو التهاون فيما أمر الله ، ولقد استطاع القرآن الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته ، وللمجتمع مقوِّماته؛ في الحياة ، والمال ، والعقل ، والعِرْض ، والدِّين[3] ، وهي كلِّياتٌ تقوم عليها الحياة الرَّشيدة الفاضلة. ولقد رأت الحياة النُّور في أجيالٍ عديدةٍ ، أنارها القرآن بالوعد ، والرجاء ، وبالوعيد ، والخشية ، ولمَّا خَفَتَ ذلك النورُ بِبُعد النَّاس عن القرآن؛ اصطدم الفردُ بفطرته ، والمجتمعُ بواقعه؛ فاضطربت القيم ، وانهارت الأخلاق ، وفسدت المعاملات ، والمناهج والتَّصوُّرات ، ولن يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها ، وأن تخشى الله لا تخشى سواه ، وأن ترجوه لا ترجو إلا إيَّاه[4] .

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٥).

(٢) انظر: هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته في القرآن والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.

(٣) ولا شك أنَّ سلطان الدَّولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشَّريعة.

(٤) تفسير سورة فصلت ، د. محمد صالح علي ، دار النفائس ، ص ٩٨ ، نقلاً عن الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٥١.

ومن العقوبات الَّتي توعَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها المتخلِّفين عن الهجرة سوءُ المصير. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

روى البخاريُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السَّهم يُرْمَى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُله، أو يُضْرَبُ، فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [البخاري (٤٥٩٦ و٧٠٨٥)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان قومٌ من أهل مكَّة أسلموا، وكانوا يَسْتخْفُون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدرٍ معهم، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين، وأُكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكَّة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم التَّقيَّة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، وأيسوا من كلِّ خير، ثمَّ نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠][(١)].

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلِّفين عن الهجرة بأنَّهم ظلموا أنفسهم، والمراد بالظُّلم في هذه الآية: أنَّ الذين أسلموا في دار الكفر، وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة[(٢)]. وبما أنَّهم حرموها من دار الإسلام، تلك الحياة الرَّفيعة النَّظيفة الكريمة الحرَّة الطَّليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر، تلك الحياة الذَّليلة الخاسئة الضَّعيفة المضطهدة؛ توعَّدهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ممَّا يدلُّ على أنَّها تعني الَّذين فُتِنوا عن دينهم بالفعل هناك[(٣)].

وفي هذه الآية الكريمة وعيد للمتخلِّفين عن الهجرة، بهذا المصير السَّيِّئ، وبالتَّالي التزم الصَّحابة بأمر الله، وانضمُّوا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة؛ تنفيذاً لأمر الله، وخوفاً من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثرُه في نفوس الصَّحابة رضي الله عنهم، فهذا ضَمْرَة بنُ جُنْدب لمَّا

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٢/ ٩٧)، وتفسير القاسمي (٣/ ٣٩٩).
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ١٦١.
(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٤٧٣).

بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو بمكَّة، قال لبنيه: احملوني؛ فإنِّي لست من المستضعفين، وإنِّي لأهتدي الطريق، وإنِّي لا أبيت اللَّيلة بمكَّة، فحملوه على سريرٍ، متوجهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً، فمات بالتَّنعيم، ولمَّا أدركه الموت، أخذ يصفِّق بيمينه على شماله، ويقول: اللَّهمَّ هذه لك، وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولمَّا بلغ خبرُ موته الصَّحابة رضي الله عنهم، قالوا: ليته مات بالمدينة! فنزل[1] قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصَّحابة، من سرعةٍ في امتثال الأمر، وتنفيذه في النَّشاط، والشِّدَّة، كائنةً ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرُّخص[2].

فهذا الصحابيُّ تفيد بعض الرِّوايات: أنَّه كان مريضاً[3]، إلا أنَّه رأى أنَّه ما دام له مالٌ يستعين به، ويُحمل به إلى المدينة؛ فقد انتفى عذره، وهذا فقهٌ أملاه الإيمان، وزكَّاه الإخلاص، واليقين[4].

وبعد أن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعيده للمتخلِّفين عن الهجرة بسوء مصيرهم استثنى من ذلك مَنْ لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتَّعرُّض للفتنة في الدِّين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشُّيوخ، والضِّعاف، والنِّساء، والأطفال، فيعلقهم بالرَّجاء في عفو الله، ومغفرته، ورحمته بسبب عذرهم البيِّن، وعجزهم عن الفرار[5]. قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

* * *

(١) روح المعاني، للآلوسي (٥/١٢٨، ١٢٩)، وأسباب النزول، للواحدي، ص ١٨١.
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٢٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٥.
(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص ١٢٦.
(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ١٦٧.

الفصل السَّابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة[١]

شرع رسول الله ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة ، على قواعد متينةٍ ، وأسسٍ راسخةٍ ، فكانت أولى خطواته المباركة ، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله ، وإصدار الوثيقة ، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة ، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة ، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد ، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة كافَّةً ، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القرآن الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنَّة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقوِّمات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً ، وتجاهد في سبيل الله .

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة ، والتَّربويَّة ، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع ، وتأسيس الدَّولة . وعالج رسول الله ﷺ الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة ، من خلال المنهج الربَّانيِّ ، واستمرَّ البناء التربويُّ ، ففُرِض الصِّيامُ ، وفُرضتِ الزَّكاة ، وأخذ المجتمع يزدهر ، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ ، وقويَّـة .

* * *

---

(١) ينظر الشكلان (١٢ و١٣) في الصفحتين (٦٠٨ و٦٠٩).

المبحث الأوَّل
الدِّعامة الأولى
بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّلَ ما قام به الرَّسول ﷺ بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام ، الَّتي طالما حُوربت ، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين ، وتنقِّي القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدُّنيا[1] .

روى البخاريُّ بسنده : أنَّ رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلتَهُ ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين ، وكان مِرْبَداً[2] للتَّمر ، لسهلٍ ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : «هذا إن شاء الله المنزل» ، ثمَّ دعا رسولُ الله ﷺ الغلامين ، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً ، فقالا : لا ، بل نهبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما . [البخاري (٣٩٠٦)] .

وفي رواية أنس بن مالكٍ : فكان فيه ما أقول : كان فيه نَخْلٌ ، وقُبورُ المشركين ، وخربٌ ، فأمر رسولُ الله ﷺ بالنَّخل ، فقُطع ، وبقبور المشركين ، فنُبِشَتْ ، وبالخربِ ، فسُوِّيَتْ . قال : فَصَفُّوا النَّخلَ قبلةً ، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً . قال : فكانوا يرتجزون ، ورسولُ الله ﷺ معهم؛ وهم يقولون :

اللَّهُـمَّ! لا خَيْـرَ إلا خَيْـرُ الآخِـرَهْ ... فَـانْصُـرِ الأنْصَـارَ والمُهَـاجِـرَهْ

[البخاري (٤٢٨) ومسلم (٥٢٤)] .

شرع الرَّسول ﷺ في العمل مع أصحابه ، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع ، ثمَّ اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة ، والجدران ـ الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً ـ باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب ، ويسوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ١٩١ ، وفقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥١ .
(٢) مربد : الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر . القاموس المحيط (١/ ٣٠٤).

للبناء[١]. وفي النَّاحية الشَّمالية منه، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل، كانت تسمَّى «الصُّفة»، أما باقي أجزاء المسجد، فقد تُرِكت مكشوفةً بلا غطاءٍ[٢].

أمَّا أبواب المسجد؛ فكانت ثلاثةً: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة، وباب في الجهة الشَّرقيَّة، كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له: باب الرَّحمة، أو باب عاتكة[٣].

أولاً: بيوتات النَّبيِّ ﷺ التَّابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله ﷺ حُجَرٌ حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له، ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك، والأكاسرة، والقياصرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا، وزخارفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبن، والطين، وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل، والجريد، وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: «قد كنت أنال أول سقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ بيدي»[٤]. وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّلم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول اسمه: (مزاحم)، وكما كان حصن حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه: (فارع).

إنَّ النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء، ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمَّته مثلاً رفيعاً، وقدوةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا، وجمع الهمَّة، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[٥].

ثانياً: الأذان في المدينة[٦]:

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم، ويدرك السَّاهي، ويُعلِم النَّاس

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٣)، وانظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٦.
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٣)، ومحمَّد رسول الله، لمحمَّد رضا، ص ١٤٣.
(٣) انظر: التَّاريخ السياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٧.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٣٦).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٤/ ١٣).
(٦) انظر: تفصيل ذلك في صحيح البخاريِّ، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، رقم (٦٠٣، ٦٠٤).

بدخول الوقت لأداء الصَّلاة ، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس ، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم ، ولا الغافل ، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب ، فلم يُقبل هذا الرّأي أيضاً ، وأشار آخرون ببوقٍ ـ وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم ـ فكرهه الرّسول ﷺ ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم ، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس ـ وهو ما يستعمله النَّصارى ـ فكرهه الرَّسول ﷺ أيضاً ، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها ، فقُبل هذا الرَّأي ، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريَّ ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين ، وتشهَّد مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلاة مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين ، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين ، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرَّسول ﷺ ، وأخبره خبر رؤياه ، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه ، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة ، والآخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ ، وكان بلال يقول في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين ، وأقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك ، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ ، ثمَّ استُحدثت المنارة (المئذَنة) [أحمد (٤/ ٤٣) وأبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩) وابن ماجه (٧٠٦) وابن حبان (١٦٧٩)][(١)] .

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رسولُ الله ﷺ بالمدينة: أنه قام فيهم ، فحمِدَ الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي ، فبلَّغك؟! وآتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدَّمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً ، وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه ، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [البيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٤) وابن هشام (٢/ ١٤٦)] .

ثمَّ خطب رسول الله ﷺ مرَّةً أخرى ، فقال: «إنَّ الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله

---

(١) انظر: نور اليقين ، للخضري ، ص (٨٧ ، ٨٨) ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٦ ، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى ، د. فايد حمَّاد عاشور ، وسليمان أبو عزب ، ص ١٠٨ .

من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له. إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس ، إنَّه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أَحِبُّوا من أحبَّ اللهُ ، أَحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَملُّوا كلام الله وذكرَهُ ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم ؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار ، ويصطفي ، قد سمَّاه الله خيرتَه من الأعمال ، ومُصطفاه من العباد ، والصَّالح من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ ، فاعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تقاته ، واصْدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده ، والسَّلام عليكم»[البيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) وابن هشام (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧)] .

رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ:

لمَّا تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٤٥)] ، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي ، فأمر النبي ﷺ به ، فظلِّل ، أو سقف ، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)[١] ، ولم يكن له ما يسترُ جوانبه[٢] .

قال القاضي عياض: الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ ، يأوي إليها المساكين ، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة[٣] .

وقال ابن تيميَّة: الصُّفَّة كانت في مؤخرة مسجد النَّبيِّ ﷺ ، في شمالي المسجد بالمدينة المنوَّرة[٤] .

وقال ابن حَجَرٍ: الصُّفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسجد النَّبويِّ مظلَّلٌ ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ، ممَّن لا مأوىً له ، ولا أهل. [فتح الباري (٦/ ٧٣٨)][٥] .

١ ـ أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وأهلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسلام ، لا يأوون إلى أهلٍ ، ولا مالٍ ، ولا على أحدٍ»[البخاري (٦٤٥٢)] .

---

(١) انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (١/ ٣٢١).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٥٨).
(٣) انظر: نظام الحكومة النَّبوية المسمَّى التراتيب الإداريَّة ، لعبد الحيِّ الكتاني (١/ ٤٧٤).
(٤) الفتاوى (١١/ ٣٨).
(٥) انظر: فتح الباري ، في شرح حديث رقم (٣٥٨١).

إنَّ المهاجرين الأوائل ، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ ﷺ ، أو معه ، أو بعده ؛ حتَّى نهايـة الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم ، وأن يشاركوهم النَّفقة ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين ، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصار على استيعابهم[١] ؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر ، والنَّاس يدخلون فيه ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء ، والأغنياء ، والآهلين ، والعُزَّاب ، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[٢] .

والَّذي يظهر للباحث : أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسول ﷺ ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله ، فإن لم يجد فإنَّه يستقرُّ في الصُّفَّة مؤقتاً ، ريثما يجدُ السَّبيل[٣] ؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ يُشغل ، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله ﷺ ، دفعه إلى رجلٍ منَّا يعلِّمه القرآن ، فدفع إليَّ رسولُ الله ﷺ رجلاً ، وكان معي في البيت ، أُعشِّيه عشاء أهل البيت ، فكنت أُقرئه القرآن» [أحمد (٥/ ٣٢٤)] . وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[٤] ؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل : (صُفَّة المهاجرين)[٥] ، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود ، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ ﷺ معلنةً إسلامَها ، وطاعتها[٦] ، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ ﷺ وكان له عريفٌ ؛ نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف ؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[٧] ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة ، فدعاهم ؛ لمعرفته بهم ، وبمنازلهم ، ومراتبهم في العبادة ، والمجاهدة[٨] . ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة ؛ حبّاً لحياة الزُّهد ، والمجاهدة ، والفقر ، برغم استغنائهم عن ذلك ، ووجود دارٍ لهم في المدينة ؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة) ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ ، وغيرهم[٩] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص ١٧٥ .
(٢) الفتاوى (١١/ ٤٠ ، ٤١) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة تربيةُ أمَّة وبناء دولة ، ص ١٧٥ .
(٤) انظر : وفاء الوفا ، للسَّمهودي (١/ ٣٢٣) .
(٥) سنن أبي داود (٢/ ٣٦١) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٥٨) .
(٧) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٥٩) .
(٨) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٥٩) .
(٩) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٥٩) .

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ، ورعاية النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة لهم:

كان النَّبيُّ ﷺ يتعهَّد أهل الصُّفَّة بنفسه ، فيزورهم ، ويتفقَّد أحوالَهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ، ويواسيهم ، ويذكِّرهم ، ويعلِّمهم ، ويوجِّههم إلى قراءة القرآن الكريم ، ومدارسته ، وذِكْرِ الله ، والتَّطلُّع إلى الآخرة[١] ، وكان ﷺ يؤمِّن نفقتهم بوسائل متعدِّدةٍ ، ومتنوعةٍ ؛ منها:

١ ـ «إذا أتته ﷺ صدقةٌ ؛ بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديَّة ، أرسل إليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها» [البخاري (٦٤٥٢)] .

٢ ـ كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً ؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه ؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء ، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال مرَّةً: «من كان عنده طعام اثنين ؛ فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة ؛ فليذهب بخامسٍ ، أو سادسٍ ـ أو كما قال ـ وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ ، وانطلق النَّبيُّ ﷺ بعشرةٍ» [البخاري (٣٥٨١) ومسلم (٢٠٥٧)]. وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ ، قال: «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة ، فأمر رسولُ الله ﷺ بهم ، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل ، والرَّجل بالرَّجلين ؛ حتَّى بقيت خامس خمسة ، فقال رسول الله ﷺ : «انطلقوا» ، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة». [أحمد (٤/٤٢٩ ـ ٤٣٠) والطيالسي (١٣٣٩)] .

٣ ـ وكان ﷺ يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم ؛ فقد جاء في المسند: أنَّ فاطمة لمَّا ولدت الحسن ؛ طلب منها ﷺ أن تحلق رأسه ، وتتصدَّق بوزن شعره من فضَّة ، على أهل الصُّفَّة. [أحمد (٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)] .

٤ ـ وقد كان ﷺ يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه ؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً ، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً ، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله! لا أعطيكما ، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع ، لا أجد ما أنفق عليهم ؛ ولكن أبيعُهم ، وأنفق عليهم أثمانَهم» [البخاري (٣١١٣)] .

٥ ـ وقد أوصى النَّبيُّ ﷺ الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[٢] ، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ [الحلية (١/ ٣٤٠)] ، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم [الحلية (١/ ٣٧٨)] .

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٦).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٧).

٣ـ انقطاعهم للعلم، والعبادة، والجهاد:

كان أهلُ الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر، والزُّهد، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القرآن، ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلَّم بعضهم الكتابة، حتَّى أهدى أحدُهم قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه؛ لأنَّه كان يعلمهم القرآن، والكتابة[١]. واشتهر بعضهم بالعلم، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ ﷺ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه، وحُذَيفة بن اليمان، الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ؛ مثل صفوان ابن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسديِّ، وخبيب بن يساف، وسالم بن عُمير، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ[٢]، ومنهم من استشهد بأحدٍ؛ مثل حنظلة الغسيل [الحلية (١/ ٣٥٧)]، ومنهم من شهد الحديبية؛ مثل جرهد بن خويلد [الحلية (١/ ٣٥٣)]، وأبو سريحة الغفاري [الحلية (١/ ٣٥٥)]، ومنهم من استشهد بخيبر؛ مثل ثقيف بن عمرو[٣]، ومنهم من استشهد بتبوك؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)[٤]، ومنهم من استشهد باليمامة؛ مثل سالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن الخطاب، فكانوا رهباناً باللَّيل، فُرْساناً في النَّهار[٥].

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً؛ كأبي هريرة رضي الله عنه، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله ﷺ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم، والخير ـ فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع ـ وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه ﷺ، ومعرفة أحواله، وتبرُّكاً بخدمته ﷺ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ ﷺ، فكانت الصُّفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بالُ المهاجرين، والأنصار لا يُحَدِّثُون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهدُ إذا غابوا، وأحفظ إذا نَسُوا، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة، أعي حين يَنْسَون» [البخاري (٢٠٤٧) ومسلم (٢٤٩٢)].

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٢٣٧)، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٤).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السَّابق نفسه.

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له سكنٌ في المدينة، وهو المكان الَّذي تسكنه أمُّه، والَّتي طلب من النَّبيِّ ﷺ أن يدعو لها بالهداية. [مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٢/ ٣٢٠)].

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً، ففي أوَّل يوم قدم فيه على النَّبيِّ ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة، كما أنَّه لمَّا قدم كان معه عبدٌ يخدمه ـ كما ورد في الصَّحيح ـ[١]؛ وإذاً فالَّذي أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ ﷺ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[٢].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من عودة الأهل، أو زواجٍ، أو يُسرٍ بعد عُسْر، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل، وكسب الرِّزق، فقد ذكر الزَّمخشريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[٣].

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون؛ إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقلُّون إذا قلَّ الطَّارقون من الغرباء، على أنَّ عدد المقيمين منهم في الظروف العاديَّة، كان في حدود السَّبعين رجلاً [الحلية (١/ ٣٣٩، ٣٤١)]، وقد يزيد عددهم كثيراً؛ حتَّى إنَّ سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلاً عن الآخرين الَّذين يتوزَّعهم الصَّحابة [الحلية (١/ ٣٤١)].

ومن أهل الصُّفَّة:

١ ـ أبو هريرة رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٢ ـ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٣ ـ واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

٤ ـ قيس بن طهفة الغفاريُّ رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٥ ـ كعب بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة، ص ١٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشديّ، لشُرَّاب (١/ ٢٢٢).

٦ ـ سعيد بن عامر بن حذيم الجمحيُّ رضي الله عنه .

٧ ـ سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه .

٨ ـ أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلميُّ رضي الله عنه .

٩ ـ حنظلة بن أبي عامر الأنصاريُّ «غسيل الملائكة» رضي الله عنه .

١٠ ـ حازم بن حرملة رضي الله عنه .

١١ ـ حارثة بن النُّعمان الأنصاريُّ النَّجاريُّ رضي الله عنه .

١٢ ـ حُذَيفة بن أَسِيد أبو سريحة الأنصاريُّ رضي الله عنه .

١٣ ـ حُذَيفة بن اليمان رضي الله عنه .

١٤ ـ جارية بن حُمَيل بن نُشَبَة بن قُرْطٍ رضي الله عنه .

١٥ ـ جُعَيْل بن سراقة الضَّمْريُّ رضي الله عنه .

١٦ ـ جَرْهَدُ بن خويلد الأسديُّ رضي الله عنه .

١٧ ـ رفاعة أبو لبابة الأنصاريُّ رضي الله عنه .

١٨ ـ عبد الله ذو البِجَادَين رضي الله عنه .

١٩ ـ دكين بن سعيد المزنيُّ ، وقيل : الخثعميُّ رضي الله عنه .

٢٠ ـ خُبَيْبُ بن يساف بن عِنَبة رضي الله عنه .

٢١ ـ خريم بن أوس الطائيُّ رضي الله عنه .

٢٢ ـ خريم بن فاتك الأسديُّ رضي الله عنه .

٢٣ ـ خُنيس بن حذافة السَّهميُّ رضي الله عنه .

٢٤ ـ خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه .

٢٥ ـ الحكم بن عمير الثُّماليُّ رضي الله عنه .

٢٦ ـ حرملة بن أياس ، وقيل : حرملة بن عبد الله العنبريُّ رضي الله عنه[١] .

٢٧ ـ زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه .

٢٨ ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه .

٢٩ ـ الطَّفاويُّ الدَّوسيُّ رضي الله عنه .

٣٠ ـ طلحة بن عمرو النَّضريُّ رضي الله عنه .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٢) .

٣١ـ صفوان بن بيضاء الفهريُّ رضي الله عنه .

٣٢ـ صهيب بن سنان الرُّوميُّ رضي الله عنه .

٣٣ـ شدَّاد بن أسيد رضي الله عنه .

٣٤ـ شقران رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٣٥ـ السَّائب بن خلَّاد رضي الله عنه .

٣٦ـ سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوفٍ رضي الله عنه .

٣٧ـ سالم بن عبيد الأشجعيُّ رضي الله عنه .

٣٨ـ سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه .

٣٩ـ سفينة رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٤٠ـ أبو رزين رضي الله عنه .

٤١ـ الأغرُّ المزنيُّ رضي الله عنه .

٤٢ـ بلال بن رباحٍ رضي الله عنه .

٤٣ـ البراء بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه .

٤٤ـ ثوبان رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٤٥ـ ثابت بن وديعة الأنصاريُّ رضي الله عنه .

٤٦ـ ثَقْفُ بن عمرو بن سُميط الأسديُّ رضي الله عنه .

٤٧ـ سعد بن مالكٍ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه .

٤٨ـ العِرباض بن سارية رضي الله عنه .

٤٩ـ غَرَفَةُ الأزديُّ رضي الله عنه .

٥٠ـ عبد الرَّحمن بن قُرْطٍ رضي الله عنه .

٥١ـ عبادة بن خالد الغفاريُّ[١] رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من الصَّحابة الكرام .

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادحٍ حين استدلَّ بعضهم على مشروعيَّة مسلك بعض المنحرفين من المتصوِّفة ، من حيث ترك العمل ، والإخلاد إلى الرَّاحة ، والكسل ، والمكوث

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٣).

في الزّوايا، والتكايا؛ بحجَّة الاقتداء بحال أهل الصُّفَّة[١]؛ فإن أبا هريرة ـ وهو أكثر ارتباطاً بالصُّفَّة من غيره ـ لم يستمرَّ فيها، وخرج إلى الحياة؛ بل أصبح أميراً في بعض أيَّامه على البحرين، في عهد عمر بن الخطَّاب، ولم يكن مخشوشناً في حياته[٢]؛ بل إنَّ أهل الصُّفَّة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، وقد استشهد بعضهم كما ذكرتُ.

خامساً: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع:

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما يكتسب صفة الرُّسوخ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام، وعقيدته، وآدابه، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد، ووحيه[٣].

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

٢ ـ المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

١ ـ حيث «أُنشئ ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إيَّاه بحمده، وشكره على نعمه عليهم، يدخله كلُّ مسلم، ويقيم فيه صلاته، وعبادته، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[٤].

٢ ـ كما «أنشئ المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»[١].

٣ ـ «وهو قد أنشئ ليكون جامعةً للعلوم، والمعارف الكونيَّة، والعقليَّة، والتَّنزليَّة، الَّتي حثَّ القرآن الكريم على النَّظر فيها، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومعهداً يَؤُمُّهُ طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين، ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»[١].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ، ص ١٨٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٨.
(٣) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص ٢٠٣.
(٤) محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ٣٣).

٤ ـ وهو «قد أنشئ؛ ليجد فيه الغريب مأوىً ، وابن السَّبيل مستقراً ، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه ، فينهل من رِفْدِه ، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ ، والعقليُّ ، لا يصدُّه أحدٌ عن علمٍ ، أو معرفةٍ ، أو لونٍ من ألوان الهداية ، فكم من قائد تخرَّج فيه ، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه ، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله ، فكان أسوة الدُّعاة ، وقدوة الهداة ، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها ، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيٍّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر ، والأصفر وفد عليه ، فدخله ، ورأى أصحابَ رسول الله ﷺ حوله هالةً تحفُّ به ، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير ، فسمع معهم ، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة ، فانكشف له غطاء عقله ، فعقل ، وفَقِهَ ، واهتدى ، واستضاء ، ثمَّ عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله ، ويربِّيهم بعلمه الَّذي علم ، وسلوكه الَّذي سلك ، فآمنوا بدعوته ، واهتدوا بهديه ، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميِّ!»[١].

٥ ـ وهو «قد أُنشئ ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا ، تعقد فيه ألوية الجهاد ، والدَّعوة إلى الله ، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرَّايات ، للتوجُّه إلى مواقع الأحداث ، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر ، أو الشَّهادة»[١].

٦ ـ وهو «قد أُنشئ؛ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه ، ليكون مشفىً يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله ﷺ من عيادتهم ، والنَّظر في أحوالهم ، والاستطباب لهم ، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»[١].

٧ ـ «وهو قد أُنشئ ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار ، ويُبْرَدُ البريد ، وتصدر الرَّسائل ، وفيه تُتلقَّى الأنباء السِّياسيَّة سلماً ، أو حرباً ، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر ، ورسائل طلب المدد ، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون ، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[١].

٨ ـ «وهو قد أُنشئ ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة ، ويراقبها ، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه ، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود ، وزُمَر المنافقين ، ونفايات الوثنيَّة ، الذين انغمسوا في الشِّرك ، فلم يتركوه ، ليتجنَّب المجتمع

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٤ ، ٣٥).

المسلم عاقبة كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، ويأمن مغَبَّةَ[١] غدرهم ، وخياناتهم»[٢] .

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّه ، ودار هجرته في مطلع مقدمه ؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بساطة المظهر ، وعمق المخبر ؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف ، وأعمَّها بأقلِّ النفقات ، وأيسر المشقَّات»[٣] .

٣ـ التَّربية بالقدوة العمليَّة :

من الحقائق الثَّابتة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ شارك أصحابه العمل ، والبناء ، فكان يحمل الحجارة ، وينقل اللَّبن على صدره ، وكتفيه ، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم ، فكان مثال الحاكم العادل ، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ ، أو بين قائدٍ ومقودٍ ، أو بين سيِّد ومسودٍ ، أو بين غنيٍّ ، وفقيرٍ ؛ فالكلُّ سواسيةٌ أمام الله ، لا فرق بين مسلمٍ وآخر إلا بالتَّقوى ، ذلك هو الإسلام : عدالةٌ ، ومساواةٌ في كلِّ شيءٍ ، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة ، وبهـذا الفضل ثوابٌ من الله ، والرَّسول ﷺ كغيره من المسلمين ، لا يطلب إلا ثـواب الله[٤] ؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ ﷺ في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه ، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط ، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط ؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً ، وقد دُهِشَ المسلمون من النَّبيِّ ﷺ ؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرَةٌ ، فتقدَّم أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه ؛ ليحمل عن رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! أعطنيه ! فقال : «اذهب فاحتمل غيره ؛ فإنَّك لست بأفقرَ إلى الله منِّي»[٥] ، وقد سمع المسلمون ما يقول النَّبيُّ ﷺ لصاحبه ، فازدادوا نشاطاً ، واندفاعاً في العمل[٦] .

إنَّه مشهدٌ فريدٌ من نوعه ، ولا مثيل له في دنيا النَّاس ، وإذا كان الزُّعماء ، والحكَّام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل ؛ لتكون شاشات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم ، وتملأ الدُّنيا في الصُّحف ، ووسائل الإعلام كلِّها ، بالحديث عن أخلاقهم ، وتواضعهم ؛ فالنَّبيُّ ﷺ ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين ، ويبيِّن له : أنَّه أفقر إلى الله تعالى ، وأحرص على ثوابه منه .

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء ، وأنشدوا هذا البيت :

---

(١) المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ : عاقبتُه ، وآخرُه .
(٢) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٦) .
(٣) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٣) .
(٤) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .
(٥) انظر : صورٌ من حياة الرَّسول ﷺ ، لأمين دويدار ، ص ٢٦١ .
(٦) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .

لَئِـــنْ قَعَـــدْنـــا والنَّبِـــيُّ يَعْمَـــلُ   لَـــذاكَ مِنَّـــا العَمَـــلُ المُضَلَّـــلُ[1]

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة ، ولا من خلال الكلام المنمَّق ، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيِّ الدَّؤوب ، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين ، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة ، والملاحقة ، والاضطهاد ، والمطاردة فيها ، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد ، والدَّولة الَّتي تُبنى ، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً ، وقلباً واحداً ، فمضى يهتف :

اللَّهُـــمَّ إنَّ العَيْـــشَ عَيْـــشُ الآخِـــرَهْ   فَـــانْصُـــرِ الأنْصَـــارَ وَالمُهَـــاجِـــرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ :

لَئِـــنْ قَعَـــدْنَـــا والنَّبِـــيُّ يَعْمَـــلُ   فَـــذَاكَ مِنَّـــا العَمَـــلُ المُضَلَّـــلُ

وكان الهُتاف الثَّالث :

هَـــذِي الحِمَـــالُ لاَ حِمَـــالُ خَيْبَـــرْ   هَـــذَا أَبَـــرُّ لِـــرَبِّنَـــا وأطْهَـــرْ

[البخاري (٣٩٠٦)][2] .

فحَمْلُ التَّمر ، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةٌ عظيمةٌ في المجتمع المدنيِّ ؛ لكنَّه أصبح لا يُذْكَرُ أمام حملِ الطُّوب لبناء المسجد النَّبويِّ العظيم ، فقد أيقنوا بقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل : ٩٦] .

وأمَّا الهُتاف الرَّابع :

لاَ يَسْتَـــوِي مَـــنْ يَعْمُـــرُ المَسَـــاجِـــدَا   يَـــدْأَبُ فِيْهَـــا قَـــائِمـــاً وقَـــاعِـــدا
وَمَـــــنْ يُـــــرَىٰ عَـــــنِ الغُبَـــــارِ حَـــــائِـــــدَا

[فتح الباري (٧/ ٣١٤) وابن هشام (٢/ ١٤٢)][3] .

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص :

أخرج الإمام أحمد [مجمع الزوائد (٢/ ٩)] عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ ، قال : بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ ، فكان يقول : «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين ؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً» ، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً [الطبراني في الكبير (٨٢٥٤) ومجمع الزوائد (٢/ ٩)] قال : جئت إلى النَّبي ﷺ ؛ وأصحابه يبنون المسجد ، وكأنَّه لم يعجبه عملهم ، فأخذت المسحاة ، فخلطت الطِّين ، فكأنَّه أعجبه ، فقال : «دعوا الحنفيَّ والطِّين ؛ فإنَّه أضبطكم للطِّين» ، وأخرج ابن حبَّان

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٤٩٦) ، وفتح الباري ، وشرح حديث رقم (٣٩٠٦) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٤٩) ، والبخاريُّ ، حديث رقم (٣٩٠٦) وشرحه في فتح الباري .
(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ١٥) .

عن طلقٍ، قال: فقلت: يا رسولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به» [ابن حبان (١١٢٢)][١].

فقد اهتمَّ النَّبيُّ ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين، وفي قوَّة العمل، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات، والاستفادة منها، وإرشادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها، وما أحوجَنَا إلى هذا الفهم العميق![٢].

٥ ـ شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «**الله أكبر، الله أكبر**»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

«**أشهد أن لا إله إلا الله**» أي: لا حاكمية، ولا سيادة، ولا سلطة، إلا لله ربِّ العالمين، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم، ولا آمر، ولا مُشَرِّع، إلا الله.

«**أشهد أنَّ محمداً رسول الله**»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[٣]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والسَّمع والطَّاعة له[٤].

«**حَيَّ على الصَّلاة.. حيَّ على الفلاح**»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساسٍ من القيم السَّامية. «**قد قامت الصَّلاة**»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع، والسُّجود، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع، والتذلُّل، والاستكانة، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع، والتذلُّل عبادةٌ، فهي طاعة العبد لسيِّده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميِّ بحاكمية الله، وسيادة الشَّرع، وسقوط

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ١٥).

(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٥٢).

(٣) انظر: قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة، لمحمد قلعجي، ص ١١٤.

(٤) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، لكامل سلامة الدَّقس، ص ٤٣٨.

الطَّواغيت ، وقوانينهم ، وأنظمتهم ، وشرائعهم ، بـ «حيَّ على الفلاح . . . قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه : لا قيام للصَّلاة ، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها ، وتقوم بها ، ولها ، فقد كان المسلمون يصلُّون خِفْيَةً في شِعاب مكَّة قبل قيام دولتهم ، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار ، فليجهروا بالأذان ، والإقامة ، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين .

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته ، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين .

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان : «الله أكبر . . . الله أكبر» للتأكيد على المعاني السَّابقة[١] .

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لفهم الأذان ، وإدراك معانيه ، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً ؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده ، حتَّى ندمِّر شعارات الكفر ، ونرفع شعارات الإيمان ، ونقيم دولة التَّوحيد ، الَّتي تحكم بشرع الله ، ومنهجه القويم .

٦ ـ حكم تشييد المساجد ، ونقشها ، وزخرفتها :

والتَّشييد : أن تقام عمارة المسجد بالحجارة ، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه ، ومتانة سقفه وأركانه . والنَّقش ، والزَّخرفة : ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة .

فأمَّا التشييد : فقد أجازه ، واستحسنه العلماء عامَّةً ؛ بدليل ما فعله عمر ، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده ﷺ ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً ، واهتماماً بشعائر الله تعالى ، واستدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وأمَّا النَّقش ، والزَّخرفة ؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما ، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه ؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة ، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيءٍ من الزَّخرفة ، والنَّقش[٢] . وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المساجد الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان ، ومن يومها والنَّاس شرعوا يغالون في بناء المساجد ، وزخرفتها ، حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف ، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة[٣] ، فعندما زُخرفتِ المساجد ، وخرجت عن نمط البساطة ؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٣٩ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النبوية ، للبوطي ، ص ١٤٥ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٣).

بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين ، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان(١) .

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المساجد ، وتشييدها ، وينصرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها ، ونقشها ، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة ، وفنون الزَّخرفة العربيَّة .

إنَّ الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ ، لقد كان في المساجد ما يعزِّي الفقير بفقره ، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا ، وزخرفها إلى الآخرة ، وفضلها ، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها ، ويشعرهم بنكد الفقر ، وأوضاره ، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم ، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ ، ظاهرها الدِّين ، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ ، وأهواءٍ!(٢) .

٧ ـ فضائل المسجد النَّبويِّ :

تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عن فضائل المسجد النَّبويِّ ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به . ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الآتي :

أ ـ تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى :

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه ، قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال : فأخذ كفاً من حَصْبَاء ، فضرب به الأرض ، ثمَّ قال : «هو مسجدكم هذا» [مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٢/ ٣٦) وأحمد (٣/ ٨)] لمسجد المدينة .

وقد تكلَّم بعض العلماء ، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى ؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الآية السَّابقة ، فقال بعضهم : هو مسجد النَّبيِّ ﷺ ، وقال آخرون : هو مسجد قُباء ، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره ، ثمَّ قال : «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب ، قول مَنْ قال :

---

(١) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٩) .

(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ١٤٦ .

هـو مسجد الرَّسول ﷺ ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ »[١] .

ولا معارضة بين الحديث والآية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء؛ لأنَّ كلاًّ من المسجدين أُسِّس على التَّقوى[٢] . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة : أنَّ الآية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء ، ثمَّ قال : «لكن الحكم يتناوله ، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك ، وهو مسجد المدينة ، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ : أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى ، فقال : «هو مسجدي هذا» [سبق تخريجه][٣] .

وقال في موضع آخر: « . . . فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى ، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النَّعت ، فهو أحقُّ بهذا الاسم ، ومسجد قُباء كان سبب نزول الآية»[٤] .

وذكر الحافظ ابن حجرٍ : أنَّ السِّرَّ في جوابه ﷺ بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء[٥] .

ب ـ فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «صلاةٌ في مسجدي هذا ، خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجد الحرامَ» [البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤/ ٥٠٦ و٥٠٧)] .

ج ـ أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ : أنَّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: «المسجد الحرام ، ومسجد الرَّسول ﷺ ، ومسجد الأقصى» [البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧/ ٥١١)] .

د ـ الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة ، ومنبري على حوضي» [البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١)] .

هـ ـ فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ دخل مسجدنا هذا؛ يتعلَّم

---

(١) انظر : تفسير الطَّبري (١٤/ ٤٧٦ ـ ٤٧٩).
(٢) انظر : الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، د. صالح الرِّفاعي ، ص ٣٧٢.
(٣) انظر : منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٧/ ٧٤).
(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٠٦).
(٥) فتح الباري (٧/ ٢٤٥).

خيراً ، أو يعلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له» [أحمد (٢/ ٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧) والحاكم (١/ ٩١)] .

٨ ـ آيةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين :

قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] .

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيِّ ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[١] . وذكر الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيِّ : أنَّها في فقراء المهاجرين[٢] .

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام ، وجواز نبش القبور الدَّارسة ، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت ، وطابت أرضُها ، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس ، والعبر ، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة .

* * *

---

(١) انظر : الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (١/ ٢٥٥) .

(٢) انظر : تفسير الطَّبري (٥/ ٥٩١) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٢٦٩) .

المبحث الثَّاني
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول ﷺ في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة، وللدَّولة، والحكم، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد، والمنهج القرآنيِّ، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[(١)].

كان مبدأ التَّآخي العام بين المسلمين قائماً، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول ﷺ عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّامٍ» [البخاري (٦٠٦٥ و٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)]، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ[(٢)]، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[(٣)]، فرَّج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه كربةً من كُرُبات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة» [البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠)].

وقد أكَّد القرآن الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة، في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّة؛ الَّتي شُرِعت، وترتبت عليها حقوقٌ،

(١) انظر: الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب، د. مجدلاوي، ص ٥٢، ٥٣.

(٢) أي: لا يتركه مع مَنْ يؤذيه، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره، ويدفع عنه.

(٣) كربة: أي: غمة.

وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق ، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[(١)] .

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين ، فقد أشار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ آخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ ، والمواساة ، فآخى بين حمزة ، وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكرٍ ، وعمر ، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مسعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث ، وبلالٍ الحبشيِّ ، وبين مصعب بن عميرٍ ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وبينه وبين عليِّ بن أبي طالب[(٢)] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت ٢٧٦ هـ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة ، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت ٤٦٣ هـ) دون أن يصرِّح بالنَّقل عنه ، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[(٣)] .

وقد أخرج الحاكم في المستدرك ، من طريق جميع بن عمير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : «آخى رسولُ الله ﷺ بين أبي بكرٍ، وعمر ، وبين طلحة ، والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان»[(٤)] ، وعن ابن عباسٍ: «آخى النَّبيُّ ﷺ بين الزُّبير ، وابن مسعودٍ» [الحاكم (٣/ ٣١٤)][(٥)] .

وذهب كلٌّ مِنْ : ابن القيِّم ، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة ، فقال ابن القيِّم : «وقد قيل : إنَّه ـ أي النَّبيَّ ﷺ ـ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، مؤاخاةً ثانيةً ، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفسه ، والثَّابت الأوَّل[(٦)] ؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام ، وأخوَّة الدَّار ، وقرابة النَّسب عن عقدِ مؤاخاةٍ ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[(٧)] ، أمَّا ابن كثيرٍ ؛ فقد ذكر : أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها ، الَّتي ذكرها ابن القيِّم[(٨)] .

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة ، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة ، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية ، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد ، وعلى فرض

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (١/ ٢٤٠).
(٢) أنساب الأشراف ، للبلاذري (١/ ٢٧٠) ، وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ١٥٠ ـ ١٥٢).
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٤٠).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٤٠).
(٥) فتح الباري (٧/ ٤٧١).
(٦) يعني : المؤاخاة في المدينة .
(٧) زاد المعاد (٢/ ٧٩).
(٨) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير .

صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة ، فإنها تقتصر على المؤازرة ، والنَّصيحة بين المتآخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث(١).

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض ، فقد أقام الرَّسول ﷺ هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة ، فلا حَميَّة إلا للإسلام ، وتسقط به فوارق النَّسب ، واللَّون ، والوطن ، فلا يتأخَّر أحدٌ ، أو يتقدَّم ، إلا بمروءته ، وتقواه.

وقد جعل الرَّسولُ ﷺ هذه الأخوَّة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدِّماء ، والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ، ولا يقوم لها أثرٌ.

وكانت عواطف الإيثار ، والمواساة ، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(٢).

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع ، ممَّن التقوا على دين الله وحده ، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه ، على أن يقولوا ، ويفعلوا ، وعلَّمهم الإيمانَ ، والعملَ جميعاً ، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة ، وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء ، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه ، ورسوله ﷺ ، حتَّى آتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة ، طوال حياته ﷺ ، وامتدَّ أثرها ، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوِّع لهم أنفسهم (أي: للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة ، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة ، وغريزة السَّيطرة ، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ: الَّذي اتَّبعه رسول الله ﷺ ، في تأصيل المودة ، وتمكينها في مشاعر المهاجرين ، والأنصار ، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة ، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده(٣) ،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٤١).

(٢) انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.

(٣) انظر: فصولٌ في السِّيرة النَّبوية ، د. عبد المنعم السَّيِّد ، ص ٢٠٠.

ولا سيما الأنصار ، الَّذين لا يجد الكُتَّاب ، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان ، خيراً من حديث الله عنهم[(١)].

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

ونلحظ في الآية السَّابقة: أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

١ ـ تبوَّؤوا الدَّار ، والإيمان من قبلهم.

٢ ـ يحبُّون من هاجر إليهم.

٣ ـ لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا.

٤ ـ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

٥ ـ ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون[(٢)].

وفي الآية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ ، وحكمٌ جليلةٌ؛ منها:

(أ) التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها ، متبوِّئٍ لها ، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد ، يهنأ بالأمن ، والاستقرار ، وهو في داخلها ، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأُنس السَّريِّ في النَّفس ، يزيدها رُوْحاً ، وطُمأْنِينَةً ، فالأنصار في دارهم ، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن ، والاستقرار المادِّيِّ ، تتنزَّل عليهم السَّكينة ، فتحفُّهم بنورها ، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم ، لا يلحقهم فزعٌ ، ولا يدخل عليهم قلقٌ.

(ب) أمَّا قولـه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فالضَّمير فيه للمهاجرين ، ومعناه: أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم ، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار؛ لأنَّهم سبقوهم إليـه ، وتمكَّنـوا منـه أعظم تمكُّنٍ ، وتمكَّن هو منهـم أبلغ تمكُّنٍ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ ، والأمن على أنفسهم ، وإيمانهم من فزعات الأعداء ، وسطواتهم ، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبوؤ الدَّار ، وكان للأنصار تَبَوُّؤهما معاً في قرنٍ واحدٍ.

(ج) ومن لطائف القرآن الحكيم: أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار ، مفتتحاً لها

---

(١) انظر: هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته في القرآن والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٢٤٥.

(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٨٤).

بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار ، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه ، ونصرهم الله بنصر دينه ، ونصر رسوله ﷺ بنصر رسالته ، ودعوته ، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون ، وأنَّ الناس تَبَعٌ لهم في ذلك ، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وقال لعامَّة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فالقَبْلِيَّةُ - أي: قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ - بهذا المعنى مدحةٌ للأنصار؛ جاءت لتشعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم ، تاركين ديارهم ، وأموالهم ابتغاء فضل الله ، ورضوانه ، والتَّفرُّغ لنصرة دينه ، ونصرة رسوله ، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله ، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم ، دار الأمن ، والاستقرار ، مع سبق تبوُّئهم الإيمان قبل الأنصار ، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان ، وانفردوا بسبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضيلةٌ لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين ، وفي طليعتهم الأنصار ، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّادق ، فقيل في وصفهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا حبٌّ لله ، والله جعله فضيلةً لهم ، ميَّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله ، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع ، ولا يفتر ، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصار ، الَّذين وُصفوا بالإخلاص الصَّفيِّ ، الَّذي كان ثمرة الحبِّ في الله ، ولله ، فقيل عنهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: أنَّهم لا تستشرف نفوسهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان ، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم ، وأموالهم ، وانتهاضهم لنصرة دين الله ، ورسالاته ، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له ، أو مشاركةً فيه[1].

(د) وفي قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: والحبُّ الَّذي يسجِّله ربُّ العزَّة - تبارك وتعالى - في محكم كتابه آياتٍ بيِّنات تُتلى ، ويُتعبَّد بها في روعة إعجازها ، وبراعة أسلوبها ، وسموِّ منهجها في الهداية ، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة آثارُ حزازةٍ تحسد المهاجرين على ما آتاهم الله من مكارم الإيمان ، والتَّضحية في سبيله بالدِّيار ، والأموال ، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٤).

وصفات المدحة السَّلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع ، فيكون نفيُها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة(١) .

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبِّهم المهاجرين : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ ، معنى ذلك : أنَّ هؤلاء الأنصار سَمَوا في حبِّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء ، والإخلاص ، ووحدة الشُّعور ، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ ، فلم تعد تتَّسع لشيءٍ معه ، إلا أن يكون ذلك الشَّيء أثراً من آثار الحبِّ ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضائل ، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة ، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها(٢) .

(هـ) ومجيء قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ عقب قوله عزَّ شأنُه : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيـانٌ لثمرة هذا الحبِّ ، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصار إلى آفاقٍ لم تصل إليها البشريَّة في تاريخها البعيد السَّحيق ، ولا في تاريخها الدَّاني القريب ، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس ، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ(٣) .

(و) ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم ، والإخلاص في إيمانهم ، فقيل فيهم بعد تقرير : أنَّهم بهذا الإيثار صفَتْ نفوسُهم من كُدورات التَّطلُّعات ، والحزازات ، وأخلصوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين ، وطُهِّروا من رشح الشُّح ، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار ، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة ؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ ﷺ بين أصحابه بعد مَقْدِمِه المدينة ، فقد كانت هذه المؤاخاة ، من أسبق الأعمال ؛ الَّتي قام بها رسول الله ﷺ أوَّل ما استقرَّ في مقامه ، وأخذ في بناء مسجده الأعظم(٤) .

والظاهر : أنَّ ابتداءها كان في المسجد ؛ وهو يُـبْنى ، والنَّبيُّ ﷺ مشغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، وكان ذلك المكان الطَّاهر ، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله ـ تبارك وتعالى ـ أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة ، لما فيهما من اقتضاء التَّرافق ، والتَّعاون ، والتَّعاضد ، والتَّواسي ، والتَّناصر ، والتوادُد ، وتقوية آصرة الأخوَّة الإيمانيَّة ، فآخى رسول الله ﷺ بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً ، ثمَّ آخى بين قومٍ آخرين في دار أنسٍ ،

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٣/ ٩٦) .
(٤) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٨) .

وتكرَّر ذلك منه ﷺ ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين ، والأنصار ، وكانوا نحو المئة ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار(١) .

بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممَّن تآخوا في الله :

أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه ، وخارجة بن زهيرٍ . وعمر بن الخطَّاب ، وعتبان بن مالكٍ . وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وسعد بن معاذ . وعبد الرَّحمن بن عوفٍ ، وسعد بن الرَّبيع . والزُّبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وَقْشٍ . وطلحة ابن عُبيد الله ، وكعب بن مالكٍ . وسعيد بن زيدٍ ، وأُبيُّ بن كعبٍ . ومصعب بن عميرٍ ، وأبو أيوبٍ خالد بن زيد . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش . وعمَّار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان . وأبو ذرٍّ الغفاريُّ ، والمنذر بن عمرو . وحاطب بن أبي بلتعة(٢) ، وعُوَيم بن ساعدة . وسلمان الفارسي ، وأبو الدَّرداء . وبلال مؤذِّن رسول الله ﷺ ، وأبو رُوَيْحة عبد الله بن عبد الرَّحمن الخَثْعميُّ(٣) .

ثانياً : الدُّروس ، والعبر ، والفوائد :

١ ـ آصرة العقيدة هي أساس الارتباط :

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإسلام ، ولا يعرف الموالاة إلا لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وهو أعلى أنواع الارتباط ، وأرقاه ؛ إذ يتَّصل بوحدة العقيدة ، والفكر ، والرُّوح(٤) .

إنَّ الولاء لله ، ولرسوله ﷺ ، وللمؤمنين من أهمِّ الآثار ، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة ، وكان القرآن الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة ، فقد بيَّن الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ : أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة ؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لمَّا فارق الحقَّ ، وكفر بالله ، ولم يتَّبع نبيَّ الله . قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ ، ٤٦] .

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقطع الولاية بين المؤمنين ،

(١) المصدر السابق نفسه ، (٣/ ١٠٠) .
(٢) بلتعة : تبلتع الرَّجل : إذا تظرَّف .
(٣) انظر : ابن هشام (٢/ ١٠٩ ـ ١١١) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٣٢٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٥٢) .

والكافرين من المشركين ، واليهود ، والنَّصارى ، حتَّى لو كانوا آباءهم ، أو إخوانهم ، أو أبناءهم ، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين ، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٣].

فإذا كان الله سبحانه يحذِّر المؤمنين في الآيات السَّابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً ، فهناك آياتٌ كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين ، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً ، أو اتخاذهم أولياء ، أو الرُّكون إليهم[1].

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ، وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

قال صاحب الظِّلال: «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة ، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين آمنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً ، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة ، وبعض أهل الكتاب ، وبخاصَّةٍ اليهود ، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ ، وحلفٍ ، وعلاقات اقتصادٍ ، وتعاملٍ ، وعلاقات جيرةٍ ، وصحبةٍ ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي ، والاقتصاديِّ ، والاجتماعيِّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب ، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد؛ التي عدَّدَتْها ، وكشفتها النُّصوص القرآنيَّة الكثيرة.

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي جزولي ، ص ٤١٧.

ونزل القرآن؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة الخلقيَّة، فهذه صفة المسلم دائماً، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله، ورسوله، والذين آمنوا. الوعي، والمفاصلة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ، وفي كلِّ جيلٍ... ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]، إنَّها حقيقةٌ لا علاقة لها بالزَّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشياء، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أيِّ أرضٍ، ولا في أيِّ تاريخ، وقد مضت القرون تلو القرون، ترسم مصداق هذه المقولة الصَّادقة، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القرآن الكريم في صيغة الوصف الدَّائم، لا الحادث المفرد، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو، ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] ليست مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»(١).

وقد نهى الله ـ سبحانه ـ المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صفاتهم موالاة الكفار، وكراهية دين الله. قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

وقد جاءت آياتٌ توضِّح صور هذه المفاصلة في القرآن المدنيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

ونهى المولى ـ عزَّ وجل ـ عن الصَّلاة عليهم، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

وحدَّد المولى ـ عزَّ وجل ـ لِلَّذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة، الَّتي تتَّفق مع صفة الإيمان، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم، وطبَّقوه على حياتهم، فمحَّضوا ولاءهم، وجعلوه لله، ورسوله، والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة، الَّتي تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء، الذي منحوه لخالقهم، ولدينهم، وعقيدتهم، وإخوانهم.

إنَّ التَّآخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين، والأنصار كان مسبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها،

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩١١).

والإيمان بها؛ فالتآخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ، ووَهْمٌ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة، أو العقيدة، ممَّا تَحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله ﷺ من عند الله تعالى هي العمود الفقريَّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضع الناس كلَّهم في مصافِّ العبودية الخالصة لله، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ، إلا فارق التَّقوى، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يسود الإخاء، والتَّعاون، والإيثار بين أناسٍ شَتَّتَتْهُمُ العقائد، والأفكار المختلفة، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته، وأثرته، وأهوائه[1].

٢ ـ الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيِّ:

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة، فإذا وَهَتْ؛ تآكل كلُّ بنيانها[2]؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ ﷺ على تعميق معاني الحبِّ في الله، في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (٢٥٦٦) وأحمد (٢/ ٢٣٧ و٥٣٥) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢)].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ، يغبطهم النَّبيُّون، والصِّدِّيقون، والشُّهداء» [أحمد (٥/ ٢٢٩ و٢٣٩) وابن حبان (٥٧٧) وروى الترمذي (٢٣٩٠) طرفه الأخير].

كانت توجيهات النَّبيِّ ﷺ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ، ولا حاكمٌ على محكومٍ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيِّ الجديد، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مُستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ، فلمَّا نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء)، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها، وذُخْرها عند الله، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله ﷺ: «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنِّي أرى أن

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ١٥٦.
(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ١٢٩).

تجعلها في الأقربين» ، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. [البخاري (١٤٦١)(١) ومسلم (٩٩٨)].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة ، حيث قال: لمَّا قدمنا المدينة؛ آخى رسولُ الله ﷺ بيني ، وبين سعدٍ بن الرَّبيع ، فقال سعد بن الرَّبيع: إنِّي أكثر الأنصار مالاً ، فأقسمُ لك نصف مالي ، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها ، فإذا حَلَّتْ(٢) ؛ تزوَّجتَها. قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوق قينقاع(٣).

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ ، وسمنٍ ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ(٤) ، فما لبث أن جاء عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ ، فقال رسول الله ﷺ: «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ ـ أو: نواةً من ذهب ـ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أوْلِمْ ولو بشاةٍ» [البخاري (٢٠٤٨ و٣٧٨٠) ومسلم (١٤٢٦)].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةٌ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما ، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار ، ثمَّ باشروا العمل ، والكسب ، واشتروا بيوتاً لأنفسهم ، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وغيرُهم رضي الله عنهم.

٣ـ النَّصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين ، فقد آخى النَّبيُّ ﷺ بين سلمان ، وأبي الدَّرداء ، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء ، فرأى أمَّ الدرداء ، مُتَبَذِّلَةً ، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء ، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً ، فقال له: كلْ ، فإنِّي صائم ، قال: ما أنا بآكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل ، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم ، قال: نَمْ ، فنام ، ثمَّ ذهب يقوم ، فقال: نَمْ. فلمَّا كان آخر اللَّيل ، قال سلمان: قم الآن ، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سلمان» [البخاري (١٩٦٨ و٦١٣٩) والترمذي (٢٤١٣)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٢٥٤).
(٢) نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك ، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.
(٣) قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.
(٤) تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

٤ ـ لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم :

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم ، وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا ، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم ، وقوَّة إيمانهم ، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار ، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصارُ للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة ، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا ، وأطعنا» [البخاري (٢٣٢٥)] .

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ ﷺ ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم ، وبين إخوانهم المهاجرين ، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل ، فأبى عليهم النَّبيُّ ﷺ ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم ، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة ـ أي: العمل في النَّخيل من سقيها ، وإصلاحها ـ ونشرككم في الثَّمرة ، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله ﷺ : أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين ، مع الإرفاق بالأنصار ، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا ، وأطعنا[١] .

وقد قام الأنصار بالمؤونة ، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة ، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار ، والكرم ، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[٢] ، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه ، قال: «لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله ـ عزَّ وجل ـ لهم» [أحمد (٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) والترمذي (٢٤٨٧) وابن أبي شيبة (٩/ ٦٨)] .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الآخرة ، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[٣] .

وقد أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة ، الَّتي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ ﷺ الأنصارَ إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين ، فقالوا: لا ، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إمَّا لا؛ فاصبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ» [البخاري (٣٧٩٤)] .

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها ، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ، ومؤانستهم عن

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٣٠).
(٢) يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثَّمرة.
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ٤٠٦).

مفارقة الأهل ، والعشيرة ، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً ، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض ، وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمَّة ، وتساندها ، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّـآخي والمحبَّـة المتبادلة ، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها آصرة المودة ، والتَّـآخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة ، أو الجماعة ، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[1] .

٥ ـ الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كلُّه حادثاً جماعيّاً ، كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين ، بهذا الحبِّ الكريم ، وبهذا البذل السَّخيِّ ، وبهذه المشاركة الفعَّالة ، وبهذا التَّسابق إلى الإيواء ، واحتمال الأعباء ، فقد طُبِّقت الأخوَّة في الواقع العمليِّ لحياة الصَّحابة رضي الله عنهم .

إنَّ ما أقامه الرَّسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ تاريخيٍّ لم يكن مجرَّد شعارٍ في كلمةٍ أجراها على ألسنتهم؛ وإنَّما كان حقيقةً عمليَّةً ، تتَّصل بواقع الحياة ، وبكلِّ أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ، فقد جعل النَّبيُّ ﷺ من هذه الأخوة مسؤوليَّةً حقيقيَّةً ، تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسؤوليَّة تؤدَّى فيما بينهم على خير وجهٍ ، ولذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقَّ الميراث منوطاً بهذا التَّـآخي دون حقوق القرابة والرَّحم ، فقد كان من حكمة التَّشريع أن تتجلَّى الأخوَّة الإسلاميَّة حقيقةً محسوسةً في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أنَّ ما بين المسلمين من التآخي والتَّحابب ، ليس شعاراً ، وكلاماً مجرَّدين؛ وإنَّما هي حقيقةٌ قائمةٌ ، ذات نتائج اجتماعيَّةٍ محسوسةٍ ، تكوِّن أهمَّ أسس نظام العدالة الاجتماعيَّة . أمَّا حكمة نسخ التَّوارث على أساس هذه الأخوَّة فيما بعد ، فهي أنَّ نظام الميراث الَّذي استقرَّ أخيراً إنَّما هو نفسه قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين؛ إلا أنَّ الفترة الأولى من الهجرة ، وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين ، أمام مسؤوليَّةٍ خاصَّةٍ من التعاون ، والتَّناصر ، والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم ، وتركهم ديارهم ، وأموالهم في مكَّة ، ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان من إقامة الرَّسول ﷺ من التَّـآخي بين أفراد المهاجرين ، والأنصار ضمانةٌ لتحقيق هذه المسؤوليَّة ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤوليَّة أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته ، وأثره من أُخوَّة الرَّحم المجرَّدة ، فلمَّا استقرَّ أمر المهاجرين في المدينة ، وتمكَّن الإسلام فيها؛ غدت الرُّوح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الطَّبيعيُّ للمجتمع الجديد في المدينة[2] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٢٦) .

(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص (٢١١ ، ٢١٢) .

ولمَّا أَلِفَ المهاجرون جوَّ المدينة ، وعرفوا مسالك الرِّزق فيها ، وأصابوا من غنائم بدرٍ الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة ، على أساس صلة الرَّحم ، وأبطل التَّوارث بين المتآخين ، وذلك بنصِّ القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

فهذه الآية نسخت التَّوارث بموجب نظام المؤاخاة[١] ، وبقيت النُّصرة ، والرِّفادة ، والنَّصيحة بين المتآخين[٢] ، فقد بيَّن حَبْرُ الأمَّة ابن عباسٍ ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٣٣] .

قال : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ قال : ورثةً ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كان المهاجرون لمَّا قدموا المدينة يرثُ المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه؛ للأُخوة الَّتي آخى النَّبيُّ ﷺ بينهم ، فلمَّا نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾؛ نُسِخَتْ ، ثمَّ قال : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾[٣] من النَّصر ، والرِّفادة والنَّصيحة ، وقد ذهب الميراثُ ، ويُوصي له [البخاري (٢٢٩٢ و٤٥٨٠ و٦٧٤٧) وأبو داود (٢٩٢٢) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٣٧)] .

٦ ـ قيمٌ إنسانيَّة ومبادئ مثاليَّةٌ :

من خلال الرَّوابط الوثيقة الَّتي أَلَّفَتْ بين المهاجرين ، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيَّـةٌ ، واجتماعيَّـةٌ ، ومبادئ مثاليَّـةٌ لا عهد للمجتمع القبليِّ بها؛ وإنَّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة ، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشَّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق ، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوَّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ، ولكنَّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم ، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الَّتي سعد بها الأنصار ، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة ، ومنهم من عمل بالزِّراعة ، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم ؛ ذلك لأنَّ عزَّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممَّا يأخذ ، فاليد العليا خيرٌ ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى ، وقد فهم الصَّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ ، وهي منزلةٌ لم تصل إليها النُّظم المعاصرة ، الَّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويَّة ، وفي ضوء هذا

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٤٦).

(٢) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٤/ ٢٥).

(٣) هذه الجملة من رواية الطَّبري بنفس إسناد البخاريِّ (فتح الباري ٨/ ٢٤٩).

المفهوم الإسلاميِّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء، والعمل كانا حَجَرَ الزَّاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتَّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميّة؛ الَّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوَّل دولةٍ في الإسلام، برئاسة النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ ترعرعت حتَّى أصبحت شجرةً يتفيَّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[١].

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميَّة، والقبليَّة، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورةٍ واقعيَّةٍ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة، والعصبيَّة الشَّخصيَّة، والعصبية القُطريَّة، والعصبية حتَّى على مستوى المدينة، والقرية الصَّغيرة[٢]، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد، بسبب بُعْدِهم عن القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر، والتَّباغض.

إنَّ المسلمين اليوم في أشدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين، والأنصار؛ لأنَّه يستحيل أن تُستَأْنف حياةٌ إسلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإسلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيمانيِّ الرَّفيع، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.

إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم، ويحبُّونه، وينصرهم، وينصرونه، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية، ويجعله أقوى مضاءً، وعزيمةً، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة، ممَّا يضعف الصفَّ الإسلاميَّ، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ، فكيف يستطيع حمل كلِّ هذه الضُّغوط النَّفسيَّة والمادِّيَّة؟![٣].

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٤١١.
(٢) انظر: التربية القياديّة (٢/ ٢٨٦).
(٣) انظر: الطَّريق إلى المدينة، لمحمد العبده، ص ١٠، ١٠١.

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه ، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة ، وهو لا يزال في دَوْرِ نشأته ، وتكوينه ، وكثيراً من المحاولات الإفساديَّة ، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم ، ليفرِّقوا جمعه ، ويفكِّكوا وحدته ، ولكنَّ هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران؛ لأنَّها كانت تصطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم ، في تركيبه الإيمانيِّ والاجتماعيِّ ، فيذيبها في تلك القوَّة ، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصر دمجاً لا يقبل التَّفريق ، ولا تنفصم عراه ، ولا تُحَلُّ روابطه[1] .

٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة :

إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً ، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة ، ومحاربة أسباب الفُرْقة ، والأخذ بأصول الوحدة ، والاتِّحاد[2] .

وأهمُّ أصول الوحدة ، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، وطلب الحقِّ ، والتَّحري في ذلك ، وتحقيقُ الأخوَّة بين أفراد المسلمين .

إنَّ من الأصول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّف ، وقوَّة التَّلاحم ، ومتانة التَّماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم .

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعطيها الله للمخلصين من عباده ، والأصفياء ، والأتقياء من أوليائه ، وجنده . قال تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣] .

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ ، تورث شعوراً عميقاً بعاطفةٍ صادقةٍ ، ومحبَّةٍ وودٍّ ، واحترامٍ ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد ، ومنهج الإسلام الخالد ، يتبعها ، ويستلزمها تعاونٌ ، وإيثارٌ ، ورحمةٌ ، وعفوٌ ، وتسامحٌ ، وتكافلٌ ، وتآزرٌ ، وهي ملازمةٌ للإيمان . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] .

ولا يذوق حلاوة الإيمان ، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة . قال ﷺ : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان : أن يكون اللهُ ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار» [البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)] .

إنَّ القرآن الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله ﷺ . قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ١٥٢) .
(٢) انظر : فقه التَّمكين في القرآن الكريم للصَّلابي ، ص ٢٥٣ .

ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

إنَّ القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فَهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ أشدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم الآباء، والقرابة، والأبناء، رحماءُ بينهم، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين، كما أنَّ الفهم المتبادل، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين، وقوَّتهم، ومن أسباب شموخهم، والتَّمكين لهم[١].

٩ ـ من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله، ورسولُه ﷺ بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين، ونصرة دين الله، ورسول الله ﷺ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل[٢]، فعن غَيْلان بن جرير ـ رحمه الله! ـ قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله [البخاري (٣٧٧٦)]

أمَّا مناقبهم، وفضائلهم، فكثيرةٌ، لا تحصى، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القرآن الكريم مايلي:

فقد وصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنَّهم من المؤمنين حقّاً، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

ووصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفلاح. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

---

(١) انظر: شرح رسالة التَّعاليم، د. محمَّد عبد الله الخطيب، ص (٢٩٦).
(٢) انظر: الهجرة النَّبوية المباركة، لعبد الرحمن البر، (ص ١٣١ ـ ١٣٥).

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن مآثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيِّ ﷺ للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ، والصِّبيان مقبلين ـ قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس ـ فقام النَّبيُّ ﷺ مُمْتَناً[١]، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ [البخاري (٣٧٨٥) ومسلم (٢٥٠٨)].

حبُّ الأنصار علامة الإيمان، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله» [البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥)].

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أَحَبَّ الأنصارَ أحبَّه اللهُ، ومن أبغض الأنصارَ أبغضه الله» [أحمد (٢/ ٥٠١ و٥٢٧) وأبو يعلى (٧٣٦٧) والبزار (٢٧٩٢ و٢٧٩٣) ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٩)].

الشَّهادة لهم بالعفاف، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان، تدلأَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته، وفتوته، وقد شهد النَّبيُّ ﷺ للأنصار بهما، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![٢]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يضرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها» [أحمد (٦/ ٢٥٧) وابن حبان (٧٢٦٧) والحاكم (٤/ ٨٣) والبزار (٢٨٠٦) ومجمع الزوائد (١٠/ ٤٠)].

رغبة النَّبيِّ ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً، أو شعباً، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» [البخاري (٣٧٧٩ و٧٣٤٤) وأحمد (٢/ ٤١٠) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٦١)].

دعاء النَّبيِّ ﷺ بالمغفرة لهم، ولأبنائهم، ولأزواجهم، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول ﷺ مستجابٌ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيبَ بالحَرَّةِ[٣]، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم ـ وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني ـ يذكر: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء

---

(١) مُمْتَناً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.

(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٤٢.

(٣) كانت وقعة الحرَّة في سنة ثلاث وستين، وسببها: أنَّ أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية؛ لمَّا بلغهم ما يتعمَّده من الفساد، فأرسل إليهم يزيدُ بنُ معاوية مسلمَ بن عقبة المرِّي في جيشٍ كثير، فهزمهم، واستباحوا المدينة، وقُتِلَ من الأنصار شيءٌ كثير، وكان أنسٌ يومئذ بالبصرةِ، فبلغه ذلك، فحزن على من أصيب من الأنصار، فكتب إليه زيد بن أرقم ـ وكان يومئذٍ بالكوفة ـ يسلِّيه، ومحصَّل ذلك: أنَّ الذي يصير إلى مغفرة الله، لا يشتدُّ الحزن عليه، فكان ذلك تعزيةً لأنس فيهم.

الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[١]، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله ﷺ، هذا الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[٢]» [البخاري (٤٩٠٦) ومسلم (٢٥٠٦)].

وصية النَّبيِّ ﷺ بالإحسان إليهم، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين عظيماً، وكان فضلهم في نشره، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله ﷺ بالأنصار، والإحسان إلى محسنهم، والتَّجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه ﷺ من ترويعهم، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[٣]، فعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأنصار كَرِشي، وعَيْبَتي[٤]، والنَّاسُ سيكثرون، ويَقِلُّون[٥]، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» [البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠)].

وعنه أيضاً، قال: خرج نبيُّ الله ﷺ، فتلقَّته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الَّذي لهم[٦]، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم» [أحمد (٣/١٨٧) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٧٠) وابن حبان (٧٢٦٦ و٧٢٧١) وأبو يعلى (٣٧٧٠)] وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول

---

(١) هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلم، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم، رقم (٢٥٠٦، ٢٥٠٧).

(٢) أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال، ويجوز فتحهما، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به.

(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٥٠.

(٤) كرشي، وعيبتي: أي: بطانتي، وخاصَّتي، يريد أنَّهم موضع سرِّه، وأمانته.

(٥) قال ابن حجر: «أي: أنَّ الأنصار يقلُّون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل.
ويحتمل أن يكون ﷺ اطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً، فأخبر بذلك، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الآن من ذرِّية عليِّ بن أبي طالبٍ ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ» فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٠١).

(٦) قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ ﷺ، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة، فوفوا بذلك. فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٧٩٩)، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ، رقم (٣٧٩٩).

على المنبر للأنصار: «. . . . فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين ، وأشار إلى نَفْسِه ﷺ»[١] .

* * *

(١) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥١ ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (٣٧٧٦ ، ٣٩٤٨) ومسلم ، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، حديث رقم (٢٥٠٥ ، ٢٥١٣).

المبحث الثَّالث
الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبيُّ ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية ، واستهدف هذا الكتاب ، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق ، والواجبات ، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب ، والصَّحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور) .

ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة ، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»[١] ، وبيَّن: أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول ﷺ ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد ، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمِّقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح ، أو تقدح فرداً ، أو جماعةً ، أو تخصُّ أحداً بالإطراء ، أو الذَّمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ ، وغير مزوَّرةٍ»[٢] ، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة ، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ ﷺ يعطيها توثيقاً آخر .

أولاً: كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة[٣]:

١ ـ هذا كتاب من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين ، والمسلمين من قريشٍ ، «وأهل يثرب» ، وَمَنْ تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ ـ إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس .

٣ ـ المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[٤] ، يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم[٥]

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري ، (١/ ٢٧٥).
(٢) تنظيمات الرَّسول ﷺ الإدارية في المدينة ، لصالح العلي ، ص ٤ ـ ٥ .
(٣) مجموعة الوثائق السِّياسية ، لمحمَّد حميد الله ، ص ٤١ ـ ٤٧ ، وابن هشام (٢/ ١٤٧ ـ ١٥٠) .
(٤) الربعة: الحال الَّتي جاء الإسلام ، وهم عليها.
(٥) العاني: الأسير .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عَوْف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم[١] الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النَّجار على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[٢] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْل، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

١٣ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعةَ[٣] ظُلْمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

١٤ ـ ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

١٥ ـ وإنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أدناهم، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

---

(١) معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات، الواحدة: معقلة.

(٢) مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين، والكثير العيال.

(٣) دسيعة: عظيمة.

١٦ ـ وإنَّـه مَنْ تبعنا من يهود ، فإنَّ لـه النَّصرَ ، والأُسوة غير مظلومين ، ولا متناصرٍ عليهم .

١٧ ـ وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ ، وعدلٍ بينهم .

١٨ ـ وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقِب بعضها بعضاً .

١٩ ـ وإنَّ المؤمنين يُبِئ[١] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً ، وأقومه ، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمنٍ .

٢١ ـ وإنَّه من اعتبط[٢] مؤمناً قتلاً عن بيِّنةٍ ؛ فإنَّه قَوَدٌ[٣] به ، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل) ، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً ، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه .

٢٢ ـ وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بِما في هذه الصَّحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر مُحْدِثاً[٤] ، أو يُؤْوِيه ، وإنَّ مَنْ نصره ، أو آواه ، فإنَّ عليه لعنةَ الله ، وغضبه يوم القيامة ، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ ، ولا عدلٌ .

٢٣ ـ وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ ﷺ .

٢٤ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ ـ وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم نفسه ، وأَثِمَ ، فإنَّـه لا يُوتِغُ[٥] إلا نفسَه ، وأهلَ بيته .

٢٦ ـ وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٢٧ ـ وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٢٨ ـ وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ .

---

(١) يُبِئ : من «البَوَاء» وهو المساواة .

(٢) أي : قتله دون جنايةٍ ، أو سببٍ يوجب قتله .

(٣) القود : القصاص .

(٤) المحدث : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : من نصر جانياً ، وآواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتصَّ منه ، وبالفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرِّضا به ، والصَّبر عليه ، فإنَّه إذا رضي بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكرها عليه ؛ فقد آواه .

(٥) يوتغ : يهلك ، والوتغ ـ بالتَّحريك ـ : الهلاك . والمعنى : فسد ، وهلك ، وأثم .

٢٩ ـ وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣٠ ـ وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣١ ـ وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، إلا من ظَلَمَ، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

٣٢ ـ وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ ـ وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، وإنَّ البر دون الإثم.

٣٤ ـ وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته، وأهل بيته).

٣٦ ـ وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد ﷺ.

٣٧ ـ وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ بينهم النُّصح، والنَّصيحة، والبرُّ دون الإثم.

٣٨ ـ وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه، وإنَّ النَّصر للمظلوم.

٣٩ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٠ ـ وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.

٤١ ـ وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ، ولا آثم.

٤٢ ـ وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.

٤٣ ـ وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله ـ عزَّ و جلَّ ـ وإلى محمَّدٍ رسول الله ﷺ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي: إنَّ الله، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به).

٤٤ ـ وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نصرها، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.

٤٥ ـ وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه، ويلبسونه، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثلِ ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.

٤٦ ـ وإنَّ يهود الأوس ـ مواليهم، وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.

٤٧ ـ وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ ، أو آثمٍ ، وإنَّه مَنْ خرج آمنٌ ، ومن قعد آمنٌ بالمدينة ، إلا من ظَلم ، وَأَثِمَ ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ ، واتقى ، ومحمَّدٌ رسولُ الله ﷺ(١) .

ثانياً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد من الوثيقة:

١ ـ تحديد مفهوم الأمَّة:

تضمَّنت الصَّحيفة مبادئ عامَّةً ، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها ، وفي طليعة هذه المبادئ ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم ، مهاجريهم ، وأنصارهم ، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم ، وجاهد معهم ، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس(٢) ، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول ﷺ قومه من شعار القبليَّة ، والتَّبعيَّة لها ، إلى شعار الأمَّة ، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق الدِّين الجديد ، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ» (الفقرة: ١ ، ٢). وقد جاء به القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، ووضَّح ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرِّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتدعو إلى الفضائل ، وتحذِّر من الرَّذائل(٣). قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين ، والمؤمنين ، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم ، وهم يرعون حقوق القرابة ، والمحبَّة ، والجوار(٤). لقد انصهرت طائفتا الأوس ، والخزرج في جماعة الأنصار ، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، وأصبحوا أمَّةً واحدةً(٥) ، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة ، وليس الدَّم ، فيتَّحد شعورهم ، وتتَّحد أفكارهم ، وتتَّحد قبلتهم ، ووجهتهم ،

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، ص ٤١ ـ ٤٧.
(٢) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ١٦٩.
(٣) انظر: دستورٌ للأمَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، ص ٩.
(٤) انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم ، ص ١٠٠.
(٥) انظر: قيادة الرَّسول ﷺ السِّياسيَّة والعسكريَّة ، لأحمد راتب ، ص ٩٣.

وولاؤهم لله وليس للقبيلة ، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف ، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس» ، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين ، ولا تشمل غيرهم من اليهود ، والحلفاء ، ولا شكَّ : أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً ، يستهدف زيادة تماسكها ، واعتزازها بذاتها[١] ، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة ، واتجاهها إلى الكعبة ، بعد أن اتَّجهت ستة عشر ، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[٢] .

وقد مضى النَّبيُّ ﷺ يميِّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ ، ويوضِّح لهم : أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود ، ومن ذلك : أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف ، فأذن النَّبيُّ ﷺ لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ ، واليهود لا تصبغ الشَّيب ، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء ، والكَتَم[٣] ، واليهود تصوم عاشوراء ، والنبيُّ ﷺ يصومه أيضاً ، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه؛ مخالفةً لهم[٤] . ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم ، والتميُّز عليهم ، فقال : «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم» [أحمد (٢/ ٥٠ و٩٢) وأبو داود (٤٠٣١) وعبد بن حميد (٨٤٨)] ، وقال أيضاً : «لا تشبَّهوا باليهود» [أحمد (١/ ١٦٥) والنسائي (٨/ ١٣٧) وأبو يعلى (٦٨١)] . والأحاديث في ذلك كثيرةٌ ، وهي تفيد معنى تميُّز المسلمين ، واستعلائهم على غيرهم ، ولا شك : أنَّ التشبُّه ، والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات ، والاستعلاء على الكفار ، ولكن هذا التَّميُّز ، والاستعلاء ، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين ، وغيرهم ، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح ، وقابلٌ للتوسُّع ، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[٥] .

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة ، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة : «وإنَّه من تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة ١٦) ، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً ، في الفقرة (٢٥) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله : «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين . . . » .

وبهذا ترى : أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين ، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس ـ بمقتضى

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٩٣) .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٥٠) .
(٣) الكَتَم : جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية ، قريبة من الآس ، تنبت في المناطق الجبلية ، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضاب ، وَصُنْع المِداد .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٩٣) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، (١/ ٢٩٣) .

أحكام الصَّحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[١] .

٢ ـ المرجعيَّة العليا لله ورسوله ﷺ :

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ، ورسوله ﷺ ، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (٢٣) ، وقد جاء فيها : «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّد ﷺ » والمغزى من ذلك واضحٌ ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ ، تُهيمن على المدينة ، وتفصل في الخلافات ؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات ، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرَّسول ﷺ على الدَّولة[٢] ، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة : التَّشريعية ، والقضائية ، والتَّنفيذية ، فكان رسول الله ﷺ ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله ، من خلال دولته الجديدة ؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى ؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد ، ويقوم الدِّين . قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

يعني : «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبيـة ، والعقائـد ، والعبادات ، والمعاملات إلا لله وحده ، يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله ، لا تختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة»[٣] .

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة ، والحاكميَّة لله تعالى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٢ ـ ٣] .

وقـال تعالـى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥] فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب ؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله ، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحيٍ مُنَزَّل ؛ فكذلك لا ينبغي أن يُحكم إلا بشرعٍ منزَّلٍ ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنَزَّلٍ[٤] .

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة ، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسان ، والجان ،

---

(١) انظر : نظام الحكم ، لظافر القاسمي (١/ ٣٧).

(٢) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص ١٠٢ .

(٣) انظر : تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩).

(٤) انظر : الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا، يرجع إليها سكَّان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم (٤٣)، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة، وأحوالهم الشَّخصيَّة، فهم يحتكمون إلى التَّوراة، ويقضي بينهم أحبارها، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ ﷺ، وقد خيَّر القرآن الكريم النَّبيَّ ﷺ بين قبول الحكم فيهم، أو ردِّهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول ﷺ فيها اختلافُ بني النَّضير، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضِّعف، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[1]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وبهذه الصَّحيفة ـ الَّتي أقرَّت المادة (٤٣): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ رسوله ﷺ» ـ أصبح للرَّسول ﷺ سلطةٌ قضائيَّةٌ مركزيَّةٌ عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول ﷺ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول ﷺ هي من الله، وطاعتها واجبةٌ[2].

وبذلك أصبح رسول الله ﷺ رئيسَ الدَّولة، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة، والتَّنفيذيَّة، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله ﷺ السُّلطات الثلاث، بصفته رسول الله ﷺ، المكلَّف بتبليغ شرع الله، والمفسِّر لكلام الله، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم، ورئيس الدَّولة، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (٣٦)، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ ﷺ» ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في عدم السَّماح لهم بمحالفة قريش،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٩١).
(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، ص ٤١٨.

أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (٤٤) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نَصَرَها»، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله ﷺ[1].

٣ـ إقليم الدَّولة:

وجاء في الصَّحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّحيفة» مادة (٤٠)، وأصل التَّحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير، فما بالك في الأموال، والأنفس؟![2] فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ، وإقليمٌ هو المدينة، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها، وتَحْكُم بما أنزل الله.

إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإسلاميَّة، ونقطة الانطلاق، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها، حتَّى يضع حدّاً للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم، والأمن العام.

وقد أرسل النَّبيُّ ﷺ أصحابه ليثبِّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثَوْر في الشمال، وجبل عَيْر في الجنوب[3].

ثمَّ اتسع «الإقليم» باتِّساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتَّى عمَّ مساحةً واسعةً في الأرض، والبحر، وما يعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غرباً، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة، وجنوبها، ومناطق فسيحةٍ من غرب آسية وجنوبها، إلى أكثر أهل الصِّين وروسية شرقاً، وكلِّ شمال إفريقية وأواسطها[4]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة»، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه، ولبني آدم أينما كانوا، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية، لكلِّ فردٍ من أبناء

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢٠.

(٢) انظر: نظام الحكم، لظافر القاسمي (١/ ٣٨).

(٣) قال ﷺ: «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثَوْر، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى مُحْدِثاً، فعليه لعنة الله...» البخاري (٦٧٥٥)، ومسلمٌ، كتاب الحجِّ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها، رقم (١٣٧٠).

(٤) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص ٤١١.

المعمورة نصيبٌ فيها ، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد(١) .

٤ ـ الحرِّيَّات وحقوق الإنسان :

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول ﷺ في صياغة موادِّها ، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً ، وشاملةً ، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك ، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقِّق العدالة المطلقة ، والمساواة التَّامَّة بين البشر ، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ، ولغاتهم ، وأديانهم ، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها(٢) . يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادئ التي تضمَّنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها ، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم . . . وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها ، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها الرَّسول ﷺ »(٣) .

فقد أعلنت الصَّحيفة : أنَّ الحرِّيات مصونةٌ ؛ كحرية العقيدة ، والعبادة ، وحقِّ الأمن . . . إلخ ، فحرية الدِّين مكفولةٌ : «للمسلمين دينهم ، ولليهود دينهم» . قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصَّحيفة بإنزال الوعيد ، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ ، أو يكسر هذه القاعدة ، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس ، وعلى تحقيق مبدأ المساواة .

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس ، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ ـ يطلب حقَّه ـ أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل ، وأسرعها ، دون أن يكلِّفه ذلك جهداً ، أو مالاً(٤) ، وعليها أن تمنع أيَّ وسيلةٍ من الوسائل ، التي من شأنها أن تعوق صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقِّه .

لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النَّظر إلى لغاتهم ، أو أوطانهم ، أو أحوالهم الاجتماعيَّة ، فهو يعدل بين المتخاصمين ، ويحكم بالحقِّ ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء ، أو أعداء ، أغنياء ، أو فقراء ، عمالاً أو أصحاب عمل . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] والمعنى :

---

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٤٢١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠ .
(٣) انظر : النظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٦٥ .
(٤) انظر : النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٥٨ .

لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم ، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم ، والميل إليهم[١] .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقِّباً على قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] ما نصُّه: «يعني أنَّني مأمور بالإنصاف دون عداوةٍ ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ ، أو ضدَّ أحدٍ ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ ، وهي علاقة العدل ، والإنصاف ، فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه ، وخصيم من كان الحق ضدَّه ، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان ، وليس لأقاربي حقوقٌ ، وللغرباء حقوقٌ أخرى ، ولا للأكابر عندي مميِّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر ، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ ، فالحقُّ حقٌّ للجميع ، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع ، والحرام حرامٌ على الكلِّ ، والحلال حلالٌ للكُلِّ ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ»[٢] .

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بِشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، والشُّعوب؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة .

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥] .

وهذا نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديِّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره ، وأكمل أحواله ، فالعدل على النفس ، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس ، وأبعد البُعَدَاء ، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُواْ﴾ ، أمرٌ للمجتمع المسلم ، في جميع أفراده ، وجماعاته ، أينما حلُّوا من أرض الله ، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة ، أو المتباعدة ، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام ، والالتزام ، والتَّهيُّؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة ، وفي قوله تعالى: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ بصيغة المبالغة ، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية ، ورُوحية ، مشمِّراً على ساق العزم في بذل الجهد ، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيِّ .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٢ .

(٢) انظر: الحكومة الإسلاميَّة ، ص ٢٠٢ .

إنَّ القرآن الكريم ـ وهو دستور المجتمع المسلم ـ لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة ، ولكنَّه يَلِجُ[١] إلى مداخل الضَّمير الإنسانيِّ ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه ، وسعة ثروته من المال ، أو يتملَّق عاطفة الرَّحمة ، فيرحم الفقير لفقره ، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلم ، وحَيْفٍ على الحق .

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم ، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه ، وغناه على ألا يقام معه العدل ، ويظلم له الفقير ، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير ، فيُحابي بظلم الغنيِّ لأجله .

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم ، أن يميل مع الهوى ، ويخضع للعواطف ، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق ، وإعراضاً عنه .

وقد جاءت أخت هذه الآية ، في نسق أسلوبها ، وألفاظها؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه ، ولتقرِّر : أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمُبْغض ، والقريب والبعيد ، والصَّديق والعدوُّ ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

فصورة الخطاب الكينوني هنا ﴿ كُونُواْ ﴾ ـ الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة ـ هي صورته هناك؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم[٢]؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الآيتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها؛ ففي الآية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ـ قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ـ إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ ، والودِّ ، والقربى ، وفي هذه الآية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف ، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض ، والعداوة[٣] .

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل ، قائماً به بين النَّاس ، له قيادته للإنسانيَّة ، وليخلص له التوجُّه إلى الله

---

(١) يلج : يدخل .
(٢) انظر : محمد رسول الله ﷺ (٣/ ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤) .
(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٤٤ ، ١٤٥) .

تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده ، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت ، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل؛ إحقاقاً للحقِّ ، وإنصافاً للمظلوم ، ونصراً للضَّعيف[(١)] .

أمَّا مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها ، منها : «أن ذمَّة الله واحدة» ، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» ، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس» ، ومعنى الفقرة الأخيرة : أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة ١٥) . وتضمَّنت الفقرة (١٩) : أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ ، بما نال دماءهم في سبيل الله» ، قال السُّهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه (الرَّوض الأنف) : «ومعنى قوله يبيء : هو من البَوَاء ، أي : المساواة»[(٢)] .

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادئ العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام ، وهو من المبادئ الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم ، ولقد أقرَّ هذا المبدأ ، وسبق به تشريعات ، وقوانين العصر الحديث ، وممَّا ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال رسول الله ﷺ : «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمرَ على أسودَ ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، إلا بالتَّقوى . أَبَلَّغْتُ؟» [أحمد (٥/ ٤١١)] .

إنَّ هـذا المبدأ كان من أهم المبادئ الَّتي جذبت الكثيـر من الشُّعـوب قديماً نحو الإسلام ، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين[(٣)] .

وليس المقصود بالمساواة هنا ، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً ، كما ينادي بعض المخدوعين ، ويرون ذلك عدلاً[(٤)]؛ فالاختلاف في المواهب ، والقدرات ، والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق[(٥)]؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ؛ الَّتي دعت إليها الشَّريعة الإسلاميَّة ، مساواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّساوي ، وليست مطلقةً في جميع الأحوال[(٦)] ، فالمساواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّرع ، والقضاء ، والأحكام الإسلاميَّة

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، (٣/ ١٤٥) .
(٢) انظر : الرَّوض الأنف (٢/ ١٧) ، نقلاً عن نظام الحكم ، للقاسمي (١/ ٣٨) .
(٣) انظر : مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، لعبد الحميد متولِّي ، ص ٣٨٥ .
(٤) انظر : الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها ، للميداني (١/ ٦٢٤) .
(٥) انظر : فلسفة التَّربية الإسلاميَّة ، لماجد الكيلاني ، ص ١٧٩ .
(٦) انظر : مبادئ علم الإدارة ، لمحمَّد نور الدِّين ، ص ١١٦ .

كافَّةً ، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس ، أو اللَّون ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو غير ذلك(١) .

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسلام سواسيةٌ ، الحاكم ، والمحكوم ، الرِّجال والنساء ، العرب والعجم ، الأبيض والأسود ، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين النَّاس بسبب الجنس ، واللون ، أو النَّسب ، أو الطَّبقة ، والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّرع سواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى ، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الآتي :

ـ إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى .

ـ إسقاط الاعتبارات الطَّبقية ، والعُرْفية ، والقبليَّة ، والعنصريّة ، والقوميَّة ، والوطنية ، والإقليمية ، وغير ذلك من الشِّعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانيَّة ، وإحلال المعيار الإلْهيِّ بدلاً عنها للتَّفاضل ، ألا وهو التَّقوى .

ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه ، أو سلطانه ، أو حسبه ونسبه؛ وإنَّما الفرص للجميع ، وكلٌّ على حسب قدراته ، وكفاءاته ، ومواهبه ، وطاقته ، وإنتاجه .

ـ إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة ، يقوِّي صفَّها ، ويوحِّد كلمتها ، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ ، ومنهجٍ ، ومبدأ(٢) .

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة ، من مقوِّماتها الدُّستوريَّة ، والإداريّة ، وعلاقة الأفراد بالدَّولة ، وظَلَّ القرآن يتنزَّل في المدينة عشر سنين ، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة ، ويرسي مبادئ الحكم ، وأصول السِّياسة ، وشؤون المجتمع ، وأحكام الحرام والحلال ، وأسس التَّقاضي ، وقواعد العدل ، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل ، والخارج ، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا ، وتشيده ، وتفصِّله في تنوير وتبصرةٍ ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّستورية ، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صلة المسلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة ، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إسلاميَّة ، تُسَجَّل ، وتنفَّذ في أقوام كانوا ـ منذ قريب ـ وقبل الإسلام ـ أسرى العصبية القَبَلِيَّة ، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة ، والتسلُّط ، وبالتَّخوض في حقوق الآخرين ، وأشيائهم(٣) .

---

(١) انظر : فقه التمكين ، د. علي الصَّلابي ، ص ٤٦٣ .
(٢) انظر : فقه التَّمكين ، ص ٤٦٦ .
(٣) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فوزي فيض الله ، ص (٢٩ ، ٣٠) .

كانت هذه الوثيقة ، فيها من المعاني الحضاريّة الشيء الكثير ، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها ، فهل حدث هذا الالتزام[١].

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة ، والبراهين السَّاطعة لليهود على صدق رسالة الرَّسول ﷺ ، ولكنَّ ذلك لم يزدْهم إلا عناداً ، وعداوةً ، واستكباراً ، وحقداً ، وحسداً على الرَّسول ﷺ والَّذين آمنوا معه ، فعن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب: أنَّها قالت: كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليه ، وإلى عمِّي أبي ياسر ، لم ألقَهُما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه ، قالت: فلمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة ، ونزل قُباء ، في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب ، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب ، مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت: فأتيا كالَّيْنِ ، كسلانينِ ، ساقطينِ ، يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما ، كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغَمِّ. قالت: وسمعتُ عمِّي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه ، وتُثْبته؟ قال: نعم ، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بَقِيتُ[٢].

وقد شنَّ اليهودُ على رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ، حملاتٍ إعلاميَّةً لتشويه صورة الرَّسول ﷺ ، وتنفير النَّاس منه ، ونَزْع الثِّقة بينه ، وبين النَّاس. لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدِّين على مصالحهم ، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيَّفة ، القائمة على الاستعلاء ، واحتقار النَّاس ، عدا الجنسَ اليهوديَّ؛ لقد جاء ينادي بعقيدة التَّوحيد ، وهم يقولون: «عزير ابن الله» ، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشريِّ ، وأنَّه لا يعلو شعبٌ على شعبٍ ، ولا جماعةٌ على جماعةٍ ، وهم يرون: أنَّهم شعب الله المختار ، يترفَّعون عن بقيَّة الأجناس ، وينظرون إليهم على أنَّهم دونهم ، وأقلُّ منهم[٣]؛ ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة ، وشرعوا في التَّشكيك في نبوَّة الرَّسول ﷺ ورسالته ، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله ﷺ ، وخدعوا المؤمنين ، ودلَّسوا عليهم[٤] ، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١ ـ محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتُهم المستمرَّة لتمزيق الصَّفِّ المسلم ،

---

(١) انظر: هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته ، للجمل ، ص ٢٦١.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٥١٨ ، ٥١٩).
(٣) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لمحمد أبو فارس (١/ ٣١).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٣١ ـ ٤٦).

وتخريبه بتقطيع أواصر المحبَّة بين المسلمين ، وذلك بإثارة الفتن الدَّاخلية ، والشِّعارات الجاهليَّة ، والنَّعرات الإقليميَّة ، والدَّعوات القوميَّة ، والقَبَلِيَّة ، والسَّعي بالدَّسيسة والوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتوادِّين المتحابِّين ، فهم في توادِّهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسَّهر[١].

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شيوخهم الكبار في السنِّ ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، ويخسر النَّبيُّ ﷺ بذلك أقوى أنصاره[٢] ، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى! ـ: ومَرَّ شأس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عَسَا[٣] ، عظيمَ الكفر ، شديدَ الضِّغْن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم ـ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس ، والخزرج ، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدَّثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم ، وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الَّذي كان بينهم في الجاهليَّة ، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[٤] بهذه البلاد ، لا والله! ما لنا معهم ـ إذا اجتمع مَلَؤهم بها ـ من قرارٍ ، فأمر فتىً شابّاً من يهود كان معهم ، فقال: اعْمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ، ثمَّ اذكر يوم بُعاث ، وما كان قَبْلَه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج ، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سماك الأشهليُّ أبو أُسيد بن حُضَير ، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضي ، فَقُتِلا جميعاً.

قال ابن إسحاق: ففعل ، فتكلَّم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتَّى تواثب رجلانِ من الْحَيَّيْنِ على الرُّكب: أوس بن قَيْظيٍّ ـ أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس ـ وجبَّار بن صخر ـ أحد بني سلمة من الخزرج ـ فتقاولا ، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة[٥] ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا: قد فعلنا ، موعدكم الظَّاهرة ـ والظَّاهرة: الحَرَّة ـ السِّلاحَ السِّلاحَ ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتَّى جاءهم ، فقال: يا معشرَ المسلمين! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجاهلية ، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٤٤).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (٤/ ٣٧).
(٣) عَسَا: كَبِرَتْ سِنُّه.
(٤) قيلة: أمُّ الأوس والخزرج.
(٥) جَذَعَة: أي: رددنا الحرب فتيةً قويَّةً ، أو: رددنا الآخر إلى أوله.

للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم؟!

فعرف القوم أنَّها نزغةٌ من الشَّيطان ، وكيدٌ من عدوِّهم ، فبكوا ، وعانق الرِّجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً ، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شأس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس ، وما صنع : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٨ ـ ٩٩] وأنزل الله في أوس بن قَيْظيٍّ ، وجبَّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما ؛ الَّذين صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية[(١)] : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥] .

ونرى من خلال القصَّة ، قدرة القيادة النَّبويَّة على إحباط مخطَّط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصفِّ ، واهتمام النَّبيِّ ﷺ بأمور المسلمين ، وإشفاقه عليهم ، وفزعه ممَّا يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع إلى الأنصار ، وذكَّرهم بالله ، وبيَّن لهم: أنَّ ما أقدموا عليه من أمر الجاهليَّة ، وذكَّرهم بالإسلام ، وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب والفتن ، وتطهير النُّفوس من الضَّغائن ، وتأليف القلوب بالإيمان ، وكانت لكلمات النَّبيِّ ﷺ أثرٌ في نفوسهم ، وسرت في كيانهم رُوحٌ جديدةٌ ، مسحت كل أثرٍ لأمر الجاهليَّة بفضل الله تعالى ، ثمَّ بكلمات نبيِّه ﷺ المعبِّرة ، ورُوحه القويَّة المؤثِّرة ، وهيئته الوثَّابة المنذرة ، وأدركوا: أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشَّيطان ، وكيد عدوِّهم من اليهود ، فبكوا ندماً على ما وقعوا فيه من الذُّنوب ، وتعانق رجال الإسلام ؛ تعبيراً عن محبَّتهم الإيمانيَّة لبعضهم[(٢)] .

٢ ـ التَّهجم على الذَّات الإلهيَّة :

ذكر غيرُ واحدٍ من كُتَّاب السِّير ، والمفسِّرين: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه ، قد دخل بيت

(١) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١ ـ ٢١٤).
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

الْمِدْرَاس[١] على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً ، قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم ، يقال له: (فِنْحاص) ، وكان من علمائهم ، وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ من أحبارهم ، يقال له: (أشيع) ، فقال أبو بكر لِفِنْحاص: ويحَك! اتَّقِ الله ، وأَسْلِم ، فوالله! إنَّك تعلم: إنَّ محمداً لَرسولُ اللهِ ، قد جاءكم بالحقِّ من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التَّوراة ، والإنجيل. فقال فِنْحاص لأبي بكرٍ: والله! يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فَقْرٍ ، وإنَّه إلينا لفقير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ، وما هو عنَّا بغنيٍّ ، ولو كان عنَّا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه ، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فِنْحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم؛ لضربتُ رأسَك أيْ عدوَّ الله! فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك ! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً؛ إنَّه يزعم: أنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّهم أغنياء ، فلمَّا قال ذلك؛ غضبتُ لله ممَّا قال ، وضربتُ وجهه! فجحد ذلك فِنْحاص ، وقال: ما قلتُ ذلك؛ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص؛ ردّاً عليه ، وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] .

ونزل في أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب[٢]: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][٣] .

وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ ، سوءَ أدبهم مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعدم تنزيهه عن النَّقائص ، وَوَصْفَه بما لا يليق به سبحانه ، وهذا عين الوقاحة ، وانعدام الأدب؛ ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] .

ويبدو من مضمون الآية: أنَّ هذا الموقف الَّذي وقفوه ، كان منبعثاً ممَّا كان يملأ صدورهم

(١) المِدْراس: مكان يُتلى فيه التَّوراة.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٩٥).
(٣) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩) ، وسبل الهدى والرَّشاد (٣/ ٥٨٣ ـ ٥٨٥) ، وتفسير مجاهد ، ص ١٤٠ .

من الغيظ ، والسُّخط من رسوخ قدم النَّبيِّ ﷺ وانتشار دعوته ، ولعلَّ ممَّا يصحُّ أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم ، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد ، والجحود؛ الَّتي ما فتئوا يقفونها ، واستجابةً لأمر القرآن ، ونهيه ، وتحذيره ، فأثَّر ذلك في حالتهم الاقتصاديَّة تأثيراً سيئاً ، فزاد سخطهم ، وغيظهم ، وتبَرُّمُهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حقِّ الله ، ومن ردٍّ غير جميلٍ لرسول الله ﷺ[1] .

وقد جاء بعد هذه الآية ما يدلُّ على صحَّة ما ذهبتُ إليه ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦] .

٣ـ سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ والنَّيل من الرُّسل الكرام والقرآن الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله ﷺ ، في حضرته ، وأثناء خطابه؛ إذ يلمزونه ، ويحيُّونه بتحيَّةٍ فيها من الأذى والتهجُّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ[2] عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش ، ولا التفحُّش» ، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: «ألستِ تريني أردُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» ، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك [البخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥/ ١١)][3] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨] .

وهذه الآية تُظْهِر الحقد الَّذي هيمن على نفوس اليهود ، ودفعهم إلى استخدام كلِّ الوسائل ، والطُّرق لهدم الإسلام ، والتخلُّص من صاحب الرِّسالة ﷺ ، والسَّيطرة على المسلمين ، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرَّسول ﷺ بالموت ـ مع التَّظاهر بالسَّلام عليه ـ الضَّعفُ الَّذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النَّوع من السَّلام ، فالممارس لمثل ما قام به اليهوديُّ الَّذي سلَّم على الرَّسول ﷺ بقوله: «السَّام عليك» يعيش أزمةً نفسيَّةً متولِّدة عن فقدان عزٍّ كان يظنُّ أنه ينعم فيه ، لقد تغلَّبت قوىً جديدةٌ على ماضيه وحاضره ، ولم يستطع أن يتفاعل مع مَنْ تغلَّب عليه ،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٥١).

(٢) السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (٨/ ١٨٩).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ١٨٩) ، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروقٍ ، عن عائشة ، وإسناده صحيحٌ.

ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدِّين الجديد ، وممَّا زاد في تأزُّم اليهود : أنهم جرَّبوا محاربة الإسلام بوسائلهم الَّتي كانوا يظنُّون أنَّها لا تُقهر ، فكان الفشل حليفهم ، لذلك لجؤوا إلى الطُّرق السَّلبيَّة ، والوسائل الملتوية ، فالدُّعاء على الخصم مع التَّظاهر بالسَّلام ، هو سلاح العاجزين ، ووسيلة الخائبين ، وتِرْيَاقُ الحاقدين[1] .

ولمَّا سمع رسولُ الله ﷺ ما صدر عن عائشة رضي الله عنها ، دعاها إلى الرِّفق ، واللِّين ، وبيَّن لها : أنَّ المسلم لا يجوز له أن يترك الغضبَ يتحكَّم فيه ، فالرِّفق في الإسلام ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسن الخُلُق ، فالله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[2] .

وأمَّا نَيْلُهم من المرسلين : فقد أتى رسولَ الله ﷺ نفرٌ من يهود ، فيهم أبو ياسر ابن أخطب ، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وغيرهم ، وسألوا رسولَ الله ﷺ عمَّن يؤمن به من الرُّسل ، فقال ﷺ : «نؤمن بالله ، وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أُوتي موسى وعيسى ، وما أُوتي النبيون من ربهم ، لا نفرِّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» ، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوَّته ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ، ولا بمن آمن به[3] ، فأنزل الله فيهم : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٥٩] .

وأمَّا عن محاولاتهم للنَّيل من القرآن الكريم في أسئلتهم ، ونقاشهم ، الَّذي لا ينتهي : فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ قالت أحبار اليهود: يا محمد! أرأيتَ قولك : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلَّاً» ، قالوا : فإنَّك تتلو فيما جاءك : أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيءٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّها في عِلْم الله قليلٌ ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم؛ لو أقمتموه»[4] . قال : فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] .

٤ ـ دعم حزب المنافقين ، وتآمرهم معهم :

حدَّثنا القرآن الكريم ، عن قيادة اليهود الفكريَّة لحزب المنافقين ، فهم شياطين المنافقين؛

---

(١) انظر : حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ١٠١ .
(٢) انظر : حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ٨٧ .
(٣) انظر : ابن هشام في السِّيرة (١/ ٥٦٧) ، وتفسير ابن جرير (١/ ٤٤٢) ، وانظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، لعبد الله الشَّقاري (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٤) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٢٤١) ، وتفسير ابن كثير : سورة الإسراء الآية (٨٥).

يخطِّطون لهم ، ويوجِّهونهم ، ويدرسون لهم أساليب الكيد ، والمكر ، والخداع ، والدَّهاء ، وإثارة الفتن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قال النَّسفي في تفسيره: «وشياطينهم الَّذين ماثلوا الشَّياطين في تمرُّدهم ، هم اليهود»(١).

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين ، وفي هذا التآمر يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفسرين على أنَّ الكافرين هنا هم اليهود ، وفي الآية قرينةٌ على صحَّة ذلك ، كما أنَّ فيما بعدها قرينةً ثانيةً أيضاً ، وواضحٌ: أن اتِّخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنَّما هما أثران من آثار التآمر الموطَّد بين اليهود ، والمنافقين تجاه الدَّعوة والقوَّة الإسلاميَّة»(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٦].

والجمهور على أنَّ الآية الأولى عَنَتِ المنافقين ، وأنَّ الَّذين كرهوا ما نزَّل الله هم اليهود ، وهكذا تبدو في الآية الثَّانية صورةٌ من صور التآمر بين الفريقين ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، ونلفت النَّظر إلى ما حَكَتْهُ الآية الثَّانية ، من وَعْد المنافقين لليهود بطاعتهم ، والسَّير على الخطَّة ؛ الَّتي يضعونها ، ففي هـذا كما هو ظاهرٌ صورةٌ لبعض ما كان لليهود من التَّوجيه والتَّأثير والنُّفوذ في المنافقين ، وحركتهم ، وأعمالهم(٣).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٤ ـ ١٦].

قال الماورديُّ في تفسيره لهذه الآية: «يعني: المنافقين ؛ تولَّوا قوماً غضب الله عليهم: هم اليهود»(٤) ، وفسر الماورديُّ الصدَّ عن سبيل الله بأنه: الصَّدُّ عن الجهاد ممايلةً لليهود(٢).

---

(١) انظر: تفسير النَّسفي (١/ ٢١).

(٢) انظر: سيرة الرَّسول ﷺ ، لدروزة (٢/ ١٧٩ ، ١٨٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٨٠).

(٤) انظر: النكت والعيون ، للماوردي (٤/ ٢٠٣).

ودفع اليهود المنافقين لإشعال حربٍ ضدَّ رسول الله ﷺ . فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكِيَّة[١] ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعودُ سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول ، وذلك قبل أن يُسْلم عبد الله بن أُبيٍّ ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجةُ الدَّابة ، خَمَّر عبد الله بن أُبيٍّ أنفه بردائه ، ثمَّ قال: لا تُغبِّروا علينا ، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول: أيها المرءُ! إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقول ـ إن كان حقّاً ـ فلا تُؤْذِنَا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله! فَاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنَّا نحبُّ ذلك ، فاستبَّ المسلمون ، والمشركون ، واليهود ، حتَّى كادوا يتثاورون[٢] ، فلم يزلِ النَّبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكنوا ، ثمَّ ركب النَّبيُّ ﷺ دابته ، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : «يا سعدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أُبيٍّ ـ قال كذا ، وكذا». قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله! اُعْفُ عنه ، واصفحْ ، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب! لقد جاء الله بالحقِّ الذي أَنزل عليك ، ولقد اصطلح أهلُ هذه البحيرة[٣] على أن يُتَوِّجوه ، فيعصِّبُونه بالعصابة[٤] ، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيتَ. فعفا عنه رسول الله ﷺ . [البخاري (٤٥٦٦)] .

٥ ـ طعنُ اليهود في مَنْ آمن من الأحبار (عبد الله بن سَلام) رضي الله عنه:

«بلغَ عبدَ الله بن سَلام مَقْدَمُ رسول الله ﷺ المدينةَ ، فأتاه ، فقال: إنِّي سائلُك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ ، قال: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ : «خَبَّرَني بهنَّ آنفاً جبريلُ» ، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله ﷺ : «أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة ، فنارٌ تحشر النَّاسَ من المشرق إلى المغرب ، وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة ، فزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ ، وأما الشَّبهُ في الولد ، فإنَّ الرَّجل إذا غَشيَ المرأةَ ، فسبقها ماؤه؛ كان الشَّبه

---

(١) قطيفة فدكية: كساءٌ غليظٌ منسوبٌ إلى فَدَك ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة.
(٢) يتثاورون: أي: يتواثبون ، والمعنى: كادوا أن يَثِبَ بعضهم على بعضٍ فيقتتلوا ، ويقال: ثار ، إذا قام بسرعةٍ وانزعاج.
(٣) البحيرة: لفظ يُطلق على القرية والبلد ، والمراد به هنا المدينة النَّبويَّة.
(٤) يعني: يرئِّسونه عليهم ، ويسودونه.

له ، وإذا سبق ماؤها؛ كان الشَّبهُ لها». قال: أشهد أنَّك رسول الله ، ثمَّ قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبدُ الله البيت ، فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمِنا ، وأخبرُنا وابن أخبرِنا ، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك. فخرج عبد الله إليهم ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمَّداً رسول الله ، فقالوا: شَرُّنا ، وابن شَرِّنا ، ووقعوا فيه» [البخاري (٣٣٢٩)] . فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم ، ويثيرون حولهم الشُّكوك ، ويقذفونهم بتهمٍ باطلةٍ قبيحةٍ ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين ، الَّذين وجَّه اليهود ضدَّهم تلك الحملات الظَّالمة(١).

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥] .

قال الواحديُّ في (أسباب النُّزول): «قال ابن عباسٍ ، ومقاتلٍ: لمَّا أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عُبيد ، ومن أسلم من اليهود ، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمَّد إلا شرارُنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم ، وقالوا لهم: لقد خُنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً . . . ﴾ الآية»(٢).

٦ ـ بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين:

كان اليهود يتحيَّنون الفرص للنَّيل من المسلمين ، والبحث عمَّا يفرِّق كلمتهم ، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشَّهر ـ لوفاة أحد النُّقباء ، الَّذين بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعة العقبة ، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرارةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ رضي الله عنه ، فعندما أخذته الشَّوْكة(٣) ، فجاءه رسول الله ﷺ يعوده ، فقال: بئس الميِّتُ ليهود ـ مرَّتين ـ سيقولون: لولا دفع عنه صاحبه ، ولا أملك له ضرّاً ، ولا نفعاً ، ولأتَمَحَّلَنَّ(٤) له» ، فأمر به ، فكُوِيَ بخطَّين فوق رأسه فمات ، [أحمد (٤/١٣٨) والحاكم (٤/ ٢١٤) ومجمع الزوائد (٥/٩٨)] . وفي روايةٍ: فكواه

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٥٩).
(٢) انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ١١٤ .
(٣) الشوكة: حُمرةٌ تعلو الوجه والجسد.
(٤) أتَمَحَّلنَّ: أي: لأحاولنَّ له في حيلةٍ يشفى بواسطتها ، انظر: النهاية (٤/ ٣٠٣).

حَوْران[1] ، على عنقه ، فمات ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «بئس الميتُ لليهود ، يقولون: قد داواه صاحبه ، أفلا نفعه!» [الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٨٤) وعبد الرزاق في المصنف (١٩٥١٥) ومجمع الزوائد (٥/٩٨)] .

ولم تكن حادثة أبي أُمامة هي الحدث الوحيد الَّذي أبان الحقد اليهوديَّ على المسلمين ، فقد أشاعوا في أوَّل الهجرة: أنَّهم سحروا المسلمين ، فلا يُولد لهم ولد ، أشاعوا ذلك ليضيِّقوا على المسلمين الخناق ، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة ، التي عاشوها في مدينة رسول الله ﷺ ، وليعكِّروا ذلك الجوَّ الصَّافي ؛ الَّذي يملؤه الحبُّ ، والتآلف بين المسلمين .

وممَّا يدلُّ على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين ، شدَّة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أوَّل مولودٍ ذكر من المهاجرين ، وهو عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه[2] ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «أنَّها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزُّبير في مكَّة ، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ ، فأتيت المدينة ، فنزلت قُباءً ، فولدت بقُباء ، ثمّ أتيت به رسولَ الله ﷺ ، فوضعتُه في حجره ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، فمضغها ، ثمَّ تفل في فيه ، فكان أوَّل شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ، ثمَّ حَنَّكَه بالتَّمرة ، ثمَّ دعا له ، فَبَرَّكَ عليه ، وكان أولَ مولود وُلِدَ في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً ؛ لأنَّهم قيل لهم: إنَّ اليهود قد سحرتكم ، فلا يُولدُ لكم» [البخاري (٥٤٦٩) ومسلم (٢١٤٦/٢٦)] ، وفي روايةٍ مسلم [(٢١٤٦/ ٢٥)]: «وسمَّاه عبد الله ، ثمَّ جاء بعدُ وهو ابن سبع ، أو ابن ثماني سنين ، يبايع النَّبيَّ ﷺ ، أمره الزُّبير رضي الله عنه بذلك ، فتبسم النَّبيُّ ﷺ حين رآه مقبلاً ، وبايعه» ، وكان أوَّل من وُلِدَ في الإسلام بالمدينة بعد مَقْدَمِ رسول الله ﷺ ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم ، فلا يُولدُ لهم بالمدينة وُلد ذكر ، فكبَّرَ أصحابُ رسول الله ﷺ حين وُلد عبد الله [الحاكم (٣/ ٥٤٨)] .

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة :

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة ، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة هي الفاصل بين الحرب الكلاميَّة ، وحرب المناوشات ، والتدخُّل الفعليّ من جانب اليهود ، لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة[3] ، فعن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أولَ ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار ، وأنَّه ﷺ صلَّى قِبَلَ بيت المقدس ستةَ عَشَرَ شهراً ، أو سبعةَ عَشَرَ شهراً ، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت ، وأنَّه ﷺ صلَّى أوَّل صلاةٍ

---

(١) حَوْران: هي كيةٌ مُدَوَّرةٌ ، من: حار يحور إذا رجع ، وحوّره: إذا كواه هذه الكية ، وتسمى حوراء أيضاً ، انظر: النِّهاية (١/ ٤٥٩).

(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٦٥).

(٣) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٥٨).

صلاها ، صلاةَ العصر ، وصلَّى معه قومٌ ، فخرج رجلٌ ممَّن صلَّى معه ، فمرَّ على أهل مسجدٍ؛ وهم راكعون ، فقال: أشهد بالله! لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكَّة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم أنَّه كان يُصلِّي قِبَلَ بيت المقدس ، وأهلُ[1] الكتاب ، فلمَّا ولَّى وجهه قِبَلَ البيت؛ أنكروا ذلك [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٢٥)] ، وقد نزلت في هذه الحادثة آياتٌ عظيمة ، فيها عِبَرٌ ، وحكمٌ ودروسٌ للصفِّ المسلم .

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢] .

* ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ ﴾ [البقرة: ١٤٢] : أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ بما سيقوله اليهود عند تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من إثارة الشُّكوك ، والتَّساؤلات قبل وقوع الأمر ، ولهذا دلالته؛ فهو يدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ؛ إذ هو أمر غيبيٌّ ، فأخبر عنه قبل وقوعه ، ثمَّ وقع ، فدلَّ ذلك على أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ ، ونبيٌّ يخبره الوحي بما سيقع؛ إذ من الأدلَّة على صدق رسالة الرَّسول ﷺ ، أن يخبر بأمور غيبية ثمَّ تقع بعد ذلك .

وهو يدلُّ أيضاً على علاجٍ للمشاكل قبل حدوثها ، حتَّى يستعدَّ المسلمون ، ويهيِّئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلُّب عليها ، والردِّ عليها ، ودفعها؛ لأنَّ الأمر حين يكون مفاجئاً لهم ، يكون وقعه على النفس أشدَّ ، ويربك المفاجأ ، أمَّا حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه ، فالحديث يطمئنهم ، ويوطِّن نفوسهم ، ويعدُّها لمواجهة الشَّدائد[2] . قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه؛ لتوطين النُّفوس ، وإعدادها على ما يبكتهم ، فإنَّ مفاجأة المكروه على النَّفس أشقُّ ، وأشدُّ ، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردُّ»[3] ، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسَّفه؛ لاعتراضهم على تحويل القبلة ، وللكيد ضدَّ رسول الله ﷺ . قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفَّت أحلامُهم ، واستمهنوها بالتَّقليد ، والإعراض عن التدبُّر ، والنَّظر . وقولهم: ثوبٌ سفيهٌ ، إذا كان خفيف النَّسيج ، وقيل: السَّفيه: البهَّات الكذَّاب ، المتعمِّد

(١) هو بالرفع؛ عطفاً على اليهود .
(٢) انظر الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠٢) .
(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/ ١٧١) .

خلاف ما يعلم ، وقيل: الظَّلوم الجهول ، والسُّفهاء هم اليهود»[١].

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣][٢] : يقول ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيارَ الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداءَ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار ، والأجود ، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي: خيرها ، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، ومنه الصَّلاة الوسطى الَّتي هي أفضل الصَّلوات وهي العصر»[٣].

فهي أمَّةٌ وسطٌ في التَّصوُّر والاعتقاد ، في التَّفكير والشُّعور ، في التَّنظيم والتَّنسيق ، في الارتباطات والعلاقات ، في المكان في سرَّة الأرض وأوسط بقاعها[٤].

* ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فالآية تذكِّر أنَّ الصَّلاة نحو بيت المقدس كانت فتنةً؛ أي: اختباراً ، والتَّحوُّل من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضاً اختباراً ، وامتحاناً. قال البيضاويُّ في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم مَنْ يتَّبع الرَّسول ، ممَّن ينقلب على عقبيه ، إلا لنمتحن به النَّاس ، ونعلم من يتَّبعك في الصَّلاة إليها ، ممَّن يرتدُّ عن دينك إلفاً لقبلة آبائه ، أو لنعلم من يتَّبع الرَّسول ممَّن لا يتَّبعه ، وما كان لعارض يزول بزواله ، وعلى الأول: معناه: ما رددناك إلى الَّتي كنت عليها ، إلا لنعلم الثَّابت على الإسلام ، ممَّن ينكص على عقبيه؛ لقلقه ، وضعف إيمانه»[٥].

فالصَّلاة إلى الكعبة في بداية الأمر ، ثمَّ الصَّلاة إلى بيت المقدس ، ثمَّ العودة إلى الكعبة ، واستمرار ذلك لا شيء فيه؛ ما دام الباري سبحانه أمر بذلك ، ومن ثَمَّ فالتَّوجه في كلِّ حالةٍ هو عبادة ، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ويلتزموا بأمره ، فالذي يتَّبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يُعَدُّ فائزاً في الاختبار ، والامتحان ، والَّذي يجد في نفسه مخالفة حكمٍ من الأحكام الشَّرعيَّة كان ساقطاً ، وهالكاً ، والإيمان الحقُّ هو الَّذي يُلزم صاحبه

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ١٧٠).

(٢) كانت رسالة الماجستير للمؤلف حول هذه الآية (الوسطية في القرآن الكريم) وتحدَّث عنها في حوالي ٧٠٠ صفحة.

(٣) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الآية.

(٤) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الآية ، (٢/ ٤٣٠).

(٥) انظر: تفسير البيضاوي ، نقلاً عن الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠١).

بالاتِّباع ، ومخالفة الهوى[١] ؛ ولهذا ثبت الصَّحابة الكرام ، واستجابوا لأوامر الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا النَّاس يصلُّون الصُّبح في مسجد قُباء؛ إذ جاء رجلٌ فقال: قد أُنزل على النَّبيِّ ﷺ قرآن ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاسْتقبِلُوها. فتوجَّهوا إلى الكعبة[٢].

* ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

تبيِّن الآية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم ، وحبَّ الخير لهم ، فحينما نزلت الآيات؛ الَّتي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم ، الَّذين ماتوا؛ وقد صلوا نحو بيت المقدس ، فأخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ صلاتهم مقبولةٌ ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما وُجِّه النَّبيُّ ﷺ إلى الكعبة؛ قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الَّذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] [أبو داود (٤٦٨٠) والترمذي (٢٩٦٤) وأحمد (١/ ٢٩٥ و٣٠٤ و٣٢٢ و٣٤٧)] ، وبيَّن لهم: أنَّه رؤوف رحيمٌ ، «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطُّمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرِّضا ، والثِّقة ، واليقين»[٣].

* ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٤٤ ـ ١٤٨] .

كان رسول الله ﷺ ، حريصاً على أن يتوجَّه في صلاته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، فهو أولى النَّاس به؛ لأنَّه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وحامل لواء التَّوحيد بحقٍّ كما حملها إبراهيم عليه السلام ، وهو ﷺ كان يحرص على أن يكون مستقلاً ، ومتميِّزاً عن أهل الدِّيانات السَّابقة؛ الَّذين حرَّفوا ، وبدَّلوا ، وغيَّروا؛ كاليهود ، والنَّصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم؛ بل يأمر بمخالفتهم، ويحذِّر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزَّلل،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠١).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٧).
(٣) في ظلال القرآن ج ٢/ ١٣١ ـ ١٣٣ .

والخَطَلِ(١) ، والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجَّه في صلاته بشكلٍ دائم إلى قِبلة أبي الأنبياء ، وهو أوَّل بيتٍ وضع للنَّاس(٢) .

إنَّ لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرةً: منها السِّياسيُّ ، ومنها العسكريُّ ، ومنها الدِّينيُّ البحت ، ومنها التَّاريخيُّ؛ فبعدها السِّياسيُّ: أنَّها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث ، وبعدها التَّاريخيُّ: أنَّها ربطت هذا العالم بالإرث العربيِّ لإبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبُعْدها العسكريُّ: أنَّها مهَّدت لفتح مكَّة ، وإنهاء الوضع الشَّاذِّ في المسجد الحرام ، حيث أصبح مركزُ التَّوحيد مركزاً لعبادة الأصنام ، وبُعْدها الدِّينيُّ: أنَّها ربطت القلب بالحنيفيَّة ، وميَّزت الأمَّة الإسلاميَّة عن غيرها ، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقيَّة الأديان(٣) .

* ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢] .

إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم ، وتمييزكم بشخصيَّتكم من نِعَمِ الله عليكم ، وقد سبقتها آلاء من الله كثيرةٌ عليكم ؛ منها :

ـ ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ : فوجود شخص رسول الله ﷺ ـ إمام المربِّين ، والدُّعاة ـ هو من خصيصة هذه النُّخبة القياديَّة ، الَّتي شرَّفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها؛ فقيه النُّفوس ، وطبيب القلوب ، ونور الأفئدة ، فهو النُّور ، والبرهان ، والحجَّة .

ـ ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ : فالمادة الأساسيَّة للبناء والتَّربية كلام الله تعالى ، وكان يرافقه شحنةٌ عظيمةٌ لنزوله أوَّل الأمر غضّاً طريّاً ، فكان جيلاً متميِّزاً في تاريخ الإنسانيَّة .

ـ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ : فالمعلم المربِّي رسولُ الله ﷺ ، فهو المسؤول عن عمليَّة التَّربية ، وهو الَّذي بَلَغَ من الخُلق ، والتَّطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله تعالى به من هذا الوصف الجامع المانع ، الَّذي تفرَّد به ﷺ من دون البشريَّة كافَّةً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ، وهو الَّذي وصفته عائشة رضي الله عنها ، بأعظم ما يملك بشرٌ أن يصف به نبيّاً ،

(١) الخَطَلُ: الكلامُ الفاسدُ الكثيرُ المضطرب .
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠٠) .
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٤٤٠) .

فقالت: «كان خُلُق نبيِّ الله القرآن» [البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) وأحمد (٦/ ٩١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)] فكان الصَّحابة يسمعون القرآن الَّذي يُتلى من فم رسول الله ﷺ، ويرون القرآن الَّذي يمشي على الأرض، متجسِّداً في خلُقه الكريم ﷺ.

ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فهذه هي المهمَّة الثَّالثة، تعليم الصَّحابة الكرام الكتاب، والحكمة، فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثراً في الأمَّة لا بدَّ من المربِّي الرَّبَّانيِّ الَّذي يزكِّي النُّفوس، ويطهِّر القلوب، ويعلِّمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ؛ فيشرح للمسلمين غامضَه، ويبيِّن مُحْكَمَهُ، ويفصِّل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحِّح خطأ الفهم لهم؛ إن وجد. كان الرَّسول ﷺ، يعلِّم، ويربِّي أصحابه؛ لكي يُعلِّموا، ويربُّوا النَّاس على المنهج الرَّبَّانيِّ، فتعلَّم الصَّحابة من رسول الله ﷺ منهج التَّعليم، ومنهج التَّربية، ومنهج الدَّعوة، ومنهج القيادة للأمَّة من خلال ما تسمع، وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع ﷺ أن يعدَّ الجيل إعداداً كاملاً، ومؤهَّلاً لقيادة البشريَّة، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التَّربية القرآنيَّة، والتَّربية النَّبويَّة إلى كل صُقْعٍ[1]، وأصبحوا شهداء على النَّاس.

ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: ماذا كانوا قبل الوحي والرِّسالة؟ وماذا أصبحوا بعد ذلك؟ كانوا في حروبٍ، وصراعٍ، وجاهليَّةٍ عمياء، وأصبحوا بفضل الله، ومَنِّهِ، وكرمه أمةً عظيمةً، لها رسالةٌ، وهدفٌ في الحياة، لا همَّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وحقَّقوا العبوديَّة لله وحده، والطاعة لله وحده، ولرسوله ﷺ، وانتقلوا من نزعة الفردية، والأنانيَّة، والهوى إلى البناء الجماعيّ، بناء الأمَّة، وبناء الدَّولة، وصناعة الحضارة، واستحقَّت بفضل الله، ومَنِّه أعظمَ وسَامَيْنِ في الوجود[2]، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ـ أيضاً ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ـ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدوِّ، والآصال، وشكره عليها، وحثَّهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على ذكره، وبكرمه يُذكرون في الملأ الأعلى، بعدما كانوا تائهين في الصَّحاري، ضائعين في الفيافي، وحُقَّ لهذه النعم جميعاً أن تُشْكَر[3]!.

---

(١) الصُّقْع: الناحية، والجمع: أَصْقَاع.
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٤٣٨ ـ ٤٤٢).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٤٤٢).

وهكذا الآيات الكريمة تربِّي الصَّحابة من خلال الأحداث العظيمة ، وتصوغ الشَّخصيَّة المسلمة القويَّة ، الَّتي لا ترضى إلا بالإسلام ديناً ، والتَّي تعرَّفت على طبيعة اليهود من خلال القرآن الكريم ، وبدأت تتعمَّق في ثنايا طبيعتهم الحقيقيَّة ، وانتهت إلى الصُّورة الكلِّيَّة النِّهائيَّة ، الَّتي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم ، والتَّربيَة النَّبويَّة . قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

٨ ـ من صفات اليهود في القرآن الكريم :

إنَّ المتتبِّع لتاريخ اليهود ، ومواقفهم مع المصطفى ﷺ يشاهد تلك الأفعال القبيحة ، والأخلاق الرَّذيلة ، الَّتي يتَّصف بها هؤلاء البشر ، ولا غرابة في ذلك ، فهي طبيعة كلِّ آدميٍّ ينسلخ من دينه الصَّحيح ، وعقيدته السَّليمة .

كانت معاناة رسول الله ﷺ والمسلمين من اليهود شديدةً ، وأليمةً ، فالقرآن الكريم تحدَّث عن بعضها ، وكتب السُّنَّة ، والتَّاريخ ، والسِّير حافلةٌ بالأحداث الجسيمة مع اليهود ، وقد تحدَّث القرآن الكريم ، وبيَّنت السُّنَّة النَّبويَّة صفاتهم القبيحة ؛ كالنِّفاق ، وسوء الأدب مع الله ، ورسوله ﷺ ، والمكر ، والخداع ، والمداهنة ، وعدم الانتفاع بالعلم ، والحقد ، والكراهية ، والحسد ، والجشع ، والبُخل ، ونكران الجميل ، وعدم الحياء ، والغرور ، والتكبُّر ، وحبُّ الظهور ، والإشراك في العبادة ، ومحاربة الأنبياء ، والصَّالحين ، والتَّقليد الأعمى ، وكتمان العلم ، وتحريف المعلومات ، والتَّحايل على المحرمات ، والتَّفرُّق ، والطَّبقيَّة في تنفيذ الأحكام ، والرِّشوة ، والكذب ، والقذارة[1] ، وسوف نشير إلى بعض هذه الصِّفات الذَّميمة ؛ التي جاءت في القرآن الكريم .

١ ـ الإشراك في العبادة :

فعبادة اليهود شركيَّةٌ باطلةٌ ؛ حيث يعتقدون : أنَّ لله ولداً ، ويشركون معه في عِبادته غيره ، وقد سجَّل الله ـ عزَّ وجل ـ عليهم بعض مظاهر الإشراك . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١] .

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدِّم ؛ بل عبدوا أنبياءهم ، وصالحيهم ، واتخذوا

---

(١) راجع الرِّسالة القيمة : «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» ، د . عبد الله الشقاري .

قبورهم مساجد ، وأوثاناً يعبدونها من دون الله[1]. قال ﷺ : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» [البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠)] .

٢ ـ محاربة الأنبياء والصَّالحين :

في الوقت الَّذي يقدِّسون فيه أحبارهم ، ورهبانهم إلى درجة العبادة نجدهم في المقابل لا يتورَّعون عن محاربة أنبيائهم ، وصالحيهم ، ويشنُّون عليهم الحملات المغرضة بشتَّى الطُّرق ، والوسائل كافَّةً ، ولا يمتنعون حتَّى عن قتلهم؛ كما فعلوا بزكريا ، ويحيى عليهما السَّلام[2] ، وقد أخبرنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم بذلك ، فبعد أن بيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ ألواناً من العذاب أوقعه عليهم؛ قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] .

٣ ـ كتمانهم العلم ، وتحريفهم للحقائق :

إنَّ كتمان العلم ، وتحريف الحقائق صفتان ملازمتان لليهود من قديم الزَّمن ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ ، فبدَّلوا ، ودخلوا يزحفون على أَسْتَاههم ، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعرةٍ» [البخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥)] .

ومن أعظم العلوم الَّتي كتمها أحبار اليهود ، وحاولوا إخفاء حقيقتها علمُ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة ، وسلام بن مِشْكم ، ومالك بن الصَّيف ، ورافع بن حُريملة ، فقالوا: يا محمد! ألستَ تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم ، ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة ، وتشهد أنَّها من الله حقٌّ؟ فقال رسول الله ﷺ : «بلى؛ ولكنَّكم أحدثتم ، وجحدتم ما فيها ، ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها ، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبيِّنوه للنَّاس ، فَبَرِئْتُ من إحداثكم». قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا ، فإنَّا على الهدى والحقِّ ، ولا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم [ابن هشام (٢/ ٢١٧) وابن جرير في تفسيره (٦/ ٣١٠)]: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] .

٤ ـ التَّفـرُّق :

إنَّ اليهود دائماً ، وأبداً مختلفون في الأفكار ، مفترقون في الأحكام ، تحسبهم جميعاً؛

---

(١) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٥٠٧).
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٥٠٩).

وقلوبهم شتَّى ، تماماً كما وصفهم الباري ـ عزَّ وجل ـ في قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] .

٥ ـ الرِّشوة :

إنَّ من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثَهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها ، بشتَّى السُّبل ، والوسائل ؛ ولو كانت مخالفةً لشرعهم ؛ كدفع الرِّشوة ، والمال الحرام ، فأكل السُّحت من رشوةٍ ، ومال حرامٍ من طباعهم ، وقد وصفهم الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢] .

٦ ـ النِّفاق :

وقد أظهر بعضُ زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة ، وتستَّروا بالنِّفاق ، وقد سجل الله عليهم ذلك في قولـه تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٣ ـ ١٤] .

٧ ـ المداهنة :

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع ، ولا ينكرون المنكر ؛ ولذلك لعنهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسجَّل لعنته عليهم في كتابـه العزيز . قال تعـالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ـ ٧٩] .

٨ ـ عدم الانتفاع بالعلم :

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك ، وصوَّر هذه الصِّفة تصويراً دقيقاً[١] . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] .

٩ ـ الحقد ، والكراهية :

من صفات اليهودِ المستقرَّة في أعماق نفوسهم الحقدُ على كلِّ شيءٍ ليس منهم ، والكراهية

---

(١) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٨٢) .

لكلِّ ما هو غير يهوديٍّ؛ مهما كان نوعه ومصدره، وخاصَّةً إذا كان يمتُّ إلى رسول الله ﷺ بصلةٍ، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت آية تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها؟! [الحاكم (٤/١٤٣ ـ ١٤٤)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

١٠ ـ الحسد:

فقد حسد اليهودُ النَّبيَّ ﷺ على الرِّسالة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الرَّسول الَّذي سيبعث، سيكون منهم، يتجمَّعون حوله، ويقاتلون به أعداءهم، فلمَّا بُعِث الرَّسول ﷺ من غيرهم؛ جُنَّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوةً شديدةً، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان، ونعمة الهدى؛ الَّتي شرح الله صدورهم لها[1]، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٤ ـ ٥]، وسورتا «الفلق» و«النَّاس» تعوَّذ بهما الرَّسول ﷺ حينما سحرته اليهود. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

١١ ـ الغرور والتَّكبُّر:

اتَّصف اليهود بالغرور، والتَّكبُّر على الخلق من قديم الزَّمان، فهم يرون أنَّهم أرقى من النَّاس، وأفضل من النَّاس، ويزعمون أنَّهم شعب الله المختار، ويعتقدون أنَّ الجنَّة لليهود، وأنَّ طريق اليهودية هو طريق الهداية، وسواها ضلالٌ، وقد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه عن هذه الخصلة الذَّميمة فيهم[2]. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] وقد مارسوا ذلك الغرور والتَّعالي على رسول الله ﷺ، بشتَّى الوسائل والصُّور، ومن ذلك هذه الصُّورة[3]:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أتى رسولَ الله ﷺ نُعمانُ بن أضاء، وبَحْريُّ بن عمرو، وشأسُ بن عديٍّ، فكلَّموه، وكلَّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخَوِّفنا يا محمد! نحن أبناء الله، وأحبَّاؤه ـ كقول النَّصارى ـ فأنزل الله تعالى

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٧٠).
(٢) انظر: اليهود في السنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).
(٣) انظر: تفسير الطَّبريِّ (٦/ ١٠٥).

فيهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

١٢ ـ البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلُهم بالمال ، وعدم إنفاقه في سبيل الخير ، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النَّفقة؛ فإنَّكم لا تدرون علامَ يكون[١] ، فأنزل الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ٣٧] أي: من التَّوراة الَّتي فيها تصديق ما جاء به محمَّد ﷺ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩].

١٣ ـ العناد:

برغم قيام الأدلَّة ، والبراهين على صدق نبوَّة ورسالة محمَّدٍ ﷺ ، إلا أنَّ اليهود بسبب عنادهم ، امتنعوا عن الإيمان ، وانغمسوا في الكفر ، والتكذيب؛ لأنَّ العناد يقفل العقول بأقفال الهوى ، وقد بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الصِّفة في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] نعم! لو قدَّمت لهم يا محمد! ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا ، وما غيَّروا ، وما بدَّلوا ، ويصدق فيهم قول الله تعالى[٢]: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

هذه بعض الصِّفات الَّتي تجسَّدت في الشَّخصية اليهوديَّة ، والَّتي أشار القرآن الكريم إليها؛ لنعرف اليهود على حقيقتهم ، حتَّى لا يغترَّ[٣] المسلمون بهم في أيِّ وقتٍ ، أو أيِّ زمانٍ ، أو أيِّ مكانٍ.

رابعاً: (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين):

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ ﷺ لليهود ، وأعطت

---

(١) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨).
(٢) انظر: دراساتٌ في السِّيرة ، ص ١٥١.
(٣) اغْتَرَّ فلانٌ بكذا: خُدِعَ به.

لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة ، وضربت عُرْضَ[(١)] الحائط بمبدأ التَّعصُّب ، ومصادرة الأفكار والمعتقدات ، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ ، ريثما يتسنَّى للرَّسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج ، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم . . وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[(٢)] .

لقد عقد الرَّسول ﷺ مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة ، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة) ، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء ، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسَّةً ـ أن يتخلَّوا عن تلك الصِّفات الذَّميمة ، فنقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال؛ حيث أجلى رسولُ الله ﷺ بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وَقَتَل رجالَ بني قريظة[(٣)] ، وهذا ما سوف نراه ـ بإذن الله تعالى ـ في هذا الكتاب ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود ، فقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٥٦] .

والعهد هنا ما عقده رسولُ الله ﷺ مع اليهود ، من عهودٍ ، ومواثيق ، بألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، كما بيَّن ذلك المفسِّرون[(١)] .

لقد سلك اليهود وسائل عدَّةً ، ومتغايرةً ، ومتنوِّعةً للكيد لرسول الله ﷺ ، والَّذين آمنوا معه ، ومقاومتهم ، إلا أنَّ هذه الوسائل لم تفلح ، ولم تؤتِ ثمارها المرجوَّة منها ، وهي القضاء على جماعة المسلمين ، ودولتهم ، وكيانهم السِّياسيِّ ، فما أسباب ذلك؟

إنَّ ذلك يرجع إلى تلك التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة ، الَّتي غرست معاني الإيمان في القلوب ، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة لله ، وحاربت الشِّرك بجميع أشكاله ، وعلَّمت الصَّحابة الأخذ بأسباب النُّهوض ، والتَّمكين المعنويَّة ، والمادِّيَّة ، فقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ أصحابه على العزَّة ، والنَّخوة ، والرُّجولة ، والشَّجاعة ، ورفض الذلِّ ، ومقاومة الظُّلم ، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود ، وغيرهم؛ بل مقاومتها ، والقضاء عليها ، وعلى أهلها ، فثابروا ، وصابروا ، حتَّى انتصروا على أعدائهم[(٤)] .

كان مكر اليهود في غاية الدَّهاء ، تكاد تزول منه الجبال؛ ولكنَّه لم يفلح مع الرَّعيل الأوَّل ، بسبب القيادة النَّبوية ، والمنهج الرَّبانيِّ الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ[(٥)] .

---

(١) عُرْض الشَّيء : جانبه ، وناحيته . ويقال : ضربَ بالأمر عُرْض الحائط : أهمله ، ولم يُبالِ به .
(٢) انظر : العهد والميثاق في القرآن الكريم ، د. ناصر العمر ، ص ١٢١ .
(٣) انظر : تفسير الطَّبري (٨/ ٣٠) ، والتَّحرير والتَّنوير (١٠/ ٤٨) .
(٤) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ٨٠) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٧٩) .

إنَّ المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخطَّطات اليهوديّة ، ومؤامراتها؛ لبُعْدهم عن المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، وكيفيَّة التَّعامل مع اليهود ، فالأمَّة في أشدِّ الحاجة للقيادة الرَّبانيَّة ، الحكيمة ، الواعية ، الموفَّقة من عند الله ، الخبيرة بأخلاق اليهود ، وصفاتهم ، فتتعامل معهم معاملةً واعيةً ، مستمدَّةً أصولها من السِّياسة النَّبويّة الرَّاشدة ، في التَّعامل مع هذا الصِّنف المنحرف من البشر .

لقد تغلغلت في عصرنا هذا الأصابع اليهوديّة القذرة في مجالاتٍ عديدةٍ من حياة الشُّعوب ، والدُّول ، تلك الأصابع الَّتي تهدف إلى غايةٍ محدَّدةٍ ، هي (الفساد في الأرض) ، وهذا هو التَّعبير القرآنيُّ : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤] .

إنَّ استعمال الفعل المضارع في الآية ، يدل على التَّجدُّد ، والاستمرار ، فليس سعيهم للفساد مرحلةً تاريخيَّةً انتهت؛ لكنَّه قدرهم الكونيُّ إلى يوم يبعثون ، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدَّرات الأمم من خلال كيدهم المدروس ، وفي غيبة الوجود الإسلاميِّ القادر على إحباط مؤامراتهم ، وفضح ألاعيبهم .

إنَّ العبقريّة اليهوديّة في الهدم ، والتخريب ، ليست موضعَ جدلٍ ، تلك العبقرية الَّتي تستغلُّ الأحداث ، وتستثمرها لمصلحتها . إنَّ لليهود وجوداً مؤثِّراً في الدُّول الكبرى ، اقتصاديّاً ، وسياسيّاً ، وإعلاميّاً ، ولم يكونوا غائبين في النِّظامين العالميين : الرَّأسمالية ، والشيوعية ، ولا عن الثَّورات الكبرى في العالم ، وهناك عددٌ من المنظَّمات العالمية ، تبذل جهداً ضخماً في تحقيق أهداف اليهود ، أبرزها (الماسونية) ، و(الليونز) ، و(الرُّوتاري) ، و(شهود يهوه) . . . إلخ .

ألا يحسُّ الباحث الواعي : أنَّ في الأمر نوعاً من المبالغة المقصودة ، أو غير المقصودة؟! هذه الصُّورة الجاثمة في عقول الكثيرين : أنَّ اليهود هم الذين يحرِّكون العالم ، وهم زعماؤه السِّياسيُّون ، ومفكروه ، ومبدعوه و . . . و . . . وأنَّ الشَّخصيات المهمَّة من غير اليهود ، ما هي إلا «أحجار على رقعة الشَّطرنج» على حدِّ تعبير «وليام غاي كار»[١] .

إنَّ هذا الكمَّ الهائل من الكتب الَّتي تتحدَّث عن اليهود ، ودورهم العالمي الخطير تساهم في تهيئة الجوِّ للتسليم بالأمر الواقع ، وتمنح تفسيراً جاهزاً لجميع الهزائم الَّتي مُنِيَتْ[٢] بها الأمَّة ، الهزائم الحضاريّة ، والعسكرية على حدٍّ سواءٍ .

إنَّ إحساس النَّاس بأنَّ كلَّ شيءٍ مدبَّرٌ ، ومُبَيَّتٌ ، ومدروسٌ من قِبَلِ اليهود ، أو محافلهم

---

(١) انظر : قضايا في المنهج ، لسلمان العودة ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٢) مُنِيَ بكذا : ابْتُلِيَ به .

يقعد بهم عن المقاومة ، والمواجهة ، والجهاد. وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أيِّ عدوٍّ آخر ، ينتهج سياسة الإرهاب الفكريِّ ، والعسكريِّ.

هذه الجماعات تجد ـ أحياناً ـ من يُهَوِّل من شأنها ، ويعطيها أكبر من حجمها ، فكلُّ من يتحدَّث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة ، أو يكتب ، أو يحاضر ، فهو مهدَّدٌ في رزقه ، وحياته ، إذاً: فليسكت الجميع حفاظاً على أرزاقهم ، وأرواحهم[1]. إنَّ هذا التَّضخيم الرَّهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقةٌ؛ لأنَّ أولياء الشَّيطان كيدهم مهما عظُم ، وكبُر ضعيفٌ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ، فإنَّ قوَّتهم بسبب ضعف إيماننا ، وبُعْدنا عن منهج ربِّنا؛ لأنَّ الإيمان الصَّحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات ، وتفشل بسببه جميع الخطط ، لكن لا بدَّ من نزع عنصر الخوف الَّذي قتل كثيراً من الهِمَم ، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداثُ تؤكِّد أنَّ (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصَّابرة يتحطَّم الكيد كلُّه؛ يهودياً كان أم غير يهوديٍّ أمام عوامل التصدِّي والنُّهوض. قال تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وهذا لا يعني ـ بحالٍ من الأحوال ـ تجاهل قوَّة العدوِّ ، أو التَّقليل من شأنه ، حتَّى لو كان عدوّاً حقيراً ، فضلاً عن عدو مُدَجَّجٍ ، وقديم (الْمُدَجَّجُ: من عليه سلاحه).

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدوِّ ، فلا نبالغ في تهويل قوَّته بما يوهن قوانا ، ويفتِّت عزيمتنا ، ويُسوِّغ لنا الهزيمة ، وفي المقابل لا نستهين به ، أو نتجاهل وجوده[2]. وستمضي في اليهود وغيرهم سنَّة الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

* * *

(١) انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦.
(٢) انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦ ـ ٨٧.

المبحث الرَّابع
سنَّة التَّدافع وحركة السَّرايا

أولاً: سنَّة التَّدافع:

إنَّ من السُّنن الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ، سنَّةَ التَّدافع، وتظهر جليّاً في الفترة المدنيَّة مع حركة السَّرايا، والبُعوث، والغزوات الَّتي خاضها النَّبيُّ ﷺ ضدَّ المشركين، وهذه السنَّة متعلقةٌ تعلُّقاً وطيداً بالتَّمكين لهذا الدِّين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التَّنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة: أنَّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصِّراع بين الحقِّ والباطل، المتمثِّل هنا في طالوتَ وجنوده المؤمنين، وجالوتَ وأتباعه، ويذيِّل الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ «ممَّا يفيد: أنَّ دفع الفساد بهذا الطَّريق، إنعامٌ يعمُّ النَّاسَ كلَّهم»(١).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنَّه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم، ويختتم الآية بتقريرٍ لقاعدةٍ أساسيَّةٍ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

لقد أدرك الصَّحابة هذه السُّنَّة، وعلموا: أنَّ القضاء على الباطل وتدميره، لابدَّ له من أمَّةٍ لها قيادةٌ ومنهجٌ، وقوَّةٌ تدمغ الباطل، وتزهقه، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاج إلى عزائمَ تنهض به، وسواعدَ تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به. لقد علَّمهم النَّبيُّ ﷺ كيف يتعاملون مع هذه السُّنَّة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد لهذه الأمَّة، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة، لا يبطله جورُ جائرٍ،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرَّازي (٣/ ٥١٤).

ولا عدلُ عادل ، وما تركه قومٌ إلا أذلَّهم الله ، وسلَّط عليهم عدوَّهم . وقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد على مراحل ؛ ليكون أروضَ للنَّفس ، وأكثر ملاءمةً للطَّبع البشري ، وأحسن موافقةً لِسَيْرِ الدَّعوة ، وطريقة تخطيطها[١] ؛ فكان تشريع القتال على مراحل :

المرحلة الأولى : الحظر ، وذلك عندما كان المسلمون في مكَّة ، وكانوا يطالبون النَّبيَّ ﷺ بالإذن لهم في القتال ، فيجيبهم ﷺ : «اصبروا ؛ فإنِّي لم أُؤمر بالقتال» [الكشاف (٤/ ١٩٩)][٢] .

المرحلة الثانية : الإذن به من غير إيجابٍ . قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] .

المرحلة الثالثة : وجوب قتال من قاتل المسلمين . قال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

المرحلة الرابعة : فرض قتال عموم الكفَّار على المسلمين . قال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

إنَّ هذا التدرُّج في حكم القتال ، كان يقتضيه وضعُ الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، وحالة الجيش الإسلاميِّ الَّذي كان آخذاً في التَّكوين ، من حيث العَدد ، والعُدد والتَّدريب ، وما إلى ذلك ، فكان لابُدَّ من مُضيِّ فترةٍ من الوقت ، يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدَّعوة الإسلاميَّة من كفَّار قريش ـ الَّذين آذوا المسلمين ، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم . . يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدَّعوة ، إنَّما هو على سبيل الاختيار ، لا على سبيل الإجبار ، وذلك إلى أن يَصْلُب عودُ الدَّولة الإسلاميَّة ، ويشتدَّ بأسُها ، بحيث تستطيع الصُّمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربيَّة ، حتَّى لو عملت قريش على تأليبها ضدَّ المسلمين ، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال ، في حالةٍ تكون فيها أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة ، والجيش الإسلامي ، على أُهْبَةِ الاستعداد لمواجهة الاحتمالات كافَّةً ، هذا فيما يتَّصل بالقتال الَّذي يتعرَّض فيه المسلمون لكفَّار قريش ، جاء النَّصُّ بالإذن ، أي بالإباحة ، لا بالوجوب ، أمَّا في حالة ما لو تعرَّض المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم ؛ فالقتال هنا فرضٌ ، لا مجال فيه للخيار ، وليس مجرَّد أمرٍ مأذون فيه ، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب ، بيعة العقبة الثَّانية ، الَّتي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر ، والأسود من النَّاس ، في سبيل الذَّود عن الدَّعوة الإسلاميَّة ، وصاحبها ﷺ ، وأتباعها[٣] .

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٤٣٨ .
(٢) انظر : تفسير الألوسي (٦/ ١٠٨) .
(٣) انظر : القتال والجهاد ، لمحمد خير هيكل (١/ ٤٦٣ ، ٤٦٤) .

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسولُ الله ﷺ في تدريب أصحابه على فنون القتال ، والحروب ، واشترك معهم في التَّمارين ، والمناورات ، والمعارك ، وعَدَّ السَّعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات ، وأقدس العبادات ؛ التي يُتَقَرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قام النَّبيُّ ﷺ بتطبيق قول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، وكان منهجه ﷺ في تكوين المجاهد المسلم ، يعتمد على نهجين متوازنين : التَّوجيه المعنويِّ ، والتَّدريب العمليِّ .

١ ـ التَّوجيه المعنويُّ :

كان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين ؛ فيمنحهم أملاً يقينيّاً بالنَّصر ، أو الجنَّة ، ومنذ تلك اللَّحظات وفيما بعد ، ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجنديَّ المسلم في ساحات القتال ، ويدفعه إلى بذل كلِّ طاقاته النَّفسيَّة ، والجسدية ، والفنِّيَّة من أجل كسب المعارك ، أو الموت تحت ظلال السُّيوف[1] ، فمن أقواله ﷺ في حثِّ أصحابه على الجهاد : «والَّذي نفسي بيده! لو لا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي ، ولا أجد ما أحملهم عليه ؛ ما تخلَّفت عن سريَّةٍ تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده! لوددت أنِّي أُقتلُ في سبيل الله ، ثمَّ أُحيا ، ثم أُقتل ، ثمَّ أُحْيا ، ثمَّ أُقتل ، ثمَّ أُحيا ، ثمَّ أقتلُ» [البخاري (٢٧٩٧) والنسائي (٦/٨)] ، وقوله ﷺ : «ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ ، يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيدُ ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مراتٍ ؛ لما يرى من الكرامة» [البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧/١٠٩)] .

٢ ـ التَّدريب العمليُّ :

سعى النَّبيُّ ﷺ إلى اعتماد كلِّ طاقات الأمَّة القادرة على البذل ، والعطاء ، رجالاً ، ونساءً ، وصبياناً ، وشباباً ، وشيوخاً ، وإلى التَّمرُّس على كلِّ مهارةٍ في القتال ، طعناً بالرُّمح ، وضرباً بالسَّيف ، ورمياً بالنَّبل ، ومناورةً على ظهور الخيل ، وكان ﷺ يمزج خَطَّي التَّربية العسكريَّة المتوازنين : التَّوجيه ، والتدريب ، والأمل في النَّصر ، أو الجنة ، وتقديم الجهد في ساحات القتال ، ويحضُّ المسلمين على إتقان ما تعلَّموا من فنون الرِّماية . قال رسول الله ﷺ : «من عَلِمَ الرَّمي ثمَّ تركه ؛ فليس منَّا ، أو : قدْ عَصَى» [مسلم (١٩١٩) وأحمد (٤/١٤٨) وابن ماجه (٢٨١٤)] ، فهي دعوةٌ إلى عموم الأمَّة ، وحتَّى مَنْ دخلوا في سنِّ الشيخوخة ، للتَّدريب على إصابة الهدف ،

(١) انظر : دراساتٌ في السِّيرة ص ١٦١ .

ومهارة اليد ، ونشاط الحركة. إنَّ الإسلام يهتمُّ بطاقات الأمَّة جميعها ، ويوجِّهها نحو المعالي ، وعلوِّ الهمَّة.

وكان ﷺ يهتمُّ بالأعداء على حسب كلِّ ظرفٍ وحالٍ ، ويحثُّ على كلِّ وسيلةٍ يستطيعها المسلمون ، وقد ثبت عنه ﷺ : أنَّه قال: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إنَّ القوَّة الرَّمي! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ!» [مسلم (١٩١٧) وأبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨٨٣)].

إنَّ القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يعلمان المسلمين الإعداد على الأصعدة المعنويَّة ، والماديَّة كافَّةً ، وأن يأخذوا حذرهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وهذا يدلُّ على وجوب العناية بالأسباب ، والحذر من مكائد الأعداء ، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد؛ المتعلِّقة بالأسلحة ، والأبدان ، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة ، وكيفيَّة استعمالها ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم ، والسَّلامة من مكائده ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أطلق الأمر بالإعداد ، وأخْذِ الحذر ، ولم يذكر نوعاً دون نوعٍ ، ولا حالاً دون حالٍ ، وما ذلك إلا لأنَّ الأوقات تختلف ، والأسلحة تتنوَّع ، والعدوَّ يقلُّ ويكثر ، ويضعف ويقوى.

كان الجهاد في فهم الصَّحابة مدرسةً عظيمةً في تزكية النَّفس ، وأيقنوا: أنَّه لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوَّة ، فعليهم أن يخلصوا الله سبحانه في جهادهم ، وأن يعملوا بما آمنوا به ، ودعوا النَّاس إليه ، فقد بيَّن لهم الرَّسول ﷺ خطورة الرِّياء في الأعمال. فقد قال ﷺ : «إنَّ أوَّل النَّاس يُقْضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهدَ ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فعَرَفَها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشْهِدتُ ، قال: كَذبت! ولكنَّك قاتلت؛ لأن يُقال: جَرِيءٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه؛ حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ تعَلَّمَ العلمَ ، وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفها ، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ ، وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القرآن ، قال: كذبتَ! ولكنَّك تعلَّمت العلمَ؛ ليقال: عالمٌ ، وقرأتَ القرآن؛ ليقال: هو قارئٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أمر به ، فسُحب على وجهه ، حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفَها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيه إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ! ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جَوَادٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، ثمَّ أُلقي في النَّار» [مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائي (٦/ ٢٣)].

ولذلك أخلص الصَّحابة في جهادهم لله تعالى؛ طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، فكان كلامهم لله ، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وقدَّموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله ، ومن أجل

إعلاء كلمة الله تعالى ، وكان لجهاد الصَّحابة في سبيل الله تعالى آثارُه العظيمة في تزكية نفوسهم ، والَّتي تتجلَّى في الجوانب التَّالية :

(أ) تحرير النَّفس من حبِّ الحياة ، والتَّعلُّق بها :

الجهاد في سبيل الله تدريبٌ عمليٌّ على الزُّهد في الدُّنيا ، والتَّطلُّع إلى الآخرة ، والتَّشوُّق لما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة ، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلاميُّ في تزكية النَّفس ؛ فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته ، والله سبحانه واهب الأنفس ، والأموال ، ومالكُها ، يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم ؛ إذا بذلوها في سبيله[١] .

قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١١ ـ ١١٢] .

(ب) تمحيص النَّفس ، وتدريبها على الصَّبر ، والفداء :

أيقن الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ ﷺ لهم : أنَّ الجنَّة محفوفةٌ بالمكاره ، ولا تُنال براحة البدن ، ولابدَّ من تعويد النَّفس على المشاقِّ ، والصِّعاب ؛ ليقوى بنيانها ، وتصمد في وجه الشَّدائد ، والأهوال ، وتدع الخمول ، والكسل ، والتَّواني ، وتعلَّمُوا من القرآن الكريم : أنَّ حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرَّض النُّفوس للتَّمحيص ؛ ليظهر ثباتها ، ويستقيم حالها ، وأنَّ ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص[٢] .

قال تعالى : ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ـ ١٤٣] .

(ج) الجهاد عزَّةٌ للنَّفس ، وقوَّةٌ لها :

وتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من الهدي النَّبويِّ الكريم : أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى

---

(١) منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/ ٢٩٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٩٤) .

وسيلةٌ عظيمةٌ لتنمية العزَّة في نفس المسلم ، وتقوية كيانها ، وتطهيرها من الذِّلَّة ، والمهانة ، والخمول ، وغير ذلك من الصِّفات المهلكة للفرد ، والمجتمع ، فقد بيَّن لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنَّ المؤمن عزيز الجانب ؛ لأنَّه يستمدُّ العزَّة من إيمانه بربه ، وتمسُّكه بدينه ؛ قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

فإذا تخلَّى المسلم عن الجهاد ، وشُغل بالدُّنيا عن الآخرة ؛ تعوَّدت نفسه الذِّلَّة ، والهوان ، والاستكانة ، والخُنُوع (أي : الذُّلَّ ، والخضوع) قال ﷺ : «إذا تبايعتم بالعينة[1] ، وأخذتم أذناب البقر[2] ، ورضيتم بالزَّرع ، وتركتُم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم» [أبو داود (٣٤٦٢) وأحمد (٢/ ٤٢ و٨٤)] .

ويُخشى على منْ جعل الدُّنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧ ـ ٨] .

وقد قال ﷺ : «مَنْ مات ؛ ولم يَغْزُ ، ولم يُحَدِّث به نَفْسَه ؛ مات على شعبةٍ من نفاقٍ» [مسلم (١٩١٠) وأحمد (٢/ ٣٧٤) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٦/ ٨)] .

إنَّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، سلكوا طريق الجهاد بأنواعه ، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

ثانياً : من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى :

١ ـ حماية حرية العقيدة :

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال : ٣٩ ـ ٤٠] .

قال صاحب الظِّلال : «هناك واجبٌ آخر على الجماعة المسلمة ، وهو أن تُحَطِّم كلَّ قوَّةٍ تعترض طريق الدَّعوة ، وإبلاغها للنَّاس في حرِّيَّةٍ ، أو تهدِّد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن النَّاس عنها ، وأن تظلَّ تجاهد حتَّى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنةٍ لقوَّةٍ في الأرض ، ويكون الدِّين لله ؛ لا بمعنى إكراه النَّاس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدُّخول ، ولا يخاف قوَّةً في الأرض تصدُّه عن دين الله أن

---

(١) أي : أن يبيع الرَّجل لغيره سلعةً ، ثم يشتريها منه بثمنٍ أقلَّ .
(٢) معناه : اتخذتم الماشية للحرث والرَّي ، وعكفتم على ذلك ، فلم تنشغلوا إلا به .

يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ ، أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلّهم عن سبيل الله بأيّة وسيلةٍ ، وبأيّة أداةٍ ، وفي حدود هذه المبادئ العامَّة كان الجهاد في الإسلام . إنَّه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها ، وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الأرض؛ بحيث يَرْهَبُها من يهمُّ بالاعتداء عليها ، وبحيث يلجأ إليها كلُّ راغبٍ فيها ، لا يخشى قوَّةً أخرى في الأرض تتعرَّض له ، أو تمنعه ، أو تفتنه .

وهذا هو الجهاد الوحيد الَّذي يأمر به الإسلام ، ويقرُّه ، ويثبت عليه ، ويَعْتَبِر الَّذين يقاتلون فيه شهداء ، والَّذين يَحْتَمِلون أعباءه أولياء»[1] .

٢ ـ حماية الشَّعائر ، والعبادات :

قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٨ ـ ٤١] .

قال النَّسفي ـ رحمه الله! ـ: «أي: لولا إظهاره ، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة؛ لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبَّداتهم ، فهدموها ، ولم يتركوا للنَّصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلواتٍ؛ أي: كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمَّة محمَّدٍ ﷺ على المسلمين ، وعلى أهل الكتاب الَّذين في ذمَّتهم ، وهدموا متعبَّدات الفريقين ، وقدَّم غير المساجد عليها؛ لتقدُّمها وجوداً ، أو لقربها من التَّهديم»[2] .

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢] .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٨٧) .

(٢) تفسير النَّسفي (٣/ ١٠٦) ، والكشَّاف (٣/ ١٦) ، وتفسير المراغي (٦/ ١١٩) .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ «أي: لولا الله يدفع عن قومٍ بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود؛ لهلكوا»(١).

وقال صاحب الكشَّاف في تفسير هذه الآية: «ولولا أنَّ الله يدفع بعض النَّاس ببعض، ويكفُّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطَّلت مصالحها؛ من الحرث، والنَّسل، وسائر ما يعمر الأرض»(٢).

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي في تفسيره: «إنَّ في هذه الآية عبراً كثيرةً للأمَّة؛ منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنَّه السَّبب الوحيد في حفظ الدِّين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان، والأموال، وأنَّ المجاهدين ولو شقَّت عليهم الأمور؛ فإنَّ عواقبهم حميدةٌ، كما أنَّ النَّاكلين ولو استراحوا قليلاً؛ فإنَّهم سيتعبون طويلاً»(٣).

٤ ـ الابتلاء، والتَّربية، والإصلاح:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد، وقتال الأعداء، ليختبركم، وليبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران، وبراءة، في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢](٤).

قال صاحب الظِّلال: «إنَّما يتَّخذ الله المؤمنين ـ حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار، وشدِّ وثاقهم بعد إثخانهم إنَّما يتَّخذهم سبحانه ـ ستاراً لقدرته، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرةً، كما انتصر منهم من غير هـذه الأسباب كلِّهـا؛ ولكنَّه إنَّما يريد لعباده المؤمنين الخير. قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهو يبتليهم، ويربِّيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).
(٢) تفسير الكشَّاف (١/ ٣٨٢)، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٢٤٥).
(٣) تفسير السَّعدي (١/ ٣٠٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٤).

أ ـ يريد ليبتليهم: وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النَّفس البشرية من طاقاتٍ، واتِّجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحقُّ؛ الَّذي تؤمن به، حتَّى تجاهد في سبيله، فتقتُل، وتُقتل، ولا تسلِّم في هذا الحق الذي تعيش له، وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحبُّ هذه الحياة في غير ظلِّه.

ب ـ ويريد ليربيهم: فيظلُّ يُخرج من نفوسهم كلَّ هوىً، وكلَّ رغبةٍ في أعراض هذه الأرض الفانية ممَّا يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه، ويظلُّ يقوِّي في نفوسهم كلَّ ضعفٍ، ويكمل كلَّ نقصٍ، وينفي كلَّ زَغلٍ[1]، ودَخل، حتَّى تصبح رغائبهم كلُّها في كفَّةٍ، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتَّطلُّع إلى وجه الله، ورضاه، وتشيل تلك[2]، ويعلم الله من هذه النُّفوس: أنَّها خُيِّرت، فاختارت، وأنَّها تربَّت، فعرفت، وأنَّها لا تندفع بلا وعيٍ؛ ولكنَّها تقدِّر، وتختار.

ج ـ ويريد ليصلحهم: ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتَّعرُّض للموت في كلِّ جولةٍ ما يعوِّد النَّفس الاستهانة بخطر المخوِّف، الَّذي يكلف النَّاس الكثير من نفوسهم، وأخلاقهم، وموازينهم، وقيمهم، ليتَّقوه، وهو هيِّنٌ، هيِّنٌ عند من يعتاد ملاقاته، سواءٌ سَلِمَ منه، أو لاقاه، والتَّوجُّه به لله في كلِّ مرَّةٍ، يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقرِّبه للتَّصوُّر فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنَّه صياغةٌ جديدةٌ للقلوب والأرواح، على صفاءٍ، ونقاءٍ، وصلاح.

ثـمَّ هي الأسباب الظَّاهرة لإصلاح الجماعة البشريـة كلِّها عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين؛ الَّذين فرغت نفوسهم من كلِّ أعراض الدُّنيا، وكلِّ زخارفها، وهانت عليهم الحياة؛ وهم يخوضون غِمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله، والتَّطلُّع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلُّهـا، ويصلح العبـاد، ويصبح عزيزاً على هـذه الأيدي أن تسلِّم راية القيادة للكفر، والضَّلال، والفساد، وهي قد اشترتها بالدِّماء، والأرواح، وكلُّ عزيزٍ، وغالٍ أرخصته لتتسلَّم هذه الراية، لا لنفسها، ولكن لله»[3].

٥ ـ إرهاب الكفَّار، وإخزاؤهم، وإذلالهم، وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ

---

(١) الزَّغلُ: الغِشُّ.

(٢) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفَّتيه، انظر: لسان العرب (١١/ ٣٧٥).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٦).

عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧ ـ ١٨].

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: «أي: لابدَّ أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليُّه، ويفتضح فيه عدوُّه، يعرف به المؤمن الصَّابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أُحُد، الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانُهم، وصبرُهم، وجلَدُهم، وثباتُهم، وطاعتُهم لله، ورسوله ﷺ، وهتك به سِتْرَ المنافقين، فظهر مخالفتُهم، ونكولُهم عن الجهاد، وخيانتهم لله، ولرسوله ﷺ»[١].

٧ ـ إقامة حكم الله، ونظام الإسلام في الأرض:

إنَّ إقامة حكم الله في الأرض هدفٌ من أهداف الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إنَّ من أهداف الجهاد في الإسلام دفعَ عدوان الكافرين، وهذا العدوان أنواعٌ؛ منها:

أ ـ أن يعتدي الكفَّار على فئةٍ مؤمنةٍ مُسْتَضْعفةٍ في أرض الكفار، لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلادٍ تأمن فيها على دينها: فإنَّ الواجب على الدَّولة الإسلاميَّة، أن تعدَّ العدة لمجاهدة الكفار؛ الَّذين اعتدوا على تلك الطَّائفة، حتَّى يخلِّصوها من الظُّلم، والاعتداء الواقع عليها[٢].

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٥].

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«حضٌّ على الجهاد، وهو يتضمَّن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدِّين ؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء من عبادِه ، وإن كان في ذلك تلفُ النُّفوس . وتخليص الأُسارى واجبٌ على جماعة المسلمين ؛ إمَّا بالقتال ، وإمَّا بالأموال ، وذلك أوجب لكونها دون النُّفوس ؛ إذ هي أهون منها»(١) .

ب ـ أن يعتدي الكفَّار على ديار المسلمين : قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢] .

نصَّ الفقهاء على أنَّه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين ؛ يتعيَّن الجهاد للدِّفاع عن الدِّيار ؛ لأنَّ العدوَّ إذا احتلَّها سام المسلمين عذاباً ، ونفَّذ فيها أحكام الكفر ، وأجبر أهلها على الخضوع له ، فتصبح دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلام .

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «ويتعيَّن الجهاد في ثلاثة مواضع : . . . الثاني : إذا نزل الكفار ببلدٍ معيَّنٍ على أهله قتالُهم ، ودفعُهم»(٢) .

وقال بعض علماء الحنفيَّة : «وحاصله : أنَّ كلَّ موضعٍ خيفَ هجوم العدوِّ منه ، فُرِض على الإمام ، أو على أهل ذلك الموضع ، حفظُه ، وإن لم يقدروا فُرِض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدوِّ»(٣) .

ج ـ أن ينشر العدوُّ الظُّلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً ـ: إنَّ الله سبحانه حرَّم على عباده الظلم ، والعدلُ في الأرض واجبٌ لكلِّ النَّاس ، وإذا لم يدفع المسلمون الظُّلم عن المظلومين ؛ أثِموا ؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض ؛ لإحقاق الحقِّ ، وإبطال الباطل ، ونشر العدل ، والقضاء على الظُّلم ، ولا فلاح لهم إلا بذلك ، وهو الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وما كانوا خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٩).
(٢) انظر : المغني (٩/ ٢٧٩).
(٣) انظر : حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

ومن العدل كفُّ الظُّلم عن المظلوم الكافر ، الَّذي يبغضه المسلم لكفره. قال السَّرخسيُّ ـ رحمه الله! ـ: «وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذِّمَّة على أن يُتْرَكَ يحكم في أهل مملكته بما شاء؛ من قتلٍ ، أو صَلْبٍ ، أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام؛ لم يُجَبْ إلى ذلك؛ لأنَّ التقرير على الظُّلم مع إمكان المنع منه حرامٌ»(١).

د ـ الوقوف ضدَّ الدُّعاة إلى الله ، ومنعهم من تبليغ دعوة الله: إنَّ المسلمين مفروضٌ عليهم من قِبَل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبلِّغوا رسالات الله للنَّاس كافَّةً. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأعداء الله يصدُّون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ، ولا يتركون لهم سبيلاً إلى النَّاس ، كما لا يأذنون للدُّعاة أن يُسْمِعوا النَّاس دعوة الله ، ويضعون العراقيل ، والعوائق ، والحواجز ، بين الدَّعوة ، ودعاتها ، والناس ، ولذلك أوجب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده المؤمنين ، قتال كلِّ مَنْ يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى(٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ ـ ٤].

وممَّا تقدَّم يتَّضح لنا أنَّ للجهاد أهدافاً ساميةً ، ومصالح كريمةً ، وفوائدَ عظيمةً تتحقَّق للمسلمين وغيرهم ، وأنَّ الجهاد من آثار الهجرة ، ونتائجها المهمَّة ، وأنَّه من الدَّعائم؛ الَّتي أقامها الرَّسول ﷺ لبناء الدَّولة الإسلاميَّة ، وتوطيد أركان الإسلام(٣)؛ وذلك «لأنَّ الأمَّة بغير جيشٍ قويٍّ عرضةٌ للضَّياع؛ إذ يطمع فيها أعداؤها ، ولا يهابون قوَّتها ، فإذا كان لها جيشٌ قويٌّ احترم العدوُّ إرادتها ، فلا تحدِّثه نفسه باعتداءٍ عليها؛ فيسود عند ذلك السَّلام»(٤).

ثالثاً: أهم السَّرايا ، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى:

بمجرَّد الاستقرار الَّذي حصل للمسلمين بقيادة الرَّسول ﷺ في المدينة ، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابدَّ أن يتنبَّه المسلمون ، وقيادتهم إلى الوضع حولهم ،

(١) انظر: المبسوط ، للسَّرخسي (١٠/ ٨٥).
(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم ، للصَّلابي ، ص ٤٨٨.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٤٥٣.
(٤) الحركات العسكريَّة للرَّسول الأعظم ﷺ في كفتي الميزان ، لسيف الدِّين ، ص ٦٢.

وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدَّعوة ، وكان لابدَّ أن تنطلق الدَّعوة الإسلاميَّة إلى غايتها الَّتي أرسل الله محمَّداً ﷺ بها ، وتحمَّل هو وأصحابه في سبيلها المشاقَّ الكثيرة .

إنَّ موقف قريشٍ في مكَّة من أهم الأمور الَّتي يجب أن تعالجها قيادة المدينة ؛ لأنَّ أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيانٌ ـ ولو كان في المدينة ـ لأنَّ ذلك يهدِّد كيانهم ، ويُقوِّض[١] بنيانهم ، فهم يعلمون أنَّ قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهليَّة ، وعادات الآباء ، والأجداد ، فلابدَّ من الوقوف في وجهه .

وقد بذلت مكةُ ، وأهلُها المحاولات الكثيرة ؛ لعدم وصول النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة ، واتَّخذت مواقف عدائيَّةً لضرب الإسلام ، والقضاء على المسلمين[٢] ، واستمرَّ هذا العداء بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ ، ومن أهم المواقف الدَّالة على ذلك : أنَّ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حـدَّثَ عن سعد بن معـاذ : أنَّـه قال : كـان صديقـاً لأميـة بن خَلف ، وكـان أُمَيَّةُ إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّةَ ، فلمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، انطلق سعد معتمراً ، فنزل على أُميةَ بمكَّةَ ، فقال لأُميةَ : انظر لي ساعةَ خَلوةٍ ، لعلِّي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من نصف النَّهار ، فلقيهما أبو جهل ، فقال : يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال : هذا سعدٌ . فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكَّة آمناً ، وقد أويتم الصُّبَأة[٣] ، وزعمتم : أنَّـكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان ؛ ما رجَعْتَ إلى أهلك سالماً . فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ : أما والله! لئن منعتني هذا ، لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه ، طريقَك على المدينة . . . » [البخاري (٣٩٥٠)] وفي روايةٍ عند البيهقيِّ [دلائل النبوة (٣/ ٢٥)] : «والله! لئن منعتني أن أطوف بالبيت ، لأقطعنَّ عليك متجرَك إلى الشَّام» .

تدلُّ هذه الواقعة على أنَّ (أبا جهلٍ) ، يَعْتَبِرُ (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنِّسبة إلى قريش ، ولولا أنَّه دخل مكة في أمان زعيمٍ من زعمائها ؛ لأهدر دمه ، وهذا تصرُّف جديدٍ من رؤساء مكَّة حيال أهل المدينة ، لم يكن قبل الدَّولة الإسلاميَّة فيها ؛ فلم يكن أحدٌ من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمانٍ ؛ لكي يُسْمَحَ له بالدُّخول إلى مكَّة! بل إن قريشاً كانت تكره أن تفكِّر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد ، وقالوا في هذا الصَّدد ، يخاطبون أهل المدينة ما نصُّه : «والله! ما مِنْ حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[٤] ، كما تدلُّ هذه القصَّة ، على أنَّ قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشَّام كانت

---

(١) قَوَّض البناء : هَدَمَه ، وتَقَوَّضت الصُّفوف والمجالسُ : تفرَّقت .
(٢) انظر : مرويات غزوة بدر ، لأحمد باوزير ، ص ٧٩ .
(٣) جمع صابئ : أي الخارج عن دينه . وكان المشركون يسمُّون من أسلم صابئاً .
(٤) انظر : سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢) .

في أمانٍ حتَّى حدوث هذه الواقعة ، لم تتعرَّض لها الدَّولة الإسلاميَّة بمكروهٍ؛ أي: أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة حتَّى هذا الوقت لم تعامل أهل مكَّة معاملة أهل الحرب ، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصاديَّ ، ولم تصادر لهم أيَّة قافلةٍ ، أو تقصدها بسوءٍ! ومعنى هذا أنَّ الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكَّة هي الَّتي بادرت ، وأعلنت الحرب على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، واعتبرت المسلمين أهلَ حرب ، لا يُسْمح لهم بدخول مكَّة إلا بصفة مُسْتأمَنين[١].

ودليلٌ آخر على مبادرة رؤساء مكَّة إلى إعلان الحرب ، على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ : أنَّ كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيٍّ) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج؛ ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا ، وإنَّا نقسم بالله! لتُقاتِلنَّه ، ولتُخرجُنَّه ، أو لَنَسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتَّى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبيِّ ﷺ ، فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ؛ لَقِيَهم ، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم!» فلمَّا سمعوا ذلك من النَّبيِّ ﷺ ؛ تفرَّقوا. [أبو داود (٣٠٠٤) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠)] .

وهنا تظهر عظمة النُّبوَّة ، وعظمة القائد المربِّي ﷺ ؛ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها ، وضرب على وتر العزَّة القبليَّة؛ فقد كان ﷺ يدرك أغوار النَّفس البشريَّة الَّتي يتعامل معها؛ ولذلك كان خطابه مؤثِّراً في نفوس مشركي يثرب ، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم ، في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصفِّ الإسلاميِّ ، وزعزعة بنيانه الدَّاخلي ، وبعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة ، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال؛ صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريشٍ حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه ، فقد اتَّجه نشاط الرَّسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدَّولة ، والردِّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتَّجه نشاطه ﷺ نحو إرسال السَّرايا، والخروج في الغزوات[٢] ، فكانت تلك السَّرايا ، والغزوات الَّتي سبقت بدر الكبرى؛ ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبْوَاء:

أولى الغزوات الَّتي غزاها النَّبيُّ ﷺ غزوة الأبواء[٣] ، وتُعْرَف بغزوة وَدَّان[٤] أيضاً ، وهما

(١) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).

(٢) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).

(٣) قيل: سمِّيت بذلك لما فيها من الوباء.

(٤) ودَّان: قرية قريبة من الأبواء.

موقعان متجاوران بينهما ستة أميال ، أو ثمانية ، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ بل تمَّت موادعة بني ضمرة (من كنانة) ، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة) ، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ ، وراجلٍ[١] .

٢ ـ سرية عُبَيْدة بن الحارث :

وهي أوَّل رايةٍ عقدها رسول الله ﷺ[٢] ، وكان عدد السَّرِيَّة ستِّين من المهاجرين ، وكانت قوَّة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ ، وراجلٍ ، وكان قائدَ المشركين أبو سفيان بن حرب ، وحصلت مناوشاتٌ بين الطَّرفين على ماءٍ بوادي رابغ ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ ، فكان أوَّل سهمٍ رُمِيَ به في الإسلام ، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[٣] .

٣ ـ سريَّة حمزة بن عبد المطلب :

قال ابن إسحاق: وبعث النَّبيُّ ﷺ في مقامه ذلك ـ أي لمَّا وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف[٤] البحر[٥] من ناحية العيص[٦] ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل ، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مكَّة ، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنيُّ ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال[٧] .

٤ ـ غزوة بُوَاط[٨] :

وكانت غزوة رسول الله ﷺ بُواط في شهر ربيع الأوَّل ، في السَّنة الثَّانية من مُهَاجره ، وخرج في مئتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش ، كان فيها أميَّة بن خلف ، في مئة رجلٍ ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ ، فلم يلق النَّبيُّ ﷺ كيداً؛ فرجع إلى المدينة .

---

(١) انظر: جيش النَّبي ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٥٤ ، والرَّاجل: خِلاف الفارس ، والجمع: رَجَّالةٌ .
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٧) .
(٣) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ ، د. محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠) .
(٤) سيف: السِّيف ـ بالكسر ـ: الشاطئ والسَّاحل ، والجمع: أسياف .
(٥) سيف البحر: ساحله من ناحية العيص .
(٦) العيص ـ بالكسر ـ: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .
(٧) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٩٥) .
(٨) بُواط ـ بفتح الموحدة وضمِّها ـ: جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع .

٥ ـ غزوة العُشَيرة[١]:

وفيها غزا ﷺ قريشاً ، واستعمل على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسد ، وسُمِّيت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة ، فأقام بها جُمَادَى الأولى ، وليالي من جُمادى الآخرة ، وادع فيها بني مُدْلِج ، وحلفاءهم من بني ضَمْرة ، ثمَّ رجع إلى المدينة ، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك: أنَّ العير الَّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ ، ذاهبةً إلى الشَّام[٢] ، فساحلت على البحر ، وبلغ قريشاً خبرُها ، فخرجوا يمنعونها ، فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى[٣].

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاصٍ:

وبعد غزوة العُشيرة ، بعث النَّبيُّ ﷺ سعد بن أبي وقَّاص ، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتَّى بلغ الخَرَّار[٤] من أرض الحجاز ، ثمَّ رجع ، ولم يلقَ كيداً[٥].

٧ ـ غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْزَ بنَ جابر الفِهريَّ ، قد أغار على سَرْحِ[٦] المدينة ، ونهب بعض الإبل، والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، حتَّى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان ، من ناحية بدرٍ ، وفاتَه كُرْزُ بن جابرٍ ، فلم يدركه ، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[٧].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسديِّ إلى نَخْلة[٨]:

وأرسل النبيُّ ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رَهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع ، والتَّعرف على أخبار قريش؛ لكنَّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريَّةٍ لقريش ، فظَفِرُوا بها ، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرمي ، وأسروا اثنين من رجالها ، هما: عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كَيْسان ، وعادوا بهما إلى المدينة ، وقد توقَّف النَّبيُّ ﷺ في هذه الغنائم ، حتَّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ

---

(١) العشيرة: موضع بين مكَّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر. (مراصد الاطلاع: ٢/ ٩٤٣).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١).

(٤) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر: (مراصد الاطلاع: ١/ ٤٥٥).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠).

(٦) السَّرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

(٧) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠١).

(٨) نخلة اليمانية: وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين.

وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلمَّا نـزل القرآن الكريم؛ قبـض رسولُ الله ﷺ العيـر ، والأسيريـن ، وفي سرية عبد الله هـذه غنم المسلمون أوّل غنيمـة ، وعمرو بـن الحَضْرَمي أوّل قتيلٍ قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان أوّل من أسر المسلمون[١].

رابعاً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ متى شُرِع الجهاد؟

ذهب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد أبو شهبة إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة ، وعلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السَّنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدِّينيَّة ، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويَّ ، وأمور معايشهم ، وطرق اكتسابهم ، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التآخي بينهم ، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم[٢]. وذهب الأستاذ صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السَّنة الأولى للهجرة[٣].

٢ ـ الفَرْق بين السَّرية ، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّيَر في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ ﷺ ليلقى عدوَّه غزوةً ، سواءٌ حدث فيها قتالٌ ، أم لم يحدث ، وسواءٌ كان عددها كبيراً ، أم صغيراً. ويطلقون على كل مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ ﷺ لاعتراض عدوٍّ كلمة: (سَرِيَّة) أو: (بعث) ، وقد يحدث فيها قتالٌ ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه ، أو غيره ، وغالباً ما يكون عدد الَّذين يخرجون في السَّرايا قليلاً؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدةٌ في مناوشة العدوِّ ، وإخافته ، وإرباكه ، وقد قاد رسولُ الله ﷺ سبعاً وعشرين غزوةً ، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٤٣) ، وقد كانت هذه السَّريَّة في شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحُرم ، فلمَّا كانوا في آخر يوم من رجب وتعرضوا لهذه القافلة ، تشاوروا ، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب ، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم ، ثمَّ اجتمعوا على اللِّقاء ، فقتلوا ، وأسروا ، وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الآية.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٧٥ ، ٧٦).

(٣) انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٥.

وثلاثين سريَّةً ، وبعثاً ، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمْرِ الأمم ، بلغت عَشْرَ سنواتٍ من الزَّمن[١] .

٣ ـ تعداد سكَّان المدينة ، وعلاقته بالسَّرايا :

أمر النَّبيُّ ﷺ بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السَّنة الأولى من الهجرة ، وبعد المؤاخاة مباشرةً ، وكان الإحصاء للمسلمين فقط ، أو حسب نصِّ أمر رسول الله ﷺ حينما قال: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة رجلٍ[٢] ، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ ، واستغرابٍ: «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنهم كانوا قبلُ لا ينامون إلا ومعهم السِّلاح؛ خوفاً على أنفسهم ، وكان رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر[٣] ، وبعد هذا التَّعداد مباشرةً ، بدأت السَّرايا ، والغزوات ، وهذا الإجراء الإحصائيُّ يدخل ضمن الإجراءات التَّنظيميَّة في تطوير الدَّولة النَّاشئة[٤] .

٤ ـ حراسة الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ الشَّخصيَّة :

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يحرسون النَّبيَّ ﷺ حراسةً شخصيَّةً ، فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أَرِقَ النَّبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، فقال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يَحْرُسُني اللَّيلة»؛ إذ سمعنا صوتَ السِّلاح ، قال: «مَنْ هذا؟» قال: سعدٌ يا رسولَ الله! جئتُ أحْرُسُك ، فنام النَّبيُّ ﷺ حتَّى سمعنا غَطيطه» [البخاري (٢٨٨٥ و٧٢٣١) ومسلم (٢٤١٠)] ، وكان ذلك قبل غزوة بدرٍ الكبرى[٥] . وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية الاحتراس من العدوِّ ، والأخذ بالحزم ، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط ، وأنَّ على النَّاس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل ، وفيه الثَّناء على مَنْ تبرَّع بالخير ، وتسميته ، وإنَّما عنَى النَّبيُّ ﷺ ذلك مع قوَّة توكُّله؛ للاستنان به في ذلك[٦] .

٥ ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضَمْرَة والتعليق عليها :

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا كتابٌ من محمَّدٍ رسول الله ، لبني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، بأنَّهم آمنون على أموالهم ، وأنفسهم ، وأنَّ لهم النَّصر على مَنْ رامهم؛ إلا أن

---

(١) في ظلال السيرة ـ غزوة بدر ، لأبي فارس ، ص ١٢ .
(٢) انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، ص ٦٥ .
(٣) انظر: الرَّوض الأنف (٥/ ٤٣).
(٤) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٦٣ .
(٥) انظر: تفسير القرطبيِّ (٦/ ٢٣٠).
(٦) انظر: ولاية الشرطة في الإسلام ، د. عمر محمد الحميداني ، ص ٦٣ .

يُحارِبُوا دين الله ، ما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً[١] ، وأنَّ النَّبيَّ إذا دعاهم لنُصْرة ؛ أجابوه ، عليهم بذلك ذمَّة الله ، وذمَّة رسوله ، ولهم النَّصرُ على مَنْ برَّ منهم ، واتَّقى»[٢] .

انتهز النَّبيُّ ﷺ في غزوة الأبْواء فرصةً ذهبيَّةً ، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة ، فقد كان موقع بلاده ذا قيمةٍ عسكريَّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ في الصِّراع بين الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وقريش ؛ ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم ، في حالة وقوع صدام مسلَّح بين المدينة ، وأهل مكَّة ، وكانت خطَّته ﷺ حتَّى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعاتٍ صغيرةٍ من المهاجرين ، وخاصَّةً أنَّ هذه القوافل كانت غير مصحوبةٍ بجيشٍ يحميها ، وهو أمرٌ لم تفكِّر فيه قريش حتَّى تلك اللَّحظة[٣] .

كان قُرْبُ بني ضَمْرَة ، وحلفائهم من المدينة ؛ الَّتي كانت سوقَهم ، ومصدرَ رزقهم قد وضعهم في موقفٍ لا يسمح لهم بأيِّ مسلكٍ غير موادعة الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وهو حلف عدم اعتداءٍ وفق المصطلح الحديث[٤] .

وقد دلَّت هذه الموادعة على أنَّ مقتضيات السِّياسة الشَّرعيَّة ، قد تدفع المسلمين إلى التَّحالف العسكريِّ ، أو الاقتصاديِّ ، أو التِّجاريِّ ، مع أيٍّ من الكتل القائمة ، وأنَّ التَّحالف السِّياسيَّ له أصلٌ في الشَّريعة ، وضرورةٌ يوجبها استهدافُ رفع الضَّرر الحاصل ، أو المرتقب[٥] ، وأنَّ التَّحالف مبنيٌّ على قاعدة رفع الضَّرر ، والمصلحة المشتركة ، وأن تكون لأصل الحلف غايةٌ شرعيَّةٌ معلومةٌ ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرارٌ ، ورأيٌ ، أما إذا كانوا أتباعاً ، ومنفذين ـ كما في الأحلاف الحديثة ـ فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشَّرعيُّ ، وعلى قيادة الأمَّة أن تستوعب هدي النَّبيِّ ﷺ في حركته السياسية ، وأن تفهم القاعدة الشَّرعيَّة ؛ الَّتي تقول: «لا ضرر ولا ضرار» [ابن ماجه (٢٣٤١) وأحمد (١/٣١٣) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٨٩)][٦] .

يقول الشَّيخ مصطفى الزَّرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ، ما نصُّه :

«وهذه القاعدة من أركان الشَّريعة ، وتشهد لها نصوصٌ من الكتاب والسنَّة ، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عامّاً ، أو خاصّاً ، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية

(١) كناية عن التأبيد والاستمرار.

(٢) الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٢٢٠ رقم (١٥٩).

(٣) انظر : نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشريف ، ص ٤٣ .

(٤) انظر : الفقه السِّياسي ، لخالد سليمان الفهداوي ، ص ١١٩ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٤ .

(٦) هذه القاعدة أصلها حديثٌ نبويٌّ .

الممكنة ، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التَّدابير الَّتي تزيل آثاره ، وتمنع تكْرَاره ، كما يدلُّ على وجوب اختيار أهون الشَّرَّين ؛ لدفع أعظمهما ؛ لأنَّ في ذلك تخفيفاً للضَّرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً»[(١)] .

إنَّ هذه الموادعة توضِّح جواز عقد الدَّولة الإسلاميَّة معاهدةً دفاعيَّةً بينها وبين دولةٍ أخرى ، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين ، ولم يترتَّب أيُّ ضررٍ على مثل هذه المعاهدة ، ويجب على الدَّولة الإسلاميَّة في هذه الحال ، نصرة الدَّولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النُّصرة ضدَّ الكفار المعتدين ، كما يجوز للدَّولة الإسلاميَّة أن تطلب من الدَّولة الحليفة إمدادها بالسِّلاح ، والرِّجال ؛ ليقاتلوا تحت راية الدَّولة الإسلاميَّة ، ضدَّ الأعداء من الكفَّار[(٢)] .

وقد شرط النَّبيُّ ﷺ على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله ؛ حتَّى يكون لهم النَّصر على من اعتدى عليهم ، أو حاول الاعتداء .

وفي هذا إبعادٌ للعقبات ؛ الَّتي يمكن أن تقف في طريق الدَّعوة ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضَمرة ألا يحاربوا هذا الدِّين ، أو يقفوا في طريقه[(٣)] ، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسيّاً وعسكريّاً للمسلمين ، لا يستهان به[(٤)] .

٦ ـ (وإنِّي لأوَّل رجلٍ رمَى بسهمٍ في سبيل الله)[(٥)] :

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه أوَّلَ سريَّةٍ في تاريخ السَّرايا ، يلتقي فيها المسلمون مع المشركين في مواجهةٍ عسكريَّةٍ ، وقد اتَّخذ القتال بين الطَّرفين طابع المناوشة بالسِّهام ، وكان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه «أوَّل العرب رمى بسهم في سبيل الله»[(٦)] في تلك المعركة ؛ الَّتي لم تستمرَّ طويلاً ؛ إذ قرَّر الفريقان الانسحاب من أرضها ، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً ، ومنظَّماً ، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، فقد كان له الدَّور الأكبر في تثبيت ، وإحباط استعدادات العدوِّ ، لشنِّ أيِّ هجوم مضادٍّ ، وذلك بوابل من السِّهام المزعجة الَّتي قذفها نحوه ، والتي كونت ساتراً دفاعياً ، مهَّد لانسحابٍ سليمٍ منظَّم بالنِّسبة للمسلمين ، وقد فرَّ عُتْبة بن غَزوان ، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك ، وفي هذه السَّريَّة حقَّق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله

(١) انظر : المدخل الفقهي ، للشَّيخ الزرقا ، ص ٩٧٢ .
(٢) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية ، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩) .
(٣) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٠ .
(٤) انظر : الدَّعوة الإسلامية ، د. عبد الغفار عزيز ، ص ٢٩٦ .
(٥) انظر : صحيح سنن التِّرمذيِّ (٢/ ٢٧٧) .
(٦) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، د. بريكك العُمري ، ص ٩١ .

عنه سبقاً عسكرياً إسلامياً ، يسجِّل في سجلِّه الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى ، كما أكَّدت هذه السَّريَّة ، استمرار سياسة رسول الله ﷺ التَّعبويَّة ، الخاصَّة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسَّرايا الأولى حتَّى بدر ؛ تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثَّانية[١] .

٧ـ نصُّ وثيقة الموادعة مع جُهَيْنة ، والتَّعليق عليها :

«إنَّهم آمنون على أنفسهم ، وأموالهم ، وإنَّ لهم النَّصر على من ظلمهم ، أو حاربهم ، إلا في الدِّين ، والأهل ، ولأهل باديتهم من برَّ منهم ، واتَّقى ما لحاضرتهم»[٢] .

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنيُّ في التَّوسُّط بين سريَّة حمزة بن عبد المطلب ، والقافلة القرشيَّة الَّتي كان يقودها أبو جهل بن هشام ، ويحرسها ثلاثمئة راكبٍ من فُرْسان قريشٍ[٣] ، فقد التقوا ناحية العيص ، في منطقة نفوذ جهينة ، واصطفُّوا للقتال[٤] ، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين ، تدخَّل مجْديٌّ بن عمرو ـ زعيم من زعماء جهينة ـ في وساطة سلامٍ بينهم ، واستطاع أن ينجح في مساعيه السِّلمية بين الطَّرفين ، فقد كان مجديٌّ ، وقومه حلفاء للفريقين جميعاً ، فلم يعصوه ، فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما ، فلم يكن بينهما قتالٌ[٥] .

ويظهر من هذه المعاهدة : أنَّ عقد المعاهدات بين الدَّولة الإسلامية والقبائل المجاورة ، كان سابقاً على الأعمال العسكريَّة ؛ الَّتي قامت بها ؛ بدليل أنَّ حركة السَّرايا الأولى الموجَّهة ضدَّ قريشٍ ، كان قد سبقها معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر ، وقد توسَّطت لمنع القتال بين المسلمين ، وكفَّار مكَّة .

ومن فقه هذه المعاهدة جوازُ عقد معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، ودولةٍ أخرى ، هي بدورها مرتبطةٌ بمعاهدة سلامٍ مع أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ؛ بشرط ألاَّ تتجاوز تلك المعاهدة الاتفاق على أن تنصر الدَّولة المعاهدة للمسلمين العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتالٍ ، ويجوز للدَّولة الإسلاميَّة ، أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعدَّ لذلك ؛ استجابةً لوساطة دولةٍ أخرى ؛ إذا لم يترتب على ذلك ضررٌ للمسلمين[٦] .

كانت نتائج سريَّة حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنيِّ سيئةً للغاية ؛ حيث هزَّت كيان

---

(١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٩٢ .

(٢) انظر : مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٦٢ .

(٣) انظر : المواهب اللَّدنيَّة (١/ ٧٥).

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ٦) ، وانظر : السَّرايا والبعوث ، ص ٨٥ .

(٥) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦ .

(٦) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية (١/ ٤٧٨ ، ٤٧٩).

قريش ، وبثَّت الرُّعب في نفوس رجالها ، وفتحت أعينهم على الخطر المُحْدق بهم ، والَّذي أصبح يهدِّد طريق تجارتهم ، وقوَّتهم الاقتصاديَّة[(١)] ، فقد قال أبو جهل حين قدم مكَّة منصرفاً عن حمزة: «يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد نزل يثربَ ، وأرسل طلائعه ؛ وإنَّما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرُّوا في طريقه ، وأن تقاربوه ؛ فإنَّه كالأسد الضَّاري ، إنه حَنِقٌ[(٢)] عليكم؛ نفيتموه نَفْيَ القردان[(٣)] على المناسم[(٤)] ، والله! إنَّ له لسحرةً ، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه ، إلا رأيتُ معهم الشَّياطين ، وإنَّكم عرفتم عداوة ابني قَيْلَة[(٥)] ، فهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ»[(٦)] .

٨ ـ سريَّة عبد الله بن جحش وما فيها من دروسٍ ، وعبر:

إنَّ سرية عبد الله بن جحشٍ ، حقَّقت نتائج مهمَّةً ، وفيها دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد عظيمةٌ؛ منها:

أ ـ جاء في خبر هذه السَّريَّة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كتب لأمير السَّريَّة كتاباً ، وأمره ألاَّ ينظرَ فيه حتَّى يسير يومين ، وهذا مثلٌ لتطبيق مبدأ مهمٍّ من مبادئ الحرب ، وهو إخفاء الخُطط الحربيَّة ، ومنها خط السَّير ، حتَّى يكون الجيش في أمانٍ من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت آنذاك تضمُّ اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكَّة ، بخطِّ سير تلك السَّريَّة الموجَّهة ضدَّهم ، فلمَّا سار أفراد السَّريَّة وهم بأنفسهم لا يعلمون اتِّجاههم؛ أصبح النَّبيُّ ﷺ آمناً من انكشاف الهدف المقصود[(٧)] .

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبويَّة في هذه السَّريَّة المباركة؛ حيث سمعوا ، وأطاعوا جميعاً ، وساروا إلى منطقة أعدائهم ، وتجاوزوها حتَّى أصبحوا من ورائهم ، وهذا شاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم ، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[(٨)] .

ب ـ حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قَتْلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبلَ أفراد السَّريَّة ، فشنُّوا حرباً إعلاميَّة ، وهجوميَّة مركَّزةً ، تتخلَّلها دعاياتٌ مغرضةٌ ضدَّ المسلمين ، استغلت فيها

---

(١) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦ .
(٢) حَنق عليه حنقاً: اشتد غيظه ، فهو حنقٌ ، وحنيقٌ.
(٣) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل.
(٤) المناسم: جمع منسم ، وهو طرف خُفِّ البعير ، وقيل: هو للنَّاقة كالظُّفر للإنسان.
(٥) كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمُّهم وكانوا يُنسبون إليها.
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨ ، ٢١٩).
(٧) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر (٤/ ٧١).
(٨) المصدر السابق نفسه.

التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتي لا زالت بعض آثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّدٍ ﷺ، وبالمسلمين، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذي لا يراعي الحرمات»[(١)]. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ، وأصحابه الشَّهر الحرام، وسفكوا فيه الدَّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرِّجال» [البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٩) وفي الدلائل (٣/ ١٩) وابن هشام (٢/ ٢٥٤)][(٢)].

ونجحت قريش في خُطَّتها تلك باديْ الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدىً كبيرٌ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل، والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السَّريَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام، واشتدَّ الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[(٣)]، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر الحرام، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحَضرمي قتله واقدُ بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»[(٤)]، وهذا الكلام من اليهود يعبِّر عن حقدٍ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[(٥)].

وعندما ظنَّ أهل السَّريَّة: أنَّهم قد هلكوا، وسُقط في أيديهم[(٦)]؛ جاء الردُّ الرَّبانيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام، فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشَّهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراجُ أهله منه أكبرُ من القتال في الشَّهر الحرام، وفتنةُ الرَّجل في دينه أكبرُ من القتل في الشَّهر الحرام. لقد فعلت قريشٌ كلَّ هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنَّها تناستها، أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حُرمة الشَّهر، واتَّخذتها وسيلةً لإثارة حربٍ شعواء على الإسلام، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنيَّة عليها، وتنفير النَّاس من الدُّخول في هذا الدِّين؛ الَّذي يستحلُّ الحرمات، ويستبيح المقدَّسات؛ حتَّى إنَّ رسول الله ﷺ قد لحقه الغمُّ، ولام قائد السَّريَّة، وأصحابه على

---

(١) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول ﷺ، للأستاذ أحمد الشريف، ص ٤٤٥.
(٢) انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١٠٠.
(٣) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول ﷺ، للأستاذ أحمد الشريف، ص٤٤٥.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٣، ٦٠٤).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٧٢).
(٦) سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا، وهو تعبير قرآنيٌّ في سورة الأعراف، الآية (١٤٩).

ما فعلوا[١] ، فنزلت الآيات البيِّنات تردُّ وبقوَّةٍ على دعايات قريشٍ المغرضة ، موضحةً : أنَّه وإن كان الشَّهر الحرام لا يحلُّ فيه القتال ، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات ، وصدَّ عن سبيله[٢] .

ج ـ حِرْصُ القائد على سلامة الجنود : عندما تخلَّف سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعُتْبة بن غَزْوان ؛ بسبب بحثهما عن بعيرٍ لهما قد ضلَّ ، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك ، وعُتبة بن غَزوان» فلم يفادهما حتَّى قدم سعدٌ ، وعُتبة ، ففوديا ، فأسلم الحكم بن كَيسان[٣] ، وأقام عند رسول الله ﷺ ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً[٤] .

ونفهم من المنهاج النَّبويِّ ، ضرورة أن يهتمَّ القائد بسلامة جنده ؛ لأنَّهم هم الَّذين يقدِّمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله ، وإقامة دولة الإسلام .

إنَّ المدارس العسكريَّة الحديثة تقول : إنَّ الجنديَّ حين يُحسُّ باهتمام القيادة به ، وبسلامته ، وبأمنه لا يتردَّد في أن يبذل غاية البذل ، ويعطي أقصى العطاء[٥] .

د ـ ظهور التَّربيَّة الأمنيَّة في الميدان : كانت سريَّة عبد الله بن جحشٍ قد حقَّقت أهدافها ، وظهرت قدرتها على التوغُّل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش ، ممَّا أذهلها ، وزاد دهشتها وذهولها تلك السِّرِّيَـةُ التَّامَّةُ ، والدِّقَّةُ المتناهية ؛ الَّتي تمَّت بها العمليَّة ؛ حتَّى إنَّ جواسيس قريش لم تستطع رصدها ، ولا معرفة الوجهة الَّتي قصدتها ، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرَّسائل المكتوبة ؛ للمحافظة على الكتمان ، وحرمان العدوِّ من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده عن حركات المسلمين ، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل مبدأ (المباغتة) ، وهي أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب»[٦] .

وقد أثبتت هذه السَّرِيَّةُ بما لا يدع مجالاً للشك : أنَّ سرايا النَّبيِّ ﷺ قويَّةٌ ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات ، وتتحلَّى بمزايا القتال ، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة ، واقتدارٍ ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية .

وتظهر آثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع ، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة ، وطاعته

---

(١) انظر : دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٣ .
(٢) انظر : السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٠٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) انظر : غزوة بدر الكبرى ، لمحمد أبو فارس ، ص ٢٣ .
(٦) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، لخطاب ، ص ٩٤ .

للأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ، أو تخاذلٍ، فما إن قرأ الكتاب، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره، معطياً من نفسه القدوة الحسنة، وباثّاً في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة، ويرغب فيها؛ فلينطلق، ومن كره ذلك؛ فليرجع، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ»[١].

٩ ـ من أهداف السَّرايا:

عندما ندرس حركة السَّرايا، والغزوات؛ الَّتي قادها رسول الله ﷺ بدقَّةٍ، وعمقٍ، وتحليلٍ، نستطيع أن نتلمَّس كثيراً من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروسٍ وعبرٍ، وفوائد؛ فإذا تأمَّلنا في حركة السَّرايا الَّتي سُيِّرت قبل بدرٍ؛ نجد أنَّ أفرادها كلَّهم من المهاجرين، ليس فيهم واحدٌ من الأنصار. يقول ابن سعدٍ ـ رحمه الله! ـ: «والمجتمع عليه: أنَّهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مَبْعثاً حتَّى غزا بهم بدراً»[٢]. وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه؛ ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أوَّلاً، وإحياؤها على المستوى الخارجيِّ، وإنهاك الاقتصاد القرشيِّ، ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريشٍ عسكرياً، وتدريب الصَّحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحرُّكات قريش، وإرهاب العدوِّ الدَّاخليِّ في المدينة، وما حولها، واختبار قوة العدوِّ[٣]، وقد حقَّقت تلك السَّرايا أهدافها، والَّتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل، والخارج: فقد استطاعت تلك السَّرايا والغزوات، أن تلفت أنظار أعداء الدَّعوة، والدَّولة الإسلاميَّة إلى قوَّة المسلمين، وقدرتهم على ضرب أيَّة حركةٍ مناوئةٍ، سواءٌ في الدَّاخل، أو الخارج؛ حتَّى لا يُحَدِّث أحدٌ نفسَه بمهاجمة الدَّولة الإسلاميَّة، الَّتي لا يتوقَّف جيشها ليلَ نهارَ، ممَّا أرهب الأفاعي اليهوديَّة، والقبائل الوثنيَّة المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حسابٍ قبل أن تحدِّثه نفسُه بغزو المدينة، أو مناصرة أحدٍ من الأعداء عليها. والَّذي نلاحظه في حركة السَّرايا الزِّيادة المستمرَّة في أعداد قوَّة تلك الغزوات، والسَّرايا، ومجيئها متتابعةً ليس بينها فاصلٌ زمنيٌّ على الإطلاق، فلا تكاد السَّريَّة، أو الغزوة تعود؛ حتَّى تكون الَّتي بعدها قد خرجت؛ لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصاديَّة، وقطع طرق تجارتها، وخصوصاً إلى بلاد الشَّام؛ ممَّا كلَّفها زيادة عدد حرَّاس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، هذا غير الرُّعب، والخوف الَّذي شعر به رجال

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.
(٢) انظر: الطَّبقات الكبرى، لابن سعدٍ (٢/ ٦).
(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، (ص ١٤ ـ ٢٤).

القوافل القرشيَّة ، وأصحاب الأموال في مكَّة على حدٍّ سواءٍ[(١)] .

ب ـ كسب بعض القبائل ، وتحجيم دَور الأعراب : لقد وادع رسولُ الله ﷺ قبيلة جُهَيْنة ، وحالفها ، وكذلك بعض القبائل الضَّاربة في تلك المنطقة من أجل تحييدها في الصِّراع الدَّائر بين مكَّة ، والمدينة ، والعمل على كسبها في هذا الصِّراع ؛ وذلك «لأنَّ الأصل : أنَّ هذه القبائل تميل إلى قريشٍ ، وتتعاون معها ؛ إذ بينهما مُحالفاتٌ تاريخيَّةٌ ، سمَّاها القرآن الكريم بالإيلاف[(٢)] ، سَعَت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشَّام ، واليمن»[(٣)] .

وبعد أن اتَّفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ ، وعقدت معه معاهداتٍ ، أصبحت تشكِّل خطراً على تجارة قريش ، وصار المسلمون هم السَّادة في المنطقة[(٤)] .

وقام النَّبيُّ ﷺ بتحجيم دور الأعراب ؛ كي لا يكون لهم وجودٌ في طرق التِّجارة ، فقد كان الأعراب يُشكِّلون قوَّة تهديدٍ للقوافل التِّجارية ، وكان المارُّ في مناطق نفوذهم ، لا يمرُّ إلا بإتاوة تُدْفع إليهم ، وحينما قامت الدَّولة الإسلاميَّة ؛ لم يجدوا شيئاً منها ؛ فجرَّبوا مهاجمتها ، وتولَّى هذا كُرْزُ الفهريُّ ؛ ولكنَّه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سفوان «بالقرب من بدرٍ مسافةً تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً» ، وقد سمَّى أهلُ السِّير هذه المطاردة : غزوة بدر الصُّغرى ، وتُعدُّ هذه الغزوة درساً لكلِّ الأعراب ، فلم يحصل : أنَّ أعرابيّاً سوَّلت له نفسه أن يهاجم المدينة بعد هذه المطاردة ، ومِنْ ثمَّ لم تدفع الأمَّة الإسلاميَّة إتاواتٍ لقُطَّاع الطُّرق ؛ بل أجبرتهم على الانسحاب ، والدُّخول في اتِّفاقاتٍ مع المسلمين ؛ فأمنوا شرَّهم[(٥)] .

ج ـ علاقة هذه السَّرايا بحركة الفتوح الإسلاميَّة : وقد استمرَّت حركة السَّرايا ، والبعوث ، وكانت بمثابة تمريناتٍ عسكريَّةٍ تعبويَّةٍ ، ومناوراتٍ حيَّةٍ لجند الإسلام ، وكان هذا النَّشاط المتدفِّق على شكل موجاتٍ متعاقبةٍ من جند الإسلام الأوائل ، دلالةً قاطعةً على أنَّ دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النَّبيِّ القائد ﷺ ـ كانت مثل خلية النَّحل ، لا تهدأ ، ولا تَكِلُّ ، وإنَّ الباحث ليلحظ في حركة السَّرايا ، والبعوث ، والغزوات الكبرى في زمن النَّبيِّ ﷺ ، حرص الصَّحابة على المشاركة كقادة ، وجنود ، فكان ﷺ يعدُّهم لتثبيت دعائم الدَّولة ، والاستعداد للفتوحات المرتقبة ، والَّتي ما فتئ ﷺ يبشِّر بها أصحابه بين الفَيْنَة والأخرى في أوقات الحرب ، والسِّلم ، والخوف ، والأمن .

---

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٢ .
(٢) انظر : سورة قريش (١ ـ ٤) .
(٣) انظر : المجتمع المدني ، د . أكرم ضياء العمري ، ص ٢٧ .
(٤) انظر : دراسات في السِّيرة ، لمؤنس ، ص ١٩ .
(٥) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، د . عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٣١ .

إنَّه بنظرةٍ فاحصةٍ في قوَّاد وجنود تلك السَّرايا ، والبعوث ، تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلاميِّ فيما بعد؛ مثل: قائد فتوحات الشَّام ـ أمين الأمَّة ـ أبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسيَّة ، وفاتح المدائن ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الرُّوم في اليرموك ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وليبيا ، وغيرهم رضي الله عنهم . لقد التحق خالدٌ ، وعمرٌو فيما بعد بحركة السَّرايا ، وقادا بعضها بعد إسلامهم . لقد كانت السَّرايا والغزوات الَّتي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته ، بمثابة تدريبٍ حيٍّ نابضٍ؛ بل يمكن اعتبارها دورات أركانٍ للقادة الَّذين فتحوا مشارق الأرض ، ومغاربها فيما بعد.

إنَّ حياة الصَّحابة رضي الله عنهم ، خلال الأربع والعشرين ساعةً اليوميَّة ، عبارةٌ عن تدريبٍ مستمرٍّ؛ فالبرنامج اليوميُّ المنتظم ، يبدأ مبكِّراً من صلاة الفجر ، الَّتي تُؤَدَّى في جماعةٍ مع قائدهم الأعلى ﷺ ؛ الَّذي كان يحثُّهم على أداء هذه الصَّلاة جماعة وفي وقتها ، موضحاً لهم ، ولأمَّته أنَّها المِفْتاح العجيب ليوم مليءٍ بالنَّشاط والحيويَّة . قال ﷺ : «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ ، يضربُ مكان كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ ، فارقدْ ، فإن استيقظ ، فذكر الله؛ انحلَّت عقدةٌ ، فإن توضَّأ؛ انحلَّت عُقْدَةٌ ، فإن صلَّى؛ انحلت عُقَدُهُ كلُّها ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفس كسلان» [البخاري (١١٤٢) ومسلم (٧٧٦)] .

ثمَّ ينطلق كلٌّ منهم إلى عمله الَّذي تتخلَّله فترات الصَّلوات الباقية؛ حتَّى إذا ما صلَّوا الصَّلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا ، حتى إذا ما أخذوا قسطاً وافراً من النَّوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه؛ قام معظمهم لأداء صلاة التَّهجُّد الَّتي تملأ قلوبهم روحانيَّةً ، وتكسبهم مزيداً من النَّشاط لأدائها في وقتٍ يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدَّائم ، واليقظة التامَّة لمتطلبات دولة الإسلام ، فكانوا يقومون بنشاطاتٍ تدريبيَّةٍ مركَّزةٍ ، تتمثَّل في ركوب الخيل ، والسَّبق ، والرِّماية ، وكان النَّبيُّ ﷺ يحثُّهم على فعل ذلك؛ بل ويشاركهم فيه ، معطياً من نفسه القدوة ، وكان ﷺ يركِّز على تعلُّم الرِّماية كثيراً ، موضِّحاً أنَّها خير ما يعدُّ من قوَّةٍ استعداداً للكفَّار .

وكان ﷺ يشجِّعهم على الصِّناعة الحربيَّة ، المتمثِّلة في ذلك الوقت في صناعة الأسهم ، ويخبرهم: أنَّ الأجر الذي غايته الجنَّة ينسحب على صانعها ، والمتنبِّل بها ، والرَّامي بها ، فيروي لنا عقبة عن رسول الله ﷺ قوله : «إنَّ الله يُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنَّة: صانعُه؛ الَّذي احتسب في صنعته الخير ، ومتنبِّله[1] ، والرَّامي ، ارموا ، واركبوا ، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ

---

(١) المُتَنَبِّل: هو الذي يناول السَّهم للرَّامي.

من أن تركبوا ، وليس من اللَّهو إلاَّ ثلاثة : تأديب الرَّجل فرسَه ، وملاعبته زوجتَه ، ورميه بنبله عن قوسه ، ومن عُلِّم الرَّمي ثُمَّ تركه ، فهي نعمةٌ كفرها» [أبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) والحاكم (٢/ ٩٥) والبيهقي في الشعب (٤٣٠١)] .

فيا لَهُ من عصرٍ تمسَّك فيه الصَّحابة رضي الله عنهم بالتعاليم القرآنيَّة الرَّبَّانيَّة ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وقاموا بتطبيقها حرفيّاً في شتَّى شؤون حياتهم ، فغزوا ، واستعلوا على أمم الأرض شرقاً ، وغرباً رغم قلَّتهم ، وبساطتهم! وحين ابتعد المسلمون عن تلك التَّعاليم ، وألقوا بها وراء ظهورهم ؛ ركبهم الذُّلُّ ، والصَّغار ، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها ؛ بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السَّيل .

إنَّ المهمَّات ، والأهداف الَّتي سعت لتحقيقها السَّرايا ، والبعوث كانت تتفاوت تَبعاً لاختلاف الظُّروف المحيطة والحادثة ، فكانت السَّرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة ، واستكشافيَّة ، وجسِّ نبضٍ ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضيَّةٍ، تُوقع الرُّعب، والفزع في القوافل القرشيَّة ، وذلك قبل غزوة بدرٍ الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها؛ أصبحت مهمَّة بعض السَّرايا ، والبعوث تنصبُّ في تصفية الأفراد من أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّذين يحاولون النَّيل من مسيرتها؛ مثل كعب بن الأشرف ، والعصماء بنت مَرْوَان ، وأبي عفك ، فكان في قَتْل كعب ردعٌ لليهود ، وقتل العَصْماء ، وأبي عفك ردعٌ للمشركين ، والمنافقين في المدينة .

وعندما انقلبت الأمـور لغير صـالح المسلمين بعد أُحـدٍ؛ طمع الأعراب في خيرات المدينـة ، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنَّهم غـدروا ببعض البعوث التَّعليميَّـة ـ كما في الرَّجيع ، وبئر معونـة ـ غيَّر تبعاً لذلك رسول الله ﷺ (استراتيجيَّتـه) العسكريَّـة ، فانتقل بالسَّرايا من قريشٍ إلى الأعراب؛ لتأديبهم بطريقةٍ صارمةٍ ، وسريعةٍ ، ومباغتةٍ ، وكان أهمَّ ما يمِّيز تلك السرايا ، هجومُها التَّعرضيُّ للأعراب قبل تحشُّدهم ، وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين .

وظلَّت السَّرايا ، والبعوث النَّبويَّة تؤدِّي دورها ، وتقوم بمهامِّها الخاصَّة لخدمة أهداف الدَّعوة ، فمن دورياتٍ قتاليَّةٍ ، إلى سرايا تعقُّبيَّةٍ ، وأخرى تمويهيَّةٍ ، حتَّى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكَّة ، اهتمَّ النَّبيُّ ﷺ بإزالة كلِّ ما يمتُّ للوثنيَّة بصلةٍ ، فبعث السَّرايا ، والبعوث من مكَّة لتحطيم بقيَّة رموز الشِّرك ، والوثنيَّة ، فانطلقت السَّرايا لتحطيم العُزَّى ،

ومناة ، واللاَّت ، وسُواع ، وذي الخَلصة[١] ، وغيرها من الأصنام ، والطَّواغيت الوثنيَّة[٢] .

وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، ثمَّ تحرَّكت الجيوش الرَّاشديَّة بعد وفاة الرَّسول ﷺ ؛ لنشر دين الله في المعمورة ، وإزالة كلِّ العوائق ، والقوى الَّتي تقف في وجه الدَّعوة .

لقد أدهشت النتائج السَّريعة الإيجابيَّة لحركة الفتوح الإسلاميَّة جميع المحلِّلين على اختلاف دياناتهم ، وأفكارهم ، ومشاربهم ؛ ولكن ستزول دهشة المحلِّلين المنصفين ، عندما يقرؤون تلك التَّعاليم ، والوصايا النَّبويَّة لقوَّاد ، وجنود السَّرايا ، والبعوث ، والَّتي هي نواة حركة الفتوح الإسلاميَّة ، والَّتي صارت تتكرَّر على ألسنة الخلفاء ، وقادة جيوش الفتوح ، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[٣] .

عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً ؛ قال : «انطلقوا باسم الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأةً ، ولا تغلُّوا ، وضمُّوا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إنَّ الله يحبُّ المحسنين» [أبو داود (٢٦١٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٤٣٠)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره ؛ قال : «بَشِّروا ، ولا تُنَفِّروا ، ويَسِّرُوا ، ولا تُعَسِّرُوا» [مسلم (١٧٣٢) وأبو داود (٤٨٣٥) وأحمد (٤/ ٣٩٩)] .

* * *

---

(١) الخلصة : بفتح الخاء المعجمة واللاَّم ، بعدها مهملةٌ ، وحكى ابن دريد فتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وحكى ابن هشام ضمَّهما ، وقيل : بفتح أوله وضمِّ ثانيه ، والأوَّل أشهر ، وانظر : فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٣٥٥) .

(٢) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦١ ـ ٦٥) .

(٣) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦٥ ـ ٦٦) .

المبحث الخامس
استمرارية البناء التَّربويِّ والعلميِّ

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدنيِّ مقدِّماتُ سورة البقرة ، الَّتي تحدَّثت عن صفات أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، وأهل النِّفاق ، ثمَّ إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنَّصارى ـ وكان التَّركيز على بيان حقيقة اليهود ؛ لأنَّهم الذين تصدَّوا للدَّعوة الإسلاميَّة من أوَّل يومٍ دخلت فيه المدينة ، وتتضمَّن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة يهود ، وطباعهم[1] .

والملاحظ : أنَّ سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدنيِّ ـ كانت توجِّه الدَّعوة للنَّاس أجمعين أن يدخلوا في دين الله ، وأن يتوجَّهوا له بالعبادة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] .

وكانت الآيات القرآنيَّة في العهد المدنيِّ تحذِّر المسلمين من الاتِّصاف بصفات المنافقين ، وتوضِّح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشئ والدَّولة الجديدة ، ولم تظهر حركة النِّفاق ضدَّ المجتمع ، والدَّولة المسلمة إلا في العهد المدنيِّ ؛ لأنَّ المسلمين في مكَّة «لم يكونوا من القوَّة ، والنُّفوذ في حالةٍ تستدعي وجود فئةٍ من النَّاس ترهبهم ، أو ترجو خيرهم ، فتتملَّقهم ، وتتزلَّف إليهم في الظَّاهر ، وتتآمر عليهم ، وتكيد لهم ، وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجهٍ عام. . والآيات تتضمَّن أوصاف ، وأخبار ، ومواقف المنافقين. والحملات عليهم كثيرةٌ جداً ، حتَّى لا تكاد تخلو سورةٌ مدنيَّةٌ منها ، وخاصَّةً الطَّويلة ، والمتوسطة ، وهذا يعني : أنَّ هذه الحركة ظلَّت طِيلَةَ العهد المدنيِّ تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأوَّل»[2] .

واستمرَّ القرآن المدنيُّ يتحدَّث عن عظمة الله ، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقومات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر

---

(١) انظر : الظلال (١/ ٢٧) وما بعدها.

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة، لدروزة (٢/ ٧٣ ـ ٧٦) نقلاً عن : دراسات في عهد النُّبوة، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٧٢ .

دعوة الله بين النَّاس قاطبةً[(١)] ، وتجاهد في سبيل الله .

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة ، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم ، والَّذين يتعلَّمون ، ورُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول ﷺ للعلم ، وتضمَّنت كتبُ الحديث أبواباً عن العلم .

لقد أيقنت الأمَّة : أنَّ العلم من أهم مقوِّمات التَّمكين ؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكِّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم . وإنَّ النَّاظر للقرآن الكريم ؛ ليتراءى له في وضوح : أنَّه زاخرٌ بالآيات الَّتي ترفع من شأن العلم ، وتحثُّ على طلبه وتحصيله ، فقد جعل القرآنُ الكريم العلم مقابلاً للكفر[(٢)] ؛ الذي هو الجهل ، والضَّلال . قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وإنَّ الشَّيء الوحيد؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ . قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] كما أنَّ أوَّل خاصِّيَّةٍ ميَّز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي العلم . قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

واستمرَّ النَّبيُّ ﷺ في منهجه التَّربويِّ يعلِّم أصحابه ، ويذكِّرهم بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويحثُّهم على مكارم الأخلاق ، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة ، وأحكامها ، وكان توجيهه ﷺ لأصحابه أحياناً فرديّاً ، ومرَّةً جماعيّاً، وترك لنا الحبيب المصطفى ﷺ ، ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم ، وإلقاء الدُّروس ، فقد راعى ﷺ الوسائل التَّربويَّة ؛ الَّتي تعين على الحفظ ، وحسن التلقِّي ، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ؛ فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النَّافعة[(٣)] في العهد المكيِّ ، والمدنيِّ :

أولاً : أهم هذه الوسائل والمبادئ التَّربوية :

١ ـ تكرار الحديث ، وإعادته :

فذلك أسهل في حفظه ، وأعون على فهمه ، وأدعى لاستيعابه ، ووعي معانيه ؛ ولذلك حَرَص النبي ﷺ على تكرير الحديث في غالب أحيانه ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، عن

(١) يقال : جاء القومُ قاطبةً : أي : جميعاً .
(٢) التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٦٢ .
(٣) انظر : مناهج وآداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د . عبد الرحمن البر ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

النَّبيِّ ﷺ : أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادَها ثلاثاً؛ حتَّى تُفْهَمَ عنه ، وإذا أتى على قومٍ ، فسَلَّمَ عليهم؛ سَلَّمَ عليهم ثَلاثاً [البخاري (٩٥)] .

٢ ـ التأنِّي في الكلام والفصل بين الكلمات :

كان ﷺ يتأنَّى ولا يستعجل في كلامه ، بل يفصل بين كلمةٍ ، وأخرى ، حتَّى يسهل الحفظ ، ولا يقع التَّحريف والتَّغيير عند النَّقل ، وبلغ من حرص النَّبيِّ ﷺ على ذلك : أنَّه كان يَسْهُل على السَّامع أن يَعُدَّ كلماته ﷺ ؛ لو شاء[1] ، فقد روى عروة بن الزُّبير ـ رحمه الله! ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت : «ألا يُعجبُك أبو فلان «أبو هريرة»؟ جاء ، فجلس إلى جانب حجرتي يُحَدِّث عن رسول الله ﷺ ، يُسْمِعُني ذلك ، وكنت أُسبِّحُ[2] ، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ، ولو أدركتُهُ؛ لرددت عليه ، إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكم» [البخاري (٣٥٦٨)] .

٣ ـ الاعتدال ، وعدم الإملال ، واختيار الوقت المناسب :

كان ﷺ يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه ، وفي نوعه ، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة ، وحتَّى ينشطوا لحفظه ، ويسهل عليهم عَقْلُهُ ، وفهمه ، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال : كان النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلُنا[3] بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السَّآمةِ علينا [البخاري (٦٨)] .

٤ ـ ضرب الأمثال :

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل ، والقلب؛ ذلك : أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ حسِّيَّةٍ ، فيربطه بالواقع ، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب ، وتستهوي العقول ، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال ، وذكر حكمة ذلك في آياتٍ كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١] .

إلى غير ذلك من الآيات ، وعلى هذا المنهج الكريم سار النَّبيُّ ﷺ ، فاستكثر من ضرب الأمثال ، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثلٍ»[4] .

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحَدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ؛ لأحصاه ، انظر : البخاريَّ رقم (٣٥٦٧) .

(٢) أسبِّح : أصلي النَّافلة ، وهي السُّبحة ، وقيل : صلاة الضُّحى .

(٣) يتخوَّلنا : يتعهدنا .

(٤) انظر : مناهج وآداب الصَّحابة ، ص ٦٥ .

وقد أُلِّفت كتبٌ متعدِّدةٌ في الأمثال في الحديث النَّبويِّ؛ من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث)، للقاضي أبي محمَّد الحسن بن عبد الرَّحمن بن خلَّاد الرَّامَهُرْمُزِيِّ، (ت ٣٦٠هـ)[1].

٥ ـ طرح المسائل:

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول، وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ ﷺ السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم، وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ ﷺ السُّؤال لمجرد الإثارة، والتَّشويق، ولفت الانتباه، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّباط» [مسلم (٢٥١) ومالك في الموطأ (١/ ١٦١) والترمذي (٥١) والنسائي (١/ ٨٩) وابن ماجه (٤٢٨)].

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ ﷺ عمَّا يعلم: أنَّهم لا علم لهم به، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله، ورسوله؛ وإنَّما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه[2]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ طُرِح في النار» [مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨)].

وأحياناً يسأل، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا الْمُنْذِرِ! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! لِيَهْنِك العِلْمُ[3] أبا المُنْذِرِ!» [مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد (٥/ ١٤٢)].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥، وكلُّ وسائل التَّعليم النبويَّة اختصرتها من هذا الكتاب القيِّم.
(٢) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٧.
(٣) أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

فهذا الاستحسان ، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح ، والثِّقة بالنَّفس ، ويدعوه إلى طلب ، وحفظ المزيد من العلم ، وتحصيله(١) .

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام ، والدَّاعية إلى الاستفسار ، والسُّؤال :

ومن ألطف ذلك ، وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بالسُّوق ، داخلاً من بعض العَالية ، والنَّاس كُنَفَتَهُ(٢) ، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ(٣) ميتٍ ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثمَّ قال : «أيكم يحبُّ : أنَّ هذا له بدرهم؟» ، فقالوا : ما نحبُّ : أنَّه لنا بشيءٍ ، وما نصنع به؟ قال : «أتحبُّون : أنَّه لكم؟» قالوا : والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسَكُّ ، فكيف ، وهو ميتٌ؟! فقال : «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم» [مسلم (٢٩٥٧)] .

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحيَّة :

كان النَّبيُّ ﷺ يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير ، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين ، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع ، وتركيز انتباههم فيه ، ممَّا يساعد على تمام وعيه ، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته؛ ومن هذه الوسائل :

أ ـ التعبير بحركة اليد : كتشبيكه ﷺ بين أصابعه ، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً» ، وشبَّك بين أصابعه [البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)] .

ب ـ التعبير بالرَّسم : فكان ﷺ يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة ، تسترعي نظر الصَّحابة ، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط ، وبيان المقصود منه ، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال : خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده ، ثمَّ قال : «هذا سبيلُ الله مستقيماً» ، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه ، وعن شماله ، ثمَّ قال : «وهذه سُبُلٌ ـ قال يزيد : متفرِّقةٌ ـ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ، ثمَّ قرأ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] [أحمد (١/ ٤٣٥) والطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن حبان (٦ و٧)] .

ج ـ التَّعبير برفع ، وإظهار الشَّيء موضع الحديث ، كما فعل ﷺ عند الحديث عن حكم لبس الحرير ، والذَّهب ، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال : إنَّ نبيَّ الله ﷺ أخذ حريراً ، فجعله في يمينه ، وأخذ ذهباً ، فجعله في شماله ، ثمَّ قال : «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي»

---

(١) انظر : مناهج وآداب الصَّحابة ، ص ٦٩ .

(٢) كنفته : يعني : عن جانبه ، والكنف ـ بالتَّحريك ـ : النَّاحية ، والجانب .

(٣) جدي أسكَّ : أي : صغير الأذنين .

[أبو داود (٤٠٥٧) والنسائي (٨/ ١٦٠)] ، وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم» [المصدران السابقان] ، فجمع النَّبيُّ ﷺ بين القول ، وبين رفع الذَّهب ، والحرير ، وإظهارهما ، حتَّى يجمع لهم السَّماع ، والمشاهدة ، فيكون ذلك أوضحَ ، وأعونَ على الحفظ .

د ـ التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس ، كما فعل عندما صَعِدَ ﷺ المنبرَ ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ قام على المنبر ، فاستقبل القبلة ، وكبَّر ، وقام النَّاس خلفه ، فقرأ وركع ، وركع النَّاس خلفه ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى[(١)] ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرَى ، حتَّى سجد بالأرض ، فلمَّا فرغ؛ أقبل على الناس ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي ، ولَتَعلَّموا[(٢)] صلاتي» [البخاري (٣٧٧)] .

٨ ـ استعمال العبارات اللَّطيفة ، والرَّقيقة:

إنَّ استعمال لطيف الخطاب ، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب ، ويستميلها إلى الحقِّ ، ويدفع المستمعين إلى الوعي ، والحفظ ، فقد كان ﷺ يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره ، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين ، يُعلِّمهم؛ شفقةً بهم[(٣)] ، فقد قال ﷺ: «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط؛ فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه» [أبو داود (٨)] .

لقد راعى المعلِّم الأوَّل ﷺ جملةً من المبادئ التَّربويَّة الكريمة؛ كانت غايةً في السُّموِّ الخُلُقيِّ ، والكمال العقليِّ ، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصَّحابة ، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم ، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربويةٍ كريمةٍ[(٤)] ، وهذه بعض المبادئ الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ ﷺ:

أ ـ تشجيع المحسن ، والثناء عليه:

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم ، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته ، وحسن صوته بالقرآن الكريم . فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) القهقَرى: المشي إلى خلف ، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه .
(٢) ولتعلَّموا: أي: لتتعلموا ، فحذف إحدى التاءين .
(٣) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم ، ص ٧٤ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ .

أن النبي ﷺ قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَاميرِ آل داود» [البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)].

ب ـ الإشفاق على المخطئ، وعدم تعنيفه:

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم، ويترفَّق في تعليمهم الصَّواب، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصوح حبّاً للرِّسالة، وصاحبها، وحرصاً على حفظ الواقعة، والتَّوجيه، وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التَّصرُّف، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابساتها كافَّةً[1]؛ ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ؛ إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصارهم، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ![2] ما شأنُكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني، لكنِّي سكتُّ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو، وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله، ولا بعده أحسنَ تعليماً منه، فو الله! ما كَهَرَني[3]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ إنَّما هو التَّسبيح، والتَّكبير، وقراءة القرآن» [مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (٣/ ١٤ ـ ١٨) وأحمد (٥/ ٤٤٧)].

فانظر ـ رحمك الله! ـ إلى هذا الرِّفق البالغ في التَّعليم! وانظر أثر هذا الرِّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه، وتأثُّره بحسن تعليمه ﷺ!.

ج ـ عدم التَّصريح، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذمُّ:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطئ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه؛ ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبد الله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ ﷺ على صدقات بني سُلَيْم، فقبل الهدايا من المتصدِّقين، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سُلَيْم، يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة، فلمَّا جاء حاسبه ﷺ، فقال: هذا مالُكم، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «فهلاَّ جلستَ في بيت أبيك وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتُك؛ إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ، فإنِّي أستعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولاَّني الله، فيأتي، فيقول: هذا مالُكم، وهذا هديةٌ أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّتُه؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ

---

(١) المصدر السابق نفسه. ص ٨٦.

(٢) وا: حرف للنُّدبة والحسرة، والثكل: فقدان المرأة ولدها، وأمِيَّاه ـ هو بكسر الميم ـ: أي: يا أمَّاه.

(٣) ما كَهرني: أي: ما انتهرني.

أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ ، أو بقرةً لها خُوارٌ ، أو شاةً تَيْعَرُ»[1] ثُمَّ رفع يديه ؛ حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصْرَ عيني ، وسَمْعَ أذني» [البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢/٢٧)] .

د ـ الغضب ، والتَّعنيف ؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة :

وذلك كأن يحدث خطأٌ شرعيٌّ من أشخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّةٌ ، أو تَجَاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة ، والجزئيَّة ، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ ، أو انحرافٍ عن المنهج ؛ على أنَّ هذا الغضب يكون غضباً توجيهيّاً ، من غير إسفافٍ ، ولا إسرافٍ ؛ بل على قدر الحاجة ؛ ومن ذلك غضبه ﷺ حين أتاه عمر ؛ ومعه نسخةٌ من التَّوراة ؛ ليقرأها عليه ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخةٍ من التَّوراة ، فقال : يا رسولَ الله! هذه نسخةٌ من التَّوراة . فسكت ، فجعل يقرأ ووجهُ رسول الله ﷺ يتغيَّر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ثكلتك الثَّواكلُ! ما ترى بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ ، فقال : أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله ، رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ نبيّاً . فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمَّدٍ بيده! لو بدا لكم موسى ، فاتبعتموه ، وتركتموني ؛ لضَلَلْتُم عن سواء السَّبيل ، ولو كان حيّاً ، وأدرك نبوَّتي ؛ لاتَّبعني» [أحمد (٣/ ٣٣٨ و٣٨٧) والبزار (١٢٤)] .

ومن ذلك غضبه ﷺ من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة ، وهم أئمَّةٌ بعد أن كان ﷺ قد نهى عن ذلك ؛ لما فيه من تعسيرٍ ، ومشقَّةٍ ، ولما يؤدِّي إليه من فتنةٍ لبعض الضُّعفاء ، والمعذورين ، وذوي الأشغال ، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، قال : قال رجلٌ : يا رسولَ الله! لا أكاد أُدركُ الصَّلاةَ ممَّا يُطولُ بنا فلانٌ . فما رأيت النَّبيَّ ﷺ في موعظةٍ أشدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال : «أيُّها النَّاسُ! إنَّكم مُنَفِّرون ، فمن صلَّى بالنَّاس فلْيُخفِّف ؛ فإنَّ فيهمُ المريض ، والضَّعيفَ ، وذا الحاجة» [البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦)] .

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة ، وتجادلهم في القَدرِ ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ؛ وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب ، فقال : «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعضٍ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» [ابن ماجه (٨٥)] .

ومن ذلك غضبه ﷺ حين يخالف الصَّحابة أمرَه ، ويُصرُّون على المغالاة في الدِّين ، والتَّشديد على أنفسهم ، ظناً منهم : أنَّ ذلك أفضلُ ممَّا أُمروا به ، وأقرب إلى الله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم ؛ أمرهم من الأعمال بما يُطِيقون ، قالوا : إنَّا

---

(١) الرُّغاء : صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، والخوار : صوت البقر ، وتيعر : يعني : تصيح .

لسنا كهيئتك يا رسولَ الله! إنَّ الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخَّر ، فيغضبُ ، حتَّى يُعْرفَ في وجهه الغضبُ ، ثمَّ يقول: «إنَّ أتقاكُم وأعلمُكم بالله أنا» [البخاري (٢٠)] .

ولم يكن غضب النَّبيِّ ﷺ في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيّاً ، وتعليميّاً؛ تحريضاً للصَّحابة على التَّيقُّظ ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء ، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأنَّ مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج؛ لأنَّه في صورة المُنْذِر ، وكذا المعلِّم إذا أنكر على مَنْ يتعلَّم منه سوءَ فهمٍ ونحوه؛ لأنَّه قد يكون أدعى للقبول منه ، وليس ذلك لازماً في حقِّ كلِّ أحدٍ؛ بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين»[١] .

هـ ـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة :

كان ﷺ تحدث أمامه أحداثٌ معيَّنةٌ ، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنًى معينٍ يريد تعليمه للصَّحابة ، ومشاكلته لتوجيهٍ مناسبٍ يريد بثَّه لأصحابه ، وعندئذٍ يكون هذا المعنى ، وذلك التَّوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النَّبيِّ ﷺ سَبْيٌ[٢] ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَها[٣] تسقي[٤] ، إذا وجدت صبيّاً في السَّبي؛ أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «أتُـرَوْن[٥] هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تَطرَحَهُ[٦] ، فقال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها!» [البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤)] .

«فانتهز ﷺ المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه ، والمشهود فيها حنان الأمِّ الفاقدة رضيعها؛ إذ وجدته ، وضرب بها المشاكلةَ والمشابهةَ برحمة الله تعالى؛ ليُعرِّف النَّاسَ رحمةَ ربِّ النَّاس بعباده»[٧] .

ثانياً: من أخلاق الصَّحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنَّبيِّ ﷺ:

حَرَصَ الصَّحابة رضي الله عنهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمَّة ، كان لها عظيمُ الأثر في

---

(١) فتح الباري (١/ ١٨٧).

(٢) السَّبْيُ: الأسرى.

(٣) تَحْلُبُ ثديَها ، وفي لفظٍ آخر: تَحَلَّبَ ثديُها ، أو ثدياها: أي: تهيأ لأن يُحْلَبَ.

(٤) تسقي: تبتغي ولداً ترضعه؛ لأنَّ ثديها قد امتلأ ، وتضرَّرت باجتماع اللبن فيه ، وفي روايةٍ (تسعى): وهو من السَّعي ، وهو المشي بسرعة ، أي: تسعى للبحث عن ولدها الَّذي فُقِدَ منها.

(٥) أَتُرَوْنَ ـ بضم المثناة ـ: أي: أتظنُّون.

(٦) أي: لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النَّار.

(٧) الرَّسول المعلِّم ﷺ ، لعبد الفتاح أبو غدة ، ص ١٦٠ ، وهذا المبحث اختصرته من مناهج وآداب الصَّحابة في التعلم والتعليم ، للدُّكتور عبد الرحمن البر.

حسن الحفظ ، وتمام الضَّبط ، وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للنَّاس؛ ومن هذه الآداب ، والأخلاق:

١ ـ الإنصات التَّامُّ ، وحسن الاستماع:

فقد كان رسولُ الله ﷺ أجلَّ في نفوس الصَّحابة ، وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدَّث ، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم ، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته؛ وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم ، ويشهدون عقولهم ، وقلوبهم ، ويحفزون ذاكرتهم ، فعن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في الحديث عن سيرته ﷺ في جلسائه ، قال: «... وإذا تكلَّم؛ أطْرَقَ جلساؤه ، كأنَّما على رؤوسهم الطَّير ، فإذا سكت؛ تكلَّموا....» [الشمائل للترمذي (٣٥٢)] .

قال الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدَّة ـ رحمه الله ـ: «أصله: أنَّ الغراب يقع على رأس البعير ، فيلقط منه القُراد ، فلا يتحرَّك البعير حينئذٍ؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القُراد في رأس البعير فيؤلمه ، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»(١) .

وأيّاً ما كان أصل المثل ، فهو يدلُّ على السُّكون التَّامِّ ، والإنصات الكامل ، هيبةً لرسول الله ﷺ ، وتعظيماً له ، وإجلالاً لحديثه(٢) .

٢ ـ ترك التَّنازع وعدم مقاطعة المتحدِّث حتَّى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب ، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين ، وإقبال بعضهم على بعضٍ ، والمعين على سهولة الفهم ، والتَّعلم؛ ففي حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه السَّابق في سيرته ﷺ في جلسائه ، قال: «لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتَّى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوَّلهم...» [سبق تخريجه] ، أي: أنَّ من بدأ منهم الحديث والكلام ، سكتوا حتَّى يفرغ أوَّلاً من حديثه ، ولم يقاطعوه ، أو ينازعوه ، وبذلك يبقى المجلس على وقاره ، وهيبته ، ولا تختلط فيه الأصوات ، ولا يحصل أدنى تشويش(٣) .

٣ ـ مراجعته ﷺ فيما أشكل عليهم حتَّى يتبيَّن لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله ﷺ ، وشدَّة تعظيمهم له ، لم يكونوا يتردَّدون في مراجعته ﷺ ؛ لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمُه ، حتَّى يسهل حفظه بعد ذلك ، ولاشك أنَّ هذه المراجعة تعين على تمام الفهم ، وحضور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ ﷺ : «إنِّي لأرجو ألا يدخلَ النَّار أحدٌ إن شاء الله ـ ممَّن شهد بدراً ، والحديبية» ، قالت:

---

(١) انظر: الرَّسول المعلم ﷺ وأساليبه في التَّعليم ، ص ٣٠.

(٢) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة ، ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٧.

قلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]» [أحمد (٦/ ٢٨٥) وابن ماجه (٢٨١)].

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أُنَيس رضي الله عنهم؛ الَّذي رحل جابرٌ إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد ـ أو قال: النَّاس ـ عُراةً غُرْلاً[1] بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ، ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُد، كما يسمعه مَنْ قَرُب: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّة أن يدخل الجنَّة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النَّار، وعنده مظلمةٌ، حتَّى أُقِصَّه[2] منه، حتى اللَّطمة»، قال: قلنا: كيف ذا، وإنَّما نأتي الله غُرْلاً بُهماً؟ قال: «بالحسنات والسَّيِّئات» قال: وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] [البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وأحمد (٣/ ٤٩٥) والحاكم (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) ومجمع الزوائد (١/ ١٣٣)].

وهكذا استفهم الصَّحابة عمَّا خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثرٌ كبيرٌ في الفهم، والوعي، والحفظ[3].

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئاً من النَّبيِّ ﷺ، وحملوا عنه علماً؛ جلسوا، فتذاكروه فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم؛ تأكيداً لحفظه، وتقويةً لاستيعابه، وضبطه، والعمل به، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنَّا نكون عند النَّبي ﷺ، فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا؛ تذاكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه»[4]. وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصَّحابة حتَّى بعد وفاته ﷺ؛ فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـ رحمه الله ـ! قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا؛ تذاكروا العلم، وقرؤوا سُوَرَهُ»[5].

---

(١) غُرْلاً: جمع أغرَل، وهو الأقلف، والغُرْلَة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تُقطع من الذَّكر عند الختان.

(٢) أقِصَّه: أمكِّنَهُ من أخذ القصاص ممَّن ظلمه.

(٣) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٨٠.

(٤) أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الخطيب في الجامع (٢/ ٨٦) رقم (١٢٢٩)، والسَّمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص ٤٨.

٥ ـ السُّؤال بقصد العلم ، والعمل[١] :

كانت أسئلة الصَّحابة بقصد العلم ، والعمل ، لا للعبث ، واللعب ، فكانت أسئلتهم مشفوعةً بهذا القصد؛ لِمَا علموا من كراهة النَّبيِّ ﷺ للمسائل العبثيَّة الَّتي لا يُحتاج إليها ، ولِمَا سمعوا من تحذيره ﷺ من كثرة السُّؤال ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: «كَرِه رسولُ الله ﷺ المسائلَ ، وعابَها»[٢] .

قال النَّوويُّ: «المراد: كراهة المسائل الَّتي لا يُحْتاج إليها ، لاسيَّما ما كان فيه هتك ستر مسلمٍ ، أو إشاعةُ فاحشةٍ ، أو شناعةٍ على مسلمٍ ، أو مسلمةٍ ، قال العلماء: أمَّا إذا كانت المسائل ممَّا يُحتاج إليه في أمور الدِّين ، وقد وقع ، فلا كراهة فيها»[٣] .

٦ ـ ترك التنطُّع ، وعدم السُّؤال عن المتشابه :

وذلك تطبيقاً لتحذير النَّبيِّ ﷺ من ذلك ، وتشديده على المتنطِّعين ، ونهيه عن مجالستهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] ، قالت: قال رسول الله ﷺ : «فإذا رأيت الَّذين يتَّبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم!» [البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)] .

٧ ـ ترك السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع :

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب ، فلم يتكلَّفوا السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع؛ حتَّى لا يؤدِّي السُّؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشَّرع ، أو تحريم ما لم يحرِّمه؛ فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التَّضييق على المسلمين ، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢] .

وحذَّر الرَّسول ﷺ من مثل ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ ، فحُرِّمَ من أجل مسألته» [البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)] .

---

(١) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة ، ص ٩٦ .

(٢) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسنادٍ صحيح في كتاب العلم ، ص ٢٠ ، رقم (٧٧) .

(٣) شرح النَّوويِّ على مسلم (٣/ ٧٤١) طبعة الشَّعب .

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله ﷺ ، ومراعاة وقت سؤاله :

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسُّؤال ؛ ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته ﷺ ؛ حتَّى لا يكون في السؤال إثقالٌ ، أو إرهاقٌ أو نحو ذلك ؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال : «كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجر ؛ انحرفنا إليه ، فمنَّا من يسأله عن القرآن ، ومنَّا من يسأله عن الفرائض ، ومنَّا من يسأله عن الرُّؤيا» [مجمع الزوائد : (١/ ١٥٩)] .

٩ ـ مراعاة أحواله ﷺ وعدم الإلحاح عليه بالسُّؤال :

وبخاصَّةٍ ، بعد أن نُهُوا عن السُّؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله ﷺ ، ويتحيَّنون ، وينتظرون مجيءَ العقلاء منهم؛ ليسألوا رسول الله ﷺ ، وهم يسمعون؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : نُهِينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ ، فكان يُعجِبنا أن يجيء الرَّجلُ من أهل البادية العاقلُ ، فيسأله ، ونحن نسمع ، فجاء رجلٌ من أهل البادية ، فقال : يا محمد! أتانا رسولك ، فزعم لنا أنَّك تزعم : أنَّ الله أرسلك . قال : «صدق» . . . . الحديث [مسلم (٩٢) وأبو داود (٤٨٦) والترمذي (٦١٩) والنسائي (٤/ ١٢١ ـ ١٢٢) وأحمد (٣/ ١٤٣ و١٩٣)] .

وهكذا استمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضحة ، منسجماً مع غرس فريضة التعلُّم ، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسلم ، فكانت تلك التَّوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم ، والأمَّة المسلمة ، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسولُ الله ﷺ ، وهذا جزءٌ من كلٍّ ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ ، وتذكيرٌ ، وتنبيهٌ لأهميَّة استمرار البناء التَّربويِّ ، والعلميِّ في الأمَّة ، حتَّى بعد قيام الدَّولة .

* * *

المبحث السَّادس
أحداثٌ وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصاديَّة:

أدَّت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصاديَّة الملقاة على عاتق الدَّولة النَّاشئة، وشرع القائد الأعلى ﷺ يَحُلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ، وأساليب متنوعةٍ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين، واهتمَّ ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصاديَّة في المدينة؛ فرأى: أنَّ القُوة الاقتصاديَّة بيد اليهود، وأنَّهم يملكون السُّوق التِّجاريَّة في المدينة، وأموالها، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلع، ويحتكرونها، ويستغلُّون حاجة النَّاس، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة، والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام، وأخلاقه الرَّفيعة في عالم التِّجارة، فحدَّد ﷺ مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النَّبوي، وخَطَّه برجله، وقال: «هذا سوقُكم، فلا ينتقصنَّ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (٢٢٣٣)].

وقد قامت السُّوق في عهده ﷺ رَحْبةً واسعةً، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبيِّ ﷺ، ورعايته، فتعهَّده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابطَ، وسنَّ له آداباً، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على الغَبْنِ، والغَرَرِ[1]، والغشِّ، والخداع، كما عُنِي ﷺ بحرِّيته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء، بين الجميع على السَّواء[2].

وقد أرسى ﷺ آداباً كثيرة، وحرماتٍ عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأمَّة على مَرِّ الدُّهور، وكَرِّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الآداب الَّتي كان يأمر بها،

---

(١) أي: بيع ما يجهله المتبايعان، أو ما لا يُوثَقُ بتسلُّمه، كبيع السَّمك في الماء.

(٢) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام، لأحمد الدرويش، ص ٣٥، ٣٦.

أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّوق ، وإشرافه عليه ، ومتابعته سير المعاملات فيه ، فقد كان ﷺ لا يرى منكراً إلا غيَّره ، وأزاله ، ولا معروفاً إلا أقرَّه ، ورغب في المواظبة عليه ، والالتزام به ، مستمدّاً كلَّ ذلك من توجيهات ، وتعليمات ربِّه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] .

ومن هذه الآداب :

١ ـ يُسَنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله ـ تعالى ـ ابتداءً ، ويحمده ، ويثني عليه؛ وذلك لما ورد عنه ﷺ : أنَّه قال: «مَنْ دخل السُّوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، يحيي، ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسنةٍ ، ومحا عنه ألف سيئةٍ ، ورفع له ألف درجةٍ ، وبنى له بيتاً في الجنة» [الترمذي (٣٤٢٨) وابن ماجه (٢٢٣٥) والحاكم (١/ ٥٣٨)] .

«وإنَّما خصَّ السُّوق بالذِّكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله ، والاشتغال بالتِّجارة ، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان ، ومجمع جنوده ، فالذِّكر هنا يحارب الشَّيطان ، ويهزم جنوده ؛ فمن قال ذلك فهو خليقٌ بما ذُكر من الثَّواب»[١] .

٢ ـ يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته ﷺ : أنَّه : «ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سَخَّابٍ[٢] في الأسواق ، ولا يدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ ، ولكن يعفو ، ويغفرُ» [البخاري (٢١٢٥)] . فالصَّخَب مذمومٌ بذاته ، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟![٣] .

٣ ـ ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق ، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار ، والأوساخ؛ لكي لا يُؤْذَى المسلمون في حركة سيرهم ، ولا بالرَّوائح الكريهة ، وقد حثَّ ﷺ على النَّظافة ، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس ، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر ، قال ﷺ : «اتَّقوا اللَّعَّانَيْنِ»[٤] قالوا: وما اللَّعَّانَانِ يا رسولَ الله؟! قال: «الَّذي يَتَخَلَّى في طريق النَّاس ، أو في ظِلِّهم» [مسلم (٢٦٩) وأبو داود (٢٥)] .

٤ ـ الاحتراز في حمل السِّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاحٌ؛ فقد ثبت عنه ﷺ : أنَّه قال: «إذا

---

(١) تحفة الأحوذي ، بشرح جامع التِّرمذيِّ (٩/ ٣٨٦).

(٢) السَّخَب ، ويقال: الصَّخَب: رفع الصَّوت بالخصام.

(٣) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٤١ .

(٤) اللَّعَّانَيْن: المراد بها الأمرين الجالبينِ لِلَّعن ، الحاملين النَّاس عليه ، وقد يكون اللاَّعن بمعنى الملعون ، والتَّقدير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلهما.

مرَّ أحدكم في مسجدنا ، أو في سوقنا ، ومعه نَبْلٌ[1] فَلْيُمْسِكْ على نِصَالها[2] ـ أو قال : فليقبضْ بكفِّه ـ أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (٧٠٧٥) ومسلم (٢٦١٥)] ويقاس عليه الأسلحة ، مع ما فيها من خطرٍ محقَّقٍ عند أدنى ملامسةٍ لها[3] .

٥ ـ الأمر بالوفاء بالعقود ، والعهود ، وسائر الالتزامات ، والتَّحذير من نقضهما ، أو الغدر فيهما ، قال تعالى : ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] .

٦ ـ السُّهولة ، واليسر ، والمسامحة في البيع ، والشِّراء ، ونحوهما من صنوف التِّجارة ، قال ﷺ : «رَحِمَ اللهُ عبداً سَمْحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى» [البخاري (٢٠٧٦) والترمذي (١٣٢٠) وابن ماجه (٢٢٠٣)] .

٧ ـ الصِّدقُ ، والبيانُ ، وعدم الكتمانِ من أهمِّ الآداب الَّتي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى ﷺ على التَّاجر الصَّادق في معاملته ، الأمين في أخذه ، وعطائه ، وبيَّن : أنَّه يُحْشر يوم القيامة مع النَّبيِّين ، والصِّديقين ، والشُّهداء ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، قال ﷺ : «التَّاجر الصَّدوق الأمين ، مع النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء» [الترمذي (١٢٠٩)] وفي لفظٍ : «يوم القيامة» [ابن ماجه (٢١٣٩)] .

٨ ـ وجوب الابتعاد عن الأَيْمان الكاذبة ، فقد قال ﷺ : «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ[4] للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ للرِّبْح» [البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦)] ، وقال ﷺ : «إيَّاكم وكَثْرةَ الْحلِفِ في البيع! فإنَّه يُنْفِقُ ، ثمَّ يَمْحَقُ» [مسلم (١٦٠٧) والنسائي (٧/ ٢٤٦) وابن ماجه (٢٢٠٩)] . «فالحالف يروِّج سلعته ، وينفقها ، لكن هذا الرَّواج ، وذلك الإنفاق موضعٌ لنقصان البركة ، ومظنَّةٌ له في المال ، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقاً ، أو حرقاً ، أو غرقاً ، أو غصباً ، أو نهباً ، أو عوارض يُنفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»[5] .

هذه بعض الآداب والتَّوجيهات النَّبويَّة ، تتعلَّق بآداب التَّعامل في السُّوق الإسلاميِّ ؛ ممَّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين ، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن

---

(١) النَّبل : السِّهام العربيَّة ، ولا واحد لها من لفظها.
(٢) النَّصْل : حديدة السَّهم ، والرُّمح ، والسَّيف ما لم يكن له مقبض.
(٣) انظر : أحكام السُّوق ، ص ٤٤ .
(٤) مَنْفَقَة ، ومَمْحَقة : فيه النَّهي عن الحَلِف في البيع ؛ فإنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ ، وينضمُّ إليه ترويج السِّلعة ، وربما اغترَّ المشتري باليمين.
(٥) شرح السُّيوطي على سنن النَّسائي (٧/ ٢٤٦).

يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ، ويتحكَّموا فيه ، وهكذا قهروا اليهود في أدقِّ اختصاصاتهم[(١)] .

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم ، والآداب مع توسُّع الدَّولة ، ونزول التَّشريعات ، وأصبح للتِّجارة علمٌ ، وفقهٌ ، ومبادئ ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : «لا يبيعُ في سوقنا إلا مَنْ تفقَّه في الدِّين»[(٢)] .

إنَّ للأسواق في الإسلام مكانةً عاليةً ، ومنزلةً ساميةً؛ وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصاديَّة في حياة النَّاس؛ حيث إنَّها موضع التَّعامل ، والمبادلات فيما بينهم ، وعن طريقه يحصل كلُّ فردٍ على أموره المعيشية ، وحاجته الضَّروريَّة ، ومستلزماته الخاصَّة والعامَّة ، ولذلك حظي السُّوق الإسلاميُّ بالتَّوجيهات النَّبويَّة[(٣)] .

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن آفةٍ اقتصاديةٍ ، واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ ، أثَّرت على دين النَّاس ، ودنياهم ، ألا وهي نقص الميزان ، والمكيال ، فقد كان هذا العمل يخالف ، ويناقض النَّهج الَّذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضاه ، ذلك النَّهج هو العدل في كلِّ شيءٍ . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧] والميزان : هو العدل[(٤)] ، والموازين ، والمكاييل آلاتٌ لإقامة العدل؛ ولذا أمر الله بإيفائها ، ونهى عن نقصها .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] .

وتوعَّد اللهُ المطفِّفين بالويل ، فقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين: ١ ـ ٥] .

فتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من قصَّة شعيبٍ : أنَّ نقص الميزان ، والمكيال تعطيلٌ للمنهج الإلٰهيِّ ، ومخالفةٌ للأوامر الرَّبَّانيَّة ، وتعرُّضٌ لسخط الجبَّار ، وعذابه في الدُّنيا ، والآخرة .

---

(١) في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ـ الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٧٠ .
(٢) انظر : أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٣ .
(٣) انظر : أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
(٤) انظر : زاد المسير ، لابن الجوزي (٧/ ٧٧) .

إنَّ هذا العمل له ضَرَرهُ على دنيا النَّاس؛ لأنَّه يجلب الشِّدَّة بدل الرَّخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها، ويؤدِّي إلى إضرارٍ بمعايش النَّاس؛ ولذلك حاربته الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة[1].

إنَّ نقص المكيال، والميزان، كان من الأسباب التي أدَّت إلى هلاك قوم شعيبٍ، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

كانت قصَّة شعيبٍ مع قومه من ضمن المنهاج النَّبويِّ في تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه؛ ولذلك فهموا: أنَّ الانحراف عن المنهج الرَّبانيِّ معناه الدَّمار، والهلاك، وأنَّ شموليَّة هذا الدِّين تدخل في شؤون حياتهم كافَّةً.

إنَّ المنهج الرَّبانيَّ، عالج المشكلة الاقتصاديَّة عن طريق القصص القرآنيِّ، لكي يتَّعظ النَّاس، ويعتبروا بِمَنْ مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التَّشريعيَّ التَّعبديَّ، الَّذي له أثرٌ في البناء التَّنظيميِّ التَّربويِّ، فقد كان المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ يرعى هذه الأمَّة، وينقل خطاها؛ لكي تكون مؤهَّلةً لحمل الأمانة، وتبليغ الرِّسالة، ولا فرق في وسط هذه الدَّولة بين الأمور الصَّغيرة، والأمور الكبيرة؛ لأنَّها كلَّها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخةً أمام الأعاصير الَّتي تحتمل مواجهتها؛ ومن هذه الشعائر التعبُّديَّة التي فُرِضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزَّكاة، وزكاة الفطر، والصِّيام، ونلاحظ سنَّة التَّدرُّج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع النَّاس، والانتقال بهم نحو الأفضل؛ دون اعتسافٍ، أو تعجيلٍ، بل كلُّ شيءٍ في وقته[2].

ثانياً: بعض التَّشريعات:

١ ـ تشريع فريضة الصِّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصِّيامَ، وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السَّابقة، وفي ذلك تأكيدٌ على أهمِّيَّة هذه العبادة الجليلة، ومكانتها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام، واختصَّه من بين سائر الشُّهور؛ لإنزال القرآن العظيم، فقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ

---

(١) انظر: أسباب هلاك الأمم السَّالفة، لسعيد محمَّد، ص ٤٤٦.
(٢) انظر: دراساتٌ في عصر النُّبوَّة، للشُّجاع، (ص ١٦٦ ـ ١٦٨).

ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وقد وضَّحت الآية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى الَّتي يحظى بها الصَّائمون المخلصون؛ ألاَ وهي بلوغ درجة التَّقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فالصِّيام بالنِّسبة للأمَّة المسلمة، مدرسةٌ فريدةٌ، ودورةٌ تدريبيَّةٌ على طهارة النُّفوس؛ لكي تنخلع من آفاتها، وتتحلَّى بالفضائل، وترتقي في مدارج التَّقوى، والصَّلاح[1].

ولأهمِّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النَّبيُّ ﷺ في أيَّامٍ للصِّيام، وحثَّ على صيامها، ورغَّب في الأجر، والمثوبة من الله تعالى؛ وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحةً أبوابُها طِيلَةَ السَّنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوةٍ في قلبه، وحاجةٍ لترويض نفسه، ورغبةٍ في المزيد من الأجر، والفضل عند الله سبحانه، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صَامَ يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سبعين خريفاً» [البخاري (٢٨٤٠) ومسلم (١١٥٣)] .

٢ ـ تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه، شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ زكاة الفطر، وهي على كلِّ حُرٍّ أو عبدٍ، ذكرٍ أو أنثى، صغيرٍ أو كبيرٍ من المسلمين، والحكمة من فرضية هذه الزَّكاة، وإلزام المسلمين بها ظاهرةٌ وجليَّةٌ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهْرَةً للصَّائم من اللَّغو والرَّفث، وطُعْمةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات» [أبو داود (١٦٠٩) وابن ماجه (١٨٢٧) والحاكم (١/٤٠٩)] ، ففي هذا الحديث النَّصُّ على أنَّ الحكمة مركَّبةٌ من أمرين[2]:

أ ـ يتعلَّق بالصَّوم في شهر رمضان، فإنَّ النُّفوس مجبولةٌ على الخطأ، والتَّقصير، والوقوع في لغو القول؛ الَّذي لا فائدة فيه، أو فيه ضررٌ من الكلام الباطل، ونحو ذلك، ممَّا لا يسلم الإنسان منه غالباً، فجاءت هذه الزَّكاة في ختام الشَّهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومَه من ذلك.

ب ـ إغناء المحتاج في يوم العيد؛ الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يومٌ يسعد فيه المجتمع المسلم كلُّه، فينبغي أن يعمَّ هذا السُّرور على الجميع، فشُرِعت هذه الزَّكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال، واستجداء النَّاس، لذلك كانت خاصَّةً بالفقراء، والمساكين، لا تُعْطَى

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/١٠٦)، ومنهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٥١، ٢٥٢).
(٢) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٦٨، ٢٦٩).

لغيرهم ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم : «طعمةً للمساكين» ؛ ولذلك نرى : أنَّ رسول الله ﷺ لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثيرٌ من النَّاس عنه ؛ بل جعل الواجب شيئاً قليلاً ، ممَّا يسهل على النَّاس ، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد ، حتَّى يتمكَّن من أدائها كثيرٌ من المسلمين ، فيحصل الغَنَاءُ بذلك لهؤلاء المحتاجين ، فما أعظم هذا الدِّين ![١] ولهذه الزَّكاة أحكامٌ وتفصيلاتٌ تُطْلَب من كتب الفقه[٢] .

٣ ـ صلاة العيد :

وفي هذه السَّنَةِ صلَّى النَّبيُّ ﷺ صلاة العيد ، فكانت أوَّل صلاةٍ صلاَّها ، وخرج بالنَّاس إلى المُصَلَّى ؛ يهلِّلون الله ، ويكبِّرونه ، ويعظِّمونه ؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النِّعم المتتالية .

إنَّ العيد موسمٌ من مواسم الخير ، والتَّعاطف ، والتَّحابب ، وكان من دأب رسول الله ﷺ : أنَّه إذا صلَّى العيد ، ذكَّر ، وأنذر ، ورغَّب ، ورهَّب ، فيتسابق في مِضْمَار البذل ، والعطاء الرِّجالُ ، والنِّساء ، والصِّغار ، والكبار[٣] .

٤ ـ تشريع الزَّكاة :

وفي السَّنة الثانية للهجرة شرع الله الزَّكاة ؛ الَّتي هي ركنٌ من أركان الإسلام ، وكان ذلك بعد شهر رمضان ؛ لأنَّ تشريع الزَّكاة العامَّة كان بعد زكاة الفطر ، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً ؛ يدلُّ على هذا ما رواه الأئمَّة : أحمد ، وابن خزيمة ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال : «أمَرَنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزَّكاةُ ، ثمَّ نزلت الزَّكاةُ ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله»[٤] ، قال الحافظ ابن حجر : «إسناده صحيحٌ»[٥] ، «وجمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً على أنَّ مشروعية الزَّكاة إنما كانت بالمدينة في السَّنة الثَّانية»[٦] .

فالزَّكاة في العهد المكيِّ كانت مطلقةً من القيود ، والحدود ، وكانت موكولةً إلى إيمان الأفراد ، وأرْيَحِيَّتِهِم ، وشعورهم بواجب الأخوَّة نحو إخوانهم من المؤمنين ، فقد يكفي في

---

(١) انظر : المال في القرآن الكريم ، لسليمان الحصين ، ص ٣٣٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٠٩) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١٠) .
(٤) صحيح سنن النَّسَائي ، للألباني ، كتاب الزَّكاة ، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزَّكاة ، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه .
(٥) فتح الباري (٣/ ٢٠٧) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١١١) .

ذلك القليل من المال ، وقد تقتضي الحاجة بذلَ الكثيرِ ، أو الأكثر[(١)] .

فكانت الآيات المكِّيَّة تهتمُّ بجانب التَّربية ، والتَّوجيه ، وتحثُّ على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعةٍ ، منها : أنَّ إطعام المساكين من لوازم الإيمان ، ففي سورة المدَّثر ـ وهي من أوائل ما نزل من القرآن ـ يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين ، في جنَّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة ، وقد أُطبقت عليهم النِّيران ، فيسألونهم عمَّا أحلَّ بهم هذا العذاب ، فكان من أسبابه ، وموجباته : إهمال حقِّ المسكين ، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه ، وهم عنه معرضون[(٢)] ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المدثر : ٣٨ ـ ٤٦] .

وقصَّ الله على عباده قصَّة أصحاب الجنَّة ، الَّذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بلَيْلٍ ؛ ليحرموا منها المساكين ـ الَّذين اعتادوا أن يصيبوا شيئاً من خيرها يوم الحصاد ـ فحلَّت بهم عقوبة الله العاجلة : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٩ ـ ٣٣] .

ولم تقف عناية القرآن المكِّيِّ عند الدَّعوة إلى الرَّحمة بالمسكين ، والتَّرغيب ، في إطعامه ، ورعايتـه ، والتَّرهيب من إهمالـه والقسوة عليـه ؛ بل تجاوز ذلـك ، فجعل في عنق كلِّ مؤمنٍ حقاً للمسكين ، أن يحضَّ غيره على إطعامـه ، ورعايته ، وجعل تـرْكَ هذا الحضِّ قرينَ الكفر بالله العظيم ، وموجباً لسُخْطه ـ سبحانه ـ وعذابه في الآخرة .

قال تعالى في شأن أصحاب (الشِّمال) : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢] .

وَلِمَ كلُّ هذا العذاب ، والهوان ، والخزي على رؤوس الأشهاد؟ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة : ٣٣ ـ ٣٤] .

وهذه الآيات المزلزِلة للقلوب ، المنذرة بالعذاب ، هي الَّتي جعلت مثلَ أبي الدَّرداء رضي

---

(١) انظر : فقه الزَّكاة ، للقرضاوي (١/ ٧٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٧٠) .

الله عنـه يقول لامرأتـه: «يا أمَّ الدرداء! إنَّ لله سلسلةً ولم تزل تغلي بها مَرَاجِلُ النَّار منذ خَلقَ الله جهنَّمَ، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجَّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء»[١].

أمَّا القرآنُ المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعةٌ، لها أرضٌ، وكيانٌ وسلطان؛ فلهذا اتَّخذت التَّكاليف الإسلاميَّة صورةً جديدةً ملائمةً لهذا الطَّور: صورة التحديد، والتَّخصيص، بعد الإطلاق والتَّعميم، صورة قوانين إلزاميَّة، بعد أن كانت وصايا توجيهيةً فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوَّة والسُّلطان، مع اعتمادها على الضَّمير، والإيمان، وظهر هذا الاتِّجاه المدنيُّ في الزَّكاة؛ فحدَّد الشَّارع الأموال التي تجب فيها، وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها، وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[٢]، وأكَّد النَّبيُّ ﷺ في المدينة فريضة الزَّكاة، وبيَّن مكانتها في دين الله، وأنَّها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين، ورغَّب في أدائها، ورهَّب من منعها بأحاديث شتَّى، وأساليب متنوعةٍ.

وأعلن الرَّسول ﷺ في أحاديثه: أنَّ أركان الإسلام خمسةٌ، بدأها بالشَّهادتين، وثنَّاها بالصَّلاة، وثلَّثها بالزَّكاة، فالزَّكاة في السُّنَّة ـ كما هي في القرآن ـ ثالثةُ دعائم الإسلام: الَّتي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها[٣]، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى، وكما شرع رسولُه ﷺ، تحقَّقت أهدافٌ عظيمة في المجتمع، وبرزت آثارها في حياة الفرد، والمجتمع.

فمن آثار الزَّكاة على الفرد:

أ ـ الوقاية من الشُّحِّ:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ب ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

---

(١) الأموال، ص ٣٥ نقلاً عن فقه الزَّكاة (١/ ٧٠).

(٢) انظر: فقه الزَّكاة (١/ ٧٨).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٨٩).

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ، وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] .

وقال ﷺ : «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ» [مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (٢/ ١٠٠٠)] .

وقال ﷺ : «ما من يوم يُصبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ يَنزلان ، فيقول أحدُهما : اللَّهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر : اللَّهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً» [البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)] .

وهكذا يتمُّ تطهير نفسِ المسلم من آفة الشُّحِّ ، والبُخل ، ويسارع إلى الإنفاق ، موقناً بفضل الله ، ووعده الذي لا يتخلَّف بالرِّزق الواسع[١] .

ج ـ حصول الأمن في الدُّنيا والآخرة :

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] .

فهم في أمنٍ ، وسعادةٍ ، وراحةِ بالٍ؛ لأنَّهم أدَّوا ما أمرهم الله تعالى به ، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه .

ومن آثار الزَّكاة على المجتمع: حصولُ المحبَّة بين الأغنياء والفقراء ، وشيوع الأمن والطُّمَأْنِينَة في أوساطه ، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنَّهم كالجسد الواحد ، قال ﷺ : «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثَلُ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» [مسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤/ ٢٧٠)] ، ومن الآثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي[٢] .

عندما كانت الزَّكاة تُجْمَع من كلِّ من تجب عليه ، وتُنفَق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام؛ كان المجتمع الإسلاميُّ يعيش في رخاءٍ ، ورغدٍ ، وتمتُّعٍ بالطَّيبات ، وتآلفٍ ، وتآخٍ ، وتحاببٍ؛ فقد روى الرُّواة: أنَّه في عهد خامس الخلفاء الرَّاشدين ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب النَّاس ، واغتنوا ، حتَّى إنَّهم بحثوا عن مستحقٍّ للصَّدقة ، فلم يجدوا ، فما كان منهم إلا أن اشترَوا بها عبيداً ، وأعتقوهم لوجه الله ، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى ، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أممٌ قليلةٌ اليـوم ، وذلك بفضل تشريع الزَّكاة[٣] .

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٤٩).

(٢) انظر: المال في القرآن الكريم ، ص٢٤٠.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١١٥).

٥ ـ زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها :

عقد رسول الله ﷺ على عائشة في مكَّة قبل الهجرة ، وهي ابنة ستٍّ سنين ، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين ، وذلك في شهر شوَّال من السَّنة الأولى للهجرة(١) .

وكانت حركة الدَّعوة والجهاد ، والتَّربية ، وبناء الدَّولة مستمرةً ، ولم تتعطَّل حالات الزَّواج في حياة الرَّسول ﷺ وأصحابه؛ بل الزَّواج ، والإكثار منه كان عادياً جدّاً ، في حياتهم ، كالطَّعام ، والشَّراب ، وذلك من مظاهر : أنَّ الإسلام دين الفطرة ، والواقع ؛ بل إنَّ الزَّواج جزءٌ مهمٌّ في بناء المجتمع المسلم(٢) .

كان رسول الله ﷺ قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرَّابعة والخمسين من عمره ، وحيثما يُذكر هذا الرَّقم؛ يتبادر للذِّهن الشَّيب ، والضَّعف ، ونفسيةٍ أصابتها الشَّيخوخة ، ولاشكَّ أنَّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار النَّاس كقاعدةٍ عامَّةٍ؛ ولكنَّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ، ونشاطه ، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثَّلاثين يحمل في جسمه ، ونفسيته أعباء الخمسين ، وقد نجد في بعض الأحيان إنسان الخمسين ، فلا نحكم عليه بأكثر من الثَّلاثين ، وشخصية رسول الله ﷺ فذَّةٌ في هذا الميدان ، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همَّةً ، وعزماً ، ومَضَاءً وفحولةً؛ إنَّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان ، والأدلة تؤيِّد ما ذهبت إليه؛ ومنها :

أ ـ لما عرض رسولُ الله ﷺ نفسَه على القبائل ، مرَّ على بني عامر بن صعصعة ، وعرض عليهم أمره ، فقال بَيْحَرةُ بن فِرَاس : «والله! لو أنِّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب»(٣) ، ونلحظ في قول بَيْحَرَة :

ـ عبَّر عنه بـ(الفتى) ، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر ، الممتلئ حيويةً ، ونشاطاً .

ـ وفي قوله : «لأكلت به العرب» يعبِّر عمَّا لاحظه في شخصية الرَّسول الكريم ﷺ من حيويَّةٍ ، وهمَّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً ، كانت هذه نظرة بَيْحَرَة ، والرَّسول ﷺ في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنَّه الشباب شكلاً ، ومضموناً ، مظهراً ونفسيَّةً ، همَّةً ، وروحاً(٤) .

ب ـ وفي خبر الهجرة ، روى البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال : «أقبل نبيُّ الله ﷺ إلى

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ١٦٨ .
(٢) انظر : الأساس في السُّنَّة (١/ ٤٢٠) .
(٣) انظر : سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤) .
(٤) انظر : من معين السِّيرة ، ص ١٧١ .

المدينة ، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَف ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌّ لا يُعْرَفُ ، قال: فيلقى الرَّجلُ أبا بكرٍ ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرَّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرَّجل يهديني السبيل ، قال: فيحسِب الحاسِبُ: أنَّه إنَّما يعني الطَّريقَ ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (٣٩١١) وأحمد (٢/ ٢١١)] ، وكان ﷺ لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[١].

ويلاحظ من النَّصِّ بوضوحٍ: أنَّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنِّه الحقيقي شيخاً[٢]؛ بينما كان ﷺ يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه ، كما أوضح ذلك القسطلاَّنيُّ بقوله: وكان ﷺ لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[٣].

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفارق في العمر بينه ﷺ وبين عائشة ، لم يكن ذلك الفارقَ الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة ، فها هو ﷺ يسابق السَّيدة عائشة ، فتسبقه مرَّةً ، ويسبقها أخرى ، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (٦/ ٢٦٤) وأبو داود (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) وابن حبان (٤٦٩١)] ، والأمثلة في حياته ﷺ كثيرةٌ[٤].

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتي كانت وراء زواج رسول الله ﷺ من عائشة رضي الله عنها ، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلِع الحياة في المدينة ، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته ﷺ ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته ، ومع أسرته ، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرَّسول الكريم ﷺ ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التأسِّيَ به ، وكانت تلك مهمَّةُ السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها ـ على الخصوص ـ وبقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ؛ فقد استطاعت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ ، أن تؤدِّيَ دورها على خير ما يُرام ، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبيِّن ، وتؤكِّد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبَلِّغَ ما وَعَتْهُ عن رسول الله ﷺ ، فرضي الله عنها![٥].

* * *

(١) انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (١/ ٣٥٥) نقلاً عن (من معين السيرة).
(٢) انظر: من معين السيرة ، ص ١٧١ .
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٣ .

الفصل الثَّامن
غزوة بدرٍ الكبرى[(١)]

المبحث الأوَّل
مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام ، تحمل أموالاً عظيمة[(٢)] لقريش ، يقودها أبو سفيان ، ويقوم على حراستها بين ثلاثين ، وأربعين رجلاً[(٣)] ، فأرسل الرَّسول ﷺ بَسْبَسَ بنَ عمرو[(٤)]؛ لجمع المعلومات عن القافلة[(٥)] ، فلَّما عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين ، ندب رسولُ الله ﷺ أصحابه للخروج ، وقال لهم: «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[(٦)] ، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر ، من شهر رمضان المبارك ، من السَّنة الثانية للهجرة ، ومن المؤكَّد: أنَّه حين خروجه ﷺ من المدينة ، لم يكن في نيَّته قتالٌ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش ، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب ، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ ، ودماؤهم مباحةً ، فكيف إذا علمنا: أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشيَّة ، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكَّة ، قد استولى عليها المشركون ظلماً ، وعدواناً[(٧)].

---

(١) ينظر الشكلان (١٤ و١٥) في الصفحتين (٦١٠ و٦١١).

(٢) قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار ، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ (١/ ٢٨٦).

(٣) جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص ١٠٧.

(٤) ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (١٩٠١) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس). . . قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والآخر لقباً».

(٥) مسلمٌ ، رقم (١٩٠١).

(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ٦١) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٧) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ ، د. محمَّد آل عابد (١/ ٤٣).

كلَّف رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن أمِّ مكتوم بالصَّلاة بالنَّاس في المدينة ، عند خروجه إلى بدرٍ ، ثمَّ أعاد أبا لُبَابة من الرَّوحَاء إلى المدينة ، وعيَّنه أميراً عليها[(١)] .

أرسل النَّبيُّ ﷺ اثنين من أصحابه[(٢)] إلى بدرٍ طليعةً ، للتَّعرُّف على أخبار القافلة فرجعا إليه بخبرها[(٣)] : وقد حصل خلاف بين المصادر الصَّحيحة حول عدد الصَّحابة ، الذين رافقوا النَّبيَّ ﷺ في غزوته هذه إلى بدرٍ ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمئةٍ» [البخاري (٣٩٥٧) و(٣٩٥٨)] ؛ يذكر مسلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتسعة عَشَرَ رجلاً» [مسلم (١٧٦٣)] ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّحابة البدريين[(٤)] .

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة ؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ ، واحتوائها ، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم سوف يواجهون قوَّات قريشٍ ، وأحلافها مجتمعةً للحرب ، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (١٧٦٣)] ، معهم مئتا فرسٍ ، يقودونها إلى جانب جمالهم ، ومعهم القِيانُ[(٥)] يضربن بالدُّفوف ، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ ﷺ وأصحابه[(٦)] ، في حين لم يكن مع القوات الإسلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبَها . [الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٠٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)] .

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النَّبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فيها من العِبَرِ والمواعظ الشَّيءُ الكثير:

١ ـ إرجاع البَرَاء بن عازبٍ وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النَّبيِّ ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عِير أبي سفيان وصلوا إلى (بيوت السُّقيا) خارج المدينة ، فعسكر فيها النَّبيُّ ﷺ ، واستعرض ﷺ مَنْ خرج معه ، فردَّ مَنْ ليس له قدرةٌ على المُضِيِّ مع جيش المسلمين ، وملاقاة مَنْ يُحتَمَل نشوبُ قتالٍ معهم ، فردَّ على هذا الأساس البَرَاء بن عازب ، وعبد الله بن عمر؛ لصغرهما ، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين ، وعازمَيْنِ على الاشتراك في الجهاد . [البخاري (٣٩٥٥) و(٣٩٥٦)] .

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٢٦٠) ، والمستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢) .
(٢) هما عديُّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٢٤) .
(٣) الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح .
(٤) البداية والنِّهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط .
(٥) القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان .
(٦) البداية والنِّهاية (٣/ ٢٦٠) .

٢ ـ (**فارجعْ فلن أستعينَ بمشركٍ**): عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرج رسولُ الله ﷺ قِبَلَ بدرٍ، فلمَّا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ، أَدْرَكَهُ رَجُلٌ، قد كان يُذْكَرُ منه جُرْأَةٌ، ونَجْدةٌ؛ ففرِحَ أصحابُ رسول الله ﷺ حين رَأَوْهُ، فلمَّا أَدْرَكَهُ، قال لرسول الله ﷺ: جئتُ لأَتَّبِعَكَ، وأُصيبَ معَكَ، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمنُ بالله ورَسُولِهِ؟» قال: لا، قال: «فارجعْ؛ فلن أستعينَ بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النَّبيُّ ﷺ كما قال أَوَّل مرَّةٍ، ثمَّ رجع، فأدركه بالبَيْدَاءِ، فقال له كما قال أَوَّل مرَّة: «تؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «فانْطَلِقْ» [مسلم (١٨١٧) وأبو داود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وأحمد (٣/ ١٤٨ و١٤٩)].

٣ ـ **مشاركة النَّبيِّ ﷺ أصحابه في الصِّعاب**: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا يوم بدرٍ كلُّ ثلاثة على بعيرٍ، وكان أبو لُبَابَةَ، وعليُّ بن أبي طالبٍ زميلَيْ رسول الله ﷺ. قال: وكانت عُقبَةُ رسول الله ﷺ. قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [أحمد (١/ ٤١١) وابن حبان (٤٧٣٣) وأبو يعلى (٥٣٥٩) والبزار (١٧٥٩) ومجمع الزوائد (٦/ ٦٩)].

ثانياً: **العزم على ملاقاة المسلمين ببدر**: بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيِّ ﷺ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته، واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل، في الوقت نفسه أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلتها، وأموالها[١]، فقد كان أبو سفيان يَقِظاً حَذراً، يتلقَّط أخبار المسلمين، ويسأل عن تحرُّكاتهم؛ بل يتحسَّس أخبارهم بنفسه، فقد تقدَّم إلى بدرٍ بنفسه، وسأل مَنْ كان هناك: هل رأيتم من أحدٍ؟ قالوا: لا، إلا رجلين، قال: أروني مُنَاخَ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر فَفَتَّهُ، فإذا هو فيه النَّوى، فقال: هذه والله! علائفُ يثربَ[٢]، فقد استطاع أن يعرف تحرُّكات عدوه، حتَّى خبر السَّريَّة الاستطلاعيَّة عن طريق غذاء دوابِّها، بفحصه البعر الَّذي خلَّفته الإبل؛ إذ عرف أنَّ الرَّجلين من المدينة؛ أي: من المسلمين، وبالتَّالي فقافلته في خطرٍ، فأرسل ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو، إلى قريشٍ، وغيَّر طريق القافلة، واتَّجه نحو ساحل البحر[٣].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يَرَوْنه من امتهانٍ للكرامة، وتعريضٍ للمصالح الاقتصاديَّة للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٣) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص ٣٣، ٣٤.

لمكانة قريشٍ بين القبائل العربيَّة الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتاليَّة(١).

لقد جاءهم ضَمْضَمُ بنُ عمرو الغِفَاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جدّاً، يتأثَّر بها كلُّ من رآها، أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه، وجَدَعَ أنفَ بعيره، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ، ومن دُبُرٍ، ودخل مكَّة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ(٢)! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد مع أصحابه، لا أرى أن تُدْركوها، الغوثَ، الغوثَ!(٣).

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَة، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته، والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكَّة، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في آراء زعماء قريش، فقد أصرَّ أغلبهم على التَّقدُّم نحو بدرٍ؛ من أجل تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التِّجارة القرشيَّة، وإشعار القبائل العربيَّة الأخرى بمدى قوَّة قريش، وسلطانها، وقد انشق بنو زُهْرَة(٤)، وتخلَّف في الأصل بنو عديٍّ، فعاد بنو زُهْرَةَ إلى مكَّة، أمَّا غالبية قوَّات قريشٍ، وأحلافهم؛ فقد تقدَّمت؛ حتَّى وصلت بدراً(٥).

ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ ﷺ لأصحابه:

لمَّا بلغ النَّبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ ﷺ، استشار رسولُ الله ﷺ أصحابه في الأمر(٦)، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة، ولم يستعدُّوا لها، وحاولوا إقناع الرَّسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صوَّر القرآنُ الكريم موقفَهم، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢) اللَّطِيمة: القافلة المحمَّلة بشتَّى أنواع البضاعة غير الطعام.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢/ ٢٢١).
(٤) نصحهم الأَخْنَسُ بن شريق بذلك، انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١).
(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٦) البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، رقم (٣٩٥٢)، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

وقد أجمع قادة المهاجرين ، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ[١] ، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه : شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً ، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به[٢] : أتى النَّبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ ، ولكنَّا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخَلْفك ، فرأيت النَّبيَّ ﷺ أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (٣٩٥٢)] .

وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ ولكن: امضِ ونحن معك ، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ . [البخاري (٤٦٠٩)] .

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده ، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية ، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول ﷺ خارج المدينة ، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ ، ـ وهو حامل لواء الأنصار ـ مقصد النَّبيِّ ﷺ من ذلك ؛ فنهض قائلاً : (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ : «أجل» ، فقال: لقد آمنَّا بك ، وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السَّمع ، والطَّاعة ، فامضِ يا رسول الله! لما أردت ، فنحن معك ، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللِّقاء ، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فَسِرْ على بركة الله . [ابن هشام (٢/ ٢٦٧) وبنحوه مسلم (١١٧٩)] .

وسُرَّ النَّبيُّ ﷺ من مقالة سعد بن معاذٍ ، ونشَّطه ذلك ، فقال ﷺ : «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين ، والله! لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٤) وابن هشام (٢/ ٢٦٧)] .

كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله ﷺ وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة ، وشجَّعتهم على القتال ، إنَّ حرص النَّبيِّ ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات ، يدلُّ على تأكيد أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم ، فإمَّا إلى العلياء ، وإمَّا تحت الغبراء[٣] .

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٨٨) .

(٢) المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد ، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك ، لكان حصوله أحبَّ إليه .

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٣٧ .

رابعاً: المسير إلى لقاء العدوّ، وجمع المعلومات عنه:

نظَّم النَّبيُّ ﷺ جنده، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة، وشجاعتهم، واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض، وسَلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سَوْدَاوَيْن إلى سعد بن معاذٍ، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وجعل على السَّاقة قيس بن أبي صَعْصَعَة[١].

وقام ﷺ ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجوَّلان في تلك المنطقة، لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسولُ الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمَّدٍ وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشَّيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مِمَّن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشَّيخ: فإنَّه بلغني: أنَّ محمَّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمَّا أردتما، فأخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماءٍ»، ثمَّ انصرف النَّبيُّ ﷺ وأبو بكر عن الشَّيخ، وبقي هذا الشَّيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن هشام (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨)].

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، أرسل ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ، والزُّبيـرَ بن العوَّام، وسعدَ بن أبي وقَّاصٍ، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسقَّطون له الأخبار عن جيش قريشٍ، فوجدرا غلامين يستقيان لجيش المشركين، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريشٍ» فقالا: هم ـ والله! ـ وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعُدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثيرٌ، قال: «ما عدَّتُهم؟» قالا: لا ندْرِي، قال الرَّسول ﷺ: «كم ينحرون كلَّ يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التِّسعمئة والألف» ثمَّ قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأميَّة بن خلفٍ، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن هشام (٢/ ٢٦٩)].

كان من هدي النَّبيِّ ﷺ، حرصه على معرفة جيش العدوِّ، والوقوف على أهدافه، ومقاصده؛ لأنَّ ذلك يعينه على رسم الخطط الحربيَّة المناسبة لمجابهته، وصدِّ عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدرٍ في جمع المعلومات؛ تارةً بنفسه، وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبِّق

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

مبدأ الكتمان في حروبه ، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمِّية هذا المبدأ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وقد تحلَّى رسولُ الله ﷺ بصفة الكِتمان في غزواته عامَّةً ، فعن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، قال: «ولم يكن رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٧)] ، وفي غزوة بدرٍ ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١ ـ سؤاله ﷺ الشَّيخ الَّذي لقيه في بدرٍ عن محمَّدٍ وجيشه ، وعن قريشٍ وجيشها.

٢ ـ تورية الرَّسول ﷺ في إجابته على سؤال الشَّيخ: ممَّن أنتما؟ بقوله ﷺ: «نحن من ماءٍ» ، وهو جواب يقتضيه المقام ، فقد أراد به الرَّسولُ ﷺ كتمانَ أخبار جيش المسلمين عن قريشٍ.

٣ ـ وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ ـ أيضاً ـ وهو دليلٌ على ما يتمتَّع به رسول الله ﷺ من الحكمة ، فلو أنَّه أجاب هذا الشَّيخ ثمَّ وقف عنده ، لكان هذا سبباً في طلب الشَّيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «من ماءٍ»(١).

٤ ـ أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ. [أحمد (٦/ ١٥٠) وابن حبان (٤٦٩٩) و(٤٧٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٧٤)].

٥ ـ كتمانه ﷺ خبر الجهة الَّتي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر ، حيث قال ﷺ: «إنَّ لنا طَلبةً ؛ فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً ؛ فيركبْ معنا» [مسلم (١٩٠١)].

قال الإمام النَّوويُّ: «في هذا: استحباب التَّورية في الحرب ، وألاَّ يُبين الإمام جهة إغارته ، وإغارة سراياه ؛ لئلا يشيع ذلك ؛ فيحذرهم العدوُّ»(٢).

ونلحظ: أنَّ التَّربية الأمنيَّة في المنهاج النَّبويِّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجهريَّة بمكَّة ، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة ، وأصبحت تنمو مع تطوُّرها ، وخصوصاً في غزوات الرَّسول ﷺ.

خامساً: مشورة الحُبَاب بن المُنْذِر في بدرٍ:

بعد أن جمع ﷺ معلوماتٍ دقيقةً عن قوَّات قريشٍ ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ ، وهنا قام الْحُبَاب بن المُنذر ، وقال: يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(٢) مسلمٌ ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، شرح حديث رقم (١٩٠١).

اللهُ ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة» قال: يا رسولَ الله! فإن هذا ليس بمنزلٍ ، فانهضْ يا رسول الله بالنَّاس! حتَّى تأتي أدنى ماءٍ من القوم ـ أي: جيش المشركين ـ فننزله ، ونغوِّر ـ نخرِّب ـ ما وراءه من الآبار ، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثمَّ نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ ﷺ برأيه ، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدوِّ ، فنزل عليه ، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ ، وغوَّروا ما عداها من الآبار [ابن هشام (٢/ ٢٧٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٥)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرَّسول ﷺ مع أصحابه ، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه ، حتَّى في أخطر القضايا ، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى ﷺ ، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدنِّي سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد ، وتأخُّره في الرتبة ، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه ، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرَّأي السَّديد ، والمنطق الرَّشيد ، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً ، وإن كان حديثَ السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد ، أو آراء عصبةٍ مهيمنةٍ عليه ، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة ، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإنَّما يفكِّر بآراء جميع أفراد جنده ، وقد يحصل له الرَّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً ، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم ، والوصول برأيه إلى قائد جيشه[1].

ونلحظ عظمة التَّربية النَّبويَّة؛ الَّتي سرَتْ في شخص الحُبَاب بن المُنذر ، فجعلته يتأدَّب أمام رسول الله ﷺ ، فتقدَّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة الَّتي لديه؛ لكن هذا تمَّ بعد السُّؤال العظيم ، الَّذي قدَّمه بين يدي الرَّسول ﷺ: «يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة؟».

إنَّ هذا السُّؤال يوضِّح عظمة هذا الجوهر القياديِّ الفذِّ؛ الَّذي يعرف أين يتكلَّم ، ومتى يتكلَّم بين يدي قائده ، فإن كان الوحي هو الَّذي اختار هذا المنزل ، فلأن يقدم ، فتقطع عنقه أحبُّ إليه من أن يلفظ بكلمةٍ واحدةٍ ، وإن كان الرأي البشريُّ؛ فلديه خطَّةٌ جديدةٌ كاملةٌ باستراتيجيَّةٍ جديدةٍ.

إنَّ هذه النَّفسيَّة الرَّفيعة ، عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرَّأي ، وأدركت مفهوم السَّمع والطَّاعة ، ومفهوم المناقشة ، ومفهوم عرض الرَّأي المعارض لرأي سيِّد ولد آدم ﷺ.

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ١١٠).

وتبدو عظمة القيادة النَّبويَّة في استماعها للخطَّة الجديدة ، وتبنِّي الخطَّة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها ، أو قائدٍ من قوَّادها[١] .

سادساً : الوصف القرآنيُّ لخروج المشركين :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

ينهى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين عن التشبُّه بالكافرين ؛ الَّذين خرجوا من ديارهم بطراً ، ورئاء النَّاس ، وتفسير الآية الكريمة :

١ ـ ﴿ بَطَرًا ﴾ : قال القرطبيُّ : «والبطر في اللغة : التَّقوية ، أي : التَّقوية بنعم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما ألبسه من العافية على المعاصي»[٢] .

٢ ـ ﴿ وَرِئَاءَ ﴾ : ومعناه : القول ، أو الفعل الَّذي لا يقصد معه الإخلاص ؛ وإنَّما يُقصد به التَّظاهر ، وحبُّ الثناء .

٣ ـ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : معطوفاً على ﴿ بَطَرًا ﴾ ، والسَّبيل : الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ ، والمراد بسبيل الله : دينه ؛ لأنَّه يوصل النَّاس إلى الخير ، والصَّلاح .

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء :

الأول : البطر ، والثَّاني : الرِّياء ، والثالث : الصَّدُّ عن سبيل الله .

ونلحظ : أنَّ الله تعالى عبَّر عن بطرهم ، بصيغة الاسم الدَّالِّ على التَّمكين ، والثُّبوت ، وعن صدِّهم بصيغة الفعل الدَّالّ على التجدُّد والحدوث[٣] .

قال الإمام الرَّازي : «إنَّ أبا جهلٍ ورَهْطَه ، وشيعتَه ، كانوا مجبولين على البطر ، والمفاخرة ، والعُجْب[٤] ، وأمَّا صدُّهم عن سبيل الله ، فإنَّما حصل في الزَّمان ؛ الَّذي أكرم فيه النَّبيَّ ﷺ بالنُّبوَّة ، ولهذا السَّبب ذُكِر البطر ، والرئاء بصيغة الاسم ، وذُكِر الصَّدُّ عن سبيل الله بصيغة الفعل ، والله أعلم»[٥] .

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبيِّ : أنَّ المقصود بالآية : «يعني : أبا جهلٍ وأصحابه

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٢١) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (٨/ ٢٥) .
(٣) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٦٥ ، ٦٦) .
(٤) العُجْب : الكِبْرُ ، والزَّهْوُ .
(٥) انظر : تفسير الرَّازي (١٥/ ١٧٣) بتصرف يسير .

الخارجين يوم بدرٍ لنُصرة العِير ، خرجوا بالقِيَان ، والمغنِّيات والمعازف ، فلمَّا وردوا الجُحفة ، بعث خُفافُ الكنانيُّ ـ وكان صديقاً لأبي جهلٍ ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له ، وقال: إن شئتَ؛ أمددتك بالرِّجال ، وإن شئتَ؛ أمددتك بنفسي مع مَنْ خفَّ من قومي ، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد؛ فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ ، وإن كنَّا نقاتل النَّاس؛ فوالله إنَّ بنا على النَّاس لقوةً ، والله! لا نرجع عن قتال محمَّد حتَّى نرد بدراً ، فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القِيانُ ، فإن بدراً موسمٌ من مواسم العرب ، وسوقٌ من أسواقهم ، حتَّى تسمع العرب بمخرجنا ، فتهابنا آخر الأبد ، فوردوا بدراً ، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[١] .

سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ:

بيَّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ ، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدرٍ ـ اللَّهم! أقطعُنا للرَّحم ، وآتانا ممَّا لا يُعرف ، فأَحِنْهُ ـ أي: أهلكه ـ الغداةَ .

فكان المُسْتَفْتِح . [أحمد (٥/ ٤٣١) وابن هشام (٢/ ٢٨٠) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤)] .

ومعنى الآية: إن تستنصروا اللهَ على محمَّد ، فقد جاءكم النَّصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكَّة سألوا الله أن ينصر أحقَّ الطَّائفتين بالنَّصر ، فتهكَّم الله بهم ، وسمَّى ما حلَّ بهم من الهلاك نصراً ، ومعنى بقيَّة الآية على هذا القول: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عمَّا كنتم عليه من الكفر ، والعداوة لرسول الله ﷺ ، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نَعُدْ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ، ونصرهم كما سلَّطناهم ، ونصرناهم في يوم بدرٍ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: جماعتكم ، ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: لا تغني عنكم في حالٍ من الأحوال ، ولو في حال كثرتها ، ثمَّ قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان معه فهو المنصور ، ومن كان الله عليه فهو المخذول[٢] .

ولما وصل جيش مكَّة إلى بدرٍ ، دبَّ فيهم الخلاف ، وتزعزعت صفوفهم الدَّاخلية ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزل المسلمون ، وأقبل المشركون؛ نظر رسولُ الله ﷺ إلى عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وهو على جملٍ أحمر ، فقال: «إن يكن عند أحدٍ من القوم خيرٌ ، فهو عند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه؛ يَرْشُدُوا» ، وهو يقول: يا قوم! أطيعوني في هؤلاء القوم ، فإنَّكم

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٦٨).

إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ، ينظر كلُّ رجلٍ إلى قاتل أخيه ، وقاتل أبيه ، فاجعلوا حقَّها برأسي ، وارجعوا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله! سَحْرُهُ[1] حين رأى محمَّداً وأصحابه ، إنَّما محمدٌ وأصحابه أكلة جزورٍ لو قد التقينا.

فقال عتبة : ستعلم من الجبان المفسد لقومه ، أما والله! إنِّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي ، وكأن وجههم السُّيوف . [البزار (١٧٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٦)] .

وهذا حكيم بن حزام ، يحدِّثنا عن يوم بدرٍ ـ وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه ـ قال : خرجنا ؛ حتَّى نزلنا العُدْوة الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فجئتُ عُتبةَ بن ربيعة ، فقلت : يا أبا الوليد! هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال : أفعل ؛ ماذا؟ قلت : إنَّكم لا تطلبون من محمَّد إلا دم ابن الحَضْرَمِي[2] وهو حليفُك ، فتحمل ديته ، وترجع بالنَّاس ، فقال : أنت وذاك ، وأنا أتحمَّل ديته ، واذْهبْ إلى ابن الحَنْظَلِيَّة[3] ـ يعني : أبا جهل ـ فقل له : هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمِّك؟ فجئته ، فإذا هو في جماعةٍ من بين يديه ، ومن ورائه ، وإذا ابن الحَضْرَميِّ[4] واقف على رأسه وهو يقول : قد فسخت عقدي من عبد شمس ، وعقدي إلى بني مخزوم ، فقلت له : يقول لك عُتْبةُ بن ربيعة : هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمِّك بمن معك؟ قال : أما وجد رسولاً غَيْرَكَ؟ قلت : لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره! قال حكيم : فخرجت مبادراً إلى عتبة ؛ لئلا يفوتني من الخبر شيءٌ . [ابن هشام (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٦٥ ـ ٦٦)] .

فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريشٍ لا يرى داعياً لقتال محمَّد ﷺ ، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمَّدٍ ؛ فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعِزُّهُ عِزٌّ قريش ، ومُلْكُهُ مُلْكُهَا ، وستكون أسعد النَّاس به ، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب ، وينتهي .

ولكنَّ كبرياء الجاهليَّة دائماً في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ لا يمكن أن يترك الحقَّ يتحرَّك ؛ لأنَّها تعلم أنَّ انتصارَه معناه : زوالُها من الوجود ، وبقاؤه مكانها[5] .

وهذا عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي ، ترسله قريش ، ليحزر لهم أصحاب محمَّد ﷺ ، فَاسْتَجَال حول العسكر ثـمَّ رجع إليهم ، فقال : ثلاثمئة رجلٍ ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصـون ، ولكن

---

(١) السَّحْرُ : الرِّئة ، وانتفاخ السَّحْر : كناية عن الجبن .
(٢) هو عمرو بن الحَضْرمي الَّذي قتله وافد بن عبد الله في سريَّة عبد الله بن جحش في الشَّهر الحرام .
(٣) ابن الحَنْظَلِيَّة هو أبو جهل ، وهي أسماء بنت مُخرَّبة من بني تميم .
(٤) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدِّم .
(٥) انظر : مرويات غزوة بدر ، ص ١٥٥ .

أمهلوني أنظرْ أَلِلْقَوْمِ كمينٌ ، أو مددٌ؟ قال فضرب في الوادي حتَّى أَبْعد ، فلم يرَ شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال: ما وجدت شيئاً ، ولكنِّي قد رأيت يا معشرَ قريش ، البلايا[1] تحمل المنايا[2] ، نواضح[3] يثرب تحمل الموت النَّاقع[4] ، قومٌ ليس معهم منعةٌ ، ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله! ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتَّى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيَكم![5].

وهذا أميَّـة بن خلف ، رفض الخروج من مكَّة ابتداءً؛ خوفاً من الموت ، «فأتاه أبو جهلٍ ، فقال: يا أبا صفوان! إنَّك متى يراك النَّاسُ قد تخلَّفتَ؛ وأنت سيد أهل الوادي؛ تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتَّى قال: أما إذْ غلبتني ، فوالله! لأشترينَّ أجود بعيرٍ بمكَّة ، ثمَّ قال أميَّة: يا أمَّ صفوان! جَهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوان! وقد نسيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّهم قاتلوك» ؟ قال: لا ، ما أريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً ، فلمَّا خرج أُميَّـةُ أخذ لا يتركُ منزلاً إلا عَقَلَ بعيرَه ، فلم يزل بذلك حتَّى قتله اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ببدرٍ» [البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥ ـ ٢٧)] .

ومن دهاء أبي جهل ـ لعنه الله ـ أن سلَّط عُقبةَ بن أبي مُعَيْط ، على أميَّةَ بن خلف ، فأتاه عقبةُ بمَجْمَرةٍ يحملها ، فيها نارٌ ومَجْمَر (العود يتبخَّر به) ، حتَّى وضعها بين يديه ، ثمَّ قال: استجمرْ؛ فإنَّما أنت من النِّساء ، قال: قبَّحك الله ، وقبَّح ما جئت به! ثمَّ تجهَّز ، وخرج من النَّاس[6] .

لقد كانت القوَّة المعنويَّة لجيش مكَّة ، متزعزعةً في النُّفوس ، وإن كان مظهره القوَّة ، والعزم ، والثبات ، إلا أنَّ في مخبره الخوفُ ، والجبنُ ، والتردُّد[7] .

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثرٌ على معنويات أهل مكَّة؛ فقد رأت في المنام: أنَّ رجلاً استنفر قريشاً ، وألقى بصخرةٍ من رأس جبل أبي قُبَيْس بمكَّة ، فتفتَّتت ، ودخلت سائر دُورِ قريش ، وقد أثارت الرُّؤيا خصومةً بين العبَّاس ، وأبي جهلٍ ، حتَّى قدم ضَمْضَمُ ،

---

(١) البلايا: جمع بلية ، وهي النَّاقة أو الدَّابة تُربط على قبر الميت فلا تعلف ، ولا تسقى حتَّى تموت.
(٢) مَنَايَا: جمع مَنِيَّة ، وهي الموت.
(٣) نواضح: الإبل الَّتي يُستقى عليها الماء.
(٤) النَّاقع: الثَّابت البالغ في الإفناء ، يقال: موتٌ ناقعٌ ، أي: دائم.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٢٦٩).
(٦) سيرة ابن هشام (عقبة يتهكم بأمية لقعوده فيخرج).
(٧) انظر: مرويات غزوة بدر ، (ص ١٣٨).

وأعلمهم بخبر القافلة ، فسكنت مكَّة ، وتأوَّلت الرُّؤيا[(١)] ، كما أن جُهَيم بن الصَّلْت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجُحْفة ، فقد رأى رجلاً أقبل على فرسٍ حتَّى وقف ، ومعه بعيرٌ له ، ثمَّ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وفلان ، وفلانٌ ، فعدَّد رجالاً ممَّن قُتِلَ يوم بدر من أشراف قريش ، ثمَّ رأيته ضرب في لَبَّة بعيره ، ثمَّ أرسله في العسكر ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ[(٢)] من دمه ، فلمَّا بلغت أبا جهل هذه الرُّؤيا ، قال: وهذا أيضاً نبيٌّ آخر من بني المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[(٣)] . كانت تلك الرُّؤَى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى ، في إضعاف النَّفسيَّة القرشيَّة المشركة .

ثامناً: الوصف القرآنيُّ لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

هذه الآية الكريمة توضِّح الأماكن في غزوة بدرٍ ، وصوَّر لنا ـ سبحانه وتعالى ـ الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء ، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة ، وكانت أرضه رخوةً ، تغوص فيها الأقدام ، ولم يكن هناك ماءٌ ، وكان الكفَّار بالجانب الآخر من الوادي ـ الأبعد من المدينة ـ وكانت أرضه ثابتةً ، وكان فيها ماءٌ ، وكان ركب العير الَّذي يقوده أبو سفيان ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ بالقرب من ساحل البحر[(٤)] .

فقد ذكَّر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين بنعمته عليهم ، قال: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة ، فسرتم حتَّى كنتم ﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: بجانب الوادي ، وحافَّته الأقرب إلى المدينة المنوَّرة ﴿ وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أي: والكفار بالجانب الأبعد الأقصى ـ الَّذي هو بعيد بالنِّسبة للمدينة ـ ﴿ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي: وعِيرُ أبي سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ منكم .

وفي الآية تصوير ما دبَّر ـ سبحانه ـ من أمر غزوة بدرٍ؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطَّائفتين؛ مبهمةً غير مبينةٍ ، حتَّى خرجوا؛

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة ، للعمري ، (ص ١٣٨) وهذه القصة مروية في سيرة ابن هشام في باب (ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب) .
(٢) نَضْح: أصابه رشاشٌ من دمه .
(٣) سيرة ابن هشام (رؤيا جُهَيْم بن الصَّلْت في مصارع قريش) .
(٤) حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ .

ليأخذوا العير راغبين في الخروج ، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرُّض المسلمين لأموالهم ، فنفروا؛ ليمنعوا عِيرَهم ، وسبَّب الأسباب حتَّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدُّنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، وراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساقٍ ، وكان ما كان[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ بيان لتدبير الله الحكيم ، وإرادته النافذة؛ أي : ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك؛ لاختلفتم في الميعاد؛ لكراهتكم للحرب على قلَّتكم ، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها ، وانحصار همِّكم في أخذ العير ، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً؛ لأنَّهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً ، أو استكباراً ، لا اعتقاداً ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي : ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعدٍ ، ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه ، وحكمته : أنَّه واقعٌ لابدَّ منه ، وهو القتال المفضي إلى خزيهم ، ونصركم عليهم ، وإظهار دينه ، وصدق وعده لرسوله ﷺ كما تقدَّم[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال الآلوسي : أي : ليموت من يموت عن حجَّةٍ عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجَّةٍ شاهدها ، فلا يبقى محلٌّ لتعليلٍ بالأعداد؛ فإنَّ وقعة بدرٍ من الآيات الواضحة ، والحجج الغُرِّ المحجَّلة[٣] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به التَّرغيب في الإيمان ، والتَّرهيب من الكفر ، أي : لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال أهل الإيمان ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبهم ، وضمائرهم ـ وسيجازي ـ سبحانه ـ كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه مِنْ ثوابٍ ، أو عقابٍ على حسب ما يعلم ، وما يسمع عنه[٤] .

* * *

---

(١) انظر : تفسير الكشَّاف للزَّمخشريِّ (٢/ ١٦٠) .
(٢) انظر : تفسير الطَّبري (١٠/ ١١) .
(٣) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٧) بتصرف .
(٤) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٧) بتصرف .

المبحث الثَّاني
النَّبيُّ ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النَّبيِّ ﷺ والمسلمين معه، على أدنى ماء بدرٍ من المشركين؛ اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريشٍ له؛ يكون مقرّاً لقيادته، ويأمن فيه من العدوِّ، وكان ممَّا قاله سعدٌ في اقتراحه: «يا نبيَّ الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نَلْقَى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدوِّنا؛ كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى؛ جلستَ على ركائبك، فلحِقْتَ بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً، ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» فأثنى عليه النَّبيُّ ﷺ خيراً، ودعا له بخيرٍ، ثمَّ بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ، على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثُلَّةٌ من شباب الأنصار، بقيادة سعد بن معاذٍ، يحرسون عريش رسول الله ﷺ. [ابن هشام (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٤)].

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ؛ منها:

١ ـ لابدَّ أن يكون مكان القادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكَّن القائد فيه من متابعة المعركة، وإدارتها.

٢ ـ ينبغي أن يكون مقرُّ القيادة آمناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ ـ ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرُّض لأيِّ خطرٍ.

٤ ـ ينبغي أن يكون للقائد قوَّةٌ احتياطيَّةٌ أخرى، تعوِّض الخسائر الَّتي قد تحدث في المعركة[1].

---

(١) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، ص ٦٦.

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المِنَنِ[1] الَّتي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدرٍ: أنَّه أنزل عليهم النُّعَاسَ، والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال القرطبيُّ: «وكان هذا النُّعاس في الليلة الَّتي كان القتال من غدها، فكان النَّوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمِّ، ولكنَّ الله ربط جأشهم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ يُصلِّي، ويبكي حتَّى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنَّوم في هذه الليلة وجهانِ:

أحدهما: أنْ قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثَّاني: أنْ أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن مُنِيمٌ، والخوفُ مُسْهِرٌ»[2].

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم، في وقتٍ لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه، وكرماً، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتَّنبيه على أنَّه أكرمهم به.

قال الإمام الرَّازي: «وقد عُلِم بالعادة: أنَّ المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتمُّ إذا لم يتمكَّن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السَّبب، فلا جَرَمَ عدَّ ـ تعالى وتقدَّس ـ تمكينهم من الطَّهارة من جملة نعمه»[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقد روى ابن جريرٍ عن ابن عباس قال: «نزل النَّبي ﷺ ـ يعني حين سار إلى بدرٍ ـ والمسلمون بينهم وبين الماء رملةٌ دِعْصَةٌ ـ أي كثيرةٌ مجتمعةٌ ـ فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشَّيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: (تزعمون: أنَّكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنِبينَ)، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون، وتطهَّروا، وأذهب الله عنهم

---

(١) المِنَّةُ: الإحسان والإنعام، والجمع: مِنَنٌ.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٧/ ٣٢٧).
(٣) انظر: تفسير الفخر الرَّازي (١٥/ ١٣٣).

رجز الشَّيطان ، وثبت الرَّمل حين أصابه المطر ، ومشى النَّاس عليه ، والدَّواب ، فساروا إلى القوم»[١] .

فقد بيَّن ـ سبحانه ـ: أنَّه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة ، فتطهَّروا به حسِّيّاً ، ومعنويّاً؛ إذ ربط الله به على قلوبهم ، وثبَّت به أقدامهم؛ وذلك : أنَّ النَّاظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحرِّكةً لا زالت حتَّى اليوم ، ومن العسير المشي عليها ، ولها غبارٌ كبيرٌ ، فلمَّا نزلت الأمطار تماسكت تلك الرِّمال ، وسَهُل السَّير عليها ، وانطفأ غبارها ، وكلُّ ذلك كان نعمةً من الله على عباده[٢] .

ثالثاً : خطَّة الرَّسول ﷺ في المعركة[٣] :

ابتكر الرَّسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدرٍ أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى ، لم يكن معروفاً من قبل؛ حيث قاتل ﷺ بنظام الصُّفوف[٤] ، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف : ٤] .

وصفة هذا الأسلوب : أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصَّلاة ، وتقلُّ هذه الصُّفوف ، أو تكثر تَبَعاً لقلة المقاتلين ، أو كثرتهم ، وتكون الصُّفوف الأولى من أصحاب الرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف الَّتي خلفها من أصحاب النِّبال؛ لتسديدها من المهاجمين على الأعداء ، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدرٍ :

١ ـ إرهاب الأعداء ، ودلالةٌ على حسن وترتيب النِّظام عند المسلمين .

٢ ـ جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوَّة احتياطيَّة ، عالج بها المواقف المفاجئة في صدِّ هجومٍ معاكس ، أو ضرب كمينٍ غير متوقَّع ، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة ، والفُرْسان ، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأوَّل مرَّةٍ في غزوة بدرٍ سبقاً عسكريّاً ، تميَّزت به المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة على غيرها منذ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزَّمان[٥] .

ويظهر للباحث في السِّيرة النَّبويَّة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية

---

(١) انظر : تفسير الطَّبري (٩/ ١٩٥) .

(٢) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٩١) .

(٣) ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٦١٢) .

(٤) انظر : القيادة العسكريَّة ، د . محمَّد الرَّشيد ، ص ٤٠١ .

(٥) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، لخطَّاب ، ص ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ .

الجديدة ، وخاصَّةً تلك الَّتي لم يعهدْها العرب من قبل ، على نحو ما قام به النَّبيُّ ﷺ في يوم بدرٍ ، وأُحدٍ ، وغيرهما.

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكَرِّ والفَرِّ ، وقد علَّق اللواء محمود شيت خطَّاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله: «إنَّ القتال بأسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلِّ قوَّتهم على العدوِّ؛ النَّشابة منهم ، والَّذين يقاتلون بالسُّيوف ، ويطعنون بالرِّماح ، مشاةً ، وفُرْساناً ، فإن ثبت لهم العدوُّ ، أو أحسُّوا بالضَّعف؛ نكصوا ، ثمَّ أعادوا تنظيمهم ، وكرُّوا من جديدٍ ، وهكذا يكرُّون ، ويفرُّون حتَّى يكتب لهم النَّصر ، أو الاندحار.

والقتال بأسلوب الصَّفِّ يكون بترتيب المقاتلين صفَّين ، أو ثلاثة صفوفٍ ، أو أكثر ، على حسب عددهم ، وتكون الصُّفوف الأماميَّة من المسلمين مسلحةً بالرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف المتعاقبة الأخرى مزوَّدةً بالنِّبال؛ لرمي المهاجمين من الأعداء.

وتبقى الصُّفوف بقيادة قائدها ، وسيطرته إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكرِّ ، والفرِّ زخمه وشدَّته ، عند ذاك تتقدَّم الصُّفوف متعاقبةً متساندةً للزَّحف على العدوِّ ، ومطاردته عند هزيمته.

ويرى اللِّواء (خطاب) أنَّ أسلوب الصَّفِّ يتميَّز عن أسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، بأنَّه يؤمن التَّرتيب (بالعمق) ، فتبقى دائماً بيد القائد قوَّةٌ احتياطيَّة يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان؛ كأن يصدَّ هجوماً مقابلاً للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو يحمي الأجنحة الَّتي يهددها العدوُّ بفُرْسانه ، أو مشاته ، ثمَّ يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة»[١].

وقد تحدَّث ابن خلدون عن الأساليب القتاليَّة الجديدة؛ الَّتي استحدثها النَّبيُّ ﷺ في معاركه ، والَّتي لم يكن للعرب عهدٌ بها ، فقال مشيراً إلى ذلك: «وكان أسلوب الحرب أوَّل الإسلام كلُّه زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكرَّ ، والفرَّ...»[٢].

وبيَّن أفضلية الأساليب الَّتي استحدثها النَّبيُّ ﷺ بقوله: «وقتال الزَّحف أوثق وأشدُّ من قتال الكرِّ ، والفرِّ؛ وذلك لأنَّ قتال الزَّحف ، ترتب فيه الصُّفوف ، وتسوَّى كما تسوى القداح ، أو صفوف الصَّلاة ، ويمشون بصفوفهم إلى العدوِّ قُدُماً؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع ، وأصدق في القتال ، وأرهب للعدوِّ؛ لأنَّه كالحائط الممتدِّ ، والقصر المشيد لا يطمع في إزالته»[٣].

ومن جهة النَّظرة العسكرية فإنَّ هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصيَّة النَّبيِّ ﷺ ،

---

(١) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى الحاسمة ، لمحمود خطَّاب ، ص ٢٣ ، ٢٤.
(٢) انظر: المقدِّمة ، لابن خلدون ، ص ٢٧٣.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧١.

وبراعته العسكريّة؛ لأنَّ التَّعليمات العسكريّة الَّتي كان يصدرها خلال تطبيقه لها ، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[(١)] .

وتفصيل ذلك: فقد اتَّبع ﷺ أسلوب الدِّفاع ولم يهاجم قوَّة قريشٍ ، وكانت توجيهاته التَّكتيكيَّة الَّتي نفَّذها جنودُه بكلِّ دقَّةٍ سبباً في زعزعة مركز العدوِّ ، وإضعاف نفسيته؛ وبذلك تحقَّق النَّصر الحاسم ـ بتوفيق الله ـ على العدوِّ برغم تفوُّقه[(٢)] (بنسبة ٣ إلى ١) ، فقد كان ﷺ يتصرَّف في كلِّ موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال ، والظروف ، وقد طبَّق الرَّسول ﷺ في الجانب العسكريِّ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة في مكانها الصَّحيح ، أمَّا أخذه بالأسلوب الإقناعيِّ في غزوة بدرٍ؛ فقد تجلَّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضعَ متعدِّدةٍ؛ لأنَّه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السُّلطة؛ بل بالكفاءة ، والثِّقة ، وهو ﷺ أيضاً لا يستبدُّ برأيه ، بل يتَّبع مبدأ الشُّورى ، وينزل على الرَّأي الَّذي يبدو صوابه ، ومارس ﷺ في غزوة بدرٍ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة ، فقد تجلَّى في أمورٍ؛ منها[(٣)] :

الأمر الأوَّل: أمره ﷺ الصَّحابة برمي الأعداء؛ إذا اقتربوا منهم؛ لأنَّ الرَّمي يكون أقربَ إلى الإصابة في هذه الحالة: «إن دنا القوم منكم؛ فانضحُوهم[(٤)] بالنَّبْل»[ابن هشام (٢/٢٧٨) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨١)] .

الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصُّفوف[(٥)]: «ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم»[أبو داود (٢٦٦٤)] .

الأمر الثالث: أمره ﷺ الصَّحابة بالاقتصاد في الرَّمي[(٦)]: «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [البخاري (٢/ ٣٩٨٤) و٣٩٨٥) وأبو داود (٢٦٦٣)] .

وعندما تقارن هذه التَّعليمات الحربيَّة بالمبادئ الحديثة في الدِّفاع؛ تجد أنَّ رسول الله ﷺ كان سباقاً إليها ، من غير عكوفٍ على الدَّرس ، ولا التحاقٍ بالكلِّيات الحربيَّة ، فالنَّبيُّ ﷺ يرمي

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد محفوظ ، ص ١٢١ .

(٢) انظر: مقومات النَّصر ، د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤).

(٣) هذه الأمور الثلاثة موجودة في حديث رواه أبو داود ، قال رسول الله ﷺ: «إذا أكثبوكم ـ يعني: اقتربوا منكم ـ فارموهم ، واسْتَبْقُوا نبلكم ، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم». (أبو داود ، باب في سل السيوف عند اللقاء) وهذه المعاني المذكورة في الحديث ، وهي في صحيح البخاري ، في الحديثين رقم (٣٩٨٤ ، ٣٩٨٥).

(٤) نَضَحَهُ بالنَّبل: إذا رماه به .

(٥) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٦) المصدر السابق نفسه .

مِنْ وراء تعليماته الَّتي استعرضناها آنفاً إلى تحقيق ما يُعرف حديثاً بكبتِ النِّيران إلى اللحظة الَّتي يصبح فيها العدوُّ في المدى المؤثِّر لهذه الأسلحة ، وهذا ما قصده ﷺ في قوله: «واسْتَبْقوا نَبْلكم»[سبق تخريجه] .

فرصة الاستفادة من الظُّروف الطَّبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهملْ ﷺ فرصةَ الاستفادة من الظروف الطَّبيعية أثناء قتال العدوِّ ، فقد كان يستفيد من كلِّ الظُّروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه ، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدرٍ ، يقول المقريزي: «وأصبح ﷺ ببدرٍ قبل أن تنزل قريش ، فطلعت الشَّمس وهو يصفُّهم ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشَّمس خلفه ، فاستقبلوا الشَّمس»[1] .

وهذا التَّصرُّف يدلُّ على حسن تدبيره ﷺ ، واستفادته حتَّى من الظُّروف الطَّبيعية ، لما يحقِّق المصلحة لجيشه؛ وإنَّما فعل ذلك لأنَّ الشَّمس إذا كانت في وجه المقاتل ، تسبِّب له عَشَا[2] البصر؛ فتقلُّ مقاومته ، ومجابهته لعدوِّه[3] . وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدرٍ إشارةٌ إلى أنَّ الظروف الطَّبيعيَّة كالشَّمس ، والرِّيح ، والتَّضاريس الجغرافيَّة ، وغيرها لها تأثيرٌ عظيمٌ على موازين القوى في المعارك ، وهي من الأسباب الَّتي طلب الله منَّا الأخذ بها؛ لتحقيق النَّصر ، والصُّعود إلى المعالي[4] .

سَوَّاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان ﷺ في بدرٍ يعدِّل الصُّفوف ، ويقوم بتسويتها؛ لكي تكون مستقيمةً ، متراصةً؛ وبيده سَهْمٌ لا ريش له ، يُعَدِّل به الصَّف ، فرأى رجلاً اسمه سَوَّاد بن غَزِيَّة وقد خرج من الصَّفِّ ، فطعنه ﷺ في بطنه ، وقال له: «استوِ يا سَوَّاد!» فقال: يا رسولَ الله! أَوْجَعْتَنِي! وقد بعثك الله بالحقِّ ، والعدل ، فأَقِدْني[5] ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال: «استَقِدْ» ، فاعتنقه ، فقبَّل بطنه ، فقال: «ما حملك على هذا يا سَوَّاد!» قال: يا رسولَ الله! حضر ما ترى؛ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلْدَك. فدعا له رسول الله بخير. [ابن هشام (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)] .

---

(١) انظر: القيادة العسكرية ، ص ٤٥٣ .
(٢) عَشِيَ عَشاً ، وعَشَاوةً: ضعُفَ بصرُه ليلاً ، فهو أعشى .
(٣) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذيِّ (٧/ ١٧٥) .
(٤) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، ص ٤٥٤ .
(٥) أَقِدْني: اقتصَّ لي من نفسك .

ويُستفاد من قصَّة سَوَّاد رضي الله عنه أمورٌ؛ منها:

١ ـ حرص الإسلام على النِّظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القَوَد من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكُّر الموت، والشَّهادة.

٥ ـ جسد رسول الله ﷺ مباركٌ، ومسُّه فيه بركةٌ؛ ولهذا حرص عليها سَوَّاد.

٦ ـ بطن الرَّجل ليس بعورةٍ؛ بدليل: أنَّ النبي ﷺ كشف عنه، ولو كان عورةً؛ لما كشف عنه[(١)].

تحريض النَّبيِّ ﷺ أصحابه على القتال:

كان رسولُ الله ﷺ يربِّي أصحابَه على أن يكونوا أصحاب إراداتٍ قويَّةٍ، راسخةٍ، ثابتةٍ، ثبات الشُّمِّ[(٢)] الرَّواسي، فيملأ قلوبهم شجاعةً، وجرأةً، وأملاً في النَّصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القويَّة أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب؛ التَّرغيب في أجر المجاهدين الثَّابتين، والتَّرهيب من التولِّي يوم الزَّحف، والفرار من ساحات الوَغَى[(٣)]، كما كان يحدِّثهم عن عوامل النَّصر، وأسبابه؛ ليأخذوا بها، ويلتزموها، ويحذِّرهم من أسباب الهزيمة؛ ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[(٤)].

وكان ﷺ يحثُّ أصحابه على القتال، ويحرِّضهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤].

وفي غزوة بدرٍ الكبرى، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات، والأرض»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! جَنَّةٌ عرضُها السَّموات والأَرضُ؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ، بخٍ! (كلمة تعجب)، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملُك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا واللهِ! يا رسولَ الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرَنِهِ (جعْبَة النُّشَّاب)، فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتَّى

---

(١) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص ٥٢.
(٢) الأَشَمُّ: المرتفع، وهي شَمَّاءُ، ويقال: جبلٌ أَشَمُّ، والجمع: شُمٌّ.
(٣) الوَغَى: الحَرْبُ؛ لما فيها من الصَّوت، والجَلَبة.
(٤) انظر: المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة، لأبي فارس، ص ١٤٠.

آكل تمراتي هذه ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ ، قال: فرمى بما كان معه من التَّمر ، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتل . [مسلم (١٩٠١)] .

وفي روايةٍ قال: قال أنسٌ رضي الله عنه: فرمى ما كان معه من التَّمر ، وقاتل؛ وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ إلا التُّقَى وَعَمَلَ المَعَادِ
والصَّبْرَ في الله على الجِهَادِ وكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ

فقاتل ـ رحمه الله! ـ حتَّى استُشْهِد[١] .

ومن صور التَّعبئة المعنويَّة: أنَّه ﷺ كان يبشِّرهم بقتل صَنَادِيد[٢] المشركين ، وزيادةً لهم في الطُّمأْنينة ، كان يحدِّد مكان قتل كلِّ واحدٍ منهم[٣] ، كما كان يبشِّر المؤمنين بالنَّصر قبل بدء القتال ، فيقول: «أبشرْ أبا بكر» ووقف رسول الله ﷺ يقول للصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفسُ محمد بيده! لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ ، فَيُقْتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غيرَ مُدْبرٍ ، إلا أدخله الله الجنَّة» [ابن هشام (٢/ ٢٧٩)] .

وقد أثَّرت هذه التَّعبئة المعنويَّة في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والَّذين جاؤوا من بعدهم بإحسانٍ[٤] .

وكان ﷺ يطلب من المسلمين ألاَّ يتقدمَ أحدٌ إلى شيءٍ حتَّى يكون دونه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: . . . . فانطلق رسول الله ﷺ ، وأصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدرٍ ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يَقْدُمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونَه»[٥] ، فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ» [سبق تخريجه] .

دعاؤه ﷺ واستغاثته:

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] ، لمَّا نظم ﷺ صفوف جيشه ، وأصدر أوامره لهم ، وحرَّضهم على القتالِ؛ رجع

---

(١) انظر: صفة الصَّفوة (١/ ٤٨٨) وزاد المعاد (٣/ ١٨٢) .

(٢) الصِّنْدِيدُ: الشَّريفُ الشُّجاعُ ، والجمع: صَنَادِيدُ .

(٣) قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول: هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدودَ الَّتي حدَّ رسولُ الله ﷺ » . رواه مسلمٌ ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، رقم (٢٨٧٣) .

(٤) المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٣ .

(٥) (لا يتقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتَّى أكون أنا دونه): أي: قدَّامه متقدِّماً في ذلك الشَّيء؛ لئلا يفوت شيءٌ من المصالح التي لا تعلمونها .

إلى العريش الَّذي بُني له ، ومعه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه ، وسعد بن معاذٍ على باب العريش لحراسته؛ وهو شاهرٌ سَيْفَه ، واتَّجه رسول الله ﷺ إلى ربِّـه يدعوه ، ويناشده النَّصر الَّذي وعده ، ويقول في دعائه: «اللَّهـمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتني! اللَّهُـمَّ آتِ ما وعدتني! اللَّهُـمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبدْ في الأرض!» فما زال يهتفُ بربِّه ، مادّاً يديه ، مستقبلَ القبلة ، حتَّى سقط رداؤُهُ عن مَنْكَبيه ، فأتاه أبو بكرٍ ، فأخذ ردَاءَهُ ، فألقاه على مَنكبيه ، ثمَّ التزمه من ورائه ، وقال: يا نبيَّ الله! كفاك مناشدتُك ربَّك ، فإنَّه سينجز لـكَ ما وعدك! [مسلم (١٧٦٣) وأبو داود (٢٦٩٠) والترمذي (٣٠٨١) وأحمد (١/ ٣٠)]. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

وفي رواية ابن عباسٍ قال: قال النَّبيُّ ﷺ يوم بدرٍ: «اللَّهمَّ أنشُدُكَ عَهْدَكَ ، ووعدك! اللَّهُمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ» فأخذ أبو بكر بيده ، فقال: حسبك ، فخرج ﷺ ؛ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [البخاري (٢٩١٥) وأحمد (١/ ٣٢٩) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٥٠)].

وروى ابن إسحاق: أنَّه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخُيَلائها[1] ، وفَخْرها ، تُحَادُّك[2] وتكذِّبُ رسولَك ، اللَّهُمَّ فنصرَكَ الَّذي وعدتني! اللَّهُم أحنهم[3] الغداة!» [ابن هشام (٢/ ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/ ١١٠)] .

وهذا درسٌ ربَّانيٌّ مهمٌّ لكلِّ قائدٍ ، أو حاكمٍ ، أو زعيمٍ ، أو فردٍ في التَّجرُّد من النَّفس. وحظِّها ، والخلوص ، واللُّجوء لله وحدَه ، والسُّجود ، والجُثُوِّ بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره ، ويبقى مشهد نبيِّه؛ وقد سقط رداؤه عن كتفه؛ وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله ، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ، ووجدانه ، يحاول تنفيذه في مثل هذه السَّاعات ، وفي مثل هذه المواطن ، حيث تناط به المسؤوليَّة ، وتُلقى عليه أعباء القيادة[4].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾:

بعد أن دعا ﷺ ربَّه في العريش ، واستغاث بـه ، خرج من العريش ، فأخذ قبضةً من التُّراب ، وحصب بها وجوهَ المشركين ، وقال ﷺ: «شاهتِ الوجوه» [ابن هشام (٢/ ٢٨٠)] ثمَّ أمر ﷺ أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين

(١) الخُيَلاء: التكبُّر ، والعجب.
(٢) تُحَادُّك: تعاديك.
(٣) أحنهم: أهلكهم.
(٤) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٦).

المشركين ، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] ، ومعنى الآية: أنَّ الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرَّمي ، ونفى عنه الإيصال الَّذي لم يحصل برميته[١].

ونلحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ أخذ بالأسباب المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، وتوكَّل على الله ، فكان النَّصر والتَّأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدرٍ الأخذ بالأسباب بالقَدْرِ الممكن ، مع التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في تهيئة جميع أسباب النَّصر متعاونةً ، متكافئةً مع التأييدات الرَّبَّانيَّة الخارقة ، والغيبيَّة؛ ففي عالم الأسباب تشكِّل دراسة الأرض ، والطَّقس ، ووجود القيادة والثِّقة بها ، والرُّوح المعنويَّة لبناتٍ أساسيةً في صحَّة القرار العسكريِّ ، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين ، وكان الطَّقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الرَّفيعة موجودةً ، والثِّقة بها كبيرة ، والرُّوح المعنويَّة مرتفعة ، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكلٍ مباشرٍ ، وتوفيقه ، وبعضها كان من فِعْلِ رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة ، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله ، وزيدَ على ذلك التأييدات الغيبيَّة ، والخارقة؛ فكان ما كان ، وذلك نموذجٌ على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله ، إذا ما صلحت النِّـيَّات عند الجند ، والقادة ، ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب[٢].

* * *

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: الأساس في السنة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوى (١/ ٤٧٤).

المبحث الثّالث
نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفرديّة ، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وطلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار؛ ولكنَّ الرَّسول ﷺ أرجعهم؛ لأنَّه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله ، وذوي قرباه؛ ولذلك قال ﷺ : «قم يا عُبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزةُ شيبةَ ، فقتله ، وبارز عليٌّ الوليدَ ، وقتله ، وبارز عبيدةُ بن الحارث عتبةَ ، فضرب كلُّ واحدٍ منهما الآخر بضربةٍ موجعةٍ ، فكرَّ حمزة ، وعليٌّ على عتبة فقتلاه ، وحملا عبيدة ، وأتيا به إلى رسول الله ﷺ ، ولكن ما لبث أن استُشهد متأثراً بجراحه . [أبو داود (٢٦٦٥)][(١)] .

وفي هؤلاء السِّتَّة نزل قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٤].

ولمَّا شاهد المشركون قَتْلَ الثلاثة الَّذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً ، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً ، صمد ، وثبت له المسلمون ، وهم واقفون موقف الدِّفاع ، ويرمونهم بالنَّبل ، كما أمرهم النَّبيُّ ﷺ ، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ ، أَحَدٌ ، ثمَّ أمرهم النَّبيُّ ﷺ بالهجوم المضادِّ ، محرِّضاً لهم على القتال ، وقائلاً لهم: «شُدُّوا» ، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنَّة ، وممَّا زاد في نشاط المسلمين ، واندفاعهم في القتال ، سماعُهم قولَ النَّبيِّ ﷺ : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] ، وعِلْمُهم ، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة ، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين ، ورؤيتهم رسولَ الله ﷺ يثبُ في الدِّرع وقد تقدَّمهم ، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه ، وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[(٢)] .

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ١١٦ ـ ١١٨ ، والحديث رواه البخاريُّ ، رقم (٤٨٧٥).

كان ﷺ قد رأى في منامه ـ ليلة اليوم الَّذي التقى فيه الجيشان ، رأى ـ المشركين قليلاً ، وقد قصَّ رؤياه على أصحابه؛ فاستبشروا خيراً ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣] .

والمعنى : أنَّ النَّبيَّ ﷺ رآهم ـ أي: رأى المشركين ـ في منامه قليلاً ، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم ، قال مجاهد : ولو رآهم في منامه كثيراً؛ لفشلوا ، وجبنوا على قتالهم ، ولتنازعوا في الأمر : هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأنَّ نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي: عصمهم من الفشل، والتنازع، فقلَّلهم في عين رسول الله ﷺ[1] ، فقصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم، وتشجيعهم، وجرأتهم على عدوِّهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كلٌّ منهم عدد الآخر قليلاً .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤] .

وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين؛ تصديقاً لرؤيا النَّبي ﷺ ، وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزدادوا يقيناً ، ويجدُّوا في قتالهم؛ ويثبتوا ، قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه : قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين؟ قال : أراهم مئة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له : كم كنتم؟ قال : ألفاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتَّى قال قائل من المشركين : إنَّما هم أكلة جَزُور .

ووجه الحكمة ، واللُّطف بالمسلمين في هذا التَّقليل ، هو أنَّ إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبَّتهم ، ونشَّطهم ، وجرَّأهم على قتال المشركين ، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم ، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين ، هو أنَّهم إذا رأوهم قليلاً؛ أقدموا على قتالهم غيرَ خائفين ، ولا مبالين بهم ، ولا آخذين الحذر منهم ، فلا يقاتلون بجدٍّ ، واستعدادٍ ، ويقظةٍ ، وتحرُّزٍ ، ثمَّ إذا ما التحموا بالقتال فعلاً؛ تفجؤهم الكثرة ، فَيُبْهَتُوا ، ويَهَابُوا ، وتكسر شوكتُهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم ، وتقديرهم ، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم ، وانتصار المسلمين عليهم[2] .

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة :

ثبت من نصوص القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة ، ومرويات عددٍ من الصحابة

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥) .

(٢) انظر : تفسير الزَّمخشري (٢/ ٢٢٥) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥) .

البدريين: أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وأورد البخاريُّ، ومسلمٌ، وأحمد بن حنبل، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصَّحيحة الَّتي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدرٍ، وقيامهم بضرب المشركين، وقتلهم[(١)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ، يَشْتَدُّ في أثَـرِ رجلٍ من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ[(٢)]! فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليـه فإذا هو خُطِمَ أنفُه[(٣)]، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوط، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فجاء الأنصاريُّ، فحدَّثَ بذلك رسولَ الله، فقال: «صدقتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماء الثالثة»، [سبق تخريجه] ومن حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما ـ أيضاً ـ قال: إنَّ النبي ﷺ قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ آخِذٌ برأس فرسه، عليه أداةُ الحرب» [البخاري (٣٩٩٥)]، ومن حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: فجاء رجلٌ من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطَّلب أسيراً، فقال العباس: يا رسولَ الله! إنَّ هذا والله! ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ[(٤)]، من أحسن النَّاس وجهاً، على فرسٍ أَبْلَقَ[(٥)]، وما أراه في القوم، فقال الأنصاريُّ: أنا أسرته يا رسولَ الله! فقال: «اسكت، فقد أيَّدك الله بملكٍ كريمٍ»، [أحمد (١/ ١١٧)]، ومن حديث أبي داود المازنيِّ قال: «إنِّي لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه؛ إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قتله غيري» [أحمد (٥/ ٤٥٠) وابن هشام (٢/ ٢٨٦)].

«إنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعيٌّ ثابتٌ، لاشكَّ فيه، وإنَّ الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين، من تبشيرهم بالنَّصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ﷺ (١/ ٢٩١).
(٢) حَيْزُوم: اسم الفرس الَّذي يركبه المَلَكُ.
(٣) خُطِم: الخطم الأثر على الأنف.
(٤) الأَجْلح: الَّذي انحسر شعره من جانبي رأسه، فهو أجْلحُ، وهي جَلْحَاءُ، والجمع: جُلْحٌ.
(٥) الأبلق: الَّذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم ، والنَّشاط في قتالهم ، وبما أظهروه لهم من أنَّهم مُعانون من الله تعالى ، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعليِّ في القتال ، ولاشكَّ: أنَّ هذا الاشتراك الفعليَّ في القتال قوَّى قلوبَهم ، وثبَّتهم في القتال ، وهذا ما دلَّت عليه الآيات ، وصرَّحت به الأحاديث النَّبوية»[1] .

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة ، مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السَّلام ، قادرٌ ـ بتوفيق الله ـ على إبادة الكفَّار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك ، فقال: لقد مضت سنَّة الله بتدافع الحقِّ ، وأهله مع الباطل ، وأهله ، وأنَّ الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة ، والانتصار ، وأنَّ هذا التَّدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحقِّ والباطل ، ومن ثمرات التمسُّك بالحقِّ ، والقيام بمتطلَّباته أن يحصلوا على عونٍ ، وتأييد من الله تعالى بأشكالٍ ، وأنواعٍ متعدِّدة من التأييد ، والعون ، ولكن تبقى المدافعة ، والتدافع يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما ، وفي نتيجة هذا التَّدافع ، فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوَّة اللازمة للغلبة هي الَّتي تغلب ، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ، ذلك الإمداد الَّذي تحقَّق به ما يستلزم الغلبة على العدوِّ ، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدَّمه أولئك المؤمنون في قتالٍ ، ومباشرة لأعمال القتال ، وتعرُّضهم للقتل ، وصمودهم ، وثباتهم في الحرب ، واستدامة توكُّلهم على الله ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة ، والنَّصر مع الأسباب الأخرى المادِّية؛ مثل العُدَّة ، والعَدد ، والاستعداد للحرب ، وتعلُّم فنونها . . . إلخ ، ولهذا فإنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل ، وقتال المبطلين ، وأن يهيئوا الأسباب المادِّيّة ، والإيمانيّة للغلبة والانتصار ، وبأيديهم ـ إن شاء الله تعالى ـ ينال المبطلون ما يستحقُّونه من العقاب[2] ، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

إنَّ نزول الملائكة ـ عليهم السَّلام ـ من السَّموات العلا إلى الأرض؛ لنصر المؤمنين حدثٌ عظيمٌ؛ إنَّه قوَّةٌ عظمى ، وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين؛ حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنَّهم إذا حققوا أسباب النَّصر ، واجتنبوا موانعه ، فإنَّهم أهلٌ لمدد السَّماء ، وهذا الشُّعور يعطيهم جرأةً في مقابلة الأعداء ، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعد التكافؤ

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١ ، ١٣٢).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١ ، ١٣٢).

الماديِّ بين جيش الكفار الكبيرِ عدداً ، القويِّ إعداداً ، وجيش المؤمنين القليلِ عدداً ، الضعيفِ إعداداً .

وهو في الوقت نفسه عاملٌ قويٌّ في تحطيم معنوية الكفَّارِ ، وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تَكْرَار نزول الملائكة ؛ الَّذين شاهدهم بعض الكفَّار عَيَاناً ، إنَّهم مهما قدَّروا قوَّة المسلمين ، وعددهم ؛ فإنَّه سيبقى في وجدانهم رعبٌ مزلزِلٌ من احتمال مشاركة قوىً غير منظورةٍ ، لا يعلمون عددها ، ولا يقدِّرون مدى قوَّتها ، وقد رافق هذا الشُّعورُ المؤمنين في كلِّ حروبهم ؛ الَّتي خاضها الصَّحابة رضي الله عنهم في العهد النَّبويِّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك ، فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكرِّرة الحاسمة مع أعدائهم[1] .

ثانياً : انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله ﷺ لأهل القَلِيب[2] :

انتهت معركة بدرٍ بانتصار المسلمين على المشركين ، وكان قتلى المشركينَ سبعين رجلاً ، وأُسِر منهم سبعون ، وكان أكثرهم من قادة قريش ، وزعمائهم ، واسْتُشهد من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، منهم ستَّةٌ من المهاجرين ، وثمانيةٌ من الأنصار، ولمّا تمَّ الفتحُ ، وانهزم المشركون ؛ أرسل ﷺ عبدَ الله بن رَوَاحة ، وزيدَ بن حارثة، ليبشِّرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين[3] .

ومكث ﷺ ثلاثة أيَّام في بدرٍ ، فقد ذكر أنس بن مالكٍ عن أبي طلحة : «أنَّ نبيَّ الله ﷺ . . . وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ : أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ» [البخاري (٣٩٧٦)] ولعلَّ الحكمة في ذلك :

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة ؛ الَّتي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين .

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله ، مما لا تكاد تخلو منه معركةٌ ، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة ، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلاة عليهم ، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدرٍ[4] .

٣ ـ جمع الغنائم ، وحفظها ، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ ؛ حتى تُؤَدَّى كاملةً إلى

---

(١) انظر : التاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ١٤٥) .
(٢) القَلِيب : البئر ، والجمع : قُلُبٌ .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣) .
(٤) انظر : موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١) .

مستحقِّيها ، وقد أُسندت أنفال ، وغنائم بدر ، إلى عبد الله بن كعبٍ الأنصاريِّ أحد بني مازنٍ[١].

٤ ـ إعطاء الجيش الظَّافر فرصةً يستريح فيها ، بعد الجهد النَّفسيِّ ، والبدنيِّ الْمُضْنِي الَّذي بذله أفراده في ميدان المعركة ، ويضمِّد فيها جراح مجروحيه ، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر ، الَّذي لم يكن دانيَ القطوف ، سهلَ المنال ، ويتذاكر أفراده ، وجماعاته ما كان من أحداثٍ ومفاجآت في الموقعة ، ممَّا كان له أثرٌ فعَّال في استجلاب النَّصر ، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته ، وجرأته على اقتحام المضائق ، وتفريج الأزمات ، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروسٍ عمليَّة في الكرِّ ، والفرِّ ، والتَّدبير المحكم الَّذي أخذ به العدو ، وما في ذلك من عبَر ، واستذكار أوامر القيادة العليا ، وموقفها في رسم الخطط ، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية ، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور ، المظفَّر بالنَّصر المبين.

٥ ـ مواراة جِيَفِ[٢] قتلى الأعداء ، الَّذين انفرجت المعركة عن قتلهم ، والتعرُّف عليهم ، وعلى مكانتهم في حشودهم ، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاءَ شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمَّة ، والذي كان من شأن رأس الكفر أميَّة بن خلف ، وأضرابهما ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[٣] من قُلُبِ بدرٍ ، خبيثٍ مُخْبِثٍ [البخاري (٣٩٧٦)] ، ثمَّ وقف على شفة الرَّكي[٤] ، وقد ورد: أنَّه ﷺ وقف على القتلى ، فقال: «بئس عشيرةُ النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ؛ كذَّبتموني ، وصدَّقني النَّاس، وخذلتموني ، ونصرني النَّاس، وأخرجتموني، وآواني النَّاس» [ابن هشام (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)] .

ثم أمر بهم ، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ من قُلُبِ بدر ، فطُرِحوا فيه ، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعةَ! ويا شيبةُ بنُ ربيعةَ! ويا أُميَّةُ بنُ خلف! ويا أبا جهل بن هشام! ويا فلان! ويا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ، فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقّاً» ، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤)] .

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لصادق عرجون (٣/ ٤٥٣).
(٢) الجِيفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أنْتَنَت ، والجمع: جِيَفٌ.
(٣) الرَّكِيَّةُ: البئر لم تُطْوَ ، والجمع رَكَايَا ، ورُكِيٌّ.
(٤) شفة الرَّكِيِّ: طرف البئر.

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً، وتصغيراً، ونقمةً، وحسرةً، وندماً. [البخاري في نهاية حديث (٣٩٧٦)].

إنَّ مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بيَّنت أمراً عظيماً، وهو أنَّهم بدؤوا حياةً جديدةً، هي حياة البرزخ الخاصَّة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنَّهم لا يجيبون، ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتَّى إنَّه ﷺ مرَّ بقبرين، وقال: «إنهما لَيُعَذَّبَان، وما يُعَذَّبَان في كبيرٍ» [البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢)]. وذكر: أنَّ سبب تعذيبهما النَّمُّ بين النَّاس، وعدمُ الاستنزاه من البَوْلِ[1]. ولابدَّ من التَّسليم بهذه الحقائق الغيبيَّة، بعد أن تحدَّث عنها الصادق المصدوق ﷺ، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وأمَّا الشُّهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

* * *

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص ٦٤.

المبحث الرَّابع
مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطُّغاة:

أ ـ مصرع أبي جهل بن هشامٍ المخزوميِّ:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: بَيْنَا أنا واقفٌ في الصَّفِّ يوم بدرٍ، فنظرتُ عن يميني، وشِمالي، فإذا أنا بغُلاَمَيْنِ من الأنصار حديثة أَسْنَانُهما، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بين أضلَعَ[١] منهما، فغمزني[٢] أحدُهما، فقال: يا عمُّ! هل تعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعم، وما حاجتُك إليه يابن أخي؟! قال: أُخْبِرْتُ أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله ﷺ، والَّذي نفسي بيده! لئن رأيتُهُ لا يُفارقُ سوادي سوادَهُ؛ حتَّى يموتَ الأعجلُ منا[٣]، فتعجبتُ لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مِثْلَهَا، فلم أَنْشَبْ[٤] أَنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في النَّاس، فقلت: ألا إنَّ هذا صَاحِبُكما الَّذي سألتُمَاني، فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتَّى قتلاه، ثمَّ انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيُّكما قَـتَـلَهُ؟» قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه! فقال: «هل مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُما؟»، قالا: لا. فنظر في السَّيفين، فقال: «كِلاكُما قتله، سَلَبُه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح» وكانا: مُعاذَ بن عَفْرَاء، ومُعَاذَ بن عمروِ بن الجموح»[البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢)][٥].

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدرٍ: «مَنْ ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضرَبَه ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ[٦]، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبا جهلٍ؟! قال:

---

(١) أضلع: أقوى، وأعظم، وأشدُّ.
(٢) غمزني: قرصني.
(٣) حتَّى يموتَ الأعجلُ منا: أي: الأقرب أجلاً.
(٤) أنشب: ألبث.
(٥) وإنَّما قضى ﷺ بالسَّلَب لعمرو بـن الجَمُوح وحده؛ لأن السَّلَب يستحقُّـه من أثخن فـي القتل، ولو شاركه غيره في الضَّرب، أو الطعن، وإنَّما قال النَّبيُّ ﷺ: «كلاكما قتله» تطييباً لقلب الآخر؛ من حيث إنَّ له مشاركةً في قتله، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجموح هو الَّذي أثخنه، وأيضاً فإن مُعاذَ بن عفراء قُتِلَ في المعركة نفسها، وأما الآخر فقد عاش إلى زمان عثمان رضي الله عنه.
(٦) بَـرَدَ: قارب على الموت، وكان في النَّزع الأخير، أو فَتَرَ وسَكَنَ، والمعنيان متقاربان.

وهل فوقَ رجلٍ قتله قومُه؟ أو قال: قَتَلتموه. [البخاري (٣٩٦٢) ومسلم (١٨٠٠/١١٨)].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً، فقلت: أيْ عدوَّ الله، قد أخزاك الله! قال: وبم أخزاني؟ هل أَعْمَدُ من رجلٍ قتله قومه[1]، ومعي سيفٌ لي، فجعلت أضربه، ولا يحتك فيه شيءٌ، ومعه سيفٌ له جيِّدٌ، فضربتُ يده، فوقع السَّيف من يده، فأخذته، ثمَّ كشفتُ المِغْفَرَ عن رأسه، فضربتُ عنقَه، ثمَّ أتيتُ النبيَّ ﷺ، فأخبرته، فقال: «آلله الَّذي لا إله إلا هو؟!» قلت: آلله الَّذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثلَ الطَّائر، ثم جئتُ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقتُ معه فأريتُه، فلمَّا وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعونُ هذه الأمَّة» [أحمد (١/٤٠٣ و٤٤٤) وأبو داود (٢٧٠٩) مختصراً].

كان الدَّافع من حرص الأنصاريَّيْنِ الشَّابَّيْنِ على قتل أبي جهلٍ ما سمعاه من أنَّه كان يسبُّ رسولَ الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبَّة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ، إلى بذل النَّفس في سبيل الانتقام ممَّن تعرَّض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ ـ وهو في الرَّمق الأخير من حياته ـ فيه عبرةٌ بليغةٌ، فهذا الطَّاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكَّة، قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمقٍ من حياته، هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً؛ حتى؛ وهو صريعٌ وفي آخر لحظات حياته[2]، فقد جاء في روايةٍ لابن إسحاق: أنَّه قال لعبد الله بن مسعود لمَّا أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم!» [ابن هشام (٢/٢٨٩)].

«فالله تعالى لم يُعجِّلْ لهذا الخبيث أبي جهلٍ بضربات الأبطال من أشبال الأنصار فحسب، ولكنَّه أبقاه مصروعاً في حالةٍ من الإدراك، والوعي، بعد أن أصابته ضرباتٌ أشفَتْ به على الهلاك الأبديِّ، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة، والذُّلِّ، والخذلان على يد من كان يستضعفه، ويؤذيه، ويضطهده بمكَّة من رجال الرَّعيل الأوَّل ـ السَّابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطُهْر العقيدة، والتعبُّد لله بشرائعه الَّتي أنزلها رحمةً للعالمين ـ عبد الله بن مسعود رضي الله

---

(١) (أَعْمَدُ من رجل قتله قومه) أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليَّ عارٌ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٤/١٥٨ ـ ١٦٠).

عنه ، فيعلو على صدره ، ويدوسه بقدميه ، ويقبض على لحيته تحقيراً له ، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره ، واستكباره في الأرض ، ويستلُّ منه سيفه إمعاناً في البطش به ، فيقتله به ، ويمعن في إغاظته بإخباره: أنَّ النَّصر عقد بناصية جند الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنَّ شَنَارَ(١) الهزيمة النَّكراء ، وعارها ، وخزيها ، وخذلانها قد رُزِئَتْ(٢) به كتائب الغرور الأجوف ، في حشود النَّفير الَّذي قاده هذا الكفور الخبيث . . . »(٣).

ب ـ مصرع أميَّة بن خلف:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: «كَاتبتُ أُميةَ بنَ خلف كتاباً ، بأن يحفظني في صَاغِيَتي(٤) بمكَّة ، وأحفظه في صَاغِيَتِهِ بالمدينة ، فلمَّا ذكرتُ (الرَّحمن) قال: لا أعرفُ الرَّحمنَ ، كَاتِبْني باسمك الَّذي كان في الجاهليَّة ، فكاتبته (عبدُ عمرٍو).

فلمَّا كان في يوم بدرٍ؛ خرجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَهُ(٥) حين نام النَّاسُ ، فأبصره بلالٌ ، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار ، فقال: أُميةُ بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أميَّةُ ، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا ، فلمَّا خَشِيتُ أن يلحقونا خلَّفتُ لهم ابنَهُ لأشْغِلَهم ، فقتلوه ، ثمَّ أَبَوا حتَّى يَتْبَعُونا ـ وكان رجلاً ثقيلاً(٦) ـ فلما أدركونا؛ قلتُ له: ابْرُكْ ، فَبَرَكَ ، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه ، فتَجَلَّلُوهُ(٧) بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدُهم رجلي بسيفه ، وكان عبد الرَّحمن بن عوف يُرِينا ذلك الأثَرَ في ظَهْرِ قَدَمِهِ» [البخاري (٢٣٠١ و٣٩٧١)] .

وفي روايةٍ أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أُمَيَّةُ بن خلفٍ لي صديقاً بمكَّة ، وكان اسمي عبدَ عمرٍو ، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبدَ الرَّحمن ، ونحن بمكَّة ، فكان يلقاني؛ إذ نحن بمكَّة ، فيقول: يا عبدَ عمرو! أرغبتَ عن اسمٍ سمَّاكه أبواك؟ فأقول: نعم ، فيقول: فإنِّي لا أعرف الرَّحمن؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمك الأوَّل ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمرو! لم أجبْه ، قال: فقلت له: يا أبا عليٍّ! اجعلْ ما شئتَ! ، قال: فأنت عبدُ الإله ، قال: فقلت: نعم ، قال: فكنت إذا مررت به قال:

---

(١) الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّنعَةِ والقُبْح ، ويقال: عارٌ وشَنَارٌ.
(٢) رَزَأَهُ رُزْءاً: أصابه بمصيبة.
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ لصادق عرجون (٣/ ٤٣١ ، ٤٣٢).
(٤) الصَّاغية: صاغية الرَّجل: ما يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال.
(٥) أُحْرِزَهُ: أحميه.
(٦) وكان رجلاً ثقيلاً: أي: ضخم الجثَّة.
(٧) تجلَّلوه: طعنوه ، وأصابوه ، وفي رواية (فتخلَّلوه) أي: أدخلوا أسيافَهم خلاله.

يا عبدَ الإله! فأجيبه ، فأتحدث معه ، حتَّى إذا كان يومَ بدرٍ؛ مررتُ به؛ وهو واقفٌ مع ابنه عليٍّ ، عليِّ بن أميَّة ، آخذٌ بيده ، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها ، فأنا أحملُها ، فلمَّا رآني؛ قال لي: يا عبدَ عمرو ، فلم أجبْه ، فقال: يا عبدَ الإله! فقلتُ: نعم ، قال: هل لك فيَّ؛ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع الَّتي معك؟ قال: قلت: نعم ها الله ذا[1]! قال: فطرحتُ الأدراع من يدي ، وأخذت بيده ، ويد ابنه ، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطُّ ، أما لكم حاجةٌ في اللَّبن؟ (قال): ثمَّ خرجت أمشي بهما ، قال ابن هشام: يريد باللَّبن: أنَّ من أسرني؛ افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللَّبن. [ابن هشام (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)].

ونلحظ من الرِّوايات السَّابقة:

١ ـ ما جرى من بلالٍ رضي الله عنه ، حينما رأى عدوَّه اللَّدود أميَّةَ بن خلفٍ؛ الَّذي كان يسومه أقسى ، وأعنف أنواع العذاب في مكَّة في يد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً؛ صرخ بأعلى صوته: (لا نجوت؛ إن نجا!).

إنَّه موقف من مواقف التَّشفِّي من أعداء الله ، والتَّشفِّي من كبار الكفرة الفجَّار في الحياة الدُّنيا ، نعمةٌ يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين ، الَّذين ذاقوا الذُّلَّ ، والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطُّغاة ، قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

٢ ـ إنَّ فيما جرى لأُميَّةَ بن خلفٍ من قتلٍ مفزعٍ درساً بليغاً للطُّغاة المتجبِّرين ، وعبرةً للمعتبرين؛ الَّذين يغترُّون بقوَّتهم ، وينخدعون بجاههم ، ومكانتهم ، فيعتدون على الضُّعفاء ، ويسلبونهم حقوقهم ، فمآلهم إلى عاقبةٍ سيِّئةٍ ، ووخيمةٍ في الآخرة ، وقد يمكِّن الله للضُّعفاء منهم في الدُّنيا قبل الآخرة؛ كما حدث لأُمَيَّةَ بن خلف ، وأضرابه من طغاة الكفر[2] ، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٣ ـ وفي قول عبد الرَّحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً! ذهبتْ أدْراعي ، وفجعني

---

(١) كذا في شرح السِّيرة والرَّوض ، قال السُّهيلي: «ها: تنبيه ، وذا: إشارة إلى نفسه ، وقال بعضهم: إلى القسم ، أي: هذا قسمي ، وأراها إشارة إلى المقسم ، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره ، وقام التَّنبيه مقامه ، كما يقوم الاستفهام مقامه ، فكأنَّه قال: ها أنذا مقسِمٌ ، وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و(ذا) ، فعلم أنَّه هو المقسم ، فاستغنى عن أنا ، ومثله قول أبي بكرٍ: لا ها اللهِ! في صحيح مسلمٍ (١٧٥١)».

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميدي (٤/ ١٥٢ ، ١٥٣).

بأسيرَيَّ»[(١)] ، مع ما جرى من بلالٍ من معارضةٍ وانتزاع الأسيرين من يده بقوَّة الأنصار الَّذين استنجد بهم ، دليلٌ على قوَّة الرِّباط الأخوي بين الصَّحابة الكرام[(٢)] .

٤ ـ موقف لأمِّ صفوان بن أميَّة (زوجة أُميَّةَ بن خَلف): قيل لأمِّ صفوان بن أميَّة بعد إسلامها ، وقد نظرت إلى الحُبَاب بن المنذر بمكَّة : هذا الذي قَطَعَ رِجْلَ عليِّ بن أميَّة يوم بدرٍ ، قالت : دَعُونا من ذكْرِ مَنْ قُتِل على الشِّرك! قد أهان الله علياً بضربة الحُبَاب بن المنذر ، وأكرم اللهُ الحُبَابَ بضربه علياً ، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتِلَ على غير ذلك[(٣)] ، وهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها؛ حيث اتَّضحت لها عقيدة الولاء والبراء ، فأصبحت تحبُّ المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها ، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها[(١)] .

وقولها عن ابنها عليٍّ : «قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتل على غير ذلك» تعني : أنَّه كان ممَّن عُرف عنهم الإسلام بمكَّة ، وخرجوا مع قومهم يوم بدرٍ مُكْرَهين فلمَّا التقى الصَّفَّان؛ فُتِنوا حينما رأوا قلَّة المسلمين ، فقالوا : قد غرَّ هؤلاء دينُهم[(٤)] ، فنزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٩] .

ج ـ مصرع عُبَيْدَة بن سعيد بن العاص على يد الزُّبير رضي الله عنه :

«قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه : لقيتُ يوم بدرٍ عُبيدَةَ بن سعيد بن العاص ، وهو مُدَجَّجٌ[(٥)] لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يُكْنَى أبا ذات الكَرِش ، فقال: أنا أبو ذات الكَرِش ، فحملت عليه بالْعَنَزَةِ[(٦)] ، فطعنته في عينه ، فمات ، قال هشامٌ: فأُخْبِرْتُ: أنَّ الزُّبيرَ قال: لقد وضعتُ رجلي عليه ، ثمَّ تمطَّأْتُ ، فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفاها[(٧)] .

قال عُرْوَة : فسأله إيَّاها رسولُ الله ﷺ ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض رسولُ الله ﷺ أخذها ، ثمَّ طلبها أبو بكر ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض أبو بكر ، سأله إيَّاها عمر ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُبض عمر أخذها ، ثمَّ طلبها عثمان منه ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُتل عثمان وقعت عند آل عليٍّ ، فطلبها عبد الله بن الزبير ، فكانت عنده حتَّى قُتل» [البخاري (٣٩٩٨)] .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤).
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ للحميدي (٤/ ١٥٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٥٤).
(٤) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ٢١).
(٥) مُدَجَّجٌ: بجيمين الأولى ثقيلةٌ ومفتوحةٌ ـ وقد تكسر ـ أي: مغطًّى بالسِّلاح؛ ولا يظهر منه شيء.
(٦) العَنَزَة: شبيه العُكازة لها زُجٌّ من أسفلها يُطْعَنُ به.
(٧) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/ ١٥٤).

«هذا الخبر يصوِّر لنا دقَّة الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرَّجل، مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزَّع طاقته بين الهجوم والدِّفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرَّجل بعيدةً جداً؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي؛ لكنَّ الزُّبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ ممَّا يدلُّ على قوَّة الزُّبير الجسديَّة، إضافةً إلى دقَّته، ومهارته في إصابة الهدف»[(١)].

د ـ مصرع الأَسْود المَخْزُوميِّ:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأَسْود المَخْزُوميُّ، وكان رجلاً شرساً سَيِّىءَ الخُلق، فقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه! فلمَّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمَّا التقيا ضربه حمزةُ فأَطنَّ[(٢)] قَدَمَهُ بِنصْف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْخُبُ[(٣)] رجله دماً نحو أصحابه، ثمَّ حبا إلى الحوض حتَّى اقتحم فيه، يريد أن يُبِرَّ يمينه، وأتبعه حمزة فضربه؛ حتَّى قتله في الحوض[(٤)].

وقد سأل أميَّةُ بن خلف عبد الرحمن بن عوف، عن الرَّجل المُعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ فأجابه عبد الرَّحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أميَّةُ: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[(٥)]، وهذه شهادةٌ من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني: أنَّه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً، وتشريداً[(٦)].

وكان هذا أوَّل من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللَّئيم الشَّرِس يتحدَّى المسلمين، فتصدَّى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه، ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبِّرين درساً في الصَّميم[(٧)].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةُ يوم بدرٍ، وهو غلامٌ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ ﷺ،

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٦٣).
(٢) أطَنَّ: أطار.
(٣) تَشْخُب: تسيل بصوتٍ.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٤/ ١٥١)، وسيرة ابن هشام (مقتل أميَّة بن خلف).
(٦) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٥٢).
(٧) المصدر السَّابق نفسه، (٤/ ١٢١).

فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلةَ حارثةَ منِّي ، فإن يكن في الجنَّة ؛ أصبرْ ، وأحتسبْ ، وإن تكن الأخرى ، ترَ ما أصنعُ؟ فقال: «ويحكِ! أَوَهَبِلْتِ! أَوجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرةٌ ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (٣٩٨٢)] وفي روايةٍ: «يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جنان في الجنَّة ، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[(١)].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أنَّ عوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء[(٢)] ، قال: يا رسول الله! ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: «غمسُهُ يده في العدوِّ حاسراً[(٣)]» فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثمَّ أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتَّى قُتل[(٤)].

وهذا الخبر يدلُّ على قوَّة ارتباط الصَّحابة الكرام بالآخرة ، وحرصهم على رضوان الله تعالى ، ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسَّهم ، وهو حاسرٌ غير متدرِّع يثخن في الأعداء ، حتَّى أكرمه الله بالشهادة ، لقد تغيَّرت مفاهيم المجتمع الجديد ، وتعلَّق أفراده بالآخرة ، وأصبحوا حريصين على مرضاته ، بعد أن كان جُلَّ همِّهم أن تتحدث النساءُ عن بطولاتهم ، ويرضى سيد القبيلة عنهم ، وتُنشد الأشعار في شجاعتهم[(٥)].

ج ـ استشهاد سعد بن خيثمة ، ثمَّ أبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ بن حجر: قال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة ، وأبوه ، فخرج سهم سعدٍ ، فقال له أبوه: يا بُنيَّ! آثرني اليوم ، فقال سعد: يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة ؛ فعلت ، فخرج سعدٌ إلى بدرٍ ، فقُتل بها ، وقتل أبوه خيثمة يوم أُحُدٍ[(٦)].

وهذا الخبر يُعطي صورةً مشرقةً عن بيوتات الصَّحابة في تنافسهم ، وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى ؛ فهذا سعد بن خيثمة ، ووالده لا يستطيعان الخروج معاً ؛ لاحتياج أسرتهما لبقاء أحدهما ، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبةً في نيل الشَّهادة ، حتَّى اضطروا إلى الاقتراع بينهما ، فكان الخروج من نصيب سعدٍ رضي الله عنهما ، وكان الابن في غاية الأدب مع

---

(١) الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ٤٧٥).
(٢) عفراء: بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة ، شارك أولادها السَّبعة في غزوة بدرٍ.
(٣) حاسراً: غير لابس الدِّرع.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٤٥ ، وانظر: الإصابة لابن حجر ، ترجمة عوف بن الحارث ، برقم (٦١٠٧).
(٥) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٣١).
(٦) الإصابة (٢/ ٢٣ ، ٢٤) رقم (٣١١٨).

والده؛ ولكنَّه كان مشتاقاً إلى الجنَّة ، فأجاب بهذا الجواب البليغ : «يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة فعلتُ»[(١)] .

د ـ دعاء النَّبيِّ ﷺ لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة :

عن عائشة رضي الله عنها في حديثها عن طرح قتلى قريش في القَلِيب بعد معركة بدرٍ ، قالت : فلمَّا أمر بهم ، فسُحبوا؛ عُرِفَ في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية ، وأبوه يُسحب إلى القَليب ، فقال له رسول الله ﷺ : «يا أبا حذيفة! والله لكأنَّه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال : والله يا رسول الله! ما شككت في الله ، وفي رسول الله ، ولكن إن كان حليماً سديداً ذا رأيٍ ، فكنت أرجو ألا يموتَ حتَّى يهديه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الإسلام ، فلمَّا رأيت : أنَّه قد فات ذلك ، ووقع حيث وقع ؛ أحزنني ذلك! قال : فدعا له رسول الله ﷺ بخير . [الحاكم (٣/ ٢٢٤)] .

إنَّ هذا الموقف يبيِّن قوة التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةَ اليقين ، والعاطفة البشرَّية في قمَّة الوفاء النَّبويِّ؛ فالإيمان لا يُميت المشاعر البشريّة؛ ولكنَّه يهذِّبها ، فيحوِّلها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ ، إلى وفاءٍ لا ينكره المنهج الرَّبَّانيُّ في تطبيقه العمليِّ؛ فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمانٌ لا تهزُّه زلازل الأحداث ، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشراف قريشٍ كافراً ، ويُلقى معهم في قَلِيب بدرٍ؛ يأخذه أسف العاطفة البشريّة وفاءً لهذا الأب ، ويظلُّ أبو حذيفة مُزَمَّلاً بإيمانه الرَّاسخ رسوخ الأَطْوَاد[(٢)] الشَّامخات ، فلا يزيد على أن يعتريه الاكتئاب على ما فات أباه من خيرٍ يرجوه له بالهداية إلى الإسلام[(٣)]؛ ولهذا المقصد النَّبيل الَّذي أثار حزن أبي حذيفة ، دعا له رسول الله ﷺ بخيرٍ[(٤)] .

هـ ـ عُمَيْر بن أبي وقَّاص : لمَّا سار رسول الله ﷺ إلى بدرٍ ، وعُرض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْر ابن أبي وقَّاص ، فبكى عميرٌ ، فأجازه ، فعقد عليه حمائل سيفه ، ولقد كان عُمَيْر يتوارى حتَّى لا يراه رسولُ الله ﷺ ، فقال سعد : رأيت أخي عُمَيْر بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله ﷺ يوم بدر يتوارى ، فقلت : ما لك يا أخي؟ ! قال : إنِّي أخاف أن يراني رسول الله ﷺ ، فيستصغرَني ، ويردَّني ، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة[(٥)] . وقد استُشهد بالفعل .

* * *

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/ ٨٧) .

(٢) الأَطْوَادُ : جمع طَوْد ، وهو الجبل العظيم .

(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ (٣/ ٤٤٦) .

(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/ ١٧٤) .

(٥) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣١٧ ، نقلاً عن صفة الصفوة (١/ ٢٩٤) ، والمستدرك (٣/ ١٨٨) والإصابة (٣/ ٣٥) .

فهرس الموضوعات

الفصل الرَّابع

هجرة الحبشة، ومحنة الطَّائف، ومنحة الإسراء

الفصل الخامس
الطَّواف على القبائل، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

الفصل السَّادس
هجرة النَّبيِّ ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه

الفصل السَّابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة

* * *

المؤلف في سطور
علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

* ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدَّعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقديرٍ ممتازٍ ، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلاميَّة كلية أصول الدِّين قسم التَّفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

* نال درجة الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية .

* **صدرت له عدَّة كتب :**

١ ـ من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين .

٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشَّمال الإفريقي) .

٣ ـ صفحاتٌ من تاريخ ليبيا الإسلاميِّ والشمال الإفريقي .

٤ ـ عصر الدَّولتين الأمويَّة ، والعباسيَّة ، وظهور فكر الخوارج .

٥ ـ الدَّولة العبيديَّة (الفاطمية) الرَّافضية .

٦ ـ فقه التَّمكين عند دولة المرابطين .

٧ ـ دولة الموحِّدين .

٨ ـ الدَّولة العثمانية ، عوامل النُّهوض ، وأسباب السُّقوط .

٩ ـ الحركة السَّنوسية في ليبيا .

(أ) الإمام محمد بن علي السَّنوسي ، ومنهجه في التَّأسيس .

(ب) محمَّد المهدي السَّنوسي ، وأحمد الشريف .

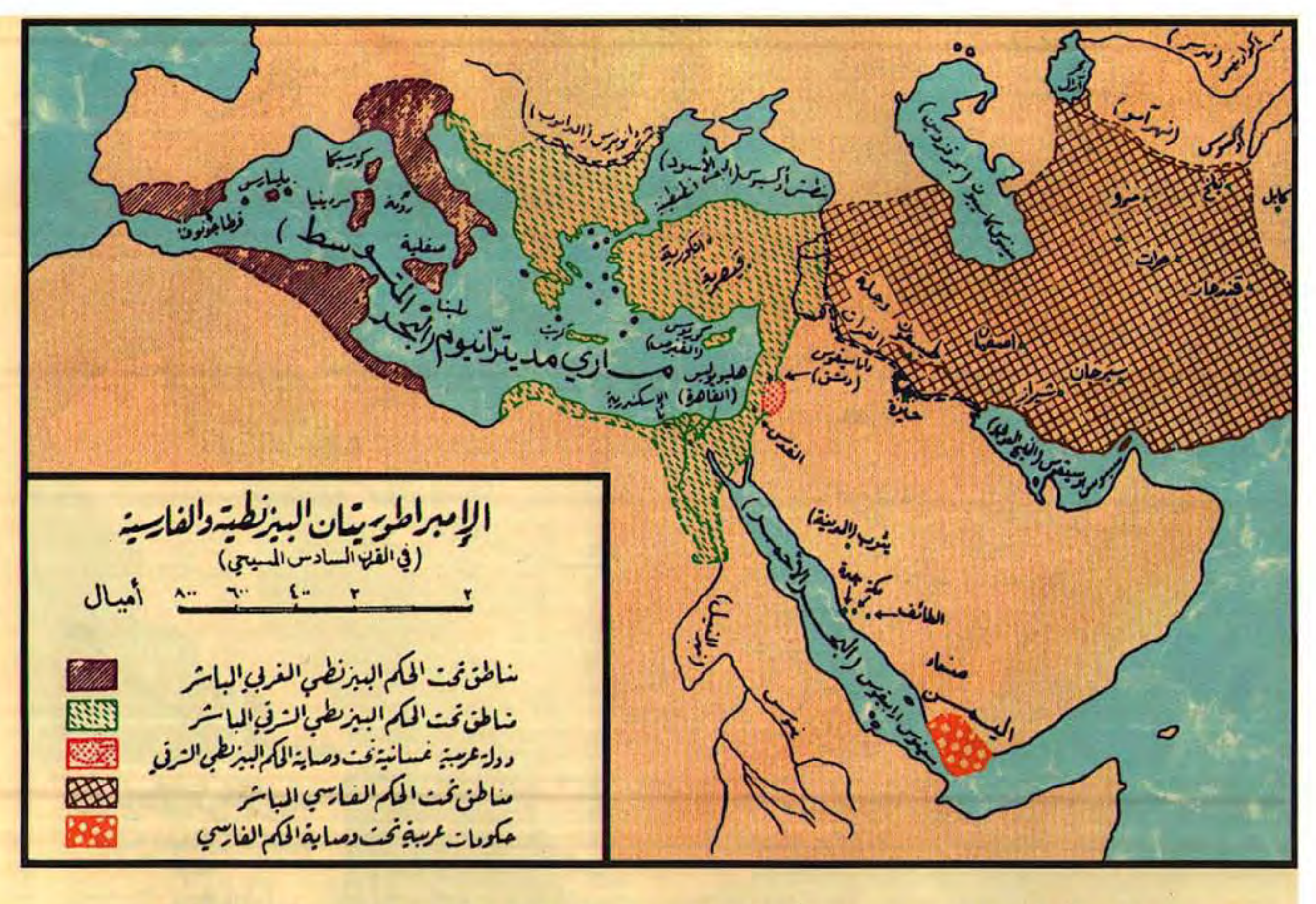
(ج) إدريس السَّنوسي ، وعمر المختار .

١٠ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم .

١١ ـ السِّيرة النبوية ، عرض وقائع ، وتحليل أحداث .

الشكل (١)

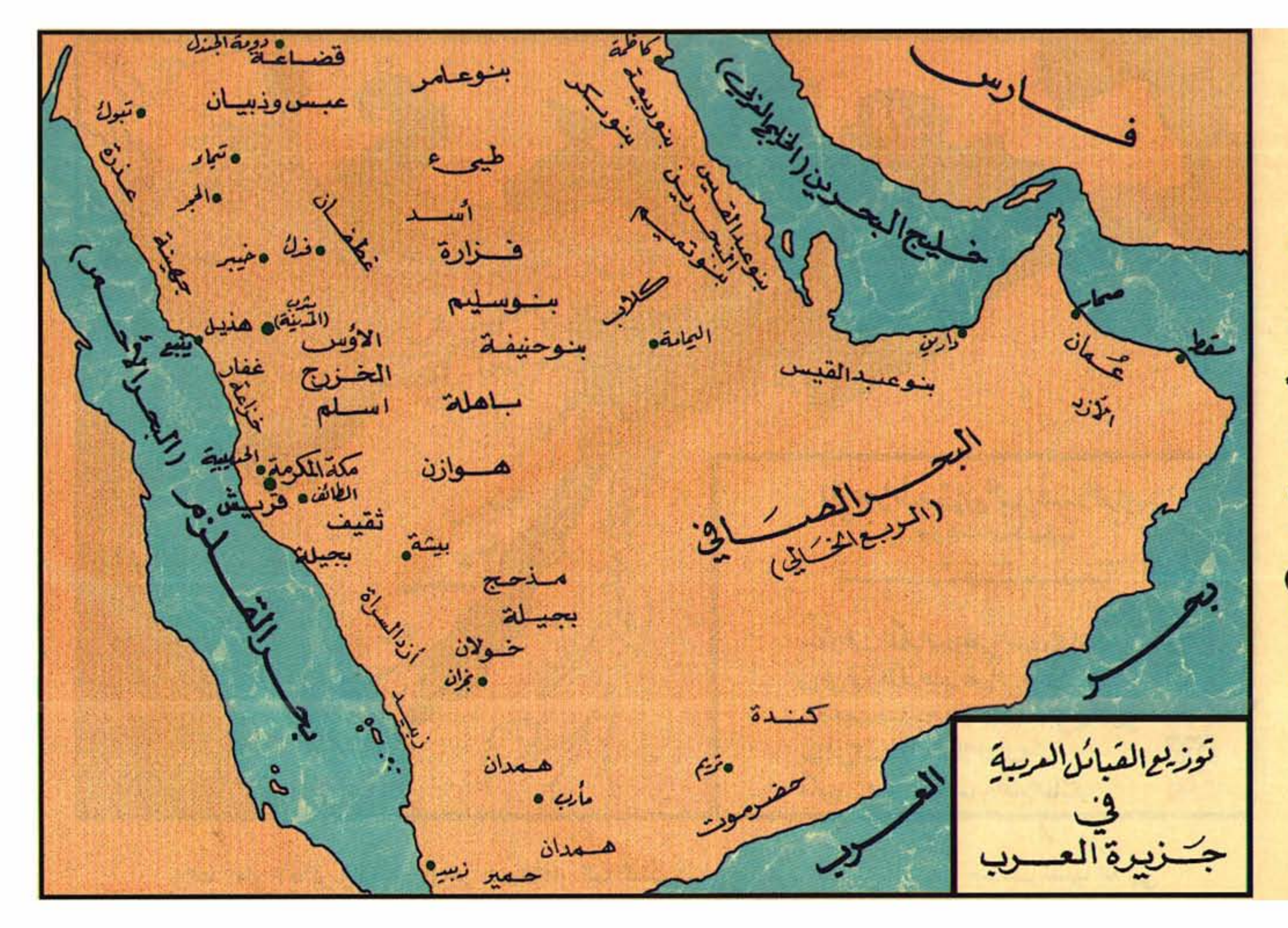
خريطة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية



رسمنا أسماء الأماكن والبحار والبحيرات والأنهار كما كانت تسمى في القرن السادس المسيحي حسب نطقها اللاتيني

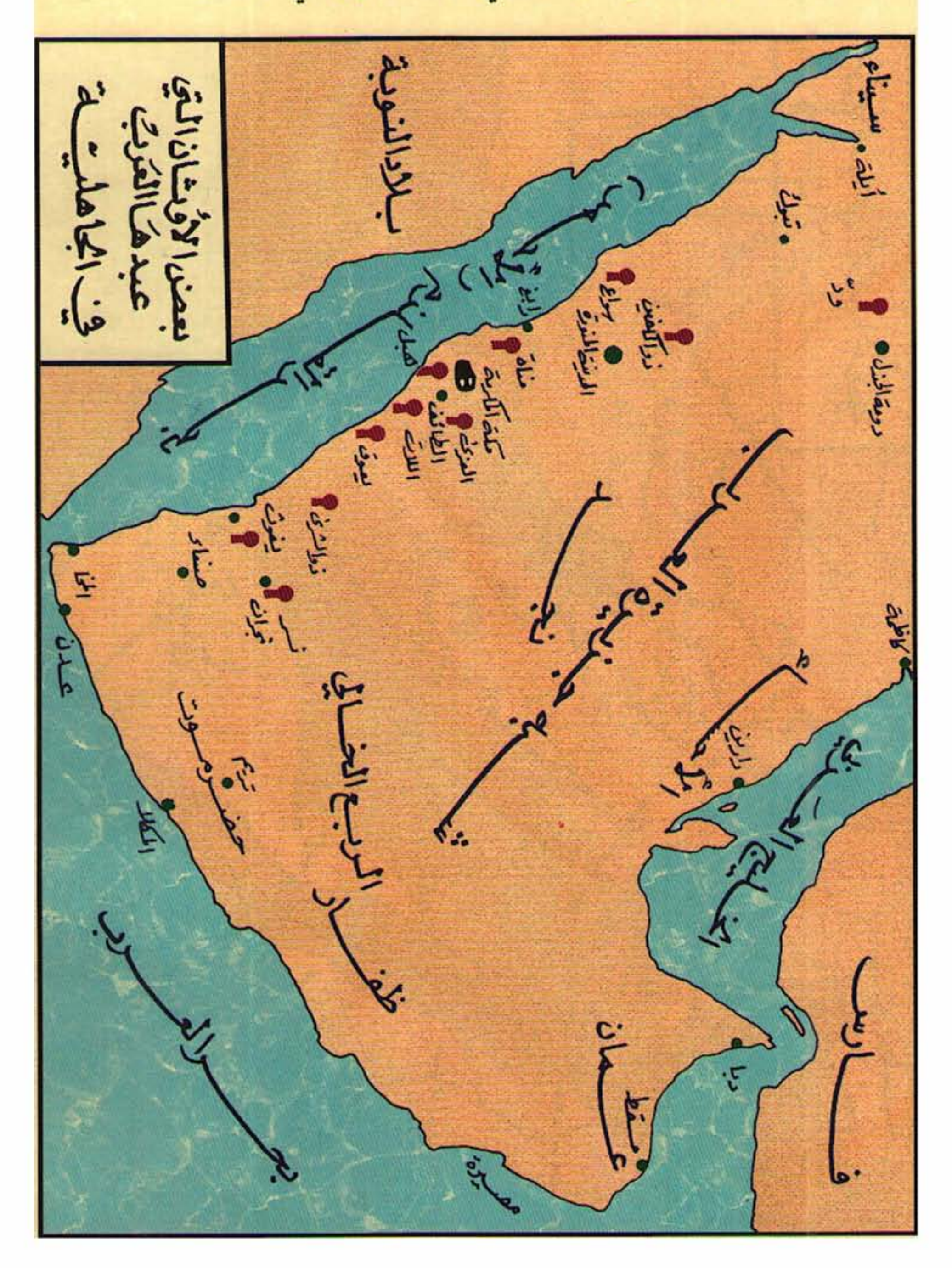
الشكل (٢)

خريطة توزيع القبائل العربية في جزيرة العرب



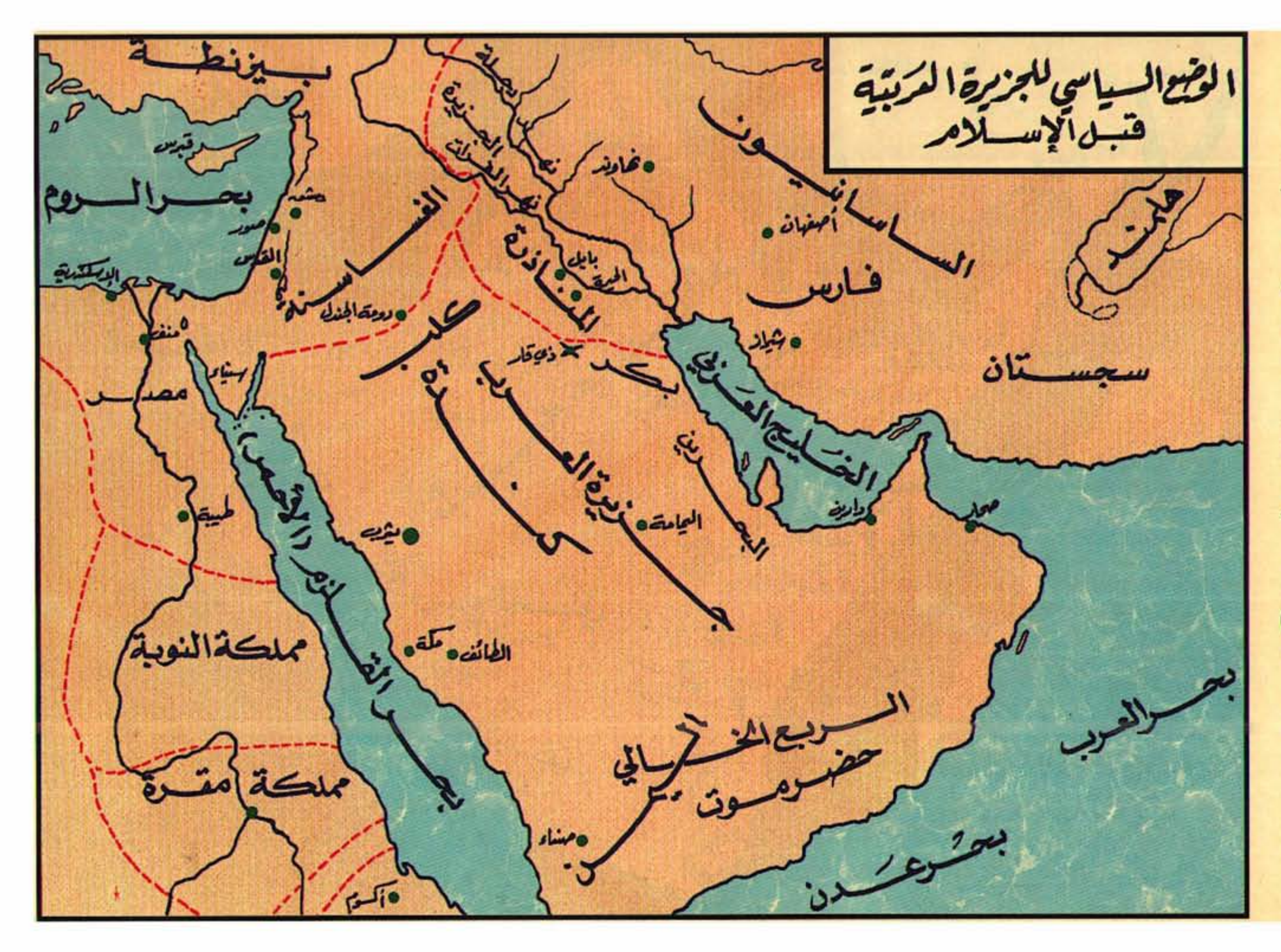
الشكل (٣)

خريطة بعض الأوثان التي عبدها العرب في الجاهلية



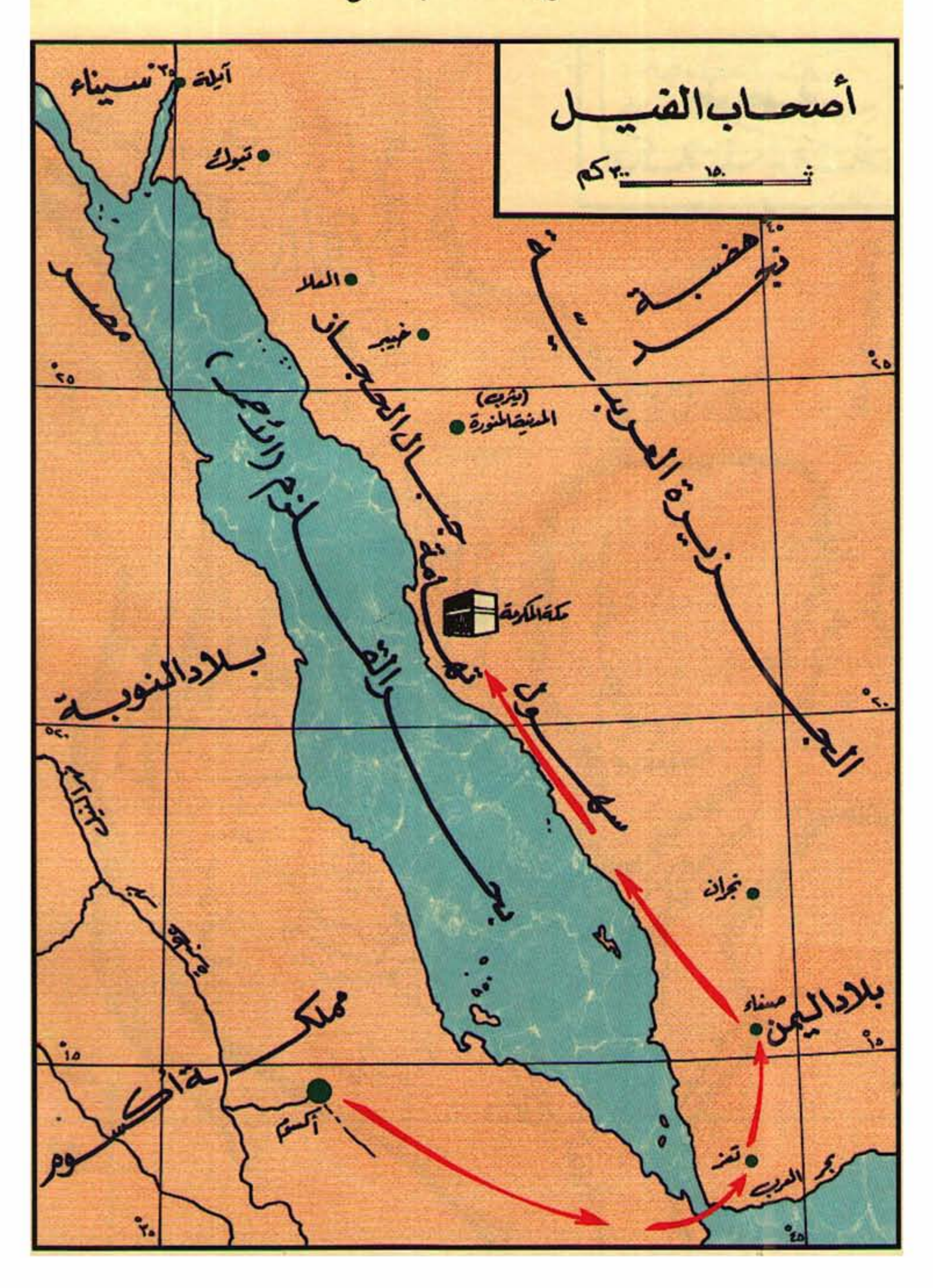
الشكل (٤)

خريطة الوضع السياسي للجزيرة العربية قبل الإسلام



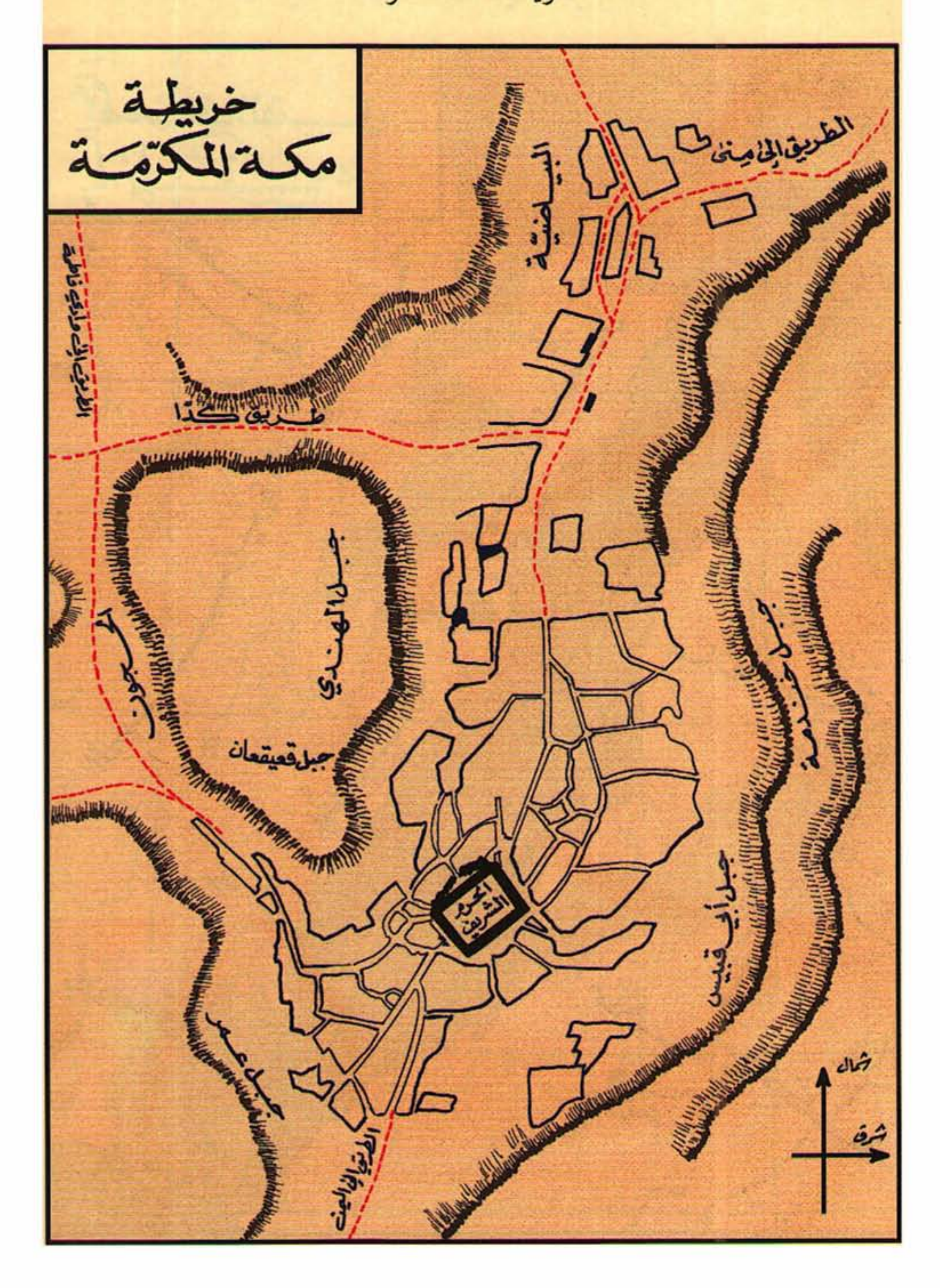
الشكل (٥)

خريطة أصحاب الفيل



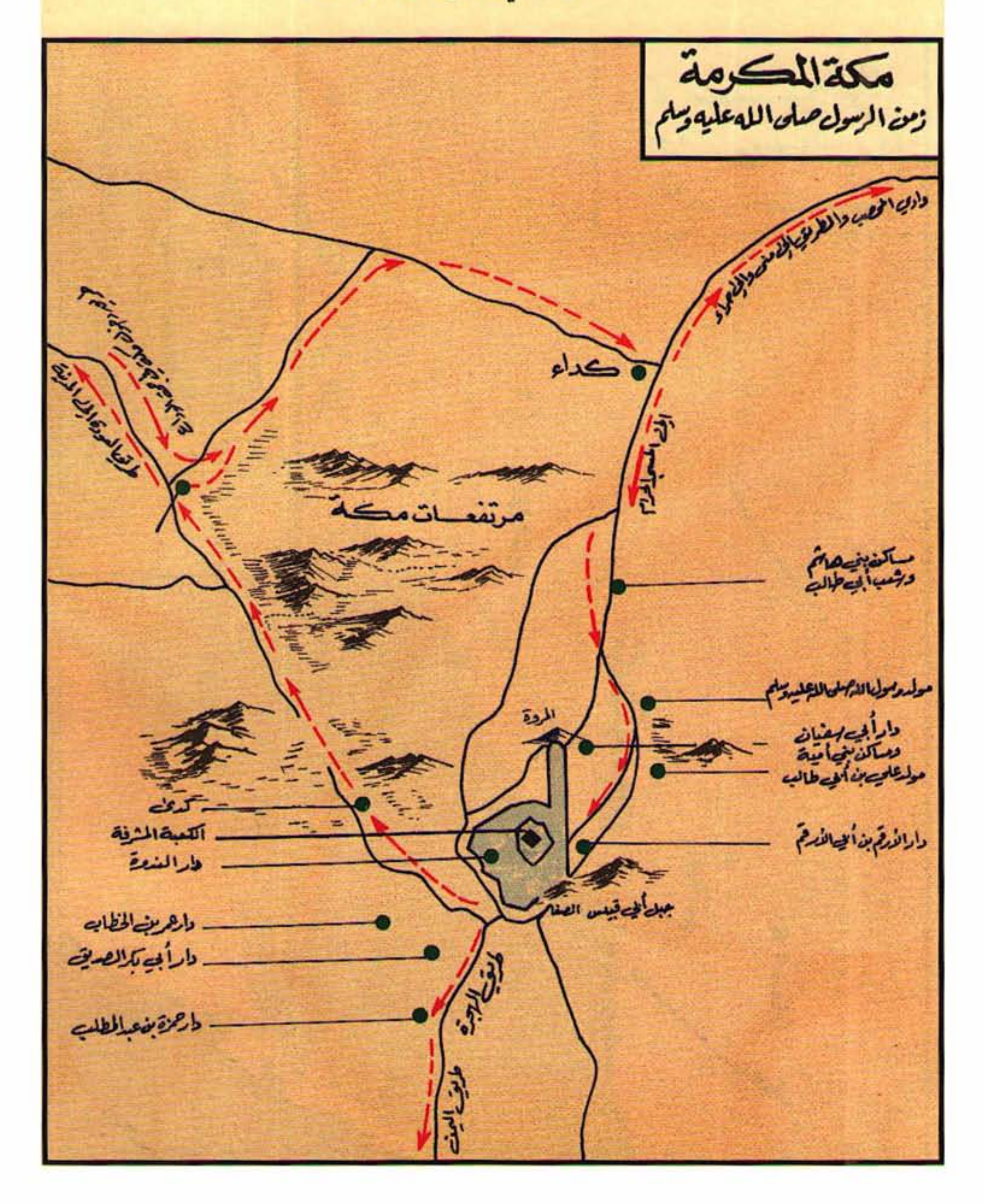
الشكل (٦)

خريطة مكة المكرمة



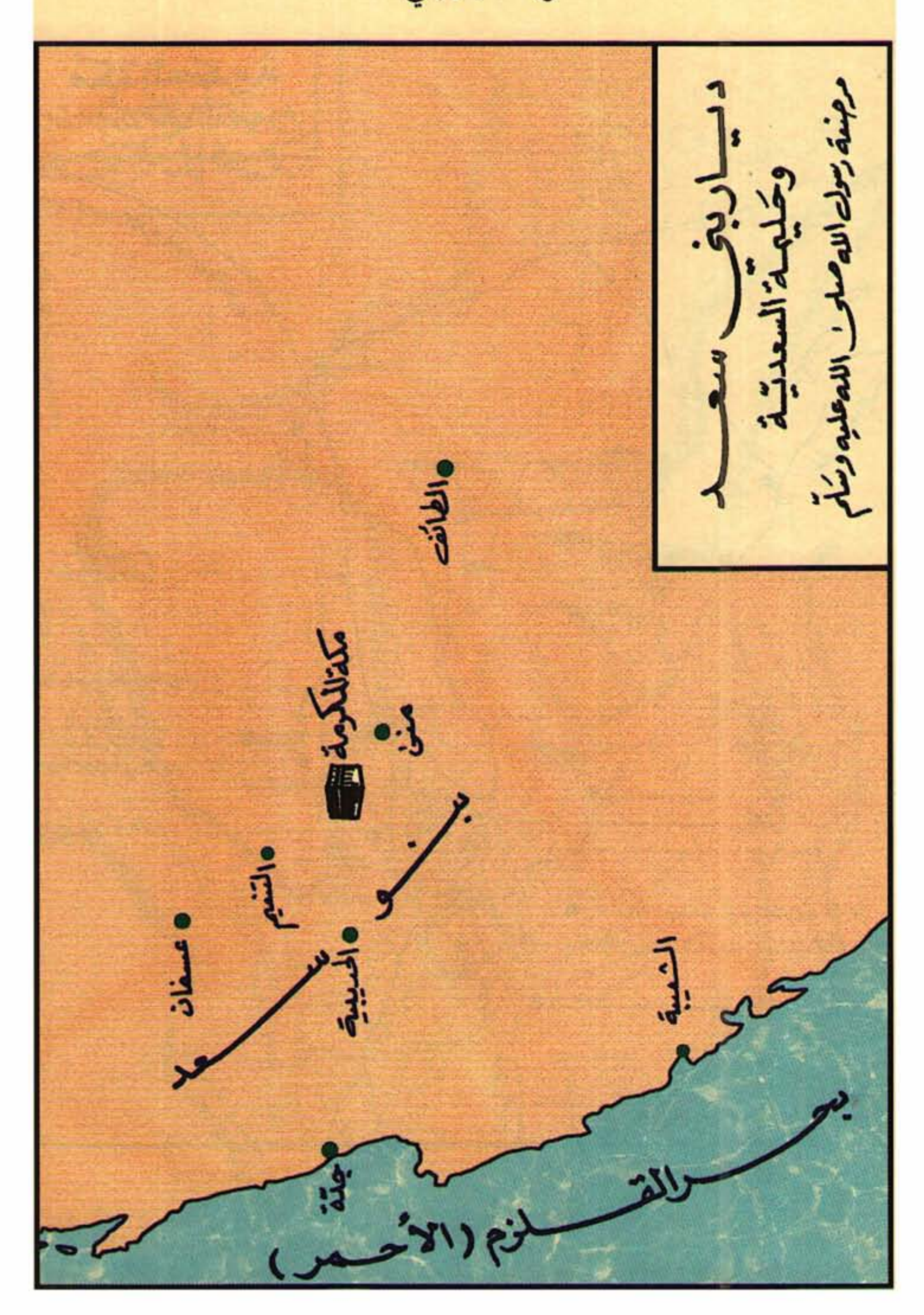
الشكل (٧)

مكة المكرمة في زمن الرسول ﷺ



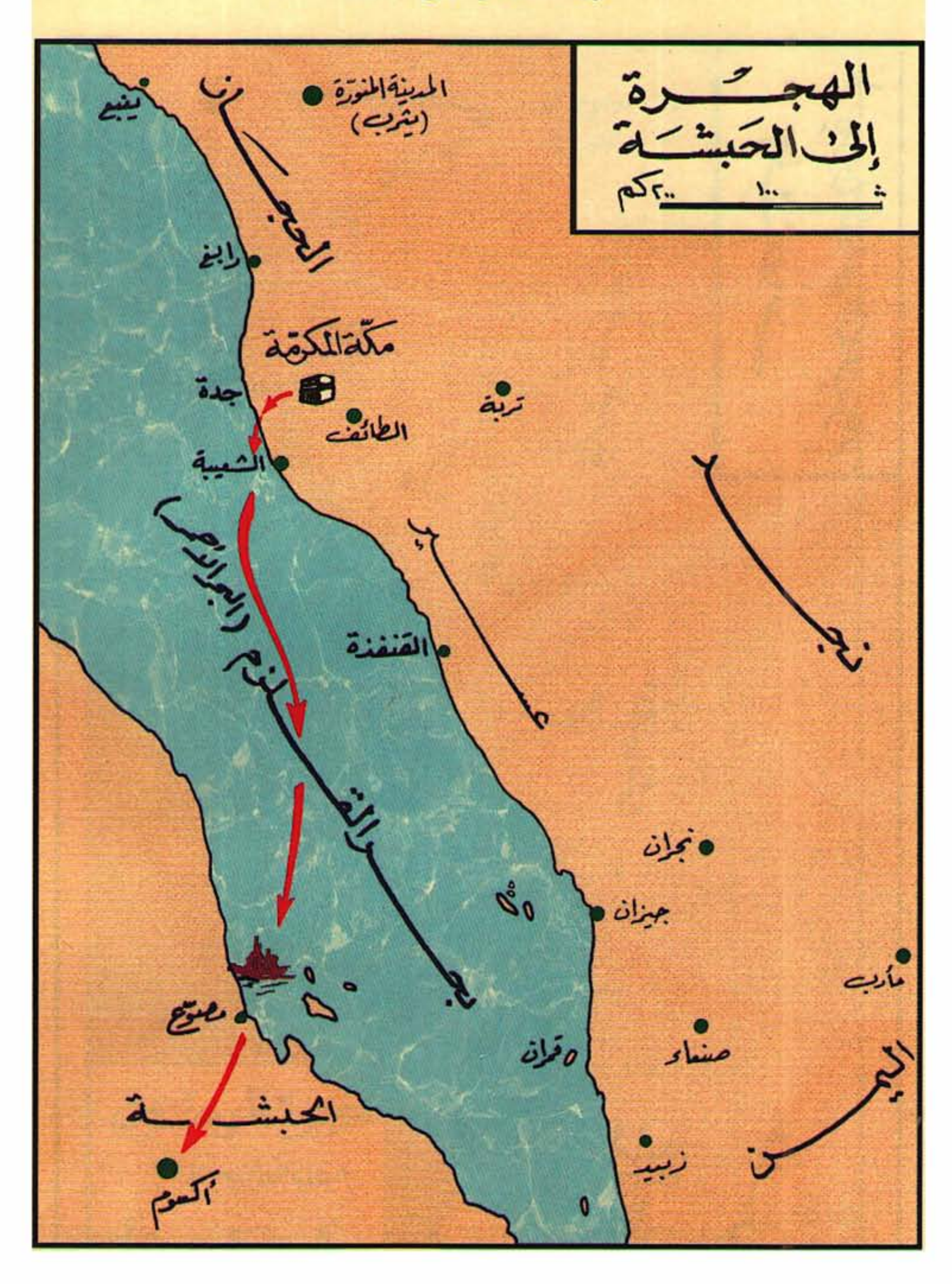
الشكل (٨)

خريطة ديار بني سعد



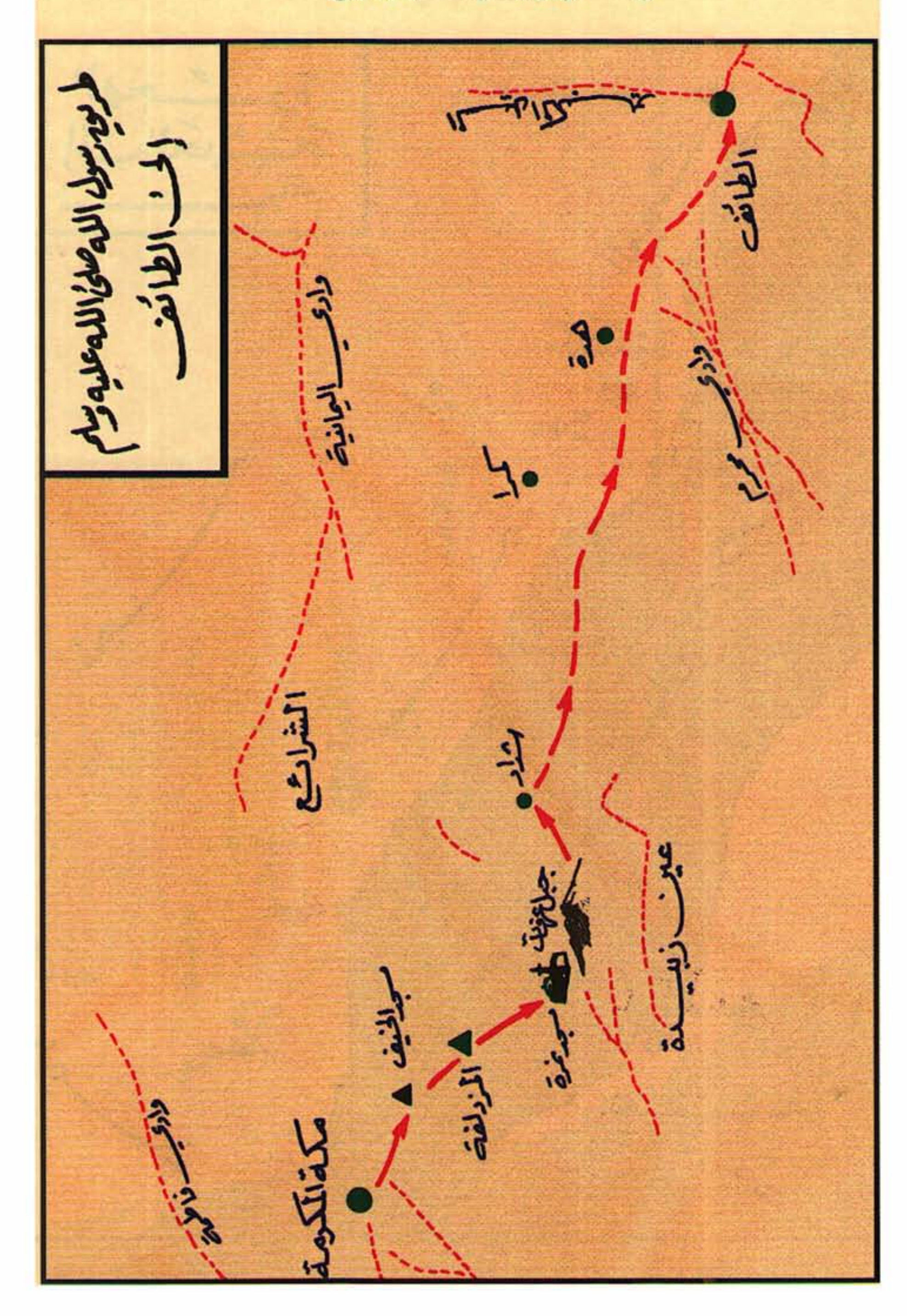
الشكل (٩)

خريطة الهجرة إلى الحبشة



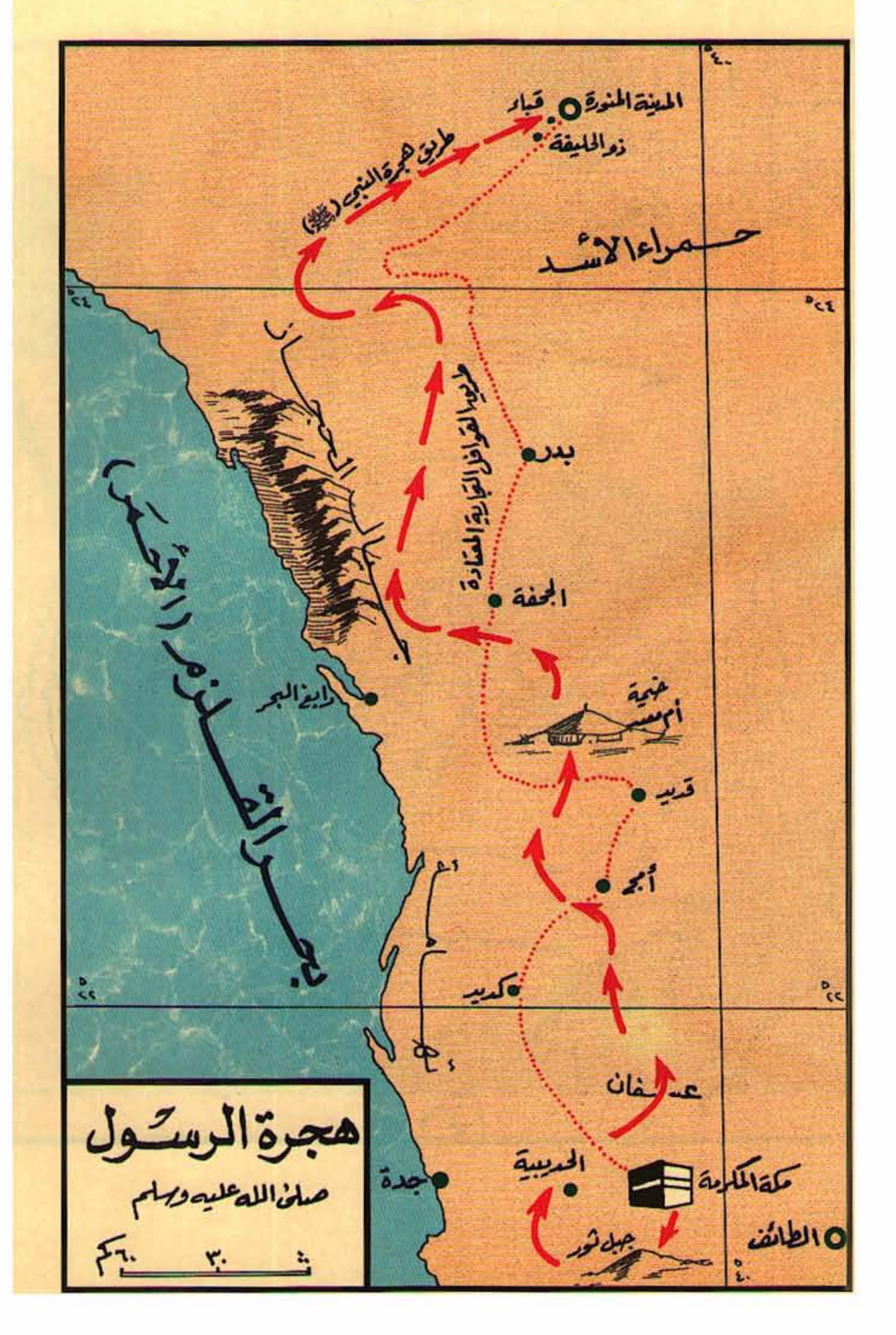
الشكل (١٠)

خريطة طريق رسول الله ﷺ إلى الطائف



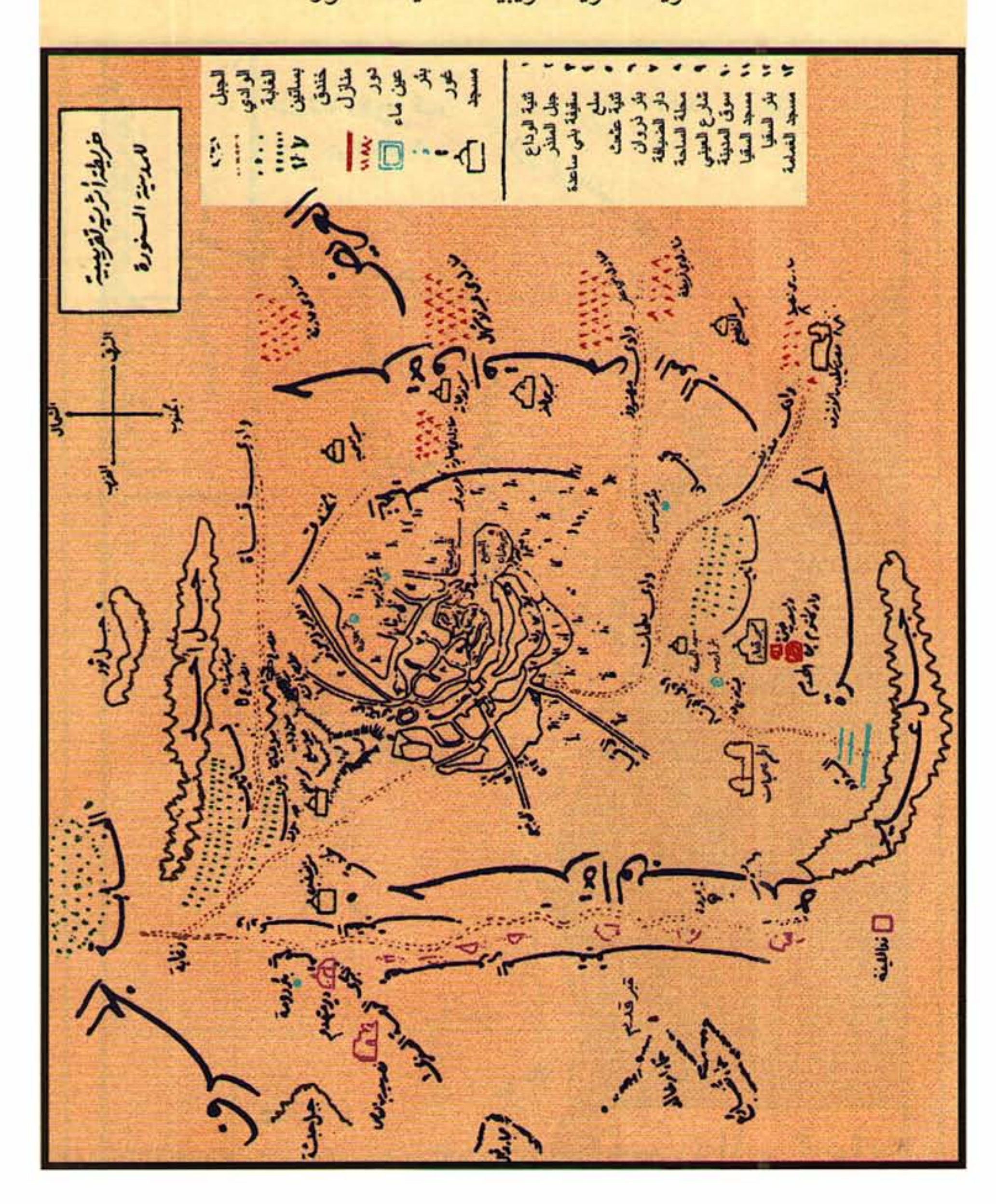
الشكل (١١)

خريطة هجرة الرسول ﷺ



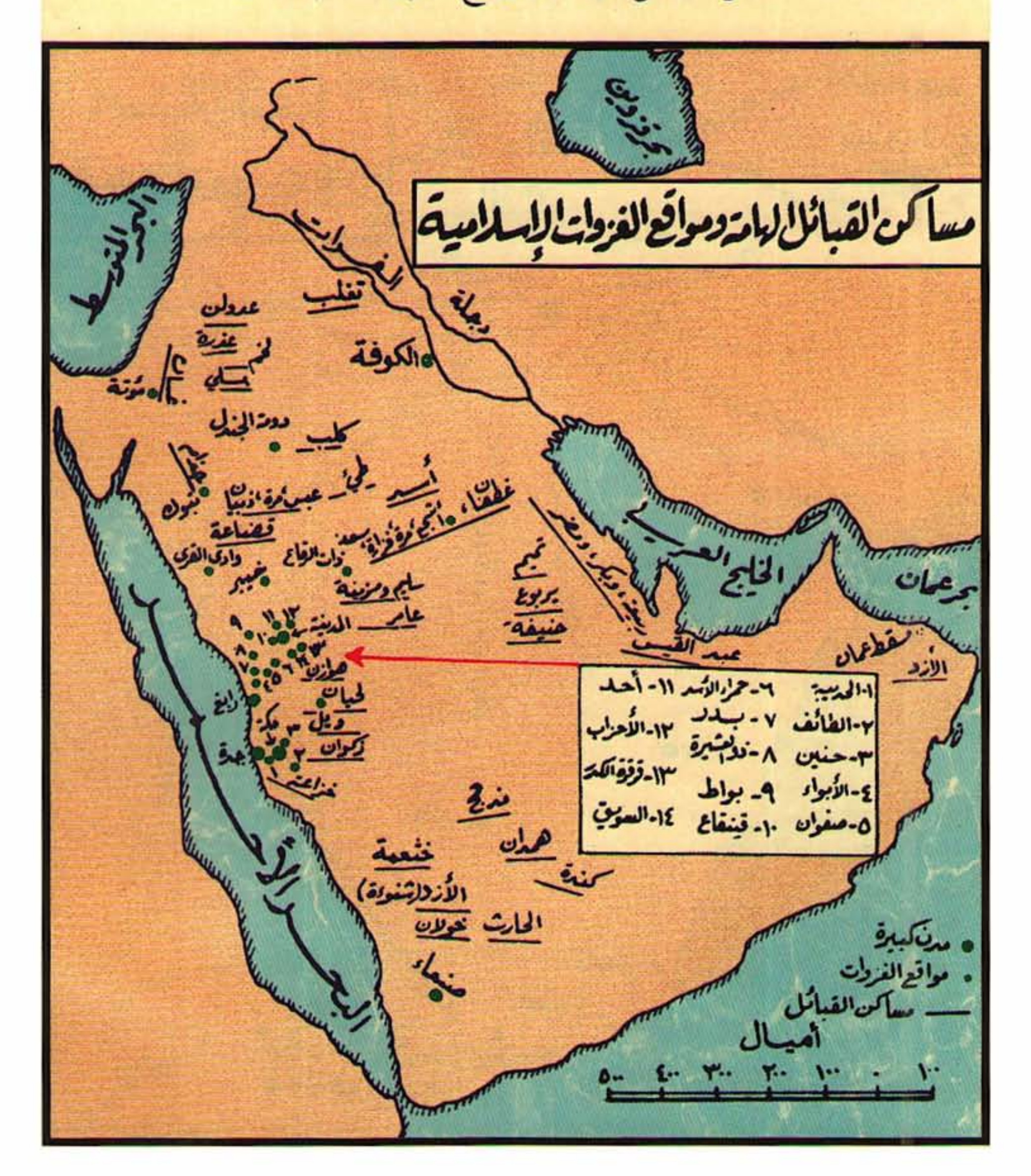
الشكل (١٢)

خريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة



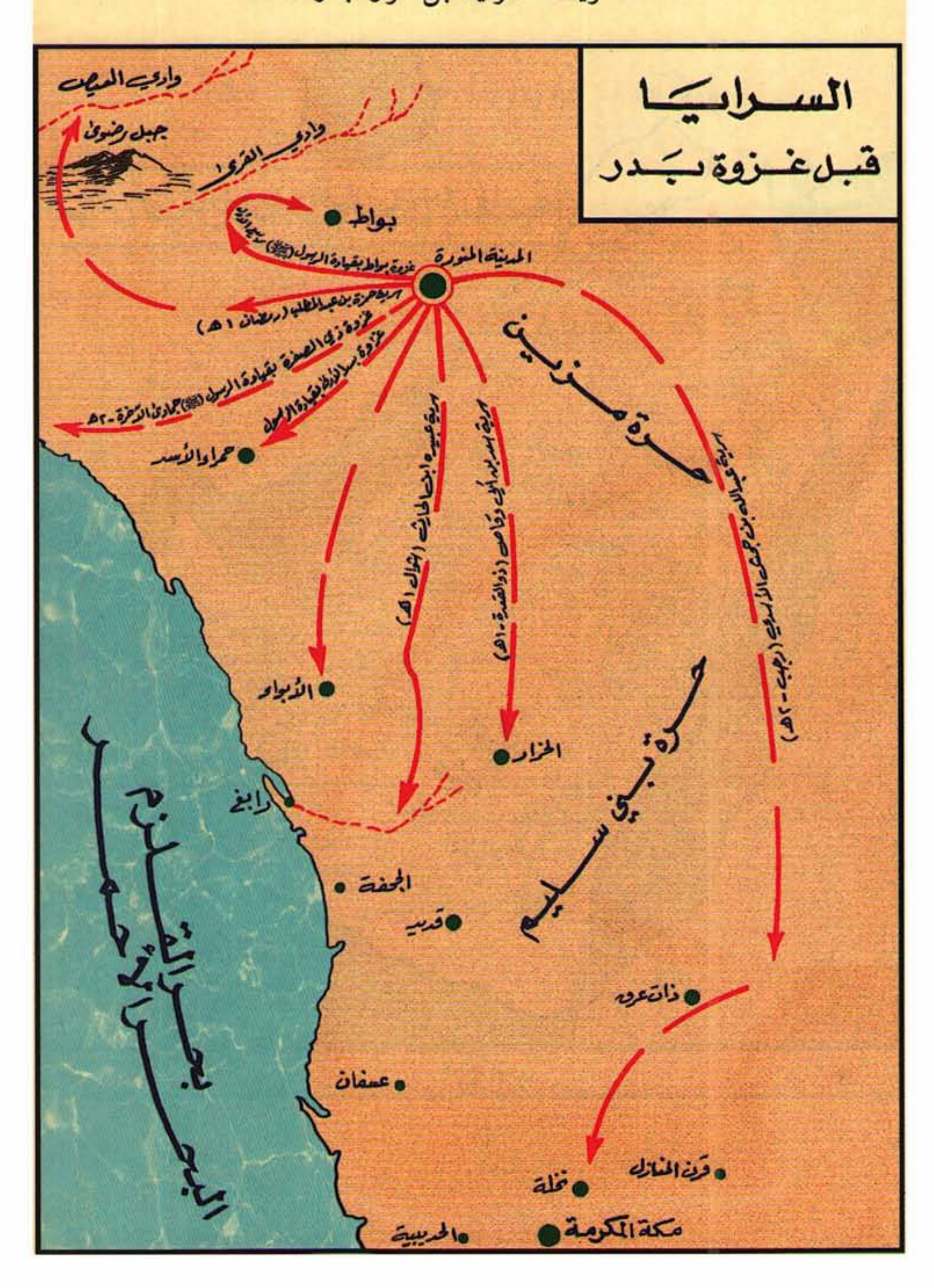
الشكل (١٣)

مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية



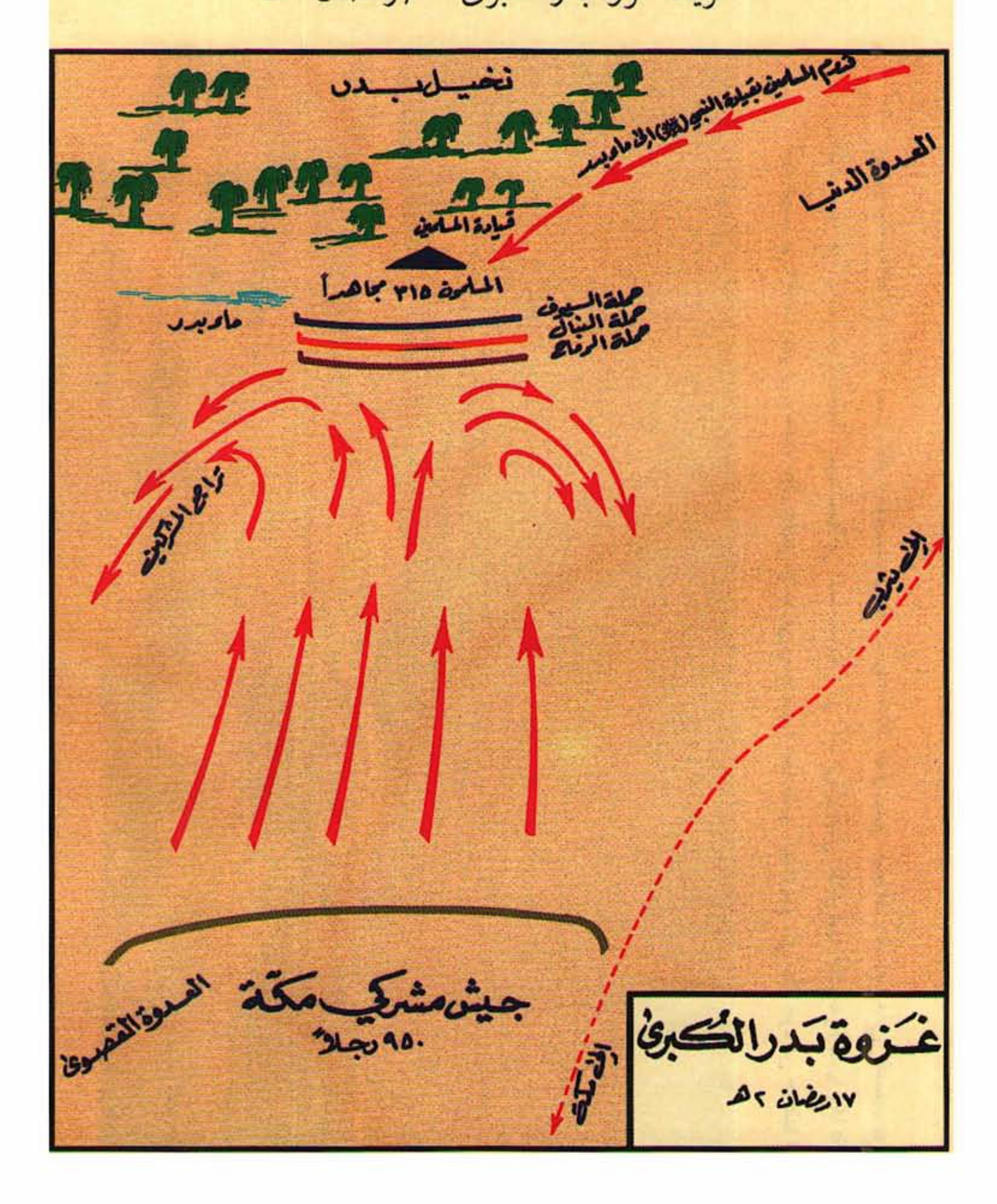
الشكل (١٤)

خريطة السرايا قبل غزوة بدر



الشكل (١٥)

خريطة غزوة بدر الكبرى ١٧/ رمضان ٢هـ



الشكل (١٦)

رسم ساحة القتال في غزوة بدر

رسم ساحة القتال في غزوة بدر الكبرى ويبدو في جوانبها الحائط الذي بني حولها، وتقع العدوة القصوى في جانب اليسار من الرسم في الجهة الجنوبية من الساحة والتي كان نزول جيش الكفار فيها. أما العدوة الدنيا فإنها تقع في نهاية الرسم من الجانب الشرقي وكانت منزل الجيش الإسلامي وتقع بمقربة منها مقابر شهداء بدر التي يبدو جزء من حائطها في الرسم.



دمشق : ص.ب. ٣١١
بيروت : ص.ب. ١١٣/٦٣١٨
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

